تاريخ الحضارة المصرية

المجلد الثاني

العصر اليوناني و الروماني و العصر الإسلامي

تأليف : نخبة من العلماء

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليوناني والروماني
والعصر الإسلامي

المجلد الثاني

ألفه
نخبة من العلماء

أمين الخولي
محمد مصطفى زيادة
إبراهيم نصحي
مراد كامل
حسين مؤنس
جمال الدين الشيال
محمد عبد العزيز مرزوق

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي (الفجالة)

القسم الأول

العصر اليونانى والرومانى

مصر في عصر البطالمة

للدكتور ابراهيم نصحي

الفصل الأول — دولة البطالمة

الفتح المقدوني — قيام دولة البطالمة — الفتح الروماني

حبا الله مصر بوفرة من موارد الخير وأسباب الحياة الكريمة ما جعلها مهد الحضارة والعرفان ، ومسر على الراشدين من حكامها اعلاء شأنها ، ولفت أنظار الطامعين اليها حتى أصبحت قبلة كل دولة تنشد بناء امبراطورية عالمية . فلا عجب انه حين زالت دولة الفرس وقامت على أنقاضها امبراطورية المقدونيين طويت صفحة من تاريخ مصر الطويل وفتحت صفحة جديدة التقت فيها الحضارتان المصرية والاغريقية جنبا الى جنب . فالى أى مدى صدق العلامة ابن خلدون فى قوله ان المغلوب مولع دائما أبدا بالاقتداء بالغالب ؟ سنحاول بقدر ما تسمح لنا المصادر القديمة ، أن نبين الى أى مدى تغيرت أم بقيت على حالها مختلف نواحى الحياة فى مصر على عهد حكامها الجدد .

ورث الاسكندر الأكبر عن أبيه توحيد الاغريق فى عصبة كورانثا بزعامة مقدونيا ومشروع محاربة الفرس ، ذلك العدو المشترك لمقدونيا والاغريق ، لدعم زعامة مقدونيا . ولما كان الفرس يتمتعون بسيادة البحار فان الاسكندر قرر أن يقضى على سيادتهم البحرية بالاستيلاء برا على قواعد الأسطول الفارسي ، ولذلك سرعان ما استولى على شواطىء آسيا الصغرى وفينيقيا ومصر وقدمت له برقة فروض الطاعة .

أولا — الفتح المقدوني

١ — الاسكندر فى مصر :

فتح الاسكندر مصر فى خريف عام ٣٣٢ ، وما كاد يصل الى منف حتى سارع الى تقديم القرابين للآلهة الوطنية ، وتتويج نفسه فى معبد فتاح على نهج الفراعنة القدماء ، لكى يظهر أمام المصريين فى ثوب ملك شرعى خليفة الفراعنة القدماء ، فيضمن اخلاص المصريين وخضوعهم له . لكن الاسكندر لم ينس أيضا أنه يوم خرج من بلاد الاغريق قاصدا فتح الشرق قد أعلن أنه رافع لواء الحضارة الاغريقية ، ولذلك أقام فى منف حفلا اغريقيا : رياضيا وموسيقيا .

وبعد أن فرغ الاسكندر من مهامه فى منف وضع أساس مدينة الاسكندرية ثم حج الى معبد آمون فى واحة سيوة ، فقد كان

ذلك المعبد يتمتع بشهرة عالمية تضارع ما كان لأعظم معابد الوحي عند الاغريق . ويبين ان الاسكندر كان يستهدف من وراء زيارة ذلك المعبد النائي تحقيق ثلاث غايات : أولاها : اثبات صلة نسبه بالآلهة امام الرأي الدولي العام ، فقد كان على وشك بناء امبراطورية واسعة مترامية الأطراف تضم بين جوانبها عناصر شرقية وعناصر غربية ، وكان يرى ان تأليهه أقوى ضمان لسيطرته على هذه الامبراطورية . وقد كانت غايته الثانية من الحج الى معبد الوحي في سيوة الحصول على تأييد الاله آمون لمشروعاته التي كانت ترمي الى بسط سيادته على العالم . أما غايته الثالثة فكانت اشباع ميوله للمخاطرة ورغبته في اقتفاء اثر بطلي الأساطير الاغريقية برسيوس وهرقل اللذين شاع الاعتقاد قديما ان الاسكندر كان ينحدر من سلالتهما وورد في الأساطير انهما تزودا بمشورة آمون سيوة قبل الاقدام على جلائل أعمالهما .

وحين عاد الاسكندر الى منف أقام حفلا اغريقيا لأبيا ووضع نظاما دقيقا لحكم مصر ثم تركها في ربيع عام ٣٣١ في حماية جيش وأسطول مقدونيين ليستأنف منازلة الفرس ، وفي العام نفسه أنزل الاسكندر بدارا ملك الفرس هزيمة فاصلة في موقعة جوجميلا Gaugamela ، ثم أوغل في أواسط آسيا حتى قلب اقليم البنجاب للاستيلاء على ولايات الامبراطورية الفارسية . وحين عاد الى بابل وافته المنية في ١٣ من يونية سنة ٣٢٣ ولما يتم الثالثة والثلاثين من عمره . وبوفاة الاسكندر يبدأ في العالم الاغريقي العصر الذي اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الهيلينستي . ولما كان تاريخ مصر منذ الفتح المقدوني قد أصبح متصلا اتصالا وثيقا بالعالم الاغريقي فان عهد البطالمة ينتمي الى العصر الهيلينستي الذي ينتهي بموقعة اكتيوم في عام ٣١ ق . م ، تلك الموقعة التي بسط الرومان في أعقابها سلطانهم على مصر : آخر مملكة هيلينستية .

مؤتمر بابل

وغداة وفاة الاسكندر اجتمع قواده في بابل ليبحثوا مشكلة حكم الامبراطورية المقدونية التي توفي مؤسسها قبل أن ينظم وراثة العرش وطريقة الحكم فيها ودون أن يترك وصية أو يرشح خلفا له . وبعد خلاف عنيف تم الاتفاق على أنه يرقى العرش شاب معتوه يدعى فيليب ارهيدايوس Arrhidaeus كان أخا غير شقيق للاسكندر ، مع الاعتراف بحق جنين روكسانا Roxane (زوجة الاسكندر الفارسية) اذا كان ذكرا في مشاركة فيليب الملك بمثابة شريك تحت الوصاية . وبهذا الحل أمكن الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية لكنها لم تكن الا وحدة في الشكل فقط اذ انها تمثلت في الفصل بين قواد الاسكندر نتيجة للقرار الذي اتخذه أولئك القواد بتوزيع ولايات الامبراطورية

فيما بينهم ليحكموها بصفة كونهم ولاة من قبل الأسرة المالكة المقدونية . وقد كانت الأطماع التى تعيش فى صدور أغلب هؤلاء القـــواد واضـــحة جلية ، ولذلك فانهم لم يكونوا على استعداد لقبول أوامر الذين كانوا سيحكمون باسم الملكية متى توافرت لديهم القـــوة الكافية لتأييـــد رغبتهم فى الاســـتقلال . وقد كان كذلك بين قرارات مؤتمر بابل : أن يكون برديكاس القائد العام للجيش والمهيمن على شئون الامـــبراطورية ، وأن يكون كراتروس وصيا على الملك المعتوه وكذلك على طفـــل روكسانا عندما يولد ، وحامي شخصيهما وحامل أختام الدولة . لكن المؤتمر لم يقرر لمن تكون الســـيطرة والكلمة النافذة ، البرديكاس أم لكراتروس ، وبذلك أضاف عاملا آخر من عوامل الشقاق .

ثانيا — قيام دولة البطالمة

وقد كانت مصر من نصيب قائد فذ يدعى بطلميوس . فمـــا كانت أهـــداف بطلميوس مؤســـس أسرة البطالمة التى حكمت مصر من عام ٣٢٣ حتى عام ٣٠ ق . م . ؟ وما كانت أهداف خلفائه ؟ لكى نتفهم سياسة البطالمة الداخلية على حقيقتها يجب أن نلقي أولا نظرة عاجلة على سياستهم الخارجية وذلك لأن النظم التى وضعوها لحكم مصر تأثرت الى حد كبير بالدور الذى أرادوا أن يلعبوه فى العالم الاغريقى .

ومن الجـــلى أن سياســـة مصر الخارجية تتكيف عادة بمجمـــــوعتين من العوامـــل : احداهما هى العوامل الطبيعية التى جعلت مصر أولا جزءا من وادى النيل ، بل جعلت حياتها متوقفة على مياه هذا النهر ، وجعلت مصر ثانيا وفيرة الخيرات فى بعض النواحي ، مع فقرها الشديد فى بعض النواحى الاخرى ، وجعلت مصر ثالثا حلقة الاتصال بين افريقيا وآسيا وأوروبا . ويترتب على ذلك أن تسعى مصر الى انشاء صلات خارجية لتصريف ما يفيض على الحاجة من منتجاتها واستيراد ما تفتقر اليه ، وأن يكون لنشاط الســـياسة المصرية ثلاث جبهـــات : احـــداها افريقيـــة والأخــــــرى أســـيوية والثالثة أوربية . ومن الطبيعى أن يتباين اهتمام مصر بكل جبهة تبعا للظروف الدولية المحيطة بها فى كل عصر . وهذه الظروف الدولية هى المجموعة الثانية من العوامل التى تتكيف بها سياسة مصر الخارجية .

وفى ذلك العصر من عهد الفراعنة حين كانت مصر ، أو كادت أن تكون ، المركز الأوحد للحضارة ، كان طبيعيا أن تستنفد الجبهـــة الافريقية نشاط الســـياسة المصرية . وحين قامت الى جانب مصر مراكز للحضارة فى آســـيا ، كان طبيعيا أيضا أن يكون للجبهة الأســـيوية كذلك شأن كبير فى الســـياسة المصرية ، ومن ثم لم تعد الجبهة الافريقية تستأثر باهتمام السياسة المصرية . وعنـــدما أخذت تظهر فى شمال البحر الأبيض المتوسط

مراكز جديدة للحضارة استرعت هذه المراكز فى العالم انتباه مصر ، لكنه لما لم يكن لهذه المراكز الحضارية الأوربية حينذاك شأن يذكر بجانب مراكز الحضارة الشرقية فانه لم يكن للجبهة الأوربية الا حظ يسير من اهتمام مصر قبل العصر الصاوى .

وعلى عهد البطالمة كانت الظروف الدولية المحيطة بمصر قد تغيرت تغيرا محسوسا اذ انه حين كان نجم الحضارات الشرقية قد أفل كانت حضارة الاغريق قد تقدمت الى الأمام فتوالت خاطفة أوصلتها سريعا الى ذروة المجد حتى تضاءلت الى جانبها الحضارات القديمة طرا ، وغدا بحر ايجة أهم مركز للحضارة فى العالم القديم . وقد ازدادت دعائم هذا المركز رسوخا حين أنشأ الاسكندر امبراطوريته وأدخل فى حظيرتها كل مراكز الحضارة القديمة . وعندما توفى الاسكندر فى شرخ الشباب والتهم قواده امبراطوريته كان لذلك نتائج عديدة يعنينا من أمرها ثلاث : احداها أن عرش مصر آل الى أسرة مقدونية الأصل اغريقية الحضارة ؛ والنتيجة الثانية ، نشوب صراع عنيف بين قواد الاسكندر دام أربعين عاما وتمخض آخر الأمر عن قيام ثلاث دول فتية على انقاض الامبراطورية المقدونية : هى دولة البطالمة فى مصر ودولة السليوكيين فى سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا . والنتيجة الثالثة هى احتدام المنافسة بين هذه القوى الثلاث ولا سيما بين البطالمة والسليوكيين .

١ ـ تفكك الامبراطورية المقدونية

ومهما اختلف المؤرخون فى تفسير سياسة البطالمة الخارجية فلا خلاف فى أمرين : أحدهما أن الجبهة الأوربية فى نشاط سياسة مصر الخارجية على عهد البطالمة قد غدت الجبهة الرئيسية ، والأمر الآخر أن البطالمة كانوا يريدون انشاء امبراطورية . وسواء أكان بطلميوس الأول وابنه وخليفته من بعده يريدون انشاء امبراطورية عالمية أم امبراطورية بحرية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد كان يتعين أولا وضع الأساس الذى يقام عليه هذا الصرح ، أى بناء دولة قوية غنية مستقلة فى مصر . ولا ريب فى أن بناء مثل هذه الدولة كان يحتم فصم عرى الامبراطورية المقدونية ومكافحة كل من تحدثه نفسه باحيائها لحساب الأسرة المالكة المقدونية أو لحسابه الخاص . ولذلك فان بطلميوس الأول اشترك فى عدة محالفات كانت أهمها ثلاث : احداها ضد پرديكاس الذى أراد أن يلم شعث الامبراطورية ويوحدها وقرر غزو مصر ليجعل من واليها عظة للولاة الآخرين لكنه فشل أمام خط النيل الحصين ولقى حتفه هناك (عام ٣٢١) . وكانت المحالفتان الأخريان ضد أنتيجونوس Antigonos الذى أصبح بدوره خطرا يتهدد سلامة الولاة الآخرين وانتهى الأمر بالقضاء عليه فى موقعة ايسوس Ipsos عام ٣٠١ ق. م. وبموت أنتيجونوس ماتت معه فكرة احياء الامبراطورية المقدونية ، وكان قد أكد انحلالها واستقلال الولاة كل

منهم بولايته انهم حذوا حذو انتيجونوس ولقبوا أنفسهم ملوكا (عام ٣٠٦ — ٣٠٥ ق . م .) .

ووسط الأطماع الجامحة التي كانت تجيش في صدور خلفاء الاسكندر استشعر بطلميوس الحاجة الى جيش كبير وأسطول قوي ليعزز باستقلال مصر ويحافظ على هذا الاستقلال ويحرز مكانة سامية في السياسة الدولية . ولما كانت تحت امرة منافسي البطالمة جيوش وأساطيل من الطراز الأول ، اذ كانت مؤلفة من خيرة جنود العصر ، وأعني المقدونيين والاغريق ، فقد اعتقد بطلميوس وخلفاؤه الأوائل انه لتحقيق سياستهم الخارجية بل المحافظة على كيان دولتهم ، لابد من أن يكون لهم جيش وأسطول من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم ، ومعنى ذلك ضرورة استخدام الاغريق وأشباههم للخدمة في قوات البطالمة المحاربة . ولما كانت ثروة مصر الطبيعية قاصرة عن الوفاء بحاجات الجيش والأسطول فانه كان يتعين استيراد الأخشاب والمعادن اللازمة من الخارج . وقد كانت الطريقة المثلى لضمان الحصول على هذه الضروريات هي الاستيلاء على بعض الأقاليم القريبة الغنية بالأخشاب والمعادن .

٢ — بناء امبراطورية البطالمة

ولما كانت وفرة المال شرطا أساسيا لبناء الجيوش والأساطيل ، وكانت مصر مع غنى مواردها الطبيعية لا تستطيع مواجهة المطالب الجديدة اذا بقيت شئونها الادارية وحالتها الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتح المقدوني ، فانه لم تكن هناك مندوحة عن اعادة تنظيم شئون الادارة ، والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا ، وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها . وللقيام بهذه الأعمال الانشائية الواسعة كان بطلميوس الأول وخلفاؤه في حاجة الى رءوس أموال والى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفاني في خدمتهم . ومعنى ذلك ان البطالمة الأوائل كانوا يستشعرون الحاجة أولا الى الاغريق لا لبناء جيوشهم وأساطيلهم فحسب ، بل أيضا لاعادة تنظيم شئون البلاد الادارية والاقتصادية ، فقد كانت تتوافر لديهم رءوس الأموال وكذلك الخبرة بأحدث الأساليب الاقتصادية ونظم التجارة السائدة في عالم البحر الأبيض المتوسط . وثانيا الى السيطرة على الطرق البحرية لحماية مصر وتنشيط تجارتها الخارجية . فلا عجب ان اعتبر بطلميوس الأول وخلفاؤه سيادة بحر ايجه عماد كيانهم السياسي ومصدر قوتهم وأساس استقلالهم .

وازاء كل هذه العوامل نرى ان بطلميوس الأول حين كان معنيا بالعمل باستقلاله لم يلبث ان مد نفوذه : (١) استولى على برقة لحماية حدود مصر الغربية ، (٢) استولى على جوف سوريا (فلسطين وفينيقيا وجزء من سوريا) وقبرص وبعض الأقاليم الواقعة على شواطئ

آسيا الصغرى الجنوبية وذلك لحماية حدود مصر الشرقية والحصول على المعادن والأخشاب التي يفتقر اليها وادي النيل ، والسيطرة على بعض منافذ الطرق التجارية الآتية من الشرق الأقصى ، وضمان سيادة مصر في بحر ايجه . و (٣) سبق الدول الحديثة الى الاتجار بالحرية فانه تحت ستار انقاذ عصبة بحر ايجة من ربقة انتيجونوس ، طرد حاميات انتيجونوس من عصبة الجزر ووضع مكانها حاميات بطلمية للذود عن « الحرية الاغريقية » ، ثم سارع الى بلاد البلوبونيز فوضع حاميات بطلمية في سكيون وكورنثا حماية للحرية الاغريقية من أعدائها الظالمين ! ولا شك في أنه لم يهدف من وراء ذلك الا الى الفوز بسيادة بحر ايجة وكسب عطف الاغريق فيسيطر على الطرق التجارية في العالم القديم ويحصل من العالم الاغريقي على ما يحتاج اليه من الرجال ورءوس الأموال .

ويجب أن نلاحظ أن السيطرة على عصبة جزر بحر ايجة كانت لا تكسب البطالمة الا سيطرة جزئية اقتصادية وسياسية على بحر ايجة ، وان استكمال السيطرة على هذا البحر كان يقتضي فرض حماية مصر على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية وكذلك الاستيلاء على موانئ فلسطين وفينيقيا وقد شيد بطلميوس الأول جانبا مهما من هذه الامبراطورية وترك لخلفائه استكمال بنائها لذا أن السياسة التي وضع هو أساسها لم يحد عنها أحد من خلفائه الأوائل .

وهكذا يتضح لنا انه على عهد بطلميوس الأول اتجهت سياسة مصر الخارجية اتجاها جديدا لم يكن لها به عهد من قبل ، فقد غدت الجبهة الأوربية أو ان شئت الجبهة الأوربية الشرقية أو الجبهة الشمالية محور نشاطها الرئيسي . وقد أفضت الظروف الى اتجاه جديد آخر كان نحو آسيا . حقا ان الجبهة الأسيوية كانت منذ أمد بعيد موضع اهتمام مصر لكن آسيا الصغرى لم تكتسب قيلا من الأهمية في هذه الجبهة مثل ما اكتسبته منذ أيام بطلميوس الأول . وفضلا عن ذلك فان الاتجاه الأسيوي لم يكن يوما وثيق الاتصال بالاتجاه الأوربي للسياسة المصرية على النحو الذي نراه منذ بداية عهد البطالمة .

وعندما ارتقى عرش مصر بطلميوس الثاني كانت دولته كبرى دولة في العالم الهيلينستي . وكانت تليها دولة السليوكيين وكانت تشمل ولايات امبراطورية الاسكندر في بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات الشرقية البعيدة وجانبا كبيرا من آسيا الصغرى وسوريا (فيما عدا جوف سوريا) . وكانت الدولة الثالثة هي مقدونيا وكانت تسيطر على بعض المدن الاغريقية في شبه جزيرة البلقان . وقد عنى بطلميوس الثاني أولا بضم حدود مصر الغربية ، وثانيا بارسال حملة تأديبية الى قبائل النبط في البتراء ، واخضاع الأدوميين والبحر الميت وشرق

الأردن . وذلك لضمان الحصول على التجارة الشرقية القادمة بطريق البحر الأحمر وبلاد العرب . ويتصل بالهدف نفسه اهتمامه بالطرق التي تربط وادي النيل بالبحر الأحمر . وثالثا وطد حدود مصر الجنوبية واهتم بطرق أعالي النيل . ورابعا دعم سلطان مصر في جنوب سوريا . وخامسا استرد ممتلكات مصر على شاطىء آسيا الصغرى الجنوبي التي كان أبوه قد فقدها في عام ٣٠٦ وأضاف اليها ممتلكات جديدة هناك ، وعلى شاطىء آسيا الصغرى الغربي. وسادسا بسط نفوذه على كريت وثبت سلطانه على عصبة جزر بحر ايجة .

وهكذا يبين أن الاتجاهين الجديدين اللذين ظهرا في أفق السياسة المصرية على عهد بطلميوس الأول قد استمرا مسيطرين على هذه السياسة في عهد بطلميوس الثاني أيضا . بل لعل سيطرتهما قد ازدادت قدرا ما في عهد بطلميوس الثاني على نحو ما يتضح من اتساع نطاق فتوحه في بحر ايجة وعلى شواطىء آسيا الصغرى . لكن لعهد بطلميوس الثاني ميزة خاصة ، ففي عهده بدء اتجاه

رأس تمثال من المرمر لبطليموس الثالث .

رأس من المرمر يظن أنها تصور برينيكي الثانية زوجة بطليموس الثالث .

جديد كل الجدة في سياسة مصر الخارجية. ويكفي لذلك أن مصر في عهد هذا الملك كانت أول دولة هلينستية أنشأت علاقات سياسية مع روما، ففي عام ٢٧٣ ق.م. أرسل بطلميوس الثاني بعثة إلى روما نجحت في عقد اتفاق بين الدولتين. ويبدو أن هذا العمل كان جزءاً من سياسة عامة انتهجها بطلميوس الثاني مع الدول الغربية، إذ تنهض الأدلة على وجود علاقات قوية حوالي ذلك الوقت بين مصر وسيراكوز أعظم دولة في صقلية وكذلك بين مصر وقرطجنة. ومن المحتمل أن الدوافع التي حدت ببطلميوس الثاني سياسته الغربية كانت دوافع اقتصادية قبل كل شيء لأن الأسواق الغربية كانت [illegible]

إن سياسة الخارجية التي وضع بطلميوس الأول أسسها وسار بطلميوس الثاني على هديها أصبحت سياسة تقليدية لدى ملوك البطالمة الأوائل. وآية ذلك أن بطلميوس الثالث أيضاً لم يكد يرتقي العرش حتى وضع نصب عينيه تحقيق هذه الأهداف نفسها والوصول بها إلى نتيجتها المنطقية فهو لم يستعد فقط ممتلكات التي فقدتها مصر أيام أبيه على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية بل أضاف إليها أملاكاً أخرى على تلك الشواطئ، وكذلك على شاطئ الدردنيل وفي غاليبولي وتراقيا. أما الحملة التي قام بها بطلميوس الثالث حتى سلوكيا على نهر الدجلة في مستهل حكمه عندما توفي انطيوخوس الثاني ملك سوريا ونشب خلاف عنيف بين زوجته الأولى لاوديكي وزوجته الثانية برنيكي شقيقة ملك مصر — فإنها لم تكن إلا لمجرد نصرة أخته والدفاع عن حقوق ابنها فهو لم يحاول عندئذ الاحتفاظ بالفتوحات التي حققها في هذه الحملة كما أنه لم يحاول فيما بعد استغلال الأزمات التي هددت أوصال امبراطورية السلوقيين لتوسيع رقعة امبراطوريته داخل آسيا، مع أن الفرصة كانت مواتية له إذ ذاك لاقتطاع ما يشاء من الولايات الشرقية في تلك الامبراطورية. ولا جدال في أن امبراطورية البطالمة قد وصلت في عهد بطلميوس الثالث إلى أقصى اتساعها ولا شك في أن هذه الامبراطورية كانت امبراطورية بحرية. أما فكرة تكوين امبراطورية قارية فإنها كانت بعيدة عن أذهان البطالمة لأنه حتى إذا كان من الميسور تحقيقها فإنه لم يكن من الميسور المحافظة عليها. وجملة القول أن بطلميوس الثالث اقتفى بدقة خطوات أبيه في اتجاهات السياسة الخارجية نحو الشمال والشرق والغرب.

٣ — بداية النهاية

وعندما ارتقى بطلميوس الرابع عرش مصر في [illegible] الحاسمة، [illegible] بطلميوس الثالث أن المرحلة قد [illegible] مصر [illegible]

لتحقيق ذلك بدأ بطلميوس عدته ومعاونوه وهب للدفاع عن امبراطوريته ومن حسن ذلك أعاد تنظيم الجيش وأدمج [illegible] في جيشه عدداً كبيراً من المصريين دربهم وسلحهم وفقا لأصول فنون الحرب الحديثة فكان لهم الفضل الأكبر في الانتصار في موقعة رفح في عام ٢١٧ ق . م . ولما كان جيش أنطيوخوس يتكون من الاغريق والمقدونيين الذين كانوا يعتبرون سادة فنون القتال في ذلك العصر ، فان النصر الذي أحرزه المصريون في هذه المعركة ينهض دليلا على أن الجندي المصري لا ينقصه الا التدريب والسلاح لاثبات كفايته في ميدان القتال ، أعاد الى المصريين الثقة بأنفسهم وحفزهم على القيام في وجه حكامهم الطغاة الذين أوسعوهم ظلما وارهاقا

ويتضح مما أسلفناه انه كان للسياسة الخارجية التي اتبعها البطالمة الثلاثة الأوائل هدفان رئيسيان وهما استقلال مصر استقلالا تاما سياسيا واقتصاديا ، والتمتع بأكبر قسط من السيطرة على عالم بحر ايجة وقد نجح أولئك البطالمة والى حد بعيد في تحقيق هذين الهدفين ، وكان لسياستهم الخارجية أول الأمر جبهتان رئيسيتان احداهما في الشمال والأخرى في الشرق ثم أصبحت لها جبهة ثالثة في الغرب . أما منذ عهد بطلميوس الرابع فان مصر لم تحاول الا تحقيق الهدف الأول ، اذ أنها اضطرت تدريجا الى عدم تحقيق الهدف الثاني حتى [illegible] ثلاث [illegible] وهو [illegible] وضعف [illegible] الناس [illegible] الضعف الكامن في البطالمة الأواخر وفي رجالهم الذين [illegible] مقاليد الحكم ، وراء الثورات المصرية العصيبة التي كانت تكاد لا تنقطع منذ عودة المصريين منتصرين من معركة رفح ، واحتدام النزاع والخلافات العنيفة بين أفراد أسرة البطالمة منذ عهد بطلميوس السادس

فلا عجب أن [illegible] المؤرخون على اعتبار موقعة رفح حدا فاصلا بين العهد الذي بلغت فيه دولة البطالمة أقصى اتساعها وأوج مجدها ، والعهد الذي أخذت فيه عوامل الضعف والاضمحلال تدب اليها حتى فقدت هيبتها وذهب سلطانها وفقدت أملاكها في الخارج وتزعزع سلطانها في الداخل ، وأصبحت تنوبها الغزوات والثورات الى أن انتهى بها الأمر الى أن فقدت حريتها واستقلالها

زوال امبراطورية البطالمة

وقد أثار محاولات مصر لكسب أنطيوخوس الثالث على لم شمل امبراطوريته والوسيع رقعتها ، [illegible] مصر على القرب من مقدونيا وروما لكن اضطرابات مصر الداخلية وضعف عزيمة حكامها وفساد [illegible] شجعت أصحاب المطامع وأعداءها منهم وحلفاءها ، فان فيليب الخامس ملك مقدونيا و[illegible] مصر [illegible] مع [illegible] الحدود

أنطيوخوس الثالث على اقتسام ممتلكاتها الخارجية . وهكذا سرعان ما فقدت مصر ممتلكاتها الخارجية ولم يبق لها منها سوى قبرص وبرقة . وقد أنزلت روما العقاب بفيليب وأنطيوخوس ، فإنها ما كادت تخرج في عام ٢٠٢ ق. م. منتصرة من صراعها مع قرطاجة حتى اشتبكت مع فيليب ثم مع أنطيوخوس وهزمتهما ، الأول في عام ١٩٧ والثاني في عام ١٨٩ ، وذلك بحجة الدفاع عن حرية الإغريق وأملاك بطلميوس المسلوبة.

٤ — وقد مهدت الأحداث السبيل أمام روما لبسط سلطانها الفعلي على مصر وإن احتفظت مصر باستقلالها الاسمي . ويرجع تحسن النفوذ الروماني في مصر إلى عاملين : أحدهما الأخطار الخارجية التي تهددت بها مصر ولا سيما من ناحية السلوقيين فإنه ما كادت تتخلص من مخاطر أنطيوخوس الثالث حتى أقدم أنطيوخوس الرابع على الاستيلاء على قبرص وغزو مصر نفسها مرتين ولم يتخلص من براثنه إلا بتدخل روما التي أرغمته على الانسحاب من مصر ورد قبرص إليها . والعامل الآخر هو استحكام النزاع بين بطلميوس السادس وأخيه الأصغر بطلميوس السابع وتحكيمهما روما فيصلا وحكما في هذا النزاع الدموي الذي استغلته روما إلى أقصى حد لتحقيق أغراضها . وبرغم هذه الأحداث الداخلية المؤسفة وكانوس

الصمود . وما لبثت أن تنفست ، كانت مصر لم تنس حرب سوريا وحاولت مرارا استغلال الاضطرابات التي كانت تقطع أوصال الإمبراطورية السلوقية لاستعادة ذلك الجزء الهام من ممتلكاتها السابقة ، لكنها باءت بالفشل . ولم تلبث أن فقدت أيضا برقة ، إذ أن بطلميوس الثامن أيورجيتيس الثاني كان قد ترك عنها لابنه غير الشرعي بطلميوس أبيون وهذا أورثها روما في عام ٩٦ ق. م.

٥ — صحوة الموت

وحين بدا مستقبل أسرة البطالمة مظلما في أواخر سني القلاقل كما رأينا من تشتت أسرة السلوقيين ، شاء القدر أن تشرق شمس البطالمة من جديد إشراقا يخطف الأبصار قبل أن تغيب إلى الأبد ، بيان ذلك أن يرتقي عرش مصر عندئذ فتاة موهوبة تمكنت من استخدام قوة روما لتحقيق أغراضها حتى كادت أن تجعل من ورثة تلك إمبراطورية عالمية . لقد سحرت كليوبترة أولا يوليوس قيصر إلى حد أنه أصبح من المؤكد أنه عندما يتم نصبه ملكا على روما سيعلن زواجه منها رسميا لتشاركه سلطانه الواسع . لكن بيد أن بروتوس لم يلبثوا أن أجهزوا على آمال كليوبترة عندما أجهزوا على قيصر في عام ٤٤ ق. م.

ومع ذلك لم تلبث كليوبترة أن وقعت في شباك مارك أنطونيوس حتى أصبح الحاكم الفعلي في النصف الشرقي من

الامبراطورية الرومانية . وقد وضع أنطونيوس نفسه وكل ما ملك تحت تصرف كليوبترة ، فانه تزوجها ووهب لها ولأولادها كل الولايات ... في ... وما لبث أن قامت كليوبترة بالنصف الشرقي في العالم الروماني فيما ذهب أنطونيوس يحارب أوكتافيوس من أجل الفوز بالنصف الغربي أيضا وحكم العالم الروماني بأجمعه . وهكذا بدت كليوبترة بعد عشر سنين من تبديد أحلامها بمقتل قيصر أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح امبراطورة العالم . لكنه لم يكتب لمصر بها أن تحقق أحلامها فقد بدد أوكتافيوس تلك الأحلام بانتصاره في موقعة أكتيوم (عام ٣١ ق. م.) ودخوله الاسكندرية في العام التالي وضمه مصر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية .

ولابد من أن يستوقف النظر فيما قدمناه أن البطالمة لم يوسعوا رقعة الجنوبية من فتوحاتهم عند ... ولايات الفراعنة منذ أقدم العصور . وقد كان ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة للبطالمة الأوائل الذين أكتنفهم المخاطر من كل جانب حتى ثبتت مركزهم . فكيف نفسر ذلك بالنسبة لسلالة الفاتحين ملوك الأسرة الأوائل ؟ لقيت ... رغبة البطالمة الأوائل ... توجيه ... نحو تكوين امبراطورية بحرية حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية مدفوعين في ذلك بعدة عوامل أهمها ظروف النضال مع خلفاء الاسكندر الأكبر على اقتسام الامبراطورية المقدونية ، وطبيعة ... وما بينهم وبين الاغريق من الوشائج حتى ... اعتمادهم على الاغريق في ... ادارة شئونهم ، وتقديرهم ان امبراطورية تتألف من أقاليم تمت بصلة الى الحضارة الاغريقية وتقع بالقرب من مراكز هذه الحضارة تكون أبقى على الدهر وأجدى عليهم وخير معين لهم في تحقيق ما كانوا يهدفون اليه من لعب الدور الأول في سياسة البحر الأبيض المتوسط الدولية .

ولا ريب في أن ... مكانتهم الدولية — في ... تعتبر فيه الحضارة الاغريقية أرفع الحضارات طرا — كانت تتوقف الى حد كبير على ظهورهم في ثوب راعي لواء الحضارة الاغريقية بجميع معانيه وبمظاهره من هذه الحضارة عصر دولتهم . واذا تصورنا ان ذلك كان أمرا ميسورا فيما يخص مصر فيبدو أنهم اعتقدوا أنه كان ضربا من المحال فيما يخص كل وادي النيل ... ليس للبطالمة أن يكونوا قد ... الى تحقيق وحدة وادي النيل كان من الممكن أن يحمل في طياته خطرا داهما عليهم باعتبارهم ملوكا اغريقا أخرجوا من أجل تمكينهم بناء دولة قومية وذلك لأن وحدة الوادي بما تنطوي عليه من احياء سيرة الفراعنة العظام ومجد وادي النيل القديم قد تفضي الى ... وادي النيل من جديد ، ... في ... بلادها القديمة ... الحضارة الاغريقية ولا شك أن ...

وطنى عرش وادى النيل ومن ثم عمل البطالمة بوجه عام كمعوا لمحافظة على سلامة حدود مصر الجنوبية وعقد أواصر الصداقة مع جنوب الوادى والاهتمام بتجارة الجنوب والشرق .

ونستنتج اذن من كل ما مر بنا انه ازاء الظروف التى اكتنفت البطالمة اتخذت سياستهم الخارجية وجهات جديدة صوب الشمال والشرق والغرب ، فقد حدروا به كان يمكنهم الاستيلاء على وحدة وادى النيل باسرائطوريتهم البحرية وبالعلاقات التجارية التى انشأوها مع الغرب وكذلك مع الجنوب والشرق لكى يبين ان التوفيق قد أخطأهم

فى هذا التصدير ومن ناحية كلفهم بناء هذه الامبراطورية جهود مضنية وأموالا طائلة ودفعهم الى ممالأة الاغريق على حساب المصريين واستنزاف موارد البلاد وسيادة عدد الكثيرين عليهم

ومن ناحية اخرى عندما اشتد ساعد منافسيهم وأخذت روما تتسع باطراد فى شرق البحر المتوسط فقد البطالمة امبراطوريتهم البحرية ولم يجدوا فى داخل دولتهم عضدا كافيا حتى للاحتفاظ بملكهم من العدوان الخارجى وهكذا استنفد البطالمة قوتهم وأضاعوا ثروتهم فالتهمت روما دولتهم

الفصل الثانى — إدارة الحكم

السلطة المركزية — مصادر الإقليمية — السلطة المحلية — موارد الدولة

أولا — السلطة المركزية

١ — الملك

منذ عصر بطليموس الأول على برديكاس غير بطالمة مصر خضعة آلت إليهم بحق الفتح ، لكي لكي يكون سلطانهم د سبب وسيادتهم رسمية سيعتبر معتقدات بديهيه سالفة بين رعاياهم وتصبو نفسهم آلهة لهم ، وبذلك أصبح سلطانهم لا يستند إلى حق الفتح فحسب بل أيضا إلى حق ملوك الالهى فلا عجب أن نلمس بطليموس كان يعتبر صاحب مصر وسيد رعيته المطلق فقد كان على رأس الأداة الحكومية ورئيس القضاء والقائد الأعلى للجيش والأسطول ومصدر القوانين التي يخضع لها جميع سكان البلاد والدساتير التي تعيش في كنفها المدن الاغريقية وكذلك الجاليات الأجنبية التي تكون خارج تلك المدن

٢ — الوزراء

ولما كان يتعذر على الملك أن يباشر بنفسه كل السلطات التي يتمتع بها فإنه كان يعتمد على مساعدة عدد من المستشارين الكبار وكان للملك يختار عدد مساعديه يسمى من بطانته التي تكون أفرادها على معنى الرمز فلاطا ينقسم طبقات يميز كل منها عن الآخر ألقاب تعريفه ولما كان أول هم سلطان هو أن لفيض هذه صبغة بالرتب ، فقد كان وزير المالية أخطر مساعدي الملك شأنا وأوسعهم نفوذا حتى إنه كان يكاد يسيطر سيطرة تامة على كل نواحي الحياة العامة في البلاد وكان هذا الوزير الخطير يدعى ديويكيتيس Dioiketes وهو لقب يحمل معنى « مدير الضيعة » وبذلك يجدد المعنى دلالته وضعه على أن البطالمة كانوا يعتبرون مصر ضيعتهم الخاصة

ويحمل ثلث مقدار الخيرات من صبغة كان يجب أن يولي اهتمامه لتصريف العدالة حتى يستتب الأمن وينصرف الناس إلى مزاولة أعمالهم ، ولذلك كان موظف كبير يدعى أرخيديكاستس Archidicastes ، ومعناه كبير القضاة يعتبر ساعده الثاني للملك

وعلى عهد البطالمة الأول على الذين وجهوا عناية كبيرة إلى النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها على نحو لم يسبق له مثيل كان يوجد وزير للأشغال Architecton

كانت مهمته تحسين نظم الري وصيانة وسائله ويرجح أنه كان يوجد كذلك وزير مختص يقوم بالإشراف على تحصيل الضرائب وجمع مرتبات الجنود ومنح الإقطاعات .

ولما كان الملك مصدر جميع السلطات والمرجع الأول والأخير في تنفيذ القوانين ، [...] سلطات مركزية ومحلية [...] وبه شخص كان يتوجه إليه بالشكاوى والالتماسات ومنه شخص كان يصدر [...] من الأوامر ، فقد كانت له سكرتيرية خاصة كانت تنقسم قسمين يختص أحدهما بشئون مراسلات الملك ، ويختص القسم الآخر بالأوامر وفيه يظل أيضا بالتوقيع على الشكاوى المرفوعة إلى الملك .

وبطبيعة الحال كان [...] الملك وسكرتيريته ووزرائه [...] شئون حكم وضعت له نظم دقيقة معقدة في بلاد عريقة متحضرة دون الاستعانة بهيئة كبيرة من موظفين مدربين . ويعتبر من أهم أسباب نجاحهم في إنشاء هذه الأداة الحكومية [...] في بلد أجنبي [...] لم تتوافر فيهم المؤهلات اللازمة لمثل هذا العمل . ولا شك في أن هذه الأداة الحكومية كانت إلى حد [...] الماضي لكنها [...] في مجموعها أداة [...] وتتألف رؤساؤها ومديرو مصالحها المختلفة [...] من الإغريق ثم [...] مناصبهم للاضطلاع بمثل هذه الأعباء معقدة . وإذا كان البطالمة قد خالفوا هذه الأداة الحكومية على عهد البطالمة الأوائل فإنها [...] في النصف الثاني من عصر البطالمة وأصبحت كل همها [...] الأهالي وابتزاز أموالهم . غير أن مرد ذلك [...] عيوب في تصميم الأداة الحكومية ذاتها وإنما إلى الظروف التي كانت تعمل فيها والأهداف التي وجهت إليها .

ثانيا — المدن الإغريقية

وقد كانت في مصر البطلمية ثلاث مدن إغريقية ، وهي الإسكندرية ونقراطيس وبطوليميس . [...] في مملكة يحكمها ملك مستبد مطلق السلطة ، ووسط مدن مصرية تخضع لهذا الملك وموظفيه خضوعا تاما وليس لها أي رأي في حكم نفسها ، فإن المدن الإغريقية [...] تشارك المدن المصرية في خضوعها للملك وذلك [...] لأنه لم يكن [...] الآلهة [...] وفقدت بعد ذلك سيادتها ، فإنها لم تفقد حق إدارة شئونها بنفسها ، أو بعبارة أخرى حق تمتعها باستقلال ذاتي يحمي مواطنيها من حكم [...]

وقد كان هذا الاستقلال الذاتي [...] أن [...] الإغريق [...] مدينة مصرية [...] المواطن الإغريقي عن المواطن المصري [...] الإغريقي [...] في مدينة [...] في حكم الجماعة [...] المصري [...] من المشرفين [...] كانوا

لا يحسون الا في مصر لأنه مهما كان اتساع نفوذهم ومهما كانت هذه المدن ... فان المدن الاغريقية فانها لم تتمتع بأى نوع من أنواع الاستقلال ولم تكن تخضع لأى حاكم مؤيد من قبل السلطة المركزية. واذا كان انشاء المدن الاغريقية في مصر لم يؤد الى أى تأثير في نظم المدن المصرية فان نظم هذه المدن الاغريقية كذلك لم تتأثر نتيجة لوجودها الى جانب المدن المصرية. واذا قلنا ان مدن مصر الاغريقية لم تكن دولا ذات سيادة فانه يمكن الرد بأن ذلك لم يكن خاصة تنفرد بها مدن مصر الاغريقية فقد كان أيضا شأن كافة المدن الاغريقية التي قامت في الممالك التي نشأت على أنقاض الامبراطورية المقدونية.

وقد كان انشاء المدن الاغريقية في مصر أمرا ضروريا، لأن الاغريق يؤمنون بالفكرة القائلة بأن المدينة هي البيئة الأساسية لحياتهم العامة، والنظام الطبيعي الوحيد الذي يستطيع أن يعيش في كنفه الرجال الأحرار، لأن نظم المدينة الحرة كانت تكفل لمواطنيها حرية القول والرأى والعمل وتتيح لهم المشاركة في ادارة دفة شئونها وتوفر لهم من أسباب الحياة ما هو خليق بانسان يحترم نفسه وجدير بالاستمتاع بحياته. فلا عجب ان كان الاغريق ينشئون مدينة لأنفسهم حيثما وجدوا في مكان والعدد مستقر ذلك بهم.

٢ ـ الاسكندرية

وهي أول مدينة نعرف عن يقين ان الاسكندر قد أنشأها في خلال حملته. ولعل الاسكندر لم يكن قد توخى من وراء انشاء الاسكندرية ثلاثة أهداف: أحدها انشاء مدينة اغريقية تكون مصدرا لاشعاع الحضارة الاغريقية بين ربوع مصر، وثانيها أن تخلف هذه المدينة صور في العالم التجاري ولا سيما ان مصر برغم ازدياد علاقاتها مع العالم الاغريقي ازديادا مطردا لم يكن لها على شواطيء البحر الابيض المتوسط ميناء جدير بها، وثالثها اقامة قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر ايجه وشرق البحر الأبيض المتوسط.

وقد جعل بطلميوس الأول مقره في منف في أول الأمر، وبعد انتصاره في عام ٣١٢ على ديمتريوس الذي قدر له حمى الدفاع عن سواحل مصر الشمالية، وعندئذ نقل مقره الى الاسكندرية التي أصبحت منذ ذلك الوقت مقر البلاط وعاصمة مصر. وسرعان ما غدت الاسكندرية أكبر مدينة اغريقية في العالم تعود في أنها أكبر المدن الاغريقية القديمة، وغدت كذلك في مقدمة مواطن الحضارة الاغريقية وظلت محتفظة بمكان الصدارة طوال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد الى حد أن حضارة هذين القرنين عرفت باسم الحضارة الاسكندرية. واذا كان ما كشفت الحفريات عنه لا يمكن من تصور حقيقة ما كانت عليه هذه المدينة في عصرها الزاهر، لأن أكثر معالم مدينة

القديمة لا تزال مغمورة تحت مياه الميناء الحديثة فانه نستطيع أن نبني مما كتبه معاصرو القرن الثالث منهم كونو صورة عن عظم المدينة في العالم حيث تتوافر كل نعم الحياة ومتعتها. ويكفي أن نستشهد بما أورده هيروداس Herodas على لسان امرأة عجوز تتحدث الى شابة رحل عنها زوجها الى الاسكندرية وقضت عشرة شهور منذ سافر مندريس Mandris الى مصر لكنه لم يرسل اليها كلمة واحدة ولا شك في أنه قد نسيك واستمتع من سبيع مرور على مصر (يقصد الاسكندرية) هناك حيث يوجد بيت الالهة (ارسينوى) وكل شيء يمكن وجوده في أي مكان آخر. ثراء وملاعب ومجد وراحة وعظمة ومناهج وفلاسفة وذهب وشبان ومعبد كريم وداور بطلمي وخمر وكل الاشياء الطيبة التي يمكن أن تتوق اليها النفس، ونساء يفقن في عددهن ويتفوقن في جمالهن الالهات اللاتي احتكمن الى باريس».

ويبدو أن الاسكندر قد حسن اختيار المكان الذي شيدت فيه الاسكندرية لبعده عن رواسب فرع النيل الكانوبي وسهولة وصول مياه الشرب اليه وقرب بحيرة مريوط وجزيرة فاروس منه. فقد كانت الجزيرة تصلح بأن تكون حصنا منيعا يحميها فضلا عن أن وجودها على هذا الساحل يجعل الكماة تحتمي بها من الرياح والعواصف، كما أنه يمكن ربطها بالبر بجسر يصل الجزيرة الى الشاطىء فيصبح للمدينة مرفآن على البحر هما الميناء الشرقي والميناء الغربي. ومن ثم يمكن استخدام أحدهما أو كليهما حسب اتجاه الريح.

وقد وضع تخطيط الاسكندرية المهندس الرودسي دينوكراتس وفقا لأحدث القواعد في تخطيط المدن. وكانت المدينة مستطيلة الشكل يحد جانباها الطويلان في محاذاة البحر من ناحية وبحيرة مريوط من ناحية أخرى. وكانت تشق المدينة شوارع تتقاطع عموديا مع بعضها البعض بزوايا قائمة، أهم الشارعين الرئيسيين فيها، وكان أحدهما يمتد من باب كانوب أو من الشرق الى باب الغرب أو الغربي، أما الآخر فكان يجري من باب الشمس عند بحيرة مريوط في الجنوب الشرقي الى باب القمر شرقي جسر الهبتاستاديوم الذي كان يصل بجزيرة فاروس بالبر.

وقد كانت المدينة تتألف من خمسة أحياء أطلق على كل منها اسم حرف من حروف الهجاء الاغريقية الخمسة الأولى. وكان أهم هذه الأحياء جميعا هو حي القصور الملكية وكان يشغل ربع مساحة المدينة أو ثلثها تقريبا ويطل على الميناء الكبير ويمتد حتى شارع كانوب ويحتوي أهم معالم العاصمة، فقد كانت توجد فيه القصور الملكية ودار العلم (الموسيون) والمكتبة ومقبرة الاسكندر الأكبر والبطالمة أي مقابر

سوق الحصى وساحة الألعاب فاتضح أنّ ثانيا جبانات في أطراف المدينة وبعضها في الناحية الشرقية وثانيهما في الناحية الجنوبية الغربية ، في حي الكوم [illegible] أمام عمود السواري .

وقد عثر على بقايا من القصور الملكية وعلى صخرة شرقي جزيرة فاروس شيدت منارة الإسكندرية المشهورة التي كانت إحدى عجائب العالم القديم . ورغم اندثار معالم هذا البناء المدمج منذ عدة قرون فإن بعض نتائج الأبحاث الحديثة تستطيع أن تكون فكرة تكاد أن تكون تامة عن هذه المنارة . ولقد كان يربط الجزيرة بصخرة المنارة جسر مائل يرتفع رويدا رويدا ويقوم على ستة عشر قوسا ويبلغ طوله ٦٨ مترا تقريبا وشيد حول القسم الأول من المنارة ، لحمايته من طغيان البحر ، سور ضخم يبدو أنه كان يحيط بكل جوانبه من الخارج الفريز لا يشرف عليه . وفي الوسط داخل هذا السور أقيمت المنارة نفسها ، وكانت تتألف من ثلاثة أقسام يعلوها المصباح . وكان القسم الأول رباعي والثاني ثماني والثالث اسطواني الشكل . أما المصباح فإنه كان يتكون من ثمانية أعمدة تعلوها قبة أقيم عليها تمثال يبلغ ارتفاعه [illegible] أمتار تقريبا ، يرجح أنه كان تمثال بوسيدون إله البحار . ولقد بنيت المنارة من الحجر وزخرفت بنقوش منحوتة من المرمر والبرونز .

وإذا كان كليومنس النقراطيسي هو أول من بدأ في تشييد الإسكندرية فإنه كان لبطلميوس الأول والثاني أكبر نصيب في ذلك حتى يبدو أنه في عهد بطلميوس الثاني كانت المدينة قد استكملت أهم مظاهرها التي اشتهرت بها في عصر البطالمة والرومان . ومع ذلك فإن كل بطالمة تقريبا قد أسهموا في تجميل الإسكندرية .

ولم يتألف سكان الإسكندرية منذ فجر تاريخها من الإغريق والمصريين فقط ، إلا أن هذه المدينة بما توافر فيها من أسباب الكسب والحياة البهيجة الرغدة بوصفها عاصمة البطالمة ولثغر مهم ومركز صناعي كبير جذبت إليها الناس من كل فج وغدا سكانها مزيجا عجيبا من مختلف الأمم مما جعل [illegible] يصفها بأنها « [illegible] » . وإذا كان من العسير تتبع ما مر بسكان الإسكندرية من تطورات فإنه يمكن الجزم منذ الأول بأمرين أحدهما أنهم كانوا مجموعة جاليات من أجناس مختلفة يستمتع بعضها بقدر من الاستقلال الذاتي . ولعل هذا هو ما حدا بالفيلسوف [illegible] إلى القول بأن الإسكندرية « [illegible] داخل مدينة واحدة » ، والأمر الآخر أنهم كانوا ينقسمون دائما طبقات تأتي في مقدمتها طبقة المواطنين ، وكانت تتألف من أفراد أقدم الأسر الإغريقية وأعظمها شأنا ، وكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة . ومثل ما كانت الحال في أكثر المدن الإغريقية كان المواطنون ينقسمون قبائل وأحياء ووحدات

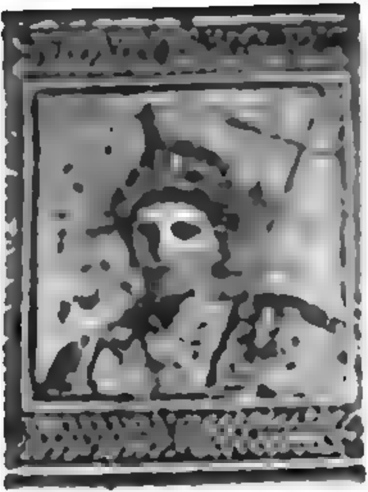

والرأي السائد اليوم أنه في عهد البطالمة الأوائل كان بصفة مواطنيها مجلس للشورى Boule وجمعية شعبية، لكن يبدو أنه في عهد خلفاء البطالمة الأوائل فقدت هاتان المؤسستان اللتان كانتا تعتبران من أهم مظاهر الحياة العامة في المدن الإغريقية. ولما كانت الإسكندرية تتمتع باستقلال ذاتي وكان الاستقلال السياسي يستتبع حتما وجود استقلال قضائي، فقد كانت للإسكندرية محاكم مستقلة. وبوصف الإسكندرية مدينة مستقلة كان لها حكامها المحليون الذين ينتخبهم أفراد طبقة المواطنين.

٢ ـ نقراطيس

أما نقراطيس، تلك المدينة الإغريقية القديمة التي تأسست في عهد بسماتيك الأول، فإنها كانت شديدة الشبه في مظهرها الخارجي بأي بلد مصري، فقد كانت تتألف من بيوت مبنية من اللبن على جوانب شبكة معقدة من الشوارع والأزقة. لكن نقراطيس مثل الإسكندرية وبطوليميس كانت تختلف عن المدن المصرية اختلافا بينا من الناحية السياسية، إذ أن مدن مصر الإغريقية لم تخضع للسلطة المحلية، وإن لكل مدينة منها كيانها [illegible] ودستورها الذي يكفل لمواطنيها حقوقا سياسية تمكنهم من الاشتراك في حكم مدينتهم وتحد من استبداد السلطة المركزية [illegible] في عصر البطالمة [illegible] بوصفها مدينة تتمتع بحرية، ويسود الاعتقاد بأن دستورها كان يشبه دستور مدينة Massalia ودستور هذه المدينة أرستقراطي. وقد كان [illegible]

[illegible] أهمية نقراطيس التجارية بتأسيس الإسكندرية، لكن مخلفاتها الأثرية تدل على أنها كانت لا تزال مزدهرة في عصر البطالمة الذي احتفظت فيه كذلك بالمذاهب الإغريقية وأنجبت عددا من أبرز رجال الأدب الإغريقي.

٣ ـ بطوليميس

أما بطوليميس التي أنشأها بطليموس الأول غربي النيل في أقاصي الصعيد (إنشاؤه بالقرب من أخميم) لتكون معقلا للحضارة الإغريقية في الوجه القبلي ومركزا ثقافيا ينافس العاصمة المصرية القديمة طيبة، [illegible] الجمهور [illegible] كانت تشبه نقراطيس والإسكندرية، وإن كان الأرجح أن مؤسسي بطليموس الأول اتخذوا من الإسكندرية نموذجا يحتذونه في تشييد بطوليميس.

ولا تدع الوثائق سبيلا إلى الشك في أن بطوليميس كانت تتمتع بكل النظم الدستورية المألوفة في المدن الإغريقية، فقد كان بها مجلس للشورى وجمعية شعبية ومحاكم مستقلة وحكام منتخبون من المواطنين. وكان مواطنوها يتمتعون بمثل [illegible] ما كانوا يتمتعون به في بلادهم الأصلية من معابد ومعاهد ومسارح

ثالثاً — السلطة المحلية

عمد البطالمة عن الفراعنة تقسيم البلاد إلى مديريات، فقسموا الدلتا ووادي النيل — فيما عدا الواحات التي خضعت لسلطان الإسكندرية — إلى مديريات، كان كل منها يؤلف وحدة إدارية مستقلة عن الأخرى. واستحدث البطالمة من التعديلات في الاختصاصات ما يضمن لهم حسن تطبيق سياستهم والسيطرة على البلاد سيطرة تامة. ومن أمثلة ذلك أنه حتى فتح المقدوني كان يحكم كل مديرية مدير Nomarch لكن سرعان ما نشأ أن اعتبر في كل مديرية منطقة عسكرية يسيطر عليها قائد Strategos أجنبي (مقدوني). ولما كان من اختصاص القائد الإشراف على شئون منطقته العسكرية ومدينة جنودها فقد أصبح مدير المديرية تابعاً للقائد وتضاءلت سلطته شيئاً فشيئاً حتى لم يعد له في القرن الثاني قبل الميلاد نصيب في الإدارة.

وكانت كل مديرية تنقسم إلى عدد متفاوت من الأقاليم topoi ، وكما كان لكل مديرية عاصمتها كذلك كان لكل إقليم عاصمة حيث تتركز الإدارة، وكان كل إقليم ينقسم إلى عدد من القرى Komai ، وكان لكل منها حاكمها الإداري epistates ومسئول الإدارة المالية. وكان يشترك في إدارة شئون القرية جماعة من شيوخها كانوا يعرفون في خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد باسم شيوخ المزارعين أو شيوخ مزارعي الملك.

ويجدر بالملاحظة أولاً أن مديرية الفيوم وكان أن سكانها من الإغريق قد حظيت بالعناية بسبب ما تم عمله بها من إصلاحات، إذ كانت تنقسم ثلاثة أقسام merides على رأس كل قسم منها إبستاتيس. وحوالي منتصف القرن الثالث قسمت الأقسام إلى توبارخيات، والتوبارخيات إلى أقاليم والأقاليم إلى قرى. وثانياً أن المنطقة الممتدة من الحدود الجنوبية لمديرية هرموبوليس حتى أسوان كانت تعرف باسم منطقة طيبة، وأنه منذ عهد بطلميوس الخامس وضعت تحت سلطة حاكم عام، وذلك فضلاً عن تقسيمها إلى عدة مديريات أسندت إدارتها إلى عدد من القواد كان لكل منهم نائبه على رأس كل مديرية تابعة في دائرة اختصاصه. وثالثاً أن بطلميوس الخامس ذهب إلى حد إقامة حاكم عام على كل أقاليم مصر بسبب ما ساد البلاد من اضطراب. ومرد نشأة الإدارة التي انفردت بها منطقة طيبة ويرجع فيه القيود والضوابط إلى الثورات القومية التي اندلعت فيها على عهد البطالمة الأواخر وكانت مدينة طيبة أهم معاقلها.

رابعاً — قوات المملكة

١ — الجيش

عرفنا أن مصر كانت جزءاً من إمبراطورية الإسكندر التي اقتسمها قواده بعد وفاته، وأن بعض هؤلاء القواد أرادوا بسط سلطانهم على الولايات الأخرى تحقيق تلك

الأمر الطويلة من حسنات الإدارة البطلمية الأولى كان سند الاستقلال لمصر وسند [illegible] قوية [illegible] العاهل ضرورة تكوين جيش وأسطول [illegible] من الجنود في جيش مملكته ومن يحمون حدودها بحراً.

وقد اتخذ بطلميوس بن لاجوس من جيش كان الإسكندر قد تركه في مصر نواة لجيشه قوات أكثر من ذلك وأعظم. ولكننا لا نعرف كيفية تكوين الجيش البطلمي فإننا نعرف على الأقل أنه بعد ما تم تكوينه كان يتألف من ثلاث عناصر رئيسية وهي الفرق النظامية والفرق المرتزقة والفرق المصرية. وتشير القرائن إلى أن أكثر أفراد الفرق النظامية كانوا يجندون من مختلف أنحاء شبه جزيرة البلقان وجزر بحر إيجه. ومع ذلك فإن هذه الفرق كانت تدعى مقدونية بسبب أنها كانت في الأصل كذلك وبسبب اعتزاز البطالمة بأصلهم المقدوني، ولا سيما أن الجيش كان يعتبر قبل كل شيء جيش الملك بطلميوس. وتدل الوثائق على أن الفرق النظامية كانت قسمين وهما فرق الفرسان وفرق المشاة، وعلى أن فرق الفرسان كانت مرتبتين أولاهما أرفع مكانة من الثانية. وقد كانت فرق المرتبة الأولى تتميز بالأرقام، أما فرق المرتبة الثانية فإنها كانت تتميز بحسب جنسية أفرادها. وكانت فرق المشاة النظامية تتميز بالأرقام وبعضها أيضاً بحسب [illegible] من فرق المشاة النظامية ويكون [illegible] قلب الجيش في [illegible] معركة رفح في عام ٢١٧ ق. م.

وكانت الفرق [illegible] في [illegible] لا [illegible] وحاجاته [illegible] أما الفئة الأولى فكانت تشمل الفرق القومية التي كانت تحتفظ في الجيش الذي تنتمي إليه بملابسها وأسلحتها القومية وتندمج في ذلك الجيش بسبب نوع السلاح الذي اشتهرت به. وكانت هذه الفئة تكون فرق مشاة خفيفة العدة وتعرف أحياناً باسم سلاحها وأحياناً باسم جنسيتها وأحياناً بالاسمين معاً. أما الفئة الثانية فإنها كانت تتكون من أوساط الجنود المرتزقة الذين كان يجندهم ضباط مرتزقة إما من بين مواطنيهم وإما من أسواق الجنود المرتزقة في العالم الإغريقي. وكان [illegible] يستخدم جنود هذه الفئة مشاة أو فرساناً. وإذا كان الجنود المرتزقة لا يستخدمون في الأصل إلا على القيام بحملة [illegible] فيما يبدو أصبح [illegible] الجنود المرتزقة يكونون فرقاً دائمة في خدمة البطالمة.

وحتى وفاة بطلميوس على مصر [illegible] شيد فيها صرح مملكة كانت لا تزال [illegible] الطبقة [illegible] من المحاربين المصريين [illegible] حتى كانت [illegible] أمره [illegible] سلطة [illegible] أساسها مؤلفة من [illegible] جنود العصر وأعني المقدونيين والإغريق الذين أتوا [illegible] الإسكندر وخلفائه

سيوجات في العصر الحجري للمنحوتات المفترسة عثر عليها في أطلال منف
، حيث رهيبة ، حيث وجدت نماذج عديدة كثيرة.

حجر من المخروطة التي توجد في البيت في عصور العتيق نحت مفصل بالزخرفة

يوزعهم على معابد بين مصريين كانوا من ... فماذا
عن البطالمة ؟ لا شك في أن البطالمة الثلاثة الأوائل عمدوا إلى أقصى حد في تكوين جيوشهم على المقدونيين والاغريق لثقتهم في كفاءتهم ، ولخوفهم من ألا تخلص المصريون لطاعتهم ، ورغبتهم في عدم استفزاز همة المصريين وبعث روحهم القومية ، فالجيش في كل دولة وفي كل عصر قلب الأمة النابض ، لكن لابد من أن أولئك البطالمة كانوا يخشون أيضا إغفال أمر الجنود المصريين كلية ، وذلك لكيلا يشعر أولئك الجنود روح التمرد في بلاده . فكيف حل البطالمة الأوائل هذه المشكلة ؟ يبدو أن البطالمة الثلاثة الأوائل لم يستبعدوا المصريين بصفة عامة لكنهم كانوا لا يستخدمونهم في القتال بل يعهدون إلى بعضهم بأعمال النقل وما أشبه ذلك من الأعمال الثانوية ويستعينون ببعضهم الآخر بالأسلحة الخفيفة أو بأسلحتهم المصرية العتيقة استخدام للطوارىء في حالة الضرورة القصوى ، إلى أن تهددت بطليموس الرابع أزمة خطيرة في وقت نضب فيه معين الرجال في بلاد الاغريق ، ونقص فيه عدد الجنود الأجانب الذين كان البطالمة قد أحضروهم في مصر ، فاضطر بطليموس الرابع ، لمواجهة هذه الأزمة ، إلى تدريب المصريين وتسليحهم مثل الاغريق والمقدونيين وتكوين قلب جيش منهم

ويحدثنا بوليبيوس بأن ما فعله بطليموس الرابع كان عملا صائبا فيما يخص الحاضر لكنه كان بدعة خطيرة تهدد المستقبل ووصف عمل بطليموس الرابع بأنه بدعة يدل على أنه لم يسبقه إلى ذلك أحد من البطالمة والخطر الكامن في هذه البدعة هو أن انتصار المصريين في معركة رفح على جيش أنطيوخوس المؤلف من الاغريق والمقدونيين أشعل روح الوطنية الكامنة في صدور المصريين وأعاد إليهم الثقة بأنفسهم فانتفضوا ثائرين على البطالمة

وإذا كان المصريون قد نجحوا في كسب الحرب على عهد بطليموس الرابع فإنهم لم يؤلفوا فرقا مستقلة بهم واستمروا يكونون جزءا مستقلا من الجيش حتى نهاية أسرة البطالمة فيما يبدو . ولابد من أن ثورات المصريين على البطالمة الأواخر قد جعلت هؤلاء البطالمة ناقمين على بدعة بطليموس الرابع ، وذلك لأنهم لم يعتمدوا ثانية على المصريين في تكوين قلب الجيش ، لكنهم لم يجرأوا على إخراج المصريين من الجيش

٢ ـ الأسطول

لقد كان البطالمة الأوائل قد كونوا امبراطورية بحرية واسعة وأحرزوا انتصارات بحرية كبيرة ، فلا سبيل إلى الشك في أنه كان لهم أسطول بحري قوي ، لكن تنقصنا بيانات ومعلومات عن كيفية تكوين هذا الأسطول ولا عن قوته في العهود المختلفة

وعلى كل حال يجب أن نفرق بين عنصرين من رجال الأسطول وهما عنصر الملاحين وعنصر المحاربين . وحيث إن بحارة الأساطيل القديمة كانوا يتألفون من أدنى طبقات السكان ، وإن البطالمة وضعوا المصريين في أسفل الدرك ، فلابد من أن بحارة الأسطول البطلمي كانوا يتألفون من المصريين وهذا ما تؤكده الوثائق . وإذا كان البطالمة الأوائل قد اعتمدوا جل اعتمادهم على المقدونيين والاغريق في تكوين قواتهم البرية فلابد من أنهم فعلوا الشيء نفسه في تكوين

دوائهم الحربية إذ لا نعرف إلا عدداً قليلاً من البطالمة على المصريين في تكوين دوائهم الحربية لم يعتمدوا عليهم في تكوين دوائهم البحرية وعندما أصبح البطالمة مضطرين إلى طلب الجنود منذ عهد بطلميوس الرابع لا نعرف أيهم عدد ذلك ذهب إلى الأسطول ومع ذلك فالمعتقد أنه لما كان العامل في الجيش كان أكثر جنود البطالمة المصريين وأرفعهم مقاماً، حتى بعد عهد بطلميوس الرابع، من الإغريق ومن على شاكلتهم

٣ ـ الشرطة

وكان رجال الشرطة يتصلون بالجيش اتصالاً وثيقاً، إذ أنه منذ القرن الثالث كان يوجد بين رجال الشرطة محاربون مصريون، ومنذ القرن الثاني كان رجال الشرطة يساهمون في تكوين القوات المحاربة.

ويمكن تقسيم رجال الشرطة بوجه عام ثلاث فئات رئيسية، وهي: أولاً، أولئك الذين كانت مهمتهم حفظ الأمن أو النظام، ثانياً موظفون تخلع عليهم إذا اقتضى الأمر، وثالثاً حراس الشرطة بأدق معاني الكلمة، وثالثاً فئة تقوم أفرادها بمهام مختلفة بعضها محددة.

ويبدو أنه في القرن الثالث كان نصيب الإغريق من رجال الشرطة مقاماً من الآخرين، ثم أصبحت صفوفهم تدريجياً للمصريين. أما رجال الشرطة العاديون فإنهم كانوا في الغالب من المصريين منذ القرن الثالث، وكان رجال الشرطة المصريون يمنحون اقطاعات متواضعة منذ بداية الأمر، أما غير المصريين فإنهم كانوا يمنحون مرتبات، لكن يبدو أنه لم يمض زمن طويل حتى شمل نظام منح الاقطاعات رجال الشرطة حتى شملهم جميعاً، سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين

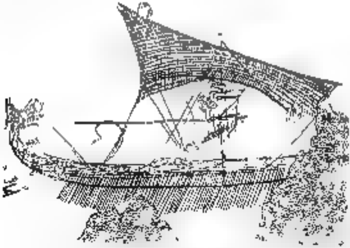

عن صورة إحدى سفن بلاد ... منقوشة في جدار مقبرة ... والصورة تمثل سفينة حربية إغريقية مما كانت تمخر عباب بحر إيجة في العصر الهيلينستي

لقد عرفنا كيف كان تصرف البطالمة مع المصريين عقب سقوط مصر تحت الفتح ، لكن لكي يكون سلطانهم دائما وسيادتهم راسخة رأوا أن يقيموا حكمهم كذلك على حق الحكم الإلهي ، وأن يحترموا المعتقدات الدينية السائدة بين كافة رعاياهم ، وبذلك كان التسامح الديني أبرز ما تتصف به سياسة البطالمة الدينية بوجه عام

أولا ـ البطالمة والمصريون

١ ـ اتخاذ صفات الفراعنة

لما كان المصريون يعتبرون فرعون واهب النعم والحياة ومالك الأرض والسيد المطلق على شعبه ، فقد كان من الفطنة والسياسة أن يتخذ البطالمة صفات الفراعنة ، ليتمتعوا بسلطاتهم المطلقة وسلطاتهم الشاملة المطلقة ، ويكسبوا ولاء المصريين ويدعموا مركزهم بصبغة شرعية في نظرهم ، ولا سيما أن الإسكندر الأكبر كان قد رسم نفسه فرعونا في منف ، وحمل ثلاثة من الألقاب الخمسة التي درج الفراعنة على حملها منذ غابر الزمن . وتشير القرائن إلى أن البطالمة اتخذوا صفات الفراعنة بالتدريج ، ففي الوثائق الهيروغليفية والديموطيقية من عهد أن بطلميوس الأول قد حمل بعض ألقاب الفراعنة التقليدية ، وأن بطلميوس الثاني والثالث قد حملا هذه الألقاب جميعا . ويستخلص من القرار الذي أصدره الكهنة في منف عقب موقعة رفح أن بطلميوس الرابع قد ذهب إلى مدى أبعد من أسلافه في التشبه بالفراعنة ، فهو لم يكتف بحمل كافة ألقاب الفراعنة التقليدية بل إنه توج أيضا على نهج الفراعنة القدماء ، فكان بذلك أول ملك من ملوك البطالمة اتخذ صفات الفراعنة كاملة . وقد كان طبيعيا أن يقتفي سائر البطالمة المتأخرين أثر بطلميوس الرابع لأنهم كانوا جميعا ملوكا ضعافا ويعتمدون على موالاة المصريين .

٢ ـ احترام الديانة المصرية

وإزاء رغبة البطالمة الملحة في أن يظهروا أمام المصريين في ثوب الفراعنة الحقيقيين المتمسكين بالديانة المصرية عن رغبة ، ويشعروا المصريين بحرية عبادة آلهتهم القديمة . ولكي يثبتوا إجلالهم واحترامهم للديانة المصرية حذوا حذو الفراعنة في تقديم القرابين للآلهة الوطنية ، ومنح المعابد هبات مالية وعقارية وكذلك حق حماية اللاجئين إليها ، وإنشاء المعابد والهياكل أو إصلاحها وزخرفتها ،

وصور أنفسهم على جدرانها وكذلك على العمود والأحجار الكريمة في شكل آلهة مصرية.

أن سوتر مثل بطولة في صاحب الفتح، و التي تتحدث عن تحرير مصر واسترداد الأجانب وإعادة العاصمة الى منف واقامة فرعون وطني لتعبر تعبيرا بليغا عما كان يجيش في صدور المصريين من الآلام والآمال والشعور بالحقيقة مشاعرهم نحو هؤلاء الفراعنة الجدد. وان دلت هذه البردية على شيء فهي تدل على أنه مهما أنفق البطالمة من جهد في الظهور أمام المصريين في ثوب أسلافهم الفراعنة الوطنيين فان قلوب المصريين لم تنخدع بهم ولم تعتبرهم فراعنة حقيقيين وبخاصة في الاسكندرية عاصمة البلاد. فلا عجب ان كان المصريون يتوقون الى فرعون وطني يقيم في عاصمة وطنية بعيدة أن يحرر الوطن من مغتصبيه الأجانب.

٣ ـ موقف البطالمة من الكهنة المصريين

كان رجال الدين المصريين يحتلون منذ عهد بعيد مركزا رفيعا وأهمية خطيرة في حياة البلاد، يحسب الملوك حسابهم ويصبرون الاحسان مرشديهم وزعمائهم الروحيين، يستمعون الى نصحهم ويعولون على آرائهم . . . ولذلك حرص البطالمة على أن يجعلوا منهم أداة لنشر الهدوء والسكينة في البلاد ولذلك غمروهم حتى أظهروا ولاءهم وغمروهم بالهبات المصرية، مستعينين في ذلك بكل الوسائل التي تكفل تعيين ألطاف رجال الدين وحصولهم عليها. وقد كان العامل المادي من أهم الوسائل التي لجأ البطالمة اليها للحصول على طاعة الكهنة حاجتهم الى أن يستردوا الاراضي التي ضمت الى الحكومة، واستولوا على دخل الضريبة التي كانت مخصصة لجبيها من أراضي الكروم والفاكهة والحبوب، وألغوا احتكار صناعة ... وصناعتي الزيت ونسج الكتان لكي يقللوا من قوة الكهنة ويسيطروا عليهم بأيديهم أو يكفلوا لهم موقف الكهنة منهم.

ويبين أن تضييق الخناق على الكهنة قد زج بهم في صفوف الثوار مما حدا بالبطالمة الأواخر الى محاولة كسب ود الكهنة بشتى الوسائل. ومع ذلك يبدو من مجموعة المنح للكهنة في عهود مختلفة بل في العهد الواحد نفسه أن الكهنة لم يفلحوا في استرداد كل حقوقهم وامتيازاتهم السابقة التي كان البطالمة الأوائل قد سلبوهم اياها. وذلك لأن ضعف السلطة المركزية وعجز الأداة الحكومية كثيرا ما عجزت السلطة المركزية عن حمل الموظفين على تنفيذ قراراتها.

ويبدو أن الكهنة قد اتخذوا قرارا وأشياعا ... سياسة البطالمة نحوهم، اذ حتى كانت العلاقات متوترة بين البطالمة وكهنة آمون في طيبة كانت العلاقات حسنة بين البطالمة وكهنة منف، ولا سيما كهنة منف ولذلك الكهنة.

ثانياً ـ البطالمة والاغريق

١ ـ عبادة البطالمة عبادة اغريقية عامة

وكما عمل البطالمة لكسب ولاء المصريين ودعم عطفهم أيضاً لكسب ولاء الاغريق وعطفهم . وقد كان الاغريق يعتزون بشخصيتهم وبالامتيازات التي يتمتعون بها ، لكن لما كان غالبيتهم رجالا أحرارا نشئوا في جمهوريات اعتادوا الاشتراك في حكمها ، وكانت مصر في عهد البطالمة ملكية تقوم على حكم الفرد المطلق ، فقد لجأ البطالمة لتبرير مركز هذا الحاكم المطلق الى انشاء عبادة للملوك عبادة اغريقية رسمية عامة في الدولة حتى لا يرى الاغريق غضاضة في تقديم آيات الخضوع لهذه السلطة المطلقة .

وبرغم ما يكتنف نشأة هذه العبادة من الغموض ، فانه يستطيع أن نتبين أربع خطوات . أما الخطوة الاولى فقد خطاها بطلميوس الاول عندما جعل عبادة الاسكندر الأكبر دينا اغريقيا رسميا عاما في مصر ، له كاهن مقدوني أو اغريقي يتمتع بمكانة رفيعة ويعين لذلك كل عام ويؤرخ باسمه كذلك الوثائق في طول البلاد وعرضها ، سواء ما كان منها مكتوبا باللغة الاغريقية أم المصرية . ولما كان بطلميوس خليفة الاسكندر في حكم مصر ، فقد أصبحت سلطته مستمدة من سلطة الاسكندر المستمدة من مصدر الهي ، وبذلك حق له أن يتمتع بالسلطة الشاملة في مملكته . وفضلا عن ذلك فان بطلميوس قد وضع على عملته صورة تشهد بتأليه حاكم مصر بعد وفاته ، وتسري في الآثار العديدة التي ترد على تتابع هذه السنة .

ويجمع كل العلماء على أن بطلميوس الثاني هو الذي خطا الخطوة الثانية في هذه العبادة . وقد كان أول ما عمله هذا الملك أن اتبع سنة أبيه ، فرفعه الى مصاف الآلهة بعد وفاته . ولم يكن ذلك بدعة فقد كان الاغريق يألفون تأليه مواطنيهم الذين أسدوا خدمات جمة ، وبطلميوس الأول لم يؤسس مدينة فحسب بل مملكة عظيمة . ويبدو أنه منح فوق ذلك زوجته برنيكي أم بطلميوس الثاني شركتها في العبادة مع أبيه الملك .

وقد مهد تأليه بطلميوس الأول السبيل لتأليه سلالته ، لان تأليه رأس أسرة البطالمة أكسب سلالته صفة غير عادية ميزت بينهم وبين سائر البشر ، فلم يكن عسيرا عليهم بعد ذلك أن يرفعوا أنفسهم الى مصاف مؤسس هذه الأسرة . لكن على حين أن بطلميوس الأول وزوجته رفعا الى مرتبة الألوهية بعد وفاتهما رفع سلالتهما من ملوك مصر الى هذه المرتبة في حياتهم واحتفظوا بها بعد مماتهم . ولم يعد اليوم سبيل الى الشك في أن بطلميوس الثاني رفع نفسه وزوجته الى مصاف الآلهة في أثناء حياتهما وعبد الاثنان معا باسم الالهين الأخوين أو ادلفوي Adelphoi ، ولم يخصص معبد خاص في الاسكندرية وقرنت عبادتهما بعبادة الاسكندر

الرسمية . بعد ذلك كان شرف عـلى بطلميوس السادس كاهن واحد أصبح له عـبـادته وكاهن الإسكندر والإلهين الأخوين ، إلى حين أن عبادة بطلميوس الأب وزوجته ستكون مرتبطة بعد مع عبادة الإسكندر .

وقد خطا بطلميوس الثالث الخطوة التالية إذ أنه سمح باستمرار قرن الإلهين الأخوين في العبادة مع الإسكندر بعد وفاتهما ، وبذلك قدم الملك الحالي خطوات أبيه ورفع نفسه وزوجته في حياتهما إلى مصاف الآلهة وقرن عبادتهما بعبادة سلفيهما والإسكندر . فكانت هذه هي المرة الأولى التي تقرن فيها عبادة الملك الحاكم وزوجته بعبادة سلفيهما وعبادة الإسكندر . ومنذ ذلك الوقت أصبحت القاعدة أن كل بطلميوس وزوجته يصبحان المـــرتبطين بالإسكندر ويخلع عليهما لقب المميز لهما عن غيرهما من البطالمة المؤلهين وتقرن عبادتهما بعبادة سلفيهما وعبادة الإسكندر ، فتنشأ على مر السنين وتعاقب ملوك ومليكات البطالمة سلسلة جديدة من الآلهة . وعندما لاحظ بطلميوس الرابع أن سلسلة البطالمة المؤلهين الذين يقرنون مع الإسكندر الأكبر في العبادة الرسمية العامة تبدأ ببطلميوس الثاني وزوجته ، على حين أنه كان من حق مؤسس الأسرة وزوجته أن يكونا في المقدمة ، خطا الخطوة الأخيرة في تطور هذه العبادة في عبادة أسرته بوضعه بطلميوس الأول وزوجته على رأس سلسلة البطالمة المؤلهين الذين يقرنون في العبادة مع الإسكندر .

٢ — احترام الديانة الإغريقية

وقد كان البطالمة مثل غيرهم من مقدونيين إغريقا في كل نواحي حياتهم وفي عاداتهم ودياناتهم ولم يجدوا حرجا كبيرا في أسمائهم إلى عهد بعيد بل إنهم من سلالة الآلهة الإغريقية ، وإن عواطفهم الدينية ونسبهم انتسابا إلى الإغريق وتقاليدهم الإغريقية كان طبيعيا أن تظهر احترامهم للديانة الإغريقية ويتخذوها ديانة رسمية في دولتهم .

وفضـــلا عن كل ذلك كان يوجد دافع سياسي له أثر كبير في نظر الساسة ، فقد كانوا في حاجة إلى رجال ومرتزقة أشداء من بلاد الإغريق لتحقيق مشروعاتهم الخارجية والداخلية . ولذلك كان ينبغي عليهم كسب عطف الإغريق ، وأن يظهروا أمامهم في ثوب حماة الحضارة الإغريقية ، وأن يثبتوا فعلا جميع جلالهم للديانة الإغريقية . فلم يكتف البطالمة بالاعتراف بالديانة الإغريقية ديانة رسمية في مصر ، بل أسبغوا عليها شتى مظاهر العطف ، فشيدوا معابد لآلهتها ، ومنحوا الشيع حمايتهم ، وأباحوا للإغريق حرية إقامة شعائرهم ، وأقاموا حفلات رياضية تجتمع شهرة من أكبر المباريات في بلاد الإغريق . ثم أنشأوا حفلات دينية على نمط الحفلات الدينية الإغريقية أو الحفلات الأثينية الجامعة ، كان يجتمع فيها الشعراء والمفكرون من كافة أنحاء العالم الإغريقي . وعندما أنشأ ... كيف كان يحدث في ...

الاسكندرية في أثناء اقامة هذه الحفلات أعياد ومختلف المهرجانات الاغريقية . وبين الآنية الفخارية التي عثر عليها في الاسكندرية وكانت تضم رماد جثث بعض المبعوثين الرسميين الى هذه الحفلات ممن توفوا في الاسكندرية في أثناء أداء مهمتهم الرسمية .

وكانت أهم هذه الحفلات حفلات البطوليميا Ptolemaea التي أنشأها بطلميوس الثاني تخليداً لذكرى أبيه الملك ويحسب أن هذه الحفلات التي كانت مثل الحفلات الأوليمبية تقام كل أربع سنوات ، قد أقيمت لأول مرة في عام ٢٧٩ ق . م بمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة بطلميوس الأول . ويبدو أن المهرجان الذي وصفه كاليكسينوس Callixenos كان بمناسبة احياء هذا الحفل أول مرة .

وقد بدأ كاليكسينوس وصفه الرائع بوصف قاعة الولائم وكانت على شكل سرادق مستطيل تسنده أربعة من أعمدة مصنوعة من الخشب على هيئة مصرى فى شكل النخيل ولم تدخر الملك جهداً ولا مالاً في تجميل هذه القاعة وتزيينها ، فقد علقت حولها ستائر من نسيج ووضعت جلود حيوانات مفترسة ووضعت على جانبيها مائة أريكة موشاة بالذهب وفرشت أرضها بالطنافس الفارسية ونثرت بالورود والأزهار وزين السرادق بأبدع ما أخرجه المبرزون من المثالين والمصورين وأجمل ما ابتكره أمهر الصناع من الأقمشة المزركشة بالذهب والدروع الموشاة بالذهب والفضة ووضعت في مكان بارز من السرادق أريكة عرضت عليها آنية كبيرة من الذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة .

ويحدث كاليكسينوس بأن المهرجان أقيم في معسكر المدينة ودام من الصباح حتى

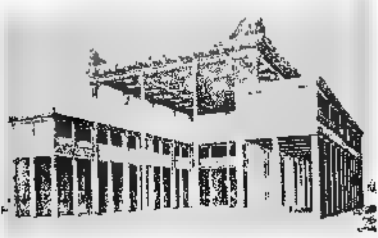

سرادق ولائم بطلميوس الثاني على نحو ما وصفه كاليكسينوس (تصوير أحد المهندسين المحدثين)

الليل ، وبذلك كان تتقدمه ذلك القسم من مهرجان الذى يمثل نجم الصباح ، ويأتى فى مؤخرة القسم الذى يمثل نجم المساء . وبعد نجم الصباح القسم الخاص ببطلميوس الأول وزوجته المؤلهين . ثم تلى ذلك أقسام أخرى خصص كل منها لإله واحد أو أكثر ، وكان أحدها للإله ديونيسوس ، وآخر للإسكندر الأكبر وبطلميوس الأول ، وآخر للإله زيوس وغيره من الآلهة ، وكان يصور كل قسم جمهرة من التماثيل والأشخاص تحملهم عربات يتقدمها ويسير خلفها أعداد غفيرة من النساء والرجال والأولاد ، يمثل بعضهم مناظر من القصص الدينية الأسطورية ، ويرتدى بعضهم الآخر أبهى الثياب ويحملون أكاليل الورد أو آنية من الذهب أو الفضة تمتلئ بالنبيذ أو المأكولات أو البخور أو العطور.

وقد عرضت فى المهرجان أنواع كثيرة من الحيوانات والطيور النادرة واشترك فيه ٢٣٫٢٠٠ فارس و ٥٧٫٩٠٠ راجل كاملى العدة . وبعد القسم الذى يمثل عـــروده

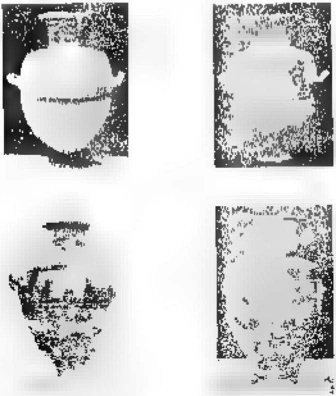

صورة آنية جنائزية مما دفن مع جثث الأجانب الذين توفوا في الاسكندرية عند حضورهم من بلادهم في حفل البطوليميا

بطليموس مظهراً من الهدف كان أرع من إله هذا المهرجان الذي كان مسرحه برج غربي ليجب وتميز عليه طابع بطلاب بطليموس، وإذا كان منذ مثل بطليموس الثاني ثم ببعض المساعده والاشراف من جانب بطليمه وذلك تدنيه امالته قد أنفق على اقامه هذا المهرجان ما هيئته اليوم من بين ملهى مليون جنيه مصري ، فان هذا يدل على مدى الأهمية التي كان يضعها على اظهار اهتمامه بمظاهر الحياة الدينية الاغريقية وكذلك على استمراره دلائل ثراء دولته وقوتها أمام ممثلي الدول الأجنبية

ثالثا ـ الاغريق والديانة المصرية

وقد كان الاغريق ينظرون الى الديانة المصرية نظرة اجلال واحترام ، بسبب قدم عهدها وغموض أسرارها ، ودرج الاغريق منذ عهد هيرودوتوس على تشبيه الآلهة المصرية بالآلهة الاغريقية ، لكن لا ريب في أن هذا التشبيه لم يكن الا تشبيها سطحيا لم يصل الى أعماق عواطف الاغريق الدينية بحيث تحتل الآلهة المصرية مكان الآلهة الاغريقية ، وآية ذلك أن الاسكندر الأكبر والبطالمة شيدوا معابد مختلفة لكل من آلهة الاغريق وآلهة المصريين ، وتشير القرائن الى أن اغريق مصر سواء أكانوا يعيشون في مدن مصر الاغريقية أم في خارج تلك المدن قد ـــــــكو بعبادة آلهتهم القديمة ، يونس وهيرا وديمتر وافروديتي وغيرها ، ولعله قد ساعد على استمساك الاغريق بآلهتهم ، وعدم اقبالهم بوجه عام على الآلهة المصرية تصوير هذه الآلهة في أشكال تخالف ذوقهم وعقليتهم وتصورهم لما يجب أن يتوافر في تصوير الآلهة من مسحات تلائم مكانتها الرفيعة ومع ذلك فان بعض الاغريق ، كنتيجة لتلك التشبيهات ، وباعتبارهم نزلاء في تلك البلاد التي تتمتع بحماية هذه الآلهة ، رأوا من الفطنة وأصالة الرأي كسب عطف هذه الآلهة وبذلك فانهم عبدوا بعض الآلهة المصرية تحت أسماء اغريقية ، كما عبدوا أيضا بعضها الآخر بأسمائها المصرية حين لم تكن ثمة مرادفات بين آلهتهم ، لكنها كانت تتمتع بمحبة كبيرة بين المصريين استرعت أنظار الاغريق ، ومثل ذلك بيس Bes وتورت Taurt وسبك ، ولا يمكن أن نعد تزيين من الاغريق للآلهة المصرية على هذا النحو قد أفضى الى مزج بعض الآراء الدينية الاغريقية بالآراء الدينية المصرية ، لكن يجب ألا نبالغ في قيمة ذلك ، لأنه اذا كان بعض الاغريق لم يروا غضاضة في بعض الأحيان في عبادة الآلهة المصرية فان الاغريق جميعا لم ينقطعوا عن عبادة الآلهة الاغريقية حتى خارج المدن الاغريقية ، فقد كان المجال فسيحا أمامهم لعمل ذلك ، اما في الجمعيات أو الجمعيات الاغريقية أو في بيوتهم الخاصة

ومن ناحية أخرى تمسك المصريون على نحو عام بعبادة آلهتهم ، التي كانوا يعاملونها

ويعتبرون المذاهب الاغريقية صورة مقنعة بها ، لكنها حديثة العهد ويشوبها كثير من الغموض الى حد يستعصى على مشاعرهم استساغة اتباعها . فلا عجب انه لم يقم دليل واحد على أن مدينة الاغريقية سمحت ولو بنفر قليل من المصريين .

رابعا — البطالمة وعناصر السكان الاخرى

١ — اليهود

وكان اليهود أهم العناصر الأجنبية بعد الاغريق في دولة البطالمة . ويرجع استقرار اليهود في مصر الى عهد بعيد يسبق عصر البطالمة كثيرا ، لكن عددهم ازداد زيادة كبيرة في أعقاب الفتح المقدوني وكذلك بعد ضم فلسطين الى مصر في بداية عصر البطالمة . وتشير المصادر القديمة الى انتشار اليهود في مختلف أرجاء مصر ، لكن أكثرهم كانوا يقيمون في الحي الرابع في الاسكندرية . وكان يهود مصر يزاولون مختلف المهن والحرف ، وكان من بينها الاشتغال بالتجارة واقراض الأموال ، لكن ذلك لم يكن وقفا عليهم ولا عملهم الرئيسي . وقد منح البطالمة الجالية اليهودية في الاسكندرية قسطا من الحكم الذاتي لم يمنحوه لأي جالية أخرى في أي مدينة اغريقية ، لكنهم لم يمنحوهم حقوق المواطنين .

وقد كانت السياسة الدينية التي انتهجها البطالمة بوجه عام إزاء اليهود ، تقوم على أساس التسامح الديني الذي قامت عليه سياستهم الدينية إزاء المصريين والاغريق . فانه باستثناء بطلميوس الرابع ، الذي أراد أن يفرض على اليهود عبادة ديونيسوس واضطهدهم عندما رفضوا الارتداد عن دينهم ، فإن سائر البطالمة الآخرين عاملوا اليهود معاملة عادلة .

ويبدو أن سياسة البطالمة بوجه عام كانت مشبعة بروح العطف على اليهود ، لأن فلسطين كانت واقعة بين شقي الرحى ، أو بعبارة أخرى كانت ميدان سلسلة من الحروب الضروس بين البطالمة ومنافسيهم السيليوكيين ، الذين كانوا يتطلعون دواما الى حرمان مصر منها . وبطبيعة الحال كان عطف البطالمة على يهود مصر يكسبهم تأييد يهود فلسطين ويساعدهم على تنفيذ سياستهم السورية .

٢ — الفرس

وتتحدث الوثائق عن كثيرين ممن يدعون « فرسا » أو « فرس السلالة » ، مع أن قليلهم فقط يحملون أسماء ايرانية ، على حين أن أكثرهم يحملون أسماء اغريقية أو مصرية أو اسما اغريقيا ولقبا مصريا . وتشير الوثائق الى وجود عدد كبير من الفرس بين الجنود وأبناء الجنود في مصر البطلمية والى أن هؤلاء الفرس استمروا يكونون فئة متميزة حتى في العصر الروماني . وقد اختلف المؤرخون في تفسير كثرة عدد الفرس فلا ريب في أن الفرس كانوا يتمتعون بالحرية الدينية في مصر البطلمية .

٣ ـ عناصر أخرى

ونشير الآن إلى بعض مسائل العناصر الأجنبية الأخرى التي استقرت في مصر، مثل الرومانيين والفرس والسوريين والفلسطينيين والعرب، الذين انصهروا جميعاً تماماً أو تقريباً مع الإغريق واليهود، وإن كانت قد احتفظت بعقائدها الدينية في ظل ذلك التسامح الديني الذي كان أحد الدعائم الأساسية التي أقام عليها البطالمة سياستهم الدينية.

خامساً ـ ديانة سيرابيس

لما كان بطلميوس الأول يعتقد أن ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والإغريق معاً في العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية، وأن استمرار التطور الديني الذي كان هيرودوتوس قد لاحظه من قبل لابد من أن يعزل الآلهة بين الفريقين، فإنه رأى من الضروري أن يؤلف بين قلوبهم بنشر ديانة جديدة تكون رابطة وحدة وولاء بين المصريين والإغريق عندما يشتركون جميعاً في العبادة في كهنتها، وعندئذ يدركون أنهم يتعبدون إلى نفس الإله وعلى كل فريق منهم على النحو الذي كان يألفه. ولابد من أن بطلميوس كان يدرك أن تحقيق هدفه كان يتوقف على نجاح الديانة الجديدة في أن تجمع ديانة المصريين والإغريق، وهذا يفسر دعاية الأصنام الكبير الذي وجهه هو وخلفاؤه إلى الديانة الجديدة.

ويحدثنا بلوتارخوس أن بطلميوس الأول كون لجنة من علماء الدين المصريين والإغريق لتنفيذ فكرته. وقد أسفر بحث اللجنة عن أن يكون محور الديانة الجديدة ثالوثاً يتألف من سيرابيس Serapis وزوجته إيزيس وابنهما هاربوكراتيس Harpocrates. ويتفق الجميع على أن إيزيس وهاربوكراتيس كانا إلهين مصريين، أما سيرابيس، كبير آلهة الثالوث، فقد تضاربت الآراء حول أصله، ولكن الرأي السائد اليوم أنه كان أصلاً الإله المصري أوزيريس أبيس، إله العالم الآخر في منف الذي تثبت بردية أرتميسيا Artemisia أن الإغريق حتى قبل عهد بطلميوس الأول كانوا ينادونه باسم أوسيرابيس Oserapis. وعلى كل حال فإن آلهة الثالوث قدمت للإغريق في شكل إغريقي وللمصريين في شكل مصري. ويبدو التباين بينهما في أجلى صوره في حالة سيرابيس الذي قدم للإغريق في شكل رجل كهل يشبه عن قرب الإله زيوس وأضفت عليه كثير من صفات الآلهة الإغريقية، على حين عبده المصريون في شكل العجل أبيس، وكان يعرف بعد وفاته باسم أوزيريس أبيس.

وإذا كان بطلميوس الأول هو الذي أنشأ عبادة سيرابيس واتخذ الصورة التي قدم فيها هذا الإله إرضاء للإغريق، فإن الأدلة الأثرية تثبت أن بطلميوس الثاني هو الذي شيد المعبد الكبير الذي أقيم لهذا الإله في حي راقودة بالإسكندرية، على ذلك التل الذي

تمثال سيرابيس

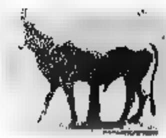

تمثال للعجل ابيس [illegible]
الامبراطور هادريان [illegible] الاسكندرية

لا يزال قائماً حتى اليوم في حي كرموز. وقد ذاعت شهرة مباني هذا المعبد بما كانت تضمه من مكتبة وأروقة وأبنية تقوم عليها الأعمدة والتماثيل ويؤدي اليها سلم كبير يتألف من مائة درجة.

ولا جدال في أن الديانة الجديدة قد نجحت من حيث انتشارها بعدد كبير من الأتباع فانها لم تنتشر في مصر فقط بل انتشرت أيضاً في أرجاء بحر الأبيض المتوسط، ثم بعض [illegible] [illegible] حتى [illegible] لكن [illegible] هذه الديانة [illegible] في [illegible] الغرض [illegible] من اقامتها. فهل [illegible] هذا الغرض؟ [illegible] آلهة الثالوث [illegible]

في عداد الآلهة التي [illegible] ولانهم [illegible] ولم يصبح [illegible] آلهة هذا الثالوث [illegible] الوحيدة التي يعبدها المصريون اليها. وكذلك [illegible] الاغريق [illegible] هذا الثالوث فقد [illegible] لهم آلهته في ثوب اغريقي بل [illegible] لآلهتهم الاغريقية. ومع ذلك [illegible] الاغريق لآلهة الثالوث المقدس [illegible] واحترام فانهم لم ينصرفوا الى [illegible] دون غيرها، بل ان هذه الآلهة لم تحتل [illegible] الأولى في عباداتهم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] لأنهم الاغريقية [illegible] [illegible] ان [illegible] [illegible] للاغريق [illegible] البطالمة كانت الى جانب عبادة آلهة [illegible] التي

أتو سيها ، والى حد كبير مبادئ المذاهب ذات الأسرار التي كانت معروفة في بلاد الاغريق وبين الاغريق أنفسهم وشعوب البلاد اذ ذاك في كل مجرة العالم الاغريقي ، مثل مذهب ديمتر ومذهب الاورفيين ومذهب ديونيســوس زجريوس Zagreus

ولا شك في أن الديانة الجـديدة قد شمت ممكلة كبيرة ، لكن لما كانت تلك المكانة سمحة لأبناء المحكومة ، وكانت تلك الديانة ذاتها معتمدة ، وكانت السلطة قد أتاحت لهؤلاء رعاياهم حرية العبادة ، وكانت الديانة المقدسة لكل من المصريين والاغريق هي الديانة التي كان يألفها كل من المصريين ، فلا عجب أن الديانة الجديدة لم تحقق الغرض المنشود من اقامتها

الفصل الرابع

السياسة الاقتصـــادية

الزراعة ـ الصناعة ـ التجارة ـ النقود

اتخذت اعتبارات كثيرة عند البطـــالمة سياســـتهم الاقتصادية ، فقد كان تحقيق أهداف سياستهم الخارجية يتطلب أموالا طائلة لبناء الجيوش والأساطيل واكتساب ود الشعوب ورجال السياسة ، وكانوا في حاجة الى المال أيضا لتنفيذ مشروعاتهم العمرانية وإذ كانت قد استقرت في البلاد عناصر جديدة من السكان وكان أغلب هـــذه العناصر من الاغريق أو ممن لهم ميول اغريقية فانه كان يجب توفير سبل العيش لهذه العناصر وسد حاجاتها .

وقد رأى البطالمة في الاستجابة الى كل مطالبهم كانت تقتضي زيادة الانتاج المصرى ، ورفع مستوى المنتجات المصرية ، بحيث تسد مصر حاجة كل سكانها ، وتصدر مقادير كبيرة من منتجاتها لتكسب بها الأسواق الخارجية ، فتحصل عليها الذهب والفضة وغير ذلك مما تفتقر اليه البلاد من المواد مثـــل الأخشاب والمعادن وإزاء ذلك عمل البطالمة على زيادة مساحة الأرض المزروعة ، واستغلال الأرض المزروعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، والاكثار من المصانع واستخدام كافة الوسائل الفنية المعروفة وتنظيم الانتاج تنظيما دقيقا ، يستمد الى أقصى حد مجهـــودات الأهالى والنزلاء الأجانب تحت اشراف ادارة ماليـــة يقظة ، وتداول النقد ، وتصدير المنتجات التي تفيض عن حاجة البلاد ، واستيراد المـــواد التي تفتقر اليها ، وتأمين طرق الملاحة

أولا ـ الزراعة

وإذ كانت الزراعة في مصر تتوقف على ضبط مياه النيل وحسن تصريفها ، فقد عنى البطالمة بشق القنوات واقامة الجســـور وصيانة هذه منشآت وقد عنوا أيضا بايصال المياه الى الأراضي المرتفعة ، وابتكر الاغريق آلتين جديدتين لهذا الغرض وهما الســـاقية والطنبور ، وسارع المصريون الى الافادة من هاتين الآلتين الى جانب استخدامهم الطريق وسمح البطالمة الأوائل بهجـــرة الاغريق الهللينيـــسية ، ووفر له المصريين بالزراعة في استصلاح مساحات واسعة من الأراضي في الفيوم ، وكذلك في مناطق أخرى مشابهة لها وهكذا توفر لدى البطـــالمة من الأراضي

ن حكمهم من اهتمام ، لكنه تبين من الاعتبار في الاستقرار في البلاد . ولم تنجح البطالمة وحسب في استغلال الأرض الصالحة للزراعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، لكنهم أيضا وضعوا الزراعة وضعوا نظاما دقيقا للدورة الزراعية بحيث كانت الأرض لا تترك ع... عنه تحمل ثلاثة أنواع متتابعة ، ويعد كان الحديد من بين المواد التي اهتم البطالمة باستيراد كميات وفيرة منها لسد حاجة البلاد ، وترتب على ذلك أن أصبحت الأدوات الزراعية كالفأس والمحراث والمنجل والنورج وعجل العربات أصبحت تصنع كلها أو بعض أجزائها من الحديد

ولم يدخر البطالمة جهداً في توفير الأسباب التي تكفل الإكثار من زراعة الحبوب وغرس الكروم والفاكهة ومختلف أنواع الأشجار ، وتحسين أصناف كل هذه المزروعات وتنمية أنواع جديدة منها ، وإدخال أنواع عديدة من المحاصلات التي لم يكن لمصر بها عهد من قبل . وتحدثنا الوثائق عن زراعة القمح السوري والفارسي والحمص البيرنطي ، وعن استيراد أشجار التين من خيوس وليديا ، وأشجار رمان بيض ثمرها ... ، وأشجار مشمش تثمر في العام مرتين ، وكروم تنتج أصنافا جديدة من العنب ، وشتلات ثوم بيكا وكرنب رودس وأنواع كثيرة من الأزهار.

ولما كانت الثروة تحتاج إليه ... الزراعة ومطالب الدولة ومطالب ... القومية من غذاء وكساء ، فإن البطالمة عنوا بتنمية هذه الثروة ، وساعدهم على ذلك وفرة المراعي في البلاد . ومن أجل تحسين الأصواف عمد بطلميوس الثاني إلى تهجين نوعه من الأغنام كانت أصوافها ناعمة ... إلى حد ... أنها كانت تغطى بوقايات وأنها كانت تنزع منها بدلاً من أن تجز . وقد أولى البطالمة عنايتهم كذلك تربية النحل ، فقد كان عسله يستخدم حيث نستخدم السكر اليوم ، وإلى تربية الدواجن ، وخاصة الحمام ، لأنه كان أرخص أنواع اللحوم لدى عامة الأهالي ، وفضلا عن ذلك كانت له أهمية خاصة بسبب غنى روثه ووفرته

ولقد كللت جهود البطالمة الأوائل بالنجاح إذ كان أكبر مرامي السياسة الاقتصادية في مصر في خلال القرن الأول من حكم أولئك الملوك زيادة مساحة الأراضي المزروعة ، وازدياد المحصولات الزراعية بوجه عام والحبوب بوجه خاص . لكنه كان من ... طبيعة الأشياء أن لا تدوم هذه النهضة الاقتصادية . ولا أدل على ذلك مما نلاحظه منذ أواخر عهد بطلميوس الثالث من نقص مطرد في مساحة الأراضي المزروعة وكذلك في الماشية وفي عدد سكان القرى . فقد كان سبب أن تدهورت الزراعة في كنف ... نظام مالي الذي وضعه بطلميوس الثاني ، لأنه أنهك كاهل الأهالي . ولا سيما

عندما قام على مقدرات مصر موظفون غير أكفاء مما دفع الأهالي الى الفرار من مزارعهم أو رحيلهم في أداء عملهم ، بل الى الثورة في وجه الحكومة . وحين كانت نيران الثورات تقوم بسرعة في كل أنحاء البلاد مسببة الدمار في الهشيم ، ووسط الاضطرابات العامة التي أثارتها الانقسامات بين أفراد أسرة البطالمة ورجعت البلاد أصداءها ، أهملت وسائل الري بل عمد الاهالي الى تخريبها . وزاد الطين بلة أعمال التخريب والتدمير والسلب والنهب التي نجمت عن غزوة أنطيوخوس الرابع . وقد بذلت الحكومة كثيرا من المجهودات لاصلاح الحالة لكن التوفيق لم يحالفها بوجه عام في وقف تيار التدهور الذي جرف اقتصاديات البلاد .

ثانيا — الصناعة :

كانت الصناعة في مصر من العوامل التي جعلتها مهد الحضارة ، فقد كانت متوفرة في موارد الثروة وفي عدد السكان الذين اشتهر الكثيرون منهم بالمهارة اليدوية فلا عجب أن كانت في مصر منذ أمد بعيد صناعات كثيرة ناجحة لم يكن لها منافس في بعضها ومثل ذلك ورق البردي والمنسوجات الكتانية والزجاج والعطور اللاذعة وغير ذلك مما كانت مصر تصدره الى الكثير من بلاد العالم القديم .

لكن البلاد الاغريقية كانت تتقدم في سوق الحضارة حتى أخذت صناعاتها تنافس الصناعات المصرية وأصبحت مركز الحاضرة الاقتصادي ، غير أنه بعد وفاة الاسكندر الأكبر انتقل ذلك المركز الى الممالك الهلينستية العظيمة التي قامت في مقدونيا وآسيا ومصر واستقر أبناء الاغريق ، فعرفت أفواجهم بها وشاركوا في انشاء صناعاتها وباقي نواحي حياتها الاقتصادية . وقد كان لمصر نصيب كبير من أولئك المهاجرين الذين رحلوا اليها من مختلف بلاد شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجة وآسيا الصغرى .

وقد كانت المشاكل التي واجهها البطالمة في ميدان الصناعة مماثلة لما واجهوه في ميدان الزراعة ، وهي توفير سبل العيش لكثير من المهاجرين ، ورفع مستوى الصناعة ، وسد حاجة السوق المحلية والسوق الخارجية فقد استقرت في البلاد عناصر جديدة كثيرة أغلبها من الاغريق أو ممن لهم ميول وعادات اغريقية ، وازدادت القوة الشرائية لدى الدولة البطلمية ، وكذلك اشتد الطلب على المنتجات المصرية . ومن أجل مواجهة كل هذه المطالب وسد ما تفتقر اليه مصر بحيث يكون الميزان التجاري في صالحهم ، أنشأ البطالمة مصانع كبيرة ، واحتكروا انتاج بعض الصناعات ، واشرفوا على انتاج البعض الآخر ، وعملوا أيضا على ايجاد صناعات جديدة ، وتحسين أساليبها ومراعاة ذوق المستهلكين .

وبفضل مهارة المصريين ومواهب الاغريق استطاعت مصر أن تستجيب لكل مطالب الصناعة. وقد ساعد على ذلك أن تدفق الذهب وتوفر الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة، وأن الحركة العلمية في متحف الاسكندرية عززت الصناعة بثمرة تقدم العلوم وأن البطالمة الثلاثة الأوائل عنوا بتنشيط الصناعة اهتماما لم نعرف له مثيلا في أي عهد من عهود تاريخها الطويل. وقد كانت من أهم الصناعات شأنا في عهد البطالمة صناعة المنسوجات المختلفة وصناعة الزيت والنبيذ والآنية الفخارية والمعدنية والأخشاب والورق والزجاج. ونستطيع أن نتبين اهتمام البطالمة بسد حاجة الاغريق من اتقان صناعة المنسوجات الصوفية وتحسين أنواع النبيذ المصري واحتكار صنعه واستنباط زيت الزيتون من الزيوت التي كانت الحكومة تحتكر استخراجها وبيعها.

وقد اقتبس الاغريق في عهد البطالمة فنون الصناعة التي كان المصريون قد سموا بها في عهد الفراعنة حدا يقرب من الكمال. وبطبيعة الحال كان شأن الاغريق في مصر شأنهم في أي مكان آخر اتصلوا فيه بأساليب الحضارة الرفيعة القديمة، ومعنى ذلك أنهم اقتبسوا أولا فن الصناعة الوطنية، وتعلموا كل ما لم يعرفوه منه قبلا. وكذلك أخذوا عنه بعض المظاهر وأشكال الزخرفة. ثم صبغوا كل ذلك بالصبغة الاغريقية وصنعوه موائما لذوق الاغريق محببا اليهم. فامتلأت أسواق العصر الهلينستي بأدوات مصنوعة على أساس الأساليب المصرية في الصناعة والزخرفة، وإن كان طرازها مصبوغا بصبغة اغريقية، ونجد أمثلة طريفة لذلك في الآنية الفخارية والزجاجية والمعدنية التي كشفت الحفريات عنها.

وإذا كان يبين أن أكثر الصناع المصريين بسبب طبعهم المحافظ واعتزازهم بتقاليدهم القديمة ورغبتهم في سد حاجة عملائهم الذين بقيت عاداتهم المحلية بعيدة عن كل مظاهر الحضارة الاغريقية، لم تستهوهم بوجه عام فنون الصناعة الأجنبية ولذلك استمروا في انتاج صناعتهم التقليدية، فانه يبين كذلك أن بعض الصناع المصريين كانوا ينتجون أيضا سلعا تقلد نظائرها الاغريقية تقليدا كاملا أو في بعض نواحيها فقط مثل الشكل أو عناصر الزخرفة أو أساليب الصنعة لكنها مصطبغة بالصبغة المصرية، فاننا نجد بين الآنية الفخارية والحجرية التي صنعها المصريون في عصر البطالمة أشكالا كانت مألوفة بين الاغريق. ولا يبعد أن ما حدث في هذه الصناعة قد حدث كذلك في صناعات أخرى.

وقد كان من بين نتائج ازدهار الصناعة في المدن نزوح الكثيرين من الريف اليها، وكانت الاسكندرية في مقدمة المدن التي هرعت اليها أعداد كبيرة من العمال والصناع. ومما يجدر ملاحظته أن أرباب

كل حرفة كانوا يجتمعون معا في أحياء معينة ويؤلفون نقابات تعاونية . وتدل الوثائق على أنه قبل مجيء الاغريق الى مصر لم يسهم العبيد اطلاقا في حياتها الاقتصادية لكن الحال كان على عكس ذلك في بلاد الاغريق ، فهل أدت مساهمة الاغريق في حيـاة مصر الاقتصادية الى ادخال نشاط العبيـد في الصناعة ؟ لا يبدو انه في مدن مصر الاغريقية ، وخاصة في الاسكندرية ، حيث يرجح انه كان يعيش ٣٠٠،٠٠٠ عبد ، كانت توجد مصانع يعمل العبيد فيها . أما خارج المدن الاغريقية ، أو على الأقل خارج الاسكندرية ، فاننا لا نجد في نصوص القوانين الخاصة بنظام العمل سواء في الزراعة أم الصناعة ما يستدل منه على استخدام العبيد فيهما . ومعنى هذا ان الاغريق لم يغيروا قواعد الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد بوجه عام .

وقد ترتب على كل العوامل التي سلفت الاشارة اليها ازدهار الصناعة في القرن الأول من حكم البطالمة ، ولما كانت أغلب الصناعات المصرية صناعات زراعية ، فان تدهور الزراعة منذ أواخر عهد بطلميوس الثالث كان يستتبع حتما تدهور الصناعة . وفضلا عن ذلك فان الأسباب التي كان لها أبلغ الأثر في تدهور الزراعة قد تمخضت عن نتائج مماثلة في ميدان الصناعة ، حيث عصفت أيضا بكل الجهود التي بذلتها الحكومة لوقف تدهورها والنهوض بها من جديد .

ثالثا ـ التجارة

وقد كان طبيعيا أن يوجه البطالمة عنايتهم الى تجارة مصر الخارجية ، اذ كان ذلك جزءا من سياستهم الاقتصادية العامة التي كانت تستهدف زيادة الانتاج الزراعي والصناعي ورفع مستواه لسد حاجة السـوق المحلية وكسب الأسواق الخارجية ، للحصول منها على الأموال وكذلك السلع التي تفتقر اليها مصر . ومن أجل تأمين تجارة مصر الخارجية ورواجها عملوا جهدهم لبسط سيطرتهم على الطرق البحرية المؤدية الى مصر ، كما عملوا على الا تقتصر علاقات مصر التجارية على ممتلكاتها فقط بل أن تكون لمصر علاقات تجارية مع بلاد أجنبية أخرى في ثلاث نواح وهي : أولا بحر ايجة والبحر الأسود وثانيا الغرب والشمال الغربي وثالثا الجنوب والشرق .

ويجب أن نلاحظ انه لم يكن في وسع ممتلكات مصر استيعاب كل صادراتها ، وانه اذا كان في وسع مصر بفضل مواردها الخاصة ووارداتها من ممتلكاتها أن تستغني الى حد بعيد عن صادرات الدول الأجنبية لسد حاجاتها الضرورية ، فانها كانت لا تزال تفتقر الى بعض حاجاتها الهامة التي لم تتوافر في امبراطوريتها ، كالذهب والفضة اللازمين لسياسة البطالمة ولشراء حاجاتهم في مصر وفي خارجها ، وكذلك الخشب والحديد اللازمين لسد حاجة الجيش والزراعة والصناعة . وقد كانت مصر في حاجة أيضا الى العطور والبخور

والعاج والأقمشة النادرة والأخشاب الثمينة مما كانت تطلبه بكثرة الطبقات الغنية وحياة الرفاهية والترف في مصر. وعلاوة على ذلك في عالم البحر الأبيض المتوسط. وفضلا عن كل ذلك كان البطالمة يهدفون بتوجيه تجارة مصر الخارجية للفوز بثروة عريضة يعتمدون عليها في دعم ملكهم، وكذلك لنشر نفوذهم في أرجاء العالم المتمدين، فالتجارة والمال عصب الحكم. وقد أسلفنا أن البطالمة كانوا ينشدون ضمان تفوقهم الاقتصادي حتى يستطيعوا لعب الدور الأول في سياسة دولية.

وقد حالف التوفيق البطالمة الأوائل، فتمتعوا حقبة من الزمن بسيادة سياسية وتجارية في بحر إيجة، وأصبحت الإسكندرية من أهم المدن التجارية في العالم. وكانت أهم المواد التي تصدرها مصر إلى أسواق بحر إيجة هي الحبوب الغذائية وورق البردي والمنسوجات الكتانية، فقد كانت مصر أكبر مركز لإنتاج الغلال في شرق البحر الأبيض المتوسط، كما أنها كانت تحتكر صناعة اللفائف البردية وتصديرها إلى كافة أنحاء العالم القديم، وكذلك كانت تشتهر منذ عهد بعيد بمنسوجاتها الكتانية الدقيقة. وكانت بلاد الإغريق وآسيا الصغرى تصدر إلى مصر الكثير من منتجاتها، وكان من أهمها [illegible] والأخشاب والحديد والنحاس والفاكهة والأسماك المجففة [illegible] ولكن المكوس [illegible] التي فرضها البطالمة على

مركبة تلك الصادرات وحسب الميزان التجاري في صالح مصر. ولا شك في أن البطالمة كانوا يأخذون فضة [illegible] لقاء الجانب الأكبر من صادرات مصر، بمعنى أن تجارة مصر مع بحر إيجة كانت تمدها بجانب كبير مما تحتاج إليه من الفضة.

ومنذ أواخر القرن الثالث تأثرت تجارة مصر مع بحر إيجة بثلاثة عوامل رئيسية وهي: أولا، ضياع سيادتها البحرية، وثانيا، الشلل الذي أصاب اقتصادها من جراء الاضطرابات الداخلية، وثالثا، ما أحرزته برجام وبيثينيا وبونتوس وغيرها من التقدم الاقتصادي، ولا سيما في الزراعة، في خلال القرن الثاني قبل الميلاد. وليس معنى ذلك أنه قضي على تجارة مصر مع بحر إيجة قضاء تاما، إذ أن القرائن تشير إلى أن مصر كانت لا تزال تصدر إلى هذه الأرجاء بعض الحبوب فضلا عن بعض منتجاتها الأخرى مثل ورق البردي ومنسوجات الكتان والمصنوعات الزجاجية. وتشير القرائن كذلك إلى أن مصر أصبحت تستورد من بحر إيجة كميات كبيرة من [illegible]، بعد أن كان من زيت الزيتون.

وقد حرص البطالمة الأوائل [illegible] علاقات تجارية وثيقة مع الأسواق العربية، وجنوا من وراء ذلك فوائد طائلة. ولأن هذه الأسواق كانت [illegible] منتجات عربية، وكذلك [illegible] من منتجات [illegible] مصر [illegible]

وصقلية ، والقمح من بطالمة صقلية ، والفضة من إسبانيا ، والقصدير من بريطانيا عن طريق قرطجنة ومرسيليا ، والخيول من إيطاليا ، ويدل ذلك بوجه عام على أن علاقات مصر التجارية مع البلاد الغربية كانت نشيطة بوجه خاص في القرن الثالث قبل الميلاد حتى نشبت الحرب البونية الثانية فشلت هذه العلاقات ، لكن ليس من القرائن المحددة ما يؤيد أنه بعد أن وضعت هذه الحروب أوزارها أصبحت بالتحديد ثابتة تجارة مصر مع الأسواق الغربية ، التي حدثت بعد القرن الثاني مكان بعض الجهة وحدث هم كان لأسباب سياسية ، ومما يجدر بالملاحظة أن بطالمة لم تكن عندئذ في حاجة إلى حبوب مصر قدر حاجتها إلى منتجات الصناعة المصرية وموارد الثروة التي كانت مصر تستوردها من الصومال وبلاد العرب والهند ، وقد ساعد على رواج تجارة مصر مع الغرب تدمير قرطجنة تدميرا كاملا بعد الحرب البونية الثالثة .

وقد أظهر البطالمة اهتماما كبيرا بالتجارة مع الجنوب والشرق من أجل تصريف المنتجات المصرية مثل المنسوجات والزيوت والأواني الزجاجية والأسلحة وغيرها من منتجات القنان فضلا عن النبيذ المستورد من البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك من أجل الحصول من عالي النيل على العاج وجلود الحيوانات وخشب الأبنوس والصمغ ، ومن بلاد الصومال ومن بلاد العرب الجنوبية والهند ، وكان العرب يحتكرون تجارة الشرقية القادمة من ... على العطور والتوابل والبخور والمر والقرفة والعاج والأرز والأحجار الكريمة واللآلئ والأقمشة والقطن والحرير .

وكانت منتجات أعالي النيل تصل مصر إما عن طريق النيل أو طريق القوافل أو عن طريق أكسوم والبحر الأحمر . أما التجارة الشرقية فإنها كانت تسلك ثلاثة طرق رئيسية في سبيلها نحو البحر الأبيض المتوسط ، وهي أولا : الطريق الشمالي ، وكان يتجه من أواسط آسيا نحو بحر قزوين والبحر الأسود والبسفور والدردنيل . وثانيا : الطريق الأوسط ، وكان يأتي من الهند برا أو بحرا إلى سلوكيا على الدجلة ثم يتجه إلى دمشق وصور ، أو إلى أنطاكية ومنها إلى أفسوس . وثالثا : الطريق الجنوبي ، وكان طريقا بحريا من الهند إلى الموانئ في جنوب بلاد العرب أو جنوبية مصر ، وكانت أهمها في عهد البطالمة عدن وجزيرة سقطرى . وكانت المراكب الهندية تفرغ حمولتها في قبضة الأعراب ، فقد كانوا يحرصون أشد الحرص على هذه التجارة إلى حد أنهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بالمرور إلى ما بعد باب المندب .

وقد كانت منافذ هذه الطرق الثلاثة تقع في أيدي منافسي مصر : سوريا والسلوقيين وغيرهما ، وكان ملوك مصر يحرصون على وضع تجارة الشرق في قبضتهم ، فقد بذل البطالمة جهودا عظيمة في خلال القرن الثالث إلى

بالاستيلاء على الأقاليم التي تصنع فيها تلك المعابد . وعندما قام سلطان البطالمة من بحر ايجه وطردوا من آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وضعف في خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد ، اتجه اهتمام البطالمة ولا سيما في عهد بطلميوس الثامن منتصف هذا القرن الى البحر الأحمر ذاته للسيطرة على تجارة طريق الجنوب قبل بدوها ممالك ذلك الطريق . ولم يلبث أن امتد هذا الاهتمام الى المحيط الهندي أيضا

ولقد جنى بطلميوس الثامن أطيب الثمار من وراء الجهود التي بذلها لتنظيم الطريق الجنوبي وتأمينه اذ ازدادت باطراد مقادير التجارة الشرقية التي كانت تمر بمصر في عهده عما كانت عليه في عهد سلفه وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية عدة عوامل وهي (١) الاقبال المتزايد على السلع الشرقية (٢) كشف طرق الاستفادة من الرياح الموسمية مما يسر الابحار مباشرة الى الهند دون الالتجاء الى الاعراب ، (٣) ضعف مملكة السبوكيين بطبيراه (٤) انهيار مملكة سبأ في عام ١١٥ ق . م

وهكذا أحيى البطالمة الأواخر سيرة البطالمة الثلاثة الأوائل في تأمين وتنظيم الطريق البحري بين مصر ومضيق باب المندب ، لكن بينما كان البطالمة الأوائل يستهدفون من وراء ذلك سيرصيد الفيلة واستئناسها ونقلها من أجل استخدامها في جيوشهم ، وضمان الاتصال بجنوب بلاد النوبة حيث توجد مناجم الذهب ، وبلاد الصومال حيث تتوافر مواد لم يكن لمصر غنى عنها منذ عهد الفراعنة ، كان البطالمة الأواخر يستهدفون تنشيط التجارة مع بلاد الصومال وبلاد العرب الجنوبية والهند . أما صيد الفيلة فقد أصبح عديم الموضوع نتيجة لانتهاء البطالمة عن استخدام الفيلة في جيوشهم

وجملة القول أنه في خلال القرن الأول من حكم البطالمة ، ازدهرت الزراعة وتقدمت الصناعة وتداول النقد ، واتسع ملك البطالمة وعنايتهم بالسيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر وعلى منافذ طرق التجارة الشرقية ، والقيام العلاقات مع الدول الخارجية ، وراجت تجارة مصر الخارجية فوصلت منتجاتها شرقا حتى الصين وغربا حتى أسبانيا وشمالا حتى بريطانيا وجنوبا حتى أواسط افريقيا

ولقد صاحب تدهور الزراعة والصناعة ، وانكماش ممتلكات البطالمة الخارجية ، وضعف نفوذهم في السياسة الدولية انكماش تجارة مصر مع بحر ايجة وكذلك مع الشرق ورواء نقص موارد مصر نقص خطير وزيادة الاقبال على السلع الشرقية وجه البطالمة الأواخر وخاصة بطلميوس الثامن اهتمامهم بسط تجارة مصر مع الجنوب والشرق وقد حالف التوفيق أولئك البطالمة عند بلاد البحث ، شأن كبير كان له أثره في انتعاش تجارة مصر مع الأسواق العربية بعد أن كانت

الحرف اليونانية عند نشأتها والحقت بها صوراً خطية

رابعاً — النقود

حتى كانت مصر الاغريقية وبلاد الفرس تستخدم النقود منذ عدة قرون ، لم تكف مصر عن تنظيم معاملاتها على أساس التبادل ، الا أن هذا لا يعني أنها كانت تجهل تماماً استخدام النقود ، فقد كشفت الحفريات في ترامييس وسمنود وبني حسن في طبقة من الأرض سابقة على العهد المقدوني عن نقود اغريقية وفارسية ، بعضها أصيلة وبعضها تقليدات محلية ، مما يدل على أن هاتين العملتين كانتا متداولتين في مصر وتشكان فيه قبل الفتح المقدوني ، وان كان تداولهما محدوداً ، ويبدو أنه كان مقصوراً على الاغريق والفرس . فقد كان ملوك مصر في العصر الصاوي يستخدمون جنوداً مرتزقة من الاغريق كانوا يأخذون أجرهم نقداً ، وفي عهد الفرس كانت توجد في مصر حامية فارسية وكانت مصر تدفع لحكامها الجدد جزية نوعية من الحبوب وجزية نقدية

ويعزى الى الاسكندر الأكبر وخلفائه الفضل في سك عملة أخذ تداولها ينتشر في مصر رويداً رويداً وان لم يقض كلية على نظام التبادل . وتتألف عملة البطالمة من نقود ذهبية ونقود فضية ونقود برونزية ومما يجدر بالملاحظة أن النقود الذهبية والنقود الفضية نوعان أحدهما عادي وكان يسك في عهد الملك الذي يحمل صورته والآخر تذكاري لتخليد بعض ملوك الماضي . وكثيراً ما تحمل العملة الفضية عادة على الوجه صورة بطلميوس الأول مؤسس الأسرة ، واسم بطلميوس الذي حمله كل ملوك هذه الأسرة . وبطبيعة الحال تحمل النقود الذهبية والنقود الفضية غير العادية صور مختلف ملوك وملكات البطالمة الذين سكت هذه النقود لتخليد ذكراهم . وتحمل النقود البرونزية على وجهها في حالات كثيرة صوراً مأخوذة من الأساطير ؛ كان أغلبها رأس زيوس آمون ، وفي بعض الحالات رأس الاسكندر أو أحد ملوك أو ملكات البطالمة . وقد كان الطابع الذي يميز كل نقود البطالمة ، فيما عدا فئة محدودة أغلبها تذكاري ، يشتمل على نسر ويتألف من نسر واقف على صاعقة ، وأمامه أو تحت جناحه قرن واحد أو قرنان للرخاء . ونرى على ظهر النقود البرونزية التي سكت عندما كان يولايوس ولينايوس يتوليان الوصاية على بطلميوس السادس نسراً واقفاً على صاعقة وتحت جناحه الأيسر صولجان والى يساره زهرة اللوتس التي تعتبر أهم طابع لنقود بطلميوس السادس البرونزية . ونرى على ظهر النقود الفضية التي سكها بطلميوس الثاني عشر وابنته كليوباترة السابعة نسراً ويوجد درع خلفه تحت الجناح الأيسر للنسر وتاج ايزيس أمامه

أمثلة نقود البطالمة

١

٢

٣

٤

٥

١ ـ قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة نصفية لبطليموس الرابع وعلى الظهر نسر واقف على الصاعقة

٢ ـ قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة نصفية لبطليموس الخامس وعلى الظهر نسر واقف على الصاعقة

٣ ـ قطعة فضية من عهد بطليموس الأول تحمل على الوجه رأس الاسكندر وعلى الظهر أثينا بروماخوس

٤ قطعة ذهبية من عهد بطليموس الأول تحمل على الوجه رأس بطليموس الأول وعلى الظهر نسر واقف على صاعقة

٥ قطعة ذهبية سكت تذكارا لأرسنوي الثانية تحمل على الوجه رأس هذه الملكة وعلى الظهر قرني الوفرة

وقد كانت العملة الفضية أكثر العملات شيوعاً على عهد البطالمة الثلاثة الأوائل. وحتى منتصف عهد بطليموس الثاني لم تكن العملة البرونزية سوى عملة رمزية، لكن في النصف الثاني من عهد هذا الملك سكت كميات كبيرة من العملة البرونزية الثقيلة الوزن يستخدمها الناس بحسب قيمة ما فيها من معدن. وتشير الأدلة الأثرية والبردية التي ترجع إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد إلى أن العملة البرونزية الجديدة قد صادفت نجاحاً كبيراً.

وبعد الفتح المقدوني كانت العملة تسك في مصر على قاعدة النظام الأتيكي، لكن بعد أن اتخذ بطليموس الأول لقب ملك (حوالي ٣٠٥ ق. م) صغر قليلاً أوزان عملتيه الفضية والذهبية، أقل وزناً من العملة القديمة لتشجيع التجارة الخارجية والتوفيق بين العملة وأسعار المعادن النفيسة التي كانت تزداد باطراد في حالة الفضة وتتناقص في حالة الذهب. ولم تتفق قاعدة العملة الجديدة اتفاقاً تاماً مع قاعدة أي عملة معروفة عندئذ، لكنها كانت تقرب جداً من قاعدة النظام الرودسي. وبعد ذلك أنقص بطليموس الثاني وزن العملتين الفضية والذهبية لأنه بالاتحاد بوحدة العملة الجديدة. وقد احتفظ البطالمة حتى نهاية عهدهم بهذه القاعدة التي جعلها مع امبراطوريتهم البحرية وكذلك كل البلاد التي خضعت لنفوذهم بأي درجة كانت.

وحتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد كانت الفضة هي القاعدة الأساسية للعملة البطلمية. لكن عندما قلت الفضة التي كانت مصر تحصل عليها من تجارتها مع بلاد الإغريق نتيجة لانكماش تجارتها الخارجية بسبب سوء حالتها الاقتصادية، وضياع ممتلكاتها الخارجية، وفقدها سيطرتها على الطرق التجارية، ودخول الحروب البونية الثانية مرحلتها الحاسمة، اضطرت مصر إلى اتخاذ البرونز قاعدة أساسية للنقد. وإذا كان هذا التغيير قد أفضى إلى ازدياد تداول العملة البرونزية مع ما يقابل ذلك من نقص تداول العملة الفضية، فإنه لم يؤد إلى القضاء كلية على قاعدة الفضة.

ولما كانت حالة البلاد الاقتصادية قد أخذت تسير من سيء إلى أسوأ، ونقصت تبعاً لذلك موارد الحكومة بينما لم تنقص التزاماتها، فإنهم لتخفيف هذه الالتزامات على حساب سكان البلاد لجأوا إلى زيادة القيمة الاسمية للعملة البرونزية ثلاث مرات منذ حوالي عام ١٨٢ ق. م. حتى سقوط دولتهم. ففي آخر عهد بطليموس الخامس بلغت الأجور والأسعار ١٢٠ مرة كالأجور والأسعار المماثلة في عهد بطليموس الثاني والثالث. وعند منتصف القرن الثاني زادت الأجور والأسعار إلى ٢٤٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطليموس الثاني والثالث. وفي خلال القرن الأخير من حكم البطالمة بلغت الأجور والأسعار ٤٨٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطليموس الثاني والثالث.

الفصل الخامس

النظـــام المـــالي

الإدارة المالية — نظام الأراضي — تنظيم الصناعات والحرف — نظام التجـــارة
ضرائب شتى — نظام جباية الضرائب

أولا — الإدارة المالية

يجدر بنا أن نشير أولا إلى أن نظم البطالمة المالية كانت شرقية في جوهرها ، فقد كان سائدا في أن الملك صاحب الأرض وما عليها وما في باطنها ، وإلى أن الأهالي يعيشون عند الملك الإله بطاعة عمياء . ومع أن البطالمة صبغوا هذه النظم بصبغة إغريقية قوية تتضح في دقة صياغتها واصطلاحاتها وحرصه تنظيم الضرائب وإشراف الإدارة الثابتة على موارد الدولة المختلفة ، وخاصة في نظام محاسبة وأمر جبيه الذي لم يكن مصر عهدت مثله من قبل ، إلا أن هذه النظم احتفظت إلى حد كبير بجوهر النظم الفرعونية ، وهو يتلخص في مبدأين أساسيين : الامـتلاك الخـاص وحرية النشاط الاقتصادي .

وقد كان يختص بحسابات الداخل والخارج خزانة مركزية أطلق عليها اسم الخزانة الملكية ، وكان مدير هذه الخزانة يدعى ديويكيتس ، ويمكن تشبيهه بوزير المالية الآن ، فقد كان مسئولا عن كل الإدارة المالية في مصر وفي كل ممتلكاتها الخارجية . وكانت اختصاصات هذا الوزير فضفاضة واسعة ، فهو الذي كان يصدر أوامره في كل شئون الإدارة المالية محلا وخارجا في مصر وفي ولاياتها ، ويعين موظفي الإدارة المالية ويراقبهم ويعاقب المقصرين منهم ، وتشمل سلطاته على كل الذين يشتغلون باستغلال موارد الدولة مثل الأراضي والاحتكارات .

وتسعفنا معلومات وافرة عن وثائق زينون البردية عن أبولونيوس وزير مالية بطلميوس الثاني ، ويبدو أن أبولونيوس ظل في منصبه الكبير حوالي عام ٢٦٣ ق . م ، وبقي فيه حتى وفاة بطلميوس الثاني ، وبعد هرب وصودرت أملاكه قبل تعيين الخاص في عهد بطلميوس الثالث . ويتضح بوضوح من وثائق زينون أن أبولونيوس لم يقصر نشاطه على مهام منصبه فقط ، فهو لم يكن وزيرا فحسب بل كان أيضا تاجرا وصاحب ضياع ومصانع ويمتلك أسطولا بحريا وآخر نهريا . فكان

يونونيموس كان في طليعة أولئك الوزراء الذين لا يكتفون بالاطلاع على ما يعرض عليهم في مكاتبهم ، اذ نجده في الوثائق من حوالة [illegible] في أحد الأسفار على [illegible] [illegible] والحب [illegible] يعرض عليه من [illegible] وكان يجيب في بعض الأحيان عن الماضية [illegible] أشهر ، وتصحبه في هذه الرحلات حاشية كبيرة من الأعضاء والموظفين [illegible] كان بوزير ثانية حاشية [illegible] الأهمية صورة مصغرة لحاشية الملك

وكان يوجد الى جانب وزير المالية رئيس لمراقبة مراجع عام للحسابات والاحصاءات eklogistes كان له مفتشون منتشرون في المديريات . وكان للوزير نائب يساعدون كثيرون hypodioiketai يبدو أن كل واحد منهم كان يختص بالاشراف على سير منطقة معينة تشمل عددا من المديريات . وكان للادارة المالية المركزية مفتشون كثيرون منتشرون في المديريات والأقاليم والقرى ، ويختص كل منهم بمهام معينة تحت اشراف رقابة دقيقة . وكان هذا الجهاز [illegible] يحكم الدولة [illegible] رقابتها على مختلف مرافق البلاد الاقتصادية ، ولتطبيق النظم التي وضعت لتلك المرافق ، وجمع كافة البيانات الخاصة بالموارد التي تستمدها الدولة من كافة أنحاء كل مديرية ، وحساب محصولها في كل [illegible] [illegible] تدوينه في [illegible]

وقد لجأ البطالمة الى وسائل مختلفة لضمان [illegible] موظفيهم وحثهم على الأمانة مثل حلف اليمين ، [illegible] مختلفة [illegible] هذه الوسائل [illegible] في تحقيق [illegible] [illegible] ويرد ذلك الى ثلاثة عوامل وهي ولا [illegible] على [illegible] عن [illegible] الرشاوي التي كانوا يقدمونها مستشريين من أجل الحصول على مناصبهم ، وذلك [illegible] المطلقة التي كانوا يتمتعون بها [illegible] نتيجة تحكم الأجنبي واخضاعه [illegible] فلا عجب ازاء ذلك أن [illegible] الموظفون [illegible] [illegible] في [illegible] أشد [illegible] على البطالمة من المصريين الذين وقعت عليهم المظالم [illegible] [illegible] في وجه البطالمة

ثانيا — النظام الاداري :

لقد عرفنا أن البطالمة كانوا يعتبرون مصر ضيعة لهم بحق الفتح وحق الملوك الآلهة [illegible] ترتب على ذلك أن [illegible] كان من الناحية النظرية المالك الوحيد لهذه الضيعة ، ومن ثم يمكن تقسيم الأرض في عهد البطالمة حسب [illegible] قسمين [illegible] أرض الملك ، و أرض العطاء

١ — أرض الملك

وتشمل كل أرض مصر الصالحة للزراعة التي كان الملك يستثمرها مباشرة بتأجيرها لأفراد [illegible] كانوا يعرفون [illegible] الملك » . وكانت علاقات هؤلاء [illegible] [illegible] ترتكز على عقود كانت في [illegible] [illegible] [illegible] بعد [illegible] الأجل ، لكنه

كان من بين النتائج التي ... على تدهور الحالة الزراعية وفرار المزارعين من أراضيهم طالة مدة الجمود

ويتضح أن مزارعي الملك كانوا رجالا محرومين الا أنه كان يتعين عليهم زراعة الأرض التي استأجروها ودفع ضريبة عن إنتاجها طوال موسم الزراعة وحتى يستنفذوا جميع التزاماتهم قبله. وفضلا عن ذلك فانه لم يكن في وسع المستأجر أن يزرع الأرض التي استأجرها كما يشاء، بل وفقا للتعليمات التي كانت الحكومة تصدرها سنويا لتحديد المساحة التي يجب زراعتها في كل مديرية قمحا وشعيرا وأذرة وكتانا وحبوبا زيتية. ولكي تضمن الحكومة زراعة الأرض وجودة البذور، كانت تفرض على المستأجر أن يقترض منها البذور ... . وكان يتعين على المزارع أن يحصد المحصول وينقله الى الجرن الملكي ويدرسه تحت رقابة حراس مسئولين، والا يمس منه شيئا قبل أن يأخذ الملك كل ما يستحقه، وكان ذلك عبارة عن الايجار السنوي مضافا اليه أجر استخدام مواشي الملك والفائدة عن قرض البذور ونصيبه من الضرائب، فكان لا يبقى للفلاح بعد ذلك الا أقل من نصف محصوله في مقابل كل ما تكبده من جهد، فلا عجب أنه لم يكن يبقى راضيا عن حاله.

وعندما تدهورت الزراعة ازدادت حالة المزارعين سوءا حتى ان الكثيرين منهم لم يجدوا منفذا أمامهم الا ترك ... والهرب. وعندما أعيت الحكومة ... الحيل ... ، اضطرت الى الالتجاء الى الاكراه ... . وبدلا من ... استخدام ... ، أصبح ... منتشرا في كل أنحاء مصر.

٢ ـ أرض العطاء

ويبدو أنه لم يكن ... أرض عطاء ... حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد عندما ... الانواع الثانية من الأرض.

ـ الأرض المقدسة

كانت ثروة المعابد نوعين، وكان النوع الأول ملكا خاصا للآلهة. وكانت أهم أملاك الآلهة عبارة عن الأرض التي كان الملوك يمنحونها على مر الزمن لمختلف الآلهة، حتى أصبحت أوقاف الآلهة ممتلكات واسعة كانت مصدر ثروة الكهنة وأحد أسباب نفوذهم وسيطرتهم. فقد كان لكهنة كل معبد ... ادارة أرض معبودهم، الى أن ... البطالمة الأوائل ادارة أراضي المعابد المصرية ... الحكومة ... على رقاب الكهنة ... ، ... البطالمة كانوا ... من ... الحكومة لادارة أرض ... . وعلى كل حال يبدو أن الحكومة كانت ترد الجانب الأكبر من دخل ...

محبوسة في شكل مرتبات التي كانت تدفعها للكهنة . ويبين أنه حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، وبعد ضعف السلطة المركزية بدأت تعود للكهنة سيطرتهم على إدارة الأرض بأنفسهم.

أما النوع الثاني من ثروة المعابد فكان الكهنة يملكون أو ينتفعون بدخله لقيامهم بشئون العبادة ، فقد كان يتصل ببعض مناصب الكهنة موارد مختلفة تدر على شاغلي تلك المناصب دخلا معينا . ويبدو أنه قبل عصر البطالمة كان الكهنة يستطيعون التصرف في دخل هذه الموارد بالبيع أو التوريث ، لكن البطالمة جعلوا الحكومة هي التي تبيع مناصب الكهنة وما يتبعها من الموارد دون أن تعطي المشترين حق التصرف في تلك الموارد . وقد حرص البطالمة على هذا الحق حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد ، ومع ذلك تشير بعض الوثائق الى أن الكهنة درجوا فعلا على بيع مناصبهم ورهنها وتأجيرها وتقسيمها وتوريثها.

ب — الإقطاعات العسكرية

لقد سلفت القول إن البطالمة ، ولا سيما أوائلهم ، اعتمدوا الى حد كبير على مرتزقين من الأجانب في بناء قواتهم العسكرية . وقد درج البطالمة على منح أولئك المرتزقين إقطاعات كانت تعتبر بمثابة مرتباتهم في وقت السلم . وكان البطالمة يرجون من وراء ذلك ولاء وضمان سد حاجتهم الى الجند عند كلما اقتضى الأمر ذلك ، دون تحمل نفقات الاحتفاظ بجيش قائم . وكانت أيضا إحدى وسائل الاقتصادية جديدة في مصر ، وثالثة بث العنصر الإغريقي في أنحاء البلاد.

وكانت مساحة الإقطاع تختلف بحسب مرتبة الشخص ، وهل هو في فرق المشاة ، أم فرق الفرسان ذات الأرقام ، أم فرق الفرسان القومية ، وهل هو في الفرق النظامية ، أم في فرق الجنود المرتزقة ، أم في الفرق المصرية.

وفي أول الأمر كان الإقطاع ملكا للتاج ، وكان الملك يستطيع استرداده ولا سيما إذا أهمل رب الإقطاع في أداء واجباته أو توفي . ولما كان من صالح الملك أن يخلف رب الإقطاع جندي جديد في الجيش وفي الإقطاع ، وكان من صالح أسرة رب الإقطاع أن تستمر في استغلال الإقطاع ، فقد أدى هذا التوافق في مصالح الملك وأرباب الإقطاعات الى جعل الإقطاع وراثيا.

وفي القرن الثالث كان الملك يمنح الإقطاعات عادة من الأرض التي استصلحتها الحكومة . لكن عندما تطورت ملكية كثير من الإقطاعات الى ملكية خاصة ، وأفضى تدهور الزراعة الى نقص مساحة الأرض المزروعة ، لم يبق هناك مجال لإعطاء الجنود المحدثين سوى تلك الأراضي التي أصبحت مهجورة خلال سنين الاضطرابات العصيبة في القرن الثاني قبل الميلاد ضعيفة أو عديمة الخصوبة . ولما لم يكن كثير من أرباب

الاقطاعات عامرة بالزراعة ، وكانوا كذلك
يتمتعون بالحماية العسكرية ، وإن القسم
داخل العاصمة في مصر وفي الخارج ،
وللجنود مساواة بهم ، فإنهم كانوا يستخدمون
عمالاً ناجحين في زراعة مصرية .

والى جانب الاقطاعات كان يجب أن
يمنحوا مسكناً وفي القرى الجديدة كان
الملك أو أصحاب الضياع يشيدون لهم
بيوتاً ، أما في المدن والقرى القديمة ، فإن
الجنود كانوا يسكنون مساكن في بيوت
الأهالي ، وإذا كان المصريون بحكم أغلبيتهم
الغالبية العظمى من سكان البلاد ، قد تحملوا
العبء الأكبر من عبء إيواء الجنود ، فإن
الاغريق كانوا يشاركونهم تحمل هذا العبء
منذ القرن الثالث قبل الميلاد .

ج ـ أرض الهبات

وهذه الأرض نوعان ، كان أحدهما عبارة
عن أرض تمنح دخلها مثابة مرتب موظف
الحكومة الذي منح هذه الأرض . أما النوع
الآخر فكان عبارة عن الضياع الكبيرة التي
أهدتها البطالمة على أصحاب الحظوة لديهم
من كبار موظفيهم المدنيين والعسكريين ،
الذين اشتهر بعضهم بنشاطه وحسن تدبيره .

وتشير الوثائق الى أن الهبات قد تشمل
... ، أو أرضاً ...
... ، أو ... فقط ، والى أن الهبة
كانت منحة ... لا ...
... أو زرعي أو الكروم ، والى أن

الأرض الصالحة للزراعة في الضياع الموهوبة
... ، أي أنها كانت
... للتوسع ... وحراً ...

د ـ أرض الامتلاك الخاص

يتبين من الوثائق أنه كانت توجد في
جهات متفرقة في مصر مساحات كبيرة من
الأرض يمتلكها الأفراد ، وتشير الوثائق الى
أنه في بداية القرن الثاني قبل الميلاد كانت
زراعة الكروم وبساتين الفاكهة في الأرض
التي هجرت بسبب جفافها أو غمرها ...
عليه تكسب الزارع حق امتلاك هذه
الأرض امتلاكاً تاماً ، ولا يبعد أن هذه
القاعدة كانت متبعة منذ القرن الثالث أيضاً
وكان الأفراد يمتلكون كذلك امتلاكاً حراً
أراضي البناء وما عليها من مبان ، ويبدو أن
البطالمة قد عملوا منذ بداية عهدهم على
ازدياد مساحة أرض الامتلاك الخاص ، فقد
كان ذلك يساعد على التوسع في مساحة الأرض
المزروعة ، وعلى نشر غرس الكروم وبساتين
الفاكهة ، وعلى وجود طبقة من أصحاب
الأملاك تمد البطالمة بأعداد وفيرة من موظفين
ومزارعين وضامنين ، الذين يمكن الرجوع
على ممتلكاتهم في حالة عدم الوفاء
بالتزاماتهم .

ويتبين من الوثائق أنه كانت توجد في
جهات متفرقة ، وخاصة في الوجه القبلي ،
مساحات من الأرض ... ، وتمكن
التصرف فيها بالبيع والشراء والرهن

والكونت . ومع ذلك لا نستطيع اعتبارها ملكا حرا لأنها كانت تعود بعد موت صاحبها الى ... هذا النوع من الأرض كانوا يتمتعون بحق الانتفاع بها ، وان كان يسمح باسترداد هذه الأرض . واذا كان ذلك لا يعني ان أرباب هذه الأرض كانوا لا يملكون أرضهم ملكا حرا وانما يملكون فقط حق استغلالها ويستطيعون التصرف في هذا الحق مما جعل هذا النوع من الأرض شديد الشبه بالارض المملوكة امتلاكا حرا

ثالثا ـ نظام الصناعات والحرف

لقد كانت في جزيرة البطالمة كثير من أنواع الصناعات ، كما كانت تحت امرتهم أعداد كبيرة من الصناع مهرة ، وهكذا توافر لديهم العاملان الأساسيان اللذان يكفلان تحقيق أرباح وفيرة من الصناعة . وقد ترتب على استغلال هذين العاملين استغلالا منظما دقيقا الى ما يعرف باحتكارات البطالمة أو بالاقتصاد الموجه في ميدان الصناعة البطلمية . فقد كان البطالمة يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكارا كليا ، مثل استخراج الزيت والنسيج والجعة واستغلال المناجم والمحاجر وصناعة العطور ومصارفه المالية ، ويشرفون على بعض الأخرى ويحتكرونها احتكارا جزئيا مثل صناعة النسيج والورق ... وسنكتفي في هذا البحث بالكلام عن صناعتي الزيت والنسيج على الصفحات التالية

١ ـ صناعة الزيت

كانت لهذه الصناعة شأن كبير في مصر منذ عهد بعيد ... قبل عهد البطالمة ، فقد صاحب استصلاح الأرض ... والتوسع في زراعة النباتات الزيتية ، ووجهت البطالمة عناية كبيرة الى تنظيم هذه الصناعة تنظيما دقيقا لزيادة الانتاج وتحسين الصنف . ومعلوماتنا عن هذه الصناعة أوفى منها عن أي صناعة أخرى

ويتبين من اللوائح الخاصة بتنظيم هذه الصناعة ان البطالمة كانوا يرمون الى ثلاثة أهداف رئيسية وهي : أولا ، قصر استخراج الزيت على ملتزمي الدولة المستمدين من الحكومة حق التزام صناعة الزيت من السمسم أو الخروع أو القرطم ، لكن الحكومة كانت تسمح للمعابد بأن تصنع من زيت السمسم في خلال شهرين ما تحتاج اليه في عام واحد . وثانيا ، ألا يستخرج أحد زيتا خفية والا قدم للمحاكمة وفرضت عليه عقوبات صارمة ، وثالثا ، ان تتوفر مساحة الحاجة والأيدي العاملة لدى ملتزمي هذه الصناعة . فقد كانت تحدد كل عام مساحة الأرض التي تزرع بنباتات زيتية ، وقد فرض على الأهالي بيع المحصول كله بسعر معين لملتزم صناعة الزيت في منطقته ، وحظر على ... صناعة الزيت مغادرة المديرية الى ... أخرى

وكان ملتزم يسري حق الالتزام في

منطقة معينة مدة عامين ، ويعثر عليه عندئذ يستخرج الزيت من كل المحصول المزروع في مزرعتها ، في حين أن كمية معينة منها [illegible] للعام التالي .

ولكي تضمن الملكية احتكار الزيت إلى أقصى حد ممكن في حماية الإنتاج الداخلي من المنافسة الخارجية الشديدة فقد كان سعر الزيت في عالم الإغريق أقل تكلفة منه في مصر . ولذلك تقرر ألا يسمح لأحد باستيراد الزيت من الخارج للتجارة فيه أو أكثر من استهلاكه الشخصي مدة ثلاثة أيام ، وفي هذه الحالة كان عليه دفع ضريبة تعادل ٥٠ تقريبا من سعره . لكن يبدو أنه في القرن الثاني قبل الميلاد رفعت الحكومة الحظر الذي كانت قد فرضته من قبل على استيراد الزيت الأجنبي . وتقدر الأرباح التي كان البطالمة يجنونها من وراء احتكار صناعة الزيت وبيعه بنسبة [illegible] في المائة في حالة زيت السمسم و ٣٠٠ في حالة زيت العصفر .

٢ ـ صناعة النسيج

ويتبين من الوثائق المختلفة أن الحكومة كانت تحدد مساحة الأرض التي يجب زرعها كتانا ، ولهم أن يبيعوا لها بسعر معين مقدار معين محدد من محصول الكتان . وكانت الحكومة تبذل قصارى جهدها حتى يزاول النسيج في كل مديرية أكبر عدد ممكن من الأنوال . وكان على كل مديرية أن تقدم للحكومة كمية معينة فقط من الأقمشة والملابس التي تنتجها . ويبدو أن هذه الكمية كانت نسبة معينة من إنتاج الأنوال العاملة . وفي حالة العجز عن توريد كل تلك الكمية من المنسوجات تحسب قيمتها [illegible] الزائدة . وإلى جانب ضريبة المنسوجات [illegible] المستوى المطلوب كانت تفرض غرامات من أجل المحافظة على مستوى الصناعة . وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تفرض على النساجين دفع ضريبة خاصة كانت ضريبة الترخيص بمزاولة النسيج .

ولما كانت الحكومة لا تشتري كل محصول الكتان ولا تفرض على النساجين أن يقدموا لها كل منسوجاتهم فإنه يتبين من ذلك أنها كانت لا تحتكر هذه الصناعة احتكارا كليا مثل صناعة الزيت ، وإن كانت تشرف عليها وتستفيد منها . والأرجح أن الكتان الذي كانت تفرض بيعه لها بسعر معين كان يصنع في مصانع ملكية غير مصانع الأهالي .

ويمكننا أن نتبين مما أوردناه أن دخل الحكومة من الصناعات التي كانت لا تحتكرها احتكارا كليا كان عبارة عن نسبة معينة من إنتاج المشتغلين بها ، وضريبة لمزاولة هذه الصناعات .

٣ ـ المصارف المالية

ويبدو أن عملية تداول النقود في سائر الأقاليم المصرية قد وجدت في البلاد الإغريقية

بعد أخذ نداول النقد منتشراً وبعيم في تلك البلاد . أما مصر فإنها لم تعرفه فعلاً حتى جاءته بأدق معاني الكلمة إلا بعد أن غزاها في كل أنحائها بعد الفتح المقدوني .

وكان يوجد ثمة مصرف حكومي هو المصرف الملكي الرئيسي في الإسكندرية وفروعه في عواصم المديريات والأقاليم والقرى . وكانت توجد صلة وثيقة بين هذه المصارف الملكية وبين فروع الخزانة الملكية في أنحاء البلاد ، لكن بسبب عدم الخلط بينهما لأنهما وإن اتفقا في الاسم كان لكل منهما اختصاص معين فقد كانت المصارف الملكية تقوم بالأعمال المصرفية العادية ، أما عمال فروع الخزانة الملكية فإنها كانت مقصورة على تسلم كافة الأموال الأميرية على اختلاف أنواع مصادرها سواء من الأهالي أم من الملتزمين أم من موظفي الحكومة . وعندما أنشئ في القرن الثاني قبل الميلاد إدارة حساب خاصة أدى ذلك إلى إنشاء خزائن جديدة تدعى « خزائن الحساب الخاص » إلى جانب الخزائن الملكية .

وكان الملك يبيع حق إدارة المصارف الملكية لملتزمين بمقتضى عقود كانت مدتها أحياناً سنة وأحياناً خمس سنوات وأحياناً أكثر من ذلك . وكان الملك يضمن للملتزمين احتكار بيع النقود وتبديلها ، وعدم وجود مصارف على الأقل خالية من أموالها . فقد كان يتعين على الخزائن الملكية في القرى وفي المدن دفع ما تتسلمه من الأموال العامة إلى المصارف الملكية كل في منطقته كل عشرة أيام . ومن ثم يبدو أن الغرض من ذلك تمكين الملتزمين من تحقيق الأرباح التي يحصلون عليها من صافي دخلها .

ويبدو أن الاهتمام بالمصارف إنما على الأرجح مقتبس من الإغريق ، وكذلك كان أيضاً عملاؤهم . ولعل انتشار أعمال المصارف وحركة نشاطها بين الإغريق يرجع إلى قصر غالبية المصريين وقلة اهتمامهم باستخدام النقود ، ولا يبعد أنه كان يرجع كذلك إلى أن المصريين كانوا يفضلون أن يعهدوا بنقود آبائهم وأجدادهم ويضعوا أموالهم في حماية الآلهة ، فقد كانت المعابد منشآت مالية هامة تقوم بالكثير من أوجه نشاط المصارف الحالية .

رابعاً ـ النظام التجاري

١ ـ التجارة الداخلية

يتبين من الوثائق أن تجارة الحبوب الداخلية في مصر كانت حرة تحت عدة شكليات التي كان الملك يحتم على بعض الزراع أن يبيعوها إياه بسعر معين يبيعه بها فيما بعد حاجة المديريات التي تفتقر إلى ما تكتفي به من الحبوب . ويبدو ذلك أن الاتجار في الحبوب الداخلية كانت تشوبه بعض القيود ، ومن ثم لا يمكن القول بأنه كان حراً حرية مطلقة .

أما المحصولات الأخرى فإن الحكومة كانت تفرض بيع كل محصولها بسعر محدد للمزارعين صناعة الزيت . وكان حق بيع الزيت ناتج

ملتزمين بمقتضى مراد علي . وربما يحصل
بعضهم منه ان لم تكن على سعر الربح
... تحديد سعر السلع ... ،
... على ... في كل
مكان

وكانت الحكومة تحتكر بيع بعض المحاصيل
من محصول الكتان ... ...
المحصول فلم يكن خاضعا لأي قيد ، وكان
يباع في الأسواق بأسعار متداولة

ويتبين من كل ما سلف صحة ما ذهب
اليه البعض من أنه لم يكن للتجارة الحرة
وجود في مدن مصر وقراها ، اللهم إلا إذا
استثنينا الاسكندرية فيما يخرج

ويبدو أنه في حالة السلع التي كانت
الحكومة تحتكر شراءها وبيعها أو تحتم
إعطاءها نصيبا معينا منها كانت الحكومة
تعتبر تجار التجزئة بمثابة عملائها الذين
يساعدونها على بيع السلع للأهالي . ونرجح
أن كل أصحاب الحوانيت كانوا مجبرين
على الحصول من الحكومة على ترخيص
لمزاولة البيع ، وأن إعطاء الحكومة لهم مثل
ذلك جانب كبيرا من أرباحهم

ويتضح من إحدى وثائق القرن الثالث
قبل الميلاد ... كان ... بيع
... أحدهم ، السلع التي حددت
الحكومة أسعارها ... ويبدو ... هذه السلع
كانت ... على ... حساب ... من ...
الحكومة محتكرها ... ...

الربح ومسموحات ، ومن ... أحد ...
... والعطور ... فكانا
... السلع التي ... تحديد الحكومة أسعارها
كان ... الأشخاص الذين ... من
الحكومة حق شرائها وبيعها . فقد كان كثير
من ... خاضعة لنظام عوائد
أن يستأجر ... من الحكومة حق ...
... وبيعها في منطقة معينة مثل ...
... لكن في بعض الأحيان كان حق البيع
وحده هو الذي يستأجر مثل بيع اللحوم
و... ولا شك في أن أغلب
هؤلاء الملتزمين كانوا يحددون السعر وفقا
لحالة العرض والطلب ، لكنه لكيلا يمادي
التجار في أرباحهم ، رأى وزير المالية ألا يترك
لهم الحبل على الغارب ... إلى
وكلائه أن يحددوا لهم أرباحا معقولة . ومعنى
ذلك أنه حتى في حالة السلع التي كانت
الحكومة لا تحدد أسعارها بسبب لم يكن
الاتجار مطلقا ومحررا من كل قيد ، لأن
الأسعار كانت خاضعة لنوع من الإشراف
... ذلك أن كافة السلع التي لم تكن
لها أسعار محددة كانت خاضعة لإشراف
الحكومة ، ... الوثائق ... أسعار
... كانت متفاوتة من وقت إلى
آخر ... ومن مكان ...
... كانوا ...
... ذلك إلى أن ... كان أكثر ...
... العدالة

ويمكن أن نوجز موارد الحكومة من التجارة الداخلية في:

(أ) الأرباح التجارية التي تجنيها من المواد التي كانت تحتكر صنعها وبيعها أو شراءها وبيعها

(ب) الأجر الذي تجنيه نظير السماح بالتزام صنع وبيع سلع أو بيعها فقط

(جـ) الضرائب التي كانت تفرضها على تجار التجزئة

(د) الضرائب التي كانت تفرضها على الأهالي لقاء شراء مادة كانت الحكومة تحتكر صنعها أو استخراجها مثل الملح والجعة

(هـ) المكوس والعوائد التي كانت الحكومة تحصلها عند نقل السلع من منطقة الى أخرى

٢ ـ التجارة الخارجية

ويمكن تقسيم واردات مصر من ممتلكاتها ومن سائر بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبلاد الشبه العربية قسمين: أحدهما المواد التي كانت مصر تفتقر اليها مثل الأخشاب والمعادن والخيول، ويرجح ان اللازم منها لسد حاجة الجيش والأسطول وباقي مصالح الحكومة والمنشآت العامة كان استيراده وقفا على الملك، أما ما يلزم من هذه المواد لسد حاجة الأفراد فكان التجار هم الذين يستوردونه ويدفعون عنه مكوسا جمركية معلومة. وكان القسم الآخر يشمل سلعا تنتج مصر مثلها، وكان التجار هم الذين يستوردونها، فهذه السلع يدفعون عنها مكوسا مرتفعة. ويستبين من الوثائق ان البضائع المستوردة من الخارج على الأقل في عهد بطلميوس الثاني كانت أربع فئات بحسب المكوس الجمركية التي تجبى عنها، وكان قدرها ٥٠٪ عن الفئة الاولى و ٣٣⅓٪ عن الفئة الثانية و ٢٥٪ عن الفئة الثالثة و ٢٠٪ عن الفئة الرابعة. وكانت الفئة الاولى تشمل الزيت وعدة أنواع من النبيذ الفاخر …، والفئة الثانية نبيذ خيوس وثاسوس وكذلك …، والفئة الثالثة العسل والجبن واللحوم والأسماك المجففة والكوامخ والأسفنج والجوز والرمان والأبسطة …، والفئة الرابعة الصوف.

ومما يجدر ملاحظته انه اذا كانت هذه المكوس الجمركية تبدو مرتفعة جدا بالقياس الى المكوس التي كانت تجبى في باقي بلاد البحر الأبيض المتوسط، فان هذه المكوس البطلمية كانت تعادل الضرائب المفروضة على منتجات البلاد، فقد كانت ضريبتا ٥٠ و ٣٣⅓٪ اللتين تدفعهما … الأجنبي تقابلان ضريبتي النصف والثلث اللتين تجبيان من ريع الكروم، وكذلك كانت ضريبة ٢٥٪ المفروضة على العسل الأجنبي تقابل ضريبة الربع المفروضة على المناحل في مصر، وضريبة ٢٥٪ المفروضة على الأسماك المجففة تقابل ضريبة الربع المفروضة على صائدي الأسماك المحليين

أما الرصاص فقد كان استيراده محظوراً في القرن السادس قبل الميلاد إلا للاستعمال الخاص ، وكان محرماً على المصريين تصديره ، ويبدو أنه في حاجة للملك لسبب ما.

ويبدو مما أسلفناه ان المكوس الجمركية المرتفعة لم يقصد بها حماية المنتجات المصرية دائماً ، وانما قصد بها حماية موارد الحكومة من تلك المنتجات

أما عن واردات مصر من الجنوب والشرق فإنه يرجح ان الملك كان يحتكر شراء هذه السلع عندما كان التجار ينقلونها الى مصر أو ممتلكاتها ، وربما يصدق ان الملك كان يحتم بيع هذه السلع له بسعر محدد بحجة وصولها ولم تكن العطور والبخور والمر تستهلك عادة في شكلها الخام بل تحول الى روائح ومساحيق وأدوية ، لكننا لم نجد بعد في الوثائق شيئاً عن النظام الذي كانت تقوم عليه صناعتها ، وان كنا لا نستبعد ان البطالمة كانوا يحتكرون هذه الصناعة ولا نستبعد أيضاً ان البطالمة كانوا يحتكرون تصدير هذه السلع في شكلها الخام وكذلك بعد صنعها

ونحن لا نعرف اليوم كيف يمكن التمييز بين من كان يقوم بتصدير السلع الأخرى من مصر ، فقد سبق أن عرفنا ان صادرات مصر الى العالم الغربي لم تقتصر على سلع الجنوب والشرق فحسب بل كانت تشمل بعض منتجات مصر فقد كانت أهمها القمح والورق والمنسوجات ، لكنه ، وان كانت مصر كانت تصدر الى الجنوب والشرق كثيراً من مصنوعاتها مثل منسوجات الكتان والأواني الزجاجية والأسلحة وغيرها من مصنوعات المعادن وكذلك بعض المنتجات من محصول الأقاليم المتوسطة ولعل من نرى ان الملك كان يسهم في تجارة الصادرات لكنه لم يحتكرها ، وان كان يفرض عليها ضرائب ثقيلة من أجل الحصول على المال على ضرائب على مزاولتهم هذه التجارة ، وكذلك من أجل الحصول على المكوس الجمركية ورتب كل شيء من أجل ضمان عدم استيراد كل منتجات البلاد في التصدير ، خشية أن يقل المعروض في الأسواق المحلية فترتفع أسعار المعيشة تبعاً لذلك مما يفضي حتما الى زيادة تكاليف الانتاج فتقل أرباحه

خامساً ـ ضرائب شتى

وبالاضافة الى الضرائب المتعددة التي فرضها البطالمة على مزارعي الملك ومختلف أرباب الأراضي والمشتغلين بالحرف والصناعات والتجارة ، فرضوا على رعاياهم ضرائب شتى درت عليهم دخلا وفيراً ولعل أهم هذه الضرائب المتنوعة كانت الضرائب التي فرضوها على (١) مباني (٢) الماشية (٣) تسجيل العقود (٤) بيع والشراء (٥) الميراث (٦) انتقال ملكية الأملاك الثابتة (٧) الحمامات (٨) مستخدمي الطرق (٩) مستخدمي الطرق الخ وذلك فضلا عن السخرة وعدد من الضرائب الاضافية

سادساً – نظام جباية الضرائب

وقد لجأ البطالمة إلى نظام الالتزام في جباية الضرائب بوجه عام أو بصفة عامة. وكان الملتزمون لا يقومون بجباية الضرائب بأنفسهم، بل كانوا يسهمون في الإشراف على جبايتها، لأنهم يكتفون بالتعاقد مع الدولة، كانوا يضمنون لها الحصول على ما التزموا به من الضرائب على قدر معين من المزاد أو المال.

وكان يشهر سنوياً في المزاد دخل كل ضريبة على حدة في منطقة معينة ثم زاد إطلاقاً في كل حالة على مديرية واحدة ؛ وكان يعلن الإعلان عن المزاد وكل ما ينطوي عليه صيغة كافية تسجيل شروطه في مزيد يعرف ما سيشهر في المزاد. وكان المزاد يرسو على من يضمن للحكومة أكبر حصيلة ممكنة من ضريبة معينة. وتشير الوثائق إلى أنه كان يمكن السماح بفتح باب المزايدة من جديد بعد تمامه ، بشرط ألا تقل الزيادة المعروضة عن ١٠ ٪ مما كان المزاد قد رسا عليه. وكان يتعين على الملتزمين الذين يرسو المزاد عليهم أن يقدموا أشخاصاً يضمنون الوفاء بما تم التعاقد عليه. وكان يتعين على الضامنين أن يقدموا ممتلكاتهم رهناً للوفاء بالالتزام المتعاقد عليه ، بشرط أن تكون هذه الممتلكات خالية من أي التزامات أخرى.

وكان يقوم بجباية الضرائب موظفون حكوميون تحت إشراف مراقبين مختصين

وكذلك مصلحة الحكومة تقتضي أن تكون مصالح هؤلاء جميعاً واحدة بسبب أن موضع حصولهم يتقاضون من الحكومة أن جمعهم في أثناء مهمتهم ، فقد كان عليهم أن يساعدوا جميعاً على دافعي الضرائب. وهكذا كان هؤلاء يتنافسون تحت رحمة أشخاص كل همهم هو الخلاص من المسؤولية الملقاة على عاتقهم ، دون نظر إلى صالح دافعي الضرائب الذين ... على مضي الزمن بسبب ما أرهقوا به.

وكان ما يجمعه المحصلون يودع لحساب الملتزم في الخزائن الملكية إن كان نقداً ، وفي المخازن الملكية إن كان عيناً. وإذا تبين بعد الحساب الختامي آخر العام وجود زيادة في إيراد حصيلة الضريبة ، فإنها كانت تؤول إلى الملتزم ، أما إذا وجد عجز فإنه كان يطلب إلى الملتزم والضامنين تسديده في ... . وكان ذلك يستتبع الاستيلاء على أملاك الملتزم والضامنين حتى يتسدد العجز.

ويبدو أن مهنة التزام الضرائب كانت مصدر ربح غير قليل في بداية عهد البطالمة ، بدليل التنافس في مزيدها وكثرة عدد الملتزمين. لكن يبدو أن الحال قد تبدلت في الشطر الثاني من عصر البطالمة ، وإلا لما نصب بطلميوس الخامس على عطاء الملتزم مرتباً في حالة وفاته ... ثم ... وعدم حصوله على مكسب من مهنته

الفصل السادس

القضــــاء

القانون المدني — القانون الجنائي — الهيئات القضائية

لما كان المصريون أهالي البلاد ويؤلفون الغالبية العظمى من سكانها ، ولهم عادات وتقاليد راسخة وعوائد ونظم خاصة بالزواج والمواريث والوقف ، وكان الإغريق أكثر العناصر الأجنبية عددا وأجلهم شأنا وأوفرهم حظا من الحضارة ، فقد أدخل البطالمة كل هذه الاعتبارات في حسابهم عند وضعهم نظامهم القضائي . ويترتب على ذلك أنهم احتفظوا للمصريين بقدر ما تسمح الظروف ، بقوانينهم ونظمهم الموروثة ، فكانت تطبق عليهم قوانينهم المدنية التقليدية التي أطلق الإغريق عليها اسم « قوانين البلاد » .

أما إغريق مصر فإنهم كانوا ثلاث فئات وهي فئة مواطني المدن الإغريقية ، وفئة أعضاء الجمعيات القومية ، وفئة الإغريق الذين لم يكونوا مواطنين في مدن الإغريقية ولا أعضاء في جمعيات قومية . ولما كان لكل مدينة وجمعية مجموعة من القوانين الإغريقية الخاصة بها وتعرف « بقوانين المواطنين » وكانت قوانين كل مجموعة تختلف عن الأخرى فإنه من أجل التنسيق بين هذه القوانين وكذلك من أجل تنظيم معاملات الإغريق الذين لا ينتمون إلى تلك المدن والجمعيات كان البطالمة يصدرون أوامر ملكية مختلفة الأنواع .

وإذا كان البطالمة قد سمحوا للمصريين والإغريق بتنظيم معاملاتهم وفقا لأحكام قوانينهم المدنية التي كان يألفها كل منهم ، فإنهم أصدروا للمصريين قانونا جنائيا موحدا وفرضوا عليهم اتباع قواعد موحدة للإجراءات القضائية .

أولا — القانون المدني

١ — الأحوال الشخصية

لقد كان طبيعيا أن توجد فوارق عديدة بين التشريعين المصري والإغريقي ، ونرى مثلا واضحا لهذه الفوارق في نظرة كل منهما إلى المرأة ، فقد كانت المرأة تتمتع في كنف القانون المصري بمكانة اجتماعية وقدر من الاستقلال لم تعرفها لها الشرائع الإغريقية . وآية ذلك أن المرأة المصرية كانت لا تتزوج إلا بمحض إرادتها . وإذا كانت عادة تكفلها حتى الزواج إلى حد أنها كانت تحصل [illegible] في الواقع و [illegible] من [illegible]

العقد ... كان يعطي [illegible] مستطيع الانفصال عن
وجه معين للزوجين ، ومطالبته بالصداق لدى
نص عليه في عقد الزواج . [illegible] انصرف الى
نفسها وتعقد بملك دون [illegible] عليه [illegible] شرط
على حين ان المرأة كانت في نظر القانون
الاغريقي قاصر [illegible] ومن ثم في حاجة الى وصي
شرعي عليها في كل تصرفاتها . ولكن مطالبة
التساوي بين المرأة المصرية والمرأة الاغريقية ،
لا يرفع الثانية الى المكانة الاولى ، والسبب
الهبوط بالاولى الى مستوى الثانية حتى
لا تصيل المرأة الاغريقية بحالها . ونص
الاثر الاغريقي أيضا في بعض القوانين الخاصة
بالميراث مثل استخدام الوصايا ، وحق [illegible]
الزوجين في أن يرث الآخر ، وحق الشخص
في قبول ميراث أو رفضه . ومن ناحية أخرى
أثر القانون المصري في القانون الاغريقي
الخاص بالأحوال الشخصية ، فقد أخذ
الاغريق عن المصريين عقود الزواج الخاصة
بالنسب لكل مسائل مادية ، والقواعد الخاصة
بسيطرة الابوين على أبنائهما ، وبعض أحكام
ميراث مثل حق البنت في الارث بالتساوي
مع الولد وما شرط عدم وجود وصية
تخل بذلك

نصيب الزوجة ان ينص الطرفان معا حساب
زوجية ، وكذلك شروطا خاصة بالصداق وغير
ذلك من العلاقات المادية بين الطرفين ولا سيما
حقوق الأولاد . أما النوع الثاني من الزواج
المصري فانه زواج غير [illegible] فقد يتحول
بعدها الى زواج تام ، وقد ينتهي في آخر
مدة التجربة دون [illegible] عقد الزواج
دائمة بين الطرفين . ويتفق العلماء على
أن الزواج بين المصريين كان يقوم على التساوي
بين الطرفين ، وأن العقد لدى صاحبه
أنه كان لا ينشئ الزواج وانما يثبت وجوده
وينظم العلاقات المادية بين الطرفين ويحفظ
حقوق الأولاد

أما عن الزواج بين الاغريق ، فانهم في
الاسكندرية وبطوليميس كانوا يحررون
عقدين أحدهما مدني والآخر ديني . وكان
الاغريق الذين يعيشون خارج هاتين المدينتين
يعرفون نوعين من العقود وهما العقود
الأساسية [illegible] والعقود المباشرة . وقد كان
هذان النوعان من العقود يمثلان نوعين من
التوثيق لنوع واحد من الزواج ، ويقصد بهما
تنظيم العلاقات الشخصية والمادية بين الطرفين
والنسب وحقوق الأولاد

ويعتقد كثير من العلماء ان تعدد أنواع
[illegible] الزواج [illegible]
[illegible] الزواج الكامل والآخر
[illegible] والتجربة . ويعتبر النوع
الاول [illegible] زواج [illegible]

وكان القانون المصري والاغريقي كان
[illegible] طلاقا . وكان الطلاق
يتم بمجرد [illegible] الطرفين [illegible]
[illegible] لأحد الطرفين
حقوق ضد الطرف الآخر

ويعرف القانونان المصري والاغريقي تفرقة واضحة بين الأخ ... و ... وكان الصلة ثلاث ... وهي ... الأفراد ... .

وقد كان من حق المصريين والاغريق على السواء عمل وصيات . ولكي تكون الوصية صحيحة كان يجب أن يحررها موثق العقود ، لكنه كان في وسع الموصي أن يقوم بعمله ثم يقدمها الى موثق العقود . وفي الحالتين كان يجب اتمام ذلك بشهادة الشهود . وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون المصري يرتب الورثة ... تأتي في مقدمتهم ... الاولاد ، وكان يحق للابن الأكبر أن يأخذ نصيبا يعادل ضعف نصيب أخيه الأصغر الذي كانت أخته تساوي معه في مقدار النصيب . وكان من حق الأحفاد الحصول على نصيب أبيهم اذا توفي قبل جدهم . وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون الاغريقي يمنح الأبناء الأشقاء في وراثة آبائهم ، وكانت أنصبة الأبناء متساوية ويحق للبنات مشاركتهم في الارث اذا لم يكن قد ... مهورهن .

٢ — الاحوال العينية

ويعتبر تحرير العقود وتسجيلها ... الناس لأسباب حقوق ملكية في ... مختصرة . وقد كان تحرير العقود في مصر الفرعونية وقفا على فئة ... أو الجماعات الدينية ... في عصر البطالمة فان تحرير العقود لم يعد مقصورا على ... الفئة .

فقد عرف هذه المهنة أفراد من سائر الناس . وقد كانت العقود تحرر ... وفقا لأحكام القانون المصري أو ... أحكام القانون الاغريقي . والى جانب العقود المكتوبة كان العرف المصري يعرف الاتفاقات الشفوية ، وكان على المدين الذي ينكر أنه ... على الدين أن يقسم على صحة ما يقول .

ولضمان تنفيذ العقود بأمانة كان المصريون والاغريق يضعون فيها شروطا جزائية كانت مألوفة في القانون الاغريقي ، مما يدل على أن قانون المدين الاغريقي قد طبق في مصر على المصريين والاغريق سواء بسواء منذ بداية عصر البطالمة . ولابد من أنه قد ... ذلك ... قانون ... بوكخوريس الذي كان لا يسمح بحبس المدين أو استعباده .

ومن أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون المصري يعرف بوسائل أخرى قديمة العهد غير تسجيل العقود و ... فيها على شروط جزائية ، فانه منذ القدم كان الدائنون يحتاطون بوسائل متعددة ... مدينين أو ... و ... هذه الوسائل ... نجاره ... ومعنى ذلك أنه ... القرض ... الدائن ... وجه ... الدائن ... الوسيلة ...

ـه بمعرفة (ا ض التصادق) وهو في مصدره
القانون حق دائن على مدين في ذمته
المدين غير ... ذمته بمعنى سداد الدين
... الثالثة حالة ... بمعرفة
« بالبيع الوفائي » وتتلخص في أن يبيع المدين
للدائن العين المقدمة ضمانا للدين مع احتفاظ
الأول بحق استرجاع عقاره عند سداد
الدين

ووفقا لأحكام القانون المصري كان التزام
المدين قبل الدائن لا ينقضي بسداد الدين بل
باسترداد قطعة ... الدين بمقتضاه
... ووفقا لأحكام القانون الاغريقي كان التزام
المدين كان في الأصل ينقضي بسداد الدين
لكن لم يحدث أن ... بين الأغريق مبدأ
المصري القائل ... الالتزام قائم طالما بقي
العقد ... وبعد أن كانت تحدد هذه وسائل
مواجهة ذلك ، كان من بينها حصول المدين
على ايصال يثبت فيه أنه ... الدائن
حقوق عنه ، أو رد العقد ... بعقد
جديد يتضمن النص فيه ... كل
التزامات الدائن لدى المدين

ويعطي ... ولها بالقروض الفوائد
التي تجبى ... وثائق البردية
الحديثة ... مسموح به رسميا
للفائدة على القروض كان ٢٠ ، شهريا أي
٢٤ سنويا ... الحد
... من ... كانت ... جميع ... بين ... الا
... المدينون كانوا

محصورة الى الحيلة بادماج الفائدة في مبلغ
... الأصلي في العقد حتى
... وفي حالة عدم الوفاء كان المدين لا
... كان ... على ... غرامة
... عليها في العقد ... وكان القانون
الاغريقي يسمح بأن تصل هذه الغرامة الى
مثل الدين الأصلي ، أما القانون المصري
فكان يكتفي بنصف ذلك ، ... كان
يحدث هذا حتى في حالة العقود الاغريقية

وكان القانونان المصري والاغريقي
يعرفان حق الأفراد في مباشرة أعمالهم عن
طريق الوكلاء ، ... الى التحكيم في
حالة حدوث خلاف على تفسير أحكام العقود ،
وتألف شركات تجارية أو ... مباشرة
أعمال عامة أو خاصة وكانت الأغلبية العامة
التي تتكون شركات من أجل مباشرتها لتحصيل
... الضرائب و... الحكومة ، وكان
الشركاء مسئولين أمام الدولة عن العجز
الناجم عن عدم الوفاء بالتزاماتهم ...
الألفت الشركة مباشرة أعمال عامة أم خاصة
كان يحدد علاقة الشركاء بعضهم ببعض عقد
كتابي يثبت فيه حقوق كل شريك وواجباته

وكان القانونان المصري والاغريقي
يتضمنان أحكاما ... بين حقوق الطرفين
اللذين يتعاقدان على استئجار أراضي أو مباني
أو ... أو ... أو ... وكان يسمح
للمستأجر أي نوع من أنواع الا... بتأجير
الأرض من الباطن الا اذا نص في عقد الايجار
الأصلي على خلاف ذلك

ولكل صفقة من صفقات البيع المصرية كان يحرر عقدان يطلق على أحدهما « عقد الثمن » وعلى الآخر « عقد التنازل » وكان ينص في الأول على تسلم البائع من المشتري الثمن وعلى بيان الشيء المبيع وعلى التزام الاتفاق بين الطرفين على هذا العقد . وكان ينص في العقد الثاني على تنازل البائع للمشتري عن كل ماله من حقوق على العين المبيعة .

وكما كان التداخل كل من التشريعين المصري والاغريقي مع بعضهما بعض نتائج واضحة في قوانين الأحوال الشخصية ، كذلك كان لهذا التداخل نتائجه في قوانين الأحوال العينية . ويبدو مظاهر الأثر الاغريقي فيما أدخل على القوانين المصرية من الأحكام الخاصة بالملكية الفردية . أما الاغريق فانهم أخذوا عن المصريين بعض أحكام القانون المصري الخاصة بالالتزامات و « رهن الضمان » و « البيع الوفائي » وأهم نصوص عقدي المال والتنازل التي أدمجوها في عقد واحد شاع استخدامه في البيوع .

والثابت من الوثائق أنه في عصر البطالمة كان الحكم الذي تصدره محكمة مصرية لا يعتبر قاطعا ونهائيا إلا إذا صدر حكم ... ... وهذا ان الفقه الاغريقي قد تأثر بهذا المبدأ المصري في بعض الحالات .

ثانيا — القانون الجنائي

وكان القانون الجنائي البطلمي يفرق بين خمسة أنواع من الجرائم وهي :

الجرائم التي ترتكب ضد شخص الافراد أو ممتلكاتهم ، وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقوة أو الاسراع و ... أو التهديد بالاعتداء واستخدام القوة لتحقيق مأرب معين والسرقة وإحداث الضرر بممتلكات الغير والغش والتزوير والتدليس .

ومما يسترعي الانتباه أن في كل هذه الجرائم كانت اقامة الدعوى من شأن المعتدى عليه الى حد أنه اذا لم يمثل أمام المحكمة ينطوي مهمة الاتهام سقطت الدعوى المتهم .

٢ — الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة الملكية . وكانت هذه الجرائم فئتين رئيسيتين : إحداهما الجرائم التي تؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر في دخل الخزانة من الضرائب ، وكان يمكن أن يرتكبها ملتزمو الضرائب أو عمال المالية أو الملتزمون أو ضامنوهم ممن يسهمون في التزام الضرائب .

وكانت الفئة الأخرى تشمل الجرائم التي ترتكب ضد تجارة الملكية فيما يتعلق بالسلع من احتكارات والاحتكارات .

ومما يجدر بالملاحظة أنه في حالة حدوث عرد مع الحرية الملكية حظر على المحامين الدفاع عنه ضد مصالح التجارة وإلا تعرضوا لعقوبة صارمة .

٣ — جرائم الخيانة العظمى ، وقد كان القانون البطلمي لا يفرق بين الدولة والتاج ومن ثم تعتبر الجرائم التي ترتكب ضد الدولة جرائم ضد التاج . وقد ترتب على فكرة حق الملوك الإلهي أن أصبغت على هذه الجرائم صبغة دينية وكان يعاقب فيها على هذا النحو . وكانت هذه الجرائم تشمل عدم تقديم الاحترام الواجب للملك وأسرته ، والثورة ضد الملك ، والحنث بالقسم الملكي .

٤ — إساءة استخدام الحقوق العامة ، كان يعتبر الشخص بدون وجه حق لقبه الجنسي والسياسي .

٥ — الجرائم الدينية ، وتتحدث الوثائق البردية البطلمية عن انتهاك حرمة الأماكن المقدسة ، وعن إساءة استخدام حق الالتجاء إلى المعابد .

ثالثاً — الهيئات القضائية

وكان الملك يعتبر كبير القضاة في البلاد ، لكنه كان عادة ينيب عنه قضاة آخرين للفصل في المنازعات بين رعاياه . ونحن نعتقد أنه لم يوجد عندئذ تفرقة بين القضاء المدني والقضاء الجنائي ، وإن كنا نعتقد أنه كانت توجد تفرقة بين الجرائم الخطيرة أو الهامة مثل الخيانة العظمى والقتل ، وبين الجرائم العادية أو التافهة مثل مختلف أنواع الاعتداء على الأشخاص أو أموالهم . ونحن نرجح أن سائر المحاكم كانت تنظر في القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية . أما الجرائم الخطيرة فلا يعلم فيها كانت من اختصاص محكمة خاصة تبعاً لما كانت تدعوه مصادر القديمة « محكمة الملك » .

ويمكن تقسيم الهيئات القضائية في عهد البطالمة إلى أربعة أنواع وهي : (١) محاكم المصريين ، (٢) محاكم الإغريق ، (٣) المحاكم المختلطة ، (٤) محاكم القضاء الخاص .

١ — محاكم المصريين

وتتبين من وثائق القرن الثاني قبل الميلاد أن محاكم المصريين كانت تتألف من ثلاثة قضاة من الكهنة المصريين ، فضلاً عن عضو آخر لم يكن قاضياً ولكنه كان يقوم بدور هام جداً ، وهو تلخيص القضايا وتحضيرها وتلاوة الوثائق أمام المحكمة عند انعقادها وتنفيذ ما يصدره من الأحكام . ويدل اسم هذا العضو واسم منصبه على أنه كان إغريقياً . ولعل البطالمة قد استحدثوا مهمة هذا العضو لمراقبة سير العدالة في المحاكم الوطنية ، ولا سيما بعد أن وضعوا قانوناً جنائياً موحداً للمصريين والإغريق . وكانت هذه المحاكم تختص بالفصل في قضايا المصريين وكذلك القضايا المدنية التي يكون موضوع النزاع فيها عقداً مصرياً حتى ولو كان أحد طرفي الخصومة إغريقياً .

٢ — محاكم الإغريق

وكانت توجد في مصر عدة أنواع من المحاكم الإغريقية ، وأكثر المعلومات التي

بدأت تختص في محاكم القضاة الاغريق ... وكانت محاكم مستقلة للفصل في قضايا الاغريق وغيرهم من الأجانب الذين يعيشون في مختلف أرجاء مصر ولم يكونوا مواطنين في احدى مدن مصر الاغريقية . ويبدو أن مهمة هؤلاء القضاة الاغريق ... معينة لا نعرف مداها على وجه التحديد ، وأن كل هيئة من هذه الهيئات القضائية الاغريقية كانت تتألف من ثلاثة قضاة وعضو يفحص القضايا ويحضرها وكاتب ومحضر . وكانت كل هيئة تختص بالفصل في قضايا منطقة معينة تشمل عددا من المديريات . ويرجح أن المحكمة كانت لا تنعقد الا في عواصم المديريات المختلفة والمدن الكبيرة .

وتذكر وثيقة بردية مشهورة نوعين جديدين من المحاكم الاغريقية في الاسكندرية كان أحدهما يتألف من عشرة محلفين ويشكلهم القضاة ومحضرهم ، وكان الآخر يتألف من مشكلين يعملون تحت اشراف حارس القوانين . ويحتمل أن النوع الأول هو الذي كان يفصل في قضايا هيئة المواطنين عندما يحتفل النوع الثاني في فض الخلافات ودیا بين المتخاصمين . واذا كنا نسلم بوجود محكمة القصر و محكمة الملك في عهد البطالمة ، ... ولا نستطيع الجزم باختصاصاتها .

وكانت ... محاكمها الخاصة بالفصل في قضايا مواطنيها باعتبارها مدينة اغريقية . وفضلا عن ذلك فان محكمة القضاة الاغريق ... كانت تنعقد فيها مثل ما كانت تنعقد في الاسكندرية للفصل في قضايا الاغريق وغيرهم من الأجانب الذين ... هناك . ... مدينة الاغريقية الثالثة في مصر ، وهي بطلمية ، فاننا لا نعرف شيئا على الاطلاق عن القضاء فيها .

٣ ـ المحكمة المختلطة

ولقد كان طبيعيا أن يؤدي التعامل بين المصريين والاغريق الى نشوب قضايا يكون طرفا الخصومة فيها من جنسين مختلفين . وتحدثنا وثائق القرن الثالث قبل الميلاد عن محكمة مختلطة لا نعرف كيفية تكوينها ولا مدى اختصاصاتها ، لكن يرجح أنها كانت تختص بالفصل في القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية بين المصريين والاغريق . ولا يبعد أن هذه المحكمة قد فقدت كثيرا من أهميتها عندما فقدت اختصاصاتها تبعا لأحكام القرار الذي أصدره بطلميوس الثامن يوارجتيس الثاني في عام ١١٨ ق . م بأنه اذا نشب خلاف بين مصري واغريقي بسبب عقد محرر بينهما فان لغة هذا العقد هي التي كانت تقرر نوع القانون الذي يطبق وتبعا لذلك نوع المحكمة التي تعرض الخلاف عليها . فاذا كان العقد مصريا فان القانون المصري هو الذي كان يطبق والمحكمة المصرية هي التي كانت مختصة بالفصل في الموضوع . أما اذا

كان العقد إغريقياً فإن القانون الإغريقي هو الذي كان يطبق ومحكمة القضاة الإغريق هي التي كانت صاحبة الاختصاص في الفصل في الدعوى. أما إذا نشب خلاف بين طرفين مصريين فإنه كان يعرض الأمر على محكمة القضاة المصريين. ويبدو أن القرار لم يشر إلى القضايا التي تنشأ بين طرفين إغريقيين لأنه لم يكن هناك أي شك في أن ذلك كان من اختصاص محاكم القضاة الإغريق. وإذا كان هذا القرار خاصاً بالقضايا المدنية فلابد من أن القضايا الجنائية بين طرفين ينتميان إلى جنسين مختلفين قد بقيت من اختصاص المحكمة المختلطة.

٤ ـ محاكم القضاء الخاص

وقد كان يدخل في نطاق « القضاء الخاص » أولاً الشكاوى الموجهة ضد موظفي الإدارة وعمال الملك، وثانياً القضايا التي تمس موضوعاتها موارد الملك، وثالثاً القضايا التي تخص الأشخاص الذين يعملون في موارد الملك حتى لو كان موضوع هذه القضايا لا يمس تلك الموارد. وقد كان يفصل في كل هذه القضايا الموظفون المختصون وكبار موظفيه أو هيئات قضائية يرأسها هؤلاء الموظفون. ولما كان لأكثر هذه القضايا صبغة مالية فقد كان يقوم بدور كبير في القضاء الخاص وزير المالية ومساعدوه.

ويبدو أن البطالمة قد أنشأوا أيضاً محاكم خاصة برجال الجيش، فقد وصلت إلينا من القرن الثاني وثائق تحدثت عن نظر قضايا بين رجال من الجيش أمام محكمة مثل محكمة العشرة التي مر بنا ذكرها عند الكلام عن القضاء في الإسكندرية.

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية

الإغريق - المصريون - الثورات القومية المصرية

أولا — الإغريق

١ — حالهم في عهد البطالمة الأوائل

عرفنا أن البطالمة الثلاثة الأوائل كانوا في حاجة ملحة الى الاغريق لتكوين جيوش وأساطيل من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم وكذلك لاعادة تنظيم شئون الادارة والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا . وإزاء كل ذلك كان يتعين على البطالمة ألا يكتفوا فقط بفتح أبواب مصر على مصاريعها للأجانب ، بل أن يجزلوا لهم العطاء ويمنحوهم مركزا ممتازا في وطنهم الجديد ، ليضمنوا استمرار وفودهم على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام . وينبغي أن نتذكر الى جانب ذلك أنه في وقت كان العالم الاغريقي هو كل شيء ، وأن الحضارة الاغريقية كانت أسمى الحضارات وأرفعها شأنا ، وأن حظ الناس كان يقاس بمقدار حظهم من تلك الحضارة . ولذا فإن البطالمة كانوا لا يستطيعون أن ينشدوا لأنفسهم مجدا سامقا في نظر العالم الاغريقي باعتبارهم فراعنة مصر مهما أنفقوا في بلاد الاغريق من الأموال ، وبذلك كان يجب أن يكون مظهر مصر اغريقيا وأن تبدو مصر في ذلك العالم باعتبارها دولة اغريقية لا دولة شرقية .

وإزاء الظروف الخارجية التي أحاطت ببطلميوس الأول حين كان يرمي الى توطيد دولته في مصر ، كان يتعين عليه أن يعمل على اجتذاب الاغريق الى مصر والاستقرار فيها بشتى الوسائل ، دون أن يهمل في الوقت نفسه مشاعر المصريين . ولعله لم يجد مندوحة له في بادىء الأمر عن ارضاء المصريين فحسب ، بل أيضا وقبل كل شيء لأنه كان أكثر أمنا فيها من الاعتداءات الخارجية ؛ إذ أنه ما كاد يستشعر مقدرة جيشه وأسطوله على تأمين مركزه في الاسكندرية حتى نقل مقره الى هذه المدينة الاغريقية . وإذا كان قد استخدم بعض المصريين في المناصب الادارية الهامة أو سمح لهم بالاستمرار فيها ، فانه يبدو محتملا أنه اتخذ أغلب مستخدميه الاداريين من جاليته على سكناه في التدريب والتمكين . وقد ضمن هؤلاء الاغريق لمعاونيهم ما ضمن لاخوانهم في شتى نواحي الحياة المصرية أثرا طيبا ومركزا ممتازا .

ولا جدال في أن السياسة العامة التي اتبعها بطلميوس الثاني كانت تستهدف محاباة الاغريق على حساب المصريين ونشر الحضارة الاغريقية في أرجاء البلاد . وتشير كل الدلائل الى أن بطلميوس الثالث قد سار على نهج سياسة أبيه . ويبدو أن البطالمة الأوائل قد أقاموا حكمهم في مصر باعتبارهم غزاة فاتحين فلم ينسوا أو يتناسوا إطلاقا أصلهم الأجنبي ولم يعتمدوا في تأييد سلطانهم الا على الاغريق والمقدونيين الذين كانوا يشاركونهم الفخر بأصلهم والاعتزاز بحضارتهم .

وقد كان أول مظاهر عطف البطالمة الأوائل على الاغريق تهيئة البيئة المناسبة لتقبلهم ، ولذلك عنوا بإنشاء الاسكندرية وجعلها مظهر الحياة الخليقة بالمدن الاغريقية حتى غدت أعظم هذه المدن في البحر الأبيض المتوسط . وأنشأ بطلميوس الأول مدينة بطوليميس ووفر بها كل أسباب الحياة الاغريقية . وفضلا عن ذلك فان نقراطيس ، تلك المدينة الاغريقية القديمة ، استمرت تنعم بما ألفته من نظم الحياة الاغريقية وأساليبها . وقد كان هدف البطالمة من وراء كل ذلك أن يحتفظ الاغريق الذين ينزلون في هذه المدن بحضارتهم الاغريقية في طول مصر وعرضها .

أن الاغريق الذين ضاقت بهم مدن مصر الاغريقية ، فانهم تفرقوا في جميع أنحاء الوادي واستقروا في المدن والقرى المصرية القديمة أو في القرى الجديدة التي أنشأتها لهم البطالمة وخاصة في الفيوم . ولذا كنا نجد بين هؤلاء الاغريق عددا من مواطني مدن الاغريقية ، فان أكثرهم كانوا أصلا مواطني مدن أخرى في العالم الاغريقي . وعند استقرار هؤلاء الاغريق في وطنهم الجديد ظلت سلالة عليهم الاحتفاظ بلقبهم تنسبهم الى المدن عند ذكر أسمائهم في الوثائق الرسمية . وقد كان سكان مصر من غير أهلها الوطنيين ينقسمون طبقات متفاوتة في المرتبة يميزها ألقاب سياسية وجنسية ، وكان محظورا الانتقال من احدى طبقات السكان الى طبقة أخرى دون الحصول على اذن بذلك من الملك .

وقد كان الاغريق يؤلفون جماعات كانت أهمها شأنا تلك الجماعات القومية التي كان أعضاؤها يتصلون اتصالا وثيقا بالجيش ، ويتألف كل منها ممن ينتسبون الى قومية معينة . وقد كان لكل جماعة من هذه الجماعات مجموعة قوانينها الخاصة ويظهر فيها بوضوح أثر المدن الأيونية والدورية والايولية التي وفد منها أعضاؤها في الأصل . واذا كان البطالمة قد اعترفوا بهذه الجمعيات فانهم مع ذلك عملوا على التنسيق بينها بما كانوا يصدرونه من مختلف أنواع الأوامر الملكية . وقد كانت هذه الجماعات منظمة على نمط المدن الاغريقية ، تتمتع بقدر من الحكم الذاتي ، وتكل منها حكامها وكهنتها ومعابدها في محافل معينة .

وتدل على هذه الجمعيات في الأهمية

أو بعدها كانت تمضي لها جلسات جمعية الجمعة يوم فقد كان للاغريق ، حيثما وجدوا سواء في المدن الاغريقية أم في المدن والقرى المصرية ، يمضون بهذه المقاهد الجمعية التي كانت موضع الحياة الاجتماعية والفكرية في بلاد الاغريق منذ أقدم العصور

وكانت تأتي بعد ذلك في الأهمية جمعيات اغريقية كان لها طابع ديني أو اجتماعي ويمكن تفسير هذه الجمعيات بين الاغريق المصريين بميل هؤلاء الاغريق الى نوع من الحياة الاجتماعية يعيضهم الى حد ما عن جانب من حياة المدينة ما كان عزيزاً عليهم قريباً الى قلوبهم ولكنهم حرموه في مصر ، اذ لم يكن أغلب اغريق مصر مواطنين في مدن يشتركون في مجالسها و جمعياتها ، فلا عجب أن شعروا بتلك الجمعيات لتوفر لهم الاجتماع والمناقشة والاتحاد

٢ ـ علاقاتهم بالمصريين

ولا جدال في أن أوساط الاجانب ، الذين وفدوا على مصر أفواجا تلو أفواج في خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، كانوا يكونون طبقة منفصلة عن سكان البلاد تفصلهم عن رأى شقة من اهلها فقد كان مركز هؤلاء الأجانب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي مختلفا عن مركز المصريين بأكثر من امتياز وحتى ان الاغريق في تلك البلاد لم يكونوا يطبقون العرف في البلاد ويصرون على ... صاحب ... يسمعون بحيرة ... مصر ، وعاش و أنفسهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضارات الاخرى ، ويعيشون في أوساط خاصة بهم ، ويحبون حياتهم التي اعتادوا أن يحيوها في بلادهم . كان المصريون يؤمنون بالعنجة ... ويعتبرون أنهم سيبقون كراماً كما سلبوا خيرات بلادهم ، ومع ذلك ... يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم ويذكرون مجدهم التليد . وراء كل ذلك نستطيع أن نوفق بين فكرة الزواج بين المصريين والاغريق في الشطر الاول من حكم البطالمة كان أمراً بعيد الاحتمال . ومع ذلك لا يمكن الجزم بأنه لم يحدث مثله أي تزاوج على الاطلاق

٣ ـ حالهم في عهد البطالمة الاواخر

وهكذا كان قوام سياسة البطالمة الاوائل أن يشركوا الاغريق في حكم البلاد والسيطرة على المصريين ، وأن يوفروا لأولئك المحظوظين أسباب الرزق الفسيح وأساليب الحياة التي توافق مزاجهم الرقيق ، فصار الاغريق يكونون لهم ويفضلون المصريين كل الفرص . أما منذ عهد بطلميوس الرابع فقد أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة في معاملة المصريين تنطوي على افساح بعض المجال لهم الى جانب الاغريق أملا في كسب ودهم وولائهم ، لكن البطالمة لم يذهبوا الى حد مساواة المصريين بالاغريق ولا أدل على ذلك من أنه لم يكن أعلى رجال ... وكان المخدوم من الاغريق ، وما ... الصناع سيجد الاغريق ، وما الى

أكثر الاضطهاد يتجه للإغريق . ولم يعتبر في
هذا الطبقة العليا مصرية من سكان البلاد
إلا الإغريق والمصريون المتأغرقون الذين
اصطبغوا بصبغة إغريقية .

وإذا كان بعض المصريين قد تأغرقوا ،
نتيجة لإقبالهم على التعليم الإغريقي حتى
أصبحوا يكتبون الإغريقية ويتزاوجون مع
ولاتخاذهم ملابس إغريقية وأسماء إغريقية
لاكتسابهم هذه الصبغة الإغريقية مكانة ممتازة
هي مكانة الإغريق ، فإن بعض الإغريق أيضاً
قد تأقلموا إذ أنهم تحدثوا اللغة المصرية
وعبدوا آلهة مصرية واتخذوا أسماء مصرية
وعادات مصرية .

٤ — علاقاتهم بالمصريين

ويبدو أنه في العصر الثاني من حكم
البطالمة عندما انقطع ورود أفواج جديدة من
الإغريق ، وتأغرق بعض المصريين وتأقلم بعض
الإغريق حدث شيء من التقارب بين العنصرين
المصري والإغريقي ، ونشأ عن ذلك في اعتقاد
كثير من المحدثين أسر مختلطة إغريقية —
مصرية . ويستدل على هذه الظاهرة بأن
الوثائق تحدثت عن كثيرين ممن يحملون
أسماء مصرية وإغريقية ، وبذلك لم يعد
الاسم منذ القرن الثاني قبل الميلاد دلالة على
الجنسية . ولكن لا نرى أن الجمع بين
الأسماء المصرية والإغريقية يدل حتماً في كل
حالة على التزاوج بين المصريين والإغريق ،
فلم يحصل [illegible] زوج أو علاقة
واحدة بين طرفين أحدهما مصري والآخر
إغريقي . وقد يكون الجمع بين الأسماء
المصرية والإغريقية نتيجة لاصطناع بعض
المصريين للشخصية الإغريقية أو أخذ بعض
الإغريق [illegible] بالفريق الأول إلى إضافة
أسماء إغريقية إلى أسمائهم المصرية ، وبالفريق
الثاني إلى إضافة أسماء مصرية إلى أسمائهم
الإغريقية . ولسنا في حاجة إلى الذهاب بعيداً
للتدليل على صحة ما نراه ، فلا يزال بين
ظهرانينا كثير من المصريين ممن لم يكونوا
ثمرة تزاوج مختلط وإنما ثمرة أبوين مصريين
كانت ثقافتهما انجليزية أو فرنسية فأعطيا
أبناءهما أسماء انجليزية أو فرنسية . ومع
ذلك لا نستبعد أن يكون قد حدث في
العصر الثاني من عصر البطالمة تزاوج بين
مصريين متأغرقين والإغريق المتمصرين
لكن نستبعد أن يكون ذلك التزاوج قد
حدث بالكثرة التي يتوهمها البعض ، إذ أن
تلك الفئة من المصريين والإغريق لم تكن
لا تعتبر بالنسبة للعامة شيئاً من الإغريق
والمصريين نصيبين . وإذا كان العصر
الثاني من عهد البطالمة قد شهد تقارباً بين
المصريين والإغريق ، فقد شهد أيضاً ثورات
المصريين القومية على البطالمة والإغريق ،
ولابد أن تلك الثورات قد حدت من أثر
ذلك التقارب . ولو صح أن التزاوج بين
العنصرين المصري والإغريقي قد اتسع في
العصر الثاني من عصر البطالمة ، لما بقي سكان
البلاد منقسمين قسمين مختلفين في نزعة ،

جديدة عنه وتتألف من الإغريق وأبنائهم والأجيال التي ستنشأ وتكون من مصريين المتمصرين

٥ — فئات الإغريق

وقد كان الإغريق ومن على شاكلتهم من الأجانب المقيمين في مصر يتألفون من الفئات الآتية .

أولا — فئة الموظفين ، وكانت تشمل الموظفين المدنيين والعسكريين

ثانيا — فئة أرباب المهن الفنية ، وكانت تشمل العلماء ورجال الأدب والأطباء والمحامين والمهندسين والمعماريين والمصورين والمثالين والمغنين ومحترفي الألعاب الرياضية

ثالثا — فئة رجال الأعمال ، وكانت تضم كثيرة من الأثرياء متوسطي الحال الذين يمتلكون أراضي وعقارات ويشتغلون بالتزام بعض الحرف أو الصناعات أو جباية الضرائب .

رابعا — فئة أرباب الحرف اليدوية ، وكانت فئة كبيرة تتألف ممن كانوا يكسبون قوتهم من الأعمال اليدوية في الزراعة والصناعة والتجارة كعمال وصناع وما أشبه ذلك .

٦ — محافظة الإغريق بمصر

ولما كان الإغريق قد احتفظوا معهم من بلادهم بدياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا يخضعون للقوانين الإغريقية ويحاكمون أمام محاكم إغريقية ، ويعيشون عادة في أوساط إغريقية ينشئون فيها مدارسهم ومعابدهم ، وكانت أفواج الإغريق تفد على مصر باستمرار حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد فتطعمهم بدماء جديدة ، وكانت لا توجد قرينة على تزاوجهم مع المصريين حتى نهاية القرن الثالث ، وكانوا يعتزون بحضارتهم الإغريقية ، ولا سيما أنها كانت مصدر ما يتمتعون به من الخير العميم في مصر ، فلا شك في أنه وسط هذه الظروف قد حافظ إغريق مصر على ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم فبقوا إغريقا خالصين حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد

ولا جدال في أن إغريق مصر كانوا يعيشون في أوساط إغريقية بوجه عام ، لكن يجب ألا ننسى أن هذه الأوساط ، حتى في المدن الإغريقية ، كانت تقوم في بيئة غريبة عن الحياة الإغريقية في أصلها ، وبذلك فإن المحافظة على قوة الروح الإغريقي بين إغريق مصر كانت لا تتوقف على استمساكهم بثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم فحسب ، بل كذلك على تغذية هؤلاء الإغريق على الدوام بدماء إغريقية جديدة من بلاد الإغريق لكونهم بعيدين عن كافة المؤثرات الغريبة عن الروح الإغريقي . لكن منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد انقطع ورود أفواج جديدة من الإغريق بسبب نقص عددهم في بلادهم ، فكان طبيعيا أن يضعف الروح الإغريقي تدريجا بين إغريق مصر . ومع ذلك فإنه مهما ضعف هذا الروح فقد ظل إغريق مدن مصر

الاغريقية اغريقا خالصين نتيجة لعدم الاعتراف بالزواج بينهم وبين المصريين في هذه المدن ونتيجة لاستمرار ثقافتها وتقاليدها الاغريقية في مجتمعها ، ولا سيما في الاسكندرية التي كانت لا تزال منارة الحضارة الاغريقية وتتمتع بشهرة عظيمة في العلوم والفلسفة والآداب .

ان هذا الذي أدى الى ضعف الروح الاغريقي في مدن مصر الاغريقية كان له أثر أقوى بطبيعة الحال خارج هذه المدن ، ولا سيما أنه منذ أواخر القرن الثالث أصبحت اقطاعات الاغريق وراثية ، وبذلك أصبحت لأرباب هذه الاقطاعات مصالح دائمة في البلاد . وقد كانت رعاية هذه المصالح تتطلب منهم أن يداروا أهل البلاد والا يشعروا أنهم غرباء عنهم . وفي الوقت نفسه أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة في معاملة المصريين ، فانهم منذ عهد بطلميوس الرابع أخذوا يفسحون المجال أمام المصريين ويمنحونهم من الامتيازات ما رفع من شأنهم وضيق شقة الفارق بينهم وبين الاغريق وساعد على التقريب بين العنصرين ، حتى لا يجب أن يكون قد تكون عدد من الأسر المختلطة المصرية — الاغريقية .

ولقد أسهمت هذه العوامل مجتمعة في اضعاف الروح الاغريقي بين اغريق الأقاليم ، غير أنه اذا كانت الصفة الاغريقية تكتسب صاحبها مركزا ممتازا مهما كانت حقيقة أصل نشأته فان غالبية الاغريق ظلوا يحتفظون بثقافتهم الاغريقية ، ويبدو أنه مهما ضعف روح عنصر الاغريق في الأقاليم حتى كانوا يختلفون اختلافا كبيرا عن الاغريق الخلص ، وانه اذا كان بعض الاغريق قد عبدوا آلهة مصرية وتعلموا اللغة المصرية وتزوجوا مصريات وتبنوا أسماء وعادات مصرية ، فان أغلبهم ظلوا اغريقا خالصين ، وذلك بفضل أثر مدن مصر الاغريقية ، وأثر مساهد الاغريق وجمعياتهم ومدارسهم التي كانت توجد حيثما وجد عدد كاف من الاغريق ، وكذلك بفضل ما كان الاغريق يتمتعون به من مكانة ممتازة في البلاد .

ثانيا — المصريون :

١ — البطالمة والطبقات المصرية المختلفة

ولا ريب في أن العناصر الأجنبية لم تكن سوى أقلية تعد بالآلاف بالنسبة الى المصريين الذين كانوا يعدون بالملايين . وكانت تأتي في مقدمة المصريين الطبقة الأرستقراطية بشقيها المدني والديني . ويبدو أن بطلميوس الأول سمح للأرستقراطية المصرية المدنية بالاحتفاظ بممتلكاتها وبشيء من سلطان في الادارة ، لكننا لا نسمع شيئا عن الاطلاق عن هذه الارستقراطية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، مما يبعث على الاعتقاد بأن البطالمة عمدوا منذ أواخر عهد بطلميوس الأول على حرمان هذه الارستقراطية بالتدريج أملاكها ومناصبها الادارية . ولعله لم يبق من هذه الارستقراطية الا نفر كان فيهم العدد محدود الثروة ممن تولوا مناصب في الجيش المصري في العصر

ويعتبر الإدارة الإلهية في أن الا ... منه مصرية لدينية ... ... في بدايه عصر البطالمة ... ... وحتى ... البطالمة ما كانت ... ... الأرستقراطية من ... ... على ... أتباعها وذلالها. ومع ذلك كان للكهنة المصريين حتى ... الأول من حكم البطالمة ، يكونون فئة ممتازة بين الأهالي ، فقد كانوا عادة يعفون من الأعمال الجبرية ويؤدون مهام عملهم دون تدخل الحكومة في شئونهم. وبعد موقعة رفح واشتعال لهيب الثورات القومية ، اضطر البطالمة إلى التودد إلى الكهنة ... ... ويجيرونهم واتباع سياسة جديدة في مساملة رجال الدين رغبة منهم في كسب استمالتهم.

ولا ريب في أنه ... ... الأرستقراطية الدينية تقريبا ، ... ... في العصر البطلمي الأواخر ... ... للكهنة المصريين ، ... مكانة هؤلاء الكهنة ونفوذهم بين الأهالي في ربوع البلاد وعرضها أصبحت طبقة الكهنة أهم الطبقات المصرية.

ولكن عصر البطالمة كانت تلي الأرستقراطية الدينية والدنيوية طبقة العسكريين المصريين ... ... الطبقة مكانتها ... في ... البلاد على عهد البطالمة الأوائل ... ... البطالمة في تكوين ... ... على عنصر الأجنبي ، وعدم استخدام الجنود المصريين حتى موقعة رفح إلا في أعمال الحرس الثانوية ، ... منح البطالمة الأوائل على جنودهم المقدونيين والإغريق. فلا عجب أن ... الجنود المصريون كغيرهم من سائر ... المصريين ... للاستغلال الأجنبي ودائموا ... ... الإهانة والحرمان. فأسهموا في الثورات القومية حتى ... الامتيازات التي ... ... موقعة رفح. ولا شك في أن حال هذه الطبقة قد تحسن في العصر ... ... البطالمة لكنه كان ... ... إلى ما كانت عليه قبل ذلك ، فقد كان الجنود الأجانب لا يزالون يكونون ... الأكبر من القوات البطلمية ، ويشغلون أرفع المناصب وأكبر الإقطاعات.

وكانت طبقة الموظفين تلي هذه الطبقة قبل عصر البطالمة. وكانت هذه الطبقة تتألف من كتبة ... ... ويبدو أن ... ... في ... الحكومة من الموظفين المصريين إلا فئة صغيرة ... الكتبة ... ... إلى ... اللغة الإغريقية ... ... الجديدة والخضوع لرؤسائهم الجدد. ولم تكن مناصب حكومية ... ... في ... ... أكثر من ... ... من عصر البطالمة ... ... للمصريين ... ... في الإدارة المحلية

وكانت أدنى الأوضاع في مؤخرة الطبقات الاجتماعية ملايين المصريين . وكان مستوى معيشتهم يتميز بالبساطة وتخصصهم بالصناعة والتجارة ... وكانوا كالعادة عماد حياة البلاد الاقتصادية ، وبذلك كانوا الأكثر تأثراً من غيرهم بتلك البنية الاقتصادية التي وضعتها الطبقة الحاكمة للبلاد . ولما كان الهدف الرئيسي لهذا النظام جمع الثروة أو بعبارة أخرى سلب الشعب ، فقد كان يعني توجيه كل جهود الأهالي نحو تحقيق هذا الهدف .

وفي كنف هذا النظام المحترم ، اذ كانت الفرص التي أمامهم ضيقة محدودة لآرائهم فهي ... كانت محكومة بالسياسة المالية للمصريين الذين ألقيت عليهم أثقل الأعباء ، فقد كان يبني على هذه السياسة أهمية موارد الحكومة بطريقة من الطرق ، بمثابة ريع الملك ، أو عمال في مصادرة أو في مصانع لحساب الحكومة أو في مصانع تؤدي له ضرائب معينة فضلا عما تقدمه له من انتاجها ، أو تجار تجزئة ، أو رعاة ، أو صيادين ، أو يشتغلون بالنقل البري أو المائي ، ويدفعون جميعا ضرائب معينة نظير مزاولتهم أعمالهم . والى جانب كل هذه الأعمال العادية التي كانت الحكومة تستمد منها دخلا كبيرا ، كان يفرض على الأهالي أداء كثير من الخدمات الإجبارية ، ومنهم كل الأعباء التي أثقل بها كاهل عامة الزراع والصناع والعمال المصريين . وكانت سياسة

وهذه السياسة تعود به في آخر الأمر ، فان حياتهم [illegible] لأن ... لكي تعود بالكثير عليهم من الربح على حساب الزراع في آخر حد ممكن ، وبهذا تدل على عدم رفع مستوى معيشة الطبقة الكادحة .

ونتيجة للتبعات الثقيلة التي كان المصريون يرزحون تحتها يتبين أنه لم يكن على شيء من اليسر من ملايين المشتغلين بالزراعة والصناعة والتجارة إلا قليلين ، كان بعضهم زراعا ناجحين وشاءت ارادة الله أن تمنحهم الحكومة بدلا باستصلاح بعض الأراضي وزرعها كروما أو فاكهة ، وبذلك أصبحوا في عداد أصحاب الأملاك الخاصة . أما البعض الآخر فانهم كانوا صناعا ناجحين يزاولون صناعات لم تحتكرها الحكومة احتكارا كليا ، وبذلك لم تغلق دونهم باب الكسب اغلاقا كاملا .

وهكذا نرى أنه لم ينتج من نشأة الطبقة [illegible] فئة وسطى من عامة المصريين ، وظلت حتى كانت أوشك تحترق يؤدون للآخرين وأشبعهم أسباب الحياة الرغدة الكريمة . وقد كسب جانب الكهنة والجنود وموظفي الحكومة ونفر قليل من الزراع والصناع في القسم الثاني من عصر البطالمة الكثير من جانب الغالبية العظمى من المصريين ، فان جانب هؤلاء الفلاحين من المصريين ، الذين كانوا أسعد حظا من سائر مواطنيهم ، كسب ... من جانب ... الإجبارية ومن

ثم نستطيع أن نتصور الفارق الهائل بين حياة الأجانب وحياة المصريين بوجه عام.

٢ ـ حضارة المصريين

وتشير جميع القرائن إلى أن المصريين بوجه عام استمروا يعيشون كما كان يعيش أجدادهم من قبل، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم، يعبدون آلهتهم، ويخضعون إلى حد كبير لقوانينهم الفرعونية. وكان المصريون يلتقون إما في أندية جمعياتهم، أو في بيوت الأعيان كما هي الحال اليوم في الريف، أو في المعابد ليستمعوا إلى قادتهم الروحيين ويبروا لهم من مظالمهم.

ولما كانت الأمية فاشية بين المصريين، وكانت أعرق المدارس المصرية وأوسعها انتشاراً وأبعدها أثراً في الناس هي المدارس الملحقة بالمعابد، وكانت هذه المدارس هي المعاقل الحصينة للثقافة المصرية، وكان رجال الدين الحراس الأوفياء على تراث الماضي، فإننا نستطيع أن نؤمن بأن غالبية المصريين كانوا بعيدين حتى عن مظاهر الحضارة الإغريقية، وأن مدارس المعابد قد أغلقت أبوابها دون الثقافة الإغريقية. ومع ذلك لا شك في أن المصريين الذين طمحوا لمناصب في الحكومة قد اضطروا إلى تعلم اللغة الإغريقية لأنها أصبحت اللغة الرسمية. ولا يبعد أن أكثر أولئك الموظفين الذين تعلموا الإغريقية لم يكن حظهم من الحضارة الإغريقية إلا يسيراً. ولعل الطبقة المثقفة من المصريين رأت في تعلم الإغريقية والإسهام من موارد الثقافة الجديدة استكمالاً لمؤهلات أفرادها، فاستخدمت مدرسين خصوصيين أو ألحقت أبناءها في المدارس الإغريقية المنتشرة في مختلف أرجاء البلاد. ومع ذلك كان يقف شأن تلك الفئة القليلة من المصريين الذين أخذوا على عهد البطالمة الأواخر يحصلون على صبغ أسمائهم بصبغة إغريقية، ممثلة في الفوز بمركز يعادل مركز الإغريق. لكن ما كانت تلك الطبقة إلا قلة، وكذلك فئة المصريين المثقفين الجدد، وكان حظ أكثر هؤلاء المحكومين المصريين من الثقافة الإغريقية تافهاً، وكانت الغالبية العظمى من المصريين أميين، فلابد إذن من أن نسلم بأن انتشار الثقافة الإغريقية بين المصريين كان محدوداً.

وقد أسلفنا أنه لم يحدث تزاوج بين المصريين والإغريق في القرن الثالث قبل الميلاد، وأنه في النصف الثاني من عصر البطالمة تمصر بعض الإغريق وتأغرق بعض المصريين، مما جعل من اليسير حدوث تزاوج بين المصريين المتأغرقين والإغريق المتمصرين، وانتشار الأسماء مختلطة بين هذين الفريقين. ولابد من أنه قد صحب ذلك أن استبدل أولئك المتأغرقون بثيابهم المصرية ثياباً إغريقية. لكن إذا كان من المسلم به أن أغلب المصريين لم يعرفوا شيئاً من اللغة الإغريقية وآدابها، وأنهم بطبيعة الحال لم يتزاوجوا مع الإغريق على الأقل لكثرة عددهم وقلة عدد الإغريق،

فلابد أحد من أهلها لم يجحدوا أسماءهم الفرعونية ولا ديانتها الفرعونية .

وجملة القول أن المصريين بوجه عام ، وإن كانت لهم عادات خاصة تقوم على أسس حضارية ودينية ترجع إلى أقدم العصور ، عدوا مصريين خالصين في مجموعهم ، على حين أن نفراً منهم استمصروا في تقاليدهم ومعيشتهم وأسمائهم بصبغة إغريقية نتيجة التزاوج على أنه لم تنسجم قوميتهم ولم تكن أكثر من طلاء خارجي لم يمس جوهرهم .

ثالثاً — الثورات القومية

١ — الأسباب

وليس من العسير أن نتصور سخط المصريين بعد أن عرفنا كيف سلبهم البطالمة استقلالهم ، وكيف أثقلوا كاهلهم بالضرائب الفادحة والتكاليف المرهقة ، وكيف وضعوا أيديهم على كل موارد البلاد بشكل لم يسبق له مثيل ، وكيف قضوا على الارستقراطية المصرية الحربية ، وكيف أذلوا الأرستقراطية الدينية والمحاربين المصريين ، وكيف وفروا للاغريق أسباب الحياة التي يألفونها في بلادهم ومنحوهم أرفع المناصب وأخصب الضياع وأوسع الاقطاعات . ولم يكتفوا بهذا بل كل ما تحملوه من عنف وعسف في سبيل آلهتهم أو ملوكهم الوطنيين ، الذين يعتبرون من معتقداتهم القدسية ، ويحكمون غير الفئة ، ويعملون على الحماية ، وإنما في سبيل ملك أجنبي وحكم أجنبي بأمره اصطفاه دولة الملك لم يكن له في حكم البلاد ، وإرغام أبنائها على بذل أقصى الجهد في استغلال موارد البلاد الاقتصادية . فلا عجب إذن أن يضطرم شعور المصريين بكراهية الأجانب ، وأن تمتلئ مراجل غضبهم في وجه مغتصبي بلادهم ، فتتفجر في انفجارات تشبه الثورات المصرية ثلاثة عوامل لها أبعد الأثر في حياة الناس في كل زمان ومكان ، وهي العامل الديني والعامل القومي والعامل الاقتصادي .

ووسط هذه الظروف كان من اليسير أن يندلع لهيب الثورة لأي سبب ، فقد امتلأت النفوس غضباً وحقداً ، وتوفر جيش الثورة من ملايين الزراع والصناع والعمال الذين كانوا يشعرون أشد الضيق بالنظام الاقتصادي الصارم الذي استحدثه أو أحكم شوائبه بطلميوس الثاني . ولم يفتقر الثوار إلى قادة وزعماء ، فإن النبلاء المصريين ، وقد عصفت البطالمة بمكانتهم وثرواتهم وامتيازاتهم ، وكذلك رجال الدين ، وقد كسر البطالمة ولا سيما أوائلهم شوكتهم ، كانوا جميعاً يحنون إلى سابق ما كانوا ينعمون به في الماضي من الكرامة والعزة والثراء .

٢ — الثورات

ونستخلص من الوثائق أن المصريين قد أظهروا تبرمهم على ذلك النظام الاقتصادي المتعسف منذ عهد بطلميوس الثاني ، إذ تحدثنا الوثائق عن تكرار وقوع اضطرابات عديدة بين المزارعين ، كانت تنتهي بإضرابهم عن

العمل ودفعهم الى التمادى للاحتفاظ بالألوهية وقد حدث هذا الاضطراب بعد أن [illegible] عنفه على مضى الزمن فوقعت في عهد بطليموس الثالث [illegible] ثورة بسببه [illegible] المصريين [illegible] هم في موجة [illegible] وقد كان بعض المصريين للحاكم الذى اصبح بينهم [illegible] بأنفسهم وتزكى روح الوطنية الكامن في صدورهم فيخلصوا بلادهم من نير الأجنبي مثل ما تخلص أجدادهم من الهكسوس بعد حكم دام مدة قرن تقريبا

لقد صبر المصريون على بلائهم كارهين من أن يبين لهم من انتصارهم في موقعة رفح ان تفوق الاغريق عليهم لم يكن الا وهما ، وانهم على الاقل ند لأولئك السادة الذين اوسعوهم عنتا واستغلالا . فلا عجب اذ ما كان الجيش عودة من رفح حتى تأججت نار الثورة بين المصريين . وقد حدثت الثورة في الدلتا في عام ٢١٦ ق . م . ولم يأت عام ٢٠٦ حتى كانت قد اشتدت واتسع لهيبها في مصر الوسطى ومصر العليا . وقد ظلت نار الثورة مستعرة في البلاد حتى عام ١٨٤ – ١٨٣ ق . م . عندما وقعت [illegible] في قبضة بطليموس الخامس [illegible] مصريين أعظم [illegible] بعد أن [illegible] على جثتهم [illegible] على [illegible]

ولم يكد بطليموس السادس [illegible] من سبع بطليموس الرابع [illegible] حتى [illegible] في عام ٦٥ – ١٦٤ ق . م . الثورة التى قام بها زعيم مصرى متأغرق يدعى ديونيسوس بيتوسيرابيس كان ذو نفوذ كبير في القصر الملكي [illegible] مصريين ، وفاء بدور ممتاز في الحرب ضد [illegible] وقيل ان ديونيسيوس كان يريد استغلال النزاع الاسرى بين بطليموس السادس وأخيه الصغير للتخلص من الأخ الأكبر باستثارة جمهور الاسكندريين ضده ؛ حتى اذا ما تم له ذلك استنفر وطنية المصريين ضد الأخ الأصغر ، وبذلك ينقذ بلاده من مغتصبيها . لكن التوفيق بين الاخوين أفسد على ديونيسيوس خطته ومكن بطليموس السادس من هزيمته . غير أن ديونيسيوس تمكن من الفرار وتمكن من اثارة ثورة في البلاد ، فاضطر بطليموس السادس الى القيام بحملة حتى تمكن من اخماد هذه الثورة

ويرى بعض المؤرخين ان مصر رحبت [illegible] بين بطليموس الثامن وأخته كليوبترة الثانية و [illegible] ؛ [illegible] كان يؤيد كليوبترة الثانية الاسكندريون أو على الأقل جانب من الاغريق وكذلك اليهود وجانب من [illegible] ، [illegible] كان يؤيد بطليموس الثامن جمهرة الجيش وكثير من المصريين ، ومن المحتمل انهم [illegible] وان هذه الحرب الأهلية كانت مزيجا من نزاع الأسرى والثورة القومية . ونحن نعتقد ان هذه الحرب كانت فعلا مزيجا من

النزع الأسري والثورة القومية ، وإن تفسير ما حدث هو أنه كان لكليوبترة الثالثة حزب يضم الجانب الأكبر من إغريق مصر و المتأثرين بحضارتهم كهنة آمون ، وبذلك كان موقف الشعبي المناصر للمصريين هو مناهضة رفاق الحزب الشمالي لمصريين حقدهم على الإغريق ومن عاداهم من المصريين ، فيحو ك يو كاكو يناصرون بطلميوس الثامن ، أو بعبارة أخرى لم يكن تأييد غالبية المصريين بطلميوس الثامن حباً فيه و إنما كراهية لأنصار خصمه

وقد تجددت الثورة في عهد بطلميوس التاسع وكانت مثل سابقاتها وليدة عوامل دينية وقومية واقتصادية . وقد تفاقمت الحال في منطقة طيبة إلى حد أن بطلميوس التاسع رأى أن طريقته المثلى لقطع دابر الثورة هي القضاء على طيبة لأنها كانت دائماً معقد الثورات وموطن الثائرين ، وبذلك قامت بعد حرب دامت ثلاث سنوات الثورة على طيبة وخربها تخريباً شديداً (عام ٨٥ ق . م .)

ويبين أن تخريب طيبة قد قصم ظهر الثورة لكنه لم يقض عليها قضاء مبرماً ، إذ تشير الدلائل إلى حدوث اضطرابات في عام ٧٩ - ٧٨ وفي عام ٦٤ - ٦٣ وكذلك في عام ٥٨ ق . م .

وقد خرج المصريون من كفاحهم الطويل مجردين أدوات الحيـــاة بسبب افتقارهم إلى ما امتازت به عليهم قوات البطالمة من النظام والأسلحة والعتاد والأموال ، وبسبب عدم اتحادهم ، فإن فريقاً مهماً من المصريين بدلاً من أن يشتركوا في مناهضة الحكم الأجنبي الجائر اشتركوا في مناهضة مواطنيهم ، أو على الأقل وقفوا منهم موقفاً سلبياً ، وذلك اتباعاً للأحقاد الشخصية وسعياً وراء مصالحهم مادية ، فكانوا بذلك مطية للأجنبي وجزءاً من أداة لتنفيذ سياسته الاستعمارية

وإذا كان المصريون لم يفلحوا في التخلص من حكامهم الأجانب ، فإنهم حملوا على الأقل رعاتهم على النزول عن صلفهم وغرورهم ، والنظر إليهم بعين جديدة في العصر الثاني من حكمهم . وفضلاً عن ذلك فإن الثورات القومية كانت من أهم الأسباب التي أضعفت دولة البطالمة وعجلت بالقضاء عليها .

الفصل الثامن

الآداب ـ العلوم ـ الفنون

سنقصر الكلام في هذا الفصل على الآداب والعلوم الاغريقية ، لان مصادرنا تغفل اغفالا تاما الآداب والعلوم المصرية في خلال هذا العصر

أولا ـ الآداب

١ ـ دار العلم والمكتبة

يرجح أن بطلميوس الأول هو الذي خطا حوالي عام ٢٩٠ ق . م الخطوة الأولى في سبيل انشاء دار العلم والمكتبة ، فقد دفع ذلك بعض الأديب الى أنه اذا كانت القوة ضرورية للذود عن حياض مملكته وتوسيع رقعتها ، فان رعاية العلم والفن كانت أنجح وسيلة لكسب ولائه المجد والخلود . ومن ثم فقد يدعو الى الاسكندرية الكثير من فحول شعراء الاغريق وأدبائهم وعلمائهم وفلاسفتهم وفنانيهم . وقد كان في طليعة ضيوفه ديمتريوس الفاليري الذي أوحى اليه بانشاء دار العلم (الجامعة) والمكتبة

وقد أنشئت دار العلم على نمط مدارس أثينا الفلسفية ، اذ يبدو أن بطلميوس الأول اقتفى أثر المدارس المشائية فجعل دار العلم في الاسكندرية تلتف حول ساحة آلهات العلم والفن ، ولذلك سميت موزيون هذه الآلهات . وقد شيد بطلميوس هذه الدار بالحي الملكي ، أيضا بحيث يكون مركز البحث العلمي وفي الوقت نفسه مسكنا للعلماء ، حيث كان الملك يستضيفهم على نفقته متكفلا بما كان يجريه عليهم من مرتبات ، لكيلا تشغلهم مطالب الحياة عن الانصراف كلية الى البحث والدرس . ولم يكن الهدف الأول لهذا المعهد التعليم وانما البحث العلمي ، ومع ذلك كان بعضهم يلقون المحاضرات في القاعات العامة وفي شتى أنحاء المدينة . ويبدو من الدور الذي قامت به الاسكندرية في الحركة العلمية أن كل فروع البحث العلمي كانت ممثلة في جامعتها

ولكي ييسر للعلماء الاطلاع [illegible] أنشئت المكتبة الكبرى . واذا كان بطلميوس الأول هو الذي وضع نواة هذه المكتبة بجوار دار العلم فان بطلميوس الثاني هو الذي تعهد المكتبة برعايته حتى غدت أعظم المكتبات في العالم القديم . ويبدو أنه أنشأ كذلك المكتبة الصغرى التي كانت تكون جزءا من معبد السرابيوم . ونحن نميل الى الأخذ بما تذكره بعض المراجع القديمة من أنه عندما أحرق يوليوس قيصر

الأسطول المصري في خلال « حرب الإسكندرية » ، وامتد اللهب إلى رصيف الميناء وأحرق المباني المجاورة له ، ودمر المكتبة الكبرى طعمة للنيران . ويحكى أن أنطونيوس عوض كليوبترة عن تلك الخسارة الفادحة بإهدائها ٢٠٠,٠٠٠ مجلد من مكتبة برجام

ولقد أدت مدرسة الإسكندرية خدمات جليلة للأدب الإغريقي ، عندما ابتدعوا فن نقد النصوص القديمة بمقارنة المخطوطات المختلفة ، وجمعوا أصول كثير من المؤلفات القديمة . وبعض أهم ما يدين به المحدثون لنقاد الإسكندرية ما بذلوه من الجهد في تحقيق الأشعار الغنائية والمسرحيات . وكان فن النقد الإسكندري يرتكز على قواعد ثابتة لغوية تخالف تماما القواعد في النقد التحليلي الذي ابتدعه الرواقيون حسب بحثه في برجام

٢ — الشعر

وتعتبر الإسكندرية بحق عاصمة الأدب الإغريقي في العصر الهلينستي ، حتى أنه يندر أن نسمع أن أحدا من فحول شعراء ذلك العصر لم يزر الإسكندرية أو يعش فيها لينعم برعاية ملوكها وينهل من موارد علمها . فلا عجب أن كافة أنواع الشعر الإغريقي ، فيما عدا الكوميديا ، قد تأثرت في خلال هذا العصر بالشعر الإسكندري

وكانت أحب ألوان الشعر إلى قلوب الإسكندريين الشعر القصصي وقرينه الشعر الغنائي والمقطوعات القصيرة . وقد كان هذا الشعر طرزا خاصا . واستمد بعضه من القصص القديمة ، والبعض الآخر من عواطف المصريين وخيالاتهم . ولذلك فإنه بينما يعتبر بعض الشعر الإسكندري مجددا لبعض ضروب الشعر القديمة ، يعتبر البعض الآخر مبتكرات جديدة في شكله وفكرته . وعلى كل حال فإن جميع ألوان الشعر الإسكندري لا تمت بصلة إلى مصر أو شعبها ، حتى أن ثيوكريتوس عندما كان يعنى بوصف الطبيعة كان لا يصف جمال الطبيعة في مصر وإنما في جزيرة كوس أم مدينة سيراكوز . وكان الشعراء الإغريق لا يعرفون عن مصر شيئا بعد ما عاشوا فيها ، إلا ما قرأوه في القصص الإغريقية أو في كتب هيرودوتوس وأفلاطون ، وكانوا لا يوجهون عنايتهم إلى شيء من المميزات المحلية إلا ما لا يستطيعون استخدامه في إطراء الملك الذي يرعاهم

ولعل أهم مميزات الشعر الإسكندري أنه كان خاليا من العواطف السياسية والشعور والتقوى نحو الآلهة القديمة ، في حين أنه كان كلفا بآفاق [illegible] ، وتصوير المشاعر الإنسانية ، واستدراج البهجة البسيطة التي تحدثها حياة الناس اليومية العادية وتصوير الواقع تصويرا دقيقا

ويعتبر كاليماخوس أبرز شعراء

الإسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، وكان لا يزال يمارس الشعر في الشطر الأخير من حياته في عهد بطلميوس الثالث. ولم يوجد في مصر شاعر حماسي من الطراز الأول إلا أبولونيوس الذي أطلق عليه لقب الرودسي، لأنه استقر في رودس وأصبح أحد مواطنيها بعد عزله من منصب أمين المكتبة الكبرى.

وكان من أشهر شعراء القرن الثالث ثيوكريتوس السيراكوزي، الذي عاش فترة في الإسكندرية وأصبح شاعر بلاط بطلميوس الثاني. وإذا كان العصر الذهبي للشعر السكندري لم يعمر أكثر من نصف قرن يمتد من حوالي عام ٢٩٠ إلى عام ٢٤٠ ق. م.، فإن الشعر الذي يصور حياة الريف بقي منتعشا حتى القرن الأول قبل الميلاد.

٣ - النثر

ولم يكن للإسكندرية في النثر نصيب من الأثر مثل ما كان لها في الشعر. ولقد تأثر النثر في هذا العصر بعاملين كان لهما أسوأ الأثر فيه. أما العامل الأول فهو أثر السفسطائيين، إذ أن غرامهم بجمع الحقائق كما هي أفضى إلى الخلط بين الحقائق والقصص دون أي تمييز بينها. أما العامل الثاني فهو أثر سقراط وتلاميذه وكانوا يختلقون الوقائع لكي تؤثر الحوادث في النفس تأثيرا أو يحورون الحقائق لكي يكون لها مغزى ظاهر. ويعتبر تيمايوس أشهر مؤرخي الإسكندرية الذين تأثروا بالسفسطائيين، وكلايتارخوس أبرز من مؤرخي الإسكندرية الذين تأثروا بمدرسة سقراط.

ومن حسن الحظ أنه في الوقت الذي تعرض فيه التاريخ لهذه المؤثرات التي أفسدته، وجد أشخاص يميلون إلى الحقيقة وشاركوا فعلا في الأحداث التي كتبوا عنها، مثل بطلميوس الأول الذي استمد معلوماته فيما كتبه عن الإسكندر من الوثائق الرسمية ومن مذكراته ومشاهداته الخاصة، فكان كتابه فريدا في بابه موثقا، لكنه مع الأسف لم يصل إلينا إلا بعض منه عن طريق أريانوس.

وفي عهد بطلميوس الأول كتب هكاتايوس من أبدرا عن تاريخ مصر من وجهة نظر الإغريق. والتاريخ المصري الذي يمكن أن يوثق به من ذلك العصر هو ما كتبه مانيتون كبير كهنة هليوبوليس، وقد اعتمد فيه على الوثائق الهيروغليفية وأهداه لبطلميوس الثاني، وكان كتابا ضخما يقع في ثلاثة أجزاء.

وإذا كان التاريخ يحتل مكان الصدارة في نثر العصر الهيلينيستي، فقد كان للجغرافيا مكان هام فيه، إلى حد أن من كتبوا فيها العالم الجغرافي إراتوسثنيس يعتبر أعظم مثل للنثر الإسكندري. وقد كانت سعة اطلاعه وعمق علمه وتبحره في مختلف العلوم والفنون مضرب الأمثال، فإنه كتب في الشعر والفلسفة وفي علم اللغة ونقد اللغة والتاريخ والجغرافيا،

لكن مؤلفاته في العلمين الأخيرين غاب سائرها من كتبه . وأهم مؤلفاته في الجغرافيا كتابان كان أحدهما بحثا في قياس أبعاد الكرة الأرضية ، قدر فيه محيط الكرة الأرضية بقدر يسير الاختلاف

ثانيا – العلوم

١ – الطب والجراحة

ولقد بلغت العلوم الاغريقية شأوا بعيدا في العصر الهيلينستي بعد الخطوات المرموقة التي خطتها قبل ذلك العصر . وقد تقدم الطب بوجه خاص تقدما كبيرا ، وكان يرز في عالم الطب في الاسكندرية هروفيلوس العالم في التشريح ، وارازستراتوس العالم في وظائف الأعضاء . وقد كانت أبحاث هروفيلوس التشريحية تدور حول المخ والأعصاب والكبد والرئتين وأعضاء التناسل ووجه هذا العالم عناية كبيرة في دراسة المخ والأعصاب والقلب وضربات النبض . وتدل الأبحاث على أنه كان يستخدم أداة دقيقة لتقدير سرعة النبض . وقد كان طبيعيا أن يؤدى تقدم التشريح الى تقدم الجراحة . ومن أسباب مجد طب الاسكندرية اختراع آلات جديدة للجراحة ، واستخدام هذه الآلات بمهارة فائقة .

وكان ارازستراتوس أكثر توفيقا من هروفيلوس في أبحاثه عن القلب والمخ ، وذهب الى مدى أبعد منه في التفرقة بين الأعصاب الحساسة والأعصاب المحركة .

وحوالي عام ٢٨٠ ق . م . أسس فيلينوس مدرسة طب جديدة في الاسكندرية تدعى المدرسة التجريبية . وقد كان فيلينوس أحد تلاميذ هروفيلوس . لكن مدرسته عافت عن التشريح والفسيولوجيا ، لأنها كانت ترى أن الطب ليس معنيا الا بعلاج الأمراض دون الوقوف على أسبابها . ولذلك فان واجب الطبيب هو أن يعطى العلاج الذى يشفى أعراض الداء التى يراها ، وينبغى أن يهتدى الى ذلك بملاحظاته الشخصية والتجارب والحالات المتشابهة . ولا يبعد أن المدرسة التجريبية قد أدت خدمة كبيرة بمناهضة الميول النظرية التى كانت على الدوام أحد مواطن الضعف في الطب الاغريقي .

٢ – علما الحيوان والنبات

وقد كان على رأس المشتغلين بدراسة علمى الحيوان والنبات في العصر الهيلينستى عالمان بارزان ، كان أحدهما تلميذا تابعا لأرسطو يدعى ثيوفراسطوس ، وقد علم بطلميوس الأول في شبابه ، والآخر يدعى استراتون وكان معلم بطلميوس الثاني . وأهم ما أصابته دراسة الحيوان في هذا العصر أن العالم الاغريقي أصبح يألف عددا كبيرا من الحيوانات . ولا شك في أنه قد ساعد على ذلك حديقة الحيوان التي أنشأها بطلميوس الثاني ، وكانت تضم عددا كبيرا من مختلف أنواع الحيوان والطيور والزواحف .

أما علم النبات فقد كان أكثر توفيقا بفضل

أمثال ثيوفراسطوس الذي رفع دراسة النبات الى مستوى العلم البحت ، وصحح عن معلومات ثبت الخطأ فيه في كثير من الأحيان لأن الميكروسكوب لم يكن معروفا عندئذ ، ولأن علم الكيمياء كان لا يزال في المهد . ومهما كان من أمر كشوف هذا العالم فإنه لا يمكن أن تقدر عظمته في وضع أسس علم النبات وفي تمهيد السبيل لمن أتى بعده من الباحثين المتأخرين .

٣ ـ العلوم الرياضية

وتحتل الهندسة مكانة سامية بين رياضيات العصر الهيلينستي ، التي فاقت في تقدمها سائر فروع العلم الأخرى . لأن الهندسة كانت أساس كل رياضيات عند الاغريق لعدم درايتهم بالأرقام . ولعل ما حققته الهندسة من الاتقان كان سببا في عدم تفكير الاغريق في اختراع الأرقام ، ولا سيما أن الهندسة كانت تشمل الكثير مما يسمى اليوم من علم الجبر . ولا يمكن المبالغة في تقدير الخدمات التي أسداها اقليدس الى الرياضيات . ويبدو أن هذا العالم كان يعاصر بطلميوس الأول ، وعلى كل حال فإنه أسس في الاسكندرية مدرسة تعلم فيها كثير من الرياضيين البارزين . ويقترن اسم اقليدس بأشهر مؤلفاته وهو كتاب في الهندسة يعرف باسم « العناصر » . ولم يعمر كتاب في العالم ، باستثناء الكتب السماوية ، مثل ما عمر هذا الكتاب ، الذي استمر تلاميذ الهندسة في مختلف أنحاء العالم يستخدمونه منذ العصر الهيلينستي حتى عهد قريب جدا . وأهم ما يمتاز به هذا الكتاب ما اختاره فيه اقليدس من المعلومات التي [illegible] كالتعريفات والفروض والبديهيات ، ولا سيما النظريات التي يسميها البعض « عناصر » ، لأنها أساسية وجوهرية في الأصول وفي التطبيق . وقد وضع اقليدس كتبا أخرى لم تكن مقصورة على الهندسة ، بل شملت فروع الرياضيات كما كانت معروفة عندئذ .

ويتصل علم الفلك بالهندسة اتصالا وثيقا ، ويدين اغريق العصر الهيلينستي بقدر من الفضل غير قليل لمعلميهم البابليين الذين جمعوا منذ عهد بعيد ملاحظات تجريبية عن الأجرام السماوية . وقد كان من أبرز علماء الفلك أريستارخوس من ساموس ، الذي عاش في القرن الثالث وكان أول من نادى بأن الأرض لا تدور حول نفسها فقط بل تدور أيضا مثل الكواكب حول الشمس . أما أعظم علماء الفلك في الاسكندرية وفي العالم القديم قاطبة فقد كان يعيش في القرن الثاني قبل الميلاد ويسمى هيبارخوس ، وقد كان أعظم كشوفه تحديد الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وتقدير متوسط طول الشهر القمري تقديرا يبعث على الدهشة ، لأنه لا يقل الا ثانية واحدة عن التقدير المعروف اليوم .

وكان أرشميدس السيراكوزي أعظم عبقرية مبتكرة بين علماء الرياضيات الاغريق

وقد اخترع أرشميدس لولبه لشفط المياه والطنبور لرفع الماء عندما كان يقيم في مصر ، لكنه كان لا يعلق أهمية كبيرة على مثل هذه الأشياء التي كان يعتبرها مجرد تسلية ، فقد كان يتفق مع أفلاطون في الرأي القائل بأن الفيلسوف يجب ألا يستخدم علمه في الأغراض العملية . وحسب أن نذكر أنه وضع أسس علم التفاضل والتكامل في الرياضة وعلم دراسة الروافع ومبادئه الأولية في الميكانيكا .

وقد تقدمت كذلك في عهد البطالمة الأوائل دراسة الميكانيكا وكان أبرز علمائها كتيسيبيوس الأكبر ، الذي يحتمل أنه عاش في عصر بطلميوس الثاني أو الثالث . وقد ابتكر هذا العالم آلات تعمل بالقوة الهوائية وأخرى بالقوة المائية . ويأتي بعد هذا العالم بحوالي ربع قرن فيلون البيزنطي الذي وضع كتابا في تسعة أجزاء على الأقل يدعى مجموعة الميكانيكا .

ثالثا ـ الفنون

وسنقصر الكلام هنا على فني العمارة والنحت ، لأننا لا نعرف عن موسيقى العصر الهلينستي أكثر من أنها كانت تلعب دورا هاما في حياة العامة والخاصة ، ولأنه لم يبق من التصوير إلا القليل النادر الذي نراه على جدران المقابر .

١ ـ العمارة

سنتناول في مجال أقسام هذا الفن وهي المقابر والمعابد والمساكن عند الاغريق وعند مصريين ، وسنبين اذا كان الفن المصري والفن الاغريقي قد تأثر أحدهما بالآخر أم بقي كل منهما خالصا له .

١ ـ المقابر

وتدل نتائج الحفريات على أن اغريق مصر قد استخدموا مقابر من ثلاثة أنواع كان أولها عبارة عن حفر تنحت في الصخر أو تحفر في الأرض ، ونجد أمثال هذه المقابر البسيطة في مختلف أنحاء العالم الاغريقي . وأهم مظاهر النوع الثاني تنحصر في فجوات مستطيلة الشكل تبنى أو تنحت في جوانب دهليز أو غرفة . واذا كان هذا النوع فينيقي الأصل ، فقد خلع الاغريق عليه طابعا اغريقيا . والنوع الثالث مصري الأصل ، لكنه اغريقي في تخطيطه وعمارته وزخرفته ويسمى مقابر الأرائك .

وتمتاز مقابر الأرائك التي ترجع الى القرن الثالث والنصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد بأنها تتألف من سلم وفناء مكشوف وغرفة أمامية وغرفة خلفية تقع جميعها على محور واحد . أما مقابر الفترة التي تمتد من منتصف القرن الثاني حتى نهاية عصر البطالمة فقد كانت أبرز عناصرها هي فناء أوسط تحيط به غرف . وقد تطورت هذه المقابر من مقابر ذات أريكة مثل مقبرة سوق الورديان حيث كان الدفن يتم في تابوت على شكل الأريكة يوضع في الغرفة الخلفية ، الى مقابر ذات أريكة وتجاويف مثل مقبرة الشاطبي

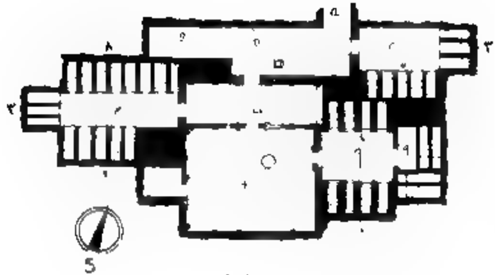

مقبرة القاطبي

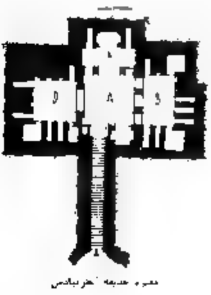

مقبرة قديمة آخر بابلي

حيث استعملت الأريكة والقسرات في الدفن في مقابر تلك العصور ولم يكن شكل مقبرة سيدي جابر ومقبرة مصطفى باشا كما حتى استعملت العصور فقط في الدفن ولم تكن الأريكة الا زخرفة ودوره ، وأحياناً في مقابر ذات المحراب ومحاريب حيث احتفت الأريكة تماماً وكان الموتى يدفنون في التجاويف وفي توابيت كالصناديق كانت توضع في المحاريب

ومما يجدر بالملاحظة انه اذا كان طابع عمارة هذه المقابر وزخرفتها اغريقياً ، فانها لم تخل أحياناً قليلة من بعض العناصر المصرية ، وكذلك كانت أيضاً حال النصب الجنائزية

أما المصريون فانهم ، سواء أكانوا يعيشون في الاسكندرية أم في مدن والقرى المصرية ، قد احتفظوا بأساليبهم التقليدية فكانوا يدفنون موتاهم اما في مقابر قديمة عادوا استخدامها ، أو في مقابر حديثة كانت على نوعين واحد منهما النوع الذي يتألف من بئر تنتهي في حجرة صغيرة تدفن فيها الجثث وكان هذا النوع موضع من المقابر شائعاً جداً في مصر الفرعونية وكانت مقابر النوع الثاني تتألف من هيكل جنائزي صغير فوق من أرضيته بئر كانت الجثث تدفن في قاعه ولما كانت مقابر هذا النوع أغنى من مقابر النوع الأول ، فان هذا يفسر قلة عدد مقابره في مصر بسبب فقر أهالي البلاد بوجه عام فقراً مدقعاً .

ومن مقابر هذه الفترة مقبرة بتوزيريس التي اختلطت في زخرفة بعض أجزائها الطراز المصري مع الطراز الاغريقي كانت المقابر المصرية البطلمية مصرية خالصة في عمارتها وزخرفتها ونصبها الجنائزية

ومن ثم يمكن القول بأن المصريين والاغريق قد احتفظوا بوجه عام بطراز عمارتهم الجنائزية

صورتان كاملتان لمقبرة مصطفى باشا في الاسكندرية تمثل مجموعة من خصائص عمارة المقابر الاغريقية في العصر البطلمي كانت معبداً صغيراً في الفناء الذي يتوسطها ، ما اليوم مكشوفاً في وسط المكشف الفسيح للمقبرة

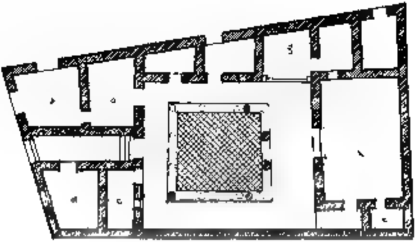

منزل في ديبوسر

منزل في بر نسمر

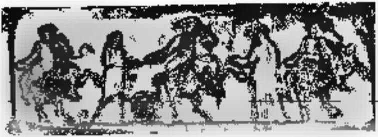

لوحة زخرفية فوق المقبرة رقم ١ بمصطفى كامل برمل الاسكندرية . وتصور اللوحة ثلاثة فرسان يتبعهم صيادان . ويبدو أنهم كانوا جميعا أفراد اسرة مقدونية ميتة دفنت فى هذه المقبرة

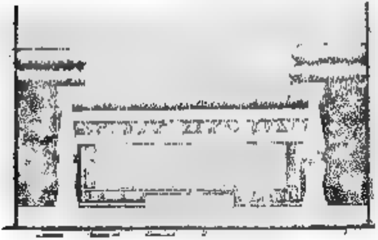

تابوت فى شكل أريكة فى المقبرة رقم ٣ بمصطفى كامل برمل الاسكندرية . وهيئة الأريكة الجنائزية وقد صنعت من الحجر وطليت بالجص والأكاسيد تقليدا صورة رائعة من نموذج الرسم الذى يمثل [illegible] الأرائك التى كانت تستخدم فى الحياة الدنيا وتصنع من الخشب وترصع بالعاج والمعادن والخشب النفيس وتفرش بالطنافس والوسائد

خالية من التأثيرات الأجنبية ، فيما عدا بعض العناصر الدقيقة التي تسللت في بعض الحالات من أحد الطرازين إلى الآخر ، وبعضها يدل دلالة على المدى المحدود الذي تمت فيه محاولة مزج طرازي العمارة المصري والإغريقي

ب ـ المنازل

ومع أنه لم يعثر في مصر كلها إلا على عدد قليل من المنازل الإغريقية في الفيوم ، فإنه بفضل معلومات عن المنازل الإغريقية في باقي أنحاء العالم الإغريقي ، والأدلة المستمدة من الوثائق البردية ومقابر الإسكندرية وخاصة بطلميوس الرابع التي كانت [illegible] ، نستطيع أن نستخلص أن إغريق الإسكندرية قد استخدموا ، مثل معاصريهم في سائر أنحاء العالم الإغريقي ، نوعين من المنازل يشبه أحدهما النوع الذي كان شائعاً في برييني بآسيا الصغرى في القرن الثالث قبل الميلاد ، بدليل أن مقابر سوق الورديان والشاطبي والأنفوشي وسيدي جابر تتألف من العناصر الرئيسية التي كانت توجد في ذلك النوع من المنازل. أما النوع الثاني فيشبه ذلك النوع من المنازل الذي اشتهرت به جزيرة ديلوس في القرن الثاني قبل الميلاد ، ووجدت عناصره الرئيسية في مقبرتي جبانة أنفوشي واستكسي

وتشير القرائن إلى أنه كانت توجد منازل إغريقية في بطوليمايس وبعض مدن الفيوم ، ومن المحتمل أيضاً في كرانيس [illegible] دون شك من الإغريق وكذلك مصريين كانوا نزلوا في منازل مصرية لم تكن إلا استمراراً لأنواع المنازل التي كشفت عنها الحفائر في تل العمارنة ، فهي مثلها تتألف من مدخل وصالة وسطى وغرفة للنوم ومطبخ ومخازن. ويجب أن نبين أن اتخاذ الإغريق في الريف منازل من الطراز المصري لا يرجع إلى تأثيرات حضارية وإنما إلى الظروف وحدها التي أملت ذلك ، فقد كان أغلب هؤلاء الإغريق جنوداً وبعضهم تجاراً ، وكان الجنود ينزلون مساكن في بيوت مصرية. ومن المحتمل أن هؤلاء الجنود والتجار لم يعيشوا من قبل في منازل تختلف كثيراً عما وجدوه من المنازل المصرية. ولذلك يبدو طبيعياً أن إغريق الأقاليم بوجه عام استخدموا المساكن المصرية التي وجدوها فيما نزلوه من المدن والقرى المصرية. ولعله بمضي الزمن وتناسب هذه المنازل مع البيئة ألف الإغريق سكناها.

أما عن طابع عمارة المنازل البطلمية وزخرفتها فإن القرائن توحي بأنه قد بقي بوجه عام مصرياً خالصاً أو إغريقياً خالصاً

ج ـ المعابد

وتحدثنا المصادر القديمة بأن الإسكندر الأكبر والبطالمة قد شيدوا معابد للآلهة الإغريقية مثلما شيدوا للآلهة المصرية ، لكن لسوء الحظ لم تكشف الحفائر عن بقايا أي معبد إغريقي كبير ، وإن كانت قد كشفت عن بقايا معبد دوري صغير يبدو أن طرازه الإغريقي لا تشوبه أي تأثيرات مصرية ، كما

كشف أيضاً عن عدد كبير من الأعمدة الإغريقية، وإنه كانت هذه الطرز تعتبر طابعها المحلي، وهو طابع الإسكندرية، فإن أغلبها إغريقي بحت. ومع ذلك فقد عثر على بعض تيجان للأعمدة تختلط فيها العناصر المصرية والإغريقية، لكن يستبعد أنها كانت مستخدمة في معابد إغريقية أو مصرية لأن مثل هذه المعابد الدينية تتصف دائماً بالمحافظة والاستمساك بالتقاليد. وإذا كان الأفراد من سائر الأجناس قد حرصوا بوجه عام على أن يكون طابع مساكنهم في الدنيا وفي الآخرة إغريقياً، فإننا لا نشك في أن معابد الآلهة الإغريقية كانت أكثر استمساكاً بتقاليد العمارة الإغريقية.

وقد كشف عن عدد كبير من المقابر التي أقيمت في هذا العصر بالإسكندرية، وهي مصرية في تخطيطها وعمارتها وزخرفتها، ولا أدل على ذلك من أن الأثريين لم يستطيعوا تأريخها تأريخاً صحيحاً قبل حل طلاسم اللغة المصرية القديمة. وتمتاز هذه المقابر بمظهرين واضحين: أولاً، كثرة ما استخدم فيها من الأعمدة التي يطلق على رؤوسها الرؤوس المركبة، ومعناه أن المصريين ابتكروها في أثناء نهضة العصر الصاوي؛ وثانياً، كثرة ما استخدم في صالات الأعمدة بوجه خاص من جدران قصيرة تجمع بعض تيجان الأعمدة تقريباً. ونسب هذه الجدران القصيرة عرضه على العمارة المصرية، إذ نجد أمثلة لها في معابد الدولة الحديثة.

وجملة القول أن العمارة الدينية في عصر البطالمة، سواء أكانت مصرية أم إغريقية، لم تتطرق إليها أي تأثيرات أجنبية.

٢ ـ النحت

ومن الدلائل التي تؤكد أنه كانت للإسكندرية مدرسة للنحت الإغريقي ذات مميزات خاصة تختلف عن مميزات سائر مدارس النحت الهلينستية، وأرى أنه إذا كانت هذه المدرسة، مثل المدارس الأخرى المعاصرة، قد استمدت عناصرها من تراث أساتذة الفن الإغريقي في القرن الرابع، فإنها لم تلبث أن انفردت بطابع معين كان أخص مميزاته عدم إبراز عظام الوجه والجسم، وعدم معالجة تفاصيل الشعر، وعدم استخدام الزوايا الحادة، وصقل السطح صقلاً شديداً. لكن الإسكندرية لم تستخدم هذا الطراز المثالي فحسب، لأنها يوم ابتكرت فرعاً جديداً من فن النحت تمخضت عنه الأبحاث التي سادت فيها في جامعتها، وكان عبارة عن دراسة أجناس الناس وطبائعهم وحرفهم، ابتكرت طرازاً واقعياً يلائم هذا الفرع من الفن.

وتدل المخلفات التي كشفت عنها الحفريات على أن الفن الإغريقي لم يحتكر فن النحت في مصر على عهد البطالمة. فقد استمر الفنان المصري يزاول نشاطه لا في [illegible] بل في ميادين الميادين التي كان أسلافه قد ألفوها منذ غابر الزمن.

وتنكشف دراستنا من البحث في عصر البطالمة عن: أولا ، أن أكثر النقود التي سكها البطالمة وأغلب قطع النحت التي شكلتها مدرسة الإسكندرية لم تعد في طرازها وعناصرها وصنعتها ، وأن أكثر قطع النحت المصرية مصرية بحتة في أسلوبها وعناصرها وجوهرها

وثانيا ، أن الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيها العناصر دون تطور ، مثل تصوير زهرة اللوتس أو قرص الشمس وسط قرني على نقود بعض البطالمة ، فهذه عناصر مصرية ومع ذلك فإن طراز تلك النقود إغريقي . ومثل قطعة تصور رأس الإسكندر الأكبر بطراز إغريقي ، لكن القطعة مصنوعة من الجرانيت أو البازلت ، وهما مادتان غريبتان عن الفن الإغريقي . ومثل تمثال يصور ملكا أو ملكة من أسرة البطالمة بطراز مصري

وقد كان للتجانس الصحيح في أي فن من الفنون هو التطور ، لأنه أبرز صورة لأفكار الفنان وأوضح مظهر لطابع حضارته ، فإن اختلاط العناصر أو الصنعة لا يمكن أن ينهض دليلا على امتزاج الطرازين المصري والإغريقي ولا يدل على امتزاج تلك الحضارتين وتفاعلهما . لقد كان اختلاط العناصر نتيجة طبيعية لاجتماع الإغريق والمصريين في بيئة واحدة ، وكذلك لقدرة الفنان على أن يكيف

مثلان لقطع النحت التي تختلط فيها العناصر دون التطور

رأس للإسكندر الأكبر مصنوعة من الجرانيت لكن طرازها إغريقي

تمثال لبطليموس الرابع مصنوع من الجرانيت وطرازه مصري

معه حسب الظروف التي تعيش في كنفها ، وهي نتيجة تتعاكس الصفة بين المصرية والاغريقية ، لأن هذه العناصر ظواهر سطحية على حين أن الجوهر نفسه وهو الجزء الهام مصرية أو اغريقية خالصة

وثالثاً ، انه لم نجد قليل من قطع النحت محاولات للمزج بين الطرازين المصري والاغريقي ، لكن قلة عدد هذه القطع تدل على أن المصريين والاغريق قد أدركوا بذوقهم الفني الرفيع عبث مثل هذه المحاولات بسبب الهوة بين الطرازين. واذا مقارنة هذه القطع بالقطع الاخرى التي كان طرازها مصريا بحتا او اغريقيا يدل على أن الأخيرة لا تفوق الأولى في عددها فحسب بل كذلك في القيمة الفنية. ولعل أولئك الفنانين الذين حاولوا في عصر البطالمة مزج الطرازين المصري والاغريقي في فن النحت يشبهون الموسيقيين المصريين الذين يحاولون اليوم عبثا مزج الموسيقى الشرقية بالموسيقى الغربية.

انه لم توجد الا طريقة واحدة ناجحة لمزج مثل هذين الفنين اللذين كانا يختلفان في طبيعتهما اختلافا بعيد المدى. أما هذه الطريقة فهي أن يفنى أحدهما في الآخر بأن يتغلب أحدهما على الآخر بحيث يقضي عليه قضاء مبرما. لكن ذلك كان عزيزا على الاغريق باعتبارهم سادة البلاد وأصحاب حضارة كانوا يعتبرونها أسمى الحضارات جميعا ، كما كان عزيزا أيضا على المصريين ، فقد كانوا لا يزالون يذكرون حضارتهم التالدة ويعتزون بتقاليدهم ولا سيما أن تعلق عامتهم كان وثيق الصلة بالديانة وهم كانوا شديدي الاستمساك بعقائدهم.

ومما يجدر بالملاحظة أن القيمة الفنية لقطع النحت الاغريقية أخذت تقل بعد بداية القرن الثاني قبل الميلاد. وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لضعف الروح الاغريقي بين الاغريق بمصر في الشطر الثاني من عصر البطالمة. لكن كما ظل الاغريق محتفظين بطابعهم خالصا نقيا برغم ما اعتور روحهم من الضعف ، كانت فنونهم هي كذلك محتفظة بسمات طرازها برغم ما طرأ عليه من فتور.

ولئن كان طبيعيا أيضا أنه حين انتعش الروح القومي بين المصريين عقب موقعة رفح أن ينتعش فنهم كذلك ، لكنه لم يكن انتعاشا طويل الأمد بسبب الفشل الذي انتهت اليه ثورات المصريين.

ولما كانت النقود تريب انه قد ظلت اغريقية خالصة في طرازها حتى نهاية عصر البطالمة ، وكانت النصب الجنائزية ولوحات المعابد قد بقيت كذلك مصرية خالصة في طرازها حتى آخر هذا العصر ، فانه لا مفر من الحقيقة حين نقرر أن كلا من الفن المصري والاغريقي قد احتفظ بوجه عام بأن ازدهاره وعاش بطابعه خاصا نقيا من أثر الفن الآخر ، فلم يأت هذان الفنان مندمجين في مصر البطلمية ، اذ يبدو أن السياسيين كانوا

يدركون ادراكا صحيحا أنه يختص من الصور دون أن لا يمكن تخصيصها ، وان مطمح الفن التي يختلط فيها العناصر دون النظر يعكس أثر البيئة لا أثر الحضارة التي تعبر عنها الصورة أن تلك المحاولات التي كانت تستهدف مزج الطرازين كانت قليلة في عددها محدودة في مجهودها ضعيفة في قيمتها الفنية بحيث يمكن اعتبارها محاولات فردية أو نزوة من ينقصه التهذيب

* * *

ولا ريب في أن الفن البطلمي يعطينا صورة صحيحة عن الحياة الاجتماعية في مصر في عصر البطالمة . فقد شهدنا أن غالبية الفن الاغريقي وغالبية الفن المصري كانت اغريقية خالصة أو مصرية خالصة . وبذلك لابد من أن أغلب الاغريق وأغلب المصريين قد ظلوا خالصين في جوهرهم .

وربت بعض الآثار عناصر دخيلة لم يكن لها أثر في طابعها الجوهري . وهذا يدل على أن الجنسين قد التقيا واحتكا ، لكن لم يتغلب أحدهما على الآخر إلا بعض مظاهر السطحية فقط .

ونرى كذلك محاولات قليلة عن ناحية مزج الطرازين المصري والاغريقي . ويتضح بذلك أن محاولة مزج الجنسين كانت كذلك محدودة وغير موفقة .

ومما يبدو جليا واضحا أن تدهور الفن الاغريقي قد حدث في أعقاب انقطاع ورود الاغريق على مصر ، فانه يمكن القول ان ضعف الروح الاغريقي في مصر لم يبدأ قبل القرن الثاني قبل الميلاد ولم يكن نتيجة لاختلاط الاغريق بالمصريين .

وكما بقي الفن الاغريقي اغريقيا حتى نهاية عصر البطالمة مهما انحط مستواه ، فلابد من أن الروح الاغريقي قد بقي كذلك اغريقيا مهما اعتوره من الضعف .

ويبدو لنا من كل ما مر بنا أن نتائج الأدلة المستمدة من الآثار تؤيد النتائج التي استخلصناها من مختلف المصادر الأدبية

امثلة لرءوس تطور في النحت الاغريقي في عصر البطالمة

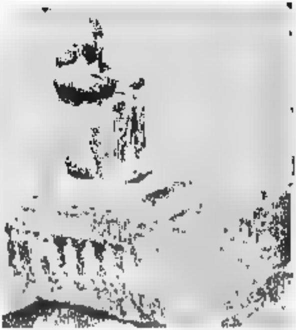

أقنعة ملونة تمزج الطرازين المصرى والاغريقى

تمثالان صغيران من البرونز لقزمين يرقص
وهما ... راقصة ... مع ...
... في ... باقرب من
تماثيل في ...

ويدل استخدام الأقزام ... رغم
... في مصر في عهد الفراعنة والدولة البطالمة
... لا يبعد أن ... التماثيل ... في ...
الاسكندرية

تمثال ... من ...

٢ ١

١ - عقد صغير من الذهب مرصع بالأحجار الكريمة وهو مصري في الشكل والصناعة والطراز

٢ - سواران من الذهب ينتهي أحدهما بجزئين من حيوان ... وهو مصري في ... أما السوار الآخر فينتهي بحلقات في شكل ... يوجد في مجوهرات ... محلي

سواران من الفضة عثر عليهما في البلاموي بمديرية الدقهلية والسوار الأول على شكل ثعبان ملتوي جسمه حلقة السوار الثاني يتألف من سلك ... متشابكة مع بعضها ثم ينتهي برأس ... والأساور التي تحاكي الثعابين في شكلها شائعة في الفن الإغريقي وقد ... في مصر ... تحاكي السوار الثاني في شكله وزخرفته

٢

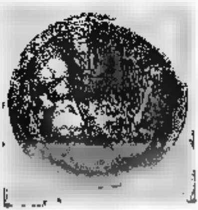

١

٤

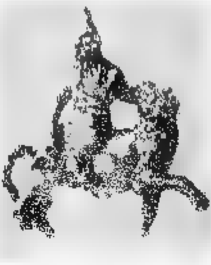

٣

لوحة برونزية مربعة تصور - بطريقة هيلينستية لهرقل على كتفه الأيسر جلد الأسد وفي يده اليسرى هراوته المشهورة

٢ - سرج من الفضي للوجه برونزية مرصعة بصورة ملكية بطلمية بطليموس الأول

٣ تمثال صغير يصور انسس على ظهر اسد

٤ رأس مسبك شعر في شكل أفروديتي وهي تحزم شعرها

أمثلة من الأواني في عصر البطالمة

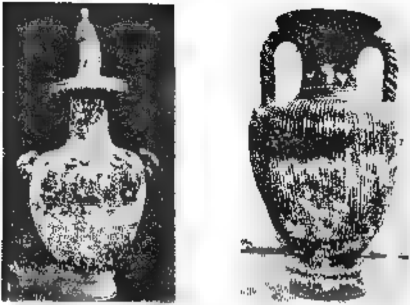

نوعان من الآنية الفخارية الجنائزية التي كانت شائعة في القرن الثالث قبل الميلاد في الإسكندرية .

إناء من الخزف اللامع كان يستخدم في القرن الثالث قبل الميلاد في معابد الإغريق في المعابد والهياكل المخصصة لعبادة البطالمة كآلهة

إناء زجاجي من العصر الهلنستي المتأخر

كأس من البرونز من العصر الهلنستي المتأخر

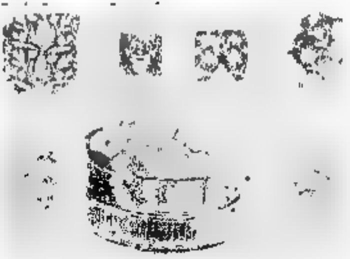

نرى في وسط هذه الصورة كأس من الزجاج ذات [illegible] وحولها قطع [illegible] صغيرة
كانت تستخدم في الزخرفة

(١)

(٢)

١ ـ كأس من الفضة في شكل قرن ينتهي بجزء حيوان خرافي مجنح — صناعة ايرانية
٢ ـ وعاء من الفضة الايراني في شكله — ويشبه الآنية الفخارية لكنه مصري في صناعته وطرازه

تضم هذه اللوحة تمثالا صغيرا من الصلصال مصري صنع ليمثل طراز الإغريقي تضم كذلك عددا من الآنية الفخارية بعضها أبيض وبعضها [illegible] مصنوعة [illegible] وبعضها مستورد من [illegible] وتصور هذه اللوحة ازدهار الفن الإغريقي في مصر [illegible] وكذلك قيام علاقات تجارية نشيطة بين مصر وأثينا وكذلك بين مصر وجنوب إيطاليا

لوحة من الصحـــراء تصور في جزئهـــا العلوي مناظر وحيوانات سودانية وفي جزئها الأسفل منظراً لعدد عجل ولعب الغيطان

الفصل الأول

مصر في عصر الرومان (٣٠ ق م — ٢٨٤ م)

للدكتور إبراهيم نصحي

مصر تصبح ولاية رومانية

١ ـ الفتح الروماني

أخذ نفوذ روما يزداد تدريجياً في مصر منذ أيام بطلميوس الخامس ، بل أصبح مصير مصر معلقاً بمصير الصراع الحربي في روما منذ وفاة بطلميوس الاسكندر الثاني في عام ٨٠ ق . م . لكن بالرغم من كل ذلك ظل البطالمة محتفظين على الأقل باستقلالهم الاسمي . وعندما ارتقت كليوبترة السابعة عرش مصر في عام ٥١ ق . م . واندلع لهيب الحروب الأهلية في روما لعبت كليوبترة دوراً كانت تهدف من ورائه إمبراطورية واسعة على حساب الرومان مما أفضى إلى صراع روما مع كليوبترة وهو الصراع الذي تمخض عنه القضاء على دولة البطالمة .

وبيان ذلك أن كليوبترة مدت يد المساعدة إلى بومبي الأكبر في صراعه مع قيصر ، ولكن لم يكن نصيب بومبي سوى الهزيمة ففر إلى الاسكندرية حيث قتله رجال البلاط ظناً منهم أنهم يرضون قيصر الذي تبعه إلى هناك . وهكذا فقد قطعت علاقاتها مع أعدائه وبذلك لم يبق بينه وبين الزحف نحو مصر . إلا أن قيصر دخل الاسكندرية وبعد حروب قصيرة عنيفة تعرف « بحرب الاسكندرية » وطد مركز كليوبترة على العرش ثم وقعت كليوبترة بسحرها على قيصر فأصبح طوع أمرها . ويبدو أنهما اتفقا على أن تظل كليوبترة زوجة له في مصر حتى يرى قيصر إعلان هذا الزواج في روما حتى يجعل لنفسه ملكاً هناك ، وعندما أنجبت كليوبترة طفلاً من قيصر سجلت على جدران معبد أرمنت أنها أنجبت طفلاً من قيصر لدى حلول الإله في صورة آمون رع . وسمي ذلك بها في نظرها ونظر رعاياها المصريين كانت زوجة لقيصر الأرضية . وسرعان ما ذهبت كليوبترة إلى روما والتحقت إلى جانب قيصر انتظاراً لليوم الموعود الذي يقيم فيه نفسه ملكاً ويعلن رسمياً زواجه منها وترتقي معه عرش الامبراطورية الرومانية . لكن هذه الآمال العراض لم تلبث أن انهارت عندما سقطت مطامع قيصر عقب اغتياله على أيدي الرومان المتعصبين للجمهورية في مارس عام ٤٤ ق . م

وقد عادت كليوبترة بالعرب إلى مملكتها
وحدث بعد ذلك في نفس الصراع الذي نشب
في العالم الروماني بين فتنة قيصر وخصومه
دور أي تأمر فرضا على آخر ، حتى إذا
ما انتصر حلفاء قيصر وكان على رأسهم
انطونيوس وأوكتافيوس وليبيدوس ، في
خريف عام ٤٢ ق . م . وهب انطونيوس
يتولى أمر الجزء الشرقي من الامبراطورية
الرومانية وأرسل أحد القادة ديلوس إلى
كليوبترة يستدعيها في كيليكية ليحاسبها على
نجدتها معاونة أنصار قيصر . وما كادت
كليوبترة تصل إلى طرسوس حتى أحرزت
نصرا حاسما على قلب انطونيوس ، وصحبته
عادت إلى الاسكندرية مسرعة إلى [illegible] بها
وقضى في صحبتها شتاء عام ٤١/٤٠ ق . م
مستمتعا بتلك الحياة الفريدة التي خلد
الكتاب والشعراء ذكراها في النصوص وفي
الآداب ، والتي مهد بها لتحمله شتاء على
الدوام وتأتي قلبه وعقله إلى الاسكندرية
لكن الأحداث الخطيرة التي وقعت في العالم
الروماني في ربيع عام ٤٠ ق . م . [illegible]
كانوا من جانب كليوبترة واضطرته إلى
العودة إلى روما حيث أصلح ما بينه وبين
اكتافيوس وتزوج من أخته أوكتافيا وخصص
[illegible] الامبراطور سلطانه على الولايات
الشرقية . وقد ظل انطونيوس بعيدا عن
كليوبترة حتى عام ٣٧ ق . م . [illegible]
إلى [illegible] الاشراف على حملته ضد
بارثيا . ولما كان [illegible] إلى كليوبترة [illegible]
به عادة مستشاريها إلى جانبه في عمل [illegible] معها
واعترافه بأبوته للتوأمين اللذين أنجبتهما له . وبعد
نهاية حملته الفاشلة عاد إلى مصر في أوائل
عام ٣٥

وفي العام التالي وجه حملة إلى أرمينيا
وعاد منها مظفرا إلى الاسكندرية حيث أقام
مهرجان النصر ، وكان القواد الرومان
المنتصرون يقيمون مهرجانات نصرهم عادة في روما
وقد أثار ذلك غضب الرومان لأنهم رأوا فيه
دليلا على أن انطونيوس كان يريد أن يجعل
الاسكندرية عاصمة للامبراطورية . وزاد
غضب الرومان [illegible] أنهم [illegible] حفل آخر
أقيم بعد ذلك بأيام قليلة في الاسكندرية
وأشرف فيه انطونيوس ونودي فيه
بكليوبترة ملكة الملكات ووزعت على أبنائها
الولايات الرومانية في الشرق . وهكذا رأت
كليوبترة [illegible] الشابة أن كانت [illegible]
أو أدنى من أن تصبح امبراطورة العالم ، فقد
كان يسيطر عندئذ على النصف الشرقي من
العالم الروماني وكانت هي أعظم قائد في هذا
العالم ولم يبق إلا أن ينتصر انطونيوس على
اكتافيوس في الصراع المحتوم بينهما
لكي تحقق كليوبترة حلمها الذي بدده أو
كاد مقتل قيصر . ولذلك لم تدخر كليوبترة
وسعا في تحريض انطونيوس على الحملة ضد
مناوئه اكتافيوس . وقد أعلن اكتافيوس على
ذلك بإثارة الرأي العام في روما ضد غريمه وعلا
الحرب على ملكة مصر لا على انطونيوس
فكيلا يتهمه أحد بإشعال نار حرب أهلية

وبعد أن حشد أنطونيوس قوات كبيرة في بلاد اليونان أصبح موقفه باتخاذ موقف الدفاع ضد قوات عادية ومعنوية بسبب انهزامه في معـــركة عام ٣١ ق. م. عند أكتيوم انتصر أغسطس وفرت كليوبترة وأنطونيوس إلى الإسكندرية. وقد استبد اليأس بأنطونيوس من جراء خيانة رجاله الذين انضم كثيرون منهم إلى جانب أغسطس فلم يقم بأي محاولة للدفاع عن مصر عندما زحف عليها أغسطس. ولما رأت كليوبترة عبث المقاومة عرضت على أغسطس أن تنزل عن عرشها والتمست منه إقامة أحد أبنائها ملكا فأجابها بعبارات مقبولة لكي لا يكشف النقاب عن حقيقة نواياه نحوها. وفي اليوم الأول من شهر أغسطس عام ٣٠ ق. م. قبل أن يدخل أغسطس الإسكندرية قضى أنطونيوس على حياته بينما كانت كليوبترة قد اعتصمت في مقبرتها حيث أودعت كنوزها وهددت بأن تشعل النار في المقبرة فتقضي على نفسها وكنوزها وكذلك على آمال أغسطس إذا لم يقم أحد أبنائها على العرش. وقد كان أغسطس يريد أن يعرض كليوبترة في مهرجان انتصاره ويستشعر حاجة ماسة إلى كنوزها ولذلك ما كاد يدخل الإسكندرية حتى خطا إلى المقبرة واستولى على الملكة وكنوزها. وعندما تبينت بعد تحقق كليوبترة دون شك في أن أغسطس ينوي أن يرسلها أسيرة إلى روما واجهت الموقف بشجاعتها المعهودة وتخلصت من ذلك العار والهوان بالقضاء على حيـــاتها في ١٠ أغسطس ٣٠ ق. م. وبذهاب آخر عضو من أسرة البطالمة طويت صفحة الماضي وبدأ فصل جديد في تاريخ مصر التي أصبحت منذ ذلك الوقت ولاية رومانية. وقد قرر السناتو الروماني اعتبار أول أغسطس عام ٣٠ ق. م. — وهو يوم سقوط الإسكندرية في قبضة الرومان — عيدا وطنيا في روما وبداية للتقويم المحلي في مصر.

ولا أدل على مقدار كراهية الرومان لكليوبترة وخوفهم منها من روح الشماتة والسخافة التي تكشف عنها كتابات معظم شعراء عصر أغسطس للإشادة بانتصار هذا الإمبراطور وهزيمة كليوبترة. وقد كانت روما تسيطر عندئذ ولمدة قرون بعد ذلك على كل العالم المتمدين وكان الكتاب والشعراء المعاصرون قد تباروا في كسب ود الإمبراطور المنتصر بتلطيخ سمعة كليوبترة ورميها بكل نقيصة يمكن أن يصورها الخيال المريض دون أن يجرؤ أحد من أنصار كليوبترة على الدفاع عنها. ... كتابات خصومها قد ظلت حتى اليوم المصدر الوحيد الذي يستقى منه تاريخها، ونتيجة لذلك كان لهذه الكتابات أبلغ الأثر في كل ما كتب عنها منذ العصور القديمة حتى اليوم ولا سيما في الصورة التي صورت فيها ... الشعراء

وكتاب النصف . لكن عندما أخذ بعض الباحثين المحدثين في تمحيص أقوال القدماء ومقارنة بعضها ببعض تبين لهم أن هذه الصورة مريفة وأن كليوبترة كانت ملكة طموحة أبية وأنها رأت روما وفيها ونهبها لم تكن أكثر من غيرها من نساء الإسكندرية أو روما بذلا واستهتارا بل لعلها كانت أكثر من غيرها من سيدات الطبقة الراقية وقارا واحتشاما

٢ — سياسة اباطرة الرومان في مصر

سجل فتح أغسطس مصر أثبت في السجلات الرسمية العبارة التالية « ضممت مصر الى سلطان الشعب الروماني » . ويرى كثير من الباحثين ان معنى ذلك واضح لا لبس فيه ولا غموض وهو ان أغسطس ضم مصر الى الامبراطورية الرومانية وأصبحت احدى ولاياتها ، تمد روما بمواردها مثل موارد غيرها من الولايات الرومانية لصالح الشعب الروماني . ولا أدل على وضوح هذا المعنى في ذهن القدماء من أن المؤرخين سويتونيوس وتاكيتوس وديون كاسيوس وغيرهم وكذلك الجغرافي استرابون وصفوا مصر بأنها ولاية رومانية . ومع ذلك ... وإن بعض الباحثين يعتقدون أن مصر لم تكن ولاية بالمعنى المعروف وإنما كانت ملكا خاصا للامبراطور يرتبط بشخصه وذلك لأنها كانت تخضع مباشرة لسلطانه ولأن نظام حكمها كان يختلف اختلافا جوهريا عن نظام الحكم في الولايات الأخرى ، ولأن اسم مصر لم يرد في السجلات الرسمية المعاصرة مقرونا بكلمة ولاية ولاسيما أنه في ... — الذي اقتطعت منه العبارة التي أوردناها في صدر هذه الفقرة — لا يصف أغسطس مصر بأنها ولاية مع انه يتحدث في الفقرة التالية لذلك عن احتساب تحويل أرمينيا الكبرى الى ولاية . ويعتقد البعض الآخر من الباحثين أن مصر كانت ولاية يتولى الامبراطور ادارتها باسم الشعب الروماني على هدى تقاليده ومقتضيات ظروفها

والواقع ان مصر لم تكن ملكا خاصا للامبراطور كما أنها لم تكن ولاية عادية كسائر الولايات الرومانية ، فقد أخضعها أغسطس في تقديره لعدة اعتبارات : أولا ، ان مصر بلاد غنية آهلة بالسكان تتمتع بمركز استراتيجي من اليسير الدفاع عنه ، وثانيا ان موارد هذه البلاد طائلة وتستطيع أن تسد حاجة الشعب الروماني الى الحبوب وأن تملأ خزائن روما بالأموال بعد أن استنزفتها تكاليف الحروب الأهلية . وثالثا ، ان هذه البلاد في حاجة الى حكومة قوية لنشر الأمن في أرجائها ، والنهوض بمرافقها الاقتصادية بعد تدهورها من جراء ضعف البطالمة الأواخر وما عانته من آثار الثورات القومية والحروب الأهلية والاضطرابات بين أفراد أسرة البطالمة . ورأينا انه بعد اتخاذ الخطة دون

وتموج هذه البلاد في قبضة محكمة تستطيع الاستقلال بها وحرمان روما من غلاتها إن هدد كيانها وتمردها على نحو ما حدث في عهد كليوباترة .

ونتيجة لهذه الاعتبارات كانت ولاية مصر الرومانية مركز فريد في الامبراطورية الرومانية فقد وضع فيها أغسطس من القوى الرومانية والقوات العسكرية ما يلزم سلامتها . وفضلا عن ذلك وضعها أغسطس تحت اشرافه المباشر ، وفي عام ٢٧ ق . م عندما قسمت الولايات الرومانية إلى ولايات خاضعة للسناتو وولايات خاضعة للامبراطور كانت مصر في عداد الولايات الأخيرة ولم يعين أغسطس على مصر حاكما عاما من طبقة السناتو وإنما من طبقة الفرسان ولم يحمل هذا الحاكم كغيره من حكام الولايات الرومانية لقب نائب القنصل أو قائمقام قنصل (proconsul) أو قائمقام بريتور (propraetor) وإنما لقب بريفكتوس (praefectus) أي وال أو حاكم عام ، وكان لقبه الرسمي حاكم عام الاسكندرية ومصر ، فحسب النص الروماني الذي يعتبر الاسكندرية وحدة منفصلة عن مصر ومجاورة لها ad aegyptum

وإلى جانب كل ذلك وضع أغسطس قاعدة تقضي بألا يزور مصر أحد من رجال السناتو ، أو أي رجل دائم الصيت من طبقة الفرسان [illegible] إلا بإذن خاص من الامبراطور . وقد احترم خلفاء أغسطس هذه القاعدة الى حد أنه عندما قام في عهد الامبراطور تيبريوس حفيده جرمانيكوس في الشرق بتنظيم بعض ولاياته وانتهز هذه الفرصة لزيارة مصر ومشاهدة آثارها ، آخذه الامبراطور مؤاخذة شديدة لأنه دخل مصر دون استئذانه متخطيا بذلك القاعدة التي وضعها أغسطس .

وقد ظل الأباطرة يحرصون على مراعاة القاعدة التي وضعها أغسطس الى أن قلت ثروة مصر ولم تعد المصدر الرئيسي للقمح لروما فلم يعد الأباطرة يرون حتى في تعيين أحد من رجال السناتو في مصر خطرا يهددهم . وكان الامبراطور ماكرينوس (٢١٧ — ٢١٨) أول من خرج على القاعدة التي وضعها أغسطس اذ عين الى جانب حاكم مصر مساعدا له من رجال السناتو ولا أدل على نقص أهمية مصر في القرن الثالث مما فعله الامبراطور سفروس الاسكندر (٢٢٢ — ٢٣٥) إذ أنه عندما ثار عليه بعض الجنود عين رئيسهم حاكما على مصر لا ترضية له وإنما لاقصائه الى مكان لا يستطيع منه أن يهدد مركزه .

وقد اعتمد الرومان في سياسة سيطرتهم في مصر على القوة قبل كل شيء فأقاموا حاميات عسكرية في الأماكن الهامة التي تمكنهم من السيطرة على كافة أنحاء البلاد . وبذلك

وضعوا حامية رومانية في نيقوبوليس Nikopolis حتى يضمنوا أمن أحياء شرقي الاسكندرية (ما بين مصطفى كامل وحي رمل الاسكندرية) ، ولتلقي الرعب في سكان عاصمة التي أثبتت الحوادث أنها كانت أشد معاقل الثائرين خطراً في الدلتا في أيام البطالمة الأواخر. وأقام الرومان حامية أخرى في بابليون باعتبارها مفتاح الوجه البحري ، وفي منطقة طيبة التي كانت مركز الثورات الوطنية ضد البطالمة ، وفي أسوان لحماية حدود مصر الجنوبية ، وعلى الطرق المؤدية الى البحر الأحمر ، وكذلك على شواطئ هذا البحر لضمان سلامة التجارة الشرقية التي استرعت انتباه حكومة الرأي من الأباطرة فقد حدا بهم منذ عهد أغسطس الى العمل على بسط النفوذ الروماني على الشواطئ الاسيوية والافريقية للبحر الأحمر لتحويل التجارة في هذا البحر الى موانئ مصرية على نحو ما فعل البطالمة من قبل.

ولم يكتف الرومان بالاعتماد على القوة وحدها لتأييد حكمهم في مصر بل لجأوا أيضاً الى الأساليب السياسية. فقد كان أهم عناصر السكان بعد فئة الرومان المصريين والاغريق واليهود ، وكان هؤلاء في الاسكندرية أكبر مجموعة من الاغريق واليهود ، ورأى الأباطرة أن اخضاع الاسكندرية أكبر ضمان لاخضاع مصر ، ولتحقيق هذا الهدف اتبعوا مبدأهم المعروف، مبدأ « فرق تسد » . فعلى حين رفض أغسطس ومن خلفه من أباطرة القرنين الأول والثاني أن يمنحوا اغريق الاسكندرية « مجلس الشورى » الذي عرفته مدينتهم منذ تأسيسها الى أن ألغاه أحد البطالمة الأواخر ، منحوا اليهود كافة الحقوق والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في عصر البطالمة . وقد والى الأباطرة هذه المنح حتى اليهود على الرغم من أن الاغريق التمسوا من سادتهم حرمانهم إياها . فاستمر اليهود ينتظمون في جالية مستقلة لها رئيس ومجلس من شيوخهم ودار لسجلاتهم ويمارسون شعائرهم الدينية . فتملك الغضب قلوب الاغريق الذين عز عليهم زوال ملك البطالمة وخضوعهم لأمة لم ترتفع الى مستوى حضارتهم ومحاباة الرومان لليهود . وقد زاد في نقمة الاغريق على اليهود أن هؤلاء بادروا الى الترحيب بالرومان والالتفاف حولهم . فحقد الاغريق على الرومان واليهود وأصبح عداء الاغريق لليهود كرههم الدفين للرومان . لكن اذا كان الأباطرة قد أباحوا لليهود التمتع بامتيازاتهم وحقوقهم القديمة فانهم أبوا عليهم التمتع بالحقوق المدنية التي كان الاغريق يتمتعون بها ، فحقد اليهود أيضاً على الاغريق ولا سيما ان الأباطرة بوجه عام لم يحجبوا عطفهم عن الحضارة الاغريقية فقد شملوا برعايتهم معاهد الاغريق ومنشآتهم وأبقوا اللغة الاغريقية لغة البلاد الرسمية

ولم تستعمل اللغة اللاتينية الا في الجيش والدوائر المتصلة بالقاضي الروماني . ومن ثم لم تكن حالة مصر من النوع المستقر بين الاغريق واليهود . ونحن نرى ان النزاع بين اليهود والاغريق كان قاصمة بحسبه المتقطعة التي تخفيه وطأتها وتهدأ حينا ثم تعود الى الظهور وتشتد حينا آخر ، وان سياسة « فرق تسد » كانت سياسة حرفاء لم يكتفوا بمدرها الاغريق واليهود لحسب بل الرومان أيضا

ولم يكد يمضي عام على الفتح الروماني حتى نشبت في طيبة ثورة يبدو انها كانت خطيرة مما حمل بأول حاكم عام روماني لمصر — كورنيليوس جالوس — الى ان يقود بنفسه القوات الرومانية لقمعها ويحدثنا استرابون بأن الحاكم العام أخمدها في وقت قصير فيقال الثورة التي انتشبت في طيبة بسبب الضرائب . وقد سجل كورنيليوس على النصب الذي أقامه في جزيرة فيلة انه واصل زحفه جنوبا حتى جزيرة فيلة حيث استقبل سفراء ملك النوبة وانه عقد الملك قبل الحماية الرومانية وعينه حاكما على الاقليم الممتد من الشلال الأول حتى الشلال الثاني وكان يعرف باسم ترياكونتا سخوينوس

ويبدو أن الثورة لم تنشب في مصر العليا فحسب بل في أنحاء أخرى من مصر اذ نعرف من بردي عثر عليه في هيروونبوليس من ... المحفوظة في ... الدك ... كورنيليوس جالوس وأخضعها بعد قليل من الجهود

وعندما رأى أغسطس ان ... قد ... كورنيليوس جالوس عين لخلافته ايليوس جالوس وعهد اليه في الاتفاق مع القبائل التي كانت تقرب عسكر لحواشي البحر الأحمر في بلاد العرب والصومال والحبشة فذا لم يتمكن من اخضاعها ، وذلك لتأمين سلامة تجارة مصر مع أواسط أفريقيا والهند . ولما لم يوفق ايليوس في حملته كان نصيبه العزل ولا سيما ان غيبته عن مصر مع جانب كبير من حاميتها شجع النوبيين على نقض اتفاقهم مع كورنيليوس جالوس وعلى الاغارة على أسوان وفيلة والفنتين ونهبها وأسر بعض الأهالي والاستيلاء على تماثيل القيصر

وقد سارع الحاكم الجديد بترونيوس الى كبح جماح النوبيين وردهم على أعقابهم والاستيلاء على عاصمتهم نباتا . وبعدما استرد الأسرى والتماثيل انقل راجعا صوب الشمال حيث حصن قصر ابريم وترك فيه حامية ثم عاد الى الاسكندرية لكن بعد ذلك بعامين استرد النوبيون قصر ابريم فأسرع اليهم بترونيوس وانتزعه منهم واستقر ... ولم يلبث النوبيون أن طلبوا الصلح فأحالهم أغسطس الى ... وكان الصلح ينص على اعفاء النوبيين من دفع الجزية وعلى احتلال الرومان منطقة ...

بين أسوان ولمعرفة مدى أقام الرومان بعض مراكز عسكرية ودام السلام فترة طويلة في الجزء الشمالي من النوبة . وينهض كل هذا دليلا على السياسة التي وضعها أغسطس وأتبعها خلفاؤه من بعده ، وتتلخص في المحافظة على طرق التجارة مع الشرق والجنوب وتأمين الحدود الجنوبية دون الاهتمام بتوسيع نطاق الامبراطورية في تلك الأصقاع

ولم يكد بترونيوس يفرغ من النوبيين حتى شغل باخماد ثورة في الاسكندرية وعندما عادت السكينة الى البلاد وجه عنايته الى الأعمال الداخلية وخاصة تطهير الترع القديمة وشق ترع جديدة واصلاح الآبار التي تقع على الطرق الصحراوية التي تربط النيل بالبحر الأحمر مما أدى الى انتعاش حالة البلاد الاقتصادية . ويبدو أن أغسطس شعر بضرورة اضعاف رجال الدين المصريين الذين ازدادت أموالهم وممتلكاتهم في أواخر عصر البطالمة ، فقد أمر بترونيوس بالاستيلاء على جانب من أراضي المعابد واسناد ادارة جانب آخر منها الى الحكومة مع السماح للكهنة بزراعة جزء من هذه الأراضي لسد حاجة المعابد

وقد ساد السلام في مصر في خلال أواخر حكم أغسطس ومعظم حكم خلفه تيبريوس (١٤ — ٣٧) مما أدى الى تناقص عدد الحامية الرومانية في مصر . وقد ساعد على استتباب الأمن سهر تيبريوس على حماية سكان البلاد من جور الحكام وملتزمي الضرائب اذ أنه شدد الرقابة على الحكام وتدخل في حالات كثيرة بنظام التزام الضرائب . ونحى موظفين بحجة الضرائب فأجهد ثروة البلاد في الاستغلال

وفي عهد كاليجولا (٣٧ — ٤١) آتت سياسة « فرق تسد » أكلها فقد استعرت عندئذ نار العداء بين الاغريق واليهود ، اذ أن الاغريق سخروا من الأمير اليهودي اجريبا Agrippa عند مروره بالاسكندرية (أوائل أغسطس عام ٣٨) في طريقه الى ارتقاء عرش مملكة صغيرة على حدود بلاد اليهود في فلسطين . ولما كان الاسكندريون قد عرفوا اجريبا منذ بضع سنين رجلا معدما مثقلا يتهرب من سداد ديونه ، فانه هالهم أن يصبح ذلك اليهودي المفلس ملكا بين عشية وضحاها وأن يروا اليهود يستقبلونه استقبال الملوك الغزاة ، وبذلك استقر رأيهم على انتهاز هذه الفرصة للنيل من اجريبا ومن اليهود في شخصه . فنظموا موكبا هزليا تقدمه رجل معتوه عصبوا رأسه باكليل من نحاه البردي ووضعوا في يده صولجانا من ساق البردي وطافوا به في شوارع المدينة وهم يدعونه بكلمة سريانية معناها الملك

ولكن ما ان أفاق الاسكندريون من نشوتهم حتى خشوا عاقبة سخريتهم من أجريبا فقد كان صديق الامبراطور وصاحب حظوة

بدينه ، فرأوا أنه من يعدهم من ورثتهم الا أنه توسط بين اليهود والامبراطور . ولما كان الامبراطور قد أمر باقامة تماثيله في جميع المعابد وكان اليهود لم ينفذوا أمر الامبراطور لأن اقامة تماثيل البشر في معابدهم كان محرما ، فان الاسكندريين ادعوا بأنهم لم يتظاهروا ضد أجريبا الا لعدم امتثال اليهود لأمر الامبراطور . واتخذوا من ذلك ذريعة ليدخلوا معابد اليهود ويقيموا فيها تماثيل الامبراطور . وعندما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للامبراطور وبذلك أفلحوا في حمل الحاكم الروماني فلاكوس على حرمان اليهود امتيازاتهم . ووجد الاسكندريون فرصة وقوف الحاكم الروماني الى جانبهم للتنكيل باليهود ونهب حوانيتهم وتخريب دورهم وبيعهم . وبطبيعة الحال لم يقف اليهود بلا حــــراك وانما هبوا للدفاع عن أنفســـهم وذويهم وبيعهم وممتلكاتهم فاشتبك الفريقان في صراع عنيف دون أن يتدخل الحاكم الروماني فلاكوس لوضع الأمور في نصابها اذ أننا لا نعرف أنه فعل شيئا سوى تجاوزه حدود الحكمة بالقاء القبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء مجلس شيوخ اليهود والأمر بجلدهم في الحــــادي والثلاثين من أغسطس بالرغم من أنهم كانوا معفين من هذه العقوبة . وعندما تمكن أجريبا من اقناع الامبراطور بعزل فلاكوس أرسل كل من الفريقين سفارتين وفدا لعرض قضيته أمام الامبراطور لكنهما لم يظفرا منه بطائل .

وعقب ارتقاء كلاوديوس (٤١ – ٥٤) العرش أصدر منشورين اعترف في أحدهما ليهود الاسكندرية بالحقوق التي كانوا يتمتعون بها من عهد كاليجولا ، ومنح بمقتضى المنشور الآخر الحقوق ذاتها لكل الجاليات اليهودية في كافة أنحاء الامبراطورية الرومانية . وعندما علم اليهود بذلك ظنوا أن الفرصة مواتيــة للثأر من الاغريق ، فاستعر القتال بين الفريقين لكن الامبراطور أمر حاكمه باخمـــاده بكل وسيلة ممكنة . وما أن هدأت الحال حتى بادر كل من الاغريق واليهود بارسال وفد الى روما . ويستخلص من رسالة كلاوديوس الى الاسكندريين أن الوفد الاغريقي قدم فروض الطاعة والولاء للامبراطور وسرد مظاهر الحفاوة التي كان الاغريق الاسكندريون يريدون اغداقها عليه وطلب اعادة امتيازاتهم القديمة كما عرض قضيتهم ضد اليهود ويبدو أن الاغريق أرادوا أن يستخدموا مع كلاوديوس الوسيلة نفسها التي استخدموها مع كاليجولا بتقديسه لكنه اقتفى أثر سياسة تيبريوس فرفض أن يؤلهه ولم يقبل سوى عرضهم عليه ما يرفعه فوق مستوى البشر وأيد ما كانوا يتمتعون به من حقـــوق وامتيازات لكنه تهرب من منح الاسكندرية مجلس للشورى . فقد جاء في نص رسالته « أما أن مجلسا كان محتملا مألوفا مع ظهرانيكم على عهد ملوككم القدماء فهذا ما لا علم لي به لكنكم تعلمون جيدا أنه

لم يكن يحكم مجلس في عهد الأباطرة الذين سبقوني . ومن الواضح أن هذا المطلب الجديد الذي يتقدمون به لأول مرة قد يكون منذ القدماء ومحكومين وكذلك فاني أكتب الى سيبيوس وكتوس ببحث الموضوع وموافاتي بما اذا كان يجب انشاء هذا المجلس وطريقة تكوينه اذا كان ثمة داع لذلك » . ومن اليسير أن نتبين من هذا الرد ان الاسكندريين اشتكوا في طلبهم الى أنهم كانوا يتمتعون بمجلس في عهد ملوكهم القدماء . ولعل امبراطورا طموحا مثل كلاوديوس لم يجهل نظم الاسكندرية في عهد ملوكها القدماء لكنه تظاهر بالجهل لأنه لم يشأ اتخاذ تقاليد الملوك القدماء سابقة تلزمه بما يجب اتباعه . ومع ذلك فانه لكي لا يبدو متعسفا وعد بالفصل في مطلب الاسكندرية على ضوء المصلحة العامة وعهد في بحث الأمر الى الحاكم العام . ومن لم يعتبر رد كلاوديوس رفضا من تمنح الاسكندرية مجلس في عهد البطالمة

وقد أيد كلاوديوس كذلك ما كان اليهود يتمتعون به من حقوق وامتيازات لكنه رفض منحهم الحقوق المدنية ونصح الاغريق واليهود بالتسامح وحذرهم تحذيرا شديدا من العودة الى تخاصمهم الدموي اذ كانت الحال قد هدأت بعد ذلك بفضل حتى عاد النزاع لم يلبث أن تجدد ثانية

ويتناول أصحاب هذه النزعة في تلك البرديات التي تعرف الآن بعنوان « أعمال الاسكندريين » أو « أعمال الشهداء الوثنيين » تمييزا لها عن « أعمال الشهداء المسيحيين » من نشأته مرده في التحايل الى صياغة وثائق في قالب محاضر محاكمات يلقى فيها المتهمون خطبا طويلة ويندّدون بمثالب الحكم الروماني ويتبادلون مع الامبراطور عبارات قارصة عنيفة . و « أعمال الاسكندريين » تعبر عن كراهية الاغريق الشديدة لليهود وكراهيتهم الأشد للرومان ولذلك صادفت رواجا كبيرا لا في الاسكندرية فحسب بل في كل أنحاء مصر وتعتبر نموذجا للأدب الاغريقي الشعبي الذي كان يرمي الى الاشادة ببطولة زعماء الاسكندرية واثارة البغضاء ضد الحكم الروماني . ولا يبعد أن تكون هذه الوثائق قد نقلت على نحو ما من مذكرات الامبراطور وترجمت الى الاغريقية وأضيفت اليها بعض العناصر الخيالية التي استمدت من التمثيليات الفكاهية المعاصرة والقصة الاغريقية الطويلة وذلك يجعلها أكثر ملاءمة للدعاية السياسية . وتشير القرائن الى أن « رجال الجمنازيوم » — وكانوا أرسخ الاسكندريين ثقافة وأعرقهم أصلا وأرفعهم مكانة وكذلك أشدهم كرها للحكم الروماني — هم الذين كانوا الرأس المفكرة واليد العاملة وراء صدور « أعمال الاسكندريين »

ولما كانت هذه الوثائق تختلف عن بعضها بعضا اختلافا كبيرا في الأسلوب والانشاء فانه لا يمكن قبول الرأي القائل بأنها من تأليف كاتب واحد ولا حتى أن بعضها يرجع الى القرن الأول أو مطلع القرن الثاني وان كان أكثرها يرجع الى أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث عندما اشتدت عداوة الاسكندريين للرومان وخاصة الامبراطور كركلا .

ومهما كان من أمر «أعمال الاسكندريين» فانه ما ان هدأت الحال بين الفريقين حتى حج الرسل من جديد الى روما ، لكن النصر كان حليف اليهود هذه المرة اذ أن الامبراطور أمر باعدام رئيسي الاغريق . وقد أثبتت هذه الأحداث أنه بينما كانت الاسكندرية في حاجة الى حامية عسكرية كبرى لاستتباب الأمن فيها كان يكفي بقية البلاد عدد يسير من الجنود ، ولذلك فانه منذ ذلك نزحت الفرقة الى معسكر نيكوبوليس الحامية التي يرجح انها كانت تنزل عند طيبة أو منية .

ويبدو أنه في عهد كلاوديوس نشطت تجارة الاسكندرية مع الهند نشاطا كبيرا نتيجة للعناية التي أولاها الرومان لتأمين الملاحة في البحر الأحمر بقطع دابر القراصنة ونشر نفوذهم في تلك الأصقاع . ويقال انه حوالي هذا الوقت استولى الرومان على عدن ، وان ذلك كان احدى الخطوات التي اقتضاها تأمين التجارة مع الهند . الزم ازدياد قوة مملكة أكسوم منذ منتصف القرن الأول الميلادي لأنها من ناحية أخذت تتوغل في أعالي وادي النيل على حساب مملكة مروي ومنعا لذلك هددت الطريق البري بين مصر وأواسط أفريقية . ومن ناحية أخرى كانت تحاول الحصول على قاعدة لها في جنوب بلاد العرب وكان ذلك يمكنها من قطع الطريق البحري مع الشرق ، لكن الرومان قضوا على هذه المحاولة ببسط حمايتهم على مملكة الحميريين والاستيلاء على عدن وجزيرة سقطرى . وبدرء الخطر الذي كان يهدد أعالي وادي النيل يقال ان نيرون (٥٤ — ٦٨) أرسل في عام ٦١ بعثة عسكرية لاستكشاف بلاد النوبة الجنوبية تمهيدا لارسال حملة كبيرة الى تلك البلاد ولما بينما كان الجنود يحتشدون في الاسكندرية لهذا الغرض شبت نيران الثورة في جوديا مما استدعى استخدام أولئك الجنود في اخمادها وان حامية الاسكندرية شغلت بالمحافظة على الأمن فيها لأن النزاع القديم بين الاغريق واليهود تجدد مرة أخرى اذ ذاك ولم ينته الا بعد القضاء على عدد كبير من اليهود يرقم المؤرخ اليهودي يوسف أنهم كانوا يبلغون خمسين ألفا . واذا كانت هناك قرائن كثيرة تؤيد ما يبين عن اتساع مملكة أكسوم ونشاط الرومان بوقفه ، فان ثمة قرائن أخرى تثير الشك حول ذلك ، وفي قصور معلوماتنا الراهنة يتعذر ترجيح كفة على أخرى

وعندما احتدم الصراع على العرش في روما عقب وفاة نيرون ذهبت مصر لأول مرة منذ أغسطس ولأنه تدور حوادث سياسي هام في تاريخ الامبراطورية الرومانية ، اذ أنها شجعت عقب المنافسة على فيتليوس (Vitellius) وحسب. كما في اقامة فسبسيانوس (Vespasianus) ، حسب لم جيوش يا وقائد حملة ضد اليهود ، امبراطورا (٦٩ - ٧٩) وقد زار فسبسيانوس الاسكندرية في طريقه الى ارتقاء العرش فكان أول امبراطور شهدته العاصمة القديمة بعد أغسطس منذ قرن تقريبا. وقد استقبله الاسكندريون استقبالا حافلا لم يلبث أن تعكر عليه عندما فرض عليهم ضرائب جديدة وهي ضرائب كانت له العبث

وقد عني تيتوس (٧٩ - ٨١) بالظهور خلاله باحترامه للآلهة المصرية اذ أنه زار منف واشترك في حفل تنصيب عجل ابيس جديد وارتدى التاج التقليدي على نحو ما جرى عليه الفراعنة في مثل هذه المناسبات فكان ذلك بداية سياسة جديدة تتميز بالظهور بعطف نحو الآلهة المصرية. لكن تيتوس لم يعمر طويلا ليتعهد السياسة التي وضعها بنفسه ونلمس أثرها في الرعاية التي أسبغها دوميتيانوس (٨١ - ٩٦) على عبادة ايزيس في ايطاليا ذاتها ، وكذلك في ظهور الآلهة المحلية على نقود الاسكندرية منذ ذلك الوقت

وقد نعمت مصر بالسكينة والهدوء خلال حكم نرفا (Nerva) (٩٦ - ٩٨) ولم يقع فيها شيء ذو بال في العشر الأولى من حكم تراجان (٩٨ - ١١٧) الا محاكمة جايوس فيبيوس ماكسيموس (G. Vibius Maximus) وكان الحاكم العام من ١٠٣ الى ١٠٧ لاتهامه بالرشوة والتزوير والأموال واستغلال النفوذ وافساد خلق غلام اغريقي يدعى ليوب وتكشف الوثائق التي تتناول هذه المحاكمة عن مثالب الحكم الروماني في مصر وعن مدى السلطة الواسعة التي كان يتمتع بها حاكمها العام وكانت لا تقل عن سلطة الملوك فلا عجب ان أساء استغلالها كثيرون ممن أسندت اليهم ويبدو أنه كان نصيب هذا الحاكم الفاسد العزل من منصبه والاعدام فقد وجد اسمه ممحوا في بعض النقوش وكان ذلك هو الاجراء الذي يتبع عادة في حالة الذين كانوا يدانون لارتكابهم جريمة ضد الدولة كالخيانة العظمى ويحكم عليهم بالاعدام

ولم تنقض بعد ذلك بضع سنين حتى تجدد النزاع بين اليهود والاغريق في عام ١١٢ او ١١٣ واحتكم الفريقان الى تراجان فأخذ الاغريق على مسلكهم وهدأت الحال حتى العام التالي عندما ثار اليهود الا أن الحكومة تمكنت من القضاء على تلك الفتنة بسهولة لكن اليهود كانوا يضمرون حقدا شديدا لأن الرومان كانوا لهم ضرائب جديدة منذ ثورتهم في فلسطين في عام ٦٦ ، فعمدوا

معابدهم الأكبر في أورشليم وأرغموهم على دفع ضريبة بدينارين لمعبد جوبيتر كابيتولينوس في روما بدلا من معبد أورشليم وأغلقوا معبد بوليونتوبوليس في مصر وصادروا جميع ممتلكاته ، وأخذوا يعاملونهم معاملة مشوبة ببعض العنف والحزم . وإزاء كل ذلك أضمر اليهود حقدا دفينا للرومان وأخذوا يتطلعون إلى الفرصة التي تتيح لهم الخلاص من ربقتهم . وقد ظن اليهود أن فرصتهم قد سنحت عندما تحرج مركز الامبراطور في أثناء الحملة التي قام بها في الشرق ؛ ففي عام ١١٥ اندلعت نيران ثورة اليهود في قبرص وفي مصر وفي قورينيقية (برقة) ، وفي عام ١١٦ انقلبت الثورة إلى حرب ضروس راح ضحيتها أعداد كبيرة من الاغريق والرومان في قبرص وقورينيقية . ولكننا لا نعرف ما حدث في الاسكندرية في بداية الأمر وإن كنا نعرف أن اليهود أعملوا القتل بين الاغريق المقيمين في ريف مصر مما حدا بهم إلى الالتجاء إلى الاسكندرية حيث شاركوا الاسكندريين في القضاء على كل من وصلت إليه أيديهم من اليهود . وفي شتاء ١١٦ زحف يهود قورينيقية على مصر لكنهم بدلا من أن يحاولوا اقتحام الاسكندرية اتجهوا نحو الأقاليم وانضموا إلى اليهود المقيمين هناك وسيطروا على بعض الجهات فنهبوا وهدموا وحرقوا وخربوا كما سولت لهم نفوسهم . وقد تفاقمت الحال إلى حد أن الحكومة اضطرت إلى تجنيد فرق من المواطنين المصريين لكن القتال ظل مستمرا حتى استطاعت إخمادها عام ١١٧ عندما أرسلت جيوش بقيادة القائد توربو بعد وفاة تراجان وارتقاء هادريان العرش .

وقد نشط في عهد تراجان عمل مستمر على نظم مصر الحربية كان أهمها بناء قلعة جديدة على شاطئ النيل عند بابليون عرفت بقلعة الرومان على الدلتا وحصن بداية القناة التي أمر تراجان بحفرها لربط النيل بالبحر الأحمر ، وكانت تخرج من النيل عند بابليون وتمر بهليوبوليس وتلتقي بمجرى القناة القديمة التي حفرها سيسوستريس الثاني من دخوله وادي الطميلات .

وعندما انتهت ثورة اليهود وجه هادريان (١١٧ — ١٣٨) عنايته إلى اصلاح ما أتلفته الثورة فأعاد تشييد ما تهدم من المباني العامة في الاسكندرية وأمر بإعادة النظر في الضرائب مما أدى إلى تحسن جانب كبير منها في حالات عديدة . وفي عام ١٣٠ زار هادريان مصر وكان أهم آثار تلك الزيارة الرسمية التي تولاها الامبراطور لمدينة الاسكندرية وضواحيها وكذلك تأسيس مدينة أنتينوپوليس (الشيخ عبادة) حيث غرق في النيل خليله المفضل أنتينوس Antinous, ولا شك في أن هادريان قد أراد بتأسيس هذه المدينة أن يخلد ذكرى خليله الوفي ، وكذلك اتخاذها مركزا جديدا للحضارة الاغريقية في قسم من البلاد كان يفتقر إليه أو أنه على حين كانت

توجد في مصر السفلى مدينتان اغريقيتان وهما الاسكندرية ونوقراطيس ، كما كانت توجد في مصر العليا مدينة اغريقية وهي بطولمايس ، استثناء بالقرب من جرجا . ولم توجد مدينة اغريقية واحدة في مصر الوسطى ، ولهذا نهض الامبراطور بانشاء المدينة الجديدة عندما جيء بالكثير من مواطنيها من بطولمايس التي كانت معقلاً قديماً للحضارة الاغريقية في مصر العليا . وقد انشئت المدينة الجديدة على نمط اغريقي ومنحت مجلساً للشورى ودستوراً اغريقياً

وسمي مواطنوها ، مثل مواطني المدن الاغريقية الأخرى الى قبائل واحياء . لكن بالرغم من الصبغة الاغريقية العامة التي اصطبغت بها هذه المدينة فانها لم تخل من عناصر مصرية ومؤثرات مصرية اذ أن انطينوؤس ، الذي نسبت اليه المدينة ، كان يعبد تحت اسم أوزير انطينوؤس (Osirantinous) ، وشبه بالمعبود المصري بس (Bes) . هذا الى أنه أبيح لسكان المدينة الجديدة حق التزاوج مع المصريين وهو ما كان محظوراً في المدن الاغريقية الأخرى . ولتشجيع تجارة انطينوبوليس أمر الامبراطور بانشاء طريق جديد بين النيل والبحر الأحمر يصل بين الثغر المشهور برنيقي وبين المدينة الجديدة . وقد أطلق الطريق الجديد على اجتذاب جانب من التجارة التي كانت تمر بالطريق القديم بين برنيقي وقفط لكنه لم يمض وقت طويل حتى كانت الأمور قد عادت الى سابق عهدها .

وعند أو حر أيام هادريان شهدت مصر آخر ثورات اليهود لكن ينتهو بها لم تكن ذات بال . وقد شهدت الاسكندرية في عصر انطونينوس بيوس (Antoninus Pius) (١٣٨ — ١٦١) الفصم الا انه استطيع ان تمت في الاسكندرية وقتل في اثنائها الحاكم عام (١٥٣) مما أثار نقمة الامبراطور على المدينة الا أنه يلتمس له زارها بعد ذلك وشيد بها مضمار سباق الخيل (Hippodrome) وبوابتي « الشمس » و « القمر » عند طرفي الشارع الرئيسي الذي كان يخترق الاسكندرية من الجنوب الى الشمال .

واذا كان المصريون قد اخلدوا الى السكينة بعد الثورات التي قاموا بها في أوائل حكم الرومان فانه في عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) نشبت بينهم في الدلتا ثورة عنيفة تعرف « بحرب الرعاة » وهزمت في خلالها الفرق الرومانية وكادت الاسكندرية أن تقع في قبضة الثائرين الا أن النجدة التي قدمت من سوريا بقيادة افيديوس كاسيوس قضت على تلك الثورة (١٧٥) ونادت بافيديوس كاسيوس امبراطوراً لكنه لم يلبث أن قضي عليه بعد ذلك بقليل . ويرغم أن الاسكندرية لم تتخذ موقفاً في تأييد كاسيوس ضد الامبراطور بعد قتلها ، بل ان الذين قاموا بالدور الرئيسي في هذه الحركة مثل أسرة كاسيوس وحاكم مصر العام عندئذ جايوس

كالفيسيوس ستاتيانوس (C. Calvisius Statianus) من العقوبة والا لاعقاب طفيفا بالقياس الى جسامة جريمته . لكن عندما رقي كومودوس Commodus (١٨٠ – ١٩٢) العرش أعدم كل أفراد أسرة كاسيوس وكذلك أعدم الاسكندريين الذين ساهموا في هذه الحركة

وقد خلف كومودوس على العرش لمدة ثلاثة شهور (يناير – مارس ١٩٣) الامبراطور برتيناكس (Pertinax) وفي ذلك العهد تظهر أهمية خاصة لمصر إذ نرى كيف أن نبأ هاما مثل ارتقاء امبراطور جديد العرش كان يستغرق وقتا طويلا للانتقال من روما الى مصر ، وذلك أنه نودي بالامبراطور الجديد في روما في اليوم الأول من شهر يناير سنة ١٩٣ على حين ان حاكم مصر لم يصدر أوامره للاحتفال بهذه المناسبة [illegible] مصر [illegible] الا في السادس من شهر مارس . ونعرف ان برتيناكس قتل في روما في الثامن والعشرين من شهر مارس ومع ذلك فان اسم هذا الامبراطور يظهر في تاريخ وثيقة من الفيوم في التاسع عشر من شهر مايو

وعندما قتل برتيناكس نادت مصر بحاكم سوريا بسكنيوس نيجر (Pescennius Niger) امبراطورا لكن ما كاد الأمر يستتب في روما لسبتيموس سفيروس (١٩٣ – ٢١١) حتى قضى على نيجر . وعندما زار سفيروس مصر [illegible] أثر [illegible] أقامه [illegible] في الاسكندرية وفي [illegible] العمود [illegible] زيارته [illegible] مصر . وأهم من ذلك أنه في عام ٢٠٢ منح الاسكندرية وكل عواصم [illegible] مجلس [illegible] وقبل ذلك كان [illegible] من سياسة [illegible] من ناحية دعم [illegible] الروماني [illegible] في [illegible] ومن ناحية أخرى [illegible] الضرائب وفضلا عن ذلك [illegible] تعديلات كثيرة على القوانين التي كان معمولا بها في مصر

وعندما ارتقى كركلا (٢١١ – ٢١٧) العرش ومنح في عام ٢١٢ حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى قانونه المشهور (Constitutio Antoniniana) [illegible] سكان الامبراطورية الرومانية بما في ذلك المصريين لم يؤد ذلك الى تغيير [illegible] أدى [illegible] الاجتماعية شأنا في مصر . وعندما زار كركلا الاسكندرية في عام ٢١٥ وسخر منه أهلها لظهوره بمظهر أبطال عظام مثل الاسكندر وقتله أخيه [illegible] عليهم [illegible] وأطلق جنوده على المدينة يضربون وأعملوا القتل بين سكانها ، كما أنه ألغى الحفلات العامة وأقام حاميات في المدينة ذاتها وأوقف [illegible] العاصمة

وأهم ما يمتاز به عهد ماكرينوس (٢١٧ – ٢١٨) هو ما سبقت الاشارة اليه من أنه كان أول من خرج على القاعدة التي وضعها أغسطس وتقرر بمقتضاها ألا يتقلد أحد من رجال السناتو مناصب ادارية في مصر ، اذ أن ماكرينوس عين لحاكم مصر مساعدا من رجال السناتو [illegible] مصر [illegible] في [illegible] العهد الروماني وأهم من ذلك في الدلالة على بعض أهمية

مصر في القرن الثالث انه حدث وقعت فتنة في الجيش الامبراطوري على عهد سفيروس اسكندر (٢٢٢ — ٢٣٥) عين الامبراطور عقب الثورة حاكما على مصر لا صلة له وانما لانصاته في مكان لا يستطيع فيه ان يهدد مركزه.

وكانت نتيجة نقص أهمية مصر انها لم تلعب أي دور في سلسلة المنازعات التي وقعت في أواخر النصف الاول من القرن الثالث من أجل ارتقاء عرش الامبراطورية وتبعث عن غيب خاطر ارتقاء امبراطور بعد آخر وتغلب على أحداث مصر سبات عميق استمرت فيه حتى كان عهد دكيوس (Decius) (٢٤٩ — ٢٥١) الذي انتشرت فيه حركة اضطهاد المسيحية في مصر مما حدا بالحكومة الى توجيه اهتمامها اليها واتخاذ العدة ضد المتشددين. وفي هذا العهد أيضا أغارت قبائل البليميين على الحدود المصرية لأول مرة بعد اغارتها السابقة في عهد أغسطس. ومن هذه الاغارة نعلم باتساع مملكة اكسوم التي دفعت مركزها في وادي النيل على حساب مملكة مروي وكانت تضغط على القبائل النوبية في الجنوب لتدفعها نحو الحدود المصرية. وبعد ذلك استأنفت مصر سباتها عندما دبت المنازعات في الامبراطورية من جديد خلال المدة التي امتدت من عام ٢٥١ الى عام ٢٦٨ وتعاقب فيها الأباطرة بسرعة غريبة.

وقد كان أهم ما حدث بعد ذلك هو أن حولت ملكة پالميرا (تدمر) زحفها على مصر واستولت عليها (٢٦٩ — ٢٧٠) وبرغم أنه بعد عدة محاولات أفلحت في دحر الحامية الرومانية فانها لم تشأ أن تستقل بمصر بل عرفت بسلطان روما، لكن لم تلبث بعض عسى ذلك عاما حتى أفلح أورليانوس (٢٧٠ — ٢٧٥) في القضاء على ثورة پالميرا في مصر واستولى على پالميرا ذاتها، ولكن عقب عودة أورليانوس الى روما ثارت پالميرا وبعد ذلك الاسكندرية لارتباطها التجاري بصلات تجارية وثيقة فعاد الامبراطور الى الشرق وقضى على الفتنة في پالميرا ثم في الاسكندرية وبعد ذلك تركت مصر تحت امرة پروبوس وعهد اليه برد قبائل البليميين على أعقابهم وكانت قد انتهزت فرصة تلك الأحداث لزحفها على مصر العليا حتى قفط. وقبل انتهاء پروبوس من طرد البليميين وتهدئة الوجه القبلي نودي به امبراطورا (٢٧٦ — ٢٨٢) عقب وفاة أورليانوس (٢٧٥) وحكم تاكيتوس القصير (٢٧٥ — ٢٧٦).

ولم يضع انتصار پروبوس على البليميين الا حدا مؤقتا لغزواتهم فقد أخذوا يجددون غاراتهم كل عام مما اضطر الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) الى نقل حدود مصر الجنوبية عند أسوان بدلا من هيراسيكامينوس (المحرقة) ودعوة بعض قبائل الصحراء التي كانت تعرف باسم النوباديين للسكنى في وادي النيل لحماية حدود مصر الجنوبية

الفصل الثاني

أداة الحكم

لم يترتب على تحول مصر ولاية الامبراطورية الرومانية تغييرات هامة في ادارة البلاد لأن سياسة روما توجهت في خلال فتوحاتهم في الشرق كانت تقضي بتجنب التدخل ما أمكن في نظم البلاد التي كانت تتمتع بادارة منظمة ، ولذلك اتبع الرومان في حكم البلاد النظام نفسه الذي وضعه البطالمة فيما الا اذا استثنينا بعض التعديلات التي اقتضتها الظروف الجديدة ، لأن قدوم الرومان لم يكن أكثر من انتقال الحكم من أسرة الى أخرى انتقالا لم يكن مصحوبا بانقلابات أو اضطرابات أكثر مما كان يحدث عادة في عهد الفراعنة عندما كانت أسرة حاكمة جديدة تخلف أسرة أخرى

١ ـ السلطة المركزية :

ولما كانت روما في حاجة ملحة الى الانتفاع بموارد مصر الطائلة في معالجة شئونها المالية وفي امداد شعبها بمقادير وفيرة من القمح ، وكان في وقوع مصر في يد منافس للامبراطور أو في قيام اضطرابات بين الأهالي خطر يهدد كيان الامبراطور ، فقد حرص الأباطرة الأوائل على أن تكون مصر خاضعة لاشرافهم مباشرة وعلى ألا يعين رجال السناتو أو من في مرتبتهم مناصب ادارية في مصر أو يدخلونها دون استئذان ، وعلى أن يكون نظام الحكم فيها أوتقراطيا ، وعلى أن تتولى المناصب الرئيسية في السلطة المركزية رومان يوفدهم الأباطرة من قبلهم ويستدعونهم في مناصبهم أو يعزلونهم كما يتراءى لهم .

وقد وضع على رأس السلطة المركزية حاكم عام (praefectus) كان يتمتع بمعظم السلطة التي كانت من نصيب الملك في عهد البطالمة ، فانه كان يشرف على ادارة البلاد العامة وشئونها المالية والقضائية والحربية تحت اشراف الامبراطور مباشرة . وكان يحتم عليه عدم مغادرة مصر في خلال مدة حكمه ، كما كان يجب عليه عند نهايتها انتظار وصول خلفه . وفي حالة خلو منصبه فجأة بسبب الوفاة أو لأي سبب آخر كان ينوب عنه عادة مساعده في الشئون القضائية

وكان يدعى بالاغريقية ديكايودوتس (Dikaiodotes) وباللاتينية يوريديكوس (Iuridicus)، فقد كان يساعد الحاكم العام على الاضطلاع بمهام منصبه فيه صفوة من كبار الموظفين الرومان من الحقوقيين أو حسبة مساعد أو المستشار القضائي كان أخطرهم شأنا وأرفعهم مقاما. وكان للحاكم العام مساعدان في الشئون المالية وهما الديويكيتيس (dioiketes) والايديولوجوس (idiologos).

ومن أجل تسهيل الادارة العامة قسمت البلاد منذ أوائل أيام الامبراطورية ثلاثة أقسام وهي مصر السفلى ومصر الوسطى ومصر العليا، وأسندت ادارة كل قسم الى ابستراتيجوس (epistrategos) روماني، وكان الامبراطور هو الذي يعين حكام هذه الأقسام الا أنهم كانوا يخضعون للحاكم العام مباشرة ويستمدون منه معظم سلطتهم، وكان اختصاصهم اداريا بحتا، غير أن الحاكم العام كان ينيبهم عنه في الفصل في القضايا وكان لهم حق مطلق في دراسة الشكاوى والتحكيم في المنازعات. ولم يكن لهم أي اختصاص في الادارة المالية أكثر من سماع الشكاوى بسبب اجحاف في تقدير الضريبة أو ما شابه ذلك. وكان لهم شأن كبير في تعيين موظفي المديريات، ويرجع ذلك الى أن قراراتهم كانت نهائية فيما يختص بتعيين الصغار من هؤلاء الموظفين على حين أن موافقة الحاكم العام كانت ضرورية فيما يختص بتعيين كبارهم.

٢ ـ السلطة المحلية في القرنين الأول والثاني

وكان كل قسم من أقسام مصر الثلاثة مقسما الى مديريات، وعلى رأس كل منها قائد (strategos) كان على حاكم القسم أن يرجع اليه ويتلقى منه جميع الأوامر مهما كان ما يتصل منها بالشئون المالية اذ كان يرجع في ذلك الى الادارة المالية المركزية في الاسكندرية. ولم يكن للقائد أي اختصاص حربي، لكن نفوذه كان يمتد الى جميع نواحي الادارة المدنية، اذ كان رئيس الشرطة وكثيرا ما كان ينوب عن الحاكم العام في الفصل في القضايا. وكان للقائد دائما الحق في القاء القبض على مخالفي القانون وفي النظر في الشكاوى واجراء تحقيق ابتدائي في القضايا ومحاولة فض النزاع وديا أما اذا تعذر ذلك فانه كان يحيل المتخاصمين الى المحاكمة. وقد كان القائد مسئولا كذلك عن تقدير وجمع الضرائب في مديريته وعن استغلال أراضي الحكومة واحتكاراتها.

وكان النومارخ لا يزال معروفا في عهد الرومان الا أنه ازاء سلطة القائد المدنية كان أهم ما تبقى له من اختصاصات هو الاشراف على تقدير وجمع الضرائب المختلفة. وقد أدى نقص أهمية مركزه الى زيادة عدد النومارخين اذ كان يعين لكل مديرية اثنان أو أكثر.

وكان يلي القائد في المرتبة الكاتب

الملكي ، وكان ينوب عن القائد في أثناء غيبته أو خلو مركزه . وكانت أهم اختصاصاته تنحصر بالشئون المالية في الإدارة ، مختصة مع حمل المحصول على الاعتماد بأنه كان بمثابة مراقب على تصرفات القائد في الشئون المالية . وكان يجيء بعد الكاتب الملكي رؤساء دور السجلات الرسمية . فقد أنشأ الرومان إلى جانب دار السجلات المركزية بالإسكندرية دوراً مماثلة في عواصم المديريات . وبمضي الزمن أصبحت كل من هذه الدور تنقسم قسمين ، يختص أحدهما بحفظ جميع المكاتيب الرسمية وكشوف الضرائب وقوائم التعداد وسجلات الأراضي ، ويختص القسم الآخر بتسجيل الأراضي والعقود والعبيد . وكان يشرف عادة على كل من هذين القسمين رئيسان .

وما يجدر بالملاحظة أن مناصب الإدارة المحلية ، ابتداء من القائد ، كان يشغلها أغريق فيما عدا المناصب الدنيا منها فقد كان يتولاها مصريون . وإذا كان يبدو من ذلك أن الموظفين كانوا يختارون بوجه عام من الطبقات ذاتها التي كانوا يختارون منها في عصر البطالمة فإنه مع ذلك قد طرأ تغيير هام على طابع الخدمة الحكومية ؛ ففي عهد البطالمة كان موظفو الحكومة يتألفون من موظفين دائمين يختارون خدمة الحكومة مهنة لهم يتكسبون منها عيشهم ، أما في عهد الرومان فإنه لم يأت القرن الثاني حتى كان موظفو الحكومة ، باستثناء كبارهم ، يتألفون من أفراد لا يتولون مناصبهم إلا لفترة قصيرة وقسراً عنهم .

وكان يقوم بإدارة كل مديرية في عاصمتها ... تتمتع تلك العواصم باستقلال محلي في القرنين الأولين من حكم الرومان إذ كانت مرافقها ورجال شرطتها تحت إشراف القائد . لكن يبدو أن العواصم أيضاً في كل منها عدداً من المناصب البلدية التي استعيرت أسماؤها واختصاصاتها من نظم المدن الإغريقية . وفي بداية الأمر كان يتولى كل منصب سنوياً متطوع ثري كان ينفق من ماله الخاص على كل ما يتطلبه النهوض بأعباء منصبه . وكان تولي هذه المناصب يعتبر شرفاً يعتز به الناس ويتطلعون إلى الحصول عليه ، فكان الأهالي عندئذ ينتخبون أفضل مرشحين لتولي هذه المناصب . لكن بمضي الزمن لم يعد هناك حاجة إلى الانتخاب ، فقد ازدادت على مر الأيام صعوبة الحصول حتى على مرشح واحد لكل منصب بسبب ما كانت هذه المناصب تفرضه على شاغليها من أعباء مالية كانت تتزايد باستمرار في الوقت الذي سارت فيه حالة البلاد الاقتصادية من سيء إلى أسوأ . فمن أجل التغلب على صعوبة شغل هذه المناصب لجأت الحكومة إلى الإرغام والبحث عن أشخاص لشغل هذه المناصب كما لجأت إلى إنزال أكثر من شخص واحد في بعض الأحيان كل منصب . على أن القرن الثاني جرت العادة أن تتولى أعباء

منصب مدير الجمنازيوم شخصين كانا يتساويان كل شهر في مباشرة مهام هذا المنصب ونعرف أنه في أوكسيرنخوس بلغ عدد مراقبي السوق العامة في خلال القرن الأول خمسة ، وكان عدد مراقبي التموين عند نهاية القرن الثاني أربعة . وكان التطور الطبيعي لهذه الخطوة نشأة نجعة لكل منصب عند أواخر القرن الثاني .

وكان هؤلاء الحكام هم مدير الجمنازيوم (gymnasiarch) ، وكان يتولى رعاية شئون الجمنازيوم الذي كان مركز الحياة الاجتماعية ومعهد للتربية البدنية والعقلية ، والإيفيب (exegetes) ، وكان يشرف على الحسان الشبان بمشقة تدريبهم (ephebeia) ورئيس الأوصياء للسيدات والأوصياء للقاصرين ويبحث الشروط الواجب توافرها فيمن يصلون إلى سن تسمح بالانتساب ، وثالث مراقب التعليم (kosmetes) ، ورابعًا الكاهن الأكبر (archiereus) وخامس مراقب التموين (eurhesiarch) ، وسادس مراقب السوق العامة (agoranomos) ، وكان شرطي يتبعه توثيق العقود . وكان يوجد إلى جانب هؤلاء نفر من الحكام يرجع الظن بخصوص أنهم كانوا يعينون فقط عندما كانت الظروف تستدعي ذلك مثل (epimeletai) ، وكان مهمتهم الإشراف على الأشغال العامة . وكان يوجد في كل عاصمة من هذه العواصم ما يشبه الجمعية العامة للمواطنين .

وكان يمثل سلطة المركزية في إدارة تلك العواصم قائد لمديريته وكان يعين على نظامها المالي ويشرف على حفظ الأمن فيها ، وكذلك الكاتب الملكي وكان مسئولًا عن إعداد السجلات المركزية بكافة المعلومات التي تحتاج إليها لفرض الضرائب ، كما كان مسئولًا عن إعداد أسماء الأشخاص اللائق اختيارهم للوظائف المحلية التي كانت وظيفته من بينها . وكان يوجد عادة في كل مدينة كاتب يتولى العمل فيها لمدة ثلاث سنوات .

وكانت كل مديرية تنقسم إلى عدد من القرى يدير الشئون المحلية في كل منها جماعة من شيوخها ويبدو أن عددهم كان يتفاوت تبعًا لعدد سكان كل قرية . وكان شيوخ القرية بمثابة حلقة الاتصال بين الأهالي والحكومة في دفع الضرائب . وكان عليهم أيضًا أن يراقبوا فلاحة أراضي القرية وأن يمدوا الحكومة بما تطلبه من عمال أو الحصول على محصولها وقت الحاجة . وكانوا كذلك مسئولين أمام القائد عن حالة الأمن في قراهم ونحن لا نعرف كيف كانوا يختارون لكن يرجح أن خدمتهم كانت فرضًا إجباريًا على ثراة كل قرية لمدة سنة دون أي مقابل . ومن منشأ هذا النظام يرجع إلى رغبة الحكومة الرومانية في إيجاد وسيلة محلية تريحها من المسئولية في الحصول على ضرائب القرى فقد كان أولئك الشيوخ مسئولين شخصيًا عن سداد ضرائب قراهم .

وكان يمثل السلطة المركزية في كل قرية رئيس الشرطة (archepodon). وكان يهيمن على حفظ الأمن فيها. وكانت القرية وكان مسئولا عن موافاة السلطة المركزية بكل ما تلزمه من بيانات لأغراض الضرائب فهو الذي كان يعد قوائم بسكان القرية ومقدار ما يملكه كل منهم وموارده. وكان أيضا مسئولا عن إعداد بيان بالأشخاص الصالحين لاختيارهم للوظائف المحلية التي كانت وظيفته من بينهم. وكان القائد يختاره بالقرعة من قائمة الأشخاص التي قدمت سلفه، وكان يشغل وظيفته مدة ثلاث سنوات، وكان لكل قرية عادة كاتبها لكن في بعض الحالات كان يعهد في شئون قريتين أو ثلاث قرى الى كاتب واحد. وكان يختص بعض الضرائب مواجهة ما يتطلبه منصبه من تكاليف.

وإذا كان البطالمة قد حرصوا على أن يدرجوا في قوائم أسماء سكان البلاد وجنسية كل منهم والطبقة التي ينتمي اليها، فإن الرومان أحدثوا نظام التعداد وكان يجري كل أربعة عشر عاما ويعرف باسم « التسجيل المنزلي »، فقد كان يتعين على مالك كل منزل أو مستأجره أن يتقدم الى الموظفين المختصين باقرار بجميع سكان منزله وبعض على صحة البيانات التي قدمها. وكان أولئك الموظفون يسمون المفتشين (epikrtai) هذه البيانات والتأكد من صحتها لأنه بناء عليها كان السلطات المختصة تعد سجلات واقعية بأسماء جميع سكان البلاد مبين بها الطبقة التي ينتمي اليها كل منهم وكذلك حالته من حيث الاعفاء من الضرائب جميعها أو بعضها أو الالزام بدفع الضرائب كاملة. وفي الفترة الواقعة بين تعدادين كانت سجلات المواليد والوفيات تستخدم لتصحيح البيانات الواردة في هذه السجلات وجعلها مطابقة للواقع.

ولما كانت الحكومة ترغب بحرص شديد الانتماء الى الطبقات الممتازة بسبب ما كان يترتب على ذلك من التمتع بامتيازات لها أهميتها لا من حيث أداء الضرائب فحسب بل أيضا من حيث دخول منظمة تدريب الشباب (ephebeia) والجيمنازيوم، فإنه كان لا يسمح بتسجيل أي شخص في طبقة من هذه الطبقات الا بعد فحص (epikrisis) الطلب المدعم بالمستندات الذي كان والد الشخص أو الوصي عليه يتقدم به عادة في الثالثة عشرة من عمره أي قبل تسجيل اسمه في منظمة تدريب الشباب وفي قوائم دافعي الضرائب، ففي سن الرابعة عشرة كان الشبان يسجلون في مطالباتهم ويدفعون ضريبة الرأس وبعض الضرائب الأخرى. وقد كان الانتماء الى طبقة من الطبقات الممتازة يقتضي اثبات انتماء والدي الشخص الى تلك الطبقة، وكان في استطاعة العبيد الانتماء الى تلك الطبقات اذ كان القانون يسمح لهم بالتمتع بوضع سادتهم القانوني بعد عتقهم

٣ - المدن الاغريقية

وقد كانت الاسكندرية ونقراطيس وبطوليمايس وأنطينوؤبوليس هي المدن الوحيدة التي تتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي في حكمها المحلي. وبرغم ان معلوماتنا عن دستور كل منها ضئيلة الا أنها تكفي لنعرف انها كانت تتمتع بمزايا خاصة تختلف في كل منها عن الأخرى باختلاف أصلها وتاريخها.

أما الاسكندرية فيجمع الباحثون على أن الأباطرة منذ أغسطس حتى سبتيميوس سفيروس لم يسمحوا لها بمجلس للشورى لكي لا يبيحوا لأهلها المغرمين بالثورات مجالا لثوراتهم ولكي يجعلوهم تحت سلطان الحاكم العام مباشرة. واذا كانت بعض القرائن تشير الى أنه منذ أوائل العصر الروماني كان لمواطني الاسكندرية مجلس يتألف من ١٧٣ عضوا، والى أن هذا المجلس كان حلقة الاتصال بين روما ومواطني الاسكندرية فان الدلائل لا تدع مجالا للشك في أنه لم يكن مجلسا له صفة رسمية أو سلطة تشريعية فهو لم يكن أكثر من هيئة اجتماعية. ومثل ما كانت عليه الحال في عهد البطالمة كانت نخبة الاغريق الاسكندريين تنقسم الى قبائل وأحياء وتكوّن هيئة المواطنين الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة، وكان أهمها أن التمتع بهذه الحقوق كان شرطا أساسيا للحصول على حقوق المواطنة الرومانية وللاعفاء من ضريبة الرأس ومن تولي مناصب عامة خارج الاسكندرية. وفي العصر الروماني أيضا كان يوجد كذلك فئة اضافية من مواطنين وكانوا لا يدخلون في الأحياء ولا يتمتعون بكل امتيازات المواطنين الكاملين. وكان للاسكندرية جماعة من الحكام المعروفين من قبيل حكام عواصم المديريات فضلا عن ممثلي السلطة المركزية. ونستدل من عرض تكلفة اختيار حكام الاسكندرية لكي ما كانوا يقومون بدور بارز في شؤون المدينة ضد الحكومة، وكانت «أعمال الشهداء الوثنيين» تصورهم في شكل زعماء المدينة، فان كل ذلك يوحي بأنه لم يكن للحكومة يد في تعيينهم. ولقد كان الامبراطور هو الذي يمنح حقوق المواطنة، وكان الحاكم العام هو الذي يحاكم من يدس في هيئة المواطنين أشخاصا لم تتوافر فيهم شروط التمتع بحقوق المواطنة وكذلك الذين يمارسون هذه الحقوق دون وجه حق.

ويبدو أنه لم يعد لمحاكم المدينة وجود فقد أصبح الفصل في القضايا من اختصاص الحاكم العام والذين كان ينيبهم عنه على نحو ما سيرد عند الكلام عن النظام القضائي. وبطبيعة الحال كان شأن المدن الاغريقية الأخرى شأن الاسكندرية من حيث انه لم يعد لها محاكم قضائية خاصة. وكان يحفظ الأمن في المدينة قائدها ورئيس شرطتها. والواقع ان الحكومة الرومانية هي التي كانت تشرف على كافة نواحي الادارة في المدينة، أما النواحي الثقافية والدينية وتدريب الشبان واقامة الحفلات وتنظيم الألعاب فان حكام المدينة (archontes) هم الذين كانوا يتولون أمرها

أما قورينى فيظهر أنها ظلت تتمتع بدستورها القديم بدليل ما نجده في المصادر القديمة من أن هادريان أعطى انطينوپوليس دستوراً على نمط دستور نقراطيس. وكانت تدير شئون هذه المدينة بمقتضى هذا الدستور هيئة مواطنين وعدد من الحكام ومجلس الشورى.

ويبدو أن بطوليمايس أيضاً احتفظت بدستورها الاغريقي القديم أي أنه كان لها مجلس للشورى وجمعية شعبية وهيئة حكام تنتخبهم هيئة مواطنين كانوا ينقسمون الى قبائل وأحياء. وفي عصر هادريان وثانية في عصر انطونينوس بيوس قامت باهداءات وصفت نفسها فيها بأنها مدينة اغريقية (polis). وبالرغم من أن بطوليمايس كانت عاصمة مديرية طيبة (Thebais)، أي مقر حكومة تلك المديرية، إلا أنه يرجح أن تلك الحكومة لم تتدخل في شئون المدينة.

وقد مر بنا أن انطينوپوليس أنشئت على نمط اغريقي ومنحت مجلساً للشورى ودستوراً اغريقياً وقسم مواطنوها، مثل مواطني المدن الاغريقية الأخرى، الى قبائل وأحياء. وبطبيعة الحال كان يدير شئونها جماعة من الحكام يختارون من مواطنيها. ومما يجدر بالملاحظة أن دستور هذه المدينة سمح بالتزاوج بين مواطنيها والمصريين على حين أن هذا التزاوج كان غير مشروع في المدن الاغريقية الأخرى.

٤ – التعديلات التي أدخلت في القرن الثالث

شهد القرنان الأول والثاني من حكم الرومان زيادة مطردة في إلزام الأشخاص القادرين تولي المناصب الحكومية وتبعاتها. ومن حيث المبدأ كان النظام يقضي بألا يرغم شخص على تولي وظيفة قبل انقضاء ثلاث سنوات على توليه وظيفة مماثلة مرة سابقة. وكان يعفى من الارغام على تولي الوظائف المواطنون الرومان والقدماء المحاربين ومواطنو الاسكندرية وانتينوپوليس المقيمون خارج هاتين المدينتين، وكذلك الاطباء العموميون وأساتذة دار العلم في الاسكندرية والفائزون في المباريات العامة والمقدسة وعدد معين من كهنة كل معبد. لكن عندما قل عدد الأشخاص اللائقين لتولي هذه الوظائف زاد تدريجياً تخلي الحكومة عن هذه الاعفاءات.

وعندما زار الامبراطور سبتيميوس سفيروس مصر في عام ١٩٩/٢٠٠ ورأى أن الاضمحلال قد أخذ يدب الى موارد البلاد وأن الادارة المحلية على وشك التداعي، أدخل بعض التعديلات على نظام الادارة المحلية، مؤملاً أن يصلح بذلك ما أفسده الدهر. وقد كان أهم هذه التعديلات منح الاسكندرية وعواصم المديريات مجالس للشورى. وإذا كانت الاسكندرية قد حققت على هذا النحو أمنية قديمة عزيزة عليها فإنه تنقص من قدر هذه المنحة سبغها على العاصمة المحببة القديمة وعلى عواصم مديريات سواء بسواء. ولم يترتب على

عواصم المديريات بهذه السلطة بسبب تمتعها بالحكم الذاتي بعد كاملاً فقد ظل القائد صاحب السلطة العليا في المديرية فضلاً عن أنه كان يسيطر على مجلس الشورى وعاصمة المديرية حيث كان مقره الرسمي. وقد كان النظام يعتمد من بعد في صورة مركزة جاءت من الامبراطور ذاته. في الواقع كان عبء جديد ألقي على عاتق الموسرين الذين كان أعضاء مجالس الشورى يختارون من بينهم وكان عددهم يبلغ المائة في كل عاصمة مديرية. وقد ألقيت إلى كل مجلس من هذه المجالس مسئولية عن الشئون المالية في المديرية بأجمعها وتعيين رؤساء حكام العاصمة ومدير المصرف الرئيسي في المديرية وجباة الضرائب في كل أنحاء المديرية ومراقبي دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضي (dekaprotoi). وجدير بالملاحظة أن المسئولية كانت مسئولية جماعية فقد كان كل حاكم من حكام العاصمة وكل عضو في مجلس الشورى مسئولاً عن تقصيره الشخصي وتقصير زملائه سواء بسواء. وقد كان مجلس الشورى يتولى الإشراف العام على الإدارة في عاصمة المديرية في حين أن حكام العاصمة كانوا يقومون بتنفيذ ما يدخل في دائرة اختصاص كل منهم. وقد أصبحت القاعدة أنه لا يمكن التحلل من تولي منصب من مناصب الحكم المحلي أو عضوية مجلس الشورى إلا بأن يرشح من تخلى عما يملكه شخص آخر صالح يحل مكانه.

ويرجح بعض المؤرخين أنه عندما أنشئت مجالس الشورى عين أعضاؤها من أولئك الذين تم ترشيحهم لتولي مناصب الحكم المحلي في عواصم المديريات في حين أنه يبين من بردية من منتصف القرن الثالث الميلادي أنه لم يكن هناك أي فارق من حيث المنصب المالي بين أصحاب مناصب الحكم المحلي وأعضاء مجلس الشورى العاديين. لكن هذا لا يستتبع حتماً أنه عند إنشاء مجالس الشورى لم يعين أعضاء فيها أولئك الذين تم ترشيحهم من قبل لمناصب الحكم المحلي. وعلى كل حال إذا كانت هناك أي فوارق بين الفريقين في بداية الأمر فإنه ما وافت نهاية القرن الثالث حتى كانت هذه الفوارق قد زالت تماماً إلى حد أن كلمة حاكم محلي (archon) أصبحت ترادف كلمة عضو مجلس الشورى (bouleutes).

وقد أدى إنشاء مجالس الشورى إلى إنشاء مناصب إدارية جديدة كان أهمها منصب رئيس المجلس (prytanis)، وكان يرأس المجلس وينفذ قراراته، ومنصب أمين المدينة (hypomnematographos)، ومنصب (syndikos) وكان مستشار المجلس فيما يتعلق بالشئون الدستورية، ومنصب (logistes) وكان يختص بشئون المدينة المالية، ومنصب رئيس الشرطة في المدينة (nyktostrategos).

وقد صحب التعديلات الإدارية الجديدة تقسيم المديرية إلى أقاليم، ومع ذلك حدث

وظيفة حاكم الاقليم (toparch) ، وكان يعين لكل اقليم مراقب على دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضي (dekaprotoi) ، وعدد من جباة الضرائب (praktores).

وكان أهم التعديلات التي أدخلت على إدارة القرى الغاء وظيفة حاكم القرية (komarch) ، والقضاء تدريجيا على اختصاص الشيوخ وكاتب القرية ، فقد أسندت شئون الادارة الى حكام القرى وكانوا عادة اثنين في كل قرية ، ويبدو أنهما كانا يتوليان هذا المنصب مدة عام واحد. وكان حكام القرية يرشحون خلفاءهم ومن تحتاج اليهم الادارة من موظفين ، لكنهم كانوا لا يتولون مهامهم قبل موافقة قائد المديرية وحاكم القسم على اختيارهم .

ولا شك في أن التعديلات التي أدخلها سبتميوس سفيروس على نظام الادارة اعتراف صريح باخفاق النظام القديم ، ولا شك أيضا في أنه لم يبغ من وراء منح الأهالي قدرا من الاستقلال المحلي الا انعاش حالة البلاد الاقتصادية وايجاد وسيلة تمنح الامبراطور ضمانا أكبر للحصول على الضرائب ، لكن لا هذه التعديلات ولا الحقوق الرومانية التي منحها كركلا سكان البلاد أفلحت في انعاش الحالة الاقتصادية ، بل أخذت تسير من سيء الى أسوأ حتى عصر الامبراطور دقلديانوس الى أعاد تنظيم الادارة من أسفلها الى أعلاها .

ولا مراء في أن السبب الأساسي فيما أصاب البلاد من فقر وتدهور يرجع الى أن الرومان لم يستهدفوا من وراء كافة النظم التي وضعوها لحكم مصر ، وكافة التعديلات التي أدخلوها على تلك النظم الا استغلال البلاد الى أقصى حد وضمان الحصول على ما فرضوه عليها من مختلف الالتزامات دون نظر الى صوالح الشعب ورفاهيته . وليس مرد ذلك الى أن الرومان كانوا يريدون التنكيل بمصر وانما مرده الى أن تهافتهم في أن تفيض مصر بالخيرات على روما أعماهم عن مراعاة صوالح مصر . ولو أنهم كانوا بعيدي النظر لقدروا أن افقار مصر سيؤثر عاجلا أو آجلا فيما تجنيه روما من مصر لكن إزاء تبعة المسئولية الملقاة على عاتق الحكام وقصر مدة حكمهم لم يفكر كل منهم الا في يومه وكأنه اتخذ شعارا له « ومن بعدي الطوفان » .

٥ — الشرطة :

اقتفى الرومان أثر البطالمة أول الأمر في حفظ الأمن والنظام في أنحاء البلاد بحراس (phylakitai) مسلحين ومنظمين على أسس حربية . وتشير القرائن الى أن هذا النظام بقي سائدا حتى القرن الثاني . لكن يبدو أن الرومان لم يلبثوا أن استبدلوا بهذا النظام نظاما مرنا ألقيت بمقتضاه مهمة حفظ الأمن والنظام على شرطة مدنيين كانوا يعينون من أهالي كل منطقة وكذلك على الجيش

الرومانى . وكان رجـــال الشرطة المدنيون يدعون بوجه عام حراساً أو حفظة أو حفظة الأمن (phylakes)، لكن كثيراً ما كانت تطلق ألقاب خاصة على الذين يناط اليهم عمل معين مثل حفـــظ الأمن فى ساحات الأسـواق أو السجون أو الطرق الصحراوية ، وغير هم كانوا جميعاً يختارون للخـــدمة فى الأقاليم التى يعيشون فيها ويرجح أن مدة خدمتهم كانت عاماً واحداً . وكان يعين عليهم أن يؤدوا يميناً للخدمة بأمانة ونزاهة وأن يقدموا للحكومة ضـــامنين لحسن أدائهم مهمتهم . وكانوا ينقسمون وحدات أساسها المدينة أو القرية . وكانوا فى المدينة تحت رياســة القائد مباشرة ، أما فى القرية فانهم كانوا تحت رياسة موظف خاص يدعى (archepodos) ولم يكن لهذا الموظف اختصاص قضــائى برغم أنه كان يتداخل بين المتخاصـــــمين لمصالحتهم وان المتخاصمين كانوا يلجأون اليه لفض منازعاتهم . وكان يكلف بالقاء القبض على المجـــرمين بناء على أوامر يتلقاها من السلطات المختصة ، كما كان يكلف بتنفيذ أوامر الحكومة .

ومع صحب انشاء مجالس الشورى فى عواصـــــم المديريات تنظيم قوة للشرطة فى عاصمة كل مديرية كانت مستقلة عن قوة الشرطة فى المديرية وقد ظهر فى القرن الثالث على رأس رجال الشرطة فى عاصمة كل مديرية موظف يدعى (nuktostrategos) بينما سمى رجال الشرطة فى كل قرية يحملون اسم الموظف الذى مر بنا ذكره (archepodos) . وليس هناك دليل على أن رئيس شرطة عاصـــــمة المديرية كان يعين من قبل مجلس الشــــورى أو يخضـــــع لتوجيهاته . والأغلب الظن أن الحكومة الرومانية كانت تعين دائماً جميع رجال الشرطة فى كافة أنحاء البلاد بما فى ذلك الاسكندرية وغيرها من المدن الاغريقية .

وكان الجيش الرومانى يخصص لحفظ الأمن والنظام فئة قليلة من الجنود يبدو انها كانت أكثـــر أثراً من الشرطة المدنيين . وفى أغلب الأحوال كانت كل فئة من هؤلاء الجنود تحت قيادة ضابط (centurion) كانت تقدم اليه الشكاوى كما كانت تصـــدر عنه الاوامر لالقـــاء القبض على المتهمين . وتشير القرائن الى أنه فى بعض الأحيان كان يصدر الى شرطة القرية ما يتراءى له من التعليمات .

٩ ـ الجيش الرومانى

عندما فتح أغسطس مصر كانت حامية مصر الرومانية تتألف من ثلاث فرق رومانية (legiones) ، وتسع كتائب مساعدة من المشاة (cohortes) ، وثلاث فصـــائل من الفرســـان (alae) ، وزعت على المراكز الاستراتيجية فى البــــلاد لنشر السكينة والنظام فى أرجائها ولصيانة حدودها من الاعتداءات الخارجية ، ومع هذا فى عهد تيبريوس خفضت الفرق الرومانية الى فرقتين ، وكتائب مساعدة لالقاء الرعب

في قلوب الاسكندريين الذين اشتهروا بميلهم الى الشغب والثورة ، ووضعت فرقة رومانية حربية في بابليون لتسيطر على الوجه البحري وترجع الى القرن الثانية ووضعت في منطقة طيبة التي كانت مهد الثورات الوطنية ضد البطالمة ، ووضعت ثلاث كتائب مساعدة عند أسوان للدفاع عن الحدود الجنوبية ووزعت الثلاث الكتائب المساعدة الباقية والثلاث الفصائل في مختلف أنحاء البلاد لحماية الحدود الشرقية وتأمين الطرق الصحراوية وحراسة المناجم . لكن سرعان ما تبين أن هذه القوات كانت تزيد على الحاجة ولا سيما بعد اطمئنان الرومان الى سلامة الحدود الجنوبية فأمر تيبريوس بسحب احدى الفرق الرومانية الثلاث . وعندما أسفرت الأحداث في الاسكندرية كان أخطر عنصر للرومان من منطقة فيها أمر كلاوديوس بنقل الحامية الرومانية التي كانت ترابط فيها أو قربها الى معسكر نيكوبوليس

وفي عهد نيرون حشدت مؤقتا في الاسكندرية فرق رومانية أخرى للقيام في رأي الباحثين بالحملة التي كان ينوي الامبراطور يعتزم توجيهها ضد مملكة أكسوم لكن حال دون القيام بها اندلاع الثورة في جودا ... على ... بالت الفرق في ... وفي عهد تراجان أدخلت

عدة تغييرات على نظام مصر الحربي ... كان أهمها بناء قلعة جديدة على شاطئ النيل عند بابليون واضافة فرقة جديدة ، فرقة تراجان الثانية . ويرجح أنها حشدت للخدمة في الشرق وترابط بصورة مؤقتة في مصر لكنها لم تغادرها حتى سحبت للاشتراك في حرب الداتيون

وما أن جاء عهد أنطونينوس بيوس (١٣٦ — ٦١) حتى كان عدد الفرق الرومانية في مصر قد أنقص الى فرقة واحدة لكن يبدو من ناحية أخرى أن عدد الكتائب المساعدة والفصائل قد زيد . ويتبين من الوثائق أنه منذ تلك الأيام اتجه الرومان باطراد الى التجنيد محليا لملء الأماكن التي تخصص في صفوف الحامية الرومانية في مصر . ويعني هذا أنهم اعتمدوا على المصريين في ذلك وعلى الأرجح على مواطني المدن الاغريقية وعواصم المديريات .

وكان يحرس شواطئ الدلتا أسطول (classis Augusta Alexandrina) يرجح أن أغسطس هو الذي أنشأه وإن كان لا يرد له ذكر في مصادرنا قبل عصر نيرون . وكانت المهمة الأولى لهذا الأسطول الدفاع عن البلاد وحراسة القمح المنقول من الاسكندرية الى ... تكشف ... عصر ... أنه ... كذلك يحرس ... لملاحة في داخل البلاد

الفصل الثالث

السياسة الدينية

لما كان الروم قد داموا في القرون القديمة على اتباع سياسة التسامح الديني مع رعاياهم ما دام ذلك لم يتعارض والاحتفاظ بسيطرتهم عليهم، فانهم تمشيا مع هذه السياسة لم يتدخلوا في معتقدات الدينية لرعاياهم في مصر سواء أكانوا من المصريين أم الاغريق أم اليهود. فلا عجب اذن ان استمر كل عنصر من هذه العناصر في اقامة شعائر ديانته القديمة. ولا أدل على ان تمسك المصريين بقوى علق ولائهم لآلهتهم القديمة من ان الأحناب الأوائل للمسيحية وجهوا حملات لاذعة ضد عبادة الحيوان التي ... عند انتشار المسيحية في مصر واعترفت الدولة بها رسميا في القرن الرابع الميلادي بذل المسيحيون جهودا كبيرة للقضاء على الوثنية في مصر وساعدهم على ذلك انه عندما رقي الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٨ — ٣٩٥) العرش فرض المسيحية فرضا في جميع انحاء الامبراطورية الرومانية. وقد نفذ هذا الامر المشهور دون هوادة في الاسكندرية، ثم توجه البطريرك حيث ذهب الرهبان في مقدمته الى تحطيم معابد ... وتماثيلها، حتى ان الامبراطور ثيودوسيوس ... اذ كان القرار يقضي باغلاق كل المعابد التي كانت القرابين تقدم فيها، لكن الرهبان استغلوا من ذلك القرار السنة يهدمون المعابد. اما في الوجه القبلي فان سلطة الحكومة لم تكن من القوة بحيث تستطيع تنفيذ ذلك القرار، حتى اذا شاء رجال الادارة تنفيذه، وكان أغلبهم في الواقع مسيحيين غير متحمسين أو اداريين مصريين لم يروا من الحكمة فرض دين معين على الشعب دون رغبته. ومع ذلك فاننا نرى حتى اليوم على جدران المعابد آثار المحاولات التي بذلت لمحو صور الآلهة القديمة. ولا جدال في ان كل ذلك ينهض دليلا على ان جانبا كبيرا من المصريين استمسكوا أمدا طويلا في العصر الروماني بعباداتهم القديمة. ويجب الا يغيب عن البال ان أهل الريف وهم يؤلفون دائما جانبا كبيرا من السكان في مصر أكثر محافظة من أهل المدن، وكذلك أكثر منهم تمسكا بأهداب الدين.

وقد احتفظ كثير من اغريق مصر أيضا بعباداتهم القديمة. ويجب ألا ننسى ان الى

بعض أن ذلك كان مقصورا على مدنهم الاغريقية فحسب بل نجد أن ذلك كان بأنهم أيضا حشدا وجدت لهم مراكز خصبة خارج تلك المدن فالقرائن تشير الى أنهم كانوا يمارسون شعائر عبادتهم القديمة لا في الاسكندرية ونقراطيس وبطوليمايس وبطولوزيوليس فحسب بل أيضا في الفيوم وهرموبوليس (الاشمونين) وأوكسيرينخوس (البهنسا). لكن لا جدال في أن عدد اغريق مصر الذين ظلوا مخلصين لآلهتهم القديمة قد تناقص على مر الزمن. فلقد مر بنا أن الاغريق منذ عهد هيرودوتوس وطوال عصر البطالمة كانوا يشبهون الآلهة المصرية بالآلهة الاغريقية وأنهم كثيرا ما عبدوا الآلهة المصرية الى جانب آلهتهم الاغريقية باعتبارهم نزلاء البلاد التي كانت تتمتع بحماية تلك الآلهة. ونستطيع أن نتصور أنه كلما أصبح الاغريق أكثر ألفة بالآلهة المصرية نتيجة لطول استقرارهم في البلاد والاختلاط بأهليها أو التزاوج معهم كثر تقربهم الى هذه الآلهة. ومع ذلك تسرب بعض الأفكار الاغريقية الى بعض المذاهب المصرية التي كان يمارسها الاغريق والمصريون المتأغرقون. وإن كان من الجائز بوجه عام أن نعزو تفشي الاغريقية وعواصم المديريات بين بعضهم البعض [illegible] الآلهة المصرية على التعبد الى آلهتهم الاغريقية فانه لا شك فيه أن عامة الاغريق المنتشرين في أنحاء البلاد أصبحوا بالتدريج أقرب الى المصريين منهم الى الاغريق ولم ينقض وقت طويل حتى أن [illegible] الآلهة المصرية [illegible] على مر العصور. ومن ثم نجد أتباع الديانة الاغريقية بعد العهد الذين تمصروا وبطبيعة الحال أيضا بين أبناء الذين اعتنقوا المسيحية.

ولما كان اليهود يقفون في الشئون الدينية بمعزل عن كافة سكان مصر سواء أكانوا من المصريين أم من الاغريق أم من الرومان، فانهم استمروا يمارسون عباداتهم دون أن تتأثر طقوسهم أو معتقداتهم بأي تأثيرات أجنبية. ولقد تفرق بينهم في أغلب مدن مصر الكبرى واستمر معبدهم الكبير في ليونتوبوليس يباشر نشاطه الى أن أمر فسباسيانوس في عام ٧٣ باغلاقه بعد تدمير أورشليم ومعبدها في أعقاب ثورة اليهود على روما، وذلك لكي لا يتخذ هذا المعبد الكبير في [illegible] بعد زواله [illegible] معبد ليونتوبوليس. وقد شهدت مصر التطور الوحيد الذي طرأ على الأفكار اليهودية وكان يتمثل في تكوين طائفة من النساك أطلقت على نفسها [illegible] بالقرب من بحيرة مريوط حيث اتخذت تمارس حياة من التقشف والزهد منصرفة عن أمور الدنيا الى الدرس والتأمل. وكان يسمح للرجال والنساء على السواء بالاندماج في هذه الطائفة، وكان يخصص لكل عضو من أعضاء الطائفة صومعة صغيرة يؤدي فيها وحده [illegible]

أمام ولا يخرج منها للاحتفاء مع اخوانه في السنة الا في يوم السبت من كل أسبوع وكذلك في يوم الحفل الذي كان يقام كل خمسين يوما . ولم تكن هذه الطقوس من حياة النسك غير معروفة في مصر من قبل ، وآية ذلك أوصاف النساك الذين تحدثت الوثائق بأنهم كانوا يعتصمون بمعابدهم في سيرابيوم منف في عهد البطالمة . ويعتقد بعض الباحثين أن المبشرين البوذيين هم الذين نقلوا من الهند الى مصر فكرة النسك . لكن البعض الآخر من الباحثين وان كانوا يسلمون بأن مثل أولئك المبشرين كانوا يفدون على مصر في عهد البطالمة وبأن مذهب بوذا كان يتألف من مزيج عجيب من الأفكار ، الا انهم يعدون من العسير أن يتصوروا أن يكون اليهود مع شدة تعصبهم لديانتهم قد اقتبسوا أي عادات من ديانة أجنبية ، ويرجحون أن تكون طبيعة مصر هي التي أوحت لليهود بعادة النسك ، فالصحراء في مصر شديدة القرب من أي شخص يريد اعتزال العالم ، وللصحراء جاذبية خاصة الاحساس بها أسهل كثيرا من وصفها ، ومن اليسير أن تستهوي الصحراء الذين يشتغلون بالتعمق في أمور الدين . ومهما يكن من أمر هذا التصور نفسه قد حدث بعد ذلك بين المسيحيين في مصر فانتشرت بينهم عادة النسك في الأديرة ، وهي العادة التي انتقلت من مصر الى كل أنحاء أوربا وغيرها

البعض أهم خدمة أسدتها المسيحية المصرية للمسيحية الأوربية .

و … سكان مصريين بمعتقداتهم الدينية … أن الأباطرة الرومان لكي يضمنوا مركزهم بصفة شرعية في نظر المصريين خلعوا عليهم صفة البطالمة من قبل فاتخذوا صفة الفراعنة . بل ان حاكم مصر الروماني أيضا كان يتشبه بالفراعنة ، فلا يركب النيل وقت الفيضان ، ويقدم القرابين عند بلوغ النيل أقصى ارتفاعه ويمثل دور فرعون في عيد الخصب حتى انقضائه ، وشيد الأباطرة معابد للآلهة المصرية أو أضافوا الى مباني المعابد القائمة أو أكملوا مبانيها أو زخرفتها وصوروا على جدرانها وعلى النصب الرسمية في زي الفراعنة وأوضاعهم .

وقد كان الرومان في بادىء الأمر ينظرون الى معتقدات المصريين الدينية نظرة احتقار وازدراء لكنهم لم يلبثوا أن أخذوا يتطلعون الى معرفة أسرارها فاستهوتهم تلك الأسرار وما يقترن بها من أساطير . وما لبث الغزاة الفاتحون أن خضعوا لسلطان تلك الآلهة وشاركوا رعاياهم المصريين على أمرهم في عبادتها وتقديم القرابين اليها بل أقاموا لتماثيلها معابد بعضها حتى في روما عاصمة دولتهم . ولعل أبلغ ما يدل على النصر العسكري الذي حققه … على الرومان من حيث … هم للآلهة المصرية أن أغسطس أبى وهو مستكبر أن يرى العجل المقدس أبيس ،

لكن نيرون شهد الاحتفال بتكريسه وبرع وسعد في اظهار احترامه للآلهة المصريين. فوضع بذلك أساس سياسة جديدة ظلت آثارها في بناء تماثيل الآلهة محلية في [illegible] على نقود الإسكندرية منذ عصر دوميتيانوس ([illegible] - ٩٦) وكذلك في تسمية وجه ترجمان بالآلهة المصريين.

وإذا كان الرومان منذ وطأت أقدامهم مصر لم يشترطوا معتقدات المصريين الدينية ولم يلوثوا فيه شيئا ، كما فعل البطالمة الأوائل ، على ألا يتركوا الحبل على الغارب لرجال الدين المصريين لكي لا يصبحوا أداة لبث روح الثورة في البلاد ، كما حدث في عهد البطالمة الأواخر . وبذلك ألغى أغسطس ضمانات المعابد جانب من أراضيها واسناد ادارة جانب آخر إلى الحكومة لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من هذه الأراضي لتوفير حاجات معابدهم . وفضلا عن ذلك وضعت ادارة المعابد تحت الرقابة الحكومية ويرجح أن الحاكم العام الروماني هو الذي كان يتولى هذا الإشراف حتى عصر هادريان عندما أصبح ذلك من اختصاص موظف روماني كبير كان يدعى ايديولوجوس (Idiologos) ويحمل لقب « كاهن كهنة الإسكندرية ومصر بأجمعها » . وبرغم الوثائق كان هذا الموظف يشرف إشرافا دقيقا على كل ما يجري في المعابد فقد كان يحصي ممتلكاتها ورواتب موظفيها الكهنوتية وموظفيها ومباشرة الكهنة مهامهم بل ملابس التي يرتدونها . وكان يبعث بمندوبين الى المعابد لتفتيش شئون ادارتها ويأمر بالقبض على الذين يخصصون أو ... ويعاقبهم ... . وكان يتولى الادارة الفعلية في كل معبد جماعة من الشيوخ يختارون سنويا من بين الكهنة . وعندما أنشئت مجالس الشورى في مستهل القرن الثالث آل الاشراف على شئون المعابد المالية إلى موظفين كانت تعينهم وتراقب أعمالهم .

ومما يجدر بالملاحظة أن ما عرفناه من أمر الرومان حيال الآلهة المصرية لا يعني أنهم انصرفوا عن عبادة آلهتهم الاصلية ، فقد أدخلوا عبادة هذه الآلهة في مصر كما أدخل الاغريق من قبل عبادة آلهتهم الاغريقية . وقد أخذ الرومان أيضا عن الاغريق تأليه الملوك فقرنوا الأباطرة بالآلهة — مثل أغسطس بزيوس إليوثريوس (Eleutherius) ونيرون بأجاثوديمون (Agathodaemon) — وشيدوا معابد للأباطرة لكننا نفتقر إلى أدلة قاطعة على عبادة الأباطرة وذلك ... لهم في أثناء حياتهم . وعلى كل حال فان الرومان لم يفرضوا على المصريين هذه العبادات خشية الاصطدام بالشعور القومي وهو ما كان الرومان يبذلون جهدهم لاتقائه . وقد أخذ الرومان كذلك عن الاغريق عادة تأليه الاسكندر المقدوني [illegible]

- وعبادة الآلهة المصرية التي أسبغ عليها أسماء غريقية

لقد عرف أن الرومان أقاموا سياستهم الدينية على أساس التسامح الديني ، فلم تسمح للمصريين والإغريق واليهود بحرية الاحتفاظ بعباداتهم القديمة . فما كان موقفهم من المسيحية عندما أخذت تنتشر في مصر ؟ إن معلوماتنا ضئيلة عن بدء انتشار الدين الجديد في مصر ، لكن الباحثين لا يميلون إلى قبول القصة القائلة بأن القديس مرقص هو الذي أسس كنيسة الإسكندرية وإن كانوا يعتقدون أن قرب مصر من فلسطين جعلها في طليعة البلاد التي تسرب بها الدين الجديد في خلال القرن الأول وأخذ ينتشر تدريجياً هناك ولا سيما في الإسكندرية والوجه البحري ، وأصبح عدد المسيحيين كافياً لتنصيب أسقف للإسكندرية . وقد ازداد أمر المسيحية في القرن الثاني وخاصة عندما نصب ديمتريوس في آخر عهد كومودوس (١٨٠ — ١٩٢) أسقفاً للإسكندرية وعلى يده تمت رسامة عشرين كاهناً لانتشار المسيحية ومع ذلك فإن المسيحية لم تترك أي أثر عثر عليه حتى الآن من برديات القرن الأول ولا نستمد من برديات القرن الثاني إلا معلومات طفيفة عن مدى تأثير المسيحية ولم نتبين منها أن المسيحية توغلت في مصر الوسطى ومصر العليا .

وقد أدى انتشار المسيحية إلى إثارة مخاوف الرومان ومن ثم عملوا على اضطهاد معتنقيها وأنصارها بسبب أنهم في نظرهم خطر يهدد سلامة الدولة بعدم مشاركتهم في إقامة شعائر الديانة الرسمية ، فهم كانوا لا يقدسون تماثيل الأباطرة ولا يعبدون « الروح الحارس » للإمبراطور ولا « روما المؤلهة » . وقد كان بدء اضطهاد المسيحيين في مصر اضطهاداً منظماً في خلال حكم سبتيموس سيفيروس (١٩٣ — ٢١١) وبلغ أشده في أواخر عصر دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) . وتركت هذه الاضطهادات أثراً عميقاً في النفوس إلى حد أن الكنيسة المصرية استمرت بضعة قرون تستعمل لتأريخها « عصر الشهداء » بدءاً من حكم دقلديانوس . لكن وسائل الاضطهاد المختلفة لم تفلح في تعطيل انتشار الدين الجديد حتى سمح له بالتسامح في عصر قسطنطين الأول (٣٢٣ — ٣٣٧) حينما اعترفت الدولة رسمياً بالمسيحية .

ومما يجدر بالذكر أنه في القرنين الثاني والثالث قامت الإسكندرية بدور كبير في التقريب بين أسمى الأفكار في الوثنية والأفكار التي انبثقت من المسيحية . فإلى جانب « الجامعة » القديمة التي عرفت بتاريخ دراساتها الوثنية نشأت المدرسة المسيحية الكبرى التي أسسها بانتينوس Pantaenus ، وكانت أصول الإيمان تعلم فيها عن طريق السؤال والجواب .

الفصل الرابع

السياسة الاقتصادية

١ ـ الزراعة والصناعة والتجارة

لما كان الرومان في حاجة ملحة الى الانتفاع بموارد مصر الهائلة وكان مقدار ما يجنونه منها يتوقف على مقدار ثروة مصر وكانت أحوال مصر الاقتصادية قد تدهورت في عهد البطالمة الأواخر من جراء ضعفهم وتخاذلهم وما عانته البلاد من آثار الثورات القومية والانقسامات الأسرية والغزوات الأجنبية ، فقد وجه الرومان عنايتهم الى اقامة حكومة قوية ثابتة والى النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية

عني بالزراعة عناية خاصة وحسبكم الرأي من عنايته بضبط مياه النيل وحسن تصريفها وما يتطلبه ذلك من كري الترع القديمة وانشاء ترع جديدة والمحافظة على الجسور فلا عجب ان استرابون يحدثنا بأنه قبل الفتح الروماني كان يلزم ارتفاع منسوب مياه النيل الى ١٤ ذراعا لانتاج محصول وفير في حين ان ارتفاع منسوب المياه ثماني أذرع كان يؤدي الى حدوث مجاعة اما بعد الفتح الروماني فقد أصبح ارتفاع منسوب مياهه الى اثني عشر ذراعا كافيا لانتاج محصول وافر جيد وفضلا عن ذلك فان البلاد كانت لا تشكو من أي مجاعة حتى عندما كان منسوب المياه لا يبلغ أكثر من ثماني أذرع

وكانت مصر تنتج مقادير كبيرة من المحاصيل الزراعية كان القمح أهمها ثم يأتي بعد ذلك الشعير والكتان والخضروات والنباتات الزيتية والبردي والكروم والبلح والزيتون ويقال ان مصر كانت تزرع أيضا القطن لتستخدم تيلته في صناعة ملابس الكهنة

وعمد بعض الاباطرة المصلحين بالنهوض بالصناعة لسد حاجات السوق المحلية من ناحية وتصدير كميات كبيرة من ناحية أخرى لتعوض مصر عن فقدها النصر جانبا من الجزية التي كانت تدفعها لروما سنويا ويبدو ان حكام مصر من الرومان حبذوا وجود الاحتكار الحكومي [illegible] قليل الارباح تركوا نصيبه للأهالي فكانت الحكومة تحتكر بعض الصناعات كصناعة استخراج الملح والمعادن وقطع الأحجار وتترك صناعات أخرى بيد الأفراد

لكن من العسير في ضوء معلومات الحالية اعطاء صورة كاملة صحيحة عن مدى حرية النشاط الاقتصادي في الصناعة وتشير القرائن الى أن الاسكندرية ظلت مركزا صناعيا كبيرا لكنها لم تنفرد بالنشاط الصناعي فكانت توجد مراكز صناعية في مختلف أنحاء البلاد مثل أرسينوي (الفيوم) وأوكسيرينخوس (البهنسة) وبانوبوليس (اخميم) وطيبة ومن المرجح أن الفراعنة احتفظت على الأقل ببعض ما كان لها من الأهمية الصناعية القديمة وتحدثنا البرديات عما كان هناك نشاط صناعي في قرية سنوبيس بالفيوم ويرجح أنها لم تنفرد دون غيرها من قرى مصر بمثل هذا النشاط وتذكر البرديات أن أهالي تبتونيس كانوا يشتغلون بنسج الأقمشة وصباغتها وصنع الزيت والجعة والحلي والأدوات المعدنية

وكانت صناعة الزجاج من أرقى الصناعات المصرية حتى أنه ينسب الى مصر ابتكار فن تشكيل الزجاج بالنفخ حوالي بداية العصر المسيحي ، ويبدو أن مصر كانت تحتكر صناعة المكعبات الزجاجية الصغيرة اللازمة للفسيفساء وكانت مصر تحتكر كذلك صناعة الورق ونسج أصناف عديدة منه واشتهرت مصر أيضا بمنتجاتها الكتانية الدقيقة وصناعة العطور ومساحيق الأدوية والمصابيح والكؤوس المصنوعة من الفضة أو الذهب

وقد اهتم الرومان كذلك بتجارة مصر الخارجية شرقا وغربا ولا سيما بعد تطهير البحر الأبيض المتوسط من القراصنة وبسط نفوذ الرومان على شواطىء البحر الأحمر واصلاح الآبار الواقعة على الطرق الصحراوية التي تربط النيل بالبحر الأحمر وشق طرق جديدة لهذا الغرض واقامة محطات على جوانب هذه الطرق لاستتباب الأمن في تلك الجهات

٢ ـ النقود :

لما كان أغسطس وخلفاؤه قد حرصوا على اعطاء مصر وضعا سياسية واقتصادية منعزلة عن باقي الامبراطورية الرومانية فانهم أصدروا لمصر عملة خاصة بها لم يكن لها أية قيمة خارجها ولم يسمحوا بتداول العملة الرومانية البرونزية والفضة فيها وان كانوا فيما يبدو قد سمحوا بتداول العملة الرومانية الذهبية لكن لما كانت الأدلة على التعامل في مصر بهذه العملة ضئيلة فانه يبدو ان تداولها هناك كان محدودا جدا ، وهكذا انفردت مصر بوضع لم يكن له مثيل في أي ولاية رومانية أخرى على أن الولايات الغربية عرفت العملة الرومانية البرونزية الوصيفة المصنوعة للنحاس وفي الولايات الشرقية برغم أنه كانت تسك محليا عملة برونزية (في مصر) وطالما كانت بعض فئات العملة الفضة فان الناس كانوا دائما يتداولون فئات العملة

الرومانية الفضة والبرونزية . ولما لم تكن العملة التي سكت في مصر قيمة خارجية ، وكانت الدولة تحصل على حاجتها من العملة المصرية الفضية ، فلا بد من ان الرومان كانوا يحصلون على عبء الضريبة النقدية من أرصدة صادرات مصر الخارجية ومن ثم كانت الجزية النوعية والجزية النقدية تلقيان عبئا كبيرا على موارد مصر .

وقد كان الرومان يسكون العملة المصرية في الاسكندرية وتشير الأدلة الى انه لم تصدر عن دار السكة في هذه المدينة أي عملة فضية أو ذهبية في العصر الروماني . ففي عهد أغسطس كانت تسك فئات مختلفة من عملة البرونز ومع ذلك كان يطلق على العملة ذات الأربع دراخمات عملة فضية من باب التأدب فقط .

وفي عام ١٩ و ٢٠ ميلادية قرر تيبريوس أن تسك الاسكندرية عملة ذات أربع دراخمات من مزيج يتألف من البرونز والفضة بنسبة ٣ : ١ وان تستمر الاسكندرية في سك الفئات الصغرى من العملة البرونزية . وظل هذا معمولا بالنظام الذي وضعه تيبريوس حتى عام ٢٩٦ مع تعديلات طفيفة في نسبة مزيج القطع ذات الأربع دراخمات ، وكذلك في شكل العملة فقد كان على سطح ظهر العملة الطلمية حتى عصر دقلديانوس عندما أحدث سك على سطح العملة الرومانية . وبعد أواخر القرن الثاني حدث هبوط قيمة العملة ذات الأربع دراخمات في الهبوط تدريجيا ثم سرعان حتى هبط الهبوط في النصف الثاني من القرن الثالث الى حد أن وزن هذه العملة أصبح لا يزيد الا قليلا على نصف وزن مثيلاتها في عهد تيبريوس فضلا عن انه لم يعد فيها من الفضة الا قدر طفيف جدا ينقص كثيرا عما كان عليه في الماضي . وقد صحب هبوط قيمة هذه العملة نقص العملة البرونزية سريعا وسكت عملات من الرصاص باسم المديريات المختلفة حتى محل العملة البرونزية . وتشير الوثائق البردية الى أنه قد صحب هبوط العملة كذلك ارتفاع الأسعار والأجور أيضا لكن الأجور لم ترتفع بالمعدل ذاته مما كان له دون شك أثر في ضيق الناس بحالهم .

٣ — المصارف المالية :

كان يوجد مصرف رئيسي عام في الاسكندرية ومصرف مركزي عام في عاصمة كل مديرية . وكانت هذه المصارف العامة تؤدي مهمتي استلام أموال الدولة وصرفها ، وكان يقوم على ادارة كل مصرف موظف من أثرياء عاصمة المديرية كانت تفرض عليه مهمة ادارة المصرف لمدة معينة . وتحدث الوثائق عن ثلاثة أنواع أخرى من المصارف تطلق على أولها اسم مصارف التسجيل Chrematistike trapeza ، ويبدو انه كان يباشر مهمتي مكاتب التسجيل والمصارف العامة . وتطلق الوثائق على النوع

الثاني أسم مصارف استبدال النقود Kollybistike trapeza وعدد من مهنهم الأولى كانت استبدال النقود المصرية بأي عملة أجنبية ترد من الخارج . أما النوع الثالث فيسمى مصارف الحاصلات (edootike trapeza) ، ويبدو أنها كانت تستمد رؤوس أموالها من الأفراد وتؤدي مختلف أنواع الأعمال المصرفية ، ولم يقتصر نشاطها على حسابات الأفراد فحسب بل كان يشمل أيضا عمليات حكومية .

ويعتقد بعض الباحثين أن الحكومة كانت تحتكر كافة الأعمال المصرفية وتؤجر إدارة المصارف الخاصة لمن يتقدم بأكبر عطاء لقاء ذلك لكن المعلومات التي بين يدينا حتى الآن لا تسمح بتأييد هذا الرأي أو نفيه وإن كان يبدو معقولا ومحتملا .

ومما يجدر بالملاحظة أن المعابد لم تنقطع عما درجت عليه منذ أقدم العصور من مباشرة أعمال شبيهة بالأعمال المصرفية مثل إقراض النقود واستلام الودائع . وقد ... من مثل مصر الرومانية كان أصحاب مخازن الحبوب (sitologoi) ، كذلك يؤدون مهمة المصارف الخاصة .

٤ ــ حالة البلاد الاقتصادية

بعد أن كانت ... تحت حكومة قوية قديرة لا ينقصها الراحة كانت حكومة عاجزة فاسدة ... الرخاء على القوة لكن استبداد الحكومة القوية القادرة إلى حكومة فاسدة كان لا بد من أن يحملها على مر الأيام بعد خطر على البلاد وأكثر ضررا من حكومة أقل منها قوة ومقدرة . فقد كان الرومان لا يهتمون من وراء سياستهم الاقتصادية في مصر إلا غرضا واحدا وهو استغلالها لمنفعتهم الخاصة . وإذا كانت آراء بعض الأباطرة قد تفاوتت عن آراء البعض الآخر فإن ذلك التفاوت لم يكن إلا تفاوتا شكليا ، وهو في مقدار ذلك الاستغلال ، إذ بينما كانت الحكمة تملي على بعضهم تجنب تكليف البلاد ما يزيد على طاقتها لا شفقة بالبلاد أو أهلها بل شفقة بأنفسهم كيلا يجف معين البلاد نرى أن البعض الآخر قد ضرب بتلك الحكمة عرض الحائط وراح يبتز كل ما يملك البلاد . وحسبنا أنه حتى في عهد ... كانت الجزية النوعية أربعة أمثال ما كان يتطلبه الأوائل البطالمة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد كان هناك فارق آخر هام بين البطالمة والرومان وهو أن معظم ما كان البطالمة يجبونه من مصر كان يبقى فيها ، أما معظم ما كان الرومان يستنزفونه من مصر ، حيث كان أم عينا ، فإنه كان ينقل إلى روما وتخسره مصر كلية .

ويبدو أن وقت القرن الأول من حكم الرومان (من أغسطس إلى آخر حكم نيرون ، أي من ٣٠ ق . م — ٦٨ م) حمل في طياته رغد عيش ، لكن إذا فحص النظر

وجدنا ان دنيث الرخاء كان من نصيب قوم
قل كل شيء ومن نصيب الاسكندرية في
عهد ان مصر دانها عهد كانت الحرب الحلوب
التي درت تلك الخيرات حتى أصبحت تظهر
بوادر استغلالها ، اذ ان كل نظام الحكومة
كان موجها في غاية واحدة هي تمكين الدولة
من استعباد الفلاح في خدمتها واستنزاف أموال
دافعي الضرائب وترينا القواعد المكتوبة التي
كان الاديولوجوس يسير على تنفيذها
(Gnomon Idiou Logou) والقوانين الخاصة
بتأجير الأراضي أو جباية الضرائب شدة
حرص الحكومة على مطالبة مزارعيها بأعلى
الايجارات دون أن يصيبها في قليل أو كثير ان
كان لم يتبق لهم بعد ذلك الا أقل القليل لسد
كل حاجتهم المعيشية ولا غرو فقد
كان شعار كل رجال الحكومة مراعاة صوالح
الخزانة العامة دون أي اعتبار آخر وتبين لنا
الوثائق بأنه في عصر تيبريوس (١٤ — ٣٧م)
كان المزارعون يهربون من ضريبة الرأس
والسخرة ويحتمون في الأدغال والمستنقعات
حتى ان بعض القرى هجرت سكانها تقريبا
وتحدثنا بردية من عهد نيرون (٥٤ — ٦٨م)
بأن سكان ست قرى من قرى الفيوم قد
نقص عددهم نقصا شديدا وتريد بردية من
هذا العهد أيضا بأن نصيب لم يسقط كاهل
دافعي الضرائب فقط من جانبهم أيضا بل
بعد بالجباة الى أن يطاردوا المتسكعين من
سوء الحال والا اضطروا تحت ضغط عجزهم
مالي الى عدم اتمام تحصيل الضرائب
وتحاول أصداء هذه الحال فيما كتبه
الفيلسوف اليهودي فيلون الذي عاصر
الامبراطورين كاليجولا (٣٧ — ٤١)
وكلاوديوس (٤١ — ٥٤) فهو يحدثنا عن قرى
بأكملها بل بلاد أقفرت من سكانها بسبب
شدة وطأة الضرائب ، ومن زج في السجن
بالزوجات والأطفال والتنكيل بهم للارشاد عن
الأماكن التي آوى اليها الهاربون من تسديد
الضرائب ، ويروي كيف ان جباة الضرائب
كانوا لا يتورعون حتى عن الاستيلاء على جثث
الموتى الذين لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب
لارغام ذويهم على سداد المتأخرات .
وتحدثنا وثيقة من حوالي عام ٦٩ م عن ارغام
الناس على التعهد بالتزام جباية الضرائب
وعلى استئجار الأراضي العامة وعن
هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم حسب في
التبييع من المتهربين من الوفاء بالتزاماتهم
للاديولوجوس وعن مزارعين في مختلف
أنحاء البلاد أرهقتهم ضرائب جديدة غير
مشروعة وقد عانى الأهالي أيضا بسبب امداد
الحاميات الرومانية بما كانت تحتاج اليه
وامداد رجال الادارة بحاجاتهم في أثناء
تنقلاتهم من مكان الى آخر وذلك فضلا عن
سلسلة من الضرائب المثقلة الرهيبة

وفي خلال القرن الثاني من حكم
الرومان من جهة ، أي آخر حكم ماركوس
أوريليوس أي من ٦٨ — ١٨٠) على الأباطرة

يسيرون بعدهم بهاظ كاهل مصر فاصبحت حالة لا تستطيع معها الوفاء بتكاليفها انهم لم يعملوا على استئصال شأفة الداء باصلاح نظام الحكم اصلاحا جوهريا فان الحال لم تلبث أن عادت الى سيرتها الاولى . ونتيجة لضعف هذه الفترة بدأت تظهر البوادر التي تدل على أن ثروة البلاد كانت آخذة في التدهور . ولا أدل على ذلك من التحول الى التوسع في تطبيق مبدأ الالزام (Leitourgia) وقد كان البطالمة عادة يستعينون في جباية الضرائب الى ملتزمين يتقدمون طواعية للاشتراك في مزادات تعقد لكل ضريبة على حدة ، وكان المزارعون يقبلون عن طيب خاطر على استئجار أراضي الملك ، اما في أوقات الازمات فان البطالمة لم يحجموا عن ارغام الاشخاص اللائقين على تولي الوظائف أو التزام ضرائب أو استئجار أراضي الملك . غير أن اتجاه البطالمة في سبيل الارغام لم يكن القاعدة السائدة ولم يحدث الا في ظروف استثنائية . واذا كان الرومان قد اقتفوا أثر النظام البطلمي أول الأمر فانهم لم يلبثوا أن طرحوه جانبا وأخذوا يمعنون بالتدريج في خلال القرن الاول مبدأ الالزام ، وتوسعوا في اتباع هذا المبدأ توسعا كبيرا في خلال القرن الثاني .

ويبين الوثائق البردية انه عندما تدهورت حالة البلاد الاقتصادية ، وكان ملتزمو الضرائب لا يتقدمون بعطاءات مرتفعة كالتي كانوا يتقدمون بها في أيام الرخاء كانت الحكومة اما ترغمهم على التعاقد معها بالشروط القديمة أو تجبي الضرائب مباشرة عن طريق جباة تعينهم في مناصبهم قسرا . ويبدو أن الامر لم يستدع الالزام في حالة الوظائف الكبرى مثل وظيفتي القائد والكاتب الملكي لكن الحال كانت مختلفة في كل الوظائف الحكومية الصغرى فقد كان يشترط فيمن يتولى كل وظيفة من هذه الوظائف نصاب مالي معين وكلما خلت وظيفة في احدى القرى أو عواصم المديريات كان على كاتب القرية أو كاتب العاصمة أن يرسل الى القائد قائمة بأسماء الاشخاص اللائقين لتولي الوظيفة الشاغرة ، أو بعبارة أخرى أسماء الاشخاص الذين تتوافر فيهم شروط تولي الوظيفة ولا يحق اعفاؤهم من توليها . وبعد أن يبحث القائد قائمة الأسماء كان يرسلها الى حاكم القسم (epistrategos) الذي تقع مديريته في نطاقه ويختار الحاكم بالقرعة الشخص الذي يتولى الوظيفة الشاغرة . وكان على هذا الشخص أن يشغل المنصب الذي اختير له مدة تتراوح بين عام واحد وثلاثة أعوام . ويرجح أن أولئك الموظفين كانوا يتقاضون أجورا الا انه لم يكن ثمة موجه ما تتطلبه وظائفهم من نفقات . وفضلا عن ذلك فانهم كانوا مسئولين باملاكهم بل باشخاصهم عن كل

ما يحدث من نقص أو عجز أو خسارة مدينة للحكومة . وكانت النتيجة الطبيعية تدنيت العقوبة على طبقة الفلاحين المؤسرين .

ولكي نبين مدى ما انحدر إليه مستوى مناصب حكام عواصم المديريات وأصبحوا مصريون من نوعها كلما استحكمت حلقات الأزمة الاقتصادية يجب أن نذكر بعض هذه الأعباء . ففي حالة مدير الجيمنازيوم مثلاً كان عليه أن يتحمل ثمن ما يحتاج إليه الجيمنازيوم من الزيت لتدليك الذين يمارسون الرياضة هناك وكذلك ثمن الوقود اللازم للاستحمام ولقد كلف البند الأخير وحده أحد مديري الجيمنازيوم في خلال العام الذي تولى فيه منصبه ٢٠٠٠ دراخمة . وكان على مراقب التموين أن يتحمل نفقات صيانة مواضع الحبوب ويعوض فضلاً عن أي عجز في أعداد حاصلته يحاجته من الحبوب .

ويحدثنا احدى البرديات عن أن مراقباً سابقاً للتموين ترك ديناً قدره ٢٠٨٠ دراخمة « ثمناً للقمح » الذي اشتراه عندما كان يتولى منصبه . وفضلاً عن ذلك كان ينتظر من حكام العواصم أو على الأقل كبارهم مواجهة أي نفقات تتطلبها حفلات مدنهم حتى ولو لم تتصل مباشرة بمهام أعمالهم إذ نعرف مثلاً أن كبار حكام ومبيوى كانوا يسهمون شهرياً في دفع نفقات المياه التي تحتاجها مدينته . ولا أدل على ثقل أعباء هذه المناصب مما يحدثنا به الوثائق من المحاولات التي بذلها شخص يسمى أخيليوس (Achilleus) لكي لا يتولى في عام ٩٢ منصب مراقب التعليم في هرموبوليس لأن حالته المالية كانت لا تساعده على مواجهة تكاليفها . ويبدو أن تكاليف هذا المنصب كانت باهظة جداً لأن أخيليوس طلب إعفاءه من تولي هذا المنصب مع استعداده لتولي منصب .... على ألا ينفق أكثر من ١٢٠٠٠ دراخمة على أعباء هذا المنصب لكن محاولات أخيليوس ذهبت أدراج الرياح و « لزج » في منصبه .

وتدل الوثائق على أن أعباء وظيفة مدير الجيمنازيوم كانت أثقل من أعباء وظيفة مراقب التعليم فقد كانت تبلغ في هرموبوليس بعد الاقتصاد الشديد في النفقات ٢٤٠٠٠ دراخمة . فلا عجب في أن تلاقي الحكومة صعوبة الحصول على مرشحين لتولي هذه المناصب طواعية مما أفضى بها بعد ذلك إلى الالتجاء إلى الإرغام لشغل هذه المناصب وإن كانت الحكومة قد حرصت باستمرار على الاحتفاظ بمظاهر التطوع للخدمة وعلى إسدال ستار كثيف على مناوراتها لإرغام ذوي اليسار على شغل هذه المناصب . وإذا كانت أعباء مناصب الإدارة المصرية قد وقعت على طبقة الفلاحين المؤسرين فإن أعباء مناصب حكام عواصم المديريات قد وقعت كذلك

على طبقة الموسرين في تلك العواصم . ولا أدل على ذلك من أن كثيرين منهم كانوا يؤثرون الفرار من مواطنهم لأنه وإن كان فرارهم سيؤدي إلى مصادرة أملاكهم فقد كان سيترتب على بقائهم وتولي مناصبهم تحميل مناصب هذه المناصب فضلا عن تكاليف التي كانت ستستنفد تلك الأملاك .

ولقد امتد الإرغام إلى تأجير الأراضي كذلك لأنه بقدر ما ساءت حال الزراعة ولاقى الأهالي بثقل الأعباء المفروضة عليهم حتى فر الكثيرون منهم من قراهم ، ازدادت كمية مساحة أراضي الدولة التي لم يتقدم أحد لاستئجارها وزراعتها . ومع ذلك سبقت الحكومة الضرائب والإيجارات بالمعدل القديم ذاته وأخذت تلجأ إلى وسيلتين ، وإحداهما إرغام سكان القرى على زراعة الأراضي غير المستأجرة الموجودة في قرية مجاورة واعتبار القرية الأولى مسئولة جميعها عن زراعة تلك الأراضي ودفع إيجارها . أما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن إلحاق قطع من أراضي الدولة بالأراضي الخاصة وإرغام أصحاب هذه الأراضي على زراعة تلك القطع وتأدية إيجارها . وفي هذه الحالة كانت المسئولية أول الأمر مسئولية فردية لكنها غدت مع الزمن مسئولية جماعية . وترينا الوثائق أن إيجار أراضي الأفراد هبط هبوطاً كبيراً في النصف الثاني من القرن الثاني . ومع تغيير ذلك أنه عندما توسعت الحكومة في الاتجاه إلى الإرغام للتأجير وفشلها أصبح يتعذر على الأفراد الحصول على مستأجرين لأراضيهم فاضطروا إلى ترك يطاردها تحت بعض الأعباء على مستحقيها .

وليس تاريخ مصر الاقتصادي في خلال القرن الثالث من حكم الرومان (من كومودوس إلى أول حكم دقلديانوس أي من ١٨٠ — ٢٨٤) سوى سلسلة متصلة الحلقات لاضمحلال مستمر يسير من سيء إلى أسوأ بسبب ازدياد عبء الضرائب والتوسع في تطبيق مبدأ الإلزام في مختلف النواحي ، مع إهمال نظام الري فازداد حال الزراع سوءاً وأصبح معظمهم على فقر حتى أن كثيرين منهم لم يجدوا مناصاً من أن يفعلوا ما فعله غيرهم من قبل أي الفرار من مواطنهم مفضلين أن يعملوا في المدن أجراء أو تكسب قوتهم من السطو والنهب ، ومن ثم تركت مساحات واسعة من الأراضي دون زرع . مما حدا بالإمبراطور كركلا إلى أن يصدر في عام ٢١٥ قراراً يقضي بطرد الزراع من الإسكندرية ليعودوا إلى الأرض التي هجروها . وإذا كان هذا القرار قد نجح في تحقيق الهدف الذي أصدره من أجله فلا بد من أن يكون قد ترتب عليه ارتفاع أجور العمال وتكاليف الإنتاج في الإسكندرية وعلى كل حال فمن المحتمل أن يكون هذا النجاح طويلا في وقف تيار الهجرة إلى الإسكندرية .

فقد كانت ... تقع على عهدة المجتمع عاملان رئيسيان أحدهما حاجة مراكز الحضارة بوجه عام والاسكندرية بوجه خاص الى المواد الغذائية ، والثاني الأجور ... المعيشة ونقص الأيدي وسوء الحال في مناطق الزراعة حيث كان يزيد الحال سوءا على سوء أن الحكومة كانت لا تعفى جباة الضرائب ... من مختلف نواحي البلاد حتى بعد فرار الأهالي وكانت نتيجة ذلك أن أخذت نسبة الضرائب تزداد على من بقوا في بلادهم بسبب الذين كانوا يفرون منها وان أمعنت الحكومة في الالتجاء الى سلاح الارغام لزراعة الأراضي المهجورة . ومن أكبر نصيبه كان يقع على الناحيين الذين كانوا يرغمون على الاشراف على جباية الضرائب في قراهم ، اذ أن الحكومة كانت تستولى على ممتلكاتهم حتى تسدد الضرائب جميعها ، وليس أبلغ في الدلالة على تصوير سوء الحالة الاقتصادية في خلال القرن الثالث من القرائن المستمدة من افقار الريف من سكانه ، وما تحدثنا به الوثائق عن فرار المكلفين بتولى المناصب الحكومية المعينة أو تهديدهم بالفرار ومن الصعوبة الشديدة في شغل المناصب البلدية الى حد أن سلطات ... عندما عجزت عن ... مواطنيها لشغل المناصب البلدية هناك لجأت الى ... القرويين على ذلك برغم القانون الذي كان سبتميوس سفيروس قد أصدره

يحظر ذلك ؛ فرفض القرويون الاستجابة الى ما أمروا به ... شكواهم الى الحاكم العام فنظر القضية في النصف الأول من عام ٢٥٠ . وعندما ... سوى الدفاع عن ... التي تذرع القرويون ... كانت ... لا تزال ... الحاكم العام ... الرجاء ، أو على الأصح لتدهوره ؛ قائمة بالنسبة للقرى والمدن على السواء ؛ مما يدل على أن الأزمة الاقتصادية كانت عامة شاملة . ولا أدل على تدهور مرافق البلاد الاقتصادية بوجه عام من تدهور قيمة العملة سريعا في خلال هذا القرن ، فكانت لذلك أيضا آثار بعيدة المدى في الصناعة والتجارة الخارجية فقد صحبه غلاء المعيشة واستبدال نظام الاقتصاد الطبيعي تدريجيا بالنقود . واذا كانت قد بذلت بعض المحاولات في أواخر القرن الثالث على عهد الامبراطور بروبوس (٢٧٦ - ٢٨٢) لاصلاح وسائل الري مما أدى الى انتعاش كثير من القرى فان هذا الانتعاش كان محدودا قصير الأمد ولم يفلح في وقف تيار التدهور بدليل أنه قد جاء في خطاب ... من حوالي عام ٢٨٩ أن ... « مراقب التموين » في أوكسيرنخوس على ... تدريجيا . فلا عجب اذن أن ... البلاد ... السياسة الحرفة التي انتهجتها روما في

خلال الثلاثة القرون الأولى من حكمهم مما حدا بالامبراطور دقلديانوس الى ادخال تعديلات جديدة على نظام الحكم في مصر

و بسبب هذه الصورة التي حاولنا اعطاءها لحالة مصر الاقتصادية في خلال العصر الروماني يجب أن نذكر شيئا عن العبيد ونتبين القرائن من أن استخدام العبيد في الزراعة كان قليلا نسبيا ويكاد أن يكون مقصورا على الضياع الكبيرة وحتى في هذه الضياع لم يستخدم العبيد على نطاق واسع وكيف يمكن تفسير ذلك في ضوء ما يحدثنا به الوثائق عن فرار الأهالي من الأرض وترك مساحات واسعة غير مزروعة ؟ أو بمعنى آخر لماذا لم يلجأ الناس أو الحكومة الى العبيد لاستثمار الارض التي هجرها مزارعوها الأحرار ؟ ليس غير تفسير لذلك ان الناس كانوا يخشون اضافة تبعات جديدة الى تبعاتهم دون الحصول على ما يعوضهم عن ذلك ، وان الحكومة كانت تفضل الالتجاء الى سلاح الارغام لاستثمار تلك الأراضي فمن ناحية كانت هذه الوسيلة أقل كلفة وأكثر ربحا وأضمن عاقبة من استخدام العبيد ، ومن ناحية أخرى لعل الحكومة كان يراودها الأمل في أن يؤدي استمرار الهاربين من ازدياد المتاعب على ذويهم الذين بقوا في قراهم الى وقف هرب المزارعين

ويبدو أن مساهمة العبيد في النشاط الصناعي كان مقصورا على المدن الاغريقية وخاصة الاسكندرية ، لكن ليس معنى ذلك أن الصناعة في تلك المدن لم تقم الا على أكتاف العبيد وانما معناه ان العبيد أسهموا مع الأحرار في الصناعة هناك. أما في مراكز الصناعة الأخرى فيبدو بوجه عام أنه لم يوجد للعبيد مجال فسيح بسبب وفرة الأيدي العاملة وقلة أجورها وبراعتها الموروثة بفنون الصناعة. ويبدو ان عددا كبيرا من العبيد كانوا يشتغلون خدما في المنازل وكتبة ومحاسبين في المصانع والمتاجر وراقصين وموسيقيين في الفرق التي كانت تجوب البلاد للترفيه عن الناس في الأعياد والحفلات العامة

وكان العبيد يعاملون معاملة حسنة من حيث الضرائب والأعمال السخرة في تطهير القنوات وصيانة الجسور. ولا توجد لدينا أدلة كثيرة عن تجارة العبيد في مصر وان كانت الوثائق تشير الى وجود تجارة نشيطة فيهم والى أن الحكومة كانت تفرض ضرائب دقيقة على تصديرهم وتفرض غرامات معينة على الذين يخالفون تعليماتها. وكانت أثمان العبيد تتفاوت تفاوتا كبيرا تبعا لعمره وصحته ومهارته وكذلك حسب نوعه ذكرا كان أم أنثى

الفصل الخامس

النظـــــام المــــالي

أولاً — الادارة المالية

كان الحاكم العام يرأس الادارة المالية في مصر مثل ما كان يرأس كافة فروع الادارة الأخرى ولم يكن من اختصاصه تحديد مقدار الجزية التي تدفعها مصر فقد كان من اختصاص الامبراطور الذي كان يقرر سنويا مقدار الدخل ويصدر أوامر مفصلة عن كيفية جمعه وكانت هذه الأوامر توجه الى الحاكم العام فيبعثها الى قواد المديريات وسائر المختصين في المدن والقرى ، ويسهر على تنفيذها . لكن لما كان الحاكم العام مسئولا آخر الأمر عن جمع الضرائب وموافاة روما بنصيبها وكانت تظهر أحيانا ظروف مثل حالة النيل تؤثر في المحصول وتستتبع انقاص الضرائب فانه أوكل الى الحاكم ربط الضرائب في كل منطقة وتعديلها تبعا لمقتضيات الأحوال على ضوء التقارير التي كانت ترفع اليه من المختصين . وكان للحاكم العام مساعدان رئيسيان في الشئون المالية وهما الديويكيتس والايديولوجوس اللذان يبدو أنهما قد بقيا من عصر البطالمة وإن كان قد طرأ على اختصاصاتهما بعض تغيير الذي اقتضاه تغير الظروف . ففي عصر البطالمة كان الديويكيتس على رأس الادارة المالية وكان الايديولوجوس مرءوسه يختص بجانب معين من الشئون المالية . أما في عهد الرومان فقد انتقلت سلطة الديويكيتس الى الحاكم العام وهبط مركزه الى المرتبة الثانية ويرجح أنه أصبح مساويا للايديولوجوس في مرتبته وإن كان يصعب تحديد الصلة بينهما ومعرفة مدى اختصاص كل منهما لكن يبدو أن الديويكيتس كان الرئيس الفعلي للادارة المالية وأن الايديولوجوس كان يختص بالفصل في قضايا الخزانة العامة ، وبادارة الأراضي التي آلت الى الخزانة العامة وكذلك بالاشراف على أراضي المعابد ودخلها ، ولكي يتاح له الاضطلاع بهذه المهمة الأخيرة كان يحمل لقب كبير كهنة مصر . وعلى كل حال يبدو من الاسراف في الرأي اعتبار الديويكيتس والايديولوجوس مستشاري الحاكم الفنيين في الشئون المالية ولا يبعد أنهما كانا رقيبين عليه لحساب الامبراطور . وكان هذان الموظفان يشرفان على عدد كبير من المرءوسين الذين كانوا ينتشرون في مختلف

أنحاء البلاد يكفهم نصوص على اتصال مباشر بالادارة المالية المركزية في الاسكندرية ، واذا كان من الممكن تبين مهام بعض هؤلاء المرؤوسين مثل بروكيراتور (procurator) نيوبوليس وكان يشرف على نقل القمح من داخل البلاد الى المخزن العام على مقربة من الاسكندرية لترسله بشحنه الى روما ، ومثل بروكيراتور أو ابيتروبوس procurator usiacus وكان المسؤول الأول للايديولوجوس في الاضطلاع بمهام منصبه ، فانه يتعذر معرفة اختصاص بعض الآخر من هؤلاء المرؤوسين .

وقد سبقت الاشارة الى ان قائد كل مديرية كان مسئولا عن تقدير الضرائب وجمعها واستغلال أراضي الحكومة واحتكاراتها في مديريته والى انه كان لكل مديرية نومارخيان كانا يشرفان على تقدير وجمع مختلف الضرائب في المديرية . وكانت الادارة المالية المركزية في الاسكندرية هي التي تقدر حساب الضرائب المختلفة التي تجبى من كل مكان وشخص في مصر على ضوء البيانات التي يقدمها كاتب القرية والكاتب الملكي في المديرية ويراجعها النومارخيان ، والقائد بعد أن يساعده عدد من عمال الثانويين مثل الا sographos والا epikrates وكانا مختصين ببحث حالة الأشخاص الذين تفرض عليهم ضريبة الرأس ، والا geometres والا horiodeiktes والا episkeptes

وكانوا يختصون بالمسائل المتعلقة بمساحة الأراضي وحدودها وانتقال ملكيتها أو تغيير نوعها من أجل تقدير الضرائب على الأراضي ويختص الوثائق عن اشراك موظفين الآخرين في تحديد ما يدور حول كانت تؤلف عسورا من السكان المحليين لبحث حالة الأراضي بعد الفيضان وتقدير الضريبة المستحقة عليها .

وقد ذكرنا آنفا انه بعد انشاء مجالس الشورى في عواصم المديريات انتقل الى كل مجلس من هذه المجالس المسئولية عن الشئون المالية في المديرية بأجمعها .

ثالثا ـ هدف النظام المالي :

وتختلف القواعد التي أقام عليها الرومان نظامهم المالي في مصر اختلافا جوهريا عن القواعد التي اتبعها البطالمة وذلك لعدة أسباب أهمها أولا ان البطالمة كانوا يستهدفون بناء دولة قوية مستقلة في مصر تكفي نفسها بنفسها وتستطيع الذود عن حياض استقلالها السياسي والاقتصادي فكانوا يريدون من خزائنهم لتحقيق أهداف سياستهم وسداد تكاليف حكومتهم ونفقات قصورهم وتبعا لذلك كانوا ينفقون في مصر أكثر ما يحصلونه منها . اما على عهد الرومان فان مصر غدت جزءا من امبراطورية تحكم من روما وكان الأباطرة يستهدفون تقوية مركزهم وتقوية الامبراطورية ومواجهة حوائج

وما لبث أن تعرض بعضهم من جراء الحروب الأهلية ، وتدهور حالة البلاد الاقتصادية بوجه عام والإسكندرية بصفة خاصة فعملوا على استغلال مصر في أقصى حد ، ونال جانب كبير من ثروتها في روما تحقيقاً لهذه الأهداف . والسبب الثاني أن البطالمة كانوا يستمدون جانباً كبيراً من دخلهم من الحرف والصناعات الكثيرة التي احتكروها وكذلك من المكوس والعوائد الجمركية التي فرضوها على الواردات . أما الرومان فكانوا يرعون أبناء الطبقات الاجتماعية الجديدة في إيطاليا من أصحاب رءوس الأموال الذين كانوا يستثمرون ثروتهم في الصناعة والتجارة ويتطلعون إلى استغلال السوق المصرية . فلا عجب أن النظام المالي الذي وضعه الرومان لمصر لم يكن إلا أداة لاستنزاف ثروة البلاد بطريقة أو أخرى ، وأنه لم يكن من شأن التعديلات التي أدخلت على تطبيق هذا النظام إلا جعله أشد فتكاً وضراوة كلما ازدادت البلاد فقراً

ثالثاً — نظام الأراضي

ولكي نتبين موارد الدولة من الزراعة يجب أن نأتي أولاً على نظام الأراضي . ولا شك أن نظام الأراضي في عهد الرومان يختلف عنه في عهد البطالمة . وإن كان قد حفظ بعض مظاهر النظام القديم فإنه قضى على بعضها الآخر وأدخل عليه مظاهر جديدة

وكل ما يمكن استنتاجه من أكداس الوثائق عن هذا النظام سنلخصه في تقسيم الأراضي على النحو التالي في ضوء معلومات [illegible] .

١ — أراضي الدولة ، وكانت تتألف من قسمين من الأراضي : القسم الأول « الأراضي الملكية » التي كانت فيما سبق ملكاً للبطالمة وأصبحت بعد الفتح الروماني أرضاً أميرية تملكها الدولة . وكانت الفئة الأخرى عبارة عن الأراضي التي انتزع الأباطرة ملكيتها من المعابد ومن بعض أرباب الإقطاعات العسكرية ومن بعض الرومان أصدقاء أنطونيوس . وقد كان يباع جانب من هذه الفئة من الأرض ويفرض عليه من الضرائب ما كان يفرضه على أراضي أرباب الإقطاعات وغيرها من أراضي الأملاك الخاصة لكنه كان يحتفظ بالجانب الأكبر من هذه الفئة من الأرض ويطلق عليها اسم « الأراضي العامة » (ager publicus) . وكان الديويكيتس يشرف على إدارة « الأراضي الملكية » والإديولوجوس على إدارة « الأراضي العامة » وكان هذان الموظفان يؤجران هذه الأراضي إلى مستأجرين إما يقومون بأنفسهم على استغلالها أو يؤجرونها من الباطن . وقد بقي كثير من عقود الإيجار التي كانت لمدة خمس سنوات . وكان مزارعو « الأراضي الملكية » يدعون « مزارعي الملكية » ومزارعو « الأراضي العامة » يدعون « مزارعي العموميين » إلا أنه سرعان

ترمي [illegible] الفرعين وأصبح
اللقب الذي يطلق على جميع [illegible] هذه
الأراضي كافة. وقد كان يحق [illegible] طرد
المستأجر في أي وقت يشاء ولأي سبب يراه
وإذا لم يتقدم أحد لاستئجار بعض هذه
الأراضي كانت الحكومة تلجأ إلى وسيلة من
اثنين واحدهما إرغام [illegible] القرى على
زراعة الأراضي غير المستأجرة الموجودة في
قرية مجاورة واعتبار القرية الأولى بأجمعها
مسئولة عن زراعة تلك الأراضي ودفع
إيجارها وضرائبها. أما الوسيلة الأخرى
فكانت عبارة عن [illegible] قطع من أراضي
الدولة بالأراضي [illegible] وإرغام أصحاب
هذه الأراضي على زراعة تلك القطع وتأدية
إيجارها وضرائبها

٢ — أملاك الإمبراطورية الخاصة ،
(Ge. ousiake) وكانت تتكون من الأراضي
التي كان [illegible] قد أغدقوها على أصحاب
الحظوة لديهم [illegible] أسرة [illegible] الأولى
منهم [illegible] بعضها [illegible]
البعض الآخر [illegible] من كبار الرومان. وقد
كان بعض [illegible] أفراد من
أسرة الإمبراطور مثل دروسوس [illegible] ،
وأصدقاء الإمبراطور مثل ميكناس [illegible]
من الأسرة [illegible] وكذلك بعض
[illegible] كان [illegible]
الأراضي [illegible] معفاة من
الضرائب

وفي منتصف [illegible] من القرن الأول
الميلادي [illegible] الأباطرة [illegible]
[illegible]
[illegible] على [illegible]
[illegible] في مركز [illegible]
بل قد [illegible] إلى حد [illegible] إلى [illegible] ،
[illegible] بوجه عام إلى منح الأراضي
لأشخاص [illegible] إلى
إهمال الأرض [illegible]
تيبريوس حتى كان [illegible] هذه الأراضي — إن
لم يكن كلها — قد عاد إلى حوزة الإمبراطور
وقد اتبع الأباطرة سياسة جديدة [illegible] طائفة
من المزارعين حق استغلال تلك الأراضي مدة
طويلة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الأطيان إلى حق استغلال
الأراضي وما يتبع ذلك من ازدياد دخل
الحكومة

٣ — أراضي الأملاك العامة (Ge. ousiake
[illegible]) وكانت تتكون من عدة فئات

١ — الاقطاعات العسكرية التي لم تنتزع
ملكيتها ولا يعرف [illegible] الأساس الذي
[illegible]
الاقطاعات [illegible] وكل [illegible]
هذه الأراضي [illegible] أشخاص مختلفين
كان استغلال تلك الأراضي [illegible] من الإعفاء
[illegible] الخدمة في الجيش الروماني ومن ضريبة

رأس. ومن الاطلاع على استغلال الأراضي الملكية والعامة المجاورة لها تبين أنه كان يستخدم لها مستأجرون، وكان عليهم عند انتقال ملكيتها إليهم أن يدفعوا ضريبة خاصة Tarrolochismos، وكان بين هذه الأراضي تؤدى الضرائب التي فرضت عليها منذ عهد البطالمة.

ب — الاقطاعات التي منحت لضباط ومحاربين الرومان.

جـ — الضياع التي كان الأباطرة في بعض الأحيان يقتطعونها من أراضي الدولة ويمنحونها لبعض الأفراد مع احتفاظ الدولة بحق اسمي لملكيتها. ويصعب تحديد كيفية معاملة هذه الضياع من حيث الضرائب لكن يرجح أنها لم تدفع جميع الضرائب بصفة واحدة وأن هذه المعاملة كان يتوقف على شروط المنحة في كل حالة.

د — جانب من الأراضي التي ترغب الدولة في تمليكها وباعتها.

ويبدو أن نطاق أراضي الأملاك اتسع في التدريج ولا سيما في القرنين الثاني والثالث. وفضلا عن توسع الحكومة في إلزام الأهالي بشراء مساحات قد شجع هذا الاتجاه أنه كان يسمح على الذين يشترون مساحات أن يكونوا لديهم ملكا خصوصيا لهم أو أرضا تخصهم بعد عدم نهوضهم بالتزامات مساحتهم.

ﻫ — أراضي المعابد: يرى بعض المؤرخين أن بترونيوس، ثالث حكام مصر في عهد أغسطس، نزع ملكية جميع أراضي المعابد وأصبحت جزءا من الأراضي العامة. وإذا كان لا شك في أن ملكية جانب كبير من أراضي المعابد قد انتزع، فالأرجح أن أغلب ما انتزع ملكيته كان من الأراضي التي منحها البطالمة الأواخر للمعابد وكان الكهنة أنفسهم يقومون بإدارتها. أما الأراضي المقدسة القديمة فقد بقيت ملكا للمعابد إلا أن الحكومة هي التي كانت تتولى إدارتها على نحو ما كانت عليه الحال في الشطر الأول من عصر البطالمة، لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من الأراضي المقدسة لسد حاجات المعابد، وكانت الحكومة تجبي ضرائب محددة من هذا النوع من الأرض. في حين أن ذلك الجزء من أراضي المعابد الذي انتزعت ملكيته كان يؤجر مثل غيره من أراضي الدولة ولم تحصل الحكومة منه إلا على الإيجار.

و — أراضي الدخل prosodou ge ويمكن إرجاع نشأة هذه الفئة من الأراضي إلى منتصف القرن الأول على الأقل لكن ماهيتها ما زالت مثار الجدل بين الباحثين. ومع ذلك يبدو محتملا أنها كانت أراضي آلت إلى التاج مستكبة أي مؤقتا أو دائمة بسبب أو لآخر وكانت تؤجر مثل أراضي الدولة وإنما نظير إيجار مرتفع جدا.

ز — أراضي المدن: ويرجح أن هذه الأراضي كانت تتكون من الأراضي التي كان يملكها مواطنو تلك المدن وآلت إلى مدنهم

بسبب افتراض نسل أصحابها أو تركهم إياها هبة لتلك المدن والقرى . ففي القرن الثاني كانت مدينة الإسكندرية تمتلك أرضاً ورثت ملكيتها بوضعها في الفيوم . وفي القرن الثالث كانت كل من مدينتي أوكسيرينخوس وهرموبوليس ماجنا يملك أرضاً . وكانت هذه المدن تؤجر أراضيها وتعتبر مسئولة عن الضرائب المستحقة عليها أمام حكومة المديرية التي توجد فيها الأراضي شأنها في ذلك شأن الأفراد الذين يملكون أراضي ويؤجرونها

وقد كان دخل الدولة من الأراضي يتألف من إيجار أراضيها ومن الضرائب التي كانت تفرضها على أنواع الأراضي الأخرى وبعض الضرائب التي كانت تفرضها على أراضيها . وكانت الضرائب التي تفرضها الدولة على الأراضي تتوقف على نوع المزروعات ومقدار جودة الأرض وحالة فيضان النيل . وبذلك كانت الأراضي تنقسم قسمين رئيسيين أحدهما أراضي البساتين والآخر الأراضي الزراعية . وكان القسم الأخير ينقسم أيضاً قسمين أحدهما الأراضي التي تغمرها المياه والآخر الأراضي التي لا تغمرها المياه . ولا جدال في أن الأراضي التي تغمرها المياه كانت عبارة عن الأراضي التي تقع في الحياض وتغطيها مياه الفيضان . أما القسم الآخر فأغلب الظن أنه كان عبارة عن أراضي تقع في الحياض ولكنها مرتفعة فلا تغطيها المياه إذا كان منسوب الفيضان منخفضاً . لكن بعض الباحثين يرى أنه من الجائز أن هذه الأراضي أو بعضها كانت تقع خارج الحياض وتروى بالشادوف

ومن أجل ذلك كله كان كاتب القرية مكلفاً بإعداد سجل بكافة أنواع الأراضي التي في زمام قريته وبموقع كل نوع منها ومساحته وأربابه ومقدار استحقاق الحكومة من إيجارات أو ضرائب عن كل قطعة أرض في منطقته وكذلك بإعداد تقرير سنوي عن محاصيل تلك الأراضي وعما كان يطرأ على حالتها من تغيير . وكان السجل يراجع سنوياً لجعله مطابقاً للواقع . وتوجد أمثلة كثيرة لالتماسات قدمها أصحاب الأراضي أو مستأجروها يصفون فيها حالة أراضيهم ويطلبون تخفيض الإيجار أو الضرائب بسببها . وفي الظروف غير العادية مثل تأخر الفيضان عن موعده أو هبوطه دون منسوبه العادي كان الحاكم العام يصدر تعليمات لتقديم مثل هذه الالتماسات . وكانت توجه للقائد أو الكاتب الملكي أو كاتب القرية . وكان كاتب القرية أو شيوخها يقومون ببحث أولي يقدم على أثره كاتب القرية تقريراً عن حالة أراضي قريته والضرائب أو الإيجارات المستحقة عن كل جزء منها . وكان هذا التقرير يتخذ أساساً للفحص الذي تقوم به لجنة تشكل لهذا الغرض . وتقدم لكاتب القرية تقريراً بنتائج فحصها فيقوم بتعديل سجله وفقاً لهذا التقرير ويبلغ النسخة للقائد

والكتاب الملكي بتصحيح قوائم الضرائب والأعباء.

ونعرف من قوائم مختلفة أن كاتب القرية كان يعتمد على جهود المحتسبين بعمل سجلات مفصلة بمواقع من حيث التغييرات في ملكية الأراضي أو استئجارها أو مستأجريها.

وكانت أهم ضرائب الأراضي هي ضريبة الحبوب وكانت تجبى نوعاً من كل ما يزرع حبوباً من أراضي الامتلاك الخاص وأراضي الدولة والأراضي المقدسة التي كان الكهنة يقومون على استغلالها ، وكان دخل هذه الضريبة يكون جانب من جزية القمح التي كانت مصر تدفعها لروما. وكان على الدولة من يؤجر أراضيها يدفع أيضاً نوعاً ويكون الجزء الباقي من الجزية. وكان معدل هذه الضريبة يتراوح بين ثلاثة أرباع الأردب وأردبين عن كل أرورة تبعاً لحالة الأرض والنوع الذي تنتمي إليه. وكان على الزراع أن يحملوا كل محصولهم إلى جرن القرية حيث يدرس تحت إشراف موظفي الحكومة وشيوخ القرية وبعد حصر ما تحتويه على استحقاقها من ضرائب أو إيجارات كان يطلق سراح باقي المحصول لكي المزارعين كانوا مسئولين عن نقل استحقاقات الدولة إلى المخازن حتى يصبح تحت تصرفه نقله إلى الإسكندرية ولا ينقل محصولهم إلا بعد حصولهم من أمين المخزن Sitologos على إيصال باستلام ما يستحق عليهم.

وكان نقل القمح يتطلب جمالاً وحميراً لنقله من المزارع إلى المخازن حيث ثم من المخازن إلى أقرب مجرى مائي حيث كانت تحمله سفن صغيرة إلى النيل فتقوم بنقله سفن كبيرة إلى الإسكندرية. وكانت الدولة تمتلك بعض دواب الحمل لكن يبدو أنها لم تكن تسد الحاجة في وقت الحصاد وبذلك كانت السلطات المحلية تفرض على أصحاب الجمال والحمير والسفن الصغيرة أن تضع تحت تصرفها ما يكفيها من هذه الوسائل لنقل القمح في النيل حيث كانت تتولى أمر شحنه ونقله نقابات الملاحين تحت إشراف الحكومة التي كانت تلزمهم بذلك ويبدو أن اليهود والإسكندريين كانوا يسهمون في هذه العملية. ولكي نتبين ضخامة هذه العملية حسبنا أن نذكر أنه في عام ٤٢ نقل من أحد أقسام مديرية الفيوم ربع مليون أردب من القمح ، وأنه في عهد أغسطس كان مقدار الجزية النوعية التي تدفعها مصر سنوياً يبلغ عشرين مليون (modii) ، أي ستة ملايين أردب. وفي كل ربيع كانت قوات أرباب السفن في الإسكندرية تتولى نقل هذه الجزية النوعية من الإسكندرية إلى روما. ويبدو من اليسير أن نتبين على وجه الدقة من الذي كان يتحمل نفقات نقل الأعباء والضرائب النوعية من المزارع حتى تصل إلى روما لكن يبدو أن مستأجري

أراضي الدولة وأرباب الأراضي كانوا يتحملون نفقات النقل حتى النيل على حين كانت الحكومة تتحمل نفقات النقل من موانئ النيل حتى المخزن الرئيسي في الاسكندرية ومن هناك الى روما.

وكان الذين يملكون أراضيهم بساتين أو كروما أو نخيلا أو بعلا أو زيتونا يخضعون بطبيعة الحال لضرائب تدفع نقدا. وكانت احدى هذه الضرائب (geometria) تدفع في الفيوم بمعدل ٥٠ دراخمة عن كل أرورة من أراضي الكروم و ٢٥ دراخمة عن كل أرورة من باقي أنواع أراضي البساتين لكن هذا المعدل لم يكن واحدا في كل مكان ولا عن كل نوع من أنواع الأراضي التي تدفع هذه الضريبة. وكانت أراضي البساتين تدفع ضريبة أخرى (apomoira) لا نعرف شيئا عن معدلها في مصر العليا لكن نعرف انه كان في الفيوم ٣٠٠٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة من أراضي الكروم و ١٥٠٠ دراخمة عن كل أرورة من باقي أنواع أراضي البساتين. وعندما كانت هذه الضريبة تجبى بالعملة الفضية كان هذان المبلغان يعادلان على التوالي عشر دراخمات وخمس دراخمات فضية. وكانت تجبى عن كافة أراضي البساتين سواء أكانت ملكا للدولة أم للأفراد ضريبة ثالثة (eparourion) بمعدل واحد قدره ٢٠٠٠ دراخمة برونزية (أي ٦ دراخمات فضية) عن كل أرورة من هذه الأراضي باستثناء الأراضي المزروعة بالقمح [illegible] الزيتون فإنها كانت تدفع ألف دراخمة عن كل أرورة.

وكانت تفرض على كافة أنواع الأراضي، ما عدا الأراضي المعفاة عفوا تاما، ضريبة (naubion) كان مقدارها لا يتحدد تبعا لنوع غلة الأرض وإنما تبعا لنوع ملكيتها. وكان أرباب هذه الأراضي يؤدون هذه الضريبة لقاء اعفائهم من العمل شخصيا في السخرة على الجسور والقنوات. ويبدو من الوثائق انه في مديرية الفيوم كان أرباب الاقطاعات يدفعون ١٠٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة وبالتالي أرباب أراضي الامتلاك الخاص يدفعون ١٥٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة لكن ابتداء من عهد أوكتافيانوس [illegible] من عام ١٠٧ - ١٠٨ ارتفع معدل هذه الضريبة كان ٢٠٠ دراخمة عن كل أرورة. ويستوقف النظر ان مزارعي الأراضي الملكية كانوا يدفعون أيضا ١٥٠ دراخمة عن كل أرورة مما يوحي بأن هذه الفئة من المزارعين كانت تعفى من السخرة لقاء دفع هذه الضريبة التي لم تكتف بها الحكومة الرومانية من أجل انشاء وصيانة الجسور والقنوات فقد كانت تفرض لهذا الغرض أيضا ضريبة (chomatikon) بمعدل ثابت مقداره ٦ دراخمات و ٤ أوبولات على كل شخص غير معفى من الضرائب.

(١) [illegible] الصلة الوثيقة بين الزراعة

والحيوان ليس هنا أنسب مكان للكلام عن موارد الحكومة من الحيوان في العصر الروماني . وحسبنا أن نذكر أن الدولة كانت تملك دوابا للحمل وليس في الوثائق ما يدل على ان الحكومة كانت تؤجر هذه الدواب للأفراد . وكانت للدولة تملك أيضا عددا كبيرا من الأغنام والماعز تشير الأدلة الى أن الحكومة كانت تؤجرها لمستأجري أراضيها لقاء أجر معين سنويا . وكذلك في القرن الثالث عندما أحدثت الضياع الكبيرة تنتقص الملكيات الصغيرة وتلك الأجزاء من أراضي الدولة التي أصبح يصعب استغلالها استغلالا مثمرا كان أصحاب هذه الضياع يؤجرون أغنامهم ومعيزهم لمستأجري أراضيهم ويتبين من الوثائق ان عامة الأهالي كذلك كانوا يمتلكون الكثير من الحيوانات المستأنسة وأنه كان يتعين عليهم أن يقدموا سنويا للإدارة المالية في المديرية التي يعيشون فيها تقريرا عما يملكونه منها وأن الحكومة كانت تجبي ضرائب على الأغنام والماعز والخنازير والجمال والعجول والحمير والخيول بمعدل معين في كل مديرية عن كل رأس من كل نوع .

رابعا — الحرف والصناعات

لما كان هدف البطالمة هو أن يستمدوا من الصناعات والحرف أكبر قدر ممكن من الدخل فإنه لم يكن سياستهم في تنظيمها الا تحقيق هذا الهدف . ومن أجل ذلك كانوا يتبعون ثلاث وسائل فقد كانوا إما يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكارا كاملا وإما يسمحون لأحد الأفراد حق احتكار مزاولة صناعة أو حرفة ما في منطقة معينة ، أو يسمحون لمن يشاء مزاولة صناعة أو حرفة بذاتها ويفرضون عليهم أداء ضريبة عن مزاولة عملهم ودفع نسبة من أرباحهم . وفي الحالة الأخيرة كان لا يحدد عدد المشتغلين في كل صناعة أو حرفة الا عاملان كان أحدهما مقدرة كل منطقة على استيعاب انتاج أرباب الحرف والصناعات هناك . وكان العامل الآخر نقابات أرباب الحرف والصناعات فقد درجت نقابة أرباب كل حرفة أو صناعة على تحديد عدد المشتغلين بهذه الحرفة أو الصناعة .

ولا يزال تنظيم الحرف والصناعات في مصر أيام الرومان مثار جدل وخلاف بين العلماء بسبب قلة الأدلة وغموضها بحيث يتعذر الوصول الى نتائج قاطعة في ضوء معلوماتنا الحالية . وإذا كان يمكن القول بوجه عام بأنه في العصر الروماني اتبعت الحكومة في تنظيم واستغلال الحرف والصناعات الوسائل ذاتها التي كانت متبعة من قبل في عصر البطالمة فلا جدال في أنه قد طرأت بعض التغييرات على تلك الوسائل ، ولا في أن الحكومة تخلت عن عدد كبير من احتكاراتها الكاملة في عصر البطالمة ، فقد أوردها لمشتغليها فاكتفى بالاحتكارات الكاملة

في هذين العصرين ونتبين من قائمتي القائمتين أن عدد هذه الاحتكارات كان سبعة عشر في عصر البطالمة وأحد عشر في العصر الروماني. وعلى كل حال فان قلة الأدلة عن نظم الاحتكارات في العصر الروماني يوحي بتناقص أهميتها في هذا العصر.

وليس في الأدلة ما يثير الشك في أن الحكومة الرومانية انتهجت أثر البطالمة في احتكار استغلال المناجم والمحاجر واستخراج الملح والنطرون (nitron) والشب (alum). وهناك أدلة محدودة على أن الرومان كانوا كالبطالمة يفرضون ضريبة على مستهلكي الملح لقاء حق شراء الملح. ويبدو أنه حينما كانت تجبى ضريبة لقاء استهلاك سلعة من السلع كانت الحكومة تحتكر صنع هذه السلعة أو استخراجها في تلك الحقبة. ويبدو أن صناعة الجعة في عصر البطالمة تحولت بالتدريج شكل نظام يقوم على بيع حق إنتاجها للأفراد أو الجماعات وفرض ضريبة على المستهلكين، وأن هذا النظام ظل قائماً في العصر الروماني وإن كانت الدولة لم تعد تمد صناع الجعة بما كانوا يحتاجون إليه من الشعير على نحو ما كانت تفعل في عصر البطالمة.

وتوحي الأدلة بأنه في العصر الروماني لم تعد الحكومة تحتكر صناعة الزيت احتكاراً كاملاً على نحو ما كانت تفعل في عصر البطالمة، فكل ما لدينا من الأدلة يشير إلى أن معاصر الزيت كانت ملكاً للأفراد أو المعابد والى أن المشرفين عليها كانوا موظفون عنها بصفتهم. ويرى بعض الباحثين أن سيطرة الحكومة على هذه الصناعة في الفيوم كانت لا تتعدى السماح لمن الذي يريد بيع زيته أن يحصل على ترخيص بذلك من النومارخ. والواقع أننا نعرف أن صاحب معصرة زيت في قرية ترعلي بالفيوم دفع لقاء حق البيع في عام واحد ٨٠ دراخمة فضية و ٨٠ أوبولاً الى جانب بعض الرسوم الاضافية. لكن الوثائق تبين أيضاً أنه كانت تجبى أكثر من ضريبة واحدة على صناعة الزيت في الفيوم وغيرها من أنحاء البلاد. وإذا كنا نعرف أن إحدى هذه الضرائب كانت تجبى عن الأدوات المستخدمة في استخراج الزيت فإنه يتعذر معرفة ماهية بعض الأخرى. ولا يعني أن الحكومة كانت تبيح الاشتغال بصناعة الزيت من يشاء على أن يدفع على الأقل ضريبتين كانت إحداهما ضريبة مزاولة هذه الصناعة وكانت الأخرى ضريبة على الانتاج والقدر على أساس الأدوات المستخدمة في ذلك، هذا الى جانب ضريبة عن الترخيص ببيع الانتاج.

وتشير الأدلة الى أنه في بداية العصر الروماني كانت بعض مستنقعات الدلتا في حوزة الأفراد والى أنه في الفيوم كانت بعض المستنقعات على الأقل ملكاً خاصاً من ضيعة الأمير دروسوس ابن أغسطا وورثته ثم جرمانيكوس ويتبين من الوثائق أن الأمر عندما كانت

بيع منتجات هذه المصانع عن طريق ملتزم كان يشتري منها حق بيع هذه المنتجات ، وكان هذا الملتزم يبيع حقه لآخرين ، وإن هذه الحقيقة تمثل وضعا مشابها لما كانت عليه الامبراطورية التي تلتها . ويتبين من الوثائق أيضا أن الحكومة كانت تجبي ضريبة على الورق في الفيوم وفي الاسكندرية . ولا يبعد أنه مثل ما كانت عليه الحال في العصر التالي من عصر البطالمة كانت توجد في العصر الروماني مصانع حكومية وكذلك مصانع أهلية للورق وأن هذه المصانع الأخيرة كانت تبتاع من الحكومة حق مزاولة هذه الصناعة

وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار في مصر لكن أمر تنظيمها يكتنفه غموض شديد وكل ما يعرف أنه في الوجه القبلي كان المشرف على الأنوال (histomarch) يعطي النساجين رخصا باقامة أنوالهم ومزاولة عملهم ، وفي منتصف القرن [illegible] الآخرين ، وفي تأجير احتكار الدباغة يحصلون على حق الاشراف لمدة عام واحد على الأنوال في قرية رخلايس Arcbelais بالفيوم نظير أجر قدره ٣٠٠٠ دراخمة نقدية تدفع على أقساط شهرية متساوية الى جانب بعض الرسوم الاضافية ونعرف كذلك أن النساجين سواء في الفيوم أم في مصر العليا كانوا يدفعون على أقساط شهرية ضريبة يتبين أنها تؤدي الى عشرة ضريبة حتى [illegible] لكنهم لا يقفون على الأساس الذي كانت تجبى عليه الضريبة بعد حصادها ولا على تفسير ما يبدو في الوثائق من تفاوت في قيمة هذه الضريبة من مديرية الى أخرى . وقد كانت أقمشة الفيوم تلعب دورا هاما في الصادرات من بلاد المدينة على حين أنه لم يرد ذكر أقمشة الوجه القبلي في التجارة الخارجية على أهمية المحلي لا يستبعد أن الانتاج من أجل التصدير فقط كان يخضع لرقابة المشرف على الأنوال وقد كان نص هذا الرأي لو أن المشرف على الأنوال لم يوجد الا في الفيوم وحدها لكننا وجدناه في الوجه القبلي كما مر بنا ذكره

ومن ناحية أخرى تبين من وثائق لم يعثر عليها في الفيوم فحسب بل أيضا في أوكسيرنخوس وهرموبوليس أن الحكومة كانت تفرض على النساجين النسيج في كل منطقة مقادير معينة مما تحتاج اليه من ملابس لرجال الجيش والشرطة وغيرهم لقاء أجر معين ، مما يوحي بأن ضريبة النسيج لم يحصلها النساجون في مديرية بعينها فقط وإنما في كل أنحاء البلاد . وإذا كان ما تقدم من أدلة لا يدع مجالا للشك في اشراف الحكومة على صناعة النسيج واستغلالها استغلالا كبيرا فان غموض الأدلة لا يدع مجالا لتبين أسس تنظيمها الدقيق وإن كان الأثر [illegible] من صناعة الدباغة التي كانت تتصل بها اتصالا وثيقا ويبدو أن الحكومة كانت تبيع للشخص

واحد أو أكثر حق الاستغلال في منطقة معينة. ويوضح أن ذلك كان الحال أيضاً في صناعات الآجر والحلي الذهبية والعطور والصابون. فالوثائق تحدثنا عن تعهد شخص بأن يدفع للحكومة ثماني دراخمات فضية إلى جانب بعض الرسوم الإضافية نظير حق صنع وبيع الآجر لمدة سنة في كركثويريس (Kerkethoeris) بالفيوم مع السماح له باستئجار هذا الحق لآخرين، وعن رجلين كانا يدفعان للحكومة ٣٦٤ درخمة فضية سنوياً نظير صناعة الحلي الذهبية في بوبسطس (Bubastos) بالفيوم لمدة أربع سنوات، وعن رجل يدعى كاستور كان قد اشترى من الحكومة نصف الحصة في حق بيع العطور وصنع المساحيق في إقليم ثيمستس بالفيوم فانضم إليه رجل يدعى سارابيون يشتري منه ربع هذا الحق باستثناء حق البيع في أيام السوق والأعياد.

وكانت الحمامات العامة في الوجه البحري ملكاً للأهالي أو المعابد أما في الوجه القبلي فكانت تملكها الحكومة أو تسيطر عليها تماماً. وفي الوجه البحري كان أصحاب الحمامات يدفعون للحكومة ضريبة قدرها نصف الأرباح أو ثلث الدخل، أما في الوجه القبلي فكان الأهالي يدفعون ضريبة ثابتة من جهة ضمان الحمامات العامة وصيانتها.

والأدلة الخاصة بصيد الأسماك مقصورة على منطقة الفيوم ويتبين منها أن الحكومة كانت تبيع حق مزاولة الصيد في كل منطقة، وكذلك كان الذين يشتغلون بالملاحة في النيل يبتاعون من الحكومة حق مزاولة عملهم في منطقة معينة.

ولا يتسع المقام هنا لتناول مختلف الصناعات والحرف، ويبدو أن كل ما يمكن استخلاصه من الأدلة هو أنه إذا كانت الحكومة الرومانية قد تركت عن كثير من الاحتكارات التي كانت قائمة في عهد البطالمة فإنها قد احتفظت ببعض هذه الاحتكارات وظلت على كل حال قابضة على ناصية مزاولة الحرف والصناعات المختلفة إلى حد أنه كان لا يتيسر لأحد مزاولة أي حرفة أو صناعة إلا بترخيص من الحكومة إما لقاء نسبة من الأرباح أو الدخل أو لقاء أجر ثابت، وفي بعض الحالات لقاء الاثنين معاً. وكانت الحكومة إما تعطي الترخيص مباشرة للذين يزاولون بأنفسهم أي حرفة أو صناعة أو تؤجر حق مزاولة صناعة أو حرفة ما أي بعبارة أخرى حق احتكار تلك الصناعة أو الحرفة في مدينة أو قرية لشخص واحد أو جماعة من الأشخاص لقاء ما كانت تحصل عليه من أجر معين أو تمنحه لعدد من الأفراد مختلفين في ذلك شكلاً. وكان هؤلاء المستأجرون إما يباشرون بأنفسهم حق مزاولة الحرفة أو الصناعة أو يؤجرون ذلك لغيرهم من الباطن. وجملة القول أن كل من كان يزاول أي حرفة أو صناعة كان يدفع عنها للحكومة

ضريبة واحدة أو أكثر وحتى الذين كانوا يحترفون الحرف والصناعات كانوا يدفعون هذه الضريبة بمجرد بلوغهم سن الرشد وكان كل الذين يزاولون صناعة أو حرفة من الصناعات والحرف الرئيسية يؤلفون نقابة سواء أكانوا رجالا أم نساء وكانت النساء تؤدي الضرائب المفروضة على أعضاء النقابة أسوة بالرجال

خامسا ـ التجارة

(ا) التجارة الخارجية :

تشير الدلائل الى أن الاسكندرية غدت في العصر الروماني أهم مركز تجاري في شرق البحر الأبيض المتوسط. ولما كان الرومان قد ألغوا المكوس الجمركية عندهم وكانوا يريدون تشـــــجيع التجـــــارة بين مصر والامبراطورية الرومانية بوجه عـــام وروما بوجه خاص فلا يبعد أن يكونوا على الأقل خفضوا المكوس الجمركية الفادحة التي كان البطالمة يفرضونها على الواردات الأجنبية من بلاد البحـــــر الأبيض المتوسط. ويحـــدث استرابون بأن السفن كانت تبحر من مصر الى روما مثقلة بالبضائع وتعـــــود اليها خاوية الوفاض أو بشحنات قليلة. واذا كنا لا نشك في صحة رواية استرابون عن الوقت الذي كتب فيه أي في بداية العصر الروماني فانه لا قلة الأدلة تتعذر علينا أن نقرر على وجه اليقين اذا كانت الحال قد استمرت على هذا المنوال بعد ذلك ولم تزد الواردات من الغرب، لكننا نميل الى الاعتقاد بأن الحال استمرت طوال العصر الروماني على ما كانت عليه أيام استرابون. وذلك لأن مصر يحصل على موارد الغنى لم تفتقـــــر الا الى الأخشاب الجيدة والمعادن وتبعا لذلك اقتصرت وارداتها من الغرب بوجه عام على هذه المواد فضلا عن بعض أدوات الترف أما صادرات مصر الى بلاد البحر الأبيض المتوسط فانها كانت تشمل الى جانب السلع الشرقية مقادير مختلفة من منتجاتها الصناعية مثل الورق والزجاج والمنسوجات والعقاقير، ومن منتجاتها الزراعية مثل الزهور والنبيذ فضلا عن الحمام والدواجن من أجل تقديم القرابين وكذلك التماسيح وحيوانات البحر وغيرها من الحيوانات المائية من أجـــــل الاستعراضـــات. ويحتمـــل أن مصر كانت تصدر كذلك جانبا من حبوبها علاوة عـــلى الجزية السنوية التي كانت روما تقتضيها منها.

ويجب الا يغرنا أن الجـــــزية النوعية والمالية كانت تلقى على موارد البـــلاد عبئا ثقيلا كان لابد من أن يؤدي سريعا الى تخريب هذه البلاد لو لم يعوض الى حد بعيد رسائل كان في مقدمتها زيادة الصادرات على الواردات والمكوس الجمركية وأرباح تجار الاسكندرية من التجارة الشرقية وتدفق السياح الذين كانوا يفدون بكثرة لمشاهدة معالم البلاد والاستمتاع بطقسها وكذلك تدفق الطلاب

الذين كانوا يأتون لتلقي العلم في الاسكندرية ، فضلا عن نفقات جيش الاحتلال والأداة الحكومية وإقامة المنشآت العامة وخفض تكاليف المعيشة وبالتالي نفقة تكاليف الانتاج استطاعت منتجات مصر الصناعية والزراعية أن تنافس منتجات عالم البحر الأبيض المتوسط . وهذا يرجح الى جانب يعلم أن الميزان التجاري كان في صالح مصر .

ويروى استرابون أيضا أن الاسكندرية كانت تحتكر التجارة مع الهند وبلاد الصومال . ومن المرجح أن جانبا كبيرا من التجارة بين الامبراطورية الرومانية والبلاد الشرقية كان يمر بمصر . ويحدثنا بلينيوس بأن التجارة مع الصين والهند وبلاد العرب كانت تستنزف سنويا من الامبراطورية الرومانية قدرا غير قليل من ذهبها وفضتها ؛ ومن الجائز أن المبلغ الذي ذكره بلينيوس لا يمثل ثمن كل الواردات الشرقية لأنه وفقا لهذا الكاتب نفسه كانت مصر تصدر منسوجاتها الكتانية لقاء وارداتها الشرقية ويتبين من مصادر أخرى أن مقادير الصادرات الى الشرق كانت كبيرة . ويحدثنا استرابون بأنه كانت تجبى مكوس جمركية على السلع الواردة الى مصر من الشرق والصادرة اليه وبأن أثمن الشحنات القادمة من الهند والحبشة وأعلى السلع ثمنا كانت تدفع أكثر المكوس الجمركية ارتفاعا مما يوحى بأن مقدار المكوس الجمركية كانت تتفاوت تبعا لقيمة السلع المستوردة . لكن من الجائز أن تكون هذه النظام قد تغير بعد عهد أغسطس الذي كتب فيه استرابون فاحد مصادرنا القديمة الذي يرجع فعلا الى تاريخ متأخر عن منتصف القرن الأول الميلادي يحدثنا بأن الحامية الرومانية في ليوكي كومي (Leuke Kome) كانت تجبى على الواردات مكوسا جمركية ثابتة قدرها ٢٥ ٪ من قيمتها . وقد أثير جدل كبير حول هذه المكوس التي كانت تجبى في ليوكي كومي لكنه لم يثر من الاعتراضات الجدية ما يدعو الى التشكك في جباية هذه المكوس المرتفعة هناك . ومع أنه لا توجد أدلة مباشرة عن المكوس الجمركية التي كانت تجبى في الموانى المصرية الواقعة على شاطىء البحر الأحمر ، إلا أنه في ضوء الرسوم الجمركية التي فرضها الرومان في ليوكي كومي لا يبعد أن يكون الرومان قد استبدلوا بالنظام البطلمي الذي كان يفرض مكوسا جمركية متفاوتة على السلع المختلفة وكان لا يزال قائما فيما يبدو أيام استرابون ، نظاما قوامه فرض مكوس جمركية ثابتة قدرها ٢٥ ٪ على مختلف السلع الشرقية الواردة الى الموانى المصرية . وعلى كل حال لا جدال في أن الرومان كانوا يجبون في الموانى المصرية مكوسا جمركية على التجارة الشرقية ، فالوثائق تحدثنا بأنه في عهد الامبراطور كلاوديوس كان حق التزام هذه

المكوس تدفع لجماعات من الملتزمين الرومان. وإذا كان من العسير معرفة نسبة هذه المكوس الجمركية عامة فمن الجائز أن المكوس الجمركية على الواردات الشرقية كانت تجبى منها على مستوى الواردات في الشرق بنسبة تفوق الصادرات لكي تقلل من حدة العجز في الميزان التجاري بين الامبراطورية الرومانية والبلاد الشرقية. ويحدثنا بلينيوس بأن السلع الشرقية كانت لا تصل الى روما الا بعد أن يتضاعف ثمنها مائة مرة مما يوحي بارتفاع المكوس الجمركية في مصر — طريقها الرئيسي الى روما — وضخامة أرباح تجار الاسكندرية الذين كانوا يقومون بدور رئيسي في هذه التجارة.

ومن العسير أن نتبين في ضوء معلومات الحالية النظام الذي كان متبعا في صادرات مصر ووارداتها في العصر الروماني أو الى أي مدى كانت الحكومة تشرف على تجارة مصر الخارجية لكن من المرجح أن كل من كان يشتغل في هذه التجارة كان يدفع للحكومة ضريبة أو أجرا لقاء الترخيص له بذلك أسوة بما كان متبعا في التجارة الداخلية.

(ب) التجارة الداخلية

ويتبين من الوثائق أنه كان يجب على كل من يبيع أي سلعة أن يحصل من الحكومة على ترخيص بذلك وأن يدفع للحكومة ضريبة عن كل شهر أو كل سنة. ومن العسير أن نتبين أساس تحديد هذا المبلغ لأنه كان يتفاوت في المكان الواحد تبعا لنوع السلعة كما كان يتفاوت كذلك من مكان الى آخر في السلعة الواحدة. ومثل ذلك أنه كان يتعين على كل من يبيع الزيت في أرسينوي أن يدفع للحكومة اثني عشر درخمة شهريا حتى نرى أنه في أوكسيرينخوس كان المحتكر لا يدفع الا ست درخمات في العام لقاء حق بيع الزيت. وقد سمحت الادارة بين الرجل الذي تعهد بدفع ٨٠ درخمة فضية و ٨٠ أوبول في العام لقاء حق بيع الزيت بالتجزئة في قرية هرقليا بالفيوم. وهكذا نرى أنه اذا كانت الحكومة أحيانا تسمح لعدد من الأفراد في الزيت بأن يشتغلوا بذلك ما دام يدفع كل ضريبة الترخيص بذلك كانت أحيانا أخرى تسمح لشخص واحد باحتكار البيع في منطقة معينة. وكانت الحكومة تمنح حق بيع السلع في كل منطقة من يتقدم لها بأكبر عطاء لقاء الحصول على هذا الحق.

وكان بائعو الخضروات في معبد قرية سكنوبايونيسوس (Soknopaiou Nesus) بالفيوم يدفعون ١٢ درخمة على حين يدفع بائعو الخضروات في قرية تبتونيس بالفيوم أنهم كانوا يدفعون ثماني درخمات ولديه وبولات. ونلاحظ أن تجار المنسوجات في أرسنوي كانوا يدفعون الضريبة أحيانا بمعدل ٣٦ درخمة شهريا وأحيانا أخرى بمعدل ٦٠ درخمة عن أيام في الشهر الذي

كانوا يدفعون فيه ٣٦ دراخمة كان شخص آخر يدفع ثماني دراخمات فقط على حين كان الشخص في أوكسيرنخوس ٤٠ دراخمة . ويجد أنه حيث كان يدفعون ضريبة مقدارها ٩ دراخمة سنويا كان أحد أولئك البالغين يدفع ثماني دراخمات فقط . وفي بعض الحالات كان ترخيص الحكومة بانتاج سلعة ما يشمل أيضا بيعها مثل الآجر والحلي الذهبية على نحو ما رأينا عند الكلام عن الصناعات والحرف .

ويتبين من مصادر الوثائق القديمة أنه كان يوجد مركز عند سخديا لجباية العوائد على التجارة المتبادلة بين الاسكندرية وداخلية البلاد ، ومركز في منف لجباية العوائد على التجارة بين مصر الوسطى والدلتا ؛ ومركز في هرموبوليس لجباية العوائد على التجارة بين مصر العليا ومصر الوسطى . ومعنى ذلك أن الرومان كانوا يجبون عوائد على التجارة المتبادلة بين الثلاثة الأقسام الرئيسية التي كانت البلاد تنقسم إليها وكذلك بين هذه الأقسام والاسكندرية باعتبارها وحدة منفصلة عن هذه الأقسام .

ويتبين أيضا من مصادرنا أنه كانت تجبى كذلك عوائد على تبادل السلع بين مديرية وأخرى . وإلى جانب ذلك كانت تحصل رسوم جمركية في بعض جهات البلاد لتجبى لأغراض مختلفة ، ففي الصحراء مثلا كانت تجبى رسوم لحراسة الطرق الصحراوية ؛ وفي منف وأسوان كانت تجبى رسوم جمركية نسبتها ... أما في قفط فقد كانت تحصل رسوم على جوازات السفر من هذه المدينة ومنها إلى البحر الأحمر . وكانت هذه الرسوم تتفاوت بحسب حالة كل مسافر ؛ فقد كان قائد السفينة يدفع ١٠ دراخمات والبحار العادي ٥ دراخمات وبناء السفن ٥ دراخمات والصانع ٨ دراخمات والعاهرة ١٠٨ دراخمة وزوجة الجندي ٢٠ دراخمة الخ . فقد كان يتعين الحصول على ترخيص بمغادرة البلاد وتفرض غرامات على الذين لا يحترمون هذه القاعدة .

سادسا — ضرائب شتى

وإلى جانب ما ذكرناه من الضرائب على الأراضي والحرف والصناعات والتجارة كانت الحكومة تجبي كذلك سلسلة من الضرائب المختلفة اذ يبدو أن الرومان لم يتركوا بابا دون أن يطرقوه لزيادة دخل الحكومة ويمكن أن نوجز بعض هذه الضرائب فيما يلي :

١ — ضريبة الرأس (Laographia) وكانت أهم الضرائب التي تجبى نقدا ونعتقد أنها لم تكن ضريبة استحدثها أغسطس وإنما ترجع إلى عصر البطالمة عندما كانت تعرف باسم آخر (Syntaxis) ومن المحتمل أن يكون أغسطس قد زاد مقدارها وفرضها على أشخاص كانوا معفيين منها حتى عهده ؛ فأول وثيقة ورد فيها ذكر لهذه الضريبة في العصر الروماني ترجع إلى عام ٢٣ – ٢٦ ق . م . ولقد كانت هذه الضريبة لا تجبى بمعدل واحد حتى في

المدينة الواحدة ولا في المدينة الواحدة فقد تختلف هذه المعدل من حي الى آخر في مدينة طيبة . وفي العموم كان المصريون يدفعون ٢٤ دراخمة أما أفراد الطبقات الممتازة من مواطني عواصم المديرية وسلالة أبناء الانتخاب فكانوا يدفعون ٢٠ دراخمة على حين يبدو أنه في مديرية أوكسيرنخوس كان المصريون يدفعون ١٦ دراخمة والفئات الممتازة ٢ دراخمة ، وانه في مديرتي منف وهرموبوليس كانت هذه الفئات تدفع ٨ دراخمات . وهكذا يبين أولا ، أن هذه الضريبة لم تفرض بمعدل واحد في كل أنحاء البلاد سواء على المصريين أم على الفئات الممتازة . وثانيا ، أن هذه الفئات لم تدفع دائما نصف ما كان المصريون يدفعونه وثالثا ، أنه في بعض المديريات كانت الفئات الممتازة تدفع أكثر مما يدفعه المصريون . أما المواطنون الرومان وعدد معين من كهنة كل معبد ومواطنو الاسكندرية وكما يبدو أيضا مواطنو المدن الاغريقية الاخرى فانهم كانوا يعفون من تلك الضريبة التي كان لا يدفعها الا الذكور الذين كان عمرهم يتراوح بين الرابعة عشرة وسن الاعفاء . ويرجح أن هذه السن كانت في ارسينوى الستين لكن يبدو أنه وصل الى الخامسة والستين ثم السبعين فيما بعد . ويبدو أنه كان يعفى أيضا من ضريبة الرأس أساتذة جامعة الاسكندرية والرياضيون والفائزون في مباريات الحفلات الدينية وكذلك بعض موظفي الادارة المحلية مثل الكاتب الملكي وكاتب الاقليم وكاتب القرية .

٢ — ضريبة التاج ، وتشير القرائن الى زوال هذه الضريبة بعد قيام حكومة الدولة الرومانية لكن سكان البلاد في عهد كركلا ترجع هذه الضريبة الى عهد البطالمة ونشأت عن تقديم هدية للملك نوعا أو نقدا بمناسبة ارتقائه العرش أو بمناسبة أخرى . ويحتمل انه في أوائل عهد الرومان كانت هذه الضريبة لا تجبى الا في مناسبات خاصة لكننا نتبين من الوثائق أنه منذ أواخر القرن الثاني أصبحت هذه الضريبة تجبى سنويا بانتظام حتى النصف الثاني من القرن الثالث عندما أصبحت تجبى كل خمس سنوات . وقد شهدت هذه الضريبة تطورا آخر وهو أنه على مر الزمن أصبحت تجبى من جميع أرباب الأراضي بدلا من جبايتها من فريق معين منهم . وقد وعد الامبراطور سفروس اسكندر بوقف جباية هذه الضريبة لكن يبدو أنه لم يلبث أن عدل عن ذلك لأن الوثائق تريد أنها جبيت على الأقل مرتين في عهده بعد صدور هذا الوعد .

٣ — ضريبة خاصة لاقامة تماثيل للاباطرة : فمن حين لآخر كانت تجبى أحيانا ضريبة لاقامة تماثيل للامبراطور الحاكم في مختلف المدن . وتبين من سلسلة من الوثائق عثر عليها في أسوان أن هذه الضريبة جبيت

هناك في عامي ١٠٤ و ١١٤ لإقامة تماثيل لتراجان ، وفي عام ١٢٨ لإقامة تمثال لهادريان ، وفي ١٤٠ لإقامة تمثال لأنطونينوس بيوس ، وفي عام ١٦٢ لإقامة تمثال لكل من أوريليوس وفيروس وذلك عندما جبيتها في الأعوام ١٣١ و ١٣٩ و ١٤٤ لطلاء بعض تماثيل الأباطرة بالذهب . ولقد كان مقدار هذه الضريبة قليلا إذ أن أكثرها ارتفاعا كان أربع دراخمات في عام ١٤٠ وعشر دراخمات في عام ١٦٢ لكن مهما كان مقدارها قليلا فلا شك في أن تكرار جبايتها كان يلقي عبئا ثقيلا على كاهل الأهالي الذي أبهظته كثرة الضرائب . وتشير القرائن إلى أنه كانت تجبى ضريبة مماثلة من أجل إقامة معابد للأباطرة .

٤ — وكان الرومان يفرضون ضريبة قدرها ٢ ٪ على كل ما يباع في الأسواق وكذلك ضريبة على بيع الممتلكات الثابتة يبدو أن مقدارها طوال القرنين الأول والثاني كان ١٠ ٪ من ثمن الشراء ثم زيدت في القرن الثالث . وكان الرومان يفرضون على الرهونات ضريبة قدرها ٢ ٪ . أما ضريبة ٥ ٪ التي كانت تجبى عن تحرير الأرقاء والتركات فإنه كان لا يدفعها إلا المواطنون الرومان ولم تتأثر بها مصر إلا عندما منح كركلا حقوق المواطنة الرومانية لكل السكان في مصر مع باقي سكان الامبراطورية .

٥ — مؤونة الجنود الرومان : إن معلوماتنا قليلة عن الوسائل التي اتبعها الرومان في مصر حتى أواخر القرن الثاني من أجل توفير المؤونة اللازمة للحامية الرومانية لكن القرائن توحي بأن الحاكم العام كان يحدد سنويا كمية الحبوب التي يحتاج إليها كل معسكر ويفرض على بعض الزراع في كل مديرية تقديم تلك الكمية بسعر منخفض يحدده الحاكم العام . ولا بد من أن يكون الأهالي قد ضجوا بالشكوى من هذا النظام لأننا نجد أنه في عام ١٨٥ قد استبدلت به ضريبة عينية (annona militaris) على أرباب الأراضي التي تزرع حبوبا . وكان الأهالي يكلفون أيضا بإيواء الجنود الذين كانوا ينزلون بينهم في أثناء تنقلاتهم من مكان إلى آخر . ويبدو أن الجنود كانوا يسيئون استغلال هذا الحق فقد وصل إلينا عدد من الأوامر التي اضطر الحكام إلى إصدارها لتحذير الجنود من اغتصاب أموال أو خدمات من الأهالي دون الحصول على إذن خاص بذلك وبيان أن حقهم كان مقصورا على إيوائهم فقط .

وكان يفرض على الأهالي أيضا توفير الحاجيات اللازمة للحاكم العام وصحبه عند مرورهم بأنحاء البلاد ، وكذلك للإمبراطور وحاشيته عند زيارته مصر وتنقله في أرجائها . وقد كان ذلك عبئا ليس هينا إذ تحدثنا إحدى الوثائق بأنه بمناسبة زيارة الحاكم العام لهرموبوليس أدرجت أسماء ٥٣ شخصا لإعداد الاحتياجات اللازمة وكانت تتضمن خبزا ولحما وسمكا ودواجن وجعة ووقود

فضلا عن علف دواب الحاسبة والحمير اللازمة للانتقالات المحلية. وإذا كان ذلك النساء في حالة زيارة الحاكم العام فإنه يمكن أن نتصور ما كان الأهالي يكلفون بتحمله في حالة زيارة الامبراطور.

٩ — ويمكن اعتبار تسخير الأهالي للعمل في تطهير الترع وصيانة الجسور ضريبة ثقيلة يبدو أنه لم يعف من أدائها إلا الرومانيون والاسكندريون والفئات التي كانت تدفع الفدية ضريبة السخرة (naubion). وكان نظام السخرة يختلف من مكان إلى آخر إذ بينما كان يفرض على الفلاح في قريته أن يشترك في تطهير أو صيانة مساحة معينة تسمى naubion كان يطلب منه في الفيوم أن يشتغل عددا معينا من الأيام كانت عادة خمسة أيام كل عام في الفترة الواقعة بين بداية يونيه ومنتصف أغسطس.

وكانت هناك ضرائب محلية لحرس أو الشرطة ومواجهة نفقات المنشآت العامة مثل الحمامات والأسواق والمعابد وغير ذلك. هذا إلى أنه من حين لآخر كانت تجبى ضرائب إضافية لسد العجز في حصيلة بعض الضرائب التي كانت تجبى بانتظام. وفضلا عن ذلك كانت تفرض ضرائب على فئات معينة من سكان البلاد لا تدفعها فئات أخرى مثل ضريبة اليهود وضريبة أرباب الاقطاعات وضريبة الشرطة.

ومما يجدر بالملاحظة أنه في بداية العصر الروماني كان معدل الضرائب معتدلا لكن على مر الزمن زاد معدل الضرائب وتعددها. ولما لم يكن في وسع موارد مصر ولا طاقات ... على سوء الادارة ومطالب العامة سد كل العجز الناجم عن الجزية النوعية والنقدية التي كانت روما تستولي عليها فقد أسهم ذلك جميعه في انهيار البلاد الاقتصادي.

سابعا — نظام جباية الضرائب

يتسم نظام الرومان الضريبي في مصر بظاهرتين واضحتين أولاهما أنه باستثناء بعض الضرائب لم يفرض على كل أنحاء البلاد نفس الضرائب ذاتها ولا بمعيار واحد فكانت أنواع الضرائب وكذلك معاييرها تختلف من مديرية إلى أخرى.

والظاهرة الأخرى أنه لم يتبع نظام واحد في جباية الضرائب. فقد اتبع الرومان جباية الضرائب بطريق الالتزام حتى عصر تيبريوس حيث نسمع للمرة الأولى عن جباة موظفين (praktores) إلا أن هذا النظام الجديد لم يقض على سابقه بأكمله فقد ظلت بعض الضرائب مثل المسرات والمكوس الجمركية وضريبة ؟ على المبيعات تجبى حتى أواخر القرن الثاني وفقا للنظام القديم.

وحتى نهاية القرن الثاني كان كاتب كل قرية يعد كشفا بأسماء أغنى المدنيين ممن يملكون نصابا معينا ويختار القائد من بينهم جباة كانوا يؤدون عملهم مدة ثلاث سنوات بعد أن يوافق حاكم القسم (epistrategos) على اختيارهم. وكان أعضاء الجباة يعتبرون مسئولين عن أي عجز في حصيلة الضرائب المفروضة على منطقة

كل منهم ولذلك كانوا يوعلون في جميع العصر ثم عادة حدوث هذه المحن ويحدث ... بأن تجري ... حسب ... جباة الضرائب من ... بأنفسهم

وكان هؤلاء الجباة لا يتولون أمر جباية الحبوب الا أنه حتى نهاية القرن الثاني كان أمناء المخازن (sitologoi) هم الذين يتسلمون هذه الحبوب ، على حين يبدو أن مهمة جباة الحبوب (praktores sitikon) كانت مقصورة على جمع متأخرات هذه الضريبة أما في القرن الثالث فإن الموظفين الذين كانوا يسمون (dekaprotoi) هم الذين كانوا مسئولين عن جمع هذه الضريبة ... علاقتهم بأمناء المخازن وجباة الحبوب والمعروف عن جباة الحبوب والجباة الذين كانوا يجبون الضرائب النقدية أطلق على القرن الأخير منذ عهد تراجان اسم جباة الحساب (praktores argyrikon).

الفصل السادس

النظام القضائي

لقد مر بنا أن البطالمة احتفظوا للمصريين بقدر ما تسمح الظروف ، بقوانينهم التقليدية التي أطلق الاغريق عليها اسم « قانون البلاد » . وتشير القرائن الى أن الرومان قد أبقوا على هذه القوانين بوجه عام ، اذ أنهم عدلوا بعضها مثل ما عدلت البطالمة أيضا بعضا آخر .

وقد عرفنا كذلك أن الاغريق في كل مدينة اغريقية وجمعية قومية كانوا يخضعون لمجموعة معينة من القوانين تعرف « بقوانين المواطنين » وأنه من أجل التنسيق بين هذه المجموعات من القوانين وكذلك من أجل تنظيم معاملات الاغريق الذين لم ينتموا الى تلك المدن والجمعيات كان البطالمة يصدرون أوامر ملكية مختلفة الأنواع . وقد أبقى الرومان على بعض هذه الأوامر الملكية كما أبقوا على قوانين الاسكندرية وبطوليميس وكذلك على قوانين نقراطيس التي طبقوها في انطينوبوليس ، مستكملين أدخلوا بعض التعديلات على القوانين المعمول بها .

ويمكن القول بأنه تطبيقا للفصل في القضايا التي تنشب بين طرفين أحدهما مصري والآخر اغريقي أصدر بطليموس الثامن يورجتيس الثاني في عام ١١٨ ق . م قرارا يقضي بأن لغة العقد موضوع الخلاف هي التي يجب أن يتقرر بموجبها نوع القانون الذي يطبق للفصل في هذا الخلاف . ولسنا نعرف الى أي حد طبقت هذه القاعدة في العصر الروماني وإن كنا نعرف أن قاعدة مماثلة كانت تطبق على الأقل في قضايا الزواج وذلك أنه في حالة عقد زواج مصري بين طرفين أحدهما مصري والآخر اغريقي كانت أحكام القانون المصري هي التي تطبق أما في حالة عقود الزواج الاغريقي فان أحكام القانون الاغريقي هي التي كانت تطبق .

وبطبيعة الحال أدى ظهور عنصر جديد من السكان في العصر الروماني وهو عنصر المواطنين الرومان تحت القانون الروماني مصر لتطبيقه على أولئك المواطنين وصدرت بعض القوانين لتنظيم العلاقات القانونية بين المواطنين الرومان وسكان مصر الذين كانوا أكثرهم في نظر الرومان أجانب (peregrini) . وكذلك لسان الاختصاصات القانونية التي أعطيت لمحاكم الدم والعادة لنظر القضايا

القضائية التي كان من حقها الفصل في النصوص.

ومما يجدر بالملاحظة أن الوثائق المتعلقة قد تأثرت بالنصوص الرومانية عن طريق تشريعات الأباطرة وقرارات الحكام وأحكام المحاكم.

أولاً ـ القانون المدني

١ ـ الأحوال الشخصية :

ولما كان الرومان مثل الاغريق يعتبرون المرأة قاصراً ومن ثم في حاجة الى وصي شرعي عليها في كل تصرفاتها فان المرأة المصرية لم تستمر في العصر الروماني ممتعة بمكانتها القديمة بل بقيت على حالها من تساوي البطالمة بينها وبين المرأة الاغريقية. ولا سبيل الى الشك في أن المصريين كانوا يعرفون في العصر الروماني « الزواج الكامل » و « زواج المتعة أو التجربة » وهما نوعا الزواج اللذان سبق الكلام عنهما في سياق الحديث عن الزواج عند المصريين في عصر البطالمة.

وكما كانت عليه الحال في عصر البطالمة كان اغريق الاسكندرية وبطلميس في العصر الروماني يحررون عقدين أحدهما مدني والآخر ديني ، وكان لدى الاغريق يعرفون نوعين من العقود وهما « عقود الاتفاق » و « عقود المعاشرة » وكانا نوعين من التوثيق لنوع واحد من الزواج. لكن كثيراً ما كان يكتفي بتحرير « عقد الاتفاق » وحده دون تحرير « عقد المعاشرة » أيضاً.

وكان يثبت قيام الزوجية عند الرومان معاشرة الزوجة وعقد الزواج الذي كان يسجل في سجلات خاصة تعرف بسجلات الزواج.

ووفقاً لأحكام القانون عند المصريين والاغريق والرومان سواء بسواء كان لكل من الطرفين حق الطلاق. وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة بين الطرفين يثبت فيها أنه لم يعد لأحد الطرفين حقوق قبل الطرف الآخر وبذلك كان يحق لكل منهما أن يعقد زواجاً جديداً.

واذا كان مسموحاً قبل العصر الروماني اتخاذ أكثر من زوجة واحدة فانه لم يعد عندئذ مسموحاً بذلك لأي عنصر من عناصر السكان في مصر ، لكنه كان مسموحاً لغير الرومان بتزاوج الأخوة من أخواتهم الى أن اختفت هذه العادة تدريجياً بعد القرن الثالث الميلادي.

وتشير القرائن الى أن الزواج بين الاغريق والمصريين كان غير معترف به في الاسكندرية ونقراطيس وبطوليمايس بدليل أن هادريان أصدر قانوناً لاباحته في انطينوبوليس وأن دستور الايديولوجوس كانت تعتبر الزواج بين « المواطنين » (astoi) والمصريين زواجاً غير شرعي. ونجد كثرة الزيجات المختلطة في الريف على أن القانون لم يحظرها هناك.

وأكثر حالات الزواج بين الرومان كانت بين طرفين رومانيين وتعتبر مشروعة (iusta matrimonia) وينتج ذلك كثيراً ما زواج موظفين رومان من أجانب لكن هذه الزيجات كانت تعتبر غير مشروعة (non iusta matrimonia) وكان الأبناء ثمرة هذه الزيجات يعتبرون أجانب ويحملون أسماء أجنبية.

ويفرق القانون عند المصريين والاغريق والرومان تفريقاً واضحاً بين الأحرار والعبيد

وكان العبد في العصر الروماني ثلاثة أنواع هي عبيد الأسر على وعبيد الأفراد وعبيد المعابد الذين ظلوا ملحقين بها عبيد الكنيسة

وقد كان من حق المصريين والاغريق والرومان عمل وصيات وكانت وصايا الرومان تحرر باللاتينية ثم تترجم الى الاغريقية الى أن أصدر اسكندر سيفروس قراره بتحرير وصايا الرومان باللغة الاغريقية على نحو ما كان يفعل المصريون والاغريق وكانت وصايا الجنود الرومان وقدماء المحاربين تخضع لقواعد عسكرية خاصة

وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون المصري يرتب الورثة طبقات تأتي في مقدمتها طبقة الأولاد، وكان يحق للابن الأكبر أن يأخذ نصيبا يعادل ضعف نصيب أخيه الأصغر بدون كانت أخته تتساوى معه في مقدار النصيب وكان من حق الأحفاد الحصول على نصيب أبيهم اذا توفي قبل جدهم وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون الاغريقي يعطي الأبناء الأسبقية في وراثة آبائهم، وكانت أنصبة الأبناء متساوية ويحق للبنات مشاركة في الارث اذا لم يكن قد أصبحن مهورهن وفي حالة زواج مواطنة من أجنبي كان قانون الاسكندرية لا يسمح لأبناء هذا الزواج بأن يرثوا أمهم وفي حالة عدم وجود أبناء وأحفاد كان حق الارث يؤول الى الزوج أو الزوجة ثم يأتي بعد ذلك الأقربون والدرجة الأولى، وكذلك أعطى القانون الروماني للأبناء الأسبقية وأنصبة متساوية في وراثة آبائهم

٢ ــ الأحوال العينية

وكان المصريون والاغريق والرومان يتعاملون اما بمقتضى عقود مكتوبة أو اتفاقات شفوية وفي حالة الانكار دين متعهد بمقتضى اتفاق شفوي كانت تتبع القاعدة المعروفة « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر »

وقد مر بنا أنه من أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون في عصر البطالمة يعرف وسائل أخرى قديمة العهد غير تسجيل العقود والنص فيها على شروط جزائية وقد بقيت هذه الوسائل جميعا معمولا بها في العصر الروماني على أن ما لم يكن مألوفا منها بين الرومان مثل « البيع الوفائي » وما كانت اللوائح تحظر على مواطنين الرومان أن يلجأوا اليه مثل تسجيل عقود ملكية بعض مرهونة الى الدائن شاع استخدامه بين الرومان أنفسهم

واذا كانت البطالمة جعلوا سعر الفائدة ٢٤٪ شهريا أو ٢٤٪ سنويا فان الرومان جعلوا هذا السعر ١٪ شهريا أو ١٢٪ سنويا وفي حالة عدم الوفاء بالدين في الوقت المحدد كان تفرض على المدين غرامة تصل عادة الى نصف كانت عادة نصف قيمة الدين الأصلي

وكان القانون عند المصريين والاغريق والرومان يعرف مختلف الشركات تجارية أو

صناعة أو غير ذلك لمباشرة أعمال عامة ، وخاصة . وكان تحدد علاقة البر ناء بعضهم ببعض عقد كتابي تثبت فيه حقوق كل طرف وواجباته . وقد حدد هذا القانون حقوق العرفين اللذين يتعاقدان على استئجار أرض أو بستان أو عبيد أو ماشية أو سفن أو عمال ، وأباح لمستأجر الأرض أن يؤجرها من الباطن لا إذا نص في عقد الإيجار الأصلي على خلاف ذلك .

وقد استمر المصريون في العصر الروماني يحررون عقدي المال والتأمين لكل صفقة من صفقات البيع . أما الإغريق فكانوا يكتفون عادة بعقد واحد يتضمن النص على استلام البائع لثمن الشيء المبيعة وتنازله عن كل حق له عليها . وكانت العقود لا تضمن للمشترين حقوق ملكيتهم كاملة إلا إذا حررها الموظفون المختصون وأثبتت انتقال الملكية في السجلات الخاصة بذلك وأديت الضريبة المقررة .

ثانيا ـ القانون الجنائي

وكان القانون الجنائي في العصر الروماني يفرق بين ثلاثة أنواع من الجرائم وهي :

١ ـ الجرائم التي ترتكب ضد شخص الأفراد أو ممتلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقوة أو القتل أو الإصابة أو التهديد بالإصابة ، واستخدام القوة بتخليص ما ب مستحق وسرقة ، وإلحاق الضرر بممتلكات الغير والغش والتدليس . وكانت إقامة الدعوى في كل هذه الجرائم من شأن المعتدى عليه وأسرته . أما في حالات معينة مثل غش موظفي الدولة فكانت الدولة هي التي كانت تقيم الدعوى .

٢ ـ الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة العامة وكانت تشمل التزوير في الحسابات واختلاس الأموال العامة وسرقة من ممتلكات الدولة أو ضياع الأباطرة . ولم يعد محظورا في العصر الروماني استخدام المحامين في القضايا التي يختصم فيها الأفراد مع الخزانة العامة .

٣ ـ الجرائم التي ترتكب ضد الدولة وكانت تشمل جرائم الخيانة العظمى وإساءة استخدام الحقوق العامة والجرائم الدينية التي كانت معروفة في عصر البطالمة ، وكذلك حيازة الأسلحة دون ترخيص بذلك والاشتراك في العصابات المسلحة التي كانت تهيم على وجهها في أنحاء البلاد .

ثالثا ـ الهيئات القضائية

إن معلوماتنا عن النظام القضائي في مصر في العهد الروماني ضئيلة جدا حتى إننا كثيرا ما نصادف مشاكل متعلقة به دون أن نستطيع إبداء رأي فيها ، ولكننا نعرف على كل حال أن الحاكم العام كان على رأس جهاز القضاء وصاحب الكلمة العليا في كل أنحاء البلاد في القضايا المدنية والجنائية jurisdictio وكذلك imperium merum فكان

تسمح بحق مصادرة الأملاك والحكم بالأشغال الشاقة في المناجم والمحاجر وكذلك الحكم بالإعدام ، ولم يكن هناك سبيل إلى الاستئناف من أحكامه سوى أمام الإمبراطور .

وكان للمجلس القضائي للحاكم العام ممثلون منه بوصفه رئيسا ومن مساعدين له نعرف أنهم كانوا يحضرون في الولايات الأخرى من جنسيات للتقاضي لكن ليس في استطاعة أحد أن يجزم بشيء فيما يتعلق بمصر وإن كنا نعرف أن المساعد الأول للحاكم العام في الشئون القضائية في مصر كان الديكايودوتس Dikaiodotes ولسنا نعرف إن كان يشغل منصب اختصاصي قضائي مستقل أو إن كان يستمد سلطته القضائية من الحاكم العام لكن بما أنه لم يشترط في اختيار الحكام معرفة القانون وكانوا ليحب لذلك في حاجة إلى خبراء فنيين يعاونونهم في أداء مهمتهم القضائية فالمرجح أن الديكايودوتس كان المستشار القانوني للحاكم العام ويقوم بدور Legati iuridici في الولايات الرومانية الأخرى . وتحدثت الوثائق أيضا عن موظف قضائي آخر كان له شأن كبير في الشئون القضائية في عصر البطالمة وهو الأرخيديكاستس .

وكان الحاكم العام يعقد مجلسه القضائي في الإسكندرية في شهري يونيه ويوليه ليفصل في قضايا مديريات غرب الدلتا ، وفي بلوزيون في شهر يناير للفصل في قضايا مديريات شرق الدلتا ، وفي منف في شهري مارس وأبريل للفصل في قضايا باقي المديريات إلا أنه كان أحيانا يرى داعيا لعقد مجلسه القضائي في أماكن أخرى سواء في الدلتا أم في مصر الوسطى أم في مصر العليا .

ولم يستأثر الحاكم العام بالفصل في القضايا إذ يرى بعض الباحثين أن محاكم القضاة الآخرين (chrematistai) التي كانت موجودة في عصر البطالمة ظلت قائمة وأن الحاكم العام كان يعهد إليها في الفصل في قضايا المستندات ، وأن الأرخيديكاستس أيضا كان يقوم بمثل هذه المهمة إما بمفرده أو بالاشتراك مع محكمة القضاة الآخرين ، وأن الإيديولوجوس كان يفصل في قضايا الخزانة العامة .

وكان رؤساء الأقسام الإدارية الرئيسية (epistrategoi) ينوبون عن الحاكم العام في الفصل في القضايا فضلا عن أنهم كانوا يقومون بالتحكيم في المنازعات . وكان حكام المديريات (strategoi) أيضا يفصلون في القضايا ، وإن كانوا على مر الأيام فقدوا هذا الاختصاص فإنهم استمروا يؤدون ما كانوا يقومون به منذ عصر البطالمة من التحكيم في المنازعات ، وتقديم القضايا والمتهمين للمحكمة بعد الفشل في محاولة فض النزاع وديا ، وتسلم وتحقيق مذكرات الخصوم ، وإلقاء القبض على مخالفي القانون .

ولكنه إذا كان الفلاحون يلجأون إلى شيوخهم ورجال الشرطة لفض منازعاتهم بدلا من اتخاذ الإجراءات القضائية المعتادة

مصر تابع

الحياة الاجتماعيـــة

أولا ــ عدد السكان وحالهم

في عهد نيرون كان عدد سكان مصر عدا الاسكندرية يبلغ سبعة ملايين ونصف مليون نسمة وليست لدينا أي معلومات عن عـــدد سكان الاسكندرية في العصر الروماني وان كنا نعرف أن الاسكـندرية غدت في هـــذا العصر أكبر مركز تجــاري في شرق البحـــر الأبيض المتوسط وأكبر مركز صناعي في مصر وثاني مدن الامبراطورية الرومانية وبذلك يحتمل أن عدد سكانها لم يقل كثيرا عن عدد ســـكان روما . ويبـــدو انه برغم النشــاط الاسكندرية الصناعي وزواله وبهجة الحياة فيها وشظف العيش وبؤسه في الريف المصري أخذ كثيرون من أهل الريف يهاجرون اليها بعد القرن الثاني مما حدا بالامبراطور كركلا الى اصدار قرار في عام ٢١٥ بابعاد القرويين عن الاســـكندرية . لكن لابد من أن هـــذه المدينة قد عانت كثيرا من المذابح والاضطهاد الشعبي التي حلت بها من جــراء العداء بين الاسكندريين واليهـــود وبسبب كركلا على عداوته وثورتها ضد أورليانوس . وبعـــد أصبحت ... نشاط الاسكندرية التجاري كان مزدهرا فيها عدد كبير من الأجانب الذين كانوا يعيشون فيها بصفة دائمة تقريبا .

وبينما كان أهل الاسكندرية يعيشون عيشة راضية هانئة لفرط نشاطهم الصناعي والتجاري مع قلة الأعباء الملقاة عليهم كانت حال أهل باقي البلاد ولا سيما المزارعين تسير من سيىء الى أسوأ بسبب تزايد التزاماتهم باطراد . فترينا وثائق القـــرن الثـــاني ازديادا مستمرا في عـــدد الذين كانوا يهـــربون من قراهم ، وعددا غير قليل من الأوامر التي كان الحكام يصدرونها لحث المزارعين على العودة الى مواطنهم ؛ وأمثلة كثيرة على الالتجاء الى سلاح الارغام بزراعة الأراضي المهجورة ومن المناصب المحلية والبلدية . وتدل القرائن على أنه في القرن الثالث هجرت قرى بأكملهـــا تقريبا في الفيوم ، وتفاقمت صعوبة شـــغل المناصب المحلية والبلدية ؛ وازداد عدد الذين كانوا يهربون من مواطنهم ويتكسبون عيشهم من أعمال الســـطو والنهب . ولا أدل على هبوط مستوى المعيشة وفقر الأهـــالي في العصر من أن الـــاس الذي ... خولفر العمدة وهل يملك عشر ... أنه كان

صكن في هذا الحي لصعر سنه وعسرون سحصا ولا سك في ان هذا الحي لم تكن ساكنه سحصا واحدا مثل عجوه من عسره افراد القرويه التي كشفت الحفريات عنها في قريه كرانيس (كوم أوشيم) ، وهي مبنية من الطين وتتألف من عدة من الغرف الصغيرة على النحو المألوف

ثانيا — طبقات السكان

درج الرومان منذ عهد اغسطس على تقسيم سكان مصر طبقات متباينة في أهميتها على النحو التالي

١ — الرومان وكانوا الطبقة العليا في البلاد وقليلي العدد اذ كانوا يتألفون من كبار الحكام وبعض رجال الأعمال وكذلك من قدماء المحاربين الذين منحوا حقوق المواطنة الرومانية عند تسريحهم ورغبوا في الاستقرار في مصر . وقبل اندماجهم في هذه الطبقة كان يتعين فحص (epikrisis) حالة كل منهم لكي يتمتعوا هم وأولادهم بالحقوق والامتيازات التي كان أفراد هذه الطبقة يتمتعون بها ، وكانت هذه الحقوق والامتيازات تشبه ما كان المقدونيون يتمتعون به في عهد البطالمة ، ولم يكونوا خاضعين مطلقا لسلطة المديرين التي كانوا يعيشون فيها ، بل لسلطة حكام الأقاليم (epistrategoi) والحاكم العام لمصر . ومما يجدر بالملاحظة أن غالبية المواطنين الرومان في المدن بحسب الوثائق معظم في القرن السادس كانوا من الاغريق والسوريين والمصريين الذين اكتسبوا حقوق المواطنة الرومانية

٢ — الاغريق

(١) وضعهم وفئاتهم

كان الاغريق يتألفون من فريقين رئيسيين يعيش أحدهما في المدن الاغريقية ويعيش الآخر في المدن والقرى المصرية . وكان كل من هذين الفريقين يتألف من فئتين رئيسيتين، فالفريق الأول كان يتألف من فئة مواطني المدن الاغريقية وفئة عامة الاغريق في هذه المدن . وكان الفريق الثاني يتألف من فئة عامة الاغريق وكانوا مشتتين كبعض القلة دون الاندماج في جماعات منظمة . أما الفئة الثانية فكانت أوفر حظا من الثراء والثقافة وحيثما كان يعيش عدد كاف من أفراد هذه الفئة كانوا منذ عصر البطالمة يكونون جاليات منظمة تنظيما دقيقا فيسهرون على أن يوفروا فيها من أسباب الحياة ما يعيضهم عن الحياة في المدن الاغريقية . وربما كان الجيمنازيوم من أبرز مظاهر الحياة الاغريقية لأنه كان بمثابة المنتدى فضلا عن كونه مركزا للتربية البدنية والعقلية ، فأينما حيثما أنشأ الاغريق مدينة أو جالية أنشأوا كذلك جمنازيوم . وكان هذا المركز الاجتماعي والثقافي والرياضي متصلا اتصالا وثيقا بنظمه

تدريب الشباب . وكان التعليم الفني الاغريقي بهذه المنطقة في مرحلة عشرة من عمره شرطا أساسيا لادراج اسمه في قائمة مواطني المدينة أو العاصمة ويسمح له بدخول الجمنازيوم

ومما يجدر بالملاحظة أن الجاليات الاغريقية كانت لا تتألف أصلا الا من الاغريق لكن القرائن تشير الى أنه في أواخر عصر البطالمة كان من الممكن أن يندمج فيها عدد من الأغراب ممن تتوافر فيهم شروط معينة من الثقافة الاغريقية كانت في مقدمتها ونعتقد أنه للتمييز بين الفريقين كان الاغريق من أعضاء الجالية يدعون «أهل الجمنازيوم» (hoi apo gymnasiou) ويتميزون بذلك عن أعضائها المتأغرقين يدعون « الشركاء في عضوية الجالية » (sympoliteuomenoi) وربما كان أعضاء الجاليات الاغريقية قد استمروا في العهد الروماني يؤلفون هيئة تتمتع بامتيازات معينة وكان التسجيل في أي هيئة من الهيئات المماثلة يقتضي فحص حالة الراغب في ذلك واثبات انتماء الأبوين الى تلك الهيئة فانه يبين من ذلك أنه لم يعد ميسورا اندماج غرباء متأغرقين في عضوية الجاليات الاغريقية

ويبدو أنه من أجل المحافظة على العناصر الاغريقية في المدن التي كانت تأوي نفرا من الجالية [illegible] الاغريق وسائل ما كانوا يستمتعون به في المدن الاغريقية في مصر وبلاد الاغريق وآسيا الصغرى وسوريا ، وكذلك من أجل رفع مستوى عواصم المديريات ، عمل الرومان على تنمية الجاليات الاغريقية وتركيزها في عواصم المديريات . ولتحقيق ذلك العوامل كان يوجد من الجمنازيا في القرى وأضفوا صفة رسمية على جمنازيا عواصم المديريات وأنشأوا في تلك العواصم حمامات عامة وأضاءوا شوارعها ليلا . واعتبر الرومان أعضاء الجاليات الاغريقية — سواء أكانوا ينحدرون من الأصل في تلك العواصم أم انتقلوا للمعيشة فيها — مواطني تلك العواصم ، كما اعتبروا « أهل الجمنازيوم » وجميع أولئك المواطنين فصارت المناصب البلدية لا تسند الا اليهم . ومما يجدر بالملاحظة أولا — أن مواطني عاصمة أي مديرية لم يشملوا كل سكان تلك العاصمة وحتى وان كانوا من الاغريق . وثانيا أن أولئك المواطنين كانوا يطالبون الرومان باعفائهم اعفاء كاملا من دفع ضريبة الرأس على أساس أنهم من سلالة أرباب الاقطاعات . ولتفسير هذا المطلب يجب أن نذكر شيئين : واحدهما أن أغلب أعضاء الجاليات أن لم يكن كلهم كانوا أصلا من رجال الجيش وتبعا لذلك كانوا من سلالة أرباب الاقطاعات ، والثاني أن الأمر وان كان الرومان قد رفعوا ملكية بعض أرباب الاقطاعات فانهم منحوا أراضي البعض الآخر ومنحوهم

امتيازات معينة كان من بينها فيما يبدو الاعفاء من ضريبة الرأس اعفاء كاملا

ويرى فريق من الباحثين أن الحكومة الرومانية كانت تفرق بين الاغريق الذين كانوا يعيشون في مدن مصر الاغريقية، وكذلك الاغريق والمتأغرقين الذين كانوا يعيشون في عواصم المديريات من ناحية، وبين المصريين من ناحية أخرى باعتبارهم dediticii، أي الأهالي الذين خضعوا للرومان بحق الفتح فلا عهد ولا شرط يحفظ حقوقهم في أصل ذلك وفرضوا عليهم كافة الالتزامات وخاصة ضريبة الرأس وكانت تعتبر رمزا مميزا لخضوعهم واستسلامهم

وقد اتخذ فريق آخر من الباحثين من المعلومات المستمدة من وثائق بردية عن ضريبة الرأس أساسا للمناداة برأي آخر مفاده ومؤداه أن الحكومة الرومانية كانت تعتبر جميع سكان مصر «مصريين» أو بعبارة أخرى أجانب (peregrini) باستثناء مواطني الرومان ومواطني الاسكندرية وفيما يرجح مواطني نقراطيس وبطلميس وانطينوبوليس وسلالة أرباب الاقطاعات في الفيوم وكذلك عددا معينا من كهنة كل معبد، وأن هؤلاء جميعا أعفوا من دفع ضريبة الرأس التي كان باقي سكان البلاد يدفعونها، غير أن أولئك الباقين لم يدفعوا جميعا الضريبة بسعر واحد اذ أن مواطني عواصم المديريات كانوا يدفعونها مخفضة أما باقي سكان هذه العواصم وكذلك سكان القرى فكانوا يدفعونها كاملة. ومعنى ذلك أن الحكومة الرومانية كانت تقسم الاغريق ثلاث فئات، كانت احداها تشمل مواطني المدن الاغريقية ويبدو أيضا سلالة أرباب الاقطاعات في الفيوم، وكانت الحكومة الرومانية تضعهم في مصاف مواطني الرومان وتعفيهم من ضريبة الرأس اعفاء كاملا، أما الفئة الثانية فكانت عبارة عن مواطني عواصم المديريات وكانت الحكومة تعتبرهم أقل مكانة من الفئة السابقة وتفرض عليهم دفع ضريبة الرأس مخفضة. أما الفئة الثالثة فكانت تشمل عامة الاغريق من سكان القرى وعواصم المديريات والمدن الاغريقية على حد سواء وكانت الحكومة تفرض عليهم دفع ضريبة الرأس كاملة

ويعطي هذا دليلا على مدى اجلال روما للحضارة الاغريقية ورغبتها في التمييز بين أكثر الاغريق تحضرا من ناحية وبين عامة الاغريق وجموع المصريين من ناحية أخرى. فلا عجب أن أبقت روما اللغة الاغريقية لغة رسمية للبلاد فلم تستعمل اللاتينية الا في الجيش أو في شرائع متعلقة بالقانون الروماني. وفضلا عن ذلك احتفظت روما للاغريق بالمناصب الكبرى التي تلي المناصب الرئيسية التي احتفظوا بها لأنفسهم

وقد كانت لدى الطبقات المستنيرة من الاغريق فرص واسعة للثراء، لكن التبعات الثقيلة التي ألقيت عليهم أنهكت كاهلهم

يعرف مواطنوهم على مر الزمن . ويمثل أسماء الإغريق حتى كانوا مواطني مدن الإغريقية بوجه عام والاسكندرية بوجه خاص . ومع ذلك فإن الشواهد توضح أن مصر بعد أن خضعت إلى حكم الرومان حيث تجدر الإشارة إلى أن مدينة الإسكندرية اليهود كان يحظى في حياته عندهم برومانيته ، ونجد بأن معاداة اليهود كانت أشد عاصفة من معاداة الرومان عداء سافراً . وتجدر الإشارة كذلك إلى أن (أعمال الإسكندريين) التي صادفت رواجاً كبيراً لا في الإسكندرية فحسب بل في كل أنحاء البلاد كانت تعبر عن كراهية الإغريق الشديدة لليهود وكراهيتهم الأشد للرومان . وهذا أمر دليل على أن الإغريق بوجه عام كانوا يكرهون الحكم الروماني كرهاً شديداً ويتمنون زواله .

وتحدثت وثيقة من القرن الثاني للميلاد أن التزاوج بين الإغريق والمصريين كان يعتبر غير مشروع في نقراطيس ، ومن المرجح أن ذلك كان الحال أيضاً في الإسكندرية وبطوليمايس بسبب رغبة في محافظة على العنصر الإغريقي . فلماذا أبيح التزاوج في أنتينوبوليس ؟ يرجح البعض أن يكون السبب في ذلك هو رغبة الإمبراطور هادريان مؤسس هذه المدينة ، في صبغ المصريين بصبغة إغريقية عن طريق مزجهم مع الإغريق في بيئة تسودها تأثيرات الإغريقية . لكن لو صح أن هذا كان يهدف التمصير لكان يحققه لم

وأن في مدن الإغريقية الأخرى التي كانت معاقل قديمة للحضارة الإغريقية وذات تقاليد عريقة وتصميم أشد ، أكثر من الإغريق ويريد فيها مزج بين الإغريق والمصريين على نطاق واسع . ولعل السبب الذي في إباحة التزاوج في أنتينوبوليس هو أنه لم يتيسر اجتذاب عدد كاف من الإغريق إلى هذه المدينة مما اضطر إلى الاعتماد في تكوين هيئة مواطنيها على كثير من المصريين الذين لابد من أنهم كانوا من المتأغرقين تيسيراً لتآلف بينهم وبين رفاقهم من الإغريق . ومن أجل ضمان وحدة المدينة ونموها نص في دستورها على إمكان التزاوج بين المصريين . ونعتقد أن لهذا النص دلالة ذات مغزى ، فهذا النص ينطوي ضمنا على أن التزاوج كان غير مشروع على الأقل في المدن الإغريقية الأخرى وإلا لما نص على تجيزه في أنتينوبوليس . بقي أن نتساءل عما إذا كان التزاوج محظوراً خارج المدن الإغريقية الثلاث الأخرى (الإسكندرية ونقراطيس وبطوليمايس) ؟

يبدو مما أسلفنا ، أولاً أنه في العصر الروماني كان يعيش خارج هذه المدن الإغريقية الثلاث فريقان من الإغريق كان أحدهما عبارة عن مواطني عواصم المديريات الذين كانوا يؤلفون طبقة ممتازة ، وكان الفريق الآخر عبارة عن الإغريق الذين لم يكونوا مثلاً أعضاء في جماعات عرقية أو كانوا أعضاء في جماعات ، وأكبر الظن أنهم على

الانتقال الى عواصم المديريات وبعضها للكلام عن أفراد هذا الفريق فسنطلق عليهم عامة الاغريق. وكان أغلبهم يحسبون في طبقة من الطبقات الممتازة كان بعضهم تحت حالة راغبين في ذلك للتأكد من تمتعهم الاغريق في كل حالة الى تلك الطبقة. وإذا جاز أن القانون كان لا يحظر التزاوج بين مواطني عواصم المديريات وبين المصريين فإنه كانت تحظره مراعاة لمصالح أبناء أوساط المواطنين أي تحفظ لمصالحهم بالطبقة الممتازة. والواقع أن لوائح الايديولوجوس لا تدع مجالا للشك في أن التزاوج كان محظورا بين الذين ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة. وبما أن عامة الاغريق لم ينتموا الى طبقة اجتماعية ممتازة فإنه لم يحظر تزاوجهم مع المصريين قانون ولا مراعاة مصالح. ونتيجة لطول استقرارهم في البلاد وعدم ممارستهم أساليب الحياة الاغريقية مع اختلاطهم بأهالي البلاد وتعبدهم الى الآلهة المصرية أصبحوا شديدي الشبه بالمصريين وتزاوجوا معهم ولم ينقض وقت طويل قبل أن تستوعبهم الأمة المصرية فيمن استوعبتهم.

(ب) حضارة الاغريق :

ولا جدال في أن المدارس والمعاهد الاغريقية كانت أهم دعامة للحضارة الاغريقية التي كانت بمثابة مصابيح آفاق التفكير الاغريقي ومدى عقولهم وعلومهم ومهارة

ولا جدال أيضا في أن الآداب والفنون كانت أسمى مظاهر هذه الحضارة التي ظلت الاسكندرية أهم مراكزها في العصر الروماني وتضمنها بعد العصر الاغريقي منتشرة في مصر طوال هذا العصر. وقد شهدت الاسكندرية عندئذ عددا من الفلاسفة والكتاب والجغرافيين مثل فيلون والجليل تاليوس وبطليموس. وكان للأقاليم أيضا نصيبها في هذه الحركة الأدبية فقد وجد العلماء أبيون وبوتركس في نقراطيس والفيلسوف بلوطين في أسيوط، ونكوبريس، والبرديات الوفيرة التي كشف عنها في أوكسيرنخوس (البهنسا) — وكانت عاصمة إحدى مديريات مصر الوسطى — خير شاهد على شغف المثقفين في هذه العاصمة الريفية بقراءة مختلف ألوان الأدب الاغريقي الى حد يثير الدهشة. فالبرديات لا تقتصر على عيون الأدب الاغريقي القديم مثل أشعار هوميروس وقصائد هيسيود بل تتضمن كذلك أشعار سافو وروايات ميناندر وقصائد كاليماخوس فضلا عن كثير من المؤلفات التي كان بعض الباحثين المحدثين يظنون أنها لم تكن متداولة عندئذ مثل أجزاء من قصائد الشعراء الغنائيين كالاليجيا الشكر وغيرها من منظومات بندار والشعراء الصغار وكذلك روايات سيمونيدس المفقودة وروايات سوفوكليس ويوربيديس وسطوديس. ولم تكن أوكسيرنخوس أول مدينة خاصة على أي

عاصمة أخرى من عواصم المديريات فلا بد من أن الحال كان مماثلا فيها جميعا ويعتمد بعد على أمرين وأحدهما وجود جميع كتب من الشعراء وبما يدل على وجود تجربة ثقافية في بكين، والأمر الآخر أنه كان في مصادر تتمثل في طريقة البلاد وعرضها مجموعة كبيرة من المؤلفات الاغريقية التي لم نصل منها الا بعد طلبه.

وبقدر ما كانت الأمية فاشية بين عامة الاغريق كان الزعماء وأهل الطبقة الوسطى منهم يقبلون على التعليم. وكان التعليم الاغريقي يعنى بتربية الجسم والعقل معا، وكانت التربية البدنية تشمل الألعاب الرياضية وكذلك التدريبات شبه العسكرية الخاصة بالشباب. أما التربية العقلية فكانت على ثلاث مراحل تسير أولاها في مدارس أولية ويرجح أنها كانت من الطراز الاغريقي المألوف ونستطيع أن نتبين مما عثر عليه من الأدوات التي كان التلاميذ يستخدمونها بكثرة (كسر الفخار والألواح الخشبية المكسوة بالشمع والأوراق الردية)، أنهم في المرحلة الأولى كانوا يتعلمون القراءة والكتابة مرتبين بادئين بالحروف الأبجدية فمتكونين مقاطع فالكلمات فالجمل ثم نقل عبارات من قصة والتمرين على الاملاء والانشاء. وكان التلاميذ يدرسون الأدب والحساب. وكانت أشعار هوميروس تستخدم على نطاق واسع في كل مراحل التعليم فقد كان التلاميذ يكلفون بنقل بعض الأبيات للشعراء من كتبها أو شرحها والتعليق عليها أو تكون مادة للدرس في الاملاء. وكان يعنى بهذه الناحية عناية كبيرة فقد كان المدرسون يختارون كثيرا من الحكم والأمثال لتمرين التلاميذ على كتابتها.

ويبدو أن المرحلة الثانية كانت مقصورة على أبناء الصفوة المختارة في عاصمة كل مديرية وهي التي كان يطلق عليها «الجيمنازيوم». فقد كانت تلك الطبقة تتألف من الصفوة في مساهم منظمة لتدريب الشباب وتعليم في الجيمنازيوم اذ كان الالتحاق بهذه المنشأة يخول حق الالتحاق بالجيمنازيوم ويقتضي اثبات انتماء الأب الى هذه المنظمة والانحدار الأب من أبوين حرين. وكان التلاميذ يدرسون في هذه المرحلة النحو والبلاغة والأدب والفلسفة والرياضيات.

ويبدو أن الذين كان يعز عليهم دخول الجيمنازيوم لكن مواردهم كانت تسمح لهم بمتابعة الدراسة كانوا يلجأون الى مدرسين خصوصيين لهذا الغرض. وكان ذلك أيضا حال الذين يريدون تعلم مواد خاصة مثل الموسيقى أو الاختزال. وعندنا وثيقة تدل على أحد مواطني أوكسيرينخوس أرسل عبده لتعلم الاختزال على يدي معلم فاقتضى عقد هذه الدراسة تعاقدا على أن يقتضي أجره على ثلاث دفعات، كانت الأولى في البداية والثانية والثالثة بعد بلوغ العبد مرحلتين معينتين من التقدم.

أما المرحلة الثالثة أو مرحلة التعليم العالي فقد كان مركزه في الإسكندرية وإن كان اليونانيون يشير إلى وجود أساتذة جامعة الإسكندرية في أنحاء مختلفة في البلاد . وقد كانت جامعة الإسكندرية معهدا للبحث أكثر منه للتدريس ويخيل أنه كان متروكا لأساتذتها مطلق الحرية في أن ينصرفوا إلى البحث كلية أو في إلقاء محاضرات إلى جانب القيام بأبحاثهم . لكن في القرن الثالث عندما أوقفت الحكومة الإنفاق على الجامعة لم يجد الأساتذة أمامهم مفرا من التدريس أو أداء أي عمل آخر لتكسب عيشهم . فنجد مثلا أحد أساتذة الجامعة يتولى منصب نائب مديرية الفيوم ولا جدال في أنه كان يتعذر القيام بمهمة التدريس بانتظام في الإسكندرية في خلال الأعوام الثلاثة التي تولى فيها منصبه الإداري في الفيوم . وبعد أن أسس بنتانوس (Pantaenus) مدرسة مسيحية الكبرى في الإسكندرية في القرن الثاني لم تعد الجامعة المركز العلمي الوحيد هناك ، فقد قامت المدرسة على أكتاف أساتذة عظام نافسوا أساتذة الجامعة الوثنية وكادوا يكسفونهم مخلفين آثارا مكتوبة ونتائج باقية على الزمن .

ويتبين من الوثائق البردية أن المصريين بوجه عام كانوا ميالين إلى متعة الحياة في مواسمهم بإقامة مختلف الولائم بمناسبة أو بأخرى وإقامة الحفلات الخاصة بأعياد ميلاد والمناسبات الاجتماعية الخاصة الأخرى . وفضلا عن ذلك كانت تقام في الأعياد الدينية وأعياد جلوس الأباطرة على العرش وعند ميلادهم كانت تقام حفلات عامة يحضرها الأهالي ومهرجانات . وإلى جانب ذلك كانت تقام من حين لآخر حفلات رياضية يتبارى الناس فيها في مختلف الألعاب الرياضية من جري وملاكمة ومصارعة وما إلى ذلك . وكانت توجد حتى في عواصم المديريات مسارح أو قاعات للموسيقى كانت تمثل فيها عادة الكوميديات الهزلية والتمثيليات الغريبة ومن حين لآخر روايات من التراجيديا الكلاسيكية ومن الكوميديا الجديدة . وكانت تطوف بالبلاد فرق للموسيقى والرقص والألعاب البهلوانية .

٣ — اليهود

لقد مر بنا عند الكلام عن عصر البطالمة أن اليهود كانوا ينتشرون في مختلف أرجاء البلاد لكن أكثرهم كانوا يعيشون في الإسكندرية وأن البطالمة منحوا الجالية اليهودية في الإسكندرية قسطا من الحكم الذاتي لم يمنحوه لأي جالية أخرى في أي مدينة إغريقية لكنهم لم يمنحوهم حقوق المواطنين . وفي كنف الرعاية التي استظل اليهود بها في عهد أكثر ملوك البطالمة ... جانبهم ... حتى ... في أوائل عهد الرومان ... كان ... في الإسكندرية . وقد عرف أن الرومان

أفرد الامبراطور التي اكتسبتها الجالية اليهودية في الإسكندرية منذ عهد البطالمة تكتهم ترجمو على جهود هذه الجالية ويهود مصر جميعا في حربه الدامية

ويحدثنا فيلون بأن يهود الإسكندرية كانوا يتكونون من الفئات التالية
١ — أصحاب رءوس الأموال ٢ — المشتغلون في النقل البحري ٣ — كبار التجار
٤ — الصناع وأصحاب الحرف
٥ — المشتغلون بالزراعة في الأراضي المحيطة بالإسكندرية. وتشير الدلائل إلى أنه منذ عصر البطالمة كان يهود الإسكندرية يميلون إلى اتخاذ أسماء إغريقية وارتداء ملابس إغريقية ويقبلون على تعلم الإغريقية والتزود من الثقافة الإغريقية. وإذا كان بعضهم قد تحرر من يهوديته أو صبا إلى إغريقيتهم فإن معظمهم استمسكوا بديانتهم وحرصوا على مراعاة تقاليدهم وعاداتهم. وإذا أضفنا إلى ذلك مغالاتهم [illegible] أدركنا لماذا كان اليهود في نظر الإغريق عنصرا غريبا عنهم كريها إليهم لا يقبلونه في مجتمعهم ويرون الخير كل الخير في قطع دابره مما أفضى إلى تلك المنازعات الدامية التي سبق الكلام عنها

وكان المجتمع اليهودي خارج الإسكندرية يتكون من الفئات التالية
١ — أصحاب الأراضي ٢ — أصحاب المهن الحرة من المشتغلين بالتجارة و [illegible] النقل في النيل وفي [illegible] البحر الأحمر والبحر

٣ — أرباب المهن الوضيعة والعمال الزراعيين وإذا كان أكثر يهود الريف قد احتفظوا أنفسهم بالإغريق فإنه لم يسمح لهم بالاندماج في المجتمع الإغريقي. أما جموع يهود الريف فكانوا يشاركون المصريين بيئتهم ويمارسون مهنهم والحرف ذاتها لأن القرائن تدل على أنهم تشبهوا بالمصريين فشاعت الأسماء المصرية بينهم بل عثر في مصر الوسطى على تابوت خشبي يحمل صورة مصرية ويحتوي على مومياء محنطة كما عثر أيضا في الفيوم على مومياوات لمحنطين أسماؤها وأسماء يهودية، ومع ذلك إزاء تلك الأدلة التي تدعو صاحب الحكم بأن كل يهود الريف قد تأثروا بالبيئة المصرية إلى حد أنهم كانوا جميعا يحنطون جثث موتاهم. فقد توافرت لبعضهم في الريف أسباب الاحتفاظ بدينهم ومناعة حياتهم الخاصة إذ إن القرائن تشير إلى أنهم في الوجهين البحري والقبلي كانوا ينتظمون في جاليات لكل منها معبد وإلى أنهم في بعض المدن مثل أرسينوي وأوكسيرينخوس وادفو كانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم. وتشير القرائن أيضا إلى أن ثورة ١١٥ — ١١٧ م تفضي إلى القضاء على المجتمع اليهودي في الريف المصري، وكل ما في الأمر أن هذا المجتمع قد أصابته ضائقة من الكوارث [illegible] ساقطة من جديد

وإذا كان الرومان قد تميزوا [illegible] على

اليهود بالاعتراف بهم بأنهم أتباع الديانة القديمة فإن اليهود لم ... عن الرومان لأنهم فقدوا اندماج يهود الإسكندرية في شتات مواطني تلك المدينة وبين خصومهم من عداء الإسكندريين لهم وحرصوا على يهود مصر ضريبة الرأس كاملة ، وكانوا لهم ضربات شديدة منذ ثورة فلسطين في عام ٦٦ مما أفضى الى ثوراتهم الخطيرة في عهد تراجان التي كانت محاولة يائسة حرفية للتخلص من نير الحكم الروماني ولا يدل استسلام اليهود بعد ذلك وسلبيتهم للرومان على رضائهم عن الحكم الروماني بقدر ما يدل على رضائهم بحكم الظروف التي كانت أقوى منهم

٤ ـ المصريون

(أ) فئاتهم

كان المصريون في العصر الروماني يتألفون من عدة فئات ، كانت فئة الكهنة أعظمها شأنا وأرفعها مقاما وأوسعها نفوذا مما حدا بالرومان الى اقتفاء أثر البطالمة الأوائل في اضعاف قوة رجال الدين المصريين فاعتبروا ملكية جانب من أراضي المعابد وأصبحت ... الحكومة ادارة جانب آخر من هذه الأراضي ووضعوا جماعة الدين تحت سيطرتهم ، ... عدد المعابد التي تتمتع بحق حماية اللاجئين اليها وإذا كانت الحكومة الرومانية قد أعفت أول الأمر عددا معينا من كهنة كل معبد من دفع ضريبة الرأس فإنها فرضت بعد ذلك على تناقص هذا العدد ولا جدال في أن الغالبية العظمى من رجال الدين المصريين حفظوا معابدهم القديمة الخاصة التي كانوا يمثلونها ويحافظون على المحافظة عليها ويصممون على بث تعاليمها في نفوس مواطنيهم ومع ذلك يصعب أن نتصور أن الدينيين منهم على الأقل لم يأخذوا بقسط من الثقافة الاغريقية

وكانت تلي هذه الفئة في الأهمية فئة أصحاب الأراضي وكان أفرادها على شيء من اليسر ولابد أن كثيرا منهم من تشبه بالاغريق فتعلموا الاغريقية واتخذوا أسماء اغريقية وملابس اغريقية وتزاوجوا مع عامة الاغريق المنتشرين حولهم في أرجاء البلاد ومع ذلك لم تكن صبغتهم الاغريقية الا طلاء خارجيا فقد كان من العسير فصم صلتهم بالماضي وتغيير طابع عقليتهم أو دخائل نفوسهم بسبب تمسكهم بديانتهم التقليدية وعلى كل حال من الراجح أن صبغتهم الاغريقية لم تكسبهم أي ميزة من ناحية وضعهم القانوني بمعنى أن الحكومة الرومانية لم تساوهم بمواطني المدن الاغريقية ولا حتى بمواطني عواصم المديريات ، ولم تعتبرهم الا مصريين عليهم ما على سائر المصريين من تبعات بل لعلهم من هذه الناحية كانوا أسوأ حظا من غيرهم من المصريين اذ أن الأمر لم يقتصر على أداء الضرائب المفروضة عليهم

بل كان يتعدى ذلك الى الاسهام فى تبعية الأرض فيجعلونه ويؤدون الضرائب المفروضة عليهم. وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تجند منهم بعض موظفيها تحتفظ لانفسهم بالاعمال الهامة ولما بدا لهم من أملاك كانت تستطيع أن تستولى منها مستحقاتها فى حالة عجزهم عن النهوض بالتزامات والتأكد على نحو يحقق لها أغراضها كاملة. وبعد كان يتكون جانب من هذه الفئة فئة محاربين المصريين التى ارتفع شأنها فى العصر الثانى من عصر البطالمة ومنح أفرادها اقطاعات لا بأس بها. وعلى كل حال فانه لم يعد لفئة المحاربين المصريين القديمة كيان مستقل فى العصر الرومانى فقد منع المصريون من الانخراط فى سلك الفرق الرومانية حتى فى القرن الثانى عندما اضطر الرومان الى التجنيد بحسب. فالرومان لم ينسوا ما حدث فى عصر البطالمة عندما أدى الاعتماد على المصريين فى موقعة رفح (عام ٢١٧ ق.م) الى انتعاش الروح القومية فى البلاد واندلاع لهيب الثورات الوطنية ضد البطالمة. ولذلك كان التجنيد يعنى فى العصر الرومانى -- على الأقل حتى منح المصريين حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى دستور كركلا -- مقصورا على الاغريق والمتأغرقين المقيمين فى مصر. ومع ذلك كان يسمح للمصريين بالعمل فى أسطول مسينوم فقط.

وكان يأتى فى مؤخرة طوائف عامة المصريين وكانت غالبيتهم العظمى تشتغل بالزراعة وكثيرون منهم يمارسون مختلف الحرف والصناعات. وقد فرض الرومان عليهم جميعا كافة الالتزامات وأداء ضريبة الرأس كاملة وحرموا عليهم استعمال اللغة الديموطيقية حتى فى عقود معاملاتهم الخاصة

(ب) حضارة المصريين

واذا كانت الأمية متفشية بين عامة الاغريق فلا جدال فى أنها كانت متفشية كذلك بين جموع المصريين الذين استمروا يعيشون كما كان أجدادهم يعيشون من قبل، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم، متمسكين بديانتهم الى أن اعتنقوا المسيحية طوعا أو كرها

وهكذا يبدو أن الغالبية العظمى من المصريين كانت تعيش بمعزل عن الحضارة الاغريقية فلم يظفر بحظ منها الا قلة قليلة. واذا كانت المعابد الكبرى قد احتفظت بالمدارس الملحقة بها فقد انقضى ذلك العهد الزاهر الذى لعبت فيه بعض هذه المدارس شأوا بعيدا وورثت مدارس العلماء عن تلك المكانة السامية جامعة الاسكندرية بمكتبتها الكبرى ... وتوحد بين من حصلوا على التعليم الاغريقى وبين الأمية من جموع المصريين وخصوصا ... الديموطيقية حتى فى العقود الخاصة لا ... يكون ... بدلا من الأخطية القديمة ... الى حد ... الى

علاوة على ذلك ، وعلى أعم ما نعلمه عن انتشار المسيحية في مصر في عام ... أنشئت مدرسة المسيحية الكبرى في الاسكندرية كأول معهد تعلم ... من المبادئ المسيحية واستمدت الى الاسهام بمجهودات في المدارس التي كانت منتشرة في عواصم المديريات وحتى تكلام عنها في معرض الحديث عن التعليم الاغريقي

(ج) ثورات المصريين

ويرجع لفشل الامر الذي انتهى اليه كفاح المصريين ضد البطالمة ، ويرجع لقسوة الكبيرة التي وضعها الرومان في مصر فانه لم تكد تمضي شهور قليلة على الفتح الروماني حتى هب المصريون ثائرين على الضرائب الجديدة وقد رجع ثورة الثورة ضد الرومان منطقة طيبة التي مر بنا أنها أقضت مضاجع البطالمة بزعامة الحركات الثورية ضدهم منذ عهد بطلميوس الخامس الى أن شن حرب ضروس على العاصمة الوطنية القديمة طيبة وتخريبها تخريبا ويبدو أن الثورة تجددت ثانية بحيث من الخطورة بحيث اضطر معه أول حاكم روماني لمصر (كورنيليوس جالوس) الى تجريد حملة قوية لقمعها ويبدو كذلك أن الثورة لم تقتصر على مصر العليا بل ... فيها الدلتا أيضا اذ ان ... بتجديد بأنه قمعت ثائرة هيروونبوليس (تل المسخوطة في شرق الدلتا) ، بعد عليها كورنيليوس جالوس وأخضعها

ولا تذكر مصادرنا القديمة شيئا عن ثورات عامة بين المصريين بعد ذلك الا الثورة المعروفة « بحرب الرعاة » التي وقعت في عام ١٧٢ في منطقة بوكولا السبخة شرقي الاسكندرية وقد تزعم هذه الثورة كاهن مصري يدعى ايسيدوروس واشترك فيها جموع كبيرة من مزارعين تمكنوا من القضاء على الحامية الرومانية في منطقتهم وكادت من هزيمة الكتائب الرومانية التي أرسلت اليهم ، حتى قريب من وقوع الاسكندرية في قبضتهم مما اقتضى استدعاء نجدة من سوريا حتف على رأسها افيديوس كاسيوس حاكم تلك الولاية (عام ١٧٥) وقد لجأ افيديوس الى حيلة ومراوغات حتى نجح في بث الفرقة بين صفوف الثوار ثم قاتلهم متفرقين وانتصر عليهم فنودي به الشرق السورية امبراطورا لكنه لم يلبث أن لقي حتفه بعد ذلك بقليل

وليس أبلغ في الدلالة على سوء الحكم الذي أقامه الرومان في مصر من أنه لم يحدث رغب من أي مصريين ممن كانوا يعيشون في مصر عندئذ سواء أكانوا من الاغريق أم اليهود أم المصريين

الفصل الثامن

الآداب والعلوم والفنون

ونرى أنه في العصر الروماني كانت الإسكندرية لا تزال مدينة عظيمة وتعتبر ثاني مدينة في الإمبراطورية الرومانية بعد روما مباشرة والرومان كانوا معطوفين على الحضارة الإغريقية ويحترمونها ويكلأون جامعة دار العلم بالإسكندرية برعايتهم. لكن الإسكندرية لم تعد عاصمة دولة خطيرة ومصر بلاد فحسب كان من الصعب عليها أن تجعلها عاصمة الحضارة الإغريقية ويحس بأن يجتذب إليها أبرز رجال الفكر والفن وأن توفر لهم من الرعاية ما يحفز همتهم ويشحذ قرائحهم. ومع ذلك فإن الإسكندرية ثابرت نشاطها وكان لها نصيب الأسد في حياة مصر العقلية وإن كانت لم تحتكر نجابة البارزين من رجال الفكر والعلم فقد نشأ في [illegible] [illegible] ويوسوكس ، وفي بيكوريبس (أسيوط) الفيلسوف أفلوطين ولا أدل على احتفاظ الإسكندرية بمكانتها العلمية مما نسمع إليه [illegible] [illegible] [illegible] من العلماء [illegible] عليها حتى [illegible] القرن الثاني الميلادي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] بطليموس بولوس ، أو يعرضوا مواهبهم في [illegible] العلمية مثل ديديموس وسيسيوس [illegible] فضلاً عن الكثيرين من الطلاب الأجانب الذين ظلوا يقصدون الإسكندرية لتلقي العلم فيها وخاصة الطب حتى أواخر القرن الرابع على الأقل.

أولاً – الآداب

١ – دار العلم (الجامعة) والمكتبة

وقد استمرت الجامعة مدة طويلة مركزاً للبحث العلمي ومقراً للعلماء تستضيفهم فيه الدولة على نفقتها وتجري عليهم المرتبات. وإذا كان الأساس في التعيين في الجامعة أن يتوقف على مكانة الشخص العلمية أو الأدبية فإن القيصر الذي يوصي بأن المعايير لم تلبث أن تغيرت مثلاً متى [illegible] هادريان رجلاً يدعى بانكراتس كل ما يعرف عنه أنه [illegible] قصيدة [illegible] في [illegible] وصل إلينا جزء منها. [illegible] القرن [illegible] حال الجامعة [illegible] بعض [illegible] [illegible] [illegible] الرياضيين [illegible]

الامبراطور كلاوديوس الى مبنى الجامعة ملحقا جديدا سماه وكانت تتلى فيه بوصفه مؤلفات هذا الامبراطور المؤرخ ولا نستطيع أن نحدد بوجه أوحد ؟ كان في صدد القرب الب الايجابي على الجامعة كان لذلك أثر سيء يتمثل في نشاط البحث العلمي اذ أنه لم يعد في وسع الاساتذة الانصراف الى بحوثهم مع القاء بعض المحاضرات من حين لآخر بل أصبح يتعين عليهم التدريس أو أداء أي عمل آخر لقاء أجر يعيشون منه . ولقد نزلت بالجامعة نكبة أخرى في عام ٢٦٩ – ٢٧٠ عندما دخلت جيوش زنوبيا حي بروخيون وأوسعوه نهبا وتخريبا ولم تتح فرصة لجامعة من هذه النكبة الذي لم يفض على كل حال الى القضاء على الحياة العلمية والأدبية في الاسكندرية اذ نجد صورة عنها واشادة بها فيما كتبه المؤرخ اميانوس مركلينوس حوالي نهاية القرن الرابع الميلادي .

وقد مر بنا أنه عندما أحرق يوليوس قيصر الأسطول المصري في خلال « حرب الاسكندرية » في عام ٤٧ ق . م . وصلت اللهب الى رصيف الميناء وأحرقت المباني المجاورة له ، فذهبت المكتبة الكبرى ضحية نيرانه ويقال أن انطونيوس عوض كليوبترة عن تلك الخسارة الفادحة باهدائها ٢٠٠٫٠٠٠ مجلد من مكتبة برجاموم . وقد كانت توجد في الاسكندرية مكتبتان أخريان ، كانت احداهما ملحقة بمعبد السيرابيوم وكانت الاخرى ملحقة بمعبد قيصر . وقد ظلت هذه المكتبات تمد الباحثين بما يحتاجون اليه من مصادر ومراجع الى أن ذهب بعضها ضحية لأعمال التخريب التي قام بها جنود أورليان والبعض الآخر ضحية للصراع بين المسيحية والوثنية عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة .

وقد تابع علماء جامعة الاسكندرية في العصر الروماني ما بدأه أسلافهم في عصر البطالمة من تحقيق النصوص الأدبية ونقدها والتعليق عليها . وقد كان من أبرز هؤلاء الباحثين ديديموس الذي ذاعت شهرته في عهد تيبريوس الى حد أنه دعي للتدريس في روما . وقام معاصره بامفيلوس بجمع معجم هائل من التعبيرات النادرة التي تستخدم في الآداب الكلاسيكية . وكلف اريستونيكوس بالدراسات الهومرية فشرح علامات اريستارخوس ونقدها وأكملها . وحوالي نهاية ذلك العصر أخرج ثيون معجما للتراجيديا والكوميديا ووضع تعليقات لأعمال شعراء الدوريين وثيوكريتوس الرودسي . وذاعت أيضا عندئذ شهرة ابيون الذي نال تقدير تيبريوس وان كان الامبراطور ضاق ذرعا بثرثرته والاعتداد بنفسه . وقد ألف ابيون معجما للألفاظ الهومرية سطا عليه موسيقوس . وقد كان أبرز فقهاء القرن الثاني بوليموس « الهرمسي » وديسكالوس وهليودوروس .

٢ ـ الشعر

يحتل شعر الاسكندرية مكانا متواضعا من آدابها في العصر الروماني. فالاسكندرية لم تعرف في هذا العصر شاعرا كبيرا وحيدا يذكر بمقدرته بكالماخوس أو ثيوكريتوس أو ابولونيوس، وان عرفت جمهرة من الشعراء المغمورين الذين حافظوا على تقاليد الشعر الاسكندري من حيث خلوه من العواطف السامية والشعور بالتقوى نحو الآلهة القديمة وكذلك من حيث كلفه بأدق العلم مختلفة وتصوير مشاعر الانسانية والاشادة بالعظمة الحسية لكنهم لم يكونوا شعراء مطبوعين وانما يصطنعون الشعر اصطناعا. ويمثل أبرز أوساط الشعراء المتواضعين اثنان كان أحدهما ديونيسيوس الاسكندري الذي عاصر هادريان وألف قصيدة جغرافية وصف فيها ليبيا والجانب الأكبر من آسيا وأوربا معتمدا في ذلك على خريطة العالم الجغرافي اراتوستينيس. وقد قدر لهذه القصيدة أن تعمر طويلا لأنها ترجمت الى اللاتينية واستخدمت في تدريس الجغرافيا في المدارس. أما الشاعر الآخر فانه كان من أبناء واحة سيوة ويدعى سوتريخوس وألف قصيدة في وصف مسقط رأسه وأخرى في مدح الامبراطور دقلديانوس وعددا آخر من القصائد عن ديونيسوس والاسكندر الأكبر وغير ذلك من شتى الموضوعات.

٣ ـ النثر

وقد تأثر نثر الاسكندرية في العصر الروماني باتجاهات مدارسها الفلسفية التي شغلت مكانة كبيرة ولا سيما أن الفلاسفة على اختلاف مللهم ومذاهبهم كانوا يعتبرون في ذلك العصر أنبياء منقذين. وإذا كانت مختلف المدارس الفلسفية القديمة قد تابعت نشاطها فان الفيثاغورية الجديدة احتلت مكان الصدارة فيها الى أن اندمجت في خلال القرن الثالث في الأفلاطونية الجديدة. وكانت الفيثاغورية الجديدة تتألف من عناصر استمدت من الفيثاغورية القديمة ومن فلسفات أفلاطون والمشائين والرواقيين وتمتزج سويا على نحو يلائم الاتجاهات الدينية المعاصرة فقد وجهت عناية خاصة الى التأملات الدينية والمذاهب الخلقية. وقد كان للفيثاغورية الجديدة أثر كبير أولا في الأفكار اليهودية عن طريق الفيلسوف اليهودي فيلون الاسكندري وثانيا في الأفكار المسيحية عن طريق كليمنس (Clemens) واوريجينيس (Origenes). وثالثا في الأفلاطونية الجديدة.

ويعتبر فيلون أعظم المفكرين اليهود الذين يمثلون التقاء اليهودية والهلينستية كما تعتبر مؤلفاته سجلا لانتاج يهود الاسكندرية الأدبي في العصر الروماني. ومن المحقق أن فيلون تأثر بالفيثاغورية الجديدة لأنه استعار منها الكثير من أفكاره ومنهجه في وضع فلسفته التي كانت تستهدف الجمع

بالفلسفة اليهودية من غنوصية تصبو إلى أبعد وسع نطاقه تحمل بذور من كل مظاهرها العنصرية. وعندما قدم فيلون شرح التوراة والتعليق عليها وجدت نظرته الرمزية تتبنى صيغ الميتافيزيقية الجديدة لتجعل الشخصيات الدينية في التوراة رموز للأفكار المجردة واكتسبت تعاليم موسى رؤية مظهر جديد جعلها رمزاً للأفكار مرهفة نبيلة.

وقد كان كليمنس ومن بعده أوريجينيس أبرز أساتذة المدرسة المسيحية الكبرى في الإسكندرية. وبفضل هذين الأستاذين اتجاه جديد للمفكرين المسيحيين نحو الفلسفة الوثنية عداء شديدا يكشف عن ضعفها ويرد الأعداء عن المسيحية — اكتسب الاتجاه الجديد بدفع الدعوة إلى الإلمام بثقافة العصر واستخدام أساليب الفلسفة في نشر العقيدة المسيحية وتفسيرها. وقد جمع كليمنس إلى قوة إيمانه بالمسيحية الإلمام الواسع بالأدب الإغريقي ونال حظاً كبيراً للتوفيق بين الثقافة الإغريقية والديانة المسيحية. أما أوريجينيس فإنه كان أقل من كليمنس إلماماً بالآداب الإغريقية لكنه كان أعمق منه تفكيراً وأدق فهما للمذاهب الفلسفية وأكثر دراية بمناهج البحث العلمي وأوسع قدرة على الابتكار. وقد ... أسلوبه المسيحية في محص نص للإنجيل ... ومهما اختلف الباحثون في تقدير طبيعة فلسفته المسيحية ومداها فإن الكنيسة لم تر انطلاقاً إلى هيئته الكبيرة.

وقد كانت الأفلاطونية الجديدة مزيجاً من الفلسفة الأفلاطونية والرواقية ... والفيثاغورية الجديدة. وقد أصبحت الأفلاطونية الجديدة الفلسفة الرئيسية عند الوثنيين من حوالي منتصف القرن الثالث حتى قضى جوستنيانوس بإغلاق المدارس الوثنية في عام ٥٢٩. وكان أبرز مفكري هذه الفلسفة أمونيوس سكاس (Ammonius Saccas) الإسكندري وأفلوطين الأسيوطي وتلاميذ أفلوطين.

وكان من أوسع كتاب الإسكندرية في أواخر القرن الثاني عشر والثالث أثينايوس (Athenaeus) النقراطيسي الذي اكتسب شهرة كبيرة بكتابه «مأدبة الفلاسفة». وقد حاول أن يحشو في كتابه نثر بعض الفلاسفة القدامى في عرض آرائهم في شكل أحاديث المأدب لكنه لم يرق إلى مستواهم. وقد ذهب في مؤلفه إلى ... أيام دار فيها الحديث في الفلسفة والآداب والقانون والطب وغير ذلك من الموضوعات التي مثلها عدد من الضيوف أخرى للمؤلف على ... مقتطفات استمدها من عدد كبير من الكتاب.

وقد جمع أخيلس تاتيوس Achilles Tatius مؤلف قصة لوكيبي وكليتوفون Leukippe and Kleitophon حكاية مثيرة في تصوير ... وأخاذ ... العصر

اليوناني في الشام عليه. وأبرز ما يتصف به جميس تمسكه بالواقعية على مثاليه وميله الى إثارة مشاعر القارىء بما له اتجاهه في الوصف وأسلوبه بدى بدقته حيوية

وتتسم كتابة التاريخ في هذا العصر سابقها بالتأثير في نفس أكثر من عنايتها بتحري الحقيقة. ويطليوس خمنوس (Chennus) خير من يمثل هذه الظاهرة التي تتضح في مؤلفه « تاريخ جديد للأساطير في تواريخ كثيرة » ويبدو أن هذا التاريخ مجموعة من القصص التي تروق للمؤلف و سمعه. ولعل أبيانوس (Appianus) كان أبرز مؤرخي الاسكندرية في هذا العصر لكن مؤلفه الضخم في التاريخ الروماني أكثر تأثرا بالطابع اللاتيني منه بالطابع الاسكندري؛ اذ أن أبيانوس بعد أن حصل على الجنسية الرومانية رحل الى روما وعاش هناك حيث يرجح أنه وضع مؤلفه في عصر أنطونينوس بيوس. وقد شرت في كتابه لتاريخ أشهر العالم الفلكي كلاوديوس بطلميوس لكن شهرته كجغرافي ورياضي تبز شهرته كمؤرخ. فكتابه في الجغرافيا يتألف من ثمانية أجزاء وأطلس وكان يستهدف على حد قوله استخدام أحدث المعلومات في تصحيح خريطة العالم التي وضعها جغرافي عاش قبله وكان يدعى مارينوس الصوري. وبرغم ما تضمنه كتاب بطلميوس من أخطاء فانه يعتبر بوجه عام من المؤلفات الجغرافية القديمة وأكثرها مفصولا ولذلك ظل مرجعا لكل دارسي الجغرافيا حتى بداية العصور الحديثة

ثانيا : العلوم

١ ـ الطب والجراحة

وقد تابع أساتذة الطب والجراحة نشاطهم في الاسكندرية وظلت هذه المدرسة القديمة تحتفظ بشهرتها في هذا الميدان على الأقل حتى أواخر القرن الثاني. فمثلا كتب جالينوس أن ماركيليوس كان يكفي الطبيب للتدليل على مهارته كونه قد تعلم في الاسكندرية. ويعطينا دليلا على مكانة الاسكندرية في عالم الطب كثرة عدد الذين كانوا يقصدونها من مختلف أنحاء العالم لدراسة الطب على أساتذتها الذين تابعوا اهتمامهم بالتشريح وكان كثيرون منهم يعتزون بأنهم من أتباع المدرسة التجريبية التي ترجع الى عهد بطلمية. وقد درس في الاسكندرية أشهر أطباء هذا العصر وأعظمهم جميعا « كلاوديوس جالينوس » الذي ولد في برجاموم في عام ١٢٩ وزاول مهنته بعض الوقت في وطنه ثم في روما الى أن توفي هناك في السبعين من عمره

وسعينا كلسوس (Celsus) صورة ناطقة عن الطب والجراحة في الاسكندرية في صدر العصر الروماني. ويسمى كلسوس كتابه عن الطب (de re medica) — وهو مقسم الى ثمانية أجزاء تاريخ

فرعاً للطب يختص بمقارنة بين أتباع مدرسة تجريبية وأتباع مدرسة التجريبية ويختص الجزءين الأول والثاني بالمقدمة وعلم الأمراض والقواعد العامة للعلاج ويناقش في الجزءين الثالث والرابع الأمراض الداخلية وفي الجزءين الخامس والسادس الأمراض الخارجية ويعتبر الجزءان السابع والثامن وهما يتناولان الكلام عن الجراحة ، أهم أجزاء هذا الكتاب ويتبين من هذين الجزءين أن جراحي الإسكندرية لم يباشروا مختلف أنواع الجراحات المألوفة فحسب بل أيضاً جراحة تحسين الوجه وكذلك جراحة الأسنان. وتحدثت الوثائق البردية بأن بعض أطباء الإسكندرية ابتكروا عدداً من الأربطة والأجهزة التي عرفت بأسمائهم وكانت تستخدم في حالة حدوث كسر في العظام أو خلع في الأعضاء الداخلية

لكن في القرن الثالث لم تعد الظروف مواتية للأبحاث والملاحظات العلمية فقد انقضى عهد الكشوف وأصبح هم العلماء مقصوراً على تكرار المعلومات المتوارثة بين ما سبق الوصول إليه وبين حاجات العصر فلا عجب أن هذا الطب يتدهور رويداً رويداً وأخذ عامة الناس يلجأون إلى التعاويذ والسحر والتنجيم من أجل الشفاء من أمراض بينما أخذ المتعلمون يستعينون بعلماء الكيمياء في معالجة الروح

٢ ـ العلوم الرياضية

وإن كانت فروع العلم الأخرى قد أصابت في العصر الروماني فاقة كان للعلوم الرياضية شأن آخر وليس معنى هذا أنه لم يحدث بعض التأخر في ذلك إلى رعاية الرومان ، فقد كانوا يحتقرون العلوم النظرية حيث إنه ما كان يمكن الإفادة من تطبيقاتها

وقد عرفت الإسكندرية رياضيين عظاماً مثل منيلاوس (Menelaus) وسرينوس (Serenus) وبابوس (Pappus) الذين عنوا بدراسة الهندسة وتم فيها مؤلفات فيه نكى مؤلفات سرينوس لم ترق إلى مستوى مؤلفات العالمين الآخرين التي ترجمها العرب وبعضها وصلت إلى العالم الحديث. وقد كان من الإسكندرية أيضاً العالم ديوفانتوس (Diophantus) الذي ابتدع نظاماً خاصاً بالحساب كخطوة واسعة نحو الجبر. أما هرون (Heron) فله مؤلفات كثيرة في الهندسة والميكانيكا لم يصل إلينا بعضها إلا بالعربية والبعض الآخر باللاتينية فقط والبعض الثالث بالإغريقية والعربية واللاتينية ، واستخدمت كتبه في المدارس عدة قرون وتعتبر جهود هرون قبل كل شيء استمراراً لجهود أرشميدس وإقليدس وكتسيبيوس ، فقد كان يحاول الاهتمام بتطبيقات العلم في صنع وسائل مساحة الأرض ورفع الأثقال واستخدام البخار وطاقته لإطفاء الحرائق وإظهار سبعة عدادات متساويات

شمس الفلك بأربعة أمثالا ... وقد كان أصول الفلكيين الاسكندريين تابعـ وأعظمهم بلا شك كلاوديوس بطليموس الذي ... المصري الذي ساهم ... الأسد ... المسكي عدة مؤلفات ترجم العرب أكثرها ، وأهم هذه المؤلفات كتابه « المجموعة الكبرى » الذي يلخص ما وصل اليه الفكر الاغريقي في الفلك وفق نظريات هيبارخوس مع ما أضافه بطليموس الى هذا العلم

ثالثا ـ الفنون

١ ـ في العمارة

سنتناول الكلام هنا في إيجاز شديد عن المقابر والمنازل والمنشآت العامة والمعابد وبيان الى أي مدى تأثرت العمارات المصرية والاغريقية ببعضهما بعضا ، والى أي مدى كانت البلاد مصرة الرومانية وجدودها واحتفظت بطابعها في مصر

(١) المقابر :

عرف أن الاغريق كانوا يستخدمون في عصر البطالمة ثلاثة أنواع من المقابر وهي (١) الحفر ، (٢) المحروات المستطيلة (loculi) التي كانت تبنى أو تنحت في جوانب دهاليز أو غرف ، (٣) مقابر الأرائك التي تحوت في آخر العصر البطلمي الى مقابر ذات محراب ومحا ... أحمعي الا أنه ... وكان الموتى يحنطون في توابيت كالمصريين كانت توضع في المحاريب

وقد أثبت الحفـــائر التي أجريت في الاسكندرية أن مقابر الأرائك قد عمد استخدامها في العصر الروماني وأنه فضلا عن ذلك كانت تستخدم في هذا العصر ثلاثة أنواع أخرى . وكان النوع الأول مماثلا للنوع الأول الذي كان مستعملا في عصر البطالمة ولا غرابة في ذلك فقد كان هذا النوع شائعا بين عامة الناس عند الاغريق وعند الرومان على السواء . أما النوع الثاني فكان في أبسط مظاهره تألف من سلم وبئر (لا تزال تحوي) وغرفة ذات محراب وغرفة ذات توابيت وكان نظام هذه الغرف ومداخلها وتوزيعها يختلف اختلافا بينا ، ومع ذلك فإن الصلة واضحة بين هذه المقابر ومقابر عصر البطالمة . أما النوع الثالث فيشبه من قرب المقابر الكبرى في روما من حيث وجود غرفة مستديرة تؤدي الى غرفة الدفن الرئيسية على نحو ما نجد في المقبرة الكبرى في كوم الشقافة حيث استخدم للدفن التوابيت والمحاريب على غرار ما كان يتبع في مقابر النوع الثاني

وإذا كان طراز العمارة في هذه المقابر اما اغريقيا أو رومانيا فإن الزخرفة فيها سرعان ما تلفت النظر بكثرة ما فيها من عناصر مصرية . وتتجلى هذه الظاهرة نفسها في الفن الجنائزي أيضا

وتدل الحفريات على أن الغالبية العظمى من المصريين قد حافظوا على تقاليدهم المعمارية وطرق الدفن التي عرفوها منذ عهد بعيد. فقد كانوا يدفنون موتاهم إما في مقابر قديمة أعادوا استخدامها أو في مقابر جديدة كان بعضها عبارة عن كهوف طبيعية أو ثقوب حفرت في جانب التلال أو آبار حفرت في باطن الأرض، وكان لها بئر ينتهي بحجرة واحدة أو غرفتين للدفن.

ويتبين من الكشوف الأثرية في جبانة تونة الجبل، بالقرب من الأشمونين، أن المصريين المتأغرقين كانوا يشيدون معابد وبيوتاً جنائزية تختلط فيها العناصر المصرية والإغريقية اختلاطاً واضحاً سواء في العمارة أو في زخرفتها أم في طرق الدفن.

ومما يجدر بالملاحظة أن بعضها بني على شاكلة بيوت المصريين وحتى بين المسيحيين منهم فإنهم حتى أواخر القرن الرابع لم يغيروا عاداتهم طبقاً لمعاني ديانتهم الجديدة.

وهكذا يتبين لنا أنه جنباً إلى جنب العمارة الجنائزية الإغريقية والعمارة الجنائزية المصرية قد ظهرت أيضاً العمارة الجنائزية الرومانية. ويستوقف النظر أنه على حين فقد الأثر المصري والشرقي جاذبيته في زخرفة العمائر ذات الطرازين الإغريقي والروماني، نجد الأثر الإغريقي وأصبح جلياً كذلك في زخرفة بعض أمثلة العمارة الجنائزية المصرية.

(ب) المنازل

ونرى في الفيوم أن عدداً من الإغريق في بعض مدن الفيوم كانوا يستخدمون نوع المنازل التي ألفوها من قبل في مصر القديمة، ولكنه فيما يبدو أنشئت أيضاً منازل صممت شبيهة بالفيلات الرومانية. أما فيما عدا ذلك فإنه يتبين من المنازل الكثيرة التي كشفت الحفريات عنها في بعض مدن الفيوم وقراها أن الإغريق كانوا كالمصريين يعيشون في منازل مصرية الطراز نظراً لملاءمة المنازل التي عرفتها مصر منذ أمد طويل. لكن يبدو أن الإغريق والمصريين المتأغرقين كانوا يستخدمون في تزيين منازلهم زخارف إغريقية.

(ج) المنشآت العامة

أقام الرومان في جهات متعددة في مصر عمائر مدنية متعددة الأنواع، كالبوابات والأقواس والمسارح والجمنازيا والحمامات العامة. ويتبين من بقايا المنشآت التي كشف عنها أنها كانت وفقاً للطراز الروماني في تخطيطها وعمارتها وزخرفتها وأن الطراز الروماني في مصر كان كشأنه في روما وباقي أنحاء العالم الروماني يتميز باستخدام الأعمدة الكورنثية. وعلى حين كانت عمائر المساكن مبنية عادة من اللبن كانت المنشآت العامة تبنى من الأحجار، وكثيراً ما استخدمت فيها، ولا سيما في الإسكندرية، الرخام المستورد من الخارج.

ولم يبق من معابد الاسكندرية التي شيدت في العصر الروماني الا صور مرسومة بعضها على النقود. واذا فحصنا هذه الصور نستطيع الحكم على طراز هذه المعابد وبه يمكن القول بأن طراز أغلب هذه المعابد كان اغريقيا أو رومانيا على حين كان طراز البعض الأخر مصريا بحتا وطراز البعض الثالث يسيطر عليه الطابع المصري لكنه لا يخلو من بعض العناصر الرومانية

أما معابد الآلهة المصرية التي أكملها الرومان أو زخرفوها أو أنشأوها في مختلف القرى والمدن المصرية فانها اتبعت بدقة تقاليد الفن المصري القديم ولا تظهر فيها أي تأثيرات أجنبية ويتمثل ذلك بوضوح في معابد مدينة هابو والقلعة بالقرب من طيبة ودندرة واسنا وكوم امبو وفيلة ودندور وكلابشة والمحرقة. وقد صور الأباطرة على جدران هذه المعابد في شكل الفراعنة وزيهم وهم يقدمون القرابين لمختلف آلهة البلاد

ويتبين لنا من كل ما أسلفناه أنه اذا كان فن القوم بوجه عام أي كلا من الحضارة الاغريقية والرومانية ولا سيما المصرية قد حفظت بطابعها الخاص فانه مع ذلك قد ظهرت حتى في العمارة الدينية دلائل على مزج الأشكال والعناصر

وقد عرفت مدرسة الاسكندرية في عصر البطالمة مدرسة للنحت الاغريقي ذات مميزات خاصة وطراز في أحجامها بين الاحجام والقيم. ولكن الاسكندرية المصرية فرضا جديدا على فن النحت كان عبارة عن دراسة أجناس الناس وطباعهم وحرفهم

واذا ساد الفن الروماني اتجاه قوي نحو صنع تماثيل تحاكي أشكال أصحابها محاكاة دقيقة كأنها من صنع آلة تصوير أو ريشة رسام وجد فنانو الاسكندرية في هذا الاتجاه مجالا واسعا لاظهار مواهبهم في صنع تماثيلهم بطراز مدرستهم وطابعها الاغريقي البحت. ويتصل بهذه الصور المصنوعة من الرخام أو المرمر أو مختلف أنواع الصخور مجموعة رائعة من الصور كشف عنها في الفيوم وكانت تصنع بالألوان على لوحات مكسوة بالشمع وتعلق على جدران المنازل في أثناء حياة أصحابها ثم تغطى بها وجوههم بعد مماتهم. وقد بدأ انتاج هذه اللوحات في القرن الأول بعد الميلاد وبلغ ذروته من حيث الجودة والابداع في القرن الثاني

وقد تابع الفن المصري نشاطه في التماثيل وعلى جدران المعابد ونحت النقوش بمختلف النواحي التي كان أسلافه بالغوها منذ القدم

وحسبي من دراسة فن النحت في العصر الروماني

١ — ان أكثر النقود التي سكها البطالمة وكثير من قطع النحت التي ابتدعها الفنانون الاغريق اغريقية بحت في طرازها وعناصرها وصنعها ، وان الكثير من قطع النحت المصرية وكل منتجات المعابد مصرية بحتة في طرازها وعناصرها وصنعتها .

٢ — ان الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيها العناصر دون الطراز مثل تصوير إله مصري أو بوجه معبود مصري أو تاج مصري على تلك السلسلة من النقود التي تعرف بنقود المديريات ، فهذه عناصر مصرية الا أن طراز النقود اغريقي . ومثل صنع تماثيل لآلهة مصرية بطراز اغريقي أو صنع تماثيل لاغريق أو رومان من الشيست أو الجرانيت أو غير ذلك من المواد المصرية من الفن الاغريقي . ومثل تصوير الأباطرة الرومان بطراز وملابس مصرية . وقد سلف القول ان المقياس الحقيقي في أي فن من الفنون هو الطراز باعتباره مظهر تفكير الفنان وطابع حضارته . ولذلك فان اختلاط العناصر لا يدل على شيء قاطع يدل على أثر المدنية لا على أثر الحضارة .

٣ — ان القليل من قطع النحت محاولات وصنعه ان كانت غير ناضجة لمزج الطرازين المصري والاغريقي . وهذه القطع أدنى قدراً في قيمتها الفنية من القطع التي طرازها اغريقي بحت أو مصري بحت ، ومع ذلك فان عددها زاد على مر الأيام . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لازدياد الاختلاط بين الاغريق والمصريين وزيادة امتزاج الاغريق بالمصريين . وكان هذا الفن المزيج مرحلة الانتقال التي مهدت لقيام الفن القبطي .

٤ — ان الفنين الاغريقي والمصري أخذا يتدهوران رويداً رويداً ولم يحتفظ كل منهما في تدهوره السريع الا بالتقاليد القديمة ومهارة الصناع الموروثة . ولما كان الفن المصري القديم يقوم على الديانة ، شأنه في ذلك شأن باقي مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، فان اعتراف الدولة رسمياً بالمسيحية أفضى الى القضاء عليه قضاء مبرما .

من ديوقلديانوس إلى دخول العرب

للدكتور مراد كامل

مقـــــدمة

في القسطر الثاني من حكم الرومان ، أي من ديوقلديانوس الى دخول العرب تأثر تاريخ مصر بعـاملين رئيسيين وهمـا المسيحيـة والسياسة البيزنطية

وسنقدم لهذا العصر بكلمة موجزة عن سياسة الاباطرة العامة ، من ديوقلديانوس الى هرقل ، ثم نتبعها بنظام الادارة في مصر والنظام المالي والجيش والحالة الاقتصادية

وسنعرض في الفصول الخمسة التي تلي لقصة الألوان المختلفة لحياة الشعب المصري من سياسية ولغوية وفكرية ودينية واجتماعية في هـذا العصر ، وسيتضح لك من هـذا العرض كفاح الشعب المصري للاحتفـاظ بشخصيته وكيانه ضد الحاكم المغتصب

ولقد كان للاسكندرية الزعامة الدينية في الشرق المسيحي ، وفي مصر نشأت الرهبنة التي أخذها عنها العالم المسيحي ، وفي مصر ظهر أعظم رجال الفكر المسيحي وكانت مصر منذ فجر تاريخها المس في تقدم رسالة حضارة ، حضن نيلها وطبيعة أهلها الذين حيث بالثاره على العمل والتسامحة والسماحة ولم يسمح هذا أن يعم النوس البلاد في هذا العصر ، وذلك بسبب فساد اداة الحكم واستغلال الحكام ، بعد هذا الشعب الذي كان يعيش في هـذا الجو الفاسد أن يمقت حكامه ويحتقرهم وأن يتطلع الى الاستقلال والحرية وحياة أفضل

وكان دخول العرب فرصة مواتيه أحدثت تغيرا شاملا في السياسة وفي الدين ، ووجهت مصر وجهة جديدة نحو الشرق والاتصال بشعوب الشرق ، بعد أن كانت صلاتها الحضارية مقصورة على الغرب أو بعبارة أدق على الحضارة الاغريقية

* * *

من ديوقلديانوس الى هرقل (٢٨٤ – ٦٤١م)

ديوقلديانوس ٢٨٤ – ٣٠٥ :

تولى ديوقلديانوس الحكم فوجد نفسه أمام مجموعة من اللوائح والقوانين والنظم — التي تسير عليها سياسة الامبراطورية — لا تتمشى وحاجة عصره ، فحاول أن يصالح الموقف بادخال تغيرات أساسية في سياسة الدولة ، وذلك لتتفادى الانهيار المتوقع للامبراطورية وليمنع الاضطرابات التي كانت تسود الدولة بعد موت الامبراطور ، وتولى خلفه له

أدخل دقلديانوس اصلاحات عديدة على النواحي المختلفة في الدولة ، فجعل من الامبراطور شخصية مقدسة تؤدى له فروض العبادة في حضرته بمقتضى طقوس مقتبسة من ملوك ومستمدة من تقاليد الشرق

كما ركز في الامبراطور سلطة الحاكم المطلق فأصبح يقبض على كل السلطة الادارية وقلل سلطة السناتو التي وظيفته استشارية وجعل كل الولايات خاضعة للامبراطور فلم يعد هناك ولايات خاضعة للسناتو ، كما ألغى الامتيازات الممنوحة للولايات التي كانت من الأصل تخضع للامبراطور ، ثم أدمج الولايات في وحدات ادارية وركز كل الادارات الامبراطورية في يدي موظفين وادارات تابعة مباشرة للامبراطور ، وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية

وحاول دقلديانوس أن يحل مسألتين اللتين كانتا موقف مهدد لسلامة الامبراطورية ، وهما الدفاع عن البلاد وتنظيم وراثة العرش

وكان دقلديانوس يعتقد أن الدفاع عن حدود امبراطورية مترامية الأطراف لا يمكن أن يتولى أمره امبراطور واحد . وقد حمله ذلك على أن يشرك ماكسيميان معه في الحكم ، وذلك في سنة ٢٨٦ وأسند الى ماكسيميان الدفاع عن الغرب واحتفظ لنفسه بالدفاع عن الشرق . أما وراثة العرش فلم يكن لها نظام معين ، وكانت المطامع في ولاية العرش من المشاكل التي تواجهها الامبراطورية عند موت الامبراطور . وفي سنة ٢٩٣ قرر دقلديانوس أن يكون هناك امبراطوران في نفس الوقت ، أحدهما للشرق والآخر للغرب ، ويحمل كل منهما لقب « أوغسطس » على أن يختار كل منهما شريكا يكون وريثه في العرش ويحمل لقب « قيصر »

من قسطنطين الى جستنيانوس
(٣٢٣ ــ ٥١٨)

اعترفت الدولة رسميا بالمسيحية في عهد قسطنطين الذي هو فاتحة التاريخ البيزنطي وقد شيد قسطنطين على مدينة بيزنطة القديمة مدينة جديدة اشتقت اسمها من اسمه وعرفت بالقسطنطينية ، وأصبحت عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية فأخذت تنمو وتزدهر بخطى سريعة

وأضفى قسطنطين على اصلاحات دقلديانوس صبغته المالية ، حتى أصبح للامبراطورية البيزنطية طابعها الخاص ، وانحصرت السلطة الادارية والعسكرية في البلاط الامبراطوري ، وكان مركز الدولة . وأصبح الناس يخدمون الامبراطور بعد أن كانوا يخدمون الدولة

وتعاقب على العرش بعد قسطنطين ما يزيد على العشرين امبراطورا ، أهم ما يميز [illegible] مناصرة كنيسة [illegible] ومحاسبة الكنيسة خصومها معاداة شديدة بسبب وقوعها في يد أولئك الهراطقة

وكانت هذه الفترة مليئة بالقلاقل والاضطرابات لا استقرار فيها، فتارة نجد الأمر فيها لامبراطور واحد، وتارة توزع السلطة بين امبراطورين منفصلين في الشرق والآخر في الغرب. ويرجع عدم الاستقرار الى أمور مختلفة أهمها أن القوى الحيوية للامبراطورية كانت كامنة في الشرق. وأن سياسة الطورب في الشرق بطريقة تختلف عنها في الغرب. وأن هجمات البربر على الغرب كانت أشد أثرا منها على الشرق.

أسرة يوستنيانوس (٥١٨ - ٦١٠)

كان حكم يوستنيانوس تطورا طبيعيا وضروريا في تاريخ الامبراطورية، فقد ضحى أباطرة القرن الرابع بسلطانهم على الغرب في سبيل سلامة الشرق. ولكن يوستنيانوس أخذ يتطلع الى الغرب منذ بداية حكمه، وساقته مطامعه الى محاولة استعادة الماضي، واستنفد جهدا كبيرا ليبعث من جديد هذا الجزء الميت من الامبراطورية مما أدى الى إنهاك قوى الجزء الحي.

وكان من جراء فكرته في استعادة مجد الامبراطورية الرومانية، حروبه العديدة، فأمكنه أن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحرا رومانيا، ولكن سرعان ما اضطرته حروبه في الشرق الى أن يكف عن الحروب، وأن تبدأ بذلك سلسلة من النكبات حلت في الامبراطورية بعد [illegible][2]

وقد عني يوستنيانوس أنه سيعيد بناء الامبراطورية على أساس متين، فعمد الى وضع نظام من شأنه أن يحقق الرخاء، ويبدو أنه كان في [illegible] وسياسته في ذلك موفقا تتلخص في اصلاحاته التشريعية وفي اصلاحاته الداخلية.

اصلاحاته التشريعية

كانت روما في مقدمة البلاد التي عنيت بالتشريع بل تعتبر مؤسسة علم القانون. وعلى أساس هذا العلم أوجدت الدولة نظام الوحدة الذي بني على سلطة الامبراطور المطلقة.

وقد أدرك يوستنيانوس عظم الفائدة التي يمكن أن تعود على الامبراطورية اذا جمع مصادر القانون الروماني الذي كان معمولا به عندئذ ونشرها على نحو يمكن تداوله والرجوع اليه. وقد عهد بهذا العمل الى عدد من أبرز فقهاء روما، ونتيجة ذلك الوقت ظهرت هذه المجموعة من القوانين، المرجع الذي تعتمد عليه المحاكم ومدارس القانون في الامبراطورية، بل أصبحت المصدر الذي استمد منه القانون المدني الحديث.

وقد أطلق على هذه المجموعة «مجموعة يوستنيانوس»، وهي تنقسم الى أربعة أجزاء:

١ - مدونة يوستنيانوس، وقد نشرت أولا في عام ٥٢٩ ثم روجعت ونشرت ثانية

في عام ٥٣٤ وكان عبارة عن مجموعة لتشريعات الأباطرة ، وهي كتاب لا يزال نافذ المفعول

٢ — المدكت أو الموجز وقد نشر في عام ٥٣٣ وكان يتضمن مقتطفات مما كتبه أبرز فقهاء القانون الروماني ، ورتبت هذه المقتطفات بحيث تستكمل ما لم يرد في المدونة من أحكام القانون المدني

٣ — النظم وكانت كتاباً موجزاً وضع خصيصاً ليستخدمه طلبة القانون

٤ — المراسيم الجديدة التي أصدرها يوستنيانوس بعد سنة ٥٣٤ وعددها ١٦٨ مرسوماً

ومن الملاحظ أن الأجزاء الثلاثة الأولى كتبت باللاتينية وأما الجزء الأخير فكتب باليونانية

اصلاحاته الداخلية

اتجه يوستنيانوس لتحسين الحياة الداخلية في الامبراطورية ، فاتخذ عدة وسائل للاصلاح بعد ما شاهد استياء الشعب من الموظفين ومن سياسة الامبراطور مما أدى الى قيام ثورة في القسطنطينية في سنة ٥٣٢ فأصدر تشريعات لأجل اصلاح الوظائف الحكومية كان منها الغاء الوظائف الزائدة عن الحاجة ، ورفع مرتبات الموظفين وعدم الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ، واتخذ خطوات مماثلة من شأنها أن تحمي للموظفين بعض الاستقلال في الادارة مع ربط الادارات بالسلطة المركزية وحد من امتيازات كبار الملاك الذين كانوا خطراً دائماً على الطبقة الوسطى ، وعاملاً في تقدم الدولة ورفاهيتها

ولكن كل هذه المحاولات الاصلاحية باءت بالفشل ، والسبب في ذلك هو الامبراطور نفسه لأنه كان في حاجة ملحة الى المال لمواجهة النفقات الباهظة التي كانت تتطلبها حروبه الكثيرة ومنشآته المختلفة ، فألح على وكلائه في جمع المال على أية صورة وفرضت ضرائب جديدة ، ثم عين العمال وجعل الموظفين مسئولين شخصياً عن جمع الضرائب ، فاتخذوا من جانبهم اجراءات تعسفية لجمع المال من الشعب ارضاء للامبراطور ، فكان هو العامل الأول في عدم اصلاحاته .

أما سياسته الدينية فقد أصدر يوستنيانوس مراسيم سنتي ٥٢٧ و٥٢٨ ضد الهراطقة وأصحاب البدع ثم أمر باغلاق مدرسة أثينا الوثنية سنة ٥٢٩ ، وكان عصره عصر نزاعات مستمرة بين المذاهب المسيحية المختلفة ، وعاش الهراطقة بالرغم من الاضطهادات بل كان رؤساؤهم يشكلون المعارضة للحكومة ، وظلت سياسته الدينية وكانت على الأكثر سياسة الحرب ، هذه السياسة التي أنهكت قوى الامبراطورية فلم تعد تحتمل ضربات العدو

في شرقها ، وهي التي استدعت مالية الدولة واستدعت الاصلاح الاداري ، وهي التي أضعفت الفرصة على الدولة في الهيبة سوى عدة صحيحة في الشرق وهي في أشد الحاجة الى ذلك

الحالة الاقتصادية في عهد يوستنيانوس

كانت حياة النساك والرهبان الذين يعيشون في صحارى مصر والشرق داعية لتشجيع الامبراطور يوستنيانوس والامبراطورة تيودورا للرهبنة عامة ، فاخذت في الانتشار والتطور ، وكان لهذا أثره في الحياة الاجتماعية . كان هؤلاء الرهبان يتمتعون بحرية واسعة جعلتهم يتدخلون بالتدريج في الحياة السياسية وفي حياة البلاد . واخذ عددهم يزداد ، والهبات عليهم والوقفيات والهبات والتبرعات وكانت معفاة من الضرائب في أغلب الأحيان . فظهرت بذلك طبقة جديدة في المجتمع لها امتيازات وبها أثرها في الحياة الاقتصادية

وهناك ناحية أخرى كان لها أثرها في الحياة الاقتصادية في عهد يوستنيانوس فقد قام باعمال انشائية عديدة مثل تعبيد الطرق وبناء القناطر وتشييد التحصينات والقلاع ومد انابيب المياه وبناء الكنائس والأديرة . وكان المظهر الأول لكل هذه المنشآت يدل على أن الدولة في حالة حسنة ، ولكن سرعان ما اضطرت خزينة الدولة الى ... هذه الأعمال من أموال ... التي ... بعد أن اقتصر التاجر على عدد من المراكز التجارية الأساسية ومنع بعض الاستيراد من نشاطها . وكانت مشكلة الامبراطورية هي حاجتها الى الشرق الأقصى للحصول على منتجات الهند والصين

وكانت التجارة الشرقية تصل الى الامبراطورية اما بر عبر الطريق الشمالي الذي كان يمر بوسط آسيا فبحر قزوين فالبحر الاسود ، واما بحرا عن طريق الخليج الفارسي أو عن طريق البحر الأحمر . ولما كان الفرس يتولون جانب كبير من التجارة الشرقية فقد حاول يوستنيانوس أن يحول التجارة الشرقية اما الى الطريق الشمالي أو الى طريق البحر الأحمر ، وذلك من ناحية ليتفادى وساطة الفرس ومغالاتهم في فرض الضرائب ، ومن ناحية أخرى ليزيد نصيب الامبراطورية من التجارة الشرقية . ولكن يوستنيانوس فشل في ذلك ولم تتمكن بيزنطة من التخلص من منافسة الفرس الاقتصادية

خلفاء يوستنيانوس (٥٦٥ – ٦١٠)

مات يوستنيانوس والدولة في حالة افلاس وتبدد عنها البؤس أفراد الشعب وارتاح الجميع لموته ، ولكن خلفاءه لم يجدوا حلا لمشكلة المالية التي ترتبت على الادارة الحسنة ... وبقي ... معارضة قوية ضد سلطة الامبراطور المطلقة كما ... خلاف ... بين ...

وبين تعريب القسطنطينية كل هذا والعدو لم يكف لحظة عن مهاجمة حدود الامبراطورية

هرقل ٦١٠ - ٦٤١

كان القرن السابع أكثر عصور التاريخ البيزنطي حلكة ، فقد كان عصر أزمة خطيرة وضح فيها أن كيان الامبراطورية أصبح في مهب الريح

طرق الركود بين حضارة البيزنطية في القرن السابع فلم يظهر في هذا القرن كتاب أو مؤرخون أو قام أحد بحل المسائل ذي بال وعم الضعف الناس في هذا القرن وانتشرت فيه الخرافات

ولم يكن هذا كله يدل على سقوط الدولة النهائي بل أظهر أن الأزمة ساعية وأن على الامبراطورية أن تتفادى بمحاولة تغيير اتجاهاتها وكان السبيل الأول في هذه الأزمة هو محاولة توسيع المنافسة في عادة الروح الرومانية إلى الامبراطورية وتوجيه الشرق والغرب

ولم يبق أمام الدولة الا أن تخضع للعوامل الجغرافية والجنسية والاقتصادية والدينية والادارية ، فتغير اتجاهها تغيرا واضحا وأصبحت امبراطورية يونانية شرقية بعد أن كانت امبراطورية رومانية ، وقد مكنها هذا الوضع من أن تحافظ على ما تبقى لها بعد استيلاء العرب على أهم أقاليمها واستيلاء السلاف على شبه جزيرة البلقان ، وكتب للامبراطورية البيزنطية البقاء حتى القرن الخامس عشر

النظام الإداري والمالي ونظام الجيش والحالة الاقتصادية
في مصر في العصر البيزنطي

النظام الاداري

عندما اعتلى دقلديانوس العرش كان أول ما اتجه اليه هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وتوحيد النظام الادارى في كل أنحاء الامبراطورية. وبذلك أعاد تنظيم مصر فقسمها الى ثلاث مقاطعات هي مصر الجوبيترية ومصر الهرقلية وطيبة. ويحتمل أن هذه المقاطعات كانت تقابل على وجه التقريب أقسام الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا التي كانت موجودة في القرن الأول من العصر الروماني. وفي عهد قسطنطين الثاني تكونت في عام ٣٤١ مقاطعة رابعة « الأغسطسية » من الأقاليم الشرقية في المقاطعتين الأولى والثانية. وفي عهد ثيودوسيوس الأول أضيفت ليبيا الى مصر فأصبحت المقاطعات خمساً. وحوالى أواخر القرن الخامس غير اسم المقاطعتين الأولى والثانية فأصبحتا على التعاقب مصر وأركاديا.

ولما كان دقلديانوس وخلفاؤه حتى يوستنيانوس يرون ضرورة فصل السلطتين المدنية والعسكرية فقد وضع على رأس السلطة المدنية في كل أنحاء البلاد حاكم عام كان يشرف على شئون الادارة والمالية والقضاء وأصبحت قيادة الجند الى قائد مستقل. وكانت المقاطعة الأولى خاضعة لنفوذ الحاكم العام مباشرة. أما المقاطعات الأخرى فقد كان يتولى حكمها رؤساء يقيم كل منهم في مقاطعته ويخضع للحاكم العام الذي كان بدوره يخضع « لحاكم أو دوق الشرق ». وعندما ضمت ليبيا الى مصر منح الحاكم العام لقب [illegible] وفصلت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص.

وقد تبع تقسيم البلاد الى مقاطعات اعادة تنظيم الادارة المحلية في أوائل القرن الرابع، فلم يعد هناك وجود فعلي للمديريات فانها قسمت الى أقاليم أصبحت هي الوحدات الفعلية في الادارة المحلية، وترتب على ذلك بطبيعة الحال الغاء منصب المدير أو القائد وكذلك الغاء منصب الكاتب الملكي. وكان أهم الحكام المحليين مراقب جميع الضرائب (Exactor) واليه انتقلت اختصاصات القائد في الشئون المالية. أما اختصاصات القائد المدنية فقد انتقلت الى حاكم آخر Logistes كان في الأصل ممثل السلطة المركزية لكنه أصبح حاكماً محلياً ذا نفوذ في الأقاليم، [illegible] على [illegible]

الى اختصاص حكام مدينة القضاء فزالوا بالتدريج . وبعد القرن الرابع حل مكان هذا الحاكم حاكم آخر Logistes Defensor .

وقد ظلت مجالس الشورى قائمة والغيت عنها مسئولية كاملة عن الادارة العسكرية والادارة المالية ، وعدت مراسيم المديريات مديريات على النمط الرومانى تتمتع بحكم ذاتى ويدخل فى نطاق كل منها سلطة ريفية

وكان الهدف من كل هذه التغييرات هو أن تخضع مصر بالتدريج لعادات وقوانين الولايات الأخرى فى الامبراطورية بالرغم من اختلاف العوامل الجغرافية . وقد كان من آثار الرغبة فى التوحيد والتبسيط أن اعتبرت اللغة اللاتينية لغة رسمية حتى فى الولايات التى كانت اليونانية لغة رسمية فيها مثل مصر . ولكنه لم يكن لهذا القرار أثر فعال فى مصر ، فقد ظلت اليونانية لغة المحاكم والادارات الحكومية . وكانت القرارات العامة تصدر بها . وربما كان الأثر الوحيد لهذا القرار أن المحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر فى اطار لاتينى أى أن العنوان والتاريخ وموضوع القضية كانت تكتب باللاتينية ، وقد يكتب الحاكم ملاحظاته باللاتينية ، أما أقوال الطرفين والشهود وأحكام القضاء فظلت تكتب باليونانية

وكذلك عبرت عن هذا بعض الوثائق القانونية فاستبدلت سنوات حكم الامبراطور بسنوات القنصل مع ذكر موقع العام من دورة تقدير الضرائب ، وكانت تحدث مرة كل خمسة عشر عاما . وظلت هذه الطريقة متبعة حتى ألغت القنصلية فى عصر جستنيان وعيد نظام التأريخ بسنوات حكم الامبراطور

لم يكتف جستنيان باصلاح العرش حتى أدخل تعديلين على نظام الادارة فى مصر فقضى أحدهما على اعتبار مصر وحدة ادارية واحدة اذ أن هذا الامبراطور قصر نفوذ الحاكم العام على المقاطعة الأولى وسوى بينه وبين حكام المقاطعات الأخرى وجعلهم جميعا خاضعين لحاكم الشرق . أما التعديل الآخر فكان الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية واسنادهما معا الى حكام المقاطعات فأصبح كل منهم فى مقاطعته رئيس الادارة والشرطة والقضاء والمالية ، لكن حاكم المقاطعة الأولى هو الذى كان يجمع فى الاسكندرية كل ضرائب مصر نوعا ونقدا ثم يرسلها الى بيزنطة .

وكانت سلطة حكام المقاطعات محدودة فكانوا يلجأون الى القسطنطينية لتمدهم بالجند فى حالة قيام اضطرابات أو ثورات داخلية . وكان هؤلاء الحكام فى أول أمرهم جانب ، ولكن رأى الامبراطور فيما بعد أن يختارهم من بين الرجال المقيمين فى مصر وأقر هذا التصرف جستين الثانى سنة ٥٦٩ وكان الامبراطور يقر تعيين الحاكم الذى يرشحه الأساقفة وكبار الملاك وعظماء البلاد

منذ عهد ديوقلديانوس فصل السلطتين المدنية والعسكرية ثم بعد الجيش خاضعاً لحاكم مصر. وفي عهد أسندت قيادة الجند إلى قائد مستقل. وعندما ... الى مصر وبعدئذ أصبح عدد المقاطعات خمساً تقسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص. وعندما عدل جستنيانوس عن فكرة الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية لم يؤد ذلك الى توحيد قيادة الجيش في مصر وإنما الى تقسيمه خمس وحدات بعدد المقاطعات وخضوع كل وحدة منها لإمرة حاكم المقاطعة ، وكان حكام المقاطعات يخضعون لقائد الشرق الذي كان مقره القسطنطينية.

وسرعان ما تعاقبت الأحوال لأن واجبات الحاكم المدنية أبعدته عن حياة الجيش وربما ذلك عن متابعة لتطور الفنون الحربية. ولم يزد عدد رجال الجيش على ثلاثين ألف جندي وزعوا على المراكز الحربية المختلفة على الحدود وفي الداخل ثم في المدن الكبرى. وكان توجيه الجيش محصناً بحصون في الزوايا الثلاث للدلتا ، في الفرما شرقاً والاسكندرية غرباً وفي بابليون في مصر القديمة ، حيث كانت بها حامية كبيرة منذ الفتح الروماني.

وفي الوجه القبلي أنشئت على طول الوادي مراكز حربية في المواقع الهامة مثل ... ، وأسوان.

والواقع أن الجيش في مصر في العصر البيزنطي كان جيشاً هزيلاً ضعيفاً. فرجاله غير أكفاء ، ويتكونون من جنود مرتزقة لا يصطبغون بأية صبغة عسكرية. وكان جل عملهم قمع الاضطرابات الداخلية ومساعدة الحكام على جمع الضرائب أي أن عملهم كان قاصراً على عمل رجال الشرطة. وقد أصبح للجندي حق الزواج واتخاذ مهنة مدنية أثناء مدة خدمته في الجيش.

النظام المالي

لما كانت بيزنطة — مثل روما — تستهدف ابتزاز ثروة مصر ، فإن الضرائب لم تتناقص طوال العصر البيزنطي عما كانت عليه من قبل بل تزايدت باطراد فساءت حال الناس وأصبح عبء الضرائب ... فائقة. ولم يتورع الموظفون عن استخدام مختلف ضروب القسوة لجمع الضرائب. ولذلك أخذ الناس في الالتجاء الى الصحراء هرباً من المعاملة القاسية التي كان يعامل بها كل من تأخر في دفع الضريبة ، فقد كانت توقع عليه الغرامات والضرائب الإضافية ثم تصادر أملاكه ويزج به في السجن وويل من حاول المقاومة.

وكانت أكثر الالتزامات تقع على عاتق صغار الملاك الذين ازداد عددهم في العصر الروماني الى أن اضطرهم جور الحكومة الى الهروب من أراضيهم تحت حماية جيرانهم الأثرياء ذوي النفوذ. فأخذت طبقة صغار الملاك تختفي تدريجياً خلال القرن الخامس حتى

من بعد ما وجدت في بداية القرن السادس وتم تخريب هؤلاء السادة الا الأديرة التي حدث نصيب في مصر أملاكا جديدة الى ممتلكاتها ، وصحبت أقاليم كاملة تحت سلطات الأديرة التي أصبحت واحدة مما تبقى من مصر ... ، وزادت بعد القرن الرابع الوسيط ، فأصبح معظم أراضي الأملاك الخاص وجانب كبير من أراضي الدولة في قبضة فئة صغيرة من كبار ملاك الأراضي

الحالة الاقتصادية :

كان قوام ثروة مصر محاصلاتها الزراعية وأهمها الحبوب والكروم والزيتون والنخيل والموالح ، وكان الجزء الأكبر من هذه المحاصلات يدفع لتسديد الضرائب ويصدر الفائض عن حاجتها الى خارج البلاد

وعرفت مصر منذ العصر الروماني بصناعاتها الحربية والعاجية والزجاجية وبخاصة المنسوجات

كما عرفت مصر صناعة أوراق البردي التي ظلت تجارتها مزدهرة حتى القرن السابع الميلادي ، وعرفت مصر بمناجم الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرانيت وغيرها . ولم تلتفت الحكام البيزنطيون الى ... في مصر ولكنهم اكتفوا باستخراج المرمر والبازلت والجرانيت للتصدير .

وكان لأصحاب كل حرفة في مصر نقابة ، تخضع لموظف مسئول عنها مراقبة الأسعار وتحصيل الضرائب . وكانت هناك سوق كبيرة سنوية ، وأسواق أسبوعية في القرى لبيع المحصولات والمصنوعات

وكانت مصر من الناحية التجارية هي الطريق الذي يتوسط الشرق الأقصى والغرب ، وكانت السفن تأتي من الصين والهند عبر المحيط محملة بالأفاويه والأخشاب والحرائر والأواني الخزفية ، فتخترق البحر الأحمر ثم ترسو في موانئ البيزنطية التي ورثتها بيزنطة عن البطالمة وكانت أكثر البضائع تفرغ في منطقة القصير ، ومن ثم تحملها القوافل الى قفط ، ومنها تشحن في مراكب القطع لمسافة بين قفط والاسكندرية في اثني عشر يوما . وكانت بضائع الافريقية تسير في هذا الطريق قادمة من عدوب ميناء مملكة أكسوم الأثيوبية .

وتنقل الزمرد من بلاد البليميين ، والعاج من نوبيا ، والأبنوس من أواسط افريقيا والذهب من منطقة التي أطلق عليها الرحالة كوزماس اسم ساسو . ومنذ القرن السادس الميلادي اضطر التجار الى يسلكوا طريقا آخر ، لأن الطريق القديم أصبح غير مأمون بسبب هجمات البليميين . فكانت البضائع تحمل في البحر الأحمر حتى القلزم (السويس) ثم تنقل عبر القناة التي كانت تصل السويس بالنيل وتصل الآن بحيرة الاسماعيلية . وكانت البضائع تحمل من بلوز الى موانئ البحر الأبيض المتوسط

عن طريق النيل. وفي القرن السابع أهمل هذا الطريق لعدم صلاحيته للملاحة.

وكانت هناك سبلا بلاد ما بين النهرين وفلسطين تخترقها القوافل في طريق يصل إلى مصر عبر سيناء، وهذا هو الطريق الذي سماه الفراعنة «طريق حورس». وكانت القوافل تمر بمنطقة قريبة من القنطرة الحالية لتصل إلى منف أو (هليوبوليس) ومنها إلى الاسكندرية. وكانت البضائع تنقل إما على مراكب في فروع الدلتا، وإما في قوافل من جمال وحمير، ولم تستخدم الخيل لأنها كانت مخصصة للجيش عند العصر الروماني.

كانت التجارة في العصر الروماني مزدهرة في مصر، ولكنها أخذت تتعثر في العصر البيزنطي، فموانئ البحر الأحمر فقدت أهميتها كثيرا، حتى لم يبق على البحر إلا ميناء القلزم، وذلك بسبب منافسة الفرس الشديدة التي أدت إلى تحويل جانب كبير من التجارة الشرقية إلى الخليج الفارسي. وقد حدا ذلك بالامبراطور جستنيانوس إلى العمل على التخلص من وساطة الفرس في التجارة الشرقية وإعادة النشاط التجاري في البحر الأحمر إلى سابق عهده، لكنه لم يصب في ذلك نجاحا مذكورا.

وفي عصر جستنيانوس قام كوزماس التاجر الاسكندري برحلة في البحر الأحمر والخليج الفارسي، وزار الهند والساحل الشرقي لافريقيا حتى وصل سيلان. ثم عاد مراكب في فروع الدلتا، وإما في قوافل من

عكف عند منتصف القرن السادس على كتابة ملاحظاته القيمة في كتابه المسمى «الطبوغرافيا المسيحية». وكانت مصر محط أنظار رجال الفكر في العالم يتوافدون إليها لزيارة آثارها، وجذبتهم الحياة الديرية المصرية، وللتلقي العلمي في مدارسها الشهيرة في ذلك العصر. نذكر منهم سيرس القرطبي، وجريجوريوس النزيانزي، وباسيليوس، وأوسيبيوس، والقديس هيرونيموس (جيروم)، وروفينوس الأكويلي، وبطرس الايبيري، وبلاديوس، ويوحنا كاسيانوس.

وقد شاهد هؤلاء الرجال مصر ووصفوها — كما رآها بيرو — بحقولها النضرة في الدلتا تخترقها القنوات وفروع النيل، كما شاهدوا توجه الصعيد ومدن الصحراء من منطقة مزروعة. وكانت القرى — كما كانت عليه في العصر الفرعوني — لم تتطرق إليها الحضارة الاغريقية. وكانت مصر تعج بالأديرة التي تضم بين جدرانها آلافا من الرهبان.

وقد تحمل الفلاحون في مصر وحدهم الأباطرة حيث تعاظم نفوذ الادارية، فكان الحكام من جانب كبير من تعسف ولا هم لهم إلا جمع الضرائب، وإرضاء الموظفين وهم اللصوص الفلاحين فاضطروا منذ القرن السادس أن يلجأوا إلى كبار الملاك يحتمون بهم فأصبحوا ملاكهم وعبيدهم. وكان في ذلك قضاء على الطبقة الصغيرة التي هي كيان

اقتصاد الدولة منظمة وقوته مهانة الاجتماعية وازداد عدد كبار الملاك ، ... من مصادرات الأباطرة لكنيسة في مبيع هذه لا يزداد والحد من تعاظم سلطانهم ، ونكوص الاقطاعيات التي كانت له أكبر الأثر في تدهور أحوال البلاد.

* * *

كان انهاك الشعب بالضرائب مصدرا من مصادر شقائه ، كما قاسى من مغالاة الموظفين البيزنطيين المسيرة في رعاية ليكونوا لهم ثروة خاصة على حسابه . وكانت مصر في نظر الأباطرة حقلا كبيرا ينتج الحبوب فاستنزفوها كما لو كانت مواردها لا تنتهي ، واستغلوا أهلها كما لو كانوا منجما من ذهب لا ينضب معينه . ولم يهمهم أمر رخاء وادي النيل كما لم يهمهم أمر الأمن في الأرياف ولا المجاعة والقحط والجوع الذي كان يجتاحهم بين وقت وآخر.

وقد جر البيزنطيون على مصر الخراب بسياستهم وبتصرف موظفيهم.

وكان يوستنيانوس أول من أصدر مرسوما (المرسوم الثالث عشر) يشكو فيه من الوسائل التي يتخذها الموظفون ومن أعمالهم في ترتيب الشئون العامة . وحاول أن يعالج الشقاء بصرف مقدار كبير من القمح لفقراء الاسكندرية ، وكان لم يصرف لهم أي شيء منذ أيام دقلديانوس.

ولم يستمع طوال الحكم البيزنطي أن أحدا أبناء الشعب الذي ظهر بعد البلاد من أي الاستعمار الأجنبي ، أو أي تحد من سياستهم الهدامة ، أو يطالب بحصته في الحكم ... وقد ... الشعب فيما له — بصعد مركزه الديني وكرامته وصيانته من الخضوع لإرادة الأباطرة ولكنه كان مصدر ...

وكان من أهم أسباب انهيار الامبراطورية معاونة الشعب المستمرة في تأدية الضرائب المطلوبة ، فكان يهرب من دفعها ، ويترك أراضيه ، وصناعته ، ويفضل أن يعاقب على نفسه بالخراب على أن يدفع الضرائب . وكانت المعاملة القاسية التي يلاقيها من جامعي الضرائب تضطره إلى دخول الدير أو الالتجاء تحت حماية كبار الملاك.

ولما قامت حركة الرهبنة ... ، وزاد الطين بلة أن رجال الدين والرهبان القبط كانوا بيزنطيين فضلا عن أنهم كانوا لا ينتجون شيئا يذكر.

وكان لسخط الشعب وثوراته وعدم استتباب الأمن في الأقاليم ، والاضطرابات في العاصمة ، والاضطهادات ضد الوثنيين واليهود ، أثرها السيء في التجارة والصناعة ، وذلك بالرغم من طبيعة الشعب في حب العمل.

كانت هذه الأحوال كلها باعثا لمعركة على الرومان بالعرب ، ... الأمل في أن ... بحياة فيها رخاء وطمأنينة

الفصل الأول

الحيـــاة السياسية

دخلت المسيحية مصر في منتصف القرن الأول الميلادي ، في وقت كانت فيه الأفكار الدينية حائرة مضطربة بين مشارب المعبودات التي قدمتها لهم الديانات المصرية واليونانية والرومانية بالإضـــافة إلى الديانة اليهودية وبعض الديانات الشرقية الأخرى . واستطاعت المسيحية أن تنفذ في روح المصري بقدر ما كان مستعداً لقبولها بما ورثه من معتقدات نجدها في دياناته المصرية القديمة .

وقد انتشرت المسيحية في مصر انتشاراً سريعاً ، واستمرت في النمو حتى قضت نهائياً على الوثنية وانتصرت على اليهودية حتى لم يبق من اليهـــود ســـوى طائفـــة ضئيلة لا أهمية لها .

ولم يتم هذا الانتشار بسهولة ، وإنما لم يتم إلا بعد صراع جبار كان له ميدانان . أولهما الميدان الفكري وقد قام بالدور الهام فيه مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وعلماؤها المسيحيون والمستنيرون . أما الميـــدان الآخر فكان ساحة الاستشـــهاد ، وقد بدأ فعليـــاً بهجـــوم الوثنيين سنة ٦٨ م على كنيســـة بالقرب من الإسكندرية وقتلهم القـــديس مرقس الرسول بعد أن جروه بالحبـــال في شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه .

وكان الصراع في أول صورة صراعاً بين دينين المسيحية والوثنية . ولكن ما أن تمت المسيحية في مصر حتى أصبحت تمثل الشعب المصري كله تقريباً ، وظل الحـــكام الرومان يمثلون الديانة الوثنية ، وظهر عندئذ بوضوح أن هذا النزاع كان في نفس الوقت صراعاً بين شعب وحاكميـــه ، أو بين أبنـــاء وطن ومستعمريه . وهكذا تركز الشعور القومي وتوحد . وأخـــذ أبناء مصر يتمســـكون بمسيحيتهم كراهة في كل ما هو أجنبي عنهم ، فكان من نتائج ذلك فيما بعد ظهور الحركة الأدبية القبطية الخالصة التي قادها الأنبـــا شنوده لتنقية اللغة القبطية المصرية من الألفاظ اليونانية الدخيلة ، ورفض أدبيـــات اليونان وثقافاتهم .

وقد بدأ هذا الصراع بين مصر المسيحية وحكامها الرومان منذ القرن الأول الميلادي ولم ينته إلا بدخول العرب . وصـــار أباطرة الرومان أعداء سياسيين للشعب المصري ، كما كانوا له في نفس الوقت أعـــداء دينيين

طوال العصر الروماني ، فحكم الصداء حتى كان الاباطرة مسيحيين نفسهم يميلون الى مذهب مخالف لمذهب مسيحيي مصر ، وكما اضطهدت مصر على يد أباطرة الرومان الوثنيين اضطهادا عنيفا ، كذلك اضطهدت على يد عدد من أباطرة الرومان المسيحيين. ولا يستثنى من ذلك الا عدد قليل جدا من هؤلاء الأباطرة كانت فترات حكمهم بمثابة هدنة سرعان ما تنتهي لتستأنف مصر صراعها مع الحكم الروماني من جديد.

ولكي تتضح لنا حلقات هذا النزاع يمكن أن نقسمه الى ثلاث فترات مميزة وهي

ا — فترة الصراع مع أباطرة الرومان الوثنيين الى سنة ٣١٣ م

ب — فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين للهرطقة من سنة ٣١٣ الى سنة ٤٥١ م

ج — فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا رومه من سنة ٤٥١ م — سنة ٦٤١ م

١ ـ الصراع مع الاباطرة الوثنيين

كان الأباطرة الوثنيون ينظرون الى المسيحيين عامة كمصدر خطر عليهم ، فاضطهدوهم أينما وجدوهم. ولكن الاضطهادات التي حلت بمسيحيي مصر كانت أشد قسوة وأكثر عددا لما اتصف به الأقباط من الصلابة والثبات على ايمانهم. وقد شعر الأباطرة وولاتهم انهم أمام شعب شجاع مستميت في دينه ، لا تثنيه لا الارهاب وطرق الاستمالة المشروعة ، فاستخدموا معه كافة أنواع التعذيب الوحشية من حرق وجلد وصلب وسلخ وقطر ورجم وتقطيع أعضاء وتشويه أجساد وضرب بالسيف والقاء الى الوحوش المفترسة وسجن وغيرها مما لا يدخل تحت حصر من صنوف القسوة.

ومع ذلك لم نجد كل هذه الوسائل في اضعافهم ، بل كان الناس يأتون من تلقاء أنفسهم الى الولاة مجاهرين بمسيحيتهم ، حتى أن الأنبا بطويروس راهب الناسك المتوحد ترك وحدته وأتى الى الاسكندرية وهو شيخ في حوالي الستين من عمره لينال شرف الاستشهاد. وتطور الأمر بالولاة والأباطرة ، فبعد أن كانوا يعمدون الى قتل الأفراد أخذوا يبيدون قرى ومدنا بأسرها وصار عدد الشهداء يقدر بمئات الألوف.

وأشهر الاضطهادات التي حلت بالمسيحية في مصر اضطهادات تراجان سنة ٩٨ م ، وسبتيموس سيفروس سنة ١٩٣ م ، وداكيوس Decius سنة ٢٤٩ م ، وفاليريان سنة ٢٥٤ م ، ولكن أعنفها جميعا كانت المذابح التي أجراها ديوقلديانوس بالمصريين وكأنه قد جعل همه أن يفنيهم افناء. وبذلك فان الكنيسة القبطية تجعل بدء تقويمها سنة ٢٨٤ م وهي السنة التي تولى فيها هذا الامبراطور حكم الامبراطورية الرومانية ويسمى هذا التقويم تقويم الشهداء.

وقد مثل في حركات الاضطهاد هذه بعض بطاركة الكنيسة القبطية وعدد وافر من أساقفتها ورهبانها وعلمائها، ومعظم مدرسي المدرسة الكاثوليكية اللاهوتية في الاسكندرية حينه من الزمن. وأحرقت الكنائس والكتب المقدسة، وقاست البطاركة بالعذاب. ومع ذلك صمد المصريون صمودا عجيبا عجيبا ولم يرضخوا للأباطرة الرومانيين، بل كان عدد المؤمنين يزداد باطراد، وكثيرون كانوا ينضمون الى المسيحية متأثرين بشجاعة المسيحيين واستهانتهم بالموت في سبيل عقيدتهم.

ولما وجد الأباطرة أن كل هذه الاضطهادات لم تأت بنتيجة سوى زيادة قوة الكنيسة، وأن المسيحيين قد سرت فيهم موجة طاغية من « شهوة الاستشهاد » حتى كانوا يثيرون الولاة بتوبيخهم على وثنيتهم وسب أصنامهم لكي ينالوا أكاليل الشهادة على أيديهم، فكر حينئذ الأباطرة ذلك حينئذ واضطروا الى وقف هذه المذابح بسبب عدم جدواها، ولأنها خلقت عوامل خراب في أجزاء الامبراطورية وأدت الى تعطيل مصادر الايراد من زراعة وصناعة وتدهور الحالة الاقتصادية وانتشار المجاعات والأوبئة.

والكنيسة القبطية تطلق لقب خاتم الشهداء على بطريركها الأنبا بطرس الأول، كان السابع عشر في عداد البطاركة، ليس لأنه آخر شهيد مسيحي، بل لأن قتله كان ختاما لحركات المذابح العامة التي ستشهد فيها آلاف المسيحيين، ولأنه أيضا كان آخر من استشهد من بطاركة الاسكندرية. ولما قبض على هذا البطريرك وطرح في السجن التف الشعب المسيحي حول السجن ليمنع الجنود من اخراجه ليقتل. ولكن البطريرك خاف على شعبه من أن يعمل فيه الجنود سيوفهم من أجل حمايته لشخصه فبلغ سرا للجنود بأن طلب من القائد أن ينقب جدار السجن من جهة لا يحيط بها المسيحيون فتم ذلك وسلم رأسه للجند فقطعوه، وكان ذلك سنة ٣٦١ م. ولم يعلم الشعب المحاصر للسجن بقتل البطريرك الا بعد انصراف الجند.

في كل ذلك ضرب الشعب المصري وبطاركته أروع المثل في الاستشهاد. وكان البطاركة وأساتذة المدرسة اللاهوتية يصدرون الرسائل والكتب حثا للناس على الاستشهاد وتثبيتا لهم في دينهم. وكان أفراد الشعب يشجعون بعضهم بعضا في ساحات الاستشهاد، ويزورون المقبوض عليهم في السجون، ويحضرون الى جوارهم أثناء المحاكمات، ويحملون أجسادهم ليدفنوها، كل ذلك في غير خوف أو تردد. وكان الشهداء أنفسهم يتقبلون الموت في فرح وكان الكثيرون منهم ترسمون في جبهة خلال اقامتهم في السجون أو أثناء سيرهم في الطريق الى ساحة الاستشهاد

وأخيرا أوقف الأباطرة هذه المذابح ، ورأى قسطنطين أن يعترفوا بالأمر الواقع وأباحوا للمسيحيين حق ممارسة عباداتهم دون التعرض لهم . وقد قرر ذلك الامبراطور قسطنطين وهو الذي اعتنق المسيحية ، وأصبح بابه أمام باقي الأباطرة . وهكذا انتهى على يديه عصر الاضطهاد الوثنية للمسيحية . ولم تبق من الوثنية في مصر سوى فئة ضئيلة ذابت بمرور الزمن

ب – الصراع مع الأباطرة المناصرين للهراطقة

هذه الفترة من تاريخ مصر هي فترة كلام وجدل ، وجه فيها المصريون دفة الفكر المسيحي وقادوا مسيحيي العالم في المعرفة اللاهوتية . وليس أدل على ذلك من أن قانون الإيمان المسيحي الذي تعترف به كل الكنائس المسيحية هو من وضع وصياغة أثناسيوس الاسكندري

وفي خلال هذه الفترة وقفت بطاركة الاسكندرية حفاظا على الإيمان القويم ، فقاوموا الهرطقات وهي الانحرافات الخاطئة على الإيمان أو البدع الخارجة على الدين ، وحرموا الهراطقة من عضوية الكنيسة بعد أن أظهروا لهم وللعالم فساد معتقداتهم

واشتهر اسم الاسكندرية في العالم كله ، وعرفت به المجامع المسكونية نسبة من الكنائس الأربع الكبرى وهي كنائس روما والاسكندرية والقسطنطينية وأورشليم . وإذا كانت روما أهميتها السياسية كعاصمة للامبراطورية الغربية فإن الاسكندرية كانت أولى كنائس العالم في تعليم المسيحي وفهم الدين وشرح عقيدته وسمى البابا على كرسي الاسكندرية من أن بطاركتها حرموا ثلاثة من بطاركة القسطنطينية العظمى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الشرقية بعد أن أثبتوا عليهم أنهم مبتدعون في الدين وهراطقة . وهؤلاء البطاركة الذين حرموهم هم مقدونيوس الذي حرمه تيموثاوس ، ونسطور الذي حرمه كيرلس ، وفلابيانوس الذي حرمه ديسقورس ، ووافقت المجامع على هذه الحروم ، وصدق عليها الأباطرة ، كما حرموا من قبل أريوس في مجمع نيقية . وكان لهم في المجامع المسكونية مركزهم الممتاز فكانوا اما رؤساء وإما العنصر القوي الموجه لها .

وقد اشتهر بطاركة الاسكندرية بشجاعتهم وثباتهم الوطيد على الإيمان ، بينما عصفت الأريوسية بكثير من أساقفة العالم الأخرى حين ناصرها الأباطرة بنفوذهم ، وربما رضخ لها بعض الأساقفة تحت ضغط التعذيب عن ضعف لا عن اقتناع ، نرى أن أساقفة الاسكندرية لم يحيدوا فيه أبدا عن الإيمان المستقيم متحملين النفي والعزل وألوانا شتى من الاضطهاد والتعذيب على أيدي الأباطرة وعاشت مسيحيتهم مشرقة . ولولاهم لصار العالم كله أريوسيا تقريبا .

وهذه المقاومة التي قاومت بها مصر

للأباطرة والولاة الرومان ، لم تكن مجرد حركات فردية من البطاركة ، وإنما كانت حركات شعبية شاملة يقوم فيها البطاركة بدور الزعامة ، كما كانت أحيانا حركات شعبية محضة بعيدة عن تأثير البطاركة أو قياداتهم . كان الشعب المصري حريصا أشد الحرص على إيمانه ، يرفض تدخل الرومان في معتقداته . من أجل هذا استطاع أن يرغم الأباطرة أحيانا على الإذعان له ، كما استطاع أن يحتمل اضطهاداتهم في صبر ورجولة . وليس أدل على ذلك من أنه في حالة نفي البطريرك أو عزله أو سجنه ، كان الشعب بأسره — بدون بطريرك — يقوم بثورات عنيفة استطاعت في كثير من الأحيان أن ترغم الأباطرة على سحب أوامرهم والإذعان لقوة الشعب .

ومن المظاهر الواضحة في هذه الفترة أن الأباطرة كانوا كثيرا ما يعزلون البطريرك المصري ، ويعينون بطريركا آخر في مكانه (كيدوكيا مثلا) إيمانه مخالف لإيمان الشعب المصري ، تحميه قوة مسلحة يستطيع بها أن يدخل الإسكندرية عنوة ، وأن يصلي في الكنائس آمنا من أن يطرده منها الشعب ، ثم يبدأ هذا البطريرك الدخيل في اضطهاد المصريين وقتل الكثيرين منهم ليسلبوا منصب البطريرك منه . كل ذلك كان ولا شك يدفع بالمصريين إلى الشعور بعمق شعورهم لمصريتهم وبأن الروماني عنصر أجنبي مستعمر يستخدم السيف لتحقيق أغراضه ، وأن البطاركة الدخلاء لا يختلفون في شيء عن الحكام الرومان المعبرين المحتلين لبلادهم . لذلك كانوا يرفضون أن يعاملوهم كبطاركة ، وقد أصدروا مثلا في مجمعهم النواب على قتل أحدهم وهو جورجيوس الكبادوكي

هرطقة أريوس :

ظهرت هرطقة أريوس في عهد البابا بطرس خاتم الشهداء ، أي في زمن ديوقلديانوس الوثني المضطهد . وقد حرم أريوس من الأب بطرس ثم استشهد بطرس دون أن يعفو عنه . ولكن هذه الهرطقة لم تكن قوية ولا انتشرت في أيام الاستشهاد لانشغال الناس عنها بما هم فيه من ألوان العذاب البشعة . فلما استراحت المسيحية من الاضطهاد الوثني التفتت إلى هذه الهرطقة وعمدت على دحضها فتجدد حرم أريوس مرة أخرى على يد الأنبا الكسندروس البطريرك التاسع عشر من بطاركة الإسكندرية . ولكن أريوس استمر على عناده ولم يتخل عن هرطقته . وانضم إليه كثيرون من مصر وغيرها من البلاد المسيحية مما أدى إلى عقد مجمع نيقية المسكوني في سنة ٣٢٥ م بأمر الامبراطور قسطنطين لمحاكمة أريوس وإرساء قواعد الإيمان .

وقد ضم هذا المجمع ٣١٨ أسقفا من أساقفة العالم المسيحي ، كان من أبرزهم الأب الكسندروس بطريرك الإسكندرية وشماسه أثناسيوس الذي لم يكن يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره

أثناسيوس وجهاده

ولد أثناسيوس في الاسكندرية سنة ٢٩٦ م من أبوين وثنيين . وجمع بين الثقافة الوثنية بحكم مولده ودراساته الأولى والثقافة المسيحية بحكم تربيته في مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وصحبته الرهبان ثقافة نسكية روحية ، اذ أنه قضى ثلاث سنوات في البرية مع القديس الأب أنطونيوس وقد اختاره الأب الكسندروس البطريرك تلميذا له ورسمه شماسا واصطحبه في سنة ٣٢٥ م الى مجمع نيقية

وفي مجمع نيقية بدأت شهرة أثناسيوس العالمية . واستطاع هذا الشماس الشاب أن يقف معلما للايمان وسط ٣١٨ أسقفا يمثلون جميع كنائس العالم . وتمكن من تفنيد آراء أريوس في براعة واقتدار وتولى بنفسه صياغة قانون الايمان محققا في اختيار عباراته كلمة كلمة . وأخذ مجمع نيقية بأقوال أثناسيوس ، وحرم أريوس وعزله من عضوية الكنيسة ، وأقر الامبراطور هذا الحكم . وانفض المجمع بعد أن نظر في أمور أخرى كانت معروضة عليه ، وأصدر عشرين قانونا كنسيا

وهذه الزعامة الفكرية رفعت من شأن أثناسيوس في العالم المسيحي ، وأهلته لأن يخلف الأنبا الكسندروس ويصبح بطريركا للاسكندرية سنة ٣٢٦ م ، غير أنها ألبت عليه حسد ومؤامرات الأريوسيين ، وخاصة من كانوا من حاشية الامبراطور ، حيث جعلت حياة الأنبا أثناسيوس سلسلة من الجهاد والآلام في سبيل الدفاع عن الايمان المسيحي . وذلك لأن هرطقة أريوس لم تنته بقرارات مجمع نيقية . فقد بذل أريوس جهده حتى ضم اليه بعضا من الأساقفة ، وتظاهر بالتوبة وأقنع الامبراطور قسطنطين بذلك فطلب من الأب أثناسيوس أن يقبل أريوس ، ولكنه رفض طلب الامبراطور وهكذا بدأت أول حلقة من حلقات صراع مصر ضد أباطرة الرومان المسيحيين

وقد احتمل أثناسيوس في سبيل ذلك النفي عن كرسيه خمس مرات في عهود كل من قسطنطين وقسطنطيوس ويوليانوس وفالنس . ووقف أمام كل هؤلاء الأباطرة كالصخرة الصلبة لا يلين . ولو لم يقف هذا الموقف الحازم لصار العالم كله أريوسيا . فلم يكن أثناسيوس زعيما شعبيا في مصر فحسب يطيعه المصريون عن حب وثقة ويخضعون له بل كان فوق ذلك ممثلا للايمان السليم في العالم المسيحي كله ، تنظر اليه كل الكنائس كحصنها الأول

وفي هذا الصراع الذي اجتازه أثناسيوس ضد أباطرة الرومان كان الشعب المصري كله يؤيده . وقد دلت الحوادث على أن الأمر لم يكن عملا فرديا من جانب البطريرك ، بل كان عملا جماعيا صادرا من الأمة كلها فحين رفض البطريرك قبول أريوس أمر قسطنطين بنفيه عن كرسيه ، وأدى ذلك الى

قيام ثورة شعبية في مصر ضد أتباع ميليتيوس واتهم أثناسيوس بأنه كان السبب فيها

وبعد موت قسطنطين خلفه قسطنطيوس في حكم الشرق ، وكان أريوسيا فعين بطريركا أريوسيا على الكرسي الإسكندري بدلا من أثناسيوس واسمه جريجوري . ولما لم يسمح له الشعب بدخول الإسكندرية ، زوده الإمبراطور بقوة عسكرية استطاع بها دخول المدينة واستمرت هذه القوة معه تحميه خوفا عليه من حركات الشعب . وعندما عقدت كنيسة الإسكندرية مجمعا ضده من الأساقفة المصريين ، تدخل سيريانوس قائد الحامية - وكان أريوسيا - وعمل على فض المجمع متوعدا بتدمير المدينة كلها . حينئذ انسحب أثناسيوس وهرب إلى روما ، فارتجت المدينة لهذا البطل المصري ذي المظهر البسيط الفقير . وانعقد مجمع في روما أقر براءة أثناسيوس ووجوب رجوعه إلى كرسيه . كما انعقد مجمع آخر في سرديكا سنة ٣٤٣ م من مائتي أسقف حكم ببراءته ورئاسة أثناسيوس لكرسي الإسكندرية . وكتب قسطنس إمبراطور الغرب إلى أخيه قسطنطيوس ، إمبراطور الشرق ، ليطلب منه إرجاع أثناسيوس . وقد كان هدف أثناسيوس هو توحيد العالم المسيحي ضد الأريوسية بعد أن عاضدها الإمبراطور ، واستطاع بصوته وتأثيره أن يدين لأجله العالم المسيحي . أما في مصر فكان الشعب في اضطرابات مستمرة طيلة مدة غيابه عنهم ، حتى أنهم طردوا من الأديرة جميع الذين عينوا بمذهب الأريوسي وحطموا كنيسة الإسكندرية التي كان الأريوسيون قد استولوا عليها . وخاف الإمبراطور من اندلاع حرب بينه وبين أخيه فكتب إلى أثناسيوس سنة ٣٤٦ م ثلاث رسائل متتابعة يطلب إليه في احترام ولباقة أن يرجع إلى كرسيه . ورجع الأنبا أثناسيوس إلى مصر واستقبله الشعب استقبالا عظيما لم يحظ بمثله الأباطرة .

ولما كان الإمبراطور لم يرجع أثناسيوس إلا بدافع الخوف ، فإنه ما كاد يتوفى أخوه قسطنس حتى عاد إلى اضطهاد أثناسيوس وأمر بطرده من مصر . وعطل أثناسيوس هذا الأمر عاما كاملا دون أن ينفذه حتى تقدم القائد سريانوس على رأس قوة كبيرة بأمر الإمبراطور واقتحم الكنيسة التي كان يصلي فيها أثناسيوس . وعندما التف الشعب المصري حول رعيه وراعيه أعمل الجند سيوفهم في الشعب . أما الأنبا أثناسيوس فقد حمله بعض الرهبان وخرجوا به من الكنيسة ، وفتح الشعب أبواب بيوته لإخفائه . وأرسل الإمبراطور رسله إلى مصر يحملون الأوامر بضرورة إحضار أثناسيوس حيا أو ميتا ، لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه .

وعقد الإمبراطور مجمعا في ميلان سنة ٣٥٥ م ضد الأنبا أثناسيوس ، وكانت غايته

أعضاء هذا المجمع من الأريوسيين ، وبعد عنه الامبراطور . ورد المجمع عرف أثناسيوس ، فاحتج على ذلك أصدقاؤه من أساقفة الغرب

ولما نفى عين جورجيوس الكبادوكي بطريركا على الاسكندرية بوساطة الأريوسيين ذوي الحظوة لدى الامبراطور ، ثم اتخذ اجراءات تعسفية ضد الأقباط أتباع أثناسيوس . فقد استخدم جورجيوس القوة العسكرية لارغام الشعب على قبول المذهب الأريوسي ، فلما رفض أعمل فيه القتل ، وطرد الكثيرين من الأساقفة المصريين وزج بالثلاثة عشر منهم في السجون ، واقترح على الامبراطور فرض ضريبة جديدة على المنازل في الاسكندرية

وفي عهد الامبراطور يوليانوس (٣٦١ — ٣٦٣) الذي ارتد من المسيحية الى الوثنية قام الشعب بثورة عنيفة أدت الى قتل جورجيوس البطريرك الدخيل ، وعاد أثناسيوس الى كرسيه . ولكن هذا الامبراطور أيضا أمر بطرده من الاسكندرية على اعتبار أنه لا يزال منفيا وأنه عاد بدون اذن ، وكتب الى والي الاسكندرية مهددا اياه بفرض غرامة كبيرة عليه وعلى موظفيه اذا ظهر أثناسيوس في أرض مصر كلها . ولكن أثناسيوس اختبأ في قبر أبيه ستة أشهر وهو صابر متعبد

وفي عهد الامبراطور فالنس (٣٦٤ — ٣٧٨) وكان أريوسيا ، أمر بنفي أثناسيوس مرة أخرى . فرفض الشعب القبطي تنفيذ الأمر ولو أدى الى استشهادهم جميعا وقامت ثورة عنيفة في مصر واضطر الامبراطور الى الاذعان لرغبات الشعب

وقضى أثناسيوس السنوات السبع الباقية من حياته في سلام حتى توفي سنة ٣٧٣ م بعد أن احتمل الكثير من اضطهاد الأباطرة ومناصرتهم للأريوسية ، دون أن يخضع أو يلين في سبيل المحافظة على الايمان المسيحي في العالم كله وصونه من الانحراف . وفي خلال هذه الاضطهادات التي نزلت به اختبأ في مغارات الرهبان في الجبال وفي أديرتهم في الصحراء وفي بيوت المؤمنين في الاسكندرية ومرة في قبر أبيه ومرة أخرى في بئر جافة وكان خلال فترات اختفائه يعمل باستمرار فقد كتب كثيرا من المقالات اللاهوتية للرد على الهراطقة والدفاع عن موقفه وعن مجمع نيقية ، كما كتب رسائل للمجمع وللمؤمنين وللرهبان ، وبفضل كل ذلك استطاع أن يؤلب العالم أجمع ضد الأباطرة

واستمر الامبراطور فالنس في اضطهاده للمصريين بعد وفاة الأنبا أثناسيوس ، فنفى خليفته الأنبا بطرس الثاني (٣٧٣ — ٣٨٠) وعين بدلا منه لوكيوس الأريوسي وأيده بقوات الامبراطورية . وأصدر فالنس قانونا جديدا يعمل على تعميده بالقوة ، وكان يقضي بالغاء اعفاء الرهبان من الخدمة العسكرية الذي كان ممنوحا فيما مضى للرهبان وكذلك

سكان مصر المدن والمقاطعات التابعة للأديرة من الصوم، وإرغام كل هؤلاء على الانخراط في الخدمة العسكرية بالقوة. وقد تمكن كثير من هؤلاء المصريين أن يفروا منهم وهم هاربون الامبراطور على أن يعملوا في خدمة جوانب الامبراطور

فترة هدوء

وبعد الاضطهادات العنيفة التي أنزلها الأباطرة الرومان بمصر وتحملها المصريون في شجاعة وصبر أيام عهدي البطريركين الأنبا أثناسيوس والأنبا بطرس الثاني، لم آن لمصر أن تنعم بفترة هدوء عندما مات الامبراطور فالنس الأريوسي وتولى العرش الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (من ٣٧٨ — ٣٩٥ م) وهو الذي اعترف بالمسيحية ديانة رسمية للدولة. وساعد هذا القرار على اضعاف الوثنية، فأمكن تحويل الكثير من معابدها الى كنائس. وقد أرجع هذا الامبراطور الأنبا بطرس الثاني من منفاه؛ ولما توفى هذا البطريرك سنة ٣٨٠ م اختار الشعب بعده الأنبا تيموثاوس بطريركا. وفي عهده وقع مقدونيوس أسقف القسطنطينية في هرطقة ضد الروح القدس، فاجتمع سنة ٣٨١ م مجمع في القسطنطينية من مائة وخمسين أسقفا ... وحرم هرطقته وقد حضر الأنبا تيموثاوس هذا المجمع، وقام فيه بدور رئيسي

ثم خلفه في البطريركية الأنبا ثيوفيلوس سنة ٣٨٥ — سنة ٤١٢ م، وكان عهده عهد سلام وعمران، سواء في عهد الامبراطور ثيودوسيوس أو خلفه أركاديوس (سنة ٣٩٥ — سنة ٤٠٨ م).

الأنبا كيرلس وبدعة نسطور

ثم خلف هذين الامبراطورين ثيودوسيوس الصغير (الثاني)، وكانت ثورته سالفا تولى الحكم وهو صغير السن وحكم من سنة ٤٠٨ — سنة ٤٥٠. وكان محبا للكنيسة ورهبان الأقباط، يرسل اليهم يتبرك بهم ويستشيرهم في كثير من أموره الخاصة. وقد تمتع في عهده الأنبا كيرلس الكبير بحرية واسعة في التصرف، حتى قيل ان بطاركة الاسكندرية في تلك الفترة من التاريخ كانوا هم الذين يتحكمون في تاريخ مصر، بل أطلق البعض على هذا البطريرك « فرعون مصر ».

وكان القديس كيرلس هذا خليفة للقديس أثناسيوس في محاربة اللاهوتيين وسيادة الفكر المسيحي. اعتلى كرسي البطريركية سنة ٤١٢ م في عهد الامبراطور ثيودوسيوس الصغير وتمتع في عهده بشبه استقلال في مصر، ودافع عن الايمان المسيحي مبدأ بكتابه خطاب الى الامبراطور ومحاربته البركة، وشرح له الايمان السليم ورد على الكتب التي كان قد وضعها ... الامبراطور يوليانوس ضد المسيحية

وقد لاحظ الأنبا كيرلس أن نسطور

بطريرك القسطنطينية عند وضع في هرطقته لاهوتية أشعل السنة شقاهم معينه ، لكن نسطور نسب برأيه ورفض الادعاء بتعليم كيرلس ، واستمال الى جانبه يوحنا أسقف انطاكية ، وحصل على مؤازرة من عطف الامبراطور الصغير لم تحمل كيرلس ملامه واتهمه بأنه عنيف وبأنه يقوم في مصر بدور فرعون

ولم يجد القديس كيرلس مناصا من أن يستخدم سلطته كبطريرك أول في الكنيسة ، فكتب الى أساقفة الصعيد يشرح هرطقة نسطور ، كما كتب الى الامبراطور ثيودوسيوس وأمه وأخواته ، وبعث برسالة الى نسطور نفسه يشرح له فيها قواعد الايمان وما يترتب على مخالفتها من جزاء

وانتهى الأمر بعقد مجمع مسكونى في افسس حضره مائتان من أساقفة العالم وكان مندوب الامبراطور في المجمع نسطوريا وهو كانديديانوس ، ولذا عمل نسطور على تهديد الآباء المجتمعين في افسس بأن دخل المدينة محاطا بفرقة مدججة بالسلاح ورفض حضور جلسات المجمع على الرغم من استدعاء الآباء له أكثر من مرة . وبرأيه دلالة اضطر المجمع الى الاجتماع بدونه . وبعد قراءة رسالة القديس كيرلس حكم المجمع بخلع نسطور من كرسيه وتجريده من رتبته الكهنوتية . وقد وافق الامبراطور على خلع نسطور وتجريده ونفيه الى البرية

وحينما أقام الآباء أسقفا جديدا على القسطنطينية أرسل الى القديس كيرلس خطابا هو ... انك تعمل على اعلان الحق ، يا خادم الله » وكذلك أرسل أسقف روما الى القديس كيرلس يهنئه بقوله « نعم لقد أثبت الرجل المصرى أنه لم يكن خطر »

ويقول المؤرخ ستانلى في كتابه « محاضرات في تاريخ الكنيسة الشرقية » ما نصه « لقد أصبح البطريرك السكندرى بعد مجمع افسس قاضى العالم ، تطاع أحكامه في جميع أنحاء العالم المسيحى »

ولقد خلف كيرلس أيضا كتبا كثيرة قيمة في اللاهوت وفي تفسير الكتاب المقدس

جـ - الصراع مع الأباطرة الناصرين لبابا روما

وعندما ولى مرقيانوس (سنة ٤٥٠ — سنة ٤٥٧) العرش أخذت العلاقات بين مصر وأباطرة الدولة الرومانية تدخل في أعنف وأقسى صورها ، فاجتازت مصر طوال الفترة الباقية من حكم الرومان مرحلة اضطهاد مرا عنيفا لم يتخلله سوى هدنة قصيرة في عهد الملكين زينون وانسطاسيوس (٤٧٤ — ٥١٨)

وقد بدأت هذه الفترة بخلاف بين كنيستى روما والاسكندرية أدى الى صدام استمر من سنة ٤٥١ حتى يومنا هذا . وعرف أتباع كنيسة روما باسم « الكاثوليك » بينما عرف أتباع كنيسة الاسكندرية ومن ...

على تصحيحهم باسم « الأرثوذكس » ويسمهم أيضاً السريان الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم « اليعاقبة ».

ولما نقض الأنبا ديسقوروس بطريرك الإسكندرية المواصفة على مسائل يديه أوردها لاون أسقف روما حول طبيعة المسيح ، استخدم لاون نفوذ الامبراطور في نفي ديسقوروس عن كرسيه وفي محاولة إرغام المصريين على قبول ما رفضه بطريركهم وحرمان كل من لا يوافق على مقالته حول طبيعة المسيح . وتعرض المصريون من أجل الثبات على إيمانهم لمذابح مروعة وخاضوا حركة استشهاد جديدة كالحركة التي خاضوها في عهد أباطرة الرومان الوثنيين ؛ بل إن عدد الذين استشهدوا منهم على أيدي المسيحيين من أتباع مذهب [illegible] المخالف لمذهبهم قد يزيد بكثير على عدد الذين استشهدوا على أيدي الوثنيين.

وكان الملك كلما اختار الشعب المصري بطريركاً قبطياً ؛ أمر بعزله عن منصبه ، ونفيه من مصر أو يهرب مختبئاً في أرجائها ، ويعين بدلاً منه بطريركاً ملكياً من أتباع مذهب الخلقيدونيين ، ويصبح هذا البطريرك الدخيل بالقوة أداة في إرغام الأقباط على قبول مذاهب على معتقداتهم ، فإذا رفضوا هذا البطريرك الدخيل ومذهبه أعمل الامبراطور فيهم القتل والسجن ، وكافة أنواع الاضطهاد.

ولكن يزداد الاضطهاد ضراوة بعث الأباطرة منذ عهد جوستنيوس إلى جعل البطريرك الملكي يجمع بين يديه إلى وظيفته الكهنوتية منصب الوالي المدني ويجمع بذلك السلطتين معاً ، وحين كانت جميع كنائس الإسكندرية في أيدي هؤلاء الدخلاء فإنهم استطاعوا أن يطردوا منها جميع البطاركة والأساقفة الأقباط وأن لا يمكنوهم حتى من دخول مدينة الإسكندرية ، ولما كانت في أيديهم القوة العسكرية أيضاً فإنهم استخدموها في اضطهاد الأقباط كما يشاءون . وقد استمرت هذه الحال حتى فتح العرب مصر فكان البطريرك القبطي الأنبا بنيامين هارباً من الرومان مختبئاً في البلاد والأديرة المصرية بينما كان المقوقس يجمع بين وظيفتي الوالي الروماني والبطريرك الملكي ويضطهد المصريين.

وأمام كل هذه الأوضاع الشاذة التي اختلط فيها الاستعمار السياسي بالاستعمار الديني وقف الشعب المصري صامداً لا يلين ، يرفض كل بطريرك محتملاً في سبيل ذلك صنوف العذاب ؛ ويرفض كل معتقد يخالف إيمان كنيسته القبطية ، ويؤيد بطريركه القبطي الوطني وهو هارب من كرسيه متشرد في أرجاء القطر ومتنكر في مكان ما . وكذلك أظهر البطاركة شجاعة عجيبة وصبراً واحتمالاً كلما اضطهدوا تنقلوا من مكان إلى مكان يثبتون الأقباط في إيمانهم

وتشجيعهم على الصمود أمام عسف الحكم المستعمر

ومن الأخطار التي سببها جدال فكري عاقبة انقسام الكنيسة المسيحي واضطرابها الى الخضوع لسيطرة الأباطرة الرومانيين وحاولوا ... الى خضوع الاسكندرية غير اسقفية انطاكيه التي لاقت صورة مشابهة من الاضطهاد فتحدى أساقفتها الغرب والشرق ، وتحمل شعبها النضال والاضطهاد في سبيل الايمان الواحد الذي دافع عنه ديسقورس الاسكندري

(ه) انقســـام الكنيسة :

ثم قامت هرطقة أوطاخي ، فعقد بسببها في افسس سنة ٤٤٩ م مجمع سمي مجمع افسس الثاني وكان رئيسه الأنبا ديسقورس بطريرك الاسكندرية . وقد مثل أوطاخي أمام هذا المجمع وسأله الأنبا ديسقورس عن ايمانه ، أنكر هرطقته انكارا باتا ، وقدم ايمانه مكتوبا يوافق ما أقره الآباء ، وحينما نوقش شفاها أجاب بنفس الكلام أيضا ، فعرض الأنبا ديسقورس أمر أوطاخي على آباء المجمع ، فقرروا براءته مما نسب اليه ، وقبوله في الكنيسة هو ورهبان ديره الذين نادى أحدهم عنهم في البداية بصحة ايمانهم

كما قرر هذا المجمع أيضا حرم فلابيانوس أسقف القسطنطينية [illegible]

ثم حدث أن دعا لاون أسقف روما سنة ٤٥٠ م الى عقد مجمع مسكوني ودعا الملك ديسقورس . وكان ديسقورس يرى الا داعي لعقد مجمع جديد لأن الكنيسة كانت في سلام من جهة الايمان . ولكن الظاهر أن لاون أسقف روما ملكه الحسد والغيرة من بطاركة الاسكندرية ودفعه ذلك الى أن يهيب بالقيصر لأنه لم يهم سوى عقد المجامع والتزامي عليه ، فأراد في هذا المجمع الجديد أن يدبر مكيدة للتخلص من ديسقورس

ولما وصل ديسقورس الى القسطنطينية حيث كان المجمع مزمعا أن ينعقد دهش من وجود بعض من أساقفة النساطرة محرومين مجتمعين مع الآباء فأمر بطردهم ، ثم قرئت على المجتمعين رسالة من بابا روما عندما سمعها ديسقورس أخذ عليه وقوعه في هرطقة النسطوري بسبب ورود أقوال الآباء صحيحة بمذهب الطبيعة الواحدة ، ووقف وسط الأساقفة يشرح هذه المسألة في قوة واقناع حتى صاح الجميع « نحن على ايمان ديسقورس » . ولما رأى الامبراطور مركيانوس ذلك — وكان حاضرا الاجتماع — أوعز الى أتباع لاون بأن يؤجلوا جلسة المجمع الى اجتماع آخر

وفي خلال ذلك دعي ديسقورس الى اجتماع خاص في قصر الامبراطور ، ولما أصر على ايمانه ، وعلى حرمه للأسقف لاون معادي مذهب الطبيعتين ، عندئذ عينه ونفوه وعقد مجمع في خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م ، وحصل تهديد القوة

بدأ يضطهد على الاسـاقفة حتى مزق عقيدة الطبيعيين ، ونفى ديسقورس ، واتهمه بالاوطاخية سرا وعلنا ، الذى كان قد رجع مرة أخرى الى هرطقته ، وأن سبب أن توبته الأولى امام ديسقورس فى مجمع افسس الثانى توبة زائفة ، كما حكم المجمع أيضا ببراءة لاون أسقف روما . ولما فرض قرارات المجمع على ديسقورس ، حرم أعضاء مجمع خلقدونية كلهم ، بسبب انحرافهم الايمانى ، والقبض عليه ونفى ديسقورس الى جزيرة غنغرا . وأرسل المجمع الخلقدونى الى أساقفة الكرسى السكندرى يدعوهم للايمان بمذهب الطبيعتين فرفضوا وقرروا عدم الاعتراف بمجمع خلقدونية ، فبدأ الامبراطور باستخدام القوة لارغام رجال الدين وأفراد الشعب على قبول مذهب لاون والاعتراف بقرارات مجمع خلقدونية ، فلما رفض الأخير قامت مذابح فى الاسكندرية وفى الأخيرة قتل بسببها شعب كثير ، وانقسمت المسيحية الى مذهبين . ومع أن ديسقورس وقف وحده وخاف الاساقفة من الانضمام اليه بعدما رأوا ما فعلته القوة به ونفيه ، الا أن ثورات شعبية أخرى قامت فى ... وبلاد أنطاكية احتجاجا على قرارات مجمع خلقدونية فاستخدمت القوة ضدهم ... واستشهد منهم عدد كبير

وظل ديسقورس فى منفاه حتى توفى سنة ٤٥٧ م . وكان أصحاب مذهب الطبيعتين قد عينوا مكانه بطريركا من مذهبهم اسمه بروتيريوس ، فرفضه الشعب المصرى وطرده من بطريركيته ، حتى اضطر الى الاستعانة بالقوة المسلحة ليتمكن من دخول الكنيسة واذ رفض الشعب له وبدأ يترك الكنيسة له ومن يناصره من جنود الرومان ، أمر الجنود فأعملت فيهم السيف حتى فى ذلك يوم عيد ... ، كما قتل كثير من الرهبان ، واتخذ بعد هذا بطريرك الخلقدونى ، وأحدث بعض اجراءات مدنية كايقاف الاعياد الرياضية ووقف الخدمات العامة وتهديد الشعب بسحب امدادات القمح

ولكن الشعب المصرى ظل متمسكا ببطريركه الى أن توفى فى منفاه سنة ٤٥٧ م . ولم تدم بطريركية بروتيريوس المكروهة أكثر من هذا التاريخ لأن الشعب السكندرى انتهز فرصة استدعاء قائد الحامية الرومانية الى مصر العليا فى عهد الامبراطور ليون الأول (سنة ٤٥٧ — سنة ٤٧٤) وقام بثورة عنيفة تخلصوا فيها من بروتيريوس واختاروا راهبا تبعيا أقاموه بطريركا باسم تيموثاوس الثانى . ولكن الامبراطور تحدى الأقباط ونفى الأب تيموثاوس الذى اختاره الشعب وكذلك كسلفه ديسقورس ، الى جزيرة غنغرا ، وعين مكانه بطريركا من مذهب الطبيعتين اسمه سالوفاكيولوس . وكان السبب فى ذلك هو أن الأسقف تيموثاوس الثانى جمع عددا من أساقفة فى الكرسى

السكندري سنة ٤٥٨، وأصدر قرارا بحرم مجمع خلقدونية فاضطهد نيرون الأنبا ... بعد ... في ... بعد ... الامبراطور فرجع تيموثاوس الإسكندري إلى كرسيه

فترة هدوء

لم تشهد الكنيسة بفترة هدوء خلال حكم زينون (سنة ٤٧٤ — سنة ٤٩١) واستطاع البطريرك القبطي الأنبا تيموثاوس بعد عودته من منفاه أن يعقد مجمعا في القسطنطينية كان من بين أعضائه بطرس القصار بطريرك أنطاكية وقرر رفض المجمع الخلقدوني ورسالة لاون أسقف روما كما وزع منشورا بذلك ورفض عقيدة أوطاخي ووجوب التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة وتحدث عنه المؤرخ الكاثوليكي تلامنتيير في كتابه عن التاريخ الكنسي أن تيموثاوس الذي وضع هذا المنشور لم يكن أوطاخيا »

ولما توفي الأنبا تيموثاوس الذي خلفه الأنبا بطرس الثالث (سنة ٤٨٠ — سنة ٤٨٨م) تمتعت الكنيسة بسلام في عهده أيضا، وبدأت محاولات للتقريب بين كنيستي الإسكندرية والقسطنطينية، وعقد من أجل ذلك مجمع في القسطنطينية سنة ٤٨١ م ... الفوضى التي تمسكت بها الكنيسة ... وأصدر ... منشورا ... « الاتحاد » ...

عنه ... ولكن الإسكندرية ... على أساقفة القسطنطينية ... قرارات مجمع خلقدونية صراحة ... أكاكيوس بطريرك القسطنطينية وبين بطرس الثالث الإسكندري رفض فيه أكاكيوس مجمع خلقدونية وسماه « مجمع الضالين »، كما رفض رسالة لاون وآراء نسطور. فقبله بطرس الثالث، فلم يرق هذا لبعض أساقفة الكرسي الإسكندري واحتجوا على بطريركهم قائلين له « كيف تقبل أكاكيوس الذي حضر مجمع خلقدونية ووافق عليه؟ » فرد عليهم بقوله « ... قبلته لرجوعه عن ذلك الرأي ». ولكن الظاهر أن هذا الأمر كان ... وانتهى إلى مذهب الطبيعة الواحدة في عهد ملك ... مثل زينون، لأنه بمجرد موت زينون عاد اضطهاد مذهب الطبيعة الواحدة وعادت كنيسة القسطنطينية إلى التمسك بقرارات مجمع خلقدونية. وفي الواقع أن كنيسة الإسكندرية كانت ... في موقفها ثابتة على الإيمان لا تزحزحها عنه الاضطهادات، ولم تثبت معها في ذلك سوى كنيسة أنطاكية.

وقد استمرت فترات الهدوء أيضا خلال حكم أنسطاسيوس (سنة ٤٩١ — سنة ٥١٨م) وفي هذا العهد توطدت أواصر التعاون بين كنيستي الإسكندرية وأنطاكية لاتحادهما في الإيمان الواحد.

ولما تولى الحكم الامبراطور يوستينوس الأول (سنة ٥١٨ — سنة ٥٢٧) وكان على كرسي الاسكندرية البطريرك تيموثاوس الثالث (سنة ٥١٧ — سنة ٥٣٥) ، حاول هذا الامبراطور ارغام كنيستي الاسكندرية وانطاكية على قبول مجمع خلقيدونية فلما رفض ساويرس بطريرك انطاكية نفاه عن كرسيه فجاء الى مصر ، وظل فيها هاربا يتنقل من مدينة الى مدينة ومن دير الى دير محاطا بمحبة المصريين الذين تبعوه كزعيم معلم في الكنيسة وظل هو من جانبه يشجعهم ويثبتهم في الايمان . كما أخذ هذا الامبراطور يضطهد الأب تيموثاوس بطريرك الاسكندرية وأمر بنفيه وحدث بسبب ذلك مذبحة هائلة قتل فيها نحو مائتي ألف نفس من الأقباط ارادوا حماية بطريركهم من الجنود الرومانيين الذين تمكنوا على الرغم من ذلك من القبض عليه ولم نفيه ، وبقي في منفاه ثلاث سنوات رجع بعدها الى مركزه واستمر مدافعا عن الايمان بالاشتراك مع ساويرس بطريرك انطاكية حتى توفي سنة ٥٣٥ م في عهد الامبراطور يوستنيانوس الأول .

وخلفه على كرسي الاسكندرية الأب ثيودوسيوس الأول (سنة ٥٣٥ — سنة ٥٦٧) وقد عرض عليه الامبراطور أن يقبل مقالة لاون ويساعده على نشرها في مقابل أن تكون له الرئاسة في البطريركية والولاية ، وتكون جميع أساقفة الرئيس تحت طاعته . فرفض ذلك وقال ان ليس للامبراطور ولا للملك سلطان الا على جسدي فقط . أما نفسي فلا وأما أنا فتابع ايمان آبائي » . وترك كرسيه حسب أوامر الامبراطور في حالة الرفض وذهب الى منفيه ، فحاول الامبراطور ملاطفته وارغامه فلم . نفى البطريرك منفاه وأرسل بدلا منه بولس التنيسي ليكون بطريركا على الاسكندرية وقام برسامته فيها بطريرك القسطنطينية . فلما وصل هذا البطريرك الدخيل الى الاسكندرية لم يقبله أحد وكانوا يسمونه « يهوذا الخائن » ولم يقبل أحد أن يصلي معه ، فأرسل الى الامبراطور يخبره بذلك فأمره بغلق الكنائس لمدة سنة ولم يجد الشعب المصري مكانا للصلاة فبنوا كنيستين في المكان المعروف باسم السواري غربي الاسكندرية . ولم تبق للبطريرك القبطي المنفي سوى هاتين الكنيستين لأن الامبراطور أمر بألا يعطى كنائس الاسكندرية الا اتباع البطريرك الدخيل وأقام الأب ثيودوسيوس باقي حياته في المنفى .

وقد خطا يوستنيانوس خطوة أوسع في اضطهاد المصريين وارغامهم على قبول مجمع الخلقيدوني ، فعند وفاة بولس التنيسي عين من قبله أبوليناريوس بطريركا على الاسكندرية وحاكما لها في نفس الوقت . وقصد من ذلك

أن يحصل في يد الرئيس الديني القوة
العسكرية التي تمكنه من تنفيذ أوامره. وقد
بدأ عهد البطريرك الدخيل عهده بمذبحة
كبرى قتل فيها عدد كبير من أفراد الشعب
الذين رفضوا سماع قداسه، وطاردهم رجاله
في الكنيسة حتى قتلوا بداخلها. وبهذه
المذبحة تمكن من التخلص من أشد المعاصرين
لمعارضته. وهذا العمل لم يجعل من هذا
البطريرك الدخيل سوى حاكم مدني، لأنه
لم يتمكن من ممارسة شيء من السلطة الدينية
التي ظلت في يد البطريرك الشرعي الذي
اختاره الشعب. ولكن أساقفة الأقباط لم
يستطيعوا على الرغم من ذلك أن يظهروا في
الاسكندرية

وبذلك فعندما رسم بطريرك القبط
الأب بطرس الرابع سنة ٥٦٧ بعد وفاة سلفه
ثيودوسيوس، أقام في كنيسة بعيدة عن
الاسكندرية بمقدار تسعة أميال ثم اختفى في
دير الزجاج بالقرب من الاسكندرية متنكراً
في درجة أسقف لا بطريرك، ويدير أمور
الشعب من هناك. وقد سمح بذلك أهالي
بطاركة عموم كنيسة الاسكندرية، فرسموا
لهم بطريركاً بعد وفاة القديس ساويرس
أسموه ثيودوسيوس أقام مختبئاً في دير
مونيوس لأن أصحاب الطبيعتين هناك منعوا
الأساقفة الأ... ودكن ... مدينة
أنطاكية ... التي قامت
في الاسكندرية

ثم قام البطريرك الأنبا دميانوس
الاسكندري وخلف بطرس الرابع سنة ٥٦٩م
ودام مدة رئاسته التي بلغت ستاً وثلاثين
سنة مختفياً في دير ... أيضاً في درجة
أسقف

ثم تولى البطريركية أنسطاسيوس سنة
٦٠٥ م وزاد اضطهاد الرومان للأقباط حتى
أن الرومان حرموا الأقباط الكنيسة التي
يوجد بها غربي الاسكندرية

ثم تولى البطريركية الأنبا اندرونيقوس
سنة ٦١٦ م واستطاع أن يقيم في الاسكندرية
معتمداً على قوة أسرته التي كانت غنية
جداً وتتولى بعض المناصب الادارية الكبيرة
في المدينة. ولم تستطع قوة الرومان أن
تخرجه منها. والسبب في ذلك هو أن
الدولة الرومانية كانت وقتذاك في حالة يرثى
لها، إذ اجتاحت جيوش الفرس كثيراً من
أراضيها. وقد زاد تقدم الجيوش الفارسية
نحو الحدود الشرقية للامبراطورية هجرة كثير
من أهالي سوريا وفلسطين اللاجئين الى مصر،
وهجر يوحنا البطريرك الملكاني مع عائلتهم
وحاشيتهم هرباً من مدينته وترك البلاد
للفرس. وقد قتل الفرس آلافاً من الرهبان
الأقباط وخربوا كثيراً من الأديرة

وفي سنة ٦٢٢ م تولى بطريركية
الاسكندرية الأنبا بنيامين الذي عاصر الفتح
العربي لمصر. وبعد سبع سنوات من حبريته
عين هرقل سنة ٦٣١ م بطريركاً ملكانياً

(ملكي) اسمه كيرس Cyrus وهو الذي اشتهر باسم المقوقس ، وجمع له البطريرك بين وظيفته الكهنوتية ، بين وظيفة الوالي ليكون أقوى على قهر الأقباط وضمهم الى مذهب القائلين بالطبيعتين . ويبدو أن هرقل لم يكن موفقاً في اختيار هذا الرجل الذي كان ضيق الصدر ، فانه لما عجزت حيله استمالة المصريين الى مذهبه لجأ الى اضطهادهم اضطهاداً رهيباً مما ترجم منه أن ولت كانت الامبراطورية فيه محتاجة أشد الاحتياج الى استرضاء الأقباط بسبب حرج موقفها في حربها مع الفرس

أما البطريرك القبطي الأنبا بنيامين فاختفى هو وسائر أساقفة مصر جميعاً وظل ينتقل بين الكنائس والأديرة دون أن يقع في أيدي الرومان

وانتهز هرقل هذه الفرصة فأقام أساقفة من الملكانيين في بلاد مصر كلها من الاسكندرية الى أسوان ، ونكلوا بالأقباط تنكيلاً شديداً

ولكن هذه الحالة لم تستمر طويلاً اذ أتى عمرو بن العاص بجيوشه العربية الى مصر ، وفتحها سنة ٦٤١ م وحين استتبت له الأمور أعطى أماناً للأنبا بنيامين فرجع الى كرسيه في الاسكندرية بعد غيبة دامت ثلاث عشرة سنة وبدأ يعيد الى الكنيسة أولئك المسيحيين الذين ضغط عليهم هرقل في قبول قرارات مجمع خلقدونية وصرح عمرو له بفتح الكنائس واقامة العبادة فيها

الفصل الثاني

الحيـــاة اللغوية

اللغة هي الأداة التي يعبر بها الإنسان عن أفكاره ومشاعره. ولا يحدث أن يرتقي شعب، وتتنوع الأعمال فيه، دون أن تكون له لغة غنية تيسر له التعبير عن مختلف نواحي حياته. ولما كانت مصر القديمة قد وصلت إلى درجة كبرى من الرقي، فقد تطورت لغتها حتى سايرت أسباب الحضارة فيها بألفاظها المتنوعة وقواعدها التي تضبط التركيب، وتعبيراتها ومصطلحاتها في شتى العلوم. كما كان أدبها الواسع في الميدان الديني والعلمي والشعبي، وغير ذلك من الميادين دليلا على نشاط اللغة وحيويتها واللغة كائن يولد ويكبر ويتطور.

مراحل تطور اللغة المصرية:

مرت اللغة المصرية في خمس مراحل

ا ـ اللغة المصرية القديمة: وهي لغة الأسر من الأولى إلى الثامنة منذ حوالي سنة ٣٤٠٠ ق م إلى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد. ولقد وصلنا منها وثائق رسمية وجنائزية ونصوص مقابر، ومنها نصوص الأهرام، وسير لبعض الأشخاص.

وهذه اللغة خصائص تميزها في بعض تعبيراتها وإملائها.

ب ـ اللغة المصرية المتوسطة: وهي لغة الآداب من الأسرة التاسعة إلى الأسرة الثامنة عشرة، منذ حوالي سنة ٢٤٠٠ ق م إلى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد. وصارت لغة الأدب بعد ذلك حتى العهد المتأخر.

جـ ـ اللغة المصرية الحديثة: وهي لغة الأدب من الأسرة الثامنة عشرة إلى الرابعة والعشرين أي منذ حوالي سنة ١٥٨٠ إلى سنة ٧١٠ قبل الميلاد. ووجد مدونا بها وثائق خاصة بالمعاملات ورسائل، وبعض الحكايات والقصص الأدبية، ووردت بها نصوص تاريخية للأسرة التاسعة عشرة وما بعدها، على أن لم تعثر منها الآ على القليل. ولقد بدأ فيها ظهور كلمات دخيلة.

د ـ الديموطيقية: وهي مستعملة في الكتب والوثائق التي كتبت منذ الأسرة الخامسة والعشرين إلى آخر عصر الرومان من سنة ٧٠٠ إلى سنة ٤٧ قبل الميلاد.

هـ ـ القبطية: هي اللغة المصرية القديمة في صورتها الأخيرة من مراحل تطورها.

كتبت اللغة المصرية القديمة في مراحلها المختلفة بالكتابة والخطوط في مصر حتى

عدم دولة البطالمة فأصبحت اليونانية لغة البلاد الرسمية، وبمضي الزمن أخذ كثير من المصريين يتعلمونها ويستخدمونها في وثائقهم ومعاملاتهم حتى ولو كانوا يجهلونها. ولا جدال في أن اللغة المصرية كانت لا تزال تستخدم في الكتابة الدينية و للتخاطب فضلا عن تحرير العقود والرسائل. ولا يفوت أن نذكر أن غالبية المصريين كانوا لا يستطيعون كتابة أو قراءة أي لغة وبطبيعة الحال كانوا لا يعرفون اليونانية.

وقد صحب ازدياد استخدام اللغة اليونانية ونقص استعمال الديموطيقية تدوين هذه اللغة بحروف يونانية، وتم وضع الأبجدية القبطية لتنظيم هذه اللغة المصرية الدارجة ورفعها الى مصاف اللغات الأدبية، وأدى ذلك الى أن ظهرت اللغة القبطية بآدابها منذ أواسط القرن الثالث الميلادي.

اسمها: سميت بالقبطية لأن المصريين في ذلك الوقت كانوا يسمون أقبطا، ويعني معناه مصري.

كانت الشعوب السامية المجاورة تسمي مصر قديما باسم «مصر» فكانت تسمى في الأشورية وسميت في الآرامية «مصرين» وفي العبرية «مصرايم» وعرفها العرب باسم «مصر». والمصر في اللغات السامية تعني الحد وقد أطلقت الشعوب السامية من آشوريين وآراميين وعبريين وعرب، على البلاد المتاخمة لهم «مصر» كما أسموا سكانها بالمصريين. ثم أطلقت كلمة مصر على القطر عامة. ومن المستحسن الملاحظة أن كلمة مصر معناها في اللاتينية تعني حد. وقد أطلق الرومان هذه الكلمة بصيغة الجمع على القطر أيضا.

وسمى القبط مصر باسم كيمي «السوداء» أي الأرض السوداء. وأسماها الآشوريون في نقوشهم المسمارية «حيكوبتاح» وهو الاسم الذي كان يطلقه المصريون على عاصمة مملكتهم منف ومعناه «بيت روح بتاح» وكان إطلاق هذا الاسم على المملكة كلها من سبيل إطلاق العاصمة على القطر كما تعودنا ذلك في الحديث الآن.

وسمع اليونان هذا الاسم فأخذوه منهم منذ عصور قديمة وأسموها «ايجبتوس» وورد اسمها هذا منذ عرفت في شعر هوميروس. فإذا حذفت علامة الرفع (وس) ثم الحركة الأولى التي تذهب العرب حرفه استهلالا صار لنا بعد ذلك اسم قبط.

أما المراحل التي اجتازتها كتابة هذه اللغة فهي:

أ ـ **الخط الهيروغليفي:** الذي اكتسب صفته القدسية، وقد أعطي هذا الاسم «هيروغليفي» المأخوذ من كلمتين يونانيتين هما «هيروس» = مقدس، و«غليفوس» = نقش

ب ــ الخط الهيراطيقي وهو أيسر من الهيروغليفي بعض الشيء واستعمله الكهنة في كتاباتهم ، والتسمية مأخوذة نصا من اللغة اليونانية ، ومعناها « خاص بالكهنة »

جـ ــ الخط الديموطيقي : وهو من اليونانية ومعناه « خاص بالشعب » . فالخط الديموطيقي هو الصورة المبسطة التي أخذ الشعب المصري يستخدمها في كتاباته في العصور المتأخرة

د ــ الخط القبطي كانت محاولات فردية من المصريين لتدوين لغتهم بحروف يونانية وكان ذلك في العصور الوثنية ، بدليل العثور على نصوص قبطية من العصر الوثني لغتها مصرية وحروفها يونانية وبها بعض حروف ديموطيقية ، وهذه النصوص محفوظة في كل من متحفي باريس ولندن

وكانت هذه المحاولات كانت وليدة الحاجة سبب أو لآخر ، دون أن يكون لذلك أي شأن بالمسيحية وانتهى الامر بأن استطاع شخص او جملة أشخاص استحداث ما نسميه الآن بالخط القبطي وكتبوا لغتهم بحروف يونانية واضافوا الى الأبجدية اليونانية سبعة حروف أخذوها من الخط الديموطيقي ، لتعبر عن أصوات ليس لها مقابل في اللغة اليونانية وهي الأحرف السبعة شاي (ش) وفاي (ف) وخاي (خ) وهوري (هـ) وجنجا (ج) تشيما (تش) ، تي (ت) .

اللهجات القبطية معروف أن اللغة المصرية القديمة كانت تضم لهجات شتى وهذا مدرك واضح بين سكان مصر الآن وهذا طبيعي في اللغات اذ تنتشر في منطقة واسعة وتعيش عليها العصور ولا ريب أن بعض الاختلافات التي كانت قائمة في المصرية القديمة كانت أساسا لما وجد منها في اللهجات القبطية المتعددة

قسم العلماء اللهجات القبطية الى قسمين

ا ــ لهجات مصر السفلى

وتعرف منها الآن البحيرية نسبة الى بحيرة أي بقعة الأراضي المجاورة لبحيرة أو ربما كانت منسوبة لمديرية البحيرة وهي اللهجة الأولى التي وصلت الى درجة اللغة الأدبية وكان ذلك في مدينة الاسكندرية

ب ــ لهجات مصر العليا :

١ ــ الصعيدية نسبة الى صعيد مصر وهي لهجة طيبة ، وأصبحت فيما بعد لهجة الوجه القبلي ، وكانت تسمى بالطيبية

٢ ــ الفيومية : انتشرت في الفيوم

٣ ــ الأخميمية : تكلم بها أهل مدينة أخميم من القسم الشمالي للصعيد

هذه اللهجات الأربع هي اللهجات الرئيسية وتفرع عنها بعض لهجات

١ ــ المنفية : سادت في منطقة منف جنوب عقل البحيرة

٢ — الاخميمية الفرعية او الاسيوطية انتشرت فيما بين المنيا وأسيوط وهى اشتقت من الاخميمية

٦ — البشمورية : اشتقت من البحيرية وقد ذكرها العلماء الأقباط ولكنها ضاعت ويرجح أنها كانت لهجة قبطية تتكلم حسب اليونان فى شرقى الدلتا وكتبت بحروف يونانية عادية

٤ — والمشتق من الفيومية لهجة أخرى عثر على نص منها فى الجبرات بالواحات الخارجة ويرجح أنها كانت خاصة بالواحات

هذا وكانت اللهجة الصعيدية تتكون من عدة لهجات تميزت بعضها فى بعض كما نلاحظ هذا أيضا فى البحيرية ودليلنا على ذلك وجود صيغ مختلفة للكلمة الواحدة

ويلاحظ على اللغة القبطية بالنسبة للمصرية القديمة ما يأتى

١ — انها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظمها ديموطيقية

٢ — دخلت عليها مفردات وتعبيرات يونانية وبخاصة فى العصر المسيحى

٣ — أبدلت بعض الحروف فى الكلمات وبخاصة الحروف السائلة ل م ن ر ، كأن يقال « س » بدلا من « سن » أى سنان ، كما حذفت على بعض الكلمات مثل « ابى » بدلا من « بت » أى سماء

٤ — كتبت القبطية بالحروف الصائتة والمتحركة ولم يعرف الخط القديم الا الحروف الصامتة

٥ — حفظت لنا القبطية كلمات لم نعثر عليها فى المصرية القديمة

٦ — وأحيت القبطية كلمات مصرية قديمة

احتضار اللغة القبطية

أخذت اللغة العربية تناهض اللغة القبطية ابتداء من القرن التاسع الميلادى وعيسى أن حلول العربية محل القبطية فى الكتابة سبقه انتشار العربية كلغة للتخاطب بين أفراد الشعب ، فقد أصبحت العربية لغة الدواوين ، ثم صارت لغة التعليم ، ولما جاء القرن الثالث عشر والعلماء القبط يؤلفون فى اللاهوت باللغة العربية مما يدل على أنها كانت لغة العلم السائدة وكان يفهمها أغلب سكان مصر ، ويتكلم بها أغلب سكان الوجه البحرى وظلت القبطية لغة التخاطب فى الوجه القبلى حتى القرن السابع عشر

ويقول المقريزى فى القرن الخامس عشر عند كلامه عن دير موشة « والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى وهو أصل اللغة القبطية ، وبعدها اللغة القبطية البحرية وتساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون الا بالقبطية الصعيدية » ويقول ماسبيرو « ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون

ويكتبون باللغة القبطية حتى المنتصف الأول من القرن السادس عشر ».

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انتهى الكلام بالقبطية ، ولكنها ظلت لغة الكنيسة تستخدم في الصلوات وقراءة الكتب المقدسة . ويعرفها بعض الأفراد من الرهبان في الأديرة أو المعاهد ، عن طريق اشتغالهم بهذه الصلوات واهتمامهم بها . هذا فضلا عن العلماء الغربيين والشرقيين المهتمين بدراستها .

اثر اللغة القبطية خارج مصر

بالرغم من أن اللغة القبطية لها قوميه ، الا أنك ترى لها آثار عالمية ، فنجد بعض ألفاظ قبطية انتشرت في اللغات الأوروبية مثل الواحة (وازيس) ، وكومي أى الصمغ (في الايطالية جوم ، وفي الفرنسية جوم وفي الانجليزية جم) ، والسوس ، والأيبيس وشيهات ، وهي منطقة وادي النطرون (سانيط) ، (ومنها اسم الناسك في اللغات الأوربية) ، والأبنوس ، ومثل كلمة طوبة أى (الآجر) مثل من الألفاظ التي نعرف تاريخ انتشارها في الخارج ، فقد أخذها العرب عندما فتحوا مصر عن القبطية ونشروها مع فتوحاتهم الى الأندلس فدخلت الاسبانية ثم مع الاسبان جنوب أمريكا حيث هناك نطقه (أدوبي) ثم أخذها الأمريكيون الشماليون بأمريكا الجنوبية فدخلت الكلمة في اللغة الانجليزية بشكلها الاسباني .

ومن آثار القبطية أيضا أن القديسين كيرلس المسمى بالفيلسوف وأخاه ميثوديوس عندما وضعا الأبجدية الروسية في القرن التاسع الميلادى أدخلا بعض الحروف القبطية المأخوذة عن الديموطيقية في الأبجدية الروسية .

اللغة القبطية وآثارها على العربية :

بالرغم من أن اللغة القبطية قد اختفت أمام العربية الا أن ذلك لم يحصل دون أن تضفي شخصيتها المصرية على اللغة العربية وأن تصبغها بصبغة جعلت اللغة العربية في مصر تظهر بمظهر خاص يختلف عنه في الأقطار العربية الأخرى ، كما ظلت العادات المصرية القديمة حية حتى الآن في مصر . فمن الكلمات القبطية التي دخلت العربية أسماء نباتات مثل برسيم ، أردب ، بيه ، أم قويق ، حلق ، لبيس ، نقوس ، كمك ، قلة ، كحة ، قمة ، بشه ، ماجور ، مسح ، بيوت ، شوس ، بوش ، ناف ، بصارة ، رقاق ، سفه ، صمات ، طوبة ، نحبة ، تنطلا ، سنط ، شولة ، شوب ، شوطة ، شوربة ، حلوم ، رمان ، شوشة ، شبورة ، بلح . ومن أنواع السمك البوري ، والبني ، واللبيس ، والراي ، والساس ، والشبه . ومنها أفعال مثل شأشأ ، فرفر ، فلوس ، هوش ، تكتك ، نكت ، نط ، نتف ، وشمس (نحس) ،

نفس » شس » سمى وكذلك تعبيرات مثل «الوروَر» للفحل الصغير، و«الصلاى» ووحة [illegible] اصبعة أو الوصب، و«الكاس» بمعنى الألم، و«بوت» للحاوى بمعنى حشيع، و«يلي» بمعنى الفرح، ونحن ما زلنا نرددها في «يلي يا عيني»، «ريح» بمعنى التهى، و«كاي» عالي.. ومنها استعمال أداة الاستفهام في آخر الجملة. ولعل من أهم مظاهر القرابة المصرية ما نلحظه في أسماء المدن المصرية، فبالرغم من اختفاء الأسماء المصرية القديمة مدة تسعة قرون وهي مدة سيادة اللغة اليونانية ورغما من فرض أسماء يونانية على المدن المصرية مثل «أبولونوبوليس» لقوص، و«أكسيرنخوس» للبهنسة، وليكوبوليس لأسيوط، وبانوبوليس لأخميم، وهرموبوليس للأشمونين، وهيراكليوبوليس لأهناسيا، فإن الأسماء المصرية بقيت مستعملة ثم لم تلبث أن ظهرت ثانية بعد دخول العرب، وكان ذلك محافظة العامة القبطية على هذه الأسماء القديمة

الفصل الثالث

الحياة الفكرية

١ – الإنتاج العلمى والفلسفة

الحالة الفكرية وقت ظهور المسيحية

كانت الاسكندرية قد وصلت الى درجة عظيمة من الأهمية ، حتى أصبحت تعتبر بحق العاصمة الثقافية للعالم وقلب العالم الهلينى النابض . وكانت مكتبتها تزخر بمن يفد اليها من العلماء والفلاسفة وطلاب المعرفة ، لا من بلاد اليونان فحسب وانما من كل جهات العالم ، يحملون معهم علوم بلادهم وثقافتها . وازدحمت المدينة بأناس من شتى الأجناس والأديان والثقافات ، حتى لكأنها كانت معهد ثقافى

كان فيها المصريون الوطنيون بديانتهم المعروفة ومعابدهم وآلهتهم المصرية ، والى جانبهم عاش اليونان بعقائدهم الدينية وشعائرهم وآلهتهم الاغريقية والمتمصرة ، والرومان بآلهتهم ودينهم وتماثيلهم وعاداتهم ؛ وكان هناك اليهود يشغلون عنصرا هاما فى المدينة ولهم فيها حى خاص ومعهم ديانتهم الالهية وكتابهم الموحى به وتقاليدهم الموروثة ، وكانت هناك أجناس أخرى شرقية فى مدينة لها أيضا عاداتها وثقافتها

ولقد التقى كل أولئك فى شوارع المدينة وأسواقها . وقامت مناقشات دينية وعقلية حامية كانت تؤدى الحماسة لها أحيانا الى معارك ومنازعات . كما تقابل علماء كثيرون فى المكتبة وتناقشوا فى خصومة حينا وفى تفاهم حينا آخر ، وكانوا يأخذون من الحكام مساعدات مالية ، وهكذا أسست مدرسة الاسكندرية المشهورة وأخذت الاسكندرية مكان أثينا كمركز أدبى للعالم اليونانى

ومن ذلك كله حدث لون من الامتزاج الفكرى تولدت عنه أفكار وفلسفات ومذاهب جديدة ، بل حدثت محاولات للتوفيق بين الأديان المتعددة فى حركة عرفت باسم « التوفيق » Syncretism .

واليهود الذين كانوا منعزلين عن الأمم ، تأثرت جماعة منهم محتفظة بتقاليدها بينما تختلط الباقون بغيرهم من الشعوب ، وعملوا على التقريب بين ديانتهم والفلسفات القائمة متأثرين بالهلينية ، حتى أنه فى القرن الثانى قبل المسيح كتب أرسطوبولس تفسيرا للتوراة حاول فيه التوفيق بين تعاليمه

والفلسفات المعاصرة ، بل قال ان فيثاغورس وسقراط وافلاطون وأرسطو تأثروا بكتابات موسى النبي واعتمدوا عليها في كتاباتهم وجاء الفيلسوف اليهودي الاسكندري الذي عاش في القرن الأول الميلادي حاول هو أيضا التوفيق بين العقل والوحي ، وتأثر بالأفلاطونية ، وكان له تأثيره على المسيحيين فيما بعد

ولكن كل هذه المحاولات للتقريب أضافت الى الأفكار المتضاربة أفكارا جديدة ولم تستطع أن تصل بالناس الى الحق الواحد ، بل ظل العقل البشري حائرا يتساءل أين توجد الحقيقة . واحتدم النزاع بين فلسفات وفلسفات ، وبين أديان وأديان ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقل والايمان.

الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية .

وسط كل ذلك ظهرت المسيحية في الاسكندرية حوالي سنة ٥٥ م وانتشرت في فترة وجيزة في مصر كلها . وكان عليها لكي تبقى أن تصمد أمام اضطهادات الحكام ، وأن تتصارع مع كل الأديان والفلسفات والمذاهب سواء منها الوثنية أو اليهودية

وهكذا حدثت معارك عجيبة في الاسكندرية ، فاتخذ كل من الفريقين أسلحة الآخر لمحاربته بها ، فدرس المسيحيون الفلسفة للرد على الفلاسفة ودرس الوثنيون الكتاب المقدس لمهاجمة المسيحيين . وهكذا نرى « كلسوس » و « بورفيريوس » وغيرهما يهاجمون المسيحية في تعاليمها التي سجلوها في الأناجيل محاولين أن يخطئوها تاريخيا وفلسفيا . ومن ناحية أخرى نرى ديديموس الضرير يكتب كتابه عن « الثالوث » يستشهد فيه بكثير من آراء الفلاسفة والحكماء والشعراء الوثنيين.

واتهم الوثنيون المسيحيين لدى الحكام باتهامات كثيرة في تعاليمهم وعباداتهم وأخلاقهم ، وأدى هذا الصراع الى ظهور فئة من العلماء يدافعون عن المسيحية نذكر من بينهم اثيناغوراس أحد أساتذة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، فقد كتب دفاعه الى مرقس أوريليوس قيصر سنة ١٧٦ م

كذلك حاول أعداء المسيحية أن يؤلفوا كتبا على نسق الأناجيل لها أبطال سيرتهم تشبه سيرة السيد المسيح حتى يخلطوا المسيحية بتلك الأساطير الخرافية . ومن ضمن كتب هؤلاء « حياة فيثاغورس » التي ألفها بورفيريوس وهي لا تختلف كثيرا عن حياة أبولونيوس التي كتبها فيلوستراتوس . ورد المسيحيون على كل ذلك معتمدين على التاريخ والعلوم والفلسفة واللاهوت في ردودهم

هذا الصراع بين الفلسفة والدين ، أعني بين العقل والايمان الذي يسلم بالمعجزات وأمور فوق العقل ، كان من نتائجه ظهور فلسفة الصوفية ، وفلسفة الأفلاطونية الحديثة

الغنوصية وتاريخها ومدارسها — الغنوصية مذهب « المعرفة » واسمها مأخوذ من الكلمة اليونانية « جنوسيس » . وقد سمى « الغنوصيون » أنفسهم بهذا الاسم اي « العارفين » ، وقادوا في رفع قيمة المعرفة والحط من قيمة الايمان ، ثم وضعوا العقل فوق الايمان ، والفلسفة فوق الدين ، وجعلوا الفكر الخاص رقيباً على الوحي ، يستطيع أن يرفض منه بعض المعتقدات وينكر المعجزات والآيات الخارقة للطبيعة

واعتقدوا أن الانسان يتكون من ثلاثة عناصر روح ونفس وجسد . وقسموا الناس حسب العنصر الغالب فيهم الى ثلاث طبقات.

أ — الروحيين وهم الغنوصيون الذين رفعتهم المعرفة الى مستوى عال فوق المادة والحس ويسودهم العنصر الالهي

ب — الجسدانيين وهم العوام الخاضعون لتأثير المادة والحس

ج — النفسانيين وهم متوسطون بين الاثنين ، يمكن أن ترفعهم المعرفة الى درجة الغنوصيين الروحيين ، ويمكن أن تنحدر بهم المادة الى درجة الجسدانيين

وهكذا نرى أنهم حسبوا أنفسهم أرستقراطية عقلية قريبة من الله ، وحطوا من قيمة المادة جداً ، واعتبروها شراً ، فلذلك ... بعضهم حركة صوفية تحاول السمو عن المادة والحس ، كما انحدر بعضهم الى الدعارة

وانغمس الاتقياء على الحس بالانهماك فيه وكان الغنوصيون في مصر من النوع الأول الناسك

ومعنى هذا أن الغنوصيين كانوا جميعهم وثنيين ، وان كان منهم مسيحيون أيضا ولكن هؤلاء نظروا الى النصرانية التي اختاروها واعتبروا أنفسهم أشخاصاً روحيين ومن ثم اعتبروا باقي المسيحيين نفسانيين فقط غير قادرين على النهوض من الايمان الأعمى الى المعرفة الحقيقية ، واعتبروا باقي الناس ماديين أو جسدانيين ورأوا أن نظرية الفداء في المسيحية هدفها تخليص الانسان من المادة والجسد ، وقالوا ان هذا كان هو عمل المسيح الفدائي ولكن لأن الغنوصية قد اشتملت على عقائد كثيرة تخالف الايمان المسيحي فقد حاربتها الكنيسة من مصرعها ، وأبعدت من يؤمنون بتلك العقائد ، واعتبرت الغنوصية بذلك نوعاً من هرطقة وحاربتها

ومؤرخو الفلسفة يرجعون الغنوصية الى أيام تلاميذ السيد المسيح ، ويرون أن سيمون الساحر الذي حرمه بطرس الرسول كان أحد مؤسسيها الأول على أن الغنوصية لم تظهر في قوتها الا منذ القرن الثاني حين انتشرت في مصر

وقد تكونت مدارس كثيرة غنوصية في سوريا ومصر وآسيا الصغرى وفي رومة أيضا وفي بلاد الغال وقرطاجنة ، وانتشرت هذه المدارس على الأخص في البلاد التي

تامت فيها المسيحية على الغنوصيات قريبة بالهيودية والوثنية. وتفرعت منها فروع صغيرة كل منها بطابع خاص مثل الفالنتينيين والمرقسيين والباسيليديين. ولكن أقرب وأوضح ظهور فيه الغنوصية كان على يد فالنتينوس الكبير فالنتينوس الاسكندري الذي يجوز عنه « شافه » انه « أسس أكبر مدرسة للغنوصية ، وكانت له فلسفة خاصة ، ولهذا تمثل طريقته أحسن وضع لتشرب فيه الغنوصية ».

فالنتينوس : هو مؤسس أعمق وأوسع الأنظمة الغنوصية وأكثرها تأثيرا ورواجا كان مصري الجنسية واسكندري الثقافة درس الغنوصية ونشرها في طابع جديد لما عرف له جمال فني. وبعد أن قضى فترة في الاسكندرية ذهب الى رومة حيث قوبل بترحاب كبير. وأسس هناك مدرسة غنوصية. واجتمع حوله عدد كبير من تابعيه ، وكان من أوائل الغنوصيين الذين علموا في رومة وقضى بها حوالي سبع عشرة سنة أو أكثر من ذلك ، حسب رأي بعض المؤرخين. ثم تركها وذهب الى قبرص حيث أسس مدرسة الشرق للغنوصية لاقت رواجا كبيرا حتى قال عنه القديس ايريناوس انه « كاد يقضي على الايمان هناك » واستقر هناك حتى مات حوالي سنة ١٦٠ م. وكان له تلاميذ كثيرون سواء في ايطاليا أو في بلاد الشرق ، ومن أشهرهم هرقليون وبطليموس وهو كلبوس

ولودوس ، وقد نشروا تعاليمه في مختلف مواضع. وقد هاجم تعاليمه كثير من كبار رجال المسيحية في العالم ، منهم ترتليانوس وأوغسطينوس في افريقيا وايريناوس في بلاد غال ، وابيفانيوس في قبرص وغيرهم.

الوثائق القبطية : عثر مؤخرا على وثيقة قبطية هامة من الفلسفة الغنوصية تدعى « حكمة الايمان » يرجع تاريخها الى وقت ازدهار تعاليم فالنتينوس في أواخر القرن الثاني الميلادي أو أوائل الثالث. وتسجل هذه الوثيقة العقائد العامة لنظام فالنتينوس وموضوعها مقابلة حوارية بين السيد المسيح وتلاميذه حدثهم فيها عن كثير من الموضوعات اللاهوتية ، وأسلوبها شعري مؤثر.

كما عثر سنة ١٩٤٦ في نجع حمادي على حوالي ألف صفحة مكتوبة بالقبطية على البردي بها ٤٧ رسالة في الغنوصية. وهي محفوظة الآن في المتحف القبطي بمصر القديمة. وقد أبدى العلماء اهتماما شديدا بها لأنهم يتوقعون أن تلقى ضوءا على هذه الفلسفة.

الغنوصيون الأرثوذكس : اذا كان قد انضم الى الغنوصية كثير من الوثنيين واليهود أو من المسيحيين الذين طردتهم الكنيسة واعتبرتهم هراطقة. فانه قد انضم اليها أيضا جماعة من المسيحيين من كبار معلمي الكنيسة. ولكن هؤلاء لم يؤمنوا بمعتقدات الغنوصية التي حاربتها الكنيسة ، وانما كان

فهم . أيهم الخاص في الغنوصية بمعناها الصحيح الذي لا يتعارض مع الدين . وعلى رأس هؤلاء القديس اكليمنضس الاسكندري أحد مشاهير من تولوا إدارة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية . وقد وضع كتابا مقسما إلى ثمانية كتب وسماه « المتنوعات » وعارض فيه الغنوصية الوثنية . وقال إن الغنوصية الحقيقية يجب أن تبنى على أسس من الإيمان والمعرفة الصحيحة التي هي الحكمة الإلهية . ولم يهاجم الفلسفة كما هاجمها عدد من المسيحيين الذين اعتبروها خطرة على المسيحية ، بل إنه اعتبر أن « الفلسفة خادمة للاهوت » ، وأن الله أعطى الفلسفة لليونان وغيرهم من الأمم لتعدهم للإيمان المسيحي كما كانت الشريعة بالنسبة لليهود . ولهكذا اعتبر الفلاسفة « أنبياء الوثنية » . ودعا المسيحيين إلى دراسة الفلسفة وأخذ ما فيها من حقائق . ورأى أن الغنوصي الحقيقي يجب أن يتزود بكافة أنواع المعارف لتساعده على الإيمان والثبات فيه . واعتبر أن جميع المسيحيين الحكماء المتعمقين في فهم الحق هم الغنوصيون الحقيقيون أو الغنوصيون الأرثوذكس

وصار هذا المبدأ من أهم أسس التعليم في المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، وسار عليه مشاهير مديريها من أمثال أوريجانوس وديديموس الضرير وغيرهما ، وغيرهم من الفروع التي لا تحصى من تلاميذهم

ولكن جميع هؤلاء على عكس فلاسفة الغنوصية الأخرى قد وضعوا اللاهوت فوق الفلسفة والوحي فوق العقل ، ونادوا بتعليم بعض الأشياء

الأفلاطونية الحديثة

وهي فلسفة جديدة وجدت في الاسكندرية على يد « أمونيوس سكاس » . وقد قدمت للبشرية فكرة امكان الاتصال المباشر باللاهوت ، وانتشرت انتشارا عظيما حتى وصلت إلى جميع العقول من عقل الامبراطور إلى عقل العبد . وانتشرت بسرعة وسط العامة الذين استطاعوا أن يفهموها ، وكذلك بين كبار المثقفين فاهتم بدراستها وأعجب بها فلاسفة عظماء مثل القديس أوغسطينوس . وكان لها تأثيرها العميق على كثير من قادة المسيحية

أمونيوس سكاس : ولد من أبوين مسيحيين في الاسكندرية ، وكان من أسرة فقيرة ولكنه بعد فترة من الدراسة والتأمل أنشأ مدرسة فلسفية في الاسكندرية نشر فيها تعاليمه التي أخذها من دراسته الجدية لأفلاطون وأرسطو حاول فيها أن يوفق بين آراء هذين الفيلسوفين . وليس ممكنا أن نحدد مقدار التأثيرات المسيحية التي اشتملت عليها فلسفة سكاس ولكننا نقول أن الفلسفة أخذت على يديه اتجاها مختلفا كلية عن اتجاهات سابقة . لأن الأفلاطونية الحديثة لم تكن مجرد فلسفة وإنما كانت أيضا نظاما دينيا ، أو كما يقول البعض إنها « صوفية

المسيحية الى لاهوت . وقد توفي امونيوس سقاس حوالي سنة ٢٤٣ م دون أن يخلف لنا كتبا . وما استطعنا أن نفهم فلسفته من كتاب تلميذه افلوطين (انيادس) وبورفيريوس خليفة افلوطين .

ولد افلوطين في أسيوط سنة ٢٠٤ م ودرس الفلسفة في الاسكندرية مدة احدى عشرة سنة على يد أمونيوس سقاس ، ثم ذهب الى بلاد الفرس ليدرس دياناتهم ، واستقر سنة ٢٤٥ م في رومه حيث أنشأ مدرسة للأفلاطونية الحديثة على غرار المدرسة العتيقة التي أسسها هناك فالنتينوس الاسكندري ، واستمر يدرس في رومه حتى وفاته سنة ٢٧٠ م .

وخلفه تلميذه بورفيريوس الذي وضع ٥٤ مؤلف شرح فيها تعاليمه ، غير أن بورفيريوس خرج على المسيحية وهاجمها مهاجمة عنيفة . وكان ذا عقلية فلسفية كبيرة وشهرة واسعة . وقد وضع خمسة عشر كتابا ضد المسيحية هاجم فيها كثيرا من تعاليمها .

ولا شك أن انتصار قادة الفكر المسيحي على أمثال هذا الفيلسوف الخطير كان دليلا على ماوصل اليه هؤلاء القادة من نبوغ خارق في الفلسفة والعلم .

وبعد مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م لم تعد الوثنية هي ديانة الدولة الرسمية ، ولكن الوثنية احتفظت برغم ذلك بنفوذها الثقافي مثلا في الأفلاطونية الحديثة التي أصبحت صبغة العصر وانتشرت في مدارس الامبراطورية الرومانية .

فأنشأ تلاميذ بورفيريوس مدرسة في سوريا ، وذهب الى هناك كثير من طلاب العلم يدرسون على أيديهم الأفلاطونية الحديثة ينشرونها في مدارس آسيا الصغرى واليونان والى الاسكندرية ذاتها . واستمر ذلك الى نهاية القرن الرابع حتى كانت كتب افلوطين تتداول في أيدي المثقفين أكثر من محاورات أفلاطون ، ومثل هذا يقال أيضا عن مؤلفات بورفيريوس .

٢ — مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافي

الحاجة الى انشاء هذه المدرسة

انتشرت المسيحية انتشارا سريعا وازداد عدد المنتمين اليها ، وكان من الضروري أن يوضع التعليم المسيحي على أسس منهجية سليمة ، لاعداد هؤلاء المتحولين الى المسيحية وتأهيلهم للمعمودية والانضمام الى الكنيسة ، وكذلك لتثقيف المؤمنين أنفسهم بمبادىء دينهم وتعاليمه وتزويد الراغبين منهم بما يرغبونه من الدراسات العميقة والتعمق في فهم الفلسفة واللاهوت . وهكذا تأسست مدرسة الاسكندرية للتعليم المسيحي .

ولم تكن هذه الأسباب الاجتماعية فقط

هي الداعية لاعتناقها ، فقد كان هنالك سبب آخر لا يقل عنه خطورة ، ذلك أن العالم الوثني كان يقف للمسيحية بالمرصاد ويحاول بكل قواه وبكافة الطرق الملتوية والمعيبة والمتعددة أن يقضي على هذه الديانة الجديدة ، وهكذا واجهت الكنيسة هجمات فكرية شديدة من فلاسفة الوثنية ورجال السياسة فيها . وكان لا بد أن توجد مدرسة لاهوتية تزود الكنيسة بقيادة للفكر ، وتقدم للمسيحيين المعرفة الكافية التي تمكنهم من الرد على خصومهم سواء ، كان ذلك في مجادلات فردية أو جماعية . وكان غرض المسيحية من هذه المدرسة اللاهوتية هو الرد على الفلاسفة الوثنيين وأتباعهم ، وحماية المؤمنين مما يثيرونه فيهم من شكوك ، وليبشر أولئك جميعا بالمسيحية وليعرفهم طريق الحق .

وهكذا ركزت كل تلك الاحتياجات الفكرية في المدرسة اللاهوتية . وبتطور تلك الاحتياجات وازديادها كانت المدرسة تعدل في مناهجها وتضيف اليها موادا جديدة لتفي بحاجة العصر . وهكذا كان نمو المدرسة نتيجة طبيعية للاحتياجات التي واجهتها ، والتي تطورت بها حتى أصبحت معدة لتزويد الطلاب بكل أنواع المعارف الدنيوية والكنسية .

تاريخ المدرسة وشهرتها

وتاريخ هذه المدرسة يرجعه يوسابيوس القيصري والقديس جيروم الى زمن القديس مرقص الرسول وتقول التقاليد أنه هو الذي أسسها في النصف الأخير من القرن الأول الميلادي ، وعهد بادارتها الى يسطس الذي صار فيما بعد أسقفا للاسكندرية . على أن شهرتها ظهرت بوضوح منذ القرن الثاني وأوائل القرن الثالث على أيدي مديريها الفلاسفة المشهورين مثل بنتينوس واكليمنضس وأوريجانوس وديونيسيوس . ثم توقف نشاطها قليلا أو تعطل بعض الشيء في أواخر القرن الثالث ، اذ شتت الاضطهاد أساتذتها وطلابها ، الا أنها ما لبثت أن رجعت في القرن الرابع الى سالف مجدها على يد مديرها العظيم ديديموس الضرير . واستمرت الى أوائل القرن الخامس ، ثم سلمت زمام القيادة الفكرية للرهبنة في الأديرة .

في الواقع لم تكن مدرسة الاسكندرية هي المدرسة اللاهوتية الوحيدة في العالم المسيحي ، اذ كانت هناك مدارس مسيحية في بلاد أخرى . ولكن لم تستطع واحدة منها الوصول الى مستوى سيطرة مدرسة الاسكندرية وتفوقها ، فكانت مدرسة الاسكندرية أهم مدرسة من حيث امتداد نفوذها في المسيحية ، يأتي المسيحيون اليها من شتى الأقطار للدراسة على أساتذتها الذين بلغوا درجة كبيرة من الشهرة ، وتخرج على أيديهم أساقفة وبطاركة عظماء لكثير من البلدان المسيحية الهامة . وكان مدير المدرسة يعتبر الثاني بعد البطريرك في الاسكندرية

وكثيراً ما اعتبر بطاركة الإسكندرية من بين مديري هذه المدرسة اللاهوتية. وقد أعطى هذا بطاركة الإسكندرية مركز الزعامة الفكرية والعلمية في العالم المسيحي كله، إذ كان كثير من أساقفة العالم المشهورين تلاميذ لهم تخرجوا على أيديهم أو على أيدي تلاميذهم في مدرسة الإسكندرية، وظلوا بعد رسامتهم أساقفة، على صلة بأساتذتهم الإسكندريين يستشيرونهم في مشاكلهم وبذلك لقب بطريرك الإسكندرية بلقب «قاضي المسيحية في العالم». وكانوا يعتبرون في المجامع المسكونية حجة ومصدراً للتعليم الصحيح

مشاهير أساتذتها

تقدم بين القرن الثاني للميلاد ثلاثة مديرين للمدرسة كانوا فلاسفة وثنيين تعمقوا في الفلسفة اليونانية ثم درسوا المسيحية لينقضوها أو ينقدوها، غير أنهم ما لبثوا أن آمنوا بها ودافعوا عنها، وتطوروا حتى صاروا مديرين لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية، وهم أثيناغوراس (سنة ١٧٦ م)، وبنتينوس (سنة ١٨١ م)، واكليمنضس (سنة ١٩٠ م). وقد ظل أثيناغوراس يرتدي زي الفلاسفة وهو مدير للمدرسة المسيحية.

وخلفه تلميذه بنتينوس الذي نجح نجاحاً كبيراً في إدارة المدرسة بعد أن اشتهر في العلم والدين فقصدوه من كافة أنحاء العالم. وكان ممن استمعوا إليه تجار من الهند فأعجبوا به جداً واقتنعوا بالمسيحية بحماسة عظيمة ولم يكتفوا بذلك بل حركتهم هذه الحماسة على حث مواطنيهم أن يرسلوا — بعد رجوعهم إلى بلادهم — وفداً إلى البابا الإسكندري ديمتريوس يلتمسون منه أن يسمح بإرسال القديس بنتينوس إلى بلادهم لتبشيرها بالمسيحية فأوفده في مهمة إلى هناك سنة ١٩٠ م فترك المدرسة في يدي تلميذه اكليمنضس وذهب في رحلته موفقة إلى هناك. وبعد رجوعه من الهند عرج في زيارة تبشيرية على الحبشة وبلاد العرب.

ويرجع إليه الفضل في تقديم أقدم ترجمة قبطية للكتاب المقدس ترجمها بمساعدة تلميذه اكليمنضس الذي عاونه في إدارة المدرسة وخلفه فيها.

اكليمنضس الإسكندري: وهو واضع سياسة التعليمية الجريئة التي سارت عليها مدرسة الإسكندرية المسيحية في كافة عصورها. وكان قبل تحوله إلى المسيحية فيلسوفاً وثنياً، درس فلسفة اليونان ثم جال يطلب العلم في بلاد اليونان وإيطاليا وفلسطين ومصر وبلاد الشرق الأدنى، غير أنه لم يجد بغيته إلا عند أستاذه بنتينوس. وهو مثل معلمه نبغ في كافة العلوم الدينية والكنسية. وتظهر معارفه الواسعة في مؤلفاته وفي الطابع الجديد الذي اتخذته على يديه مدرسة الإسكندرية وحدد فيه العلاقة بين الفلسفة والدين، كما

جمع الناس امام تلاميذه لجميع انواع المعرفة وقد وضع كتبا كثيرة لها أهميتها العظيمة بالفلسفة ومن أشهر كتبه الفلسفية كتاب « متنوعات » ألفه بحسب ترتيبه الموضوعية لمعرفة ، ووضع فيه الأسس التي ينبغي أن يسير عليها الموسى الحصى أو الفيلسوف المسيحي . ولما ثار اضطهاد الامبراطور سبتيموس ساويرس هجر الاسكندرية سنة ٢٠٢ م تاركا المدرسة في يدي تلميذه العظيم العلامة أوريجانوس الذي فاقه شهرة وعلما كان مثل أوريجانوس فهو أشهر علماء

أوريجانوس لم تعرف المسيحية في عصرها مسيحيا في مصر وفي العالم المسيحي كله طوال عصوره المتتابعة . وقد سار في قيادة مدرسة الاسكندرية على سياسة أستاذه اكليمنضس .

ولد حوالي سنة ١٨٥ م وكان له ذكاء خارق للعادة وقدرة عجيبة على الاستذكار وصبر على الدرس والاطلاع . واستطاع في سن مبكرة أن يستوعب قدرا ضخما من المعلومات فألم بالفلسفة والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى والبلاغة ، وجمع بين معلومات المدرستين المسيحية والوثنية ، فدرس على القديس كليمنضس الاسكندري كما درس على أمونيوس السقاص مؤسس الأفلاطونية الحديثة . وفي سنة ٢٠٢ وهو في السادسة عشرة من عمره سيق والده الى الاستشهاد في أيام الاضطهاد الذي أثاره سبتيموس ساويرس . فلما جزعت والدته أرسل هو الى والده يشجعه ويقول له « لا ترجع ولا تضعف بسببنا » .

وتحت ضغط الاضطهاد اضطر القديس اكليمنضس الى ترك الاسكندرية فعهد البطريرك ديمتريوس بادارة المدرسة اللاهوتية الى أوريجانوس وهو بعد في الثامنة عشرة . وكان هذا اعترافا بما وصل اليه هذا الشاب النابغ من عبقرية فذة . ولقد نجح نجاحا كبيرا جدا في عمله في التدريس بل صار أعظم أستاذ عرفته الدراسات المسيحية

وتوافد عليه طلاب العلم من كافة الأقطار ، وتخرج على يديه أساقفة وبطاركة وقادة للشعوب كما درس عليه فلاسفة ووثنيون وهراطقة واستطاع أن يجذب كثيرين منهم الى الايمان . وكان لتدربه في الفضيلة والنسك حتى أنه لم يذق الخمر ولا اللحم في حياته ، ولم يكن له غير ثوب واحد . وقال عنه يوسابيوس « انه كان مثالا في الأعمال للتهذيب العقلي . كما يتكلم ، هكذا أعماله ؛ وكما هي أعماله ، هكذا يتكلم » .

ولم ينثن عن التعليم مع عنف الاضطهاد ، وكان هذا الاضطهاد لا يجعل التعليم صعبا فحسب بل كان يجعله خطرا أيضا . ولم يكن للمدرسة بيت خاص فكان التلاميذ يطوفون حول مسكن أوريجانوس أو يأتون اليه لتلقي العلم . وقد اشتد الاضطهاد على أوريجانوس بدرجة أنه لم يوجد في المدينة كلها أي مكان

له وبعد سفل من سرب الى آخر وكان يعرف في كل مكان تعيد عنه سحه للأعداد والوشاة من كان يؤمن على يديه

وكان في أثناء الاضطهاد يزور تلاميذه في السجن ويشجعهم الى حيث محاكمه ويتبعهم الى مكان الاستشهاد ، لا يبالي أن يكون منهم تحت سمع وبصر جلاديهم ، يسمهم ويشجعهم الى أن يسلموا الروح ، بل انه وضع كتابا في الحض على الاستشهاد

أما عن نتاجه الفني فهو أنتج سبائج مؤلف حتى قيل انه كتب ستة آلاف مؤلف، وأقل تقدير يجعل مؤلفاته حوالي الألف وكان يملي على عدد كبير من النساخ ، وقد قال عنه جيروم انه كان يملي أو يملي حتى وهو يأكل . ومن أشهر الأعمال التي قام بها جمع نسخ الكتاب المقدس وترجماته القديمة ومقابلتها وتصحيح ما يحتاج الى تصحيح . وقد استمر في هذا المجهود الجبار ٢٨ عاما ، فوضع الهكسابلا أي ذات الأعمدة الستة لأنه قارن بين ست ترجمات للكتاب المقدس جمعها في أسفاره الكثيرة كما وضع كتاب « المبادىء » وكتاب « الرد على كلسوس » وتفسيرات عديدة للكتاب المقدس حتى وصفه تلميذه ... بأنه لا ... الى ... عصري ... التي ... الى ... ويوحنا وفلسطين في حد ...

... من هذه العصور ... ترك ... محطة ... وأنشأ ... الاسكندرية ... مدرسة في قيصرية بفلسطين على نهج مدرسة الاسكندرية ، وازدحم عليه طلاب العلم هناك . وموضوع حرم أوريجانوس لا يزال حتى يومنا هذا مثار جدل بين اللاهوتيين حول أسبابه ومدى الحق فيه . على أن البطريركين اللذين خلفا ديمتريوس في كرسي الاسكندرية كانا من تلاميذ أوريجانوس ويقال أن أولهما أعفاه من ذلك الحرم

ولم يقتصر نشاط أوريجانوس على التعليم والتأليف بل امتد الى التبشير فسافر الى روما والى بلاد العرب للقضاء على بعض البدع فيها كما سافر مرتين الى أثينا كما ذكر هارناك .

ولما تولى ديسيوس عرش الامبراطورية الرومانية أثار اضطهادا شديدا على المسيحيين ولم ينج أوريجانوس من هذا الاضطهاد بل قبض عليه سنة ٢٥٠ وسجن وعذب عذابا أليما . ويقول يوسابيوس لا يمكن على الكاتب الماهر وصف ما قاساه أوريجانوس وما احتمله في صبر وارتياح من تعذيبات مرة والآلام القاسية أثناء هذا الاضطهاد .

ولكنه لم يلق حتفه بعد أن تحطم صحته وكاد يشرف على الموت ، ولم يعش بعد ذلك سوى سنتين أو ثلاثا حتى انتقل من هذا العالم بعد ... هذه ... لا ...

ولد ديديموس في مصر القديمة سنة ... في الإسكندرية سنة ٣١٣ في أسرة غنية وقد فقد بصره في حوالي الرابعة من عمره بعد مرض أصابه في عينيه. فبدأ يدرب ذاكرته تدريباً دقيقاً حتى أصبحت تساعده على حفظ كل ما يسمعه، ولما كبر بدأ يتعلم القراءة بتحسس الحروف على قطع خشبية محفورة بأصابعه كما شهد المؤرخ سوزومين بذلك. وهكذا استطاع ديديموس الضرير أن يسبق طريقة برايل بخمسة عشر قرناً. وتمكن من إتقان علوم كثيرة، فألم بالشعر والبلاغة والمنطق والهندسة والحساب ونظريات الفلسفة على نوعيها. كما برع في العلوم اللاهوتية ودراسة الكتاب المقدس حتى استحق أن يعينه القديس أثناسيوس مديراً للمدرسة اللاهوتية بالإسكندرية.

وفي ذلك الوقت كانت الحركة الأريوسية على أشدها، وكان المسيحيون محرومين من الكنائس بسبب تدخل الحكام المدنيين بأوامر ضد الإيمان السليم ضد عرش الأساقفة والمعلمين للنفي والاضطهاد. ولكن ديديموس لم تثنه اضطهادات الأباطرة الرومان عن مركزه الناسوتي الذي نفي من كرسيه خمس مرات بل وقف يجاهد عقيدته ... في ... الإيمان ... الأريوسية ... الأباطرة، كما حارب ... البدعة الأبولينارية ... في الإلهوتية الحديثة ... المتشابهات.

وقد كان مجهوده في محاربة البدعة الأريوسية والوصول ... كان كل جهده مركزاً في ... تعليمهم وتحويلهم إلى الإيمان ... وقد ... كل كتاباته موسومة بروح الاعتدال. ومن أجل ذلك ... من تلاميذه يمسك العلم على يديه — كما حدث لأوريجانوس — وهدى على يديه كثيرين من أتباع أوريجانوس إلى الإيمان.

وقد مدح القديس أنطونيوس ديديموس وامتدحه لتلميذه أنطونيوس بقوله: «لا يحزنك أنك فقدت بصرك الجسدي لأنه قد حرمت منك أعين جسدية التي يشترك فيها النمل والذباب. وأحرى بك أن تبتهج لأن لك أعيناً كالملائكة ترى بهما اللاهوت وتدرك نوره». كما امتدحه كثير من قديسي الغرب وكتابه. وكان القديس جيروم يفتخر بأنه تلميذ لديديموس وأنه استفاد منه في دراسة الكتاب المقدس كما ترجم له أحد كتبه. وممن تتلمذ على يديه روفينوس أيضاً، تتلمذ عليه لمدة ثماني سنوات.

وهكذا استطاع ديديموس أن يعيد لمدرسة الإسكندرية مجدها الذي كان لها أيام أكليمندس وأوريجانوس. واستمر في عمله كمعلم حتى نهاية حياته سنة ٣٩٨ وخلف حوالي ٤٨ مؤلفاً ... في اللاهوت ... وكان ... لأثناسيوس ... عسكرياً ... كنسية ... الأريوسية. وقد ... مخطوطاته المفقودة.

يكن [illegible] المصري في منتصف القرن الرابع [illegible] عن مدرسة الإسكندرية إلى [illegible] أنه أدار بنجاح [illegible] في علومهم ويعبرون على الأمور اللاهوتية »

ويكفي أن الاثنين اللذين خلفا أوريجانوس [illegible] بطريركي للإسكندرية ، أحدهما القديس ديونيسيوس صاحب نصيب [illegible] في معرفة اللاهوتية ، والثاني بيريوس الذي كان نابغة في الفلسفة والعلوم اللاهوتية ويقول عنه القديس جيروم أنه [illegible] درّس للتلاميذ كل أنواع المعرفة ببلاغة وكتب مقالات في شتى المعرفة حتى لقب بأوريجانوس الصغير »

العلاقة بين المدرستين الوثنية والمسيحية

كانت المدرسة الوثنية قد بعث دروبها في العلوم والفلسفة في القرون الأولى المسيحية ، ولم تكن توجد أية مدرسة في العالم القديم تعادلها كمركز لدراسات الطبيعية والطبية في الطب والتشريح والرياضيات والفلك والجغرافيا وحتى في النقد الأدبي . وإذا كانت [illegible] قد تميزت بدراسة الفلسفة ووجدت فيها الفلسفات الكبرى منفصلة الواحدة عن الأخرى فإن مدرسة الإسكندرية الوثنية درست فيها كل هذه الفلسفات معا ، كما [illegible] علماء [illegible] كل فلسفة [illegible] معا في [illegible] والمنزلة [illegible] في [illegible] الإسكندرية [illegible] الأفلاطونية الحديثة [illegible] في أنحاء العالم [illegible] لقد كانت [illegible] الوثنية القوية [illegible] المدرسة المسيحية الناشئة التي كانت تشمل [illegible] مسيحيين في [illegible] الفكري مع الوثنية

ومع ذلك عاشت المدرستان جنبا إلى جنب ، كل منهما كان لها طابعها الجامعي ، وكانتا كمرآة تعكس الحياة الثقافية في الإسكندرية وتبادلت [illegible] وقد أثرت كل منهما في الأخرى . [illegible] أمونيوس سكاس كان في المكتبة يحصل التعليم الذي تلقاه [illegible] كان مسيحيا ، بل ربما كان اتجاهه نحو الأفلاطونية الحديثة من تأثير المسيحية . ومن ناحية أخرى ، [illegible] أوريجانوس [illegible] محاضرات أمونيوس في المكتبة ، [illegible] كالفيلسوف يجلس بين الفلاسفة حتى [illegible] أستاذا في المدرسة اللاهوتية

ولكن هدف التعليم في المدرستين كان مختلفا ، فتاريخ التعليم في المدارس الوثنية يدل على أن الطلبة كانوا يعدون ويتمرنون ليتولوا مناصب الدولة ، بينما لم يكن هذا من أهداف المدرسة المسيحية وإن كان خريجوها [illegible] بذلك [illegible] غير مباشر . وبينما كان [illegible] في المدرسة الوثنية هو التقدم الثقافي وكان مستوى الأخلاقي للأساتذة منحطا [illegible] الجهات الفاضلة

والأخلاق كانت من أبرز جوانب المدرسة المسيحية سواء في هذا الجانب أو في نطاقه ومن أهم اختلافات وخصائص هؤلاء الفلسفة والعلوم كانت تدرس في المدرسة الوثنية بمجرد الثقافة بينما كانت تدرس في المدرسة المسيحية بغرض ديني.

وفارق آخر بين المدرستين وهو أن طلبة المدرسة الوثنية كانوا من مستوى ثقافي واجتماعي معين وكانوا ذكوراً، بينما كان التعليم عاماً في المدرسة المسيحية يتلقاه السيد والعبد، الكبير والصغير، الذكر والأنثى، بغض النظر عن الدين والجنس والثقافة. وهكذا جذبت المدرسة المسيحية كل الفوارق الاجتماعية، وفتحت بابها أيضاً بالفلاسفة الوثنيين والهراطقة، وازداد عدد طلبتها ازدياداً كبيراً.

على أن المنافسة الجارية بين المدرستين كان لها أثرها الفعال القوي في نهضة وازدهار العلوم والفلسفة واللاهوت في تلك القرون الأولى المسيحية، فاضطرت المدرسة المسيحية أن تدخل في برنامجها كل المواد التي تدرس في منافستها الوثنية، حتى لا يشعر طلبتها بأنه ينقصهم نوع من الثقافة تمتاز به المدرسة الوثنية، وحتى يستطيعوا الرد على هجمات الفلاسفة والعلماء الوثنيين.

هكذا أدخلت الفلسفة الوثنية تدريجياً في منهج المدرسة المسيحية على يد العلامة كليمنضس الإسكندري الذي نادى بأن الفلسفة خادمة للاهوت، وأن العلوم ... الحصص من مسيحيين فحسب بل ... بكل أنواع المعارف البشرية ... من كل نوع من أنواع الدراسة ... من العلم. وأصبحت دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية حتى أن كثيراً من الفلاسفة الوثنيين كانوا يلجأون إلى أوريجانوس يدرسون على يديه الفلسفة الدنيوية واللاهوت.

وأدخل اكليمنضس دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية، وأدخل إلى جانبها دراسة الأدب والبلاغة والشعر والمنطق والفنون والموسيقى والعلوم الطبيعية والهندسة والرياضيات والفلك والجغرافيا كل ذلك وجد له موضعاً في منهج اكليمنضس ووجدت له علاقة بدراسة اللاهوت. وسار خلفاء اكليمنضس على نفس هذا النهج وهكذا كان أوريجانوس ... أوساط الفلاسفة يتكلمون عن الهندسة والموسيقى والأدب والبلاغة والفلك كمقدمات للفلسفة، ونحن نعتبر الأسلوب نفسه ... الفلسفة كمقدمة للمسيحية.

ولم تكتف أساتذة المدرسة المسيحية بتدريس جميع هذه المعارف فحسب، بل ساعدوا طلبتهم أيضاً على القراءة ... شاقتهم — في الكتابات كافة لمؤلفين دون أن يمنعوهم عن شيء. فكان الطلبة يطوفون بكل أنواع المعارف ويتحصنون بها ... بعض الأساتذة في محاضراتهم ... في موضوع ... .

واشتهر في كل ذلك درس الأخلاق ويدرس الطلبة عليها تدريب عقلي ، وكان المدرسون ... بحثهم في الحجج الفلسفية ... ويحثونهم على ... إلا كانوا قد درسوها هم أنفسهم ... ونقدوها

وهكذا كان من نتائج المنافسة بين مدرستين قيام نهضة علمية وفكرية واسعة النطاق لا نظير لها في أي بلد آخر من بلاد العالم المثقف . وأصبحت الإسكندرية بحق عاصمة العالم الثقافية سواء للمسيحيين أو للوثنيين ، وصارت مقصد كل راغب في الدراسات العليا في شتى العلوم الدنيوية والدينية

ولما كانت المعرفة لا تحد فقد كانت مدة الدراسة في المدرسة المسيحية غير محدودة فالقديس أغريغوريوس صانع العجائب بعد أن أتم دراسته في الفلسفة واللغة والبلاغة في أثينا ... على أوريجانوس وكان يشتهي لو أتيح له أن يقضي بقية حياته في المدرسة

نجحت المدرسة المسيحية كل هذا النجاح على الرغم من أنه لم يكن لها بناء خاص ولا مكتبة خاصة ، وقد كان أساتذتها يلقون دروسهم في منازلهم أو في قاعات يستأجرونها لهذا الغرض . وكان الطلبة والأساتذة يذهبون إلى مكتبة الإسكندرية العامة للقراءة والاطلاع

٣ — الإنتاج العلمي والأدبي والثقافة الشعبية

الإنتاج العلمي :

ورث الأقباط عن أجدادهم الفراعنة براعة في الطب والتشريح والكيمياء والصيدلة ، والهندسة والفلك . وساروا على نبوغهم في هذه العلوم طوال العصرين اليوناني والروماني ، حتى أصبحت مدرسة الإسكندرية الوثنية القديمة هي أقوى مدارس العالم في هذه الدراسات . [...] تأسيس المدرسة المسيحية [...] في مدارس هذه [...] ونبغ من كل [...] نهضة علمية لا [...] لها [...] من الأقباط أساتذة تخرج عليهم كثير من علماء العالم القديم

وظهر فيهم هيروفيلاس مؤسس علم التشريح ، وإيرسستراتوس مؤسس علم وظائف الأعضاء ، وديموكريتوس صاحب نظرية الذرة . كما ظهر العالم الماهر كريبيوس كلسوس الذي وضع تذكرة [...] لجميع [...] ، وظهر بطليموس الإسكندري الذي تعمق في دراسة [...] قديمة للمصريين ، و[...] الكروية العظمى ، وهو الذي قدمها للعصور [...] وظلت مستعملة حتى القرن الثامن عشر

ووضع العلماء في الإسكندرية عالمية مصطلحات الصيدلة، ومنها مثلاً كلمة medicina عقاقير و medicamentus دواء أو سم و apotheca مخزن الدواء. وأخذ عنهم العالم هذه المصطلحات التي ما تزال مستعملة.

وهذه الشهرة التي نالتها مصر المسيحية في الطب والصيدلة والكيمياء جذبت إليها العلماء من أقطار العالم للدراسة على أساتذتها. ومن أمثلة ذلك جالينوس العالم المشهور الذي ظهر في القرن الثاني للميلاد والذي تنسب إليه مجموعة العقاقير الجالينوسية المستعملة في هذه العصور الحديثة. هذا العالم تتلمذ في الإسكندرية وأخذ من جامعتها فلسفته وطبه وصيدلته.

وقد نشط العالم بدراسة المخطوطات القبطية الخاصة بالدراسات الطبية وما فيها من فائدة. ولقد ظهر بحث للأستاذ « تل » في العقاقير الطبية القبطية يبين فيه مدى تقدم الأقباط في الصيدلة والكيمياء والطب. كما وضع الأستاذ « دوس » سنة ١٩٢٣ م كتاباً عن تاريخ الطب عند الأقباط في القرون الأولى المسيحية وشرح بالإضافة إلى العقاقير أدوات الجراحة التي كانوا يستخدمونها.

ومن أهم ما وجد من مخطوطات القبطية الطبية بردية « شاسينا » التي بها علاج أمراض العيون وعلاج الجرب وعلاج بعض أمراض النساء والأطفال. وقد وصف كثير من العلاجات لأمراض العيون وبعض الفطريات والسرطان، منها قطرة قابضة ضد التريكه. ولا تقل بردية تورينو أهمية عن هذه البردية أيضاً. وهذه البرديات ترينا مدى ما وصل إليه صيادلة الأقباط من معرفة بأصول في صناعة الدواء وتحضير العقاقير كما تدل على علمهم الوافر بالتفاعلات الكيميائية المختلفة وبالأعمال التي تتم على النار.

ويعرف « ميتولنسكي » في كتابه الطب الشعبي المصري أن كثيراً من العلاجات والمستحضرات العلاجية المعروفة في أوروبا منذ القرون الوسطى تحمل الطابع المصري القديم، كما أن الكثير من هذه الوصفات لا يزال مستعملاً في مصر وفي كثير من بلدان الشرق.

وقد ظهر نبوغ الأقباط ليس فقط في الطب والصيدلة والكيمياء وإنما برعوا في الحساب والرياضة أيضاً. ويدل على ذلك من أنهم تولوا الأعمال الحسابية والمالية والإدارية طوال العصر الإسلامي بل ظلوا إلى عهد قريب يشغلون غالبية وظائف الدولة في هذا المجال.

ولم يقل نبوغهم في الهندسة وأعمال البناء عن نبوغهم في الطب والحساب. ويشهد على ذلك الكنائس القبطية التي بنوها والأديرة ذات الأسوار والحصون الضخمة

ونستدل على ذلك من آثار « أباميا » ثم حوطه ، وتدرج الأبيض والأحمر في صفحته بسوهاج . وغير ذلك من الآثار المعمارية الكثيرة التي يضيق عن تعدادها المقام . على ان هذا التنوع المعمارى فلقد ذكر « الأزرقى » في كتاب أخبار مكة أن الكعبة طغى عليها قبيل ظهور الاســـلام سيل عظيم صـدع جدرانها ، فأعادت قريش بناءها مستعينـة في ذلك بنجـار قبطى كان يســكن مكة . وأثبـت الأوراق البردية التى عثر عليهـا في مصر أن الوليد استعان بالقبط في بناء مسجد دمشق ومسجد الأقصى ، وقصر أمير المؤمنين هنـــاك . ويذكر « البلاذرى » في فتوح البلدان أن الوليد استعـان بالقبط في اعادة بناء مسجد المدينة .

ولما أعاد عمر بن عبد العزيز بناء الجامع النبوى في المدينة عهد بذلك الى معماريين من القبط يسوءنيه أول محراب مجـــوف في الاسلام ، وقد أخذوا شـكله من حنيـــة الكنيســة . وأثبت العلماء أن قصر المشتى في شرق الأردن الذى يرجع تاريخه الى منتصف القرن الثامن الميــلادى قد تأثر في زخارفه بالزخـــارف القبطية وفى تخطيطه بتخطيط الديرين الأبيض والأحمر بسـوهاج . وتتجلى البراعة الفائقة في بناء مهندس قبطى هو سعيد ابن كاتب الفرغانى لجامــــع ابن طولون مستخدما في ذلك عمودين فقط بعد أن قال مهندسون لابن طولون ان ذلك المسجد يحتاج الى ما لا يقل عن ٣٠٠ عمود . ومن

كرموز « الأثر القبطى على الفن الاسلامى » منشورة في مقالة نشرها في مجلة جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٣٦ .

ومن آثارهم في الفلك حساب الأبقطى الذى وضعه في القرن الثانى للميلاد الأنبا ديمتريوس بطريرك الاسكندرية . وســار الأقباط هم الذين يعهد اليهم بتحديد الأعياد والأصوام للعالم المسيحى كله . ومثال ذلك أن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م فوض لبطريرك الاسكندرية تحديد التاريخ المضبوط لعيد القيامة بعد أن تضاربت أقوال علماء المسيحية في ذلك .

صناعة الورق

وجدنا من مخلفات العصر القبطى الكثير من البرديات التى تثبت أنهم أجادوا صناعة نسيج أصناف من الورق للكتابة ، وقد استغل المصرى هذا الورق أحسن استغلال في تدوين علومه وآدابه منذ أقدم عصور حضارته .

فالمصرى في كل عصوره ... اذا ما كان الفن أو العلم — أظهر ثباتا على مصريته ومحافظته على تراثه . وذكر الأستاذ « جوجيه » في معرض كلامه عن مدرسة الاســكندرية في مقال له عن عصر الانتقال ... في مصر من الوثنية الى المسيحية ما ترجمته « لقد سعى الاسكندر الأكبر لصبغ الروح المصرية بالصبغة الهلينية ، واقتفى خلفاؤه أثره في ذلك وحاولوا جهدهم أن يصبغوا المصريين ويطبعوا على الفكر المصرى صبغة يونانية

بحثه . وقد تأثر في عدد سنين عدة سنة
... وبعد تجاوز ... الوصول ... عرضهم
... البعض أنهم ... في الوصف ... و
هدفهم ... رأى المصري وقد ضعف بمختلف
أنواع الثقافات ... أخذ منها أيضاً وحفظ ،
ويستمتع بالفن حيثما يلقاه . ولكن المصري له
قدرة عجيبة على تكييف الغريب وفق مزاجه
ويستسيغ العلوم بحسب ذوقه ، وهو — بعد
هذا كله — مصري أصيل جذوره في هذه
التربة التي ازدهرت فوقها حضارته العريقة
فالمصري — مع كل ما يعرضه من علوم وفنون
غريبة — فخور بماضيه ، شغوف ببلاده
منذ الفجر وهذا الشعب متأصلاً فيه ...
منذ بعيد العصور ، فهو ثابت في حضارته بحيث
لا يمكن اقتلاعه منه أو تحويله عنها مهما
تعاقبت الأزمان »

... أي كل ... في أبناء مصر
وبعد ... التشريع لكنيسي طوال
القرون الأولى للمسيحية وكانوا يعتبرون
حجة في تنظيم قانون الكنيسة ... م
المسيحي

التاريخ الكنسي

١ - تاريخ بطاركة الإسكندرية

كان لمصر مكانة رفيعة بين دول العالم
في النواحي الحيوية كلها ... ذات ...
... وكانت ... مصرية في
دلالتها ... فكر ...
... الشعوب الأخرى في ...
البلاد الأخرى ... مصرية
بعاداتها

فقد تحتلت ... مصر ...
عند الكنيسة المصرية على مركز ...
الرفيع بين كنائس العالم وساعد على ذلك
ما عرف عن علماء مصر من تعمق في معارفهم
وعلومهم . وقد أخذ ... الذي يشتد
ابتداء من مطلع القرن الرابع الميلادي ،
عقدت المجامع العالمية (المسكونية) بدعوة
من أباطرة الدولة البيزنطية . وكانت رئاسة
تلك المجامع ... التي حضرها أساقفة
مندوبون عن كنائس العالم المسيحي كله —
... في أغلب الأحيان من نصيب الكنيسة
المصرية

فمكانة كرسي بطاركة الكنيسة المصرية
مركز ... في العالم أجمع ، وكان الأباطرة
المسيحيون يجلونهم ويلتمسون بركتهم
ويعتبرون ... لأنهم كانوا زعماء يمثلون
قوة شعبية جبارة ... أقوى ... الأباطرة

ومن ثم كان التاريخ هؤلاء البطاركة —
الزعماء الشعبيين — أمر هام بداية ...
اشتركوا في الحوادث السياسية التي دارت
والتي كان لها طابع ديني على الأغلب ، فقد
حدثت أحداثاً ... الأمبراطور ...
... في ...
... في ...
...

سمو الامبراطورية من توحيده للمسيحية ،
فيمن عبث به الشعب والحكام العدوان
والحروب والثورات وكان البطاركة يحمون
حماية مسيحيي في معظم الأوقات العصيبة ،
نادى الشعب وهم يعانون الاضطهاد والعسر
والقهر أوقات الأزمات ...

ثم اجيالا واجيالا ، فإن التاريخ لهم
ولعصرهم حتى نستطيع أن نلم بالكثير من
التقاليد والعادات المصرية بل وبنواحي الحياة
المختلفة من مجموع هذه التراجم التي تظهر
لنا روح العصر الذي عاش فيه هؤلاء
البطاركة

المصادر التاريخية لسير البطاركة

ترجم المؤرخون كثيرون لسير بطاركة
الكنيسة المصرية ونعلم من أشهرهم

١ ـ يوحنا النقيوسي

في النصف الثاني من القرن السابع
الميلادي ، كتب تاريخا يبدأ بعهد آدم الى
ما بعد الفتح العربي لمصر بزمن يسير
ويحوى تاريخه أخبار متفرقة عن الآباء
البطاركة من مرقس الرسولي الذي بشر
بالمسيحية في مصر في القرن الأول الى أيام
بنيامين البطريرك الذي عاصر الفتح العربي

ب ـ ساويرس بن المقفع

أسقف الأشمونين (مركز ملوى) عاش
في النصف الأخير من القرن العاشر وأوائل
الحادي عشر وعاصر الخليفة الفاطمي المعز
لدين الله ، وضع كتابا سماه « تاريخ

البطاركة » وقسم تاريخه الى حقب بين هذه
التواريخ جميعها وذلك بعد ما نقل
عدد الأسقف من بعض مؤرخ وجمعه من
المخطوطات القبطية واليونانية والعربية من عدد
من أديرة وكتب مؤلفة باللغة العربية
الإسكندرية وقد جمع تاريخه من عدة مصادر
قديمة عثر عليها في الأديرة وعن مصادر قبطية
عنها وقد أرخ ساويرس للبطاركة من مرقس
الرسول الى البطريرك يوساب الأول (٨٣٠
ـ ٨٤٩ م) وقد ذكر ساويرس أنه ترجم
هذه السير الى العربية من مخطوطات قبطية
ويونانية ترجع الى عصر المؤرخ ... وهذه
المخطوطات ذكرت ان مجموع هذه الأسقف
قد خرج من مصر ، وهي موجودة الآن في
المكتبات الكبرى في باريس وغيرها العامة
نسخ منها قديمة

والكتاب بوضعه الراهن يعتبر موسوعة
تاريخية من حياة بطاركة العصر الذي عاش فيه
البطاركة تسمى التراجم وقد نقل
المقريزي عن هذا الكتاب جانب كبير مما
سجله في كتابه « الخطط » كما نقل منه
أيضا القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى »

وقد ترجمه « رينودو » ونشره باللغة
مع ترجمته الى الانجليزية في مجموعة الآباء
الشرقيين

ج ـ الأنبا ميخائيل أسقف تنيس

عاصر الأنبا ساويرس بن المقفع ... سنة
في حكم ... تاريخ البطاركة من الأنبا ... ح

مخطوطة من حائس الناس ٨٨ ١٩٢٧ م
ى صامونيل من ٣٣٢ ٢٠٦

د ـ الأنبا يوساب اسقف فوه

من رجال القرن الثامن عشر الميلادى وقد قام بجمع سير البطاركة ووضع سير معاصريه

وقد أكمل تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية حتى عصرنا الحاضر على يد علماء كثيرين من مصر وغيرها . والسير لتواريخ البطاركة حلقة هامة فى تاريخ مصر العام

٢ ـ السنكسار :

وهو الكتاب الذى يضم سير الآباء القديسين ويحوى قصصا دينيا يصور لنا النواحى الاجتماعية فى العصر الذى عاش فيه الآباء أصحاب التراجم . فهو بذلك تكملة لتاريخ الكنيسة على نهجه . وقد نشره « باسيه » بالعربية مع ترجمة الى الفرنسية ثم نشره « أوبرى » مرتبا بحسب الحروف الهجائية

وثمة كتب أخرى تكمل السنكسار وتفسره . وأشهر من دون سير الآباء « بلاديوس » الذى كتب سير الرهبان المصريين ، والناسيوس الرسولى بطريرك الاسكندرية فى القرن الرابع ، الذى كتب سيرة « القديس انطونيوس » و« القديس باخوميوس » وجيروم الذى دون عددا من سير القديسين والشهداء المصريين . وقد نشرها كثيرون من العلماء « بدج » الذى وضع المدبر بوحنا كسيان وغيره . ومع عدة كتب جمعها بعض سير الرهبان المصريين بعنوان « بستان الرهبان » ثم ترجمها الى الفرنسية ، كما نشرت ترجمته الى الانجليزية فى المجلد الحادى عشر من موسوعة « آباء نيقية وما بعد نيقية »

٣ ـ تاريخ المجامع

أرخ الأساقفة ـ بطاركتهم القبطى بعض ـ للمجامع المحلية والمسكونية ، مما كان له أكبر الأثر فى المحافظة على هذا التاريخ

(ا) المجامع المحلية

وكانت تعقد فى مدينة الاسكندرية برئاسة البطريرك لنظر فيما يهم الكنيسة بوجه عام وحل المسائل المختلفة التى كانت تثار

(ب) المجامع العالمية (المسكونية)

وكانت تنعقد فى القسطنطينية أو فى مدينة أخرى من مدن الامبراطورية . وكان الامبراطور البيزنطى هو الذى يدعو لانعقادها للنظر فى البدع الدينية التى تظهر فى اقليم من أقاليم الدولة . وكان أعضاؤها ممثلين يمثلون جميع الكنائس فى العالم المسيحى . وعلى المجمع ان يتخذ القرارات التى تدحض تلك البدع من جهة وتقوى الايمان من جهة أخرى . وقد سجلت الخلافات المذهبية حتى كانت فى تاريخ الدولة البيزنطية أهمية كبرى فى قوتها وضعفها وصلاتها

ولذلك تؤلف تلك المجامع مصدراً رئيسياً في تاريخ الدولة البيزنطية.

وفي التاريخ العام كان للاساقفة نصيبهم الكبير الملحوظ فيما وصلنا من مؤلفات عديدة ليس بالنسبة الى التاريخ الكنسي فحسب، بل في التاريخ المدني أيضاً.

ومن أشهر الكتب التي ألفت في هذا المضمار الكتاب الذي أرخ فيه يوحنا النقيوسي للعالم من بدء الخليقة الى الفتح الاسلامي ويعتبر الجزء الأخير منه هو المصدر الأول لتاريخ فتح العرب لمصر.

يوحنا النقيوسي

كان معاصراً لفتح العرب لمصر. كان في بدء حياته راهباً عرف بالتقوى وكثرة العلم وحسن السيرة، فرسم اسقفاً على نقيوس (ومكانها الآن قرية بشادي بمديرية المنوفية)، ثم رقي رئيساً لأساقفة الوجه البحري، ثم عين في شيخوخته سنة ٦٩٤ م مديراً لأديرة وادي النطرون. وعلى الرغم من علمه وتقواه وخدمته للكنيسة فقد حكم الاساقفة بوقفه عن مباشرة عمله الكهنوتي بسبب عنفه الشديد في تأديب راهب على خطيئة ارتكبها.

وقد خلف لنا كتاباً هاماً أرخ فيه من بدء الخليقة الى ما بعد دخول العرب مصر بقليل وكانه مقسم الى ١٢٢ باباً. والأقسام الأخيرة منه خاصة بالفتح العربي حيث تكلم عنه بتفصيل واسهاب. ويعتبر الكتاب هو المرجع الأول والأساسي في هذا الموضوع لأن كاتبه سجل ما رآه بنفسه.

وقد وضع هذا الكتاب باللغة القبطية ثم ترجم الى العربية ومنها ترجم الى اليونانية أيضاً. ولكن لم يصل الينا غير الترجمة الحبشية.

ويدل الكتاب على ما وصل اليه يوحنا النقيوسي من علم غزير وتعمق في البحث واعتماد على المراجع الأصلية القديمة، كما تظهر فيه الحرية التي توخاها الكاتب في سرد التاريخ.

وليس صحيحاً ما ذكره زوتنبرج الذي نشر ترجمته من ان الكتاب وضعت غالبيته باليونانية على حين وضعت الأجزاء الخاصة بالقبطية.

١ - لأنه من المستبعد على كاتب قبطي متعصب لقوميته أن يكتب مواضيع تاريخ عالمي بلغة مضطهديهم الروم.

٢ - كانت اللغة اليونانية قد أخذت في الانقراض من مصر منذ القرن الخامس على يد الانبا شنوده.

٣ — صيغة أسماء الاعلام في النص الحبشي تدل على أنها أخذت من أصل قبطي.

وقد ظل الأقباط يحتفظون بتراثهم القديم فيما بعد دخول العرب مصر بقرون. وظهر منهم كيرلس وكوبرس وبولس. وعرف في القرن السادس يوحنا فيلوبونوس النحوي

لدى العرب في الأدب و[illegible] والرياضة. ومن المعروف أنه عند الفتح الإسلامي كان رجال الدين من الأقباط يتولون تدريس العلوم في مدرسة اللاهوت الإسكندرية. وقد [illegible] من بعضهم [illegible] وضروب الفنون.

وقد [illegible] الدولة الإسلامية عند [illegible] كثير من [illegible] التراث العلمي في حركة الترجمة التي قامت بها. فقد أمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن ينقل إلى العربية كثير من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية. و[illegible] في هذا المضمار كثير من خلفائه وولاته [illegible] وكان [illegible] الخلافة في بغداد [illegible] العلوم فيها دافعا على انتقال العلماء من مصر إلى بغداد [illegible] [illegible] مذهب ابن [illegible] تعليم في جامعة [illegible] من الإسكندرية في أيام عمر بن عبد العزيز إلى أنطاكية ثم نقله المتوكل إلى حران.

الإنتاج الأدبي والثقافة القبطية

المخلفات الأدبية القبطية بالنثر وتشمل فروعا كثيرة أهمها:

١ ـ ترجمة الكتاب المقدس:

وهي في الدرجة الأولى من آداب اللغة القبطية. وقد أخذت هذه الترجمة عن اليونانية منذ القرن الثاني، ويعتبر من أقدم الترجمات لأن الذين قاموا بها كانوا [illegible] تماما باللغتين. وقد كانت [illegible] الدينية [illegible] حتى [illegible] القرن الرابع أو الخامس إلا وكان الكتاب كله مترجما إلى اللهجتين الصعيدية والبحيرية وبعض أجزاء منه إلى اللهجتين الأخميمية والفيومية.

٢ ـ أقوال الآباء:

وهذه [illegible] على فروع كثيرة منها: الأقوال النسكية التي كتبها [illegible] [illegible] وكلها تحض على [illegible] والتجرد من [illegible] وعلى الترفع عن العصبية وتنقية النفس. ومن أمثلتها الرسائل المعروفة التي بعثها القديس أنطونيوس إلى تلاميذه، والأنظمة التي وضعها القديس باخوميوس لتنظيم حياة رهبانه، وما خلفه القديس [illegible] من [illegible] (مواعظ) عميقة في الحياة الروحية. وكذلك تشمل المواعظ والخطب الدينية التي كانت تلقى في أيام الآحاد أو الأعياد أو بعض المناسبات الأخرى، ومن أشهرها خطب الأنبا شنوده في [illegible] مكافحة الوثنية ونشره لتعاليم المسيحية. ومع أن الآباء كانوا [illegible] يكتبون [illegible] لتحقيق الهدف العملي وهو [illegible] في [illegible] [illegible] منهم [illegible] [illegible].

٣ ـ سير القديسين:

وهي كثيرة [illegible] بوصف حياة وجهاد [illegible] الرهبان والمتوحدين [illegible]

وبعض الآباء البطاركة والأساقفة . ومن يكن
عدد تسميه مجرد تاريخ خاص . ولما كان
موضوعه في سطور . . غير شخص تاريخ الإ...
حتى كان من مناهجه فسر كة بن على الرهبة
على السير في تحسينات القصص . وهي في
الواقع تجيب بمسائل معينة نسبها هؤلاء
القديسين الذين كتب سيرهم مع نوع من
الإيجاز في الكتابة

٤ ـ القصص

وقصة دينية فيه خيال وتصور تتضمن
قصة ملكة سبأ ومقابلتها سليمان الحكيم
أو قصة الملك يوحنا ورئيس الدير . وبعض
وطني نفس به الأقباط عن شعورهم القومي
الذي ظل مكبوتاً سنوات طويلة تحت نير
المستعمر ومن أمثلتها رواية الإسكندر الأكبر
وقد وجدت ترجمتها الصعيدية في الدير
الأبيض . وورد به تعبير وهمزة ... مصر .
ولكنه لا صلة لها باليوناني ولا بالقصص
الأخرى . وكذلك قصة ثيودوسيوس
وديونسيوس

٥ ـ الإصلاح الاجتماعي

تظهر روح الإصلاح في كتب الأنبا
شنودة حين حارب بها البدع الموجودة في
عصره كالدجل والطب والسحر والوسوسة
... و... الذي كان على ... الشهداء
... إلى ذلك

٦ ـ أغراض أخرى :

مثل الآداب ... وعلوم ...
... أخرى ... والسحر

النظم

ثم نصل بعد ذلك إلى كتبة الأقباط في
الأغراض المتنوعة المختلفة ... كان السبك
السائد في تلك العصور الأدبي للمسيحية
نحو ... ذلك . فقد نحو في المديح أو
بالملائكة والعذراء مريم والأساقفة والقديسين
والمسيحية ... في النظم يعرف باسم
ثيوطوكيات وهي كلمة معناها «تسبحة»
وقد جمع الكثير منها أوليري سنة ١٩٢٤ في
كتابه المسمى Coptic Hymns ، أما مديح
العذراء مريم فالكثرة تختص به تقريباً باسم
الثيوطوكيات . وقد نشر « أوليري »
سنة ١٩٢٣ كتابه المسمى The Coptic Theotokia
جمع فيه كثير من المقطوعات الشعرية القبطية
التي وجدها في دير القديس مقاريوس
والمكتبة الأهلية بباريس والمتحف البريطاني
وقد ثبت أن هذا النوع من النظم كان مستحب
لدى الشعراء الأقباط يستعملون فيه مواهبهم
كما ذكر « ماوب » أن هذه الثيوطوكيات
لها مكانة عظمى في الآداب القبطية

وقد كان القصص من بين الأغراض التي
طرقها الشعراء الأقباط أيضاً . ومن أشهر
القصص الشعرية قصة أرشيليدس الراهب
الذي رفض مقابلة أمه وعاهد ... نفسه على
نفسه ألا يرى امرأة . وهي قصيدة طويلة
جداً على شكل حوار تظهر فيه نزعة التمثيل
بقوة وتأثير . والقصيدة ... ...
من ... الأساقفة

ثم هناك الأشعار الكنسية وهي صلوات أو تأملات مأخوذة من المزامير والأناجيل وتسمى ثيئوطوكيات وهي مأخوذة من الكلمة اليونانية ثيئوطوكوس بمعنى مريم والبعض الآخر يسمى الهوسات وهي مأخوذة من الكلمة القبطية هوس بمعنى تسبيح وقد اختص كل نوع بتسبحة خاصة منظومة وملحنة بلحن خاص، ونرى غالبية هذه القطع الشعرية في كتابي الابصلمودية السنوية والابصلمودية الكيهكية

الشعر

عرف الشعب المصري منذ أقدم العصور بحب الأدب، وقد وصلنا من العصر القبطي الكثير من الأدب في شكل شعر أحيانا على الرغم كثرة ما فقد

ونرى نفس هذا الأدب في قصيدة رشيدية وأخرى سنكلينكي التي تدعو فيه النفس للتوبة «أيها النفس» كما أنه من أمثال ... والحكم ... وقد نشر د. ماريا كرامر كثيرا من الكثير من منظومات الأدب القبطية

وكانت موضوعات الشعر تنطوي على كثير من معاني الأدب والحكم التي تسكن حاجتها إلى التأثر معا في الأمثال المصرية القديمة وفي أمثال سليمان الحكيم وباقي كتب الحكمة في العهد القديم، ويرى كثيرون أن القبطي كان يحضر هذا اللون من الأدب منذ العصور الفرعونية وأن قصص الحكمة في

شعر كان أصلا وسمى بتسبحة لاهوتي مسيحية

لغة الأدب

ينقسم الأدب القبطي الى قسمين

(أ) أدب قبطي مترجم عن اليونانية

وقد ظهر أكثره في الإسكندرية التي تسربت منها الثقافة الهيلينية، حتى اضطر كثير من الآباء الى الكتابة باللغة اليونانية المنتشرة في العالم وقتذاك، وترجمت كتاباتهم في عصر الى القبطية ليتمتع بها الأقباط للفهم

(ب) أدب قبطي صميم كالذي ظهر في كتابات الأب أنطونيوس والأب باخوميوس اللذين لم يعرفا غير القبطية، وخطب ومواعظ الأب شنوده الذي لم يشأ أن يكتب بغير القبطية، كما كان زعيما شعبيا يكلم الأقباط مصممين على أن يكلمهم بلغتهم القبطية لا باللغة اليونانية لغة الحكام

وقد كان للأدب القبطي الصميم مركزان هما وادي النطرون للهجة البحيرية، ودير الأبيض والأديرة الباخومية بالصعيد للهجة الصعيدية، وهكذا نرى أن أديرة الرهبان كانت معاقل للأدب القبطي الصميم ... وفي بعض المخطوطات القبطية ... اللغة القبطية ... من الحال ... المقصود بذلك الصعيدية لا ... وأديرة الرهبان موجودة في ... وقد نرى الآن ... نادرة بدير الأنبا ... سنة ٣٨٣م

الذي أضحى مركز الأدب القبطي، وبه أصبحت اللهجة الصعيدية هي اللغة الأدبية للكنيسة القبطية في أزهى عصورها.

ومنذ عهد [illegible] ترجمت الآباء [illegible] الأدب اليونانية تظهر وكرازتهم بمقدار النمو المطرد الذي انتشرت به المسيحية بين الريفيين وبمقدار [illegible] إلى

استخدام اللغة القبطية كلغة دينية [illegible] الإخاء [illegible] وعندما [illegible] اللهجة الصعيدية هي لغة الأدب القبطي عامة [illegible] اللهجة البحيرية كان على أساس ترجمة الآداب الصعيدية التي انتشرت في القرون الستة الأولى للمسيحية

٤ - أقوال الآباء: آثارهم وشهرتها

كان لآباء الكنيسة القبطية في [illegible] كبيرة أهمية [illegible] اللاهوت والنسكيات [illegible] كل تلك المؤلفات شهرة عالمية منذ كتابتها

كتابات الآباء اللاهوتية

كان أساتذة الإسكندرية ومدارسها هم عمد اللاهوت في العالم المسيحي كله، لذلك كانت لكتاباتهم أهمية كبيرة وشهرة واسعة.

كان موقف الزعامة الفكرية الذي وقفه القديس أثناسيوس في مجمع نيقية سنة ٣٢٥، [illegible] ذيوع كتاباته في اللاهوت وتوضيحاته للإيمان المسيحي، وأصبحت كتاباته المصادر الأولى لعلم اللاهوت المسيحي، حتى اعتبر أثناسيوس أبا لعلم اللاهوت في [illegible] ومؤلفاته التي [illegible] عن «تجسد الكلمة» و«الرد على الأريوسيين» و«الروح القدس» [illegible] هي [illegible] واسعة [illegible] باقي مشاهير اللاهوتيين المفكرين حتى أصبح القول الشائع بين الغربيين في تلك العصور هو «إذا وجدت عبارة من أقوال أثناسيوس ولم تجد ورقة لتكتبها، فاكتبها على قميصك» [illegible] ونعرف أن القديس هيلارى [illegible] أثناسيوس [illegible]

وهذه الشهرة والزعامة الفكرية انتقلت أيضا إلى القديس كيرلس الإسكندري حتى لقب بعمود الدين. وكان [illegible] على [illegible] أثناسيوس وكيرلس لكي يصبح [illegible] بالإيمان السليم

وقد نالت كتابات ديديموس الضرير مدير المدرسة اللاهوتية في [illegible] أثناسيوس شهرة واسعة، حتى أن الأب [illegible] القديس جيروم، الذي كان [illegible] الكنيسة [illegible] كتب له مؤلفا عن الروح

القديس … وجد … وصل … هو
… ترجم إلى اللاتينية … كتب … باخوميوس
المصري في هذا الموضوع.

هذه السيرة التي … كانت أداة …
في الغرب … وكذلك … سيرة
… في … وكانت …
… مدرسة اللاهوتية بالإسكندرية … وهناك أكبر
مثال لها هو كتابات روفينوس التي …
… الشرق … من قوة
… ومن أجل ذلك قام بترجمة الكثير
… إلى اللاتينية روفينوس وبلاديوس …
… والقديس جيروم … عالية
… الكنيسة اللاتينية وعاظم اللاهوتيين
فيها … على أن يتقدم عن أوريجانوس
كما يظهر ذلك من شرح لأمبروسيوس أسقف
ميلان ومعلم أوغسطينوس …
… أسقف … في إيطاليا …
… من مؤلفات هذا العالم القبطي
وكان القديس … باسيليوس الكبير
… بالأهداف …
… وقد جمع مقتطفات من مؤلفاته
في كتاب أسماه فيلوكاليا.

أوائل الآباء في النسك

تلك السيرة التي حظي بها آباء الأقباط
في … لا … في
… الرهبنة …
القديس باخوميوس … من …
… القديس …

… على كرسيه … القديس
… باخوميوس … إلى
اللاتينية …
… وكل الغرب
الخامس … القديس … كاسيان
الذي … في …
… في …
أوغسطينوس نظام الرهباني …
… باخوميوس ، وكذلك … القديس
باسيليوس الكبير مؤسس الرهبنة اليونانية ،
والقديس … مؤسس … في
القرن الخامس … في … في
دير على نظام الباخومي … يكون من
… آثار الأنظمة الباخومية …
من أثر في الأديرة … في
القرن السادس … باخوميوس
حتى أنه في بعض المواضع يكاد …
… كاسيان في …
لا يكاد يختلف عن أي دير باخومي في …
وهكذا انتشرت قوانين باخوميوس في أرجاء
العالم كله ، وعلى أساسها قامت الحركات
الديرية في العالم المسيحي …
… حتى الآن اليونانية واللاتينية

… الرهبنة الذين …
… … …
على … من … هؤلاء كانوا هم
… مؤلفات … وإليهم كانت تأتي كتب.

كتاب المسيحية في تعاليم مشاهير أحبارهم وحفظوا كلماتهم العاليه لتكون نورا للناس وهكذا في سنة ٣٨٨ م جاء الى مصر بلاديوس مهتدياً بهم ... وصحب منهم رهبان بصعيد ، ثم رجع اليها سنة ٤٠٦ وقضى حوالي سبع سنوات مع رهبان وادي النطرون وكتب كتابه الذي اصطلح على تسميته فيما بعد « بستان الرهبان » وكذلك جاء القديس يوحنا كاسيان لزيارة وادي النطرون ما بين سنة ٣٩٠ — سنة ٤٠٠ م ووضع كتابيه « محاضرات » و « المؤسسات » أخبار كثيرة عن رهبان المصريين ومقتطفات من أقوالهم . كما زار مصر لنفس الغرض سنة ٣٨٦ القديس « جيروم » ومعه تلميذته « باولا » ، ووضع كتابا عن القديس المصري الانبا « بولا » المتوحد ، وآخر عن الرهبان المصريين حسب أقوالهم وأخبارهم ، ورجع فاسس — على صورة ما سمعه وراه — ديرين في بيت لحم يسكنهما أحدهما للرهبان والآخر للراهبات .

ومن أشهر كتاب كان له أثر بالغ في هذا المضمار هو كتاب « حياة أنطونيوس » الذي وضعه الأنبا أثناسيوس بطريرك الاسكندرية بناء على الحاح أهل رومه . وقد أشعل هذا الكتاب روح الرهبنة ونشرها في بلاد الغرب ، ويكفي أن قراءة كانت عظيمة التحول في حياة القديس أوغسطينوس الذي تأثر به جدا كما يذكر في اعترافاته — حتى ترك حياته الماضية ، وتم تحول مسيحيا مسيحيا فحسب بل صار مسيحيا مشاهيرا حال مسيحة .

ولم تقتصر شهرة أقوال الآباء على عصورهم ، بل لا تزال لها قيمتها وشهرتها في الأدب المسيحي حتى يومنا هذا . وقد تحمس أهل الغرب لترجمتها الى لغاتهم ونشرها ، وهي تشمل جانبا هاما من مجموعتي مني Migne اللتين جمع فيهما في أواخر القرن الماضي أقوال الآباء باليونانية Patrologia Graeca وباللاتينية Patrologia Latina كما تشمل جانبا هاما أيضا في مجموعة أقوال الآباء الشرقيين Patrologia Orientalis التي تصدر تباعا في باريس . وقد صدرت عن أقوال الآباء بحوث ومؤلفات حديثة ، وترجمت كتبهم الى اللغات الأوروبية الحديثة مع مقدمات وافية بحياة مؤلفيها وأسلوبهم وشخصياتهم . أما آباء الصحراء فقد انتشرت أقوالهم في ترجمة كتابات بلاديوس وكاسيان وجيروم . وفي سنة ١٩٢٣ أصدر « بوسيه » كتابه الخاص بأقوال الآباء Apophthegmata Patrum

اهتمام العالم بالمخطوطات القبطية

لم تكن كل كتابات الأقباط بالقبطية كما قلنا ، وانما كتب جزء وافر منها باليونانية . ولهذا كان للأقباط نصيب على الأدب اليوناني اذ صعد اليه دعوة جديدة ... غير أن الأقباط ... وبحماسة الرهبان

عادوا فرحين الى أوطانهم بكتب آبائهم التي كتبت باللغة القبطية وبهذا أصبحت هذه الذخيرة العلمية والأدبية من التراث القبطي موجودة في أوروبا وأمريكا .

واهتم العالم اهتماما كبيرا بالمخطوطات القبطية سواء منها المكتوبة أصلا بالقبطية أو المترجمة اليها . وظهر هذا جليا بعد حركة النهضة الأوروبية فأخذ الرحالة والمبشرون الأوروبيون يجمعون المخطوطات القبطية من الأديرة والكنائس القديمة . وهكذا ذكر الرحالة « بيرسنا » أحـــد هواة الكتب بباريس بعد زيارته مصر سنة ١٦٣٣ م أنه وجد كتبا كثيرة في كثير من الأديرة منها مجموعة من حوالي ٨٠٠٠ مخطوطة ترجع الى العصر الاسلامي وجدها في أحـــد أديرة وادي النطرون . وفي أوائل القرن الثامن عشر أرسل الفاتيكان بعثتين حصلتا على مجموعة ثمينة من المخطوطات القبطية من دير أبا مقار . وفي سنة ١٨٣٩ حصل لورد كرزون على مجموعة نفيسة التي كانت من نصيب مكتبة رايلندز بمانشستر . وتوالت الزيارات على مصر بهذا الغرض . عثر على مخطوطات الدير الأبيض استولت على غالبيتها المكتبة الأهلية بباريس ونال المتحف البريطاني بعضا منها . ثم اكتشفت مجموعة مورجان سنة ١٩١٠ في دير الملاك الحامولي بالفيوم وبيعت الى المستر « ج. بيربونت مورجان » أحد الأثرياء الأمريكيين .

وتزخر مكتبات أوروبا وأمريكا بعدد كبير من المخطوطات المكتوبة باللغة القبطية تشتمل على مسائل ونصوص وصلوات وصكوك وعقود وغير ذلك حتى لقد بلغ عدد الصفحات القبطية [illegible] في فيينا بالنمسا حوالي عشرة آلاف صفحة .

وعثر في مصر سنة ١٩٢٩ على مجموعة من البرديات القبطية تشتمل على تعاليم ماني وهي محفوظة الآن في متحف برلين .

كما عثر في سنة ١٩٤٦ على برديات قيمة تبلغ ألف صفحة تشتمل على رسائل غنوسية وقد استولى عليها المتحف القبطي في القاهرة .

وبهذا كله امتلأت المتاحف والمكتبات العامة في أوروبا وأمريكا بهذه المخطوطات وما بقي منها محفوظ في مكتبة الدار البطريركية والمتحف القبطي بالقاهرة ومكتبات الأديرة والكنائس القديمة .

وقامت هيئات علمية بطبع فهارس لهذه المخطوطات القبطية ونشر بعض المخطوطات وترجمة بعض منها مع دراستها والتعليق عليها . وقام علماء كثيرون في جهات متفرقة من العالم بدراسة هذه المخطوطات نذكر من بينهم كرم ، وتيل ، ووايتهوس ، واشبيجلبرج ، ووورل ، ولوفور ، ومنج ، وزينتس ، وكاله ، وكروم ، وكراوسه ، وبوهيج . وأصبحت للدراسات القبطية في جامعات أوروبا وأمريكا أقسام خاصة يشرف عليها أساتذتها وعلماء .

الفصل الرابع

الحيـــاة الفنيـــة

العصور القبطية

تعتبر العصور القبطية فى حياتنا منزلة من العصور أو الضعف والفناء ، واتتها ظروف جديدة للانتعاش فعادت حاملة معها مختلف صفاتها القديمة وخصائصها وطابعها . ولقد حدث فى العصر المسيحى فى مصر حتى أصبحت الحياة المصرية مجالا للعرب ... من بعث الفنون وترعرعت حاملة فى طياتها مختلف الصفات الموروثة من عصور سابقة . وفى هذا تقول « رالوشر » إننا نؤمن الآن أن الفن لا يتقدم فى خط مستقيم مطرد ، بل من الثابت أن تياراته تتقابل وتتراكم ثم تختفى وتختفى ، لتعود إلى الظهور بقوة ووضوح

وإن ظاهرة العودة إلى الظهور هذه نجدها ملموسة فى الفن القبطى

<u>الصفات العامة للفن القبطى</u>

اولا - فن شعبى

لم تكن الشعبية من خواص فنون الأمم القديمة ذات الحضارة لأنها نشأت تحت كنف الحكام والأمراء وأصحاب الجاه ، واكتسبت وجودها وتوجيهها وتطورها من رعايتهم وكان هؤلاء السادة محصنا من الفنانين يأمرونهم بصنع كذا أو كذا من القطع الفنية المسيحيون . وهكذا نجد أن الفن المصرى القديم ينتعش إبان عهد الملوك الذين أولوه رعايتهم ، ويضعف فى عصر الضعفاء منهم أو الذين أهملوه

أما الفن القبطى فهو الأول فى الشرق القديم الذى كانت له صفة الشعبية . فإن الأباطرة لم يسودوا بمصر كما كان الحال أيام الفراعنة ، أو أيام البطالمة . بل كانت مصر فى عهدهم ولاية رومانية تابعة لروما أو بيزنطة ، وصار الأباطرة إذا أرادوا إقامة أعمال فنية تخلدهم يقيمونها فى عواصمهم لا فى مصر . ومن هنا فقد الفن القبطى توجيهه السياسى واتجه نحو الشعبية البحتة ، حتى إذا نظرنا إلى الكنيسة الكبيرة فى الدير الأبيض قرب سوهاج وهى من بناء القديس شنوده ، أو إذا زرنا كنائس مصر القديمة ، أو دير القديس سمعان فى الضفة الغربية بأسوان أو كنائس الواحات الخارجة أو إذا شاهدنا الآثار المعروضة فى المتحف القبطى أو مختلف المتاحف لعدم نجد أعمالا فنية قام بها الشعب المصرى ووضع فيها الشعب المصرى عصارة روحه ومهارته

ثانيا ــ فن ديني ومدني

حتم تمسك أن عمر الفن المسيحي في مصر فن ديني يتصل بالكنيسة والعبادة فحسب ، وقد لم يمنع ذلك من هذا أن يرى خارجيا ، فيعبر عن الشعب المصري بأكمله ، يظهر في الأشياء المدنية كما يظهر في النواحي المدنية بوضوح . وان كنا نجد أن أغلب الآثار الباقية من ذلك العصر آثار دينية مثل الكنائس أو الأديرة ، فمرجع ذلك الى اهتمام الشعب عادة بصور عبادته ومحافظته عليها .

ولا شك أن أهم الآثار التي وصلت من مصر القديمة أو من مصر الاسلامية هي أيضا آثار تتصل بالنواحي الدينية مثل المعابد أو الأضرحة والمساجد .

وقد وصلتنا أمتعة وزخارف من بيوت أفراد الشعب الى جانب ما وصلنا من أديرة وكنائس . وكما وصلت أقمشة كان يلبسها الكهنة في الخدمة الدينية وصلت أقمشة عديدة كان يلبسها عامة الناس في حياتهم أو يكفنون بها موتاهم . وبعض الأواني أدوات كانت تستخدم في الكنائس وأدوات استخدمت في المنازل أو الحقل ، أو الصناعة .

ثالثا ــ فن نبع من البيئة المصرية وعبر عنها

نرى في صور الوجوه القبطية ملامح المصري بعينيه الواسعتين المستديرتين وجبهته وأنفه وشعره ، كما نرى صور الحيوانات الأليفة التي تملأ الريف والحقول مثل الغنم والكلاب والبقرة والجمل والحصان .

ونرى الزخارف تصور أوراق النبات المختلفة وأزهارها وثمارها كالعنب والتين والرمان والتفاح والاكاسيا . كما نرى صور السمكة الرمزية تسبح فوق ماء النيل وكلها مألوفة لديه ، وبعد الأشكال الجديدة المتداولة بين المصريين سواء منها القديم أو بعد أن اتخذت معاني جديدة وصورا جديدة تتفق مع الديانة الجديدة التي اعتنقها المصريون .

رابعا ــ ثمرة ما سبقه من فنون ومؤثرات عليه

إننا نجد في الفن القبطي أثر الفن المصري القديم والفن الاغريقي والفن الروماني ، وإن كنا في الواقع نجد الروح المصرية الخاصة كلما اتجهنا في بلاد جنوبا .

وكذلك تأثر الفن القبطي بالفن السوري وفنون البلاد المجاورة . ذلك أن المسيحية قد نشأت في بلاد فلسطين وانتشرت في الشام وبلاد البحر المتوسط وانتشرت معها بعض فنون تلك البلاد بحكم الاتصال وصار المصريون يتأثرون بفنونها وبخاصة في الشام .

خامسا ــ فن جمال لا ضخامة

لم يبدع الفن القبطي حد الروعة كما أبدع الفن المصري القديم ، كما أنه فقد انتاج الأشياء الضخمة ، التي تميز بها الفن المصري القديم في مصر القديمة وسلالة الأهرام ، والمعابد الهائلة كالكرنك ، والتماثيل الضخمة كتماثيل ممنون ، والأعمدة الضخمة والمسلات . ولكن الفن القبطي كان من جانب آخر تابعا للجمال في دقته

سادساً — فن الزينة

وصنعت كثير من أفاريز مباني وعروش الاعمدة وكثير مما تزين به الصحف الى الأسقف والأعمدة وما تزين به التوابيت والمشغولات المعروفة بالفسيفساء . كما أسهم الفن القبطي في تزيين المنسوجات من حلي وأحجار كريمة وملابس وخاصة ذات الألوان الزاهية منها ، وامتدت الزينة الى كتابات الاقباط فزينوا الكتب وزخرفوا صفحاتها بزخارف بالغة حد الروعة

سابعاً — فن يستخدم الأشكال الهندسية والرمزية :

نجد في هذا الفن زخارف أساسها المثلثات والمربعات والدوائر والخطوط المتلاقية والمتقاطعة ، سنجدها في كل شيء ، ولا ننسى أن نشير الى أن هذه الخاصية ، وخاصة الرمزية منها ، كانت كثيراً ما تجنح نحو تصوير [illegible] . فقد دفعت هذه الخاصية بالفن القبطي بعيداً عن الواقع وتصوير طبيعة الإنسان الأمر الذي قد يجر الى مظاهر جديدة لا يوافق عليها [illegible] . فلما جاء دخول العرب والإسلام مصر وجدت تربة خصيبة للتعبيرات الفنية ، فأخذ الفنانون يخرجون القطع الفنية التي تناسب العرب والدين الاسلامي ، مما نراه واضحاً في الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعاني الرمزية التي تبعد عن تصوير الأشخاص . وهكذا نجد سمات مصرية أصيلة راسخة في الفن المصري المسيحي الذي سلمه بدوره الى الفن المصري الاسلامي

صور من الفنون المصرية

العمارة

العمارة كانت نوعاً من ألوان التعبير الجمعية انعكاساً للبيئة بكل ما تحتويه من معان روحية ومادية . والعمارة المصرية القديمة تمثل فيها هذا المعنى بشكل واضح [illegible] في جميع مراحلها عبر [illegible] وأصبحت من الثوابت المختلفة التي [illegible] المجتمع المصري في مختلف العصور . ونحن لا نكون مغالين اذا ذهبنا الى [illegible] التي مارست بها العمارة المصرية القديمة كان لها صدى بعيد وأثر بالغ الأثر في تكييف الفن المعماري في جميع أنحاء العالم . ومن مزايا العمارة المصرية القديمة حتى الدولة الحديثة أن فيها [illegible] تنتقل من [illegible] اليونان والرومان معرفة [illegible] الى التكوين [illegible]

والعمارة [illegible] هي العمارة الفرعونية ، وهي العمارة اليونانية [illegible]

في مصر وهي العمارة الإسلامية في مصر وأما الموازين التي تمتص بها كل منها فهي قوى في انقسامه حتى السحابات الزمنية في عهده ، ثم تمتص عناصر جديدة ، وتركها في الحقيقة طبقا عند الأصول والأسس التي قامت عليها العمارة الفرعونية . ومهما يكن فإن ما تحل عليها في كل عصر من تحوير أو تكييف بما يلائم ظروف بيئته ، لم يمنعها من أن تظل محتفظة بروحها وعناصرها الأساسية

والعمارة القبطية تأثرت بروح الفن الفرعوني ومعاصره ، وكل ما طرأ عليها من تحوير عامة لم يمس إلا مظهرها الشكلي فقد هي حلقة أخيرة اكتسب حلقات الفن المتصلة بين الحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية الرومانية بمصر

ولما كان الفن المصري يرتبط بطقوس الدين وبلازمها ، فقد احتفظ في العهد المسيحي بكثير من التقاليد والعادات المصرية القديمة ولوازم الدين وبخاصة ما كان منه متصلا بالرموز والتقاليد في الحياة اليومية والجنائزية والأعياد وغيرها . أما مركز المسيحية في الغرب وهي روما التي تعرف مهد الحضارة الأوروبية الغربية ، ثم القسطنطينية وهي مركز الحضارة الشرقية ، فقد حاولت كل منهما إيجاد طراز جديد للعمارة يتمشى مع الدين الجديد إلا أنها كانت ذات صلة بالعمارات القديمة التي سبقت العهد المسيحي ، ووجدنا تشبيهها مصطبغين بعض كثير من معالم هذه المدن الحديثة عن مصر التي سبقتها في الزخرفة والعمارة وقد أخذت منها الكثير من الرموز والتقاليد ، كما عثرنا كثير من فنون مصر واحتفظنا منها ببعض الوحدات الزخرفية التي تربط فيها المصري بين ديانته القديمة وبين ديانته الجديدة ، وبذلك نرى أن مراكز المسيحية تنبت من هذه الوحدات الزخرفية القديمة ما استطاعت كل منها أن تصوره بطريقة تتفق مع دينها الجديد

لو أخذنا مدينة مصرية قائمة من العصر القبطي ، لوجدناها تشبه في تخطيطها المدن المصرية القديمة . ففي الصعيد حيث يندر الحجر كانت البيوت تبنى من اللبن كمدينة هابو غربي الأقصر ، وفي الوجه البحري كانت البيوت تبنى من الطوب الأحمر أو الحجر الجيري كما عرفناها من مدينة أبا مينا (القديس مينا) بالصحراء الغربية غرب الإسكندرية
(صورة رقم ٦٥)

وكانت للبيوت أبواب خشبية كبيرة كما نراه في الريف المصري الآن وبها مزلاج من الخشب معروف إلى اليوم ؛ وكانت للبيوت أسقف مرتفعة ، وبها واجهات مسقفة بحجارة منقوشة مزخرفة بأوراق العنب عادة . وكانت بها كنائس كالتي عثر على بقاياها في مدينة أبو مينا ومصر القديمة وبويط والبهنسا وأسنا وطيبة وسقارة وأسوان وسوهاج وأبو حناس تحت حجر ويتكون من قاعات فسيحة بها صفوف من أعمدة حاملة مستديرة أو مضلعة

ذات عقود منقوشة بأبدع النقوش والألوان الثابتة الزاهية. ويكون شكلها منفصلاً عن القاعة بحجاب مصنوع من الخشب المعشق أو المخرم، على أشكال هندسية مختلفة ومحلى بصور القديسين وأشكال مختصة للصليب وبعض رقائق من العاج، كما نجد ذلك في كنيسة أبي سرجة في مصر القديمة وفي الناحية الشرقية من الكنيسة حنية أي تجويف في الحائط.

والكنيسة تكون أحياناً مستطيلة كالشكل المعروف بالطراز البازيليكي ويذهب البعض إلى أن تصميمه دخيل على الأقباط، وواقع الأمر أنه مصري صميم نجده أول الأمر في قاعة الاحتفالات بمعبد الكرنك التي شيدها تحتمس الثالث حوالي سنة ١٤٠٠ ق.م. وتكون الكنائس أحياناً أخرى ذات قباب بحيطان مطلية من الداخل بطبقة من الجبس مرسوم عليها صور للسيد المسيح والقديسين أو مزخرفة بزخارف مشتقة من جبس أو الحجر في بواطن عقودها وفوق أعمدتها وفوق الأركان المخصصة لصور القديسين.

وإذا كانت المدينة قريبة من الصحراء مثل مدينة أبو مينا أو مثل الواحات الخارجة و [illegible] الأديرة الفسيح [illegible] لها الآثار والسواقي أو [illegible] مياه الأمطار في [illegible] كثير هذه الآثار [illegible] نجدها في الصحراء الآن والتي سماها البعض آثار [illegible]

وواقع الأمر أن الفن [illegible] الرومان بالكلمات [illegible] وكانت أبواب [illegible] وأبواب [illegible] التي [illegible] التجاريين الذين [illegible] السواقي الخشبية. ونجد صوامع للغلال ومصابيح للهدايا التذكارية شبيهة إلى حد كبير بالمصابيح التي نجدها الآن في [illegible] في أسيوط.

التصوير :

كان التصوير السائد في العصر القبطي يسير على الطريقة التي توارثت منذ أقدم العصور في مصر وهي طريقة التصوير بألوان الأكاسيد (الفرسك) على الحوائط المغطاة بطبقة من الجص. وقد استمر الرسم بهذه الطريقة المصرية القديمة إلى العصر الروماني واتخذت هذه الطريقة في الرسم شكلاً مسيحياً في العصر القبطي، و [illegible] بين مسيحيي الشرق والغرب، وظل الأمر كذلك حتى عصر النهضة.

أما في مصر فقد حافظ التصوير على الطريقة القديمة حتى القرن الحادي عشر الميلادي، ثم أخذ القبط إلى جانب هذه اللون بطرق أخرى في التصوير. [illegible] التصوير القبطي أشكاله من الطبيعة المنظورة، ويكثر تصوير القديسين والشهداء وموضوعات من الكتاب المقدس وكان [illegible] في ذلك [illegible] الحالات التي تظهر فيها صور الأشجار على [illegible] من الأسماك والأزهار حتى [illegible]

فسيح ظللا بوجه كبير ، لا سيما حين ويحاولوا أن يرسموا ظلالا على الوجوه وراعوا مساحة الظل وهدوء الألوان

(صورة رقم ١ و ٢ و ٣)

النقش على الحجر والخشب

نشاهد الآن في المتحف القبطي في مصر القديمة وفي متاحف العالم المختلفة قطعا كثيرة من الحجر تشعر فيها بتأثير البيئة على الخيال الفني ، فمنها المجدول على شكل السلال تجديلا أتقن الصانع صنعه ، حتى بدا شديد الشبه بالسلال المصنوعة من القصب التي لا زالت متداولة بيننا ، ومنها تيجان محفورة بشكل زخرفي لأوراق النبات أو الفروع النباتية ، أو الزخارف المتشابكة من نبات العنب أو الرمان أو نبات الأكانتس أو سعف النخيل أو نبات اللوتس ، ومنها تيجان تزينها زخارف معمارية الشكل وبعضها ملون باللون الأحمر وهو اللون الطبيعي للنبات ، وهناك بعض زخارف نشر عليها تعبير عن ظواهر الطبيعة كمداعبة الهواء لأوراق الأشجار ، جاء التعبير عنها تعبيرا حيا يكاد يسمعنا حفيفها

وكانت النقوش تزين الجدران بالألوان ، أو بالحفر ، وكذلك عبر هذا الفن عن البيئة تعبيرا صادقا ، فنجد في المتحف القبطي على سبيل المثال [illegible] من [illegible] وهي [illegible] مركز [illegible] بأسلوب [illegible] من الحجر الجيري على شكل نصف دائرة وقد

حلي برسوم هندسية وزخارف تمثل الرمان [illegible] على [illegible] المصري [illegible] وحدثنا وفي مختلف العصور [illegible] خواص أنسجة مصرية بين الأقاليم المصرية [illegible] إلى معلومات

كذلك زخرف القبط منسوجاتهم والأواني بصور من الطيور والحيوان ، فنرى ضمن زخارف الفن القبطي صورا لصيادي الطيور والأسماك والوحوش المفترسة كالأسود فضلا عن الحيوانات المصرية الأليفة كالأرانب والغزلان وأصل الكثير من هذه الزخارف يرجع إلى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة كما نرى ضمن الزخارف المعمارية صورة للحداد القبطي تحيط به أدواته بشكلها المعروف في مصر اليوم .

ولم تكن روح الدعابة تنقص الفن القبطي ، فإننا نجد على الآثار القبطية ضمن ما خلفه من الصور والنقوش ، لوحات تمثل وفد الفيران يتقدم إلى القطط مبشرا بالهدنة المشهورة ، وقد رفع الفيران علما هو الذي يمثل حتى اليوم علم الهدنة والأمان كما نجد صورة ملاح مصورا في المركب والملاح صاحب [illegible]

(صورة رقم ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ١٤)

المنسوجات

اشتهرت مصر منذ عصورها القديمة بصناعة المنسوجات وكانت تصدر منتجات

[illegible] مزخرفة [illegible] حنية ، في كنيسة باويط ، بالقرب من ديروط ، وهي من [illegible]
[illegible] مرسومة بالألوان [illegible]
في [illegible] الأول [illegible] [illegible]
والتي من [illegible]
والطريقة [illegible] من طريقة الرسم في [illegible]
في [illegible] القرن [illegible] الميلادي

[illegible]

من القرن الخامس عشر (سنة ١٤٢١ للميلاد

١ - لوحة خشبية محفورة من كنيسة المعلقة بمصر القديمة وهي الآن معروضة في المتحف القبطي تمثل دخول المسيح أورشليم يوم أحد الشعانين وعليها كتابة باللغة القبطية من القرن الخامس الميلادي

٢ - جزء من إفريز طويل من الخشب المحفور يمثل نهر النيل ومنه سباع من القرن الرابع الميلادي

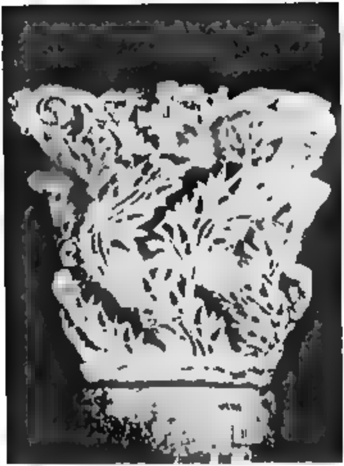

٩ – تاج أسطوانة من الحجر من [illegible] ، وهو يمثل حركة أوراق
الأكانتس تحت الريح ، وهي [illegible]
من القرن الخامس الميلادي

[illegible] الأدب العربي بمكتبة [illegible] ، وهو القسم [illegible]

من القرن السادس الهجري

٨ ـ شاهد قبر [illegible] علامة الصليب [illegible] رمز للمسيح الأعظم [illegible]
و الألف والياء [illegible] رمز [illegible]
[illegible] الحرف الإغريقي [illegible]
علامة الصليب

من القرن السادس الميلادي

نسجها في جميع بلدان العالم . ولما تم غزو مصر وخضوعها تحت الحكم الروماني ثم البيزنطي تم تطور النسيج وظل محتفظا بطابعه المصري في صورته الصحيحة .

أتقن الأقباط هذه الصناعة كما أتقنوا معها صناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة وكانوا يصدرون منسوجاتهم إلى روما وبيزنطة . وقد وصلتنا نماذج كثيرة من المنسوجات القبطية يرجع الفضل في بقائها إلى جفاف التربة المصرية وإلى عادة الأقباط في تكفين موتاهم بأجمل ملابسهم ودفنهم في مقابر رملية في الصحراء بعيدا عن وادي نهر النيل خوفا من مياه الفيضان .

كانت المنسوجات تصنع من الكتان والصوف كما نسجت من القطن ، واشتهر المدن في هذه الصناعة كانت تانيس والإسكندرية وشطا ودمياط وديبق والفرما في الدلتا ، وفي الوجه القبلي البهنسا وأخميم وسيوى (المعروفة الآن باسم الشيخ عبادة) والفيوم . وكان الصانع القبطي يزخرف النسيج برسوم للطيور والأسماك أو نبات اللوتس أو عناقيد العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص أو أوجه

(صورة رقم ٩)

الفنون الصغرى

منها الفنون الخاصة بالزينة مثل الحلى وصناعة المعادن ثم النحت والتجليد

أما عن الزينة عند المرأة فقد كانت المرأة تستعمل الكحل الرموش ، واللون الأزرق حول العين والأحمر للوجه . وكانت تضع القرط الذي نرى أنه يثبت في أذنيها أو أقراطا على شكل عنقود العنب ، وتزين معصمها بأساور سميكة تنتهي برأس حية من كل ناحية . وبعضها كان مبروما ينتهي برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر وكان يحلى حليها الذهبية مرصعا بالجواهر الكريمة وكانت تضع عقدا أشبه بالقلادة المعروفة الآن في مصر . وكانت تلبس الخلخال الذي يصنع من النحاس أو الفضة ، وفي بعض الأحيان تصنعه المرأة الثرية من الذهب

(صورة رقم ١٠)

وقد وصلت من العصر القبطي أمكاحل وأمشاط من العاج ، وعلى سبيل المثال نجد مشط رقم ٥٦٦١ بالمتحف القبطي نقشت عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكئة على سرير تحته كلب ، ويرجع هذا المشط إلى القرن الرابع الميلادي ، ويشبه كل الشبه أمشاط مصر الفرعونية . وعرفوا أيضا مشطا يسمى الآن بالفلاية . وهناك أمشاط من العاج عليها رسوم دينية مسيحية

والرسوم المختلفة التي وصلتنا من هذا العصر تبين لنا صورا حية من الحياة المصرية التي عاشها والتي كان المصري القديم يعتادها والتي حفظتها لنا آثار العصر المصري المسيحي ، ومنها الصورة الصغيرة المحفوظة في متحف برلين لامرأة تمسك خاتما مع سهام وأسهما

١ ـ قرطان من الذهب على شكل عنقود العنب عثر عليهما فى حفائر مصلحة الآثار بالواحات البحرية فى مقابر الأقباط القديمة ،

من القرن الرابع الميلادى

وبجانبها صندوق عليه نقوش ، وتتضح الآنية بشكل من أشكال الفن المصري في هذه الحرفة النسيج من منسوجات عليها صور من الأساطير القديمة ، منها صور الحيوانات التي وجدت في أخميم وهي منقوش على نسيج منقوش بأشكال نباتية وحيوانية ، وعلى القبائل القديمة البربرية ، نجد نباتات لأشجار تخللتها مجموعات وحيوانات تكون بعضها كما في ذلك شخصية بين بعض النبات في الريف ، وتوجد القطع وفي وسط الجلباب منطقه بها أكمام طويلة ، والجلباب محلى بحافة حمراء في أسفله ، وبه حليات رأسية في الأمام من الحرير الأحمر ، كما نجد نيكولا مرتدية جلبابا من الكتان الأبيض محلى أيضا عند أسفله وعند الأكمام وياقة بخط أزرق غامق ، ونلاحظ أنها قد لفت شعرها بشال حتى الى أعلى في شبه تاج . والنسوة اللاتي نجد صورهن جمعن لأنواع الملابس وطرزها ، والأنواع العديدة يصنف العصر من يحمل سجين ، كان عليه الشمس عامة في العصر القبطي من ناقة ودوري متميز في منسوجي وريشي .

أما عن فن الصناعات المعدنية ، فإننا نجد مصنوعات مختلفة التي استخدمتها المرأة لزينتها ، ونجد مصابيح في أشكال مختلفة ترقى عند المصنوع في دولة الأشكال .

(صورة رقم ٦٣)

الخط والتجليد

كان المصريون حتى الآن يخطون كتبهم يصنعون من البردي وتصنع ونه الى كافة أنحاء العالم . وعن بعض صحيفة الأقباط يكتبون على الرق ، وعلى الورق ، ثم بتقدم نهم الفن في تجليد صحائف الكتب بالرسوم ذات الألوان الرائعة الثمينة ، وهذه الصحائف التي تلمت دقة كتابة هذه الحروف مطبوعة ، والتي يبهر جمال زخرفتها كل من يراها .

(صورة رقم ١١ و ١٢)

خاتمة

كانت هذه الفنون في أيدي صناع مصريين ، وكان رهبان في الأديرة أيضا يتقنونها ، فاتهم رسموا الرسوم ، ونسخوا الكتب وزخرفوها بمختلف الزخارف الملونة الجميلة ، وصور الحضارة والبيئة ومختلف الصناعات .

ولما دخل الإسلام مصر ، اهتم العالم الإسلامي بصناعات الأقباط فنجد الخلفاء يختارون مصر لترسل الكسوة المصرية الى الكعبة لما عرف من إتقان المصريين لصناعة النسيج ، ويختارون من إنتاج هؤلاء الصناع ما يحصلون على أثمانهم من الأردية ويسمونها القباطي نسبة الى صانعيها الأقباط ، واشتغل كثير من رجال المعمار الأقباط في تشييد المساجد والعمائر ، وعن الفن القبطي أخذ الفن الإسلامي المحراب والمئذنة والصحن .

وكان العصر الفاطمي بمثابة فاتحة لاظهار الفن الإسلامي في مختلف العصور الإسلامية المتعاقبة ، ونجد أثر الفن القبطي واضحا

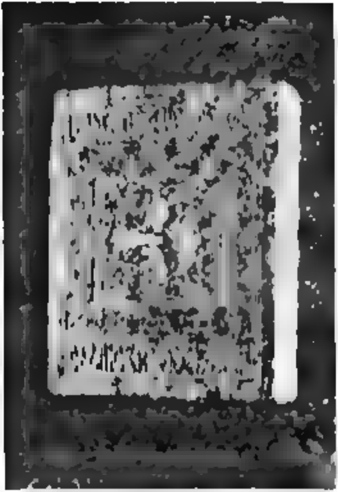

[illegible]

من القرن الرابع عشر الميلادي

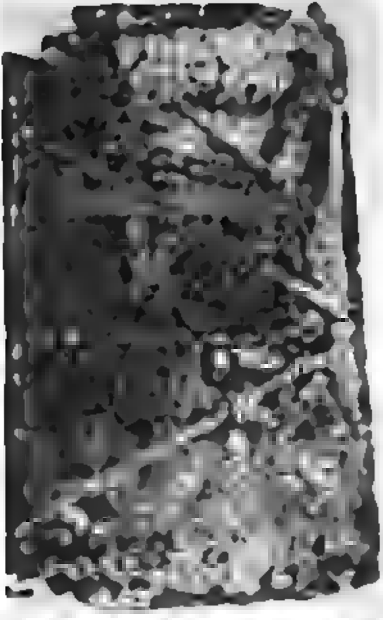

١٢ مسرجة من البرونز على شكل [illegible]   من القرن الخامس للهجرة

١٤ ـ [illegible] من الحجر [illegible] [illegible]
[illegible]
من العصر الحجري [illegible]

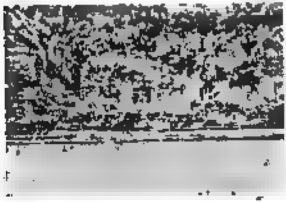

١٥ ـ أثر الكاتدرائية الكبرى (أبو هيب) ـ هريوط
من العصر الحجري القديم

من الأقباط أنفسهم وعمت مرسطا يا ونحو الدينية والطقسية حتى عصرنا هذا

وقد كان كتبة المخطوطات ... منهم ... في الأديرة القبطية ... البراعة متوارثة بين بعض الرهبان مثل ... الأب مكاريوس البطريرك المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وقد رسمها وهو راهب في أديرة وادي النطرون وهنا شهدنا بدقة هذا النوع من الفنون المطبقة ويحتوي كل من مجلدين مجلدين على نحو ٧٠٠ رسم ، كل منها مختلف الآخر ، نقل بعضها عن مخطوطات القديمة وقد اختار أن يرسمها بالألوان الزاهية مثل سلفه من الرهبان وكتب على بعضها الأصل الذي نقل عنه ثم وصف طريقة الرسم التي كان الرهبان يتبعونها

الرواسب الفنية

يعيش المصريون في دورات زراعية يشترك فيها النيل والفلاح والحيوان والطير ، كل يقوم بدوره حتى وبهذا تكاد تكون وحدة ... موسم الزرع في هذا الوادي الخصيب ، ومن هذا النظام الطبيعي وما ينجلي عنه من تعاون من بذر وسقي وحصاد ، تكوّن لدى الفلاح أساس ثابت متين .

ثم مرت على المصريين ديانات تباينت في مظهرها وتشابكت في أصولها ، كما تعاقب عليهم ألوان من الحياة الاجتماعية اختلفت في نشأتها واتحدت أغراضها ، فترسب منها فوق هذا الأساس المتين رواسب نفسية سليمة عملت عملها في تكوين نفس المصري الروحي والفني

هذه الرواسب التي يحملها المصري رواسب قديمة عميقة في القدم تميزه عن غيره من الناس في هذا العالم ، وهذه التراث غير منظور

أما تراثه القديم المنظور ، فقد أماط العلماء اللثام عن بعضه ، ولا يزال الكثير منه خافيا أو مختفيا سيظهره ... يوما ، ويتداوله العلماء بالفحص والتمحيص

أما التراث غير المنظور فلا يمكن لغير المصري الكشف عنه ، فهو من صميم حياته الداخلية بما فيها من رواسب نفسية وقدرة انفعالية لا مرد لها كافة ، ولا تتحكم فيها الأوضاع العرفية المتداولة بين مختلف الشعوب فهي سلسلة متصلة من الرواسب غير مضطربة أو متقطعة أو منقطعة الاتصال ، وهي وحدة متماسكة الحلقات والمصري وحده هو القادر على التفاعل مع هذه الرواسب يتناولها عن طريق الوعي والرغبة ، وعدم التكلف لم عن طريق الحب والتقدير وهي السبيل للوصول الى أعماق نفسه يستخرج منها لآلئ كامنة ... في نفسه .

... الأستاذ حبيب جورجي ... بهذه الاتجاهات تجارب للكشف عن كنه

الرواسب في الأطفال الذين لم تفسد نفوسهم بعد، وتعود الى تعرض أنفسهم وعدم تحكم فيهم نظم التعليم والتوجيه [illegible] الحياة الراقية وتعاليمه من الصنعة والتكلف فأصبحت نفوسهم تراث مصري صميم؛ أدهش العالم وحير النقاد لما وجدوا فيه من أوجه شبه واضحة مع أسلافهم منذ آلاف السنين »

يقول مدير مصلحة الآثار حين شاهد الانتاج الفني لهؤلاء الأطفال.

« من الواضح أن الفن الذي كان الاعجاب به شديداً في مصر القديمة هو وليد التربة أو هو نتيجة لحساسية ترعرعت ينقش ملاعب النور الخلاب وسط الآفاق اللانهائية، حيث الجسد المتناهي يتبع سير العصب الوثير، وحيث يتآلف هذا المجموع وينتهي الى ادراك الأبدية. ولقد استوحى الفنان المصري كل أشكاله من هذه الروح وهذا ما يضفي عليه في مجموعه وفي الأخص في تماسكه الداخلي تلك الصفة التي تكاد تعلو على الانسانية حتى لكأنها تشارك في اللانهائية والتي لا يمكن أن نجد لها مثيلا في أي مكان آخر في العالم. وكان الأستاذ حبيب جورجي يرغب في أن يتبين صلة الفن في مصر بالتقاليد الفرعونية التي [illegible] المدنية اليونانية منذ أجيال؛ فعاد [illegible] يجعل التربة تتكلم من جديد وأحضر بعض المراهقين من الطبقة التعسة التي هي من

من الطبقات المصرية [illegible] فيه، ولكنها تعتمد [illegible] على علم الرسم وعلى الطرق المدرسية [illegible] كاملة أصيلا [illegible] كل [illegible] وعلى فطرته

وتطلب هذا العمل صبراً ومثابرة من الأستاذ حبيب جورجي؛ فكان عليه أن يوجه تلاميذه الذين اختارهم في عناية فائقة نحو ادراك الأبعاد وهم يشكلون الطين، وأن يرشدهم في اختيار مصادر وحيهم وفي توضيح طرق التعبير عندهم، وذلك من غير أن يؤثر فيهم أو أن يجعلهم يشردون. كذلك كان عليه أن يدربهم على نحت الحجر؛ وكان هذا العمل أقل مشقة من الأول

وقد ظهرت النتائج، وفي وسع كل انسان أن يحكم عليها [illegible] ان القالب الذي صيغت فيه هو قالب مصر الخالدة؛ وهذا هو الطبيعي في الأمر؛ لأن الغرض الذي يهدف اليه ليس أن يحيي الرسم بل غرضه أن يوقظ روح وبعث التقاليد في التعبير

والشيء الذي أدهشني شخصياً في هذه المدرسة الناشئة هو أن روحها تعيد روح مصر القديمة في تماسكها وفي توزيع أجزائها ولو أن مثالا من مصوري الفرعونية [illegible] من الحياة في مصر الحديثة لما [illegible] على غير هذه الصورة [illegible] ونستطيع أن نتساءل الى أي مدى والى أية حدود في التعبير نستطيع هذه

بعد سنة من تبعه ، كما نستطيع نستخلص عدد من المصادر الدينية [illegible] في التجربة [illegible] عن النيل

ونستطيع الآن أن نؤكد أن العبودية [illegible] وأن هذه الحالة [illegible] لا تعني [illegible] حالة مصر الفرعونية .

الموسيقى والألحان

لدى الصور المنقوشة على جدران المعابد والآلات الموسيقية التي عثر عليها في مصر على أن الشعب المصري منذ عرفناه في التاريخ مولع بطبعه بالغناء والموسيقى ويستخدمهما في المناسبات المختلفة في حياته الاجتماعية وفي الاحتفالات العديدة في حياته الدينية .

ولما انتشرت المسيحية في البلاد المختلفة وتكونت كنائسها ، نشأت معها في كل قطر موسيقى كنسية تتفق مع الروح الفنية الموسيقية لكل شعب . وتشكل الشعب موسيقاه بما يتفق مع ذوقه مستمدة ذلك من تقاليده .

وقد ذكر الفيلسوف الاسكندري فيلو الذي عاش في القرن الأول للميلاد أن الجماعة الأولى من المسيحيين المصريين اقتبست ألحانا لعبادتها الجديدة من الأنغام المصرية القديمة . وهذا يوضح لنا كيف انبثقت موسيقى الكنيسة المصرية من الفن الموسيقي المصري ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الألحان التي ما زالت في الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت منذ عهد بعيد كاللحن السنجاري نسبة إلى بلدة سنجار ، التي تقع شمالي مديرية الغربية ، وعرفت منذ أيام رمسيس الثاني وكانت تحيط بها الأديرة في العصر القبطي وكذلك الأتريبي نسبة إلى أتريب القديمة بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة أخميم .

والكنيسة القبطية من أغنى كنائس العالم — إن لم تكن أغناها — في تراثها الموسيقي والموسيقى جزء لا يتجزأ من طقوس عبادتها لشرحها وطقوسها الجميلة . وهذه الطقوس كما نعرفها الآن قد وصلت كاملة منذ القرن الخامس للميلاد ، ولا تشوبها موسيقى بيزنطية أو لاتينية أو فارسية أو غير ذلك من أنواع الموسيقى المعروفة شرقية أو غربية .

والموسيقى الكنسية — كما وصلت — صوتية بحتة لا تستخدم الآلات الموسيقية في أدائها . وقد تناقلتها الأجيال بالتواتر شفاها . ودونت موسيقى الكنيسة القبطية على [illegible] موسيقية عصرية وتقع في عدة مجلدات لم تنشر بعد . وكذلك سجلت جميع الألحان على أشرطة صوتية في موضع دون تمكين أن تدخل بين بعضها وبعض الأغاني

الشعبية القديمة المستعملة الآن في مصر ... وحده ... مجهولة .

والألحان تتفاوت طولاً وقصراً ، ويبلغ بعضها خمس عشرة دقيقة ، وبعضها ... على كلمة واحدة أو بضع كلمات . ويستدل رغم من ذلك بالموسيقى القبطية بسيطة معقدة وتتكون من صوت واحد أي لا يتعدد نغماتها في وقت واحد ، ولها من بساطتها قوة تأثير على العاطفة مهما اختلفت الأدوار ، وهي ألحان مميزة ... النغمة الحزين ونغمة الفرح . قال أحد علماء الموسيقى عند سماع الألحان الجنائزية بأن أنغامها عميقة في القدم ... على ... ... أما ألحان الفرح ففيها ... الأسلوب ... ... أسمى » .

هذا الفن القديم تركته الكنيسة القبطية وحافظت عليه ، ... في دراسته العلمية ... يعود ... إلى أصوله المصرية القديمة . فإن موسيقى الكنيسة القبطية أقدم مدرسة موسيقية معروفة في العالم

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية

(أ) مركز المرأة في الحياة المصرية (ب) الأسرة

(جـ) العادات (د) التشريع

(هـ) الرهبنة نشأتها في مصر، أطوارها، آثارها الحربية والاجتماعية وانتشارها في العالم المسيحي

(أ) مركز المرأة في الحياة المصرية

كانت المرأة في مصر منذ أقدم العصور — مصدر الوحي وبعث الجهاد الروحي حتى لقد جعلوا الآلهة منهن رمز العدالة والبر والحق. وقد سجل لنا التاريخ أسماء الآلهات والملكات والكاهنات، ولكن المنزلة الروحية التي امتازت بها المرأة في مصر لا ترتكز على هؤلاء وحدهن — إذ هن قلة أقلية — بل ترتكز فوق ذلك على أن المرأة كانت مسئولة عن أولادها أمام معلميهم، كما كانت مسئولة عن زوجها في شيخوختها فهي لم تكن مصدر الوحي فقط بل كانت حاملة الشعلة أيضا.

وأعطى المصريون مسيحية هذه المرأة مصدر الوحي وقلب حاملة الشعلة، فعملت روحها نعمتها على السمو بأخلاقها وفضائلها حتى صارت نموذجا للوثنيين وقدوة مشجعة جذبت هؤلاء الوثنيين إلى دين المسيح بطريقة عملية، لأنها كرست حياتها متممة في خشوع، وواضعة نصب عينيها كلمة بولس الرسول «ألستم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم». ومن ثم عاشت باستقامة وطهارة فاكتسبت احترام جميع الناس. وكانت التعاليم التي تسلمها التلاميذ من السيد المسيح عن كرامة الشخصية الإنسانية تتردد على مسامع الشعب كل يوم. ولقد كان كليمنضس الإسكندري ممن عظموا الزواج المسيحي في محاضراته بمدرسة الإسكندرية وكان مبلغ سمو كرامة هذا الزواج الذي جعلت منه الكنيسة سرا مقدسا ورباطا روحيا مقدسا الكنيسة بمقتضى ما قاله من سلطان

معجزة من الرسل أنفسهم ، ومن أن السيد المسيح بارك العرس في قانا الجليل . وكان الوثنيون يحتقرون الطهر والعفاف ويسخرون ممن هم عنه من عباد . ومن العجب أن هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يحضرون الى محاضرات اكليمنضس ويسمعون من معلمي الكنيسة عن الواجبات النبيلة المفروضة على الزوج وزوجته وعن قدسية الزواج — كانوا يشعرون بالتباه تام لأنه كان لا يزال بهم حتى يصعد بنفوسهم الى ذروة الحكمة التي تطلبها . فاذا ما قارن المستمعون الى محاضرات اكليمنضس بين تعاليمه وبين الحياة التي يحياها المسيحيون وجدوها صورة صادقة للايمان بقدسية الزواج . لأن الزوجة المسيحية كانت مثالا حيا للكرامة الانسانية التي ترتفع عن سرور الحياة الرديئة . وحين أبصر الوثنيون هذا التقديس للزواج وهذا التمسك بالعفاف تحولوا تدريجا نحو هذا الدين الذي ارتفع بالصلة الزوجية الى مرتبة الروحيات

ومع أن التاريخ يذكر سير نساء اللواتي نلن مكانة روحية سامية الا أن هناك آلافا من الجنديات المجهولات اللواتي عرفن معنى الفضائل المسيحية وعشن بموجبها ، ومن أرق الأمثلة عن هاته النسوة المجهولات قصة زوجة الأنبا مكاري الكبير نفسه ، فانه على الرغم من حياة النسك والرهبنة التي كان يحياها — كان يؤمن بأن كل من يعمل إرادة الله ينال رضاه . فقد جاء ذات يوم أن يعرف درجة القداسة التي وصل اليها فرأى في رؤى الليل ملاكا يقول له بأنه لم يصل بعد الى مرتبة سيدتين في بلدة معينة . فلما أصبح الصباح ترك صومعته قاصدا البلدة التي أشار اليها الملاك . ولما وصل الى بيت السيدتين استقبلتاه بالتكريم والاجلال ثم سألهما عن كيفية معيشتهما ليعرف السبب في ما نالتا من تقدير فأخبرتاه بأنهما يسكنان معا لأنهما متزوجتان من أخوين وأنهما تعاهدتا منذ اليوم الاول على أن لا تتفوه احداهما بكلمة تجرح الأخرى واذا أحست واحدة منهما بأنها أساءت بكلمة الى الاخرى اعتذرت لها في الحال دون أن تدع الشمس تغيب قبل أن تكون قد استسمحت من أساءت اليها وصفت الحساب مع ضميرها . وحين سمع الأنبا مكاري هذا الكلام منهما قال « حقا انه لا فرق بين الراهب والمتزوج وبين الناسك والرجل الذي يعيش في العالم . لقد وهب الله تعالى نعمة الحياة للجميع ولم يطالبهم الا بصدق نواياهم »

ولقد أدركت المرأة المصرية القبطية الأمومة كما أدركت قدسية الزواج تماما فلم يعد للأم المسيحية شاغل الا عنايتها بأولادها والسهر على تربيتهم تربية تتفق والكتاب المقدس وقد دفعها هذا الادراك الى التفاني والمحبة . ولم تكن أمومتها مقصورة على أولادها الذين ولدتهم فقط بل

بعض ... الأولاد يحتاجون الى العناية ... ولهذا ... أوريجانوس في الاضطهادات ... آثارها ... في ... الثاني المسيحية . وكان أوريجانوس لا يزال ... مع كونه أكبر اخوته ... ولم يكتف الامبراطور الروماني الظالم بأنه أفقد هؤلاء الأولاد أباهم وحرمهم من مصادر أموالهم أيضا . فاعتنت بهم سيدة غنية من سيدات الاسكندرية لم يذكر التاريخ اسمها ، وصرفت على تربية هؤلاء الأطفال . وبذلك هيأت الفرصة لأوريجانوس ليكون من أبرز معلمي الدين ... الكنيسة المصرية ومن أعلام الفكر المصري الناضج .

ولقد كان من أثر تمسك امرأة بكرامتها وعقلها بطهرها وادراكها الصحيح مسئولياتها أن ولى بها ... لكنيسة ومصرها . فنجد أن أوريجانوس ناظر مدرسة الاسكندرية حين سجل الكتاب المقدس في لهجات مختلفة استخدم ... شبابا يجيدون الخط كي يكتبوا هذا الكتاب في صيغته النهائية بعد التنقيح والتعديل . ولما بدأت الاضطهادات المروعة التي شنها أباطرة الرومان على المصريين كانت امرأة قوية راسخة شجعت من عزيمة الرجال اذ كانت تقف الى جانبهم وهم يستعدون ... الذي ينتظرهم على ... فلا يخافون من ... وبعد ذلك ... من ... في ...

وكان يحدث أحيانا أن يجبن الرجل ويكون ... امرأة ... في أن ... شجاعته ... ومن ذلك ... الهامة التي كانت ... مرقس والي ... وكانت ... الله أن ... فهم ... ينأى عن العالم ... الى ربها وتقضي عمرها في الزهد والتقشف ، وفي ... والصلاة ؛ وفي التأمل والعبادة . فأجابها أبوها الى رغبتها وبنى لها قصرا في المنطقة المعروفة الآن بالبراري بالقرب من بلقاس ، حيث عاشت فيه في أمن وسلام مع أربعين عذراء يحيين العفة والطاعة مثلها . وعشن جميعا في هدوء وطمأنينة . الا أن ديوقلديانوس الامبراطور الروماني المشؤوم أثارها حربا شعواء على المسيحيين فعرضهم ... للتعذيب والتنكيل . وحين أعد هذا الامبراطور الطاغية اضطهاده طلب من الولاة والحكام أن يذهبوا معه الى الهيكل ويقدموا القرابين لآلهته . فجبن مرقس أبو ... وخشي على مركزه وجاهه ، وذهب ... الامبراطور كما طلب .

فلما سمعت ... بما كان من خوف أبيها ذهبت لملاقاته وأعربت له عن حزنها العميق لما أبداه من خوف وتراجع . فلم ... مرقس ... كلمات ابنته الا أن يعود الى الامبراطور ويعترف ... أمامه ... من ... لآلهته ... له أنه مسيحي . فأمر الامبراطور بقطع رأسه بالسيف . ثم أرسل

حتى الى حيث تعيش دميانة ومعها الأربعون
عذراء ، فشكلوا جيش سكانه وتحمست دميانة
وصديقاتها كل صنوف العذاب بصبر عجيب
وكان أهل القرية قد خرجوا جميعاً يشاهدون
ما سيفعله الجند بالعذارى فصاحوا أو تذمروا
ومجاهرين أعلنوا مسيحيتهم فأمر القائد
الروماني بقتلهم جميعاً كما أمر بقتل سيدة
دميانة والعذارى الأربعين . وهكذا كانت
بسالة السيدة دميانة سبباً في اذكاء نار الحمية
والإيمان الثابت في قلوب هؤلاء جميعاً

ثم ذهبت الاضطهادات وحل الأمن والطمأنينة فعادت المرأة الى مزاولة أعمالها العادية فالزوجة انصرفت الى بيتها ، والأم عادت الى تربية أولادها والى جانب الزوجة والأم كانت ترهب من وهبت حياتها لخدمة الله والنفس واختارت أن تكون راهبة أو شماسة أو كليهما في آن واحد ،

ولم تكن حياة الشماسة منصبة على عبادة وتأمل فقط بل شملت العمل الروحي والعقلي والخدمة الاجتماعية أيضاً

أما درجة الشماسية فكانت تستدعي ممن ينالها أن تفتقد المرضى والمسجونين والفقراء والمعوزين ، كما كان عليها أن تزور العائلات وتقدم تقريراً عن أعمالها للكاهن أولاً بأول فكانت الشماسة بمثابة عين الكنيسة ترعى بها رعيتها كراعي سكانه وتبذل جهدها فتسعى لتخفيف آلامهم وعلى افتقاد العائلات التي تعولهم وتحرص على ارسال صغارهم الى الكنيسة كي ينالوا حظهم من الرعاية الروحية

لقد كان للشماس (أو الشماسة) موصف بأنه عين الأسقف وأذناه ولسانه عنه

وأعظم مثل نعرفه للخدمات لهذه الشماسة التي لم يذكر التاريخ اسمها والتي خدمت عصرها اثناسيوس الرسولي (البطريرك الاسكندري المشرد) ذلك أن الأريوسيين كانوا يطاردونه بغية قتله فهجموا ذات ليلة على الكنيسة التي كان يصلي فيها ووقف الشعب تلك الليلة في وجه الأريوسيين ثم حمله بعض الرهبان خارج الكنيسة فلما وجد نفسه حراً طليقاً أخذ يمشي في شوارع المدينة وهو يفكر وكان ظلام الليل ستاراً يحجبه عن أعين مطارديه ، وبينما هو يفكر ويصلي ألهمه روح الله أن يلجأ الى بيت شماسة لم تتجاوز العشرين من عمرها ولما قرع الباب فتحته بنفسها فرحبت به ترحيباً عظيماً حين رأته ، ومكث القديس العظيم في بيتها حوالي ست سنوات خدمته خلالها بأمانة لا تعرف الكلل فكانت تأتي له بالمخطوطات من الكنيسة ، وتحمل الى الشعب رسائله النصيحة وكتاباته التي كان يكتبها في مختلف المناسبات ضد آثار دعته أصحابه وأعدائه معاً

فالمسيحيون كانوا يتلقون تلك الرسائل بلهفة وشغف وهم يتساءلون في شيء من الغموض أين يكون البابا العظيم ؟ أما خصومه فكانوا أشد حيرة وغيظاً لعجزهم عن معرفة مقره المختفي فيه ، وضاعت جهود الأساقفة والأعداء في البحث عنه على مدى الأعوام الطوال

مسيحى كشماس الأنبا بولس . وكان المؤسس مجتمعين ساعة فى الكنيسة يصلون . لقد أثار سخط الرهبان ، واتفق بعضهم أن يتحداه فلما خرج لا يوجد لى ما أقوله إن كان محبيناً ما جاءوا لا بد أحببتم عند جدكم فلا يسألكم مكانكم عن مكانى فلتكونوا حرب عن حياتى ، بل لقد احتفظت عند ذلك التى هى دون الشبهات مع كونها نسبة جديدة لكنت بذلك حياتى وحياتكم ».

هذا المثل برغم بعض مستوى فى خدمات الشباب ومدى جهودهم الدينية والاجتماعية ، وإلى جانبهم وقف الرهبان حول كرسى حياتهم بخدمة والعبادة فى كفاح عجيب . ومن الأمثلة الدينية ، الخدمة الراهبات الروحية والاجتماعية مع ذلك المثل الذى ... « يباهون » حين نشب نزاع بين أهل قريتين بسبب مياه النيل — إذ كان أهالى كل قرية يريدون رى أراضيهم قبل الآخرين .

وثمة خدمة أخرى لها قيمة كبيرة كانت براد تؤديها هذه الخدمة هى التطبيب فقد كانت بعض النسوة تعرفن ما لعصير الأعشاب من فوائد صحية ولركيب ... العقاقير وصنعها بمرضى . وكانت هذه الخدمة تؤدى مجانا فى معظم الأحيان ولا تزال فى بعض بلاد الصعيد سيدات يؤدينها . وهؤلاء سيدات لم يذهبن الى مدارس ولم يتلقين العلم على أساتذة ، ومن معروف أن مثل هذه المعرفة جاءتهن بالتسليم — أى أن المرأة التى لديها هذه المعرفة كانت تختار من تتوسم فيها رغبة وقدرة على تأدية رسالة التطبيب فتسلمها معرفتها بالممارسة . ولما كانت هاته النسوة يعشن فى بيئة صالحة ، يندر فيها من جرفه التيارات والكتابة كما يندر أن يوجد فيها من يهمه أن يكلف سمعة امرأة العاملة فانه لا توجد أدلة مسطورة ، ولكن الأدلة قائمة على تلك الحياة نفسها وعلى التقليد الذى سارت عليه مصر منذ أقدم العصور .

(ب) الأسرة

اهتمت المسيحية بحياة الأسرة كأساس لبناء مجتمع سليم ، فبمجرد دخول المسيحية الى مصر اهتمت بأن تدخل تعاليمها ومبادئها الى الأسرة لتمنحها وحدتها فتساعدها على تمتعها بجو من الاستقرار والأمن .

ورابطة الزواج المسيحى تعتبر ركناً هاماً من أركان الكنيسة بل واحدة من أسرارها السبعة (التى هى المعمودية — التثبيت — التناول — الاعتراف — الزيجة — مسحة المرضى — الكهنوت) (والسر الكنسى هو عمل مقدس به ينال المؤمن نعمة غير منظورة تحت علامة منظورة) .

لذلك فرابطة الزواج تحتاج الى نعمة الله لربط الزوجين برباط روحى متين يستمر

مدى الحياة ولا تفصمه الا الموت ، والخيانة الزوجية (الزنا) ، فالمطلق بعد ذلك لا يستطيع أن يتزوج بطقوس هذا السر كاهن مرة أخرى ، وبالتالي لا يستطيع أحد أن يفصم عقده أو يحله إلا الكاهن في حدود الحالة الآنفة الذكر فقط.

وبما أن الزواج في المسيحية رابطة روحية تجعل من الاثنين واحداً ، لذلك فلا يمكن أن يدخل ضمن هذه الرابطة أكثر من زوج واحد وزوجة واحدة.

ومن الكاهن بصفته أبا روحيا أن يتأكد من توافر شروط الزواج والخلو من موانعه وأن يتأكد من الرضا الشخصي لكل من الخطيبين ، فيسأل كلا منهما رأيه على انفراد بعيدا عن مؤثرات أو ضغط العائلة ، حتى يضمن نجاح الزواج وسعادة الزوجين واستقرار العائلة.

ويسمي الأقباط عند اتمام طقس الزواج بالاكليل — لأن الكاهن يتوج رأس العروسين أثناء الصلاة بأكاليل ، دلالة على النعمة المقدسة التي توجت حياتهما برباط الزيجة. ولعبر حفلات الزواج فرصة مواتية تعبر فيها العائلة عن مشاعر الفرح والابتهاج بمظاهر مختلفة. كان من أولها تقديم الشكر لله بمحاولة اشراك الفقراء والجيران من أهل المنطقة المجاورة في مشاعر الفرح وذلك بتوزيع الكعك وما شابه من مأكل وحلوى عليهم.

وتستمر احتفالاتها عدة أيام. الليلة السابقة على العرس وتسمى « ليلة الحناء » ويقوم ويجتمع في بيت العروس المدعوات والمهنئات بتسريح العروس وأهل البيت أكفهم وأرجلهم بالصبغة الحمراء التي تركها الحناء أو الحنة على الجلد. ثم ليلة العرس في بيت العريس — والصباحية حيث يستقبل الزوجان هدايا العائلة والأصدقاء وما يسمى بالنقوط (أي الهدية النقدية) وكانت فكرتها أصلا كمشاركة عملية في مصاريف العرس وأحيانا تستمر هذه الحفلات الى نهاية الأسبوع وتختتم بليلة الأسبوع.

ولما كانت الأطعمة التي تقدم في ولائم العرس من الأطعمة الفاخرة الدسمة فقد منعت الكنيسة اقامة « الاكليل » في أيام الأصوام ، حيث يمتنع تناول الأطعمة الحيوانية والدسمة ، وحيث يمتنع الأزواج عن المعاشرة الزوجية للتفرغ للصوم والصلاة.

وحينما يولد للعائلة طفل ، يكون أول احتفال عائلي به في اليوم السابع ، فتحضر العائلة الكاهن ليبارك الوليد ، ويرفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة ، وتسمى « صلاة الطشت » نظرا لاستخدام الطشت في غسل الطفل في ذلك اليوم. وخلال هذه الطقوس يشترك الكاهن مع الوالدين في اختيار اسم للطفل للوليد — يختارونه غالبا من أسماء القديسين والشهداء المشهورين ، تيمنا بهم. ولهم في ذلك طرق مختلفة ، فالبعض

تحت اسم المعمد يدعى ولد الطفل في يوم عيده و ذكرى استشهاده . والبعض يختار أسماء قديسين مختلفين ويطلق أسماءهم على سبع شمعات ، والشمعة التي تستمر مضيئة الى آخر الحفل تطلق الاسم الذي تحمله على الوليد. وأحيانا يكون الاسم قد أعد من قبل بأن نذر أحد الوالدين تسمية الوليد باسم القديس الذي استشفع به في وقت شدته .

وكان حب الأقباط للقديسين والشهداء يدفعهم لاطلاق أسمائهم على أبنائهم سواء كان اسم القديس من أصل مصري أو يوناني أو سرياني . الأمر الذي حفظ على البعض فجعلهم يتشككون في مصرية حاملي هذه الأسماء . هكذا ينسبون مشاهير العلماء والقديسين المصريين الى اليونان بمجرد أن الاسم أصله يوناني .

وكان في كل بيت قبطي « مقصورة » (ومعناها مكان مقصور أو مخصص للصلاة) به أيقونة (أي صورة) لقديس أو أكثر وتوضع في ركن خاص بالبيت كمكان مخصص للصلاة والعبادة . وأحيانا يضيئون أمام الأيقونة قنديلا من الزيت أو بعض الشموع تكريما للقديس الذي كانت حياته الفضيلة والمحبة التي عاشها نورا وهداية للمسيح . وأمام هذه المقصورة اعتادت العائلة المسيحية أن تجتمع لتصلي الصلاة العائلية في الصباح وعند الغروب . وتحتفل العائلة بالعيد السنوي لهذا القديس بتوزيع الصدقات وعمل وليمة تشمل أصدقاء وجيرانهم .

وحينما يكمل للوليد أربعون يوما تحمله أمه الى الكنيسة حيث يعين له الكنيسة عرابا أي (اشبينا) ومهمته أن ينوب عن الكنيسة في رعاية الطفل روحيا الى أن يصل الى سن الدراسة فيلتحق بمدرسة الكنيسة .

وهذا الارتباط القوي بين البيت القبطي والكنيسة كان يأخذ مظاهر متعددة أخرى تترك في حياة أولاد العائلة طبعات دينية عميقة . فكلما بنت العائلة بيتا جديدا أو نقلت مسكنها الى دار أخرى دعت الكاهن ليبارك المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة يقوم الكاهن في آخرها برش الماء المقدس في أرجاء البيت مستجلبا للخير وطردا للشر . ومن الواجبات الرعوية على الكاهن أن يزور بيوت رعيته من حين لآخر واعظا ومرشدا ، كما عليه أن يزور البيت كلما مرض أحد أعضائه فيصلي صلاة مسحة المرضى (القنديل) ويدهن المريض بالزيت المقدس .

ومن عادات العائلة القديمة في الصعيد الأسماء التي يسمونها « نذور » وتشير بهذه التسمية . فاذا كان على عائلة نذر ما لأحد القديسين ، أو مناسبة فرح وشكر لشفاء مريض أو نجاة شخص في تجارته أو عمله أو الخروج من ضيقة أو شر محدق جمعت العائلة بدعوة الجيران والأقارب

والقمراء ومرتلي الألحان الكنسية الى سهرة يحتفلون فيها في حلقة يتوسطها من حضر سيرة (مبحر) أحد القديسين. وكلما وصلوا الى فصل جديد في السيرة أو نقطة معينة، يتوقفون عن القراءة ويأخذون في ترتيل المديح الشعبية في تهليل وبهجة. ويتبارى مرتلو الألحان في ارتجال مقطوعات شعرية يسمونها «الأرباع» (أي أربعة أبيات) وتدور معاني هذه القصائد حول المناسبة التي يحتفلون بها. وتدخل فيها ألفاظ أو أبيات باللغة القبطية لأن القصائد كانت تلقى قديما باللغة القبطية. ويدخل فيها أيضا تفسير للكتاب المقدس وحض على الفضيلة وكلما أعجب الحاضرون بقطعة يجزلون العطاء (النقوط) على المرتل (وهو غالبا ضرير) وهكذا يقضون سهرتهم طوال الليل في ذكر الله ورجاله الأتقياء. وهذه الاجتماعات تعتبر في نفس الوقت وسيلة من وسائل الترفيه الشعبي الروحي

المآتم

وترتبط عادات الحزن والمآتم في العائلات بمظاهر دينية أيضا، اذ تشيع الجثة الى الكنيسة حيث تقام صلوات جنازية استمطارا لرحمة الله على ما قد يكون المتوفى قد فعله من هفوات أو سهوات أو أخطاء غير مقصودة وفيها أيضا تلقى التعزية السماوية لأهل الميت. وتقام صلاة خاصة في بيت الميت في اليوم الثالث للوفاة. ولهذه الصلاة أثر كبير في تخفيف وطأة الحزن على أقاربه ويسميها العامة «رفع الحصير» أي نهاية فترة الحزن الشديد التي فيها يجلس أهل الميت والمعزون على الحصير أرضا بدلا من الجلوس على الأرائك أو المقاعد.

وبعد ذلك تقام القداسات في الكنيسة استمطارا لرحمة الله في أيام السابع والخامس عشر والاربعين. وتعتبر هذه فرصة مناسبة للتعبير السليم عن مشاعر الحزن، اذ ما اقترنت بالتأثير الديني الذي يبعث دائما على حفظ اتزان المشاعر، فلا يكون فيها افراط مشابه لمظاهر الحزن عند الوثنيين. كما لا يكون فيها كبت، كما يحدث لدى الذين يفهمون أن التدين يتعارض مع مظاهر التعبير عن مشاعر الحزن. فقد أثبتت أبحاث علم النفس التطبيقي أن كبت مظاهر الحزن المصحوب بمظهر التدين، قد أدى في كثير من الحالات الى أمراض جسمية ونفسية تظهر آثارها بعد فترة من الزمن.

ولكن للأسف اقترنت أحيانا أيام الحزن عند النساء في الصعيد ببعض العادات الوثنية من لطم مستمر، وشق الملابس، وحل الشعر، وصبغ الوجه بالنيلة، والقرع على الصدر بشدة، وكتم زمام النفس حتى تتم الشكوى أحيانا باهتزازات موقعة تتمشى مع أنغام التعديد الذي كثيرا ما يجري بقرع الرق أو الطبل. وتختلف أقاليم الصعيد في طريقة «التعديد»

وهي في اعياد محددة مثل عيد القيامة ، ومقدار ما تتم تزينها ، الا ان بعضها ... في عبارات الشكر والتمجيد ، وهذه العادات والأدعية ولا تفسيرها المسيحية ، ويباركها رجال الدين في مواعظهم

وعندما يموت فرد من عائلة تسرع العائلات المجاورة الى مشاركتها في التعزية لتخفيف وطأة الحزن ، كما تشترك أيضا في أعباء ضيافة المعزين القادمين من قرى أو بلاد بعيدة ، اذ ترسل كل عائلة (صينية) مأكولات الى بيت المأتم حتى يكون مشغولا فلا يتمكن من اعداد الطعام للمعزين

وعادة زيارة المقابر ... أي الخروج الى المقابر التي تكون عادة خارج القرية أو ... مكان مرتفع ... من العادات القديمة ... وهي من علامات الوفاء وتكريم ذكرى الميت في أيام الأعياد ... فيها أفراد العائلة النجمع ... من بلادهم المتفرقة وتصطحب هذه الزيارة عادات أخرى منها ... ومنها ... توزيع الصدقات والمأكولات على الفقراء ... وترفع الصلوات على ... رحمة الله ... الا أنهم كانوا يحاولون في ذلك فيبيتون في المقابر ويقيمون عدة أيام ويساهمون في مظاهر الحزن المفرط

(ج) العبادات

ويرتبط المصري بالكنيسة ارتباطا وثيقا حتى تأثرت عاداته الشعبية وتقاليد حياته اليومية بالطقوس الدينية تأثرا كبيرا ظهرت آثارها في أفراحه وأتراحه ، واحتفالاته وأعياده ولا غرابة في ذلك فان للكنيسة معنى اجتماعيا يشمل حياة الشعب التابع لها

وكلمة كنيسة معناها جماعة ، أي « جماعة المؤمنين » ويطلق الاسم اصطلاحا أيضا على المكان الذي يجتمع فيه المؤمنون مهما كان نوع هذا المكان ففي فجر المسيحية ، قبل أن تبنى الكنائس والكاتدرائيات ، كان يطلق اسم الكنيسة على البيوت التي تجتمع فيها الشعب للعبادة والصلاة

ومن هذا الاسم تبرز للكنيسة وظيفة اجتماعية وروحية ، اذ أن مهمة السمو بروح الانسان تحتاج الى رعاية نفسية واجتماعية بجانب الرعاية الروحية حتى تتكامل الشخصية فلا تنعقد أو تنقسم على ذاتها ... في جسم المجتمع بل تسعى الكنيسة الى تكوين المواطن الصالح

وتسهر على توفير هذه الخدمات الروحية حسب احتياجات الشعب ، رعاة الكنيسة وخدمتها بدرجاتهم المختلفة الشمامسة والقسيسين والأساقفة وهي درجات الكهنوت الأساسية في الكنيسة

والكنيسة ... نظام ... ديمقراطي ، ... فيه الفرص ... وحينئذ

والاجتماعية أمام الفقير والغني ، العاجزين والمنعم ، الصحيح والمتألم ، وأصحاب الشرف والموهوب . فيسعد فيه بحضور تحضير المائدة حتى أنه يعتقد كل هؤلاء خاضعين لمصدر إلهي واحد ، ويعتمدون كلهم على الفضائل في حياتهم اليومية ، حتى لا يصبح الدين مظهراً منفصلاً عن الحياة أو المجتمع ، بل يصير وسيلة فعالة للمشاركة في العطاء للفقير والمحتاج ، والتعاون لخير المجتمع .

وظهرت علامات هذه النظم الاجتماعية للكنيسة في مصر منذ أقدم العصور فضمت مباني الكنيسة بين أسوارها مؤسسات تقوم بالخدمات المختلفة للشعب من روحية وثقافية واجتماعية . ففي كثير من الكنائس ترى بصعيد والوجه البحري ، ما زال يحيط بالكنيسة مبنى « الديوان » أو « الإيوان » وهي المضيفة أو قاعة الاجتماعات التي يجتمع فيها الشعب صباح وعشية بعد صلوات القداس يوم الأحد يتشاورون في شئون مجتمعهم ثم يتناولون معاً ما اعتاد المسيحيون تسميته « الأغابي » وهي كلمة قبطية معناها محبة . وتستخدم اصطلاحاً بمعنى « وليمة المحبة » . إذ بعد أن يشترك الشعب مع الكاهن في تناول الأسرار المقدسة في نهاية القداس يخرجون إلى قاعة الاجتماعات هذه ويتناولون طعامهم معاً على مائدة واحدة . وجرت العادة على أن تتناوب عائلات القرية تقديم الغداء فتحدد لكل عائلة أسبوع معين من العام تقدم فيه الغداء للمصلين ويقوم كبار أعضاء العائلة بأنفسهم على خدمة أفراد الشعب الفقراء والأغنياء على السواء .

ويظهر فيه هذا الجو روح الأخوة والتقريب بين الطبقات بعيداً عن الفوارق الاجتماعية ، بجانب ما تقدمه من ضيافة بإطعام أفراد الشعب الذين يبعد بيوتهم عن مكان الكنيسة .

ولكل عضو في الكنيسة أن يستخدم نفس القاعة الملحقة بالكنيسة لإقامة احتفالاته الخاصة من عرس أو مأتم . فهي تستخدم لاحتياجات الشعب عامة . ويلحق عادة بهذه القاعة عدة غرف للنوم لإضافة الغرباء والفقراء .

وقد اشتهرت الكنيسة القبطية بمدرستها الملحقة بها ، وكانت في القرون الأولى المسيحية تسمى مدرسة الموعوظين لإعداد الراغبين في العماد وتلقينهم أصول الإيمان المسيحي . ثم أخذت فيما بعد شكل « الكتاتيب » وكانت تلقن الأطفال مبادئ القراءة والكتابة والحساب بجانب دراسة الكتاب المقدس واللغة القبطية والألحان الكنسية .

وكان بجوار بعض الكنائس مستشفى لعلاج المرضى كما جاء في سيرة القديس باخوميوس « أب الرهبنة » أنه أنشأ مستشفى في أديرته .

وأهم مظاهر الرعاية النفسية التي

تقدمه الكنيسة لاحتياجات الشعب ، تتجلى في وثائقه منذ الأجيال الأولى كما في بعض مخطوطات القديسة وطب وحابى ... وعلم النفس الحديث وعلم النفس ، صحة نفسية أو طب نفسى ، سواء الوقائي منه أو العلاجي ، معروف أن الفرد يحتاج الى ارشاد وتوجيه وبخاصة خلال الازمات النفسية ، أو عندما تشتد وطأة مشكلات الحياة أو يزداد الشعور بالالم . فأسلم طريق لراحة النفس وسلامة العقل هو الطريق كواس النفس على يد من يستطيع أن يطمئن النفس ويهدىء من روعها ، ويرسم لها طريقا لتجديد الرجاء أو بعثه

وتحتاج النفس البشرية أيضا الى أن تكون على صلة مستمرة بالله تعالى ، لذلك تتيح الكنيسة أبوابها ليشترك الشعب معها في رفع الصلوات لله مرة على الأقل كل أسبوع — يوم الأحد . وقد اعتادت الكنائس القبطية أن ترفع الصلوات في أيام الاصوام أيضا وبخاصة الأربعاء والجمعة من كل أسبوع وكانت الكنائس قديما تقيم القداسات يوميا

وتشتمل صلوات القداس الالهى على طلبات من أجل الظروف المختلفة التي تمر على الفرد في حياته من أجل المرضى والمسافرين ، والراقدين (أى الأموات) وكذلك من أجل سلامة العالم . وتم حفل أن ترفع الصلوات من أجل الحكام والملوك والولاة ... توصية الكتاب المقدس القائلة (فاطلب أول كل شيء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس . لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب لكى نقضى حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار) (اتى ٢ : ١ — ٢) .

وقد كانت مصر بلدا زراعيا فقد اهتمت الكنيسة المصرية بنوع خاص بالصلاة من أجل الزراعة وقد يؤثر عنها من طقس ... ونظمت هذه الصلوات لتتمشى مع المواسم الزراعية

(أ) على فصل البذار (من ١٠ بابة الى ١٠ طوبة — أى من ٢٠ أكتوبر الى ١٨ يناير) تصلى قائلة (تفضل يا رب الزروع وبنات الحقل في هذه السنة باركها)

(ب) وفى شهور الاهوية والحصاد (من ١١ طوبه الى ١١ بؤونة — أى من ١٩ يناير الى ١٨ يونيه) تصلى قائلة (تفضل يا رب أهوية السماء وثمرات الأرض في هذه السنة باركها)

(جـ) وفى شهور فيضان النيل (من ١٢ بؤونه الى ٩ بابة — أى من ١٩ يونيه الى ١٩ أكتوبر) تصلى قائلة (تفضل يا رب مياه النهر في هذه السنة باركها — أصعدها كمقدارها ، فرح وجه الأرض ليرو حرثها ، لتكثر أثمارها . أعدها للزرع والحصاد ، ودبر حياتنا كما يليق . بارك اكليل هذه السنة بصلاحك من أجل فقراء شعبك ، من أجل الأرملة واليتيم والغريب

والصنعة ، ومن أجمل نص الدين ، حوله ويطلب نسمت القـــدوس « لأن أعين الكل تتطلع اليك ، لأنك أنت الذي تعطيهم طعامهم في وقته . تفتح يدك فتشبع كل حي حسب رضاك ، معطف عنايتك بكل حيوان . املأ قلوبنا فرحا وبهجة لكي يكون لنا الكفاف في كل شيء ، ونزداد في كل عمل صالح)

الأصـــوام

القبط شعب يميل الى التصوف والزهد ، فقد اشتهر بكثرة أصوامه . اذ يرى الصوم وسيلة لتدريب الارادة وضبط النفس لكبح الشهوات ، والتقليل من قيمة الرغبات المادية حتى لا تطغى على الميول الروحية للنفس . فالصوم يسمو بالسامي به الى مستوى روحي رفيع .

ويصوم القبط بالامتناع عن تناول الطعام مدة من النهار قد تصل الى الظهر أو العصر أو الغروب حسب مقدرة كل شخص ، يتناول بعدها الصائم أطعمة خالية من الدسم غير حيوانية .

وتطغى روح العبادة على القبط في فترات الصوم ، فيكثرون من الصدقات ، وتتأثر حياة العائلة كلها ، اذ تتغير أساليب حياتهم اليومية ، فتجرى عائلته استعدادات خاصة لاستقبال الصوم ، وحتى الأطفال يشعرون أن ثمت جوا جديدا عمه ارتباطا خاصا بالدين . وعندما كانت مصر كلها مسيحية ، كانت آثار الصوم تنعكس على نشاطها التجارية والاقتصادية أيضا ، فتقل محلات ذبح اللحوم وبيعها ، ويتجه النشاط التجاري نحو البقول والزيت وما شاكلها من سمسم وتقل بهجة الأعراس والولائم ، ويسود مجتمعهم جو من التقشف والعبادة .

وأهم وأقدم أصـــوام القبط هو يوم الأربعاء (تذكار التشاور للقبض عـــلى المسيح) ، والجمعة (تذكار صلبه) من كل أسبوع . والصوم الأربعيني تذكار الأربعين يوما وهي التي صامها المسيح ، ويسمى أيضا « الصوم الكبير » ، وقد بلغت مدته في الوقت الحاضر ٥٥ يوما . والاسبوع الأخير منه يسمى « أســـبوع الآلام » . ولهـذا الاسبوع تقديس عظيم لدى الشعب لعظم الذكرى التي يحملها . فكانت تتعطل فيه الأعمال ويتفرغ الجميع للصلاة في الكنيسة حيث يتلى معظم الكتاب المقدس . وتصلواته لحن حزين . ويطلق الأقباط على كل يوم من أيام هذا الأسبوع اسما يناسب ذكرى خاصة منها « أربعاء أيوب » الذي اعتاد الناس أن يغتسلوا فيه بالعشب المسمى « رعرع أيوب » تذكرا لشفاء أيوب النبي به . وخميس العهد تذكرى غسل المسيح أرجل الحواريين ليعلمهم التواضع ، وفيه بدأ معهم عهد جديد .

وباتت رهبنة وكثرة الرهبان احدى الشعب والرهبان في حفظ أصوام أخرى كصوم الميلاد استعدادا لاستقبال عيد الميلاد وبداية العهد الجديد . ويبدأ يوم ١٦

هاتور (٢٥ نوفمبر) وينتهي بعيد الميلاد يوم ٢٩ كيهك (٧ يناير)، ويبلغ مدته الآن ٤٣ يوما. وخلال صوم الميلاد يحتفل الشعب في كيهك فيجتمعون في الكنيسة، ويرتلون المدائح والتسابيح الخاصة بذكرى الميلاد. وفي ليالي الآحاد من شهر كيهك يسهرون إلى الصباح في ترديد هذه التسابيح. وفي هذه الليالي كانت بعض العائلات تستضيف القادمين من أماكن بعيدة وتقدم لهم العشاء في الحجرات الملحقة بالكنيسة.

وأيضا صوم الرسل، ويبدأ الاثنين التالي لعيد العنصرة وتتراوح مدته بين ١٢ و ٤٩ يوما إذ ينتهي بعيد الرسل في ١٢ يوليو. وكذلك صوم العذراء، ويبدأ في ٧ أغسطس ومدته ١٥ يوما، وصارت له شهرة شعبية عامة. وفي أواخر القرن العاشر بدأ الأقباط يصومون صوم نينوى ومدته ثلاثة أيام تذكارا لنجاة أهل نينوى (مدينة قديمة بالقرب من موصل الحالية بالعراق) عن طريق الصوم.

الإفطار

ينتهي كل صوم من الأصوام القبطية بعيد يحتفل به الأقباط بإقامة القداس في صباح يوم العيد ثم يفطرون بتناول المأكولات الدسمة واللحوم والحلوى، بعد أن يكونوا قد وزعوا منها على الجيران والفقراء. وبعد ذلك يتبادلون التهاني معا في القاعة الملحقة بالكنيسة أو بالتزاور في البيوت. أما في الثلاثة الأعياد الكبرى (الميلاد، الغطاس، القيامة) فيكون الاحتفال بالقداس عشية ليلة العيد. وكان ينتهي بعد منتصف الليل فيكون يوم العيد، وبالأخص في ليلة عيد القيامة حيث اعتاد الشعب قديما أن يخرج من الكنيسة ممسكا بالشموع المضاءة إلى أن يصلوا إلى بيوتهم.

وترتبط بعض الأعياد القبطية بمواسم زراعية خاصة تتدخل في تقاليد الاحتفال بالعيد أنواع خاصة من ثمار الموسم، فيأكلون منها ويوزعونها على الفقراء. ومن العادات التي كانت متبعة في عيد الغطاس (ذكرى عماد المسيح) — ويقع في ١٩ يناير — الاستحمام في النهر أو الترع. وكان يوجد في بعض الكنائس القديمة حوض كبير يسمى المغطس في الجانب الأيمن من الجهة الغربية للكنيسة (وما زال موجودا بعضها مستعمل في كنائس أبو سيفين وأبو سرجة في مصر القديمة) كان يملأ بالماء وينزل فيه الشعب ليلة عيد الغطاس.

ومن الأعياد ذات الأثر الشعبي البهيج «عيد أحد الشعانين» أو «أحد السعف» وهو الأحد السابق لأحد القيامة. وفيه يحتفل الشعب بذكرى دخول المسيح إلى أورشليم راكبا على جحش، وذلك الاستقبال الحماسي الذي رفع الشعب فيه سعف النخل وأغصان الزيتون. وتذكارا لهذه الذكرى يحمل سعف النخل وأغصان

الرسوب الى الكنائس لحضور قداس العيد وعادة نحر القادمين بالسعف كانت معروفة في مصر الفرعونية أيضا

ومن اليومات بمناسبة القيامة يبدأ عيد الربيع الذي يسمى الآن « شم النسيم » وفيه يخرج الشعب الى الحقول والحدائق للفرح بجمال الطبيعة بعد فترة الصيام والنسك الطويلة السابقة. ويسمى كنسيا « اثنين الفصح ». وكانت تستمر أجازة عيد القيامة طوال الأسبوع الأول من الخماسين

وأما ما جاء عيد العنصرة — وهو عيد حلول الروح القدس في نهاية الخماسين — اعتاد القبط توزيع فواكه الموسم الجديدة على الفقراء، وذلك لأن يوم الخمسين هذا كان يقابل قديما عيد الحصاد فيكون لعيد الشكر بتقديم باكورات هذه الخيرات

وبجانب هذه الأعياد الكبرى توجد أعياد كثيرة أخرى، من أهمها عيد زيارة المسيح لأرض مصر مع العائلة المقدسة وهو طفل صغير. وتحتفل به الكنيسة القبطية يوم أول بؤونة من كل عام. وبالأخص في الكنائس التي بنيت على الأماكن الأثرية التي زارها مثل مسطرد حيث البئر، وشجرة العذراء بالمطرية، وكنيسة أبو سرجة بمصر القديمة، وبقسقام حيث يوجد الدير المحرق، وبه سكنت الأسرة مدة مناسبة

ويحتفل القبط بأعياد العذراء ومشاهير القديسين والشهداء والملائكة بنفس نوع خاص من الفطير يوزعونه على الفقراء والجيران. ويرجع فكرة الفطير الى عادة تقديم باكورات محصول القمح كعلامة شكر. وقد كان من عادات القبط ألا يحصدوا المحاصيل الجديدة ولا أكل ثمارها إلا بعد أن يوزعوا منها على الفقراء

الموالد

وكلما اشتهر قديس أو شهيد في منطقة أو مدينة، يتوافد على كنيسة تلك المدينة جموع كثيرة من الشعب للاحتفال بذكراه. وعندما يصل القادمون الى المنطقة بضعة آلاف يضطرون الى إقامة الخيام حول الكنيسة يبيتوا فيها، ويقضوا أيام العيد التي تصل أحيانا الى سبعة أيام

وقد عرفت أعياد القديسين مزدحمة هذه في العصر العربي قياسا باسم موالد. وهو اسم لا ينطبق على الواقع، لأن الاحتفالات كانت تكون بذكرى استشهاد أو موت القديس، وهو اليوم الذي أتم فيه البطل جهاده ولا يهم الكنيسة يوم الولادة فانه يوم لا يعتبر شيئا من البطولة أو الإعجاز

وبدأت مثل هذه الاحتفالات أصلا على أساس تكريم القديس برفع الصلوات وإقامة القداسات وقراءة سيرته بالتفصيل [illegible] الصحيحة ، ثم [illegible] الشعب من [illegible] ، وأدوات للكنيسة في جانب بعض الذبائح لإطعام الفقراء والمحتاجين ولكن لكثرة العدد ومع مصاحبة هذه الألوف

من أماكن للعب ، ومن مأكولات ومحمصات الدائمة وسع لاحتياجات الزوار وسعة خلافه ، مع أن هذه الاحتفالات عن صبغة دينية نسبتها إلى مظاهر عادية تجارية كانت سببا في تسرب كثير من الشرور الاجتماعية إلى تلك « الموالد » مما لم تعرفه الكنيسة ، بدرجة أن الأم ... والقرن الخامس) التي عنيت ... جدا بتلك الشرور قائلا « عجيب جدا أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ليصلي ويصوم ويطلب أن يغفر ويطهر نفسه ويتناول من الأسرار المقدسة في مخافة المسيح ، أما من يذهب ليتكلم ويأكل ويشرب ويلهو ، أو بالحري يزني ويرتكب الجرائم نتيجة للإفراط في الشراب والبغي والفساد والإثم ، فهذا هو الكافر بعينه

وبينما البعض في الداخل يرتلون المزامير ويقرأون ويتناولون الأسرار المقدسة إذ بآخرين في الخارج يملأون المكان بآلات الطبل والزمر — بيتي بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص ... لقد جعلتموه سوقا لبيع العسل والحمص وما أشبه ... لقد جعلتم الموالد فرصة للتدريب بأنفسكم وتسابق حميركم وخيلكم ، جعلتموها أماكن فسيحة لما يعرض فيها للبيع ، فباعة العسل يكادون ... على قليل من الزوار ... حتى ،

أو يستخفي لنفسه شيئا من المائدة ليطعم أحباءه حتى الأشياء التي لا يمكن أن يحصل عليها في الأسواق تعطى لهم في موالد الشهداء

يا للعار ... إن كنتم تذهبون إلى مواطن الشهداء لتأكلوا وتشربوا وتبيعوا وتشتروا كل ما يروق لكم ، فأية فائدة لبيوتكم التي في مدنكم أو قراكم أو بالأحرى لبيوتكم المغلقة ... وإذ كانت بناتكم وأمهاتكم يعطرن رؤوسهن ويكحلن عيونهن ويصبغن خدودهن ... الناس الذين ينظرون إليهن ، وإذ كان أبناؤكم وإخوتكم وأصدقاؤكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم إلى مواطن الشهداء فماذا جعلتم لكم بيوتا ؟

هناك كثيرون يذهبون إلى الموالد لا ليعبدوا في هيكل الرب وليحتموا من ... مسيح أعضاء للإثم والفجور بدلا من أن يحفظوا لها قداستها وطهرها من كل رجس سواء كانوا رجالا أو نساء ، فصدقوني أقول لكم بصراحة تامة إن كثيرين منكم يذهبون لا لشيء إلا ... قائلين ليست لي زوجة أو ليس لي زوج ، فلا تجعلوا زياراتكم لموالد الشهداء فرصة لتسليم أجسادكم في المقابر التي حولها أو المباني القريبة منها أو في كاملها ؟

وضع التقويم القبطي على أساس التقويم المصري القديم. أدرك المصريون القدماء ضرورة استخدام سنة مدنية تحتوي على عدد صحيح من الأيام وتكون أقرب ما تكون إلى السنة الشمسية. وتكونت السنة المصرية من اثني عشر شهراً يتألف كل منها من ثلاثين يوماً، ثم زادوا عليها خمسة أيام في آخر السنة اعتبروها بمثابة الأيام التي ولد فيها المعبودات الخمسة التي تتكون منها مجموعة أوزيريس وهي: أوزيريس، وإيزيس، وست، ونفتيس، وحوريس وجعلوا منها مناسبات لاحتفالات دينية خاصة.

أما الشهور الاثنا عشر فقد وزعت على ثلاثة فصول خص كل فصل منها أربعة شهور. وسموا الفصل الأول فصل « الفيضان » والثاني « بذر الحبوب » والثالث « جني المحصول ».

واعتبر المصريون اليوم الأول من كل عام هو اليوم الذي تظهر فيه بشائر الفيضان وأشهره من يونيه إلى أكتوبر. أما أشهر فصل « بذر الحبوب » فهي من نوفمبر إلى فبراير وهي أشهر الشتاء، وأشهر فصل « جني المحصول » من مارس إلى يونية وتتفق مع فصل الربيع حاليا.

ويدل على مدى اهتمام المصريين بفيضان النيل الذي يعد أساس الحضارة وتجددها كل عام، أنهم أقاموا تقسيم فصولهم على هذه الظاهرة الطبيعية التي تأتيهم كل عام أي حدوث الفيضان.

ثم تحددت السنة المصرية في حسابها على علم الفلك بل وصل إليه المصري على أساس ظهور الفيضان عاماً بعد عام، أي بسنة نيلية، تعتمد على طبيعة الفيضان ووقته لدى الشعب الذي تتصل حياته به اتصالاً وثيقاً. ولم يكن من المهم لديهم أن يأتي الفيضان في نفس اليوم من كل عام، بل يكفيهم أن يعرفوا أن فيضان النيل يأتيهم في نفس الوقت تقريباً.

وليس في الإمكان أن نحدد متى استطاع المصري أن يقيم « حساب السنة المدنية » على هذا الوجه ولكن من المرجح أنه نشأ في فترة من فترات عصور ما قبل التاريخ وربما كان ذلك في أثناء عصر حضارة نقادة الثانية، وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيل بمثابة أول أيام العام الجديد.

ومع مضي على هذا التقويم عدة قرون لاحظ المصريون أن أول أيام العام الجديد أخذ يتأخر عن يوم بدء الفيضان سنة، كما لاحظوا أن أشهر « بذر الحبوب » التي كانت تقع في الشتاء أخذت تقع في فصل الصيف. وقد نشأ هذا العيب من أن السنة المدنية تنقص عن السنة الشمسية ربع يوم تقريبا ووجد المصريون أن هذا الخطأ يصحح من

لتصبح بعد مضي ١٤٦٠ سنة شمسية من الصعب التصحيح ، يعني هذه المدة يجمع الفرق وهو ربع يوم في كل سنة فتصبح ٣٦٥ يوما أي سنة كاملة بعد ١٤٦٠ سنة . وبعدها عاد التوافق بين السنة المدنية والسنة الشمسية.

ولاحظ المصريون أن سنتهم النجمية التي تبدأ من اليوم الذي يأخذ فيه الفيضان في الارتفاع وتنتهي بنفس اليوم من العام التالي ، تتفق بشكل واضح مع الدورة السنوية لنجم كان نجمه يبدو بوضوح بعد اختفاء طويل ، وذلك مع بدء مجيء الفيضان مرة كل عام ، كما لاحظوا أن ظهوره يكون في الفجر مبكرا قبيل شروق الشمس ، ويكون ألمع نجم في السماء ، وفي دوران الأرض حول الشمس تأتي لحظة كل سنة يكون فيها هذا النجم في خط مستقيم مع الأرض والشمس ، وقد أطلق المصريون عليه اسما مؤنثا هو « سبدت » وورد ذكرها في الكتب الدينية القديمة على أنها « تجلب الفيضان » أي التي تجلب فيضانه ، ويتصورون هذا النجم على أنه صورة من صور إيزيس ، وهذا النجم هو الذي نسميه الآن « الشعرى اليمانية ».

ولقد أثبتت الدراسات الفلكية الحالية أن دورة « الشعرى اليمانية » تعادل تقريبا دورة الشمس في عام.

هذا ولم تكن للشهور أسماء عند قدماء المصريين في أول الأمر ، وكانت تنسب للفصول التي تقع فيها فيقال مثلا الشهر الثاني من فصل الفيضان أو الشهر الثالث من فصل « بذر الحبوب » وهكذا.

وبعد الأسرة السادسة والعشرين أي منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريبا ، أطلق المصريون على الشهور أسماء أكبر الأعياد التي اعتادوا إقامتها.

والأسماء كما وصلتنا هي

فصل الفيضان	١	تحوت	Thot
	٢ —	بابه	Paophi
	٣ —	أتير أو هاتحور	Hathor or Athyr
	٤ —	كيهك	Khoiak
فصل بذر الحبوب	١ —	طوبي	Tybi
	٢ —	مشير	Mekhir
	٣ —	برمهات	Phamenoth
	٤ —	برمودة	Pharmuthi
فصل جني المحصول	١ —	بشنس	Pakhons
	٢ —	بؤونة	Payni
	٣ —	أبيب	Epiphi
	٤ —	مسرى	Mesori

النسىء ، وكان يسمى به الأيام الخمسة الزائدة على السنة أو الشهر الصغير وهى خمسة أيام وكل من الأشهر ثلاثون يوما

ان التقويم المصرى القديم هو أول من وضع تقويما ثابتا تحوادث بمقتضاه وهو أول من أنه عاما شمسيا من اثنى عشر شهرا كل شهر منها ثلاثون يوما وأضافوا الشهر الصغير (النسىء) وهو خمسة أيام لكل عام ، كما قسم العام الى فصول

وكان يحتفل المصريون بيوم « طلوع الشعرى اليمانية » ويجعلون منه عيد أول السنة فى جانب احتفالهم العادى بعيد العام الشمسى (٣٦٥ يوما) ، وأطلقوا على هذا العيد اسم « طلوع سبدت » ولاحظ المصريون أن عيد « طلوع سبدت » يتأخر عن عيد غرة العام الشمسى بمعدل يوم كل أربعة أعوام ، كما لاحظوا اتحاد العيدين مرة كل ١٤٦٠ سنة وهى دورة « الشعرى اليمانية »

وذكر الكاتب الرومانى كنسورينوس Censorinus أن الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية حدث فى أول يوم من سنة ١٣٩ بعد الميلاد وعلى هذا أمكن تحديد حدوث ظاهرة الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية فى سنة ١٣٢١ قبل الميلاد وسنة ٢٧٨١ ق م وسنة ٤٢٤١ ق م وهكذا عرف المصريون فى عصر ما قبل الأسرات تقسيم العام الى ٣٦٥ يوما وسجلوا النصوص الدالة على ظاهرة الشروق الاحتراقى للشعرى

السادسة فى عهد ظهور الأسرة الثانية عشرة ، كما سجلت بردية أخرى (اللاهون) هذه الظاهرة فى عصر الدولة الوسطى وتؤكد « ادوارد ماير » أن أول مرة التى بدأ عندها ٢٧٨١ ق م كان التقويم الشمسى معروفا ومستعملا فيها ، فلابد اذن أن يقع بدء استعماله فى أول الفترة السابقة أى سنة ٤٢٤١ ق م

* * *

قيمة التقويم للمصريين :

لا يزال هذا التقويم منذ عصور ممتدة فى القدم دليلا نافعا ودليقا للطقس وللفصول وللزراعة وبيان فى فيضانه وتحاريقه ، ولا يزال المزارعون يراعونه فى كل ما يختص البذر والحصاد كما كان يعمل المصرى القديم منذ آلاف السنين ولا زالت تجرى على الألسنة الأمثال التى تدل على حالة الطقس تقريبا بدقة ، مثل ولقن البوابة ، كيهك صباحك مساك ، طوبة أبو البرد والرطوبة ، أمشير أبو الهوا والزعابير ، برمهات ، اقلع الغيط وهات ... الخ

والتقويم الزراعى فى مصر لا يزال يتبع التقويم المصرى القديم ، وإليك مثال ذلك

شهر توت

يزرع فيه البرسيم والشبث والكرنب مثلا والشعير الشتوى والفول ويظهر البلح الشامى ، ويصبح القصب المص ، وأوان الليمون ، ويصبح الزيتون وحلو السفرجل والتفاح

شهر بابه

تتم الزراعة الشتوية ، ويزرع فيه الأرز والكتان والبصل والثوم بالوجه القبلي والقمح والحلبة والترمس والكمون والسمسم ، ويجني القطن ، ويظهر البلح والبلح البلدي والقرع والقثاء ، ويحصد الفول السوداني ، كما تكثر فيه الأسماك الصعيدية والبحارية .

شهر هاتور :

ينتهي فيه جني القطن ، وينضج الأرز النيلي ، وتقطع الذرة الشامي ، ويظهر فيه البرتقال واليوسفي ، ويزرع العدس والقرع والكوسة والطماطم

شهر كيهك

يزرع فيه المشمش والبرقوق والخوخ شتلا ، والنقات الصيفي والخيار والخضراوات الصيفية ، ويظهر الفول الأخضر ، ويقطع قصب السكر للعصير ، ويكثر القلقاس

شهر طوبة :

تنقل فيه الأشجار الصغيرة ، وتقلم كروم العنب ، وتزرع الذرة الصيفية والجزر ونوى الخوخ

شهر امشير :

يزرع فيه القطن المبكر (بالوجه القبلي) والذرة الرفيعة وقصب السكر ، وتغرس الأشجار ، وتطعم النخل ، ويحصد الكمون ، وتغرس شتل التين والتفاح والبرتقال والمشمش ، ويظهر الخيار

شهر برمهات

يزرع فيه محصول القطن ، ويحصد فيه الفول ، وينضج البسلة البلدي ، والحلبة ، ويقطع العدس الهندي ، ويقلع فيه الكتان ، ويظهر الملوخية ، ويزرع الكمون والعصفر .

شهر برموده

يحصد فيه الفول والعدس والترمس والقمح في بعض جهات بالوجه القبلي ويزرع فيه الفول السوداني ، ويقطف أوائل المشمش ، ويجني الورد لاستخراج مائه ، ويظهر البطيخ الصيفي والتوت ، ويقلع البطاطس الشتوي ، ويزرع فيه الأرز والفلفل شتلا

شهر بشنس :

يظهر فيه المشمش والبرقوق والتفاح ، ويحصد القمح بالوجه البحري ، ويزرع فيه السمسم والقلقاس

شهر بؤونة :

يزرع فيه الأرز والذرة الشامي ، ويقطف عسل النحل ، ويظهر الكانتلوب والقرع والكوسة ، ويظهر العنب والخوخ والكمثرى .

شهر ابيب

يزرع فيه الجرجير والكرفس والبنجر والبقدونس والباذنجان الأسود والفواكه : التوت والجوافة والتين والمانجو ، ويظهر الرمان

ينضج فيه القمح ، ويزرع فيه محصول البرسيم والثوم والبصل والطماطم والقمح الصيفي ، ويكثر فيه العنب والتين ويجمع الزيتون الاخضر .

* * *

الدولة الرومانية والتقويم المصري

اتخذ يوليوس قيصر استخدام التقويم بالسنة القمرية الذي كان سائداً في الدولة الرومانية وأنشأ تقويماً شمسياً استعان فيه بالفلكي المصري سوسيجينس Sosigenes الذي قدر سنة التقويم ٣٦٥ يوماً وربعاً واستخدم طريقة السنة الكبيسة مرة كل أربعة أعوام . وأمر يوليوس قيصر باستخدام هذا التقويم وسمي في سنة ٧٠٨ من تأسيس روما وهي سنة ٤٦ ق . م وسمي هذا التقويم باليولياني نسبة الى يوليوس قيصر . واستمر العمل بهذا التقويم حتى سنة ١٥٨٢ حين لاحظ الفلكيون في عهد البابا جريجوريوس الثالث عشر خطأ في الحساب الشمسي وأن الفرق بين السنة المعمول بها والحساب الحقيقي ١١ دقيقة و ١٤ ثانية وهذا الفرق البسيط يعادل يوما في كل ١٢٨ عاما

وصحح البابا جريجوريوس الخطأ المتراكم فأصبح يوم ٥ أكتوبر من سنة ١٥٨٢ م يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ وهو التقويم المعروف بالجريجوري السائد الآن

* * *

بدأ المصريون يحسبون بدء تاريخهم يوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ ميلادية الذي استشهد فيه الكثير منهم ، وهذا نفس التقويم الذي استخدم في مصر قبل ذلك التاريخ ، وتسمى هذه الحلقة من التقويم المصري بالتقويم القبطي ويطلق عليه تقويم الشهداء وهو يتبع الحساب اليولياني ، ولهذا نجد أن الخطأ المتراكم بين الحساب اليولياني والحساب الجريجوري قد بلغ ١٣ يوما في التقويم القبطي

* * *

مزايا التقويم القبطي

للتقويم القبطي غرضان : غرض يتبع الحساب الشمسي ، وهدفه تحديد الأيام والشهور والأعوام الشمسية الكاملة وتحديدها جميعا بالنسبة لدورة الكرة الأرضية حول الشمس . والغرض الآخر يتبع الحساب القمري ، وهدفه تحديد الدورات القمرية وتحديد موعد ظهور كل هلال جديد

وقد زاد اهتمام مصري بالحساب القمري بعد دخول المسيحية مصر لأن عيد القيامة وبعض الأعياد الأخرى التي تتصل بعيد القيامة تتحدد بالدورة القمرية وتتصل بالدورة الشمسية

* * *

حتى حطوب تقرير تسجيل الحوادث للإنسان الأول عند بزوغ ظهور القمر وأوجهه . وقد قدمت العلوم أدق بحث في الاختلاف بين مدة دورة قمرية وبين أخرى وكذلك في متوسط مدة الدورة القمرية ، والمدة الواقعة بين لحظة ظهور هلال جديد والهلال الجديد الذي يسمى شهر قمريا وقد يتغير طول الشهر القمري حتى يصل الفرق الى ٩ ساعات تقريبا ولكن هناك دورة كاملة بحركة القمر في الفضاء بالنسبة اليه تبلغ مدتها ١٨,٦ سنة شمسية ، كما أن هناك متوسطا عاما لطول الشهر القمري في الدورة الكاملة وهو ٢٩ يوما و ١٢ ساعة و ٤٤ دقيقة وثلاث ثوان ، ويعتبر هذا المتوسط دقيقا ، ويمكن التنبؤ بمقتضاه عن الأهلة الجديدة وأوجه القمر مدة ألف سنة شمسية مثلا دون أن يتجاوز الخطأ يوما كاملا .

ومن هنا نشأت فكرة استخدام طول متوسط الشهر القمري لحساب ظهور القمر الجديد وأوجهه لمئات من السنين ، ويسمى ذلك بحساب الأبقطي (ومعناه الحرف البابلي) لأن هذا الحساب يشمل على حساب الباقي بعد عمليات حسابية متعددة

وقد بني حساب التقويم القبطي القمري على قاعدة وضعها الفلكي ميتون في القرن الخامس قبل الميلاد وهي أن كل ١٩ سنة شمسية تعادل ٢٣٥ شهرا قمريا كاملا بغير كسور .

وقد استخدم الأقباط هذه القاعدة منذ القرن الثالث الميلادي ، وقد وضع من عدها معمولا بها الى الآن البطريرك الاسكندري الأنبا ديمتريوس الكرام وهو البطريرك الثاني عشر وساعده في وضعها الفلكي المصري بطليموس وبهذا يحدد عيد القيامة (الذي يليه شم النسيم) ، بأنه الأحد التالي للقمر الكامل الذي يلي الاعتدال الربيعي مباشرة

ولقد أخذ الغربيون حساب الابقطي وطبقوه على التقويم الروماني اليولياني ، فكانت الأعياد المسيحية عند جميع المسيحيين كما كان يحددها التقويم القبطي حتى سنة ١٥٨٢ حين ضبط الغربيون تقويمهم بالتعديل الجريجوري .

الشهور القبطية

والشهور القبطية كما نعرفها الآن هي

توت (سبتمبر — أكتوبر)

بابة (أكتوبر — نوفمبر)

هاتور (نوفمبر — ديسمبر)

كيهك (ديسمبر — يناير)

طوبه (يناير — فبراير)

أمشير (فبراير — مارس)

برمهات (مارس — أبريل)

برموده (أبريل — مايو)

بشنس (مايو — يونيه)

هوبه : يونيه – يوليو
أبيب : يوليه – أغسطس
مسرى : أغسطس – سبتمبر
النسىء : سبتمبر

التقويم الاثيوبي

ومما هو جدير بالذكر أن التقويم الاثيوبي هو نفس التقويم القبطي فقد أخذ الاثيوبيون تقويمهم عن الأقباط ، ويبدأ شهر سنة السنة القبطية ، ويوافق شهورهم مع شهور القبطية .

ويسمي الاثيوبيون حساب سنتهم بعد الرحمة ، وهو التاريخ الذي كان سائدا في مصر في القرن الحادي عشر . ويسمى بالسنة الميلادية الشرقية أو سنة الميلادية القبطية ، وهي تنقص ثماني سنوات تقريبا عن التقويم الميلادي الغربي .

(٥) الرهبنـــة

١ – نشأتها في مصر

المصري بطبعه يميل الى التدين ، وتصبو نفوس المتدينين منهم الى حياة روحية أعمق ، وأصفى سريرة ، وأكثر صلة بالله ، حياة تتوق الى الكمال والبر . ومن ثم نجد به نزعة روحية منهم الى درجة القيام بالله ، يسعى الى التخلص من مشاغل العالم والاهتمامات المادية ليتفرغ للعبادة والتأمل .

وكانت صحراء مصر محببة الى الفضيلة والكمال اليها . فالمواقع الصحراوية خليقة بالسمو بالنفس [illegible] من قوة منعزلة ، وبطول التأمل [illegible] طبيعة ، وسكونها الشامل يساعد الانسان على تركيز أفكاره ومشاعره ووجدانه في الله وأن يحس الله أمامه .

وهكذا اندفع مصريون مسيحيون الى البرية هاربين من الشر والخطيئة ، وكانوا يتطلعون من ذلك الى أن تسمو أرواحهم وترهف نفوسهم فيستطيعون التحكم في الجسد وأهوائه ، والتحرر من مغريات العالم حتى تستوي الانسان بعيدا عن خالقه وتحس النفس الالهي الكائن داخله .

ورغم ظهور بعض الحركات التصوفية قبل المسيحية كجماعات عقريات اليهود والاسينيين اليهود ، الا أن الرهبنة المصرية كانت اتجاها مسيحيا أصيلا غير متأثر بتلك الحركات السابقة التي تختلف عنها اختلافا في الهدف والعقيدة والأسلوب . كما أن الرهبان الأول الذين ساروا في هذا الطريق لم تكن لديهم من الثقافة الدينية ما يمكنهم من الاطلاع أو السماع عن هذه الحركات حتى يقلدوها . بل هم جاءوا الى الصحراء بدافع من الروحانية والزهد بما يوحي بهما تعاليم المسيحية . ويظهر ذلك بوضوح من حياة القديس أنطونيوس .

* مختصر

وجميع سكان الصحراء في مصر من مظاهر التبتل والزهد وبدأ القديس ... في صحراء نيتريا (٣٨ — ٩١ م) رحل الى برية نيتريا (وادي النطرون) وفي صحبته سبعون صبية يعيشون حياة الرهبنة والزهد.

وأصبح على أن الأمثلة المجهولة لهؤلاء النساك الأول أكثر من المعروفة. فأصبحت الرهبنة في مصر ... تطور وتاريخها أقدم من تاريخ القديس أنطونيوس. ولم تكن في بدايتها قد أخذت بعد صبغة عامة منظمة ولم تأخذ وضعها الثابت المعروف وصبغتها العامة الواسعة النطاق إلا ابتداء من الأنبا أنطونيوس.

أطوار الرهبنة

مرت الرهبنة المصرية في أطوار مختلفة

١ ـ التوحد

إذ كانت الرهبنة الأنطونية في عهدها الأول تحتوي على العزلة الفردية التامة المقرونة بالتقشف الشديد. وبتأثير تلاميذ أنطونيوس أخذ نظام العزلة يتطور تطورا بطيئا الى نوع متوسط من الرهبنة الاجتماعية.

والقديس أنطونيوس (٢٥ ـ ٣٥٦ م)

هو القديس العظيم الذي تلقبه الكنيسة أب جميع الرهبان. ولد من أسرة غنية في الصعيد. ولما توفي والداه ... كلمة قالها السيد في الإنجيل (إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع كل مالك وأعطه للفقراء فيكون لك كنز في السماء) فوزع ثروته وتوحد في الصحراء وسكن أولا في مقبرة قديمة ثم توغل داخل القفر وعاش حوالي عشرين سنة لا يرى وجه إنسان وهو في نسك وصوم وصلاة وتأمل. ولما اشتهر أمره واجتمع حوله كثيرون يطلبون منه أن يرشدهم الى معيشة مثله خرج اليهم وأرشدهم الى حياة الوحدة. وكان تلاميذه لا يعيشون في أديرة بل في مغارات منفردة في الجبل. وقد تتلمذ عليه القديس هيلاري مؤسس الرهبنة في فلسطين، والقديسان آمون ومكاريوس مؤسسا الرهبنة في وادي النطرون، والقديس بيشوي أب أديرة الفيوم. كما تتلمذ عليه البطريرك أثناسيوس وكثير من مؤسسي الرهبنة.

ومنحه الله مواهب كثيرة منها شفاء المرضى. وسمع به الفلاسفة فأتوا اليه يحاورونه فبهرهم بحكمته فأذهلتهم حكمته على الرغم من أنه كان في عرف الكبرياء الرومانية أميا لم يتلق دراسته اليونانية واللاتينية.

ولما حل بالكنيسة اضطهاد مكسيميانوس نزل أنطونيوس الى الاسكندرية يخدم المضطهدين ويشجعهم متمنيا هو نفسه أن يستشهد. كما نزل لمحاربة هرطقة آريوس بعد ... الناس منها، وكان ظهور هذه النسخ

الـسيب بوجد اثره الكبير في تأسيس الطرق أنطونيوس

وقد أسس بعد الامبراطور قسطنطين وأولاده مسائل بعضهم منه بركته عليهم الا بعد النجاح رهبنة الدين قال لهم لا محيص ان كتب الينا امبراطور قسطنطين ولكن الاعجب من ذلك أن الله كتب شريعة للانسان ».

٢ ـ الرهبنة الاجتماعية

أخذ الرهبان المتوحدون في تركيز معرفتهم حول الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين يتتلمذون على أب روحي اشتهر بالقداسة والعلم مع احتفاظ كل منهم بحياة التوحد في مغارته أو قلايته المنعزلة عن جاره ، ولكن قلاليهم كانت قريبة بعضها من بعض ويقوم حول قلاية الأب الروحي ولذلك يسمى هذا النظام أيضاً بنظام القلالي وهو مرحلة متوسطة بين الرهبنة الأنطونية والرهبنة الديرية . وقاد هذا النظام القديس مقاريوس الكبير ، وكان مركزه برية شهيت أي وادي النطرون بالصحراء الغربية .

والقديس مقاريوس ، هو مؤسس الرهبنة في وادي النطرون في صحراء مصر الغربية . ولد سنة ٣٠٠ م من أبوين مصريين في احدى قرى مديرية المنوفية . وكان أبوه كاهناً . وقد رسم هو أيضاً شماساً وتكلم ... بعد ... في حياة الوحدة ... والدته ... على

الفقراء وذهب الى وادي النطرون سنة ٣٣٠ م حيث وجد هناك ... الأنبا انطونيوس في الجبل الشرقي فالبسه اسكيم الرهبنة وزوده بنصائحه ورجع الى وادي النطرون حيث تفرغ للعبادة والتأمل ... يكن هناك غيره في كل تلك البرية . وقد عاش الأب مقاريوس ستين سنة في الرهبنة وتجمع حوله تلاميذ كثيرون مبنى لهم كنيسة في الموضع الذي ... برموس والبعض مقاريوس بوادي النطرون . ومن أشهر تلاميذه ايسيذوروس والاميران مكسيموس ودوماديوس

والمدرسة الرهبانية التي تزعمها مقاريوس هي نظام متوسط بين الوحدة المطلقة التي تظهر في رهبنة أنطونيوس ، والحياة المشتركة التي تمثلها رهبنة باخوميوس . فكان الرهبان يعيشون في قلالي منفردة متباعدة ولكنهم يجتمعون مرة في كل سبت ليشتركوا معاً في الصلاة وتناول الأسرار المقدسة . ولم تكن لهم أسوار ولا حصون . ولكن هذا النظام تدرج فيما بعد حتى شابه النظام الباخومي أما من لم يستطع من أتباع هذا النظام على حب الوحدة فانهم ... منفردين في مغارات محفورة في الجبال . وفي سنة ٣٩٠ توفى الأب مقاريوس بعد أن عمر وادي النطرون بالآلاف الرهبان . و... هذه البرية الى أقسام ... هي ... والأسقيط ... القلالي ، وأصبحت البرية كلها معمورة ...

٣ ــ الرهبنة الديرية (حياة الشركة)

ووضع القديس باخوميوس ٢٩٠ – ٣٤٨ م مجموعة قوانين تعني بتنظيمها حيث في دير واحد هو عبارة عن كنيسة وسائر المباني محاطة بها ملاجئ الرهبان داخل سور واحد

وتقوم الرهبنة على ثلاث دعائم : الفقر الاختياري — العفة والتبتل — الطاعة للمرشد الروحي . وهي مقومات لكبح الشهوات الدنيوية والماديات والتفرغ للحياة الروحية

وكان يشترط على من يريد الانضمام إلى الدير أن يقضي ثلاث سنوات تحت الاختبار . وكان الطعام يقدم للرهبان في قاعة المائدة مرتين في كل يوم (في الظهر وفي المساء) ، وكانوا يستمعون أثناء الأكل لأحد الإخوة يقرأ فصلاً من الكتب المقدسة . وكانت الأعمال اليدوية في المؤسسات الباخومية مجارية لفوائدها الروحية التي تشغل الراهب عن الشرود في أفكار لا توافقه ، كما أنها وسيلة لكسب القوت الضروري لكي لا يكون الراهب عالة على المجتمع . وكان كل راهب يعمل في المهنة التي يتقنها بجانب من تخصصوا في كتابة الكتب ونسخ المخطوطات .

وكان النظام الباخومي يهتم بالتعليم وبهذا نظم باخوميوس للرهبان ثلاثة دروس يومية عند الساعات الأولى والثالثة والسادسة من النهار للمبتدئين . وقد وضع أخرى عامة يعقدها رؤساء الأديرة هي الأسس والحكمة في تفسير الكتب المقدسة وكان حضورها إجبارياً

وكانت الأديرة الباخومية مثلاً أعلى في النظام والهدوء والراحة والسلام في وسط عالم مضطرب ملأه الفزع والفوضى ، وكثرة الشرور والمظالم . لذلك كان من الطبيعي أن يهرع إليها الناس بالمئات والآلاف في عصر سادته الروح الدينية

والأنبا باخوميوس ، ولد حوالي سنة ٢٩٠ م في إحدى قرى الصعيد من أبوين وثنيين ، والتحق في شبابه بجيش قسطنطين في حربه لمكسيميانوس . وحدث أن عسكرت فرقته في ضواحي إسنا ، فخرج أهالي البلدة من المسيحيين يحملون إليهم الطعام والشراب فدهش باخوميوس وتساءل عما دعا هؤلاء الناس إلى إبداء هذا العطف فقيل له إنهم مسيحيون يتبعون تعاليم دينهم . فقال في نفسه إن كانت هذه هي المسيحية فأنا — إن عشت سالماً — سأصير مسيحياً . ولما انتصر قسطنطين وسرّح الجيش عكف باخوميوس على دراسة المسيحية وتعمد

ثم تتلمذ على راهب شيخ يدعى بلامون ، وازداد في النسك والمعرفة حتى صار أبا

( ) حسب التوقيت الشرقي وهي الساعات السادسة والتاسعة صباحاً والثالثة عصراً حسب توقيتنا الحالي)

كثيرين وأسس ديره الأول في طبانسين مستخدماً في تدبيره ما استفاده من نظام العسكرية ومن طاعة وبساطة في الرهبنة. وكثر عدد المنضمين إليه حتى لم يسعهم الدير، فأنشأ أديرة أخرى وصل عددها إلى تسعة، كما أنشأ ديراً للراهبات تحت رئاسة أخته. وقد ذكر « بلاديوس » أن رهبان باخوميوس بلغوا ثلاثة آلاف في حياته وأنهم بلغوا سنة ٤٢٠ م سبعة آلاف، ويقدرهم « كاسيان » بخمسة آلاف راهب، وكانت أديرته تضم غير الأقباط رهباناً من اليونان والرومان والأحباش والسريان. وكان كل هذا العدد يضمهم تحت إدارة حكيمة حازمة. ووضع لهم باخوميوس قوانين في العبادة والعمل اليدوي والملبس والمسكن والمأكل وما يلزمهم في معيشتهم الديرية. واشترط في طالب الرهبنة الذي لم يكن يعرف القراءة والكتابة أن يتعلمهما قبل رهبنته ليتمكن من قراءة الكتاب المقدس وكتب الآباء، ووضع للرهبان نظاماً في الدراسة. وهكذا لم تقتصر أديرته على محو الأمية فحسب، بل كانت معاهد للتعليم. وقد انتشرت قوانين باخوميوس في أرجاء العالم. ويعتبر هذا القديس مؤسس الحياة الديرية في الرهبنة المسيحية كما يعتبر أنطونيوس مؤسس نظام التوحد فيها.

٤ – نظام الأنبا شنوده [[illegible] –
٤٥ م] بالديرين الأبيض والأحمر بالقرب من سوهاج وأخميم. أخذ الأنبا شنوده قواعد حياة تنظيم الشركة الباخومية فطبعها بالشدة والنظام.

كان الأنبا شنوده في الصغر من أسرة غنية. وكان في صغره يخرج مع رعاة غنم أبيه فيعطيهم طعامه ويقضي اليوم كله صائماً، كما كان ينفرد أثناء رجوعه من الرعاة ويقف للصلاة. ولما تنبه والده إلى ذلك دفع به إلى خاله «بيجول» الذي كان رئيساً للدير الأبيض من سنة ٣٥٠ م فرسمه راهباً. وظل شنوده الصبي يرتفع في درجات العبادة، ويكثر من الدراسة والتأمل، ويتدرب على الوحدة والطاعة والتواضع حتى أحبه الرهبان جميعاً. وبعد وفاة خاله انتخبوه رئيساً للدير سنة ٣٨٣ م ودامت رئاسته للدير ٦٦ عاماً حتى توفي سنة ٤٥١ م، وقد قارب المائة والعشرين من العمر.

وقد كثر عدد رهبانه حتى صاروا حوالي خمسة آلاف، وكان أيضاً أباً لألف وثمانمائة راهبة. وقد كتب لهؤلاء الرهبان عدداً وفيراً من الرسائل تبين مدى تفكيره السليم وتعمقه في الروحيات. وأخذ يتعقب رهبانه حتى صاروا من أكثر الرهبان معرفة. ووضع لهم قوانين وأنظمة أكثر شدة من قوانين القديس باخوميوس.

وبينما كان في عامة القديسة يختلف عن باخوميوس في قوانين [illegible] ديره باخوميوس حسب كبره [illegible]

أديرته على الأقباط وبذلك أصبحت أديرته معاقل مقدسة ضخمة ... كان كبار الحكام من جانبهم يهابون هذا الشيخ هو كبير الدير الأبيض ويسعون إليه في الأحداث والأعياد يستلهمونه ويسترشدونه وكان الأب شنوده محبا لشعبه يقاسمهم أتعابهم كفلاحين يرزحون تحت نير مضطهديهم من الرومان ، فهاجم ظلم كبار الحكام وملاك الأرض للرفق بالفقراء

ولقد كان نشاطه مشهوراً في محاربة الوثنية والتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة مثل السحر والشعوذة والدجل الفني وبدع غيرها كما سافر مع القديس كيرلس الى افسوس واشترك معه في محاربة هرطقة نسطور

ويعتبر الأب شنوده أعظم كتاب الأدب القبطي فلقد كانت بلاغته الكتابية وفصاحته الخطابية من أظهر مواهبه وكانت كتاباته عظيمة صالحة للاستعمال مباشر وكان كثير الانتاج مالكا ناصية اللغة وقد خلف لنا في جهاده الديني والقومي الطويل تراثا أدبيا ضخما باللهجة الصعيدية التي لم يكن يكتب أو يخطب الا بها

ولما أن وصلت الرهبنة الى هذه الأطوار والانتشار المتعددة حتى كانت تستوعب الصحارى المصرية وتدخل كثيراً من الوجه القبلي خصوصا الأخص بعد انتشار الأديرة وقلالى النساك والمئات بالرهبان والمتوحدين حتى أنه قيل ان المسافر من الاسكندرية الى أسوان في القرن الخامس والسادس لم يكن في حاجة الى أن يحمل زادا للطريق ، اذ يستطيع أن يزود باحتياجات الرحلة من الأديرة والقلالي المنتشرة بكثرة على أطراف وادي النيل وصحاريواته الشرقية والغربية

ومن أهم المناطق التي تركزت فيها جماعات الرهبان

١ — منطقة بسبين في الصعيد الأوسط

٢ — منطقة جبل نتريا أو وادى النطرون بالصحراء الغربية وكانت تتضمن ثلاثة مراكز رهبانية

(أ) نتريا

(ب) الاسقيط

جـ القلالي

٣ — منطقة مريوط على الساحل الشمالى غرب الاسكندرية ،

٤ — منطقة اهناسيا وهي بالقرب من بني سويف الحالية وكانت تعرف في العصر الروماني باسم أوكسيرنخوس

٥ — منطقة البنوى بالقرب من ملوى

٦ — منطقة نكلوس بالقرب من منوط

٧ — منطقة سوهاج وأخميم (بانوبوليس) حيث أديرة الأب شنوده

٨ — منطقة طيبة وهي منطقة واسعة في مديرية قنا حسب تقسيمات القرن التاسع عشر

ولم يبق من هذا العدد الضخم من الأديرة في وقتنا الحاضر سوى بضعة أديرة

مدحة مأهولة بالرهبان ، واشتهر منها أسلاف مرقس ، توما ، أنبا ... في الأصيد ، لاقامة نهضات ، ومنهب ... في وادي النطرون وهي أديرة أنبا مقار ، السريان ، الانبا بيشوي ، وأبو مقار ، وفي جنوب صحراء الفيوم دير الأب صموئيل القلموني ، وفي جنوبه بالقرب من ديروط الدير المحرق ، أما في الصحراء الشرقية فيوجد دير الأنبا أنطونيوس ودير الأنبا بولا ويسيرنات الأرثوذكس ديرسانت كاترين بالقرب من الطور في شبه جزيرة سيناء .

وبمدينة القاهرة توجد عدة أديرة للرهبان في مصر القديمة ، وحارة زويلة ، وحارة الروم .

آثار الرهبنة :

١ ـ التربوية :

عندما أدت الاضطهادات والاضطرابات السياسية الى ضعف مدرسة الاسكندرية اللاهوتية في نهاية القرن السادس تنقلت الشعلة التربوية في القطر المصري من الاسكندرية الى الصحراء فصارت الأديرة مركزاً تربوياً لطلب علوم الكنيسة .

ولقد أصبحت الأديرة معاقل كنوز العلوم والمعرفة سواء منها الدينية أو المدنية وهي التي حفظت الحركة التربوية في مصر خلال القرون الوسطى ... البحوث والدراسات التي ... داخل الأديرة ... عهد أيضاً الى عدد من الرهبان في ... مدارس ... كتاتيب في قرى وادي النيل حيث أبناء الأقباط .

ان نحو التشاعري الذي ... بالأديرة ... السهل على ... الرهبان ... فرص التأليف والكتابة وبحاصة في العلوم اللاهوتية ، وتفسير الكتب المقدسة الى جانب الخبرات النسكية والروحية التي تعتبر من أعمق الدراسات النفسية .

وكان لكل دير مدرسة لنسخ المخطوطات بجانب جماعات النسخ التي عملت على نشر التراث الثقافي والديني في وقت لم تكن الطباعة قد عرفت فيه .

ويجمع ... آثار الرهبنة العلمية في ... واحدة قائلا ... ان الفن والشعر والعلوم قد وجدت في الرهبنة ، مبادىء حضارتنا تعتبر فصلا من تاريخ الرهبنة .

٢ ـ الاجتماعية :

كان للرهبنة آثار اجتماعية عميقة الجذور في النفوس الناس تأثر بها المجتمع القبطي ، ... موجة من الزهد والتقشف وأخذ يقتدي بالرهبان وينقل عنهم كثير من عاداتهم وأصوامهم ولما اشتهرت فضائل الرهبان ... اختار الشعب قادته الروحيين من الرهبان . وكانوا في العصور الأولى ... الى المدن لتولي مناصب ... الكنيسة والمركزية ... كثير ... الرهبانية في حياة المجتمع القبطي ان ... الحية للفضيلة والتصوف

و نكن الداب التي تألفت في حياة أوائل الرهبان المصريين كانت عظيم الدين على الفضيلة ، وعبادة الله ... مور والفضة مصر توضوح الزهد و ... مجرد مثل عالـ ... ومبادىء نطرية تحملها الديانة الاسلامية الى مصر قوى الخير في تحتيم على قوى الشر ، فلا يبيح اليأس الكثيرين في مواجهة الانحلال والمادية والالحاد من تشجيع تلك النماذج الحية على استمرار الجهاد في سبيل الفضيلة تشبها بهؤلاء العباد ومن هنا ما حفظ للمجتمع المصري طابعه الديني على مر العصور

ثمة ظاهرة اجتماعية أخرى فالرهبان والزاهدون تحت آلام الحياة وأعبائها يلتمسون الغربة والمشاركة والطمأنينة من اناس عرفت قلوبهم بالايمان وعمر السلام نفوسهم لذلك كان الشعب يلجأ الى الرهبان يلتمس منهم تخفيف آلامه بصلواتهم وتعزياتهم وارشاداتهم وصدقاتهم ... كان لها أكبر الأثر في تجديد الرجاء في نفوسهم كما كانت الأديرة أشبه بيوت السلام في أوقات الأوبئة والحروب والمجاعات ، اذ يجد اللاجئون اليها الأمن والغذاء والطعام

وعن ذلك قال ... ... الألماني

« ان الرهبان المصريين كانوا معروفين في جميع العصور ... حتى في نظر العرب ... ونماذج الحياة المسيحية الحقيقية »

٢ ـ انتشارها في أنحاء العالم المسيحي

نشأت الرهبنة في مصر فصاح عبير الآباء المصريين في أرجاء العالم ، حتى سمعه غيرهم ... من مصر جميع الدنيا ... قلوبهم ... فجاءوا الى هذا الوادي ... من ... الصحيحة ... نسيرتهم ... نصرة

فوفدت الى الصحاري المصرية جماعات من الفلسطينيين والسريان والحبش واليونان والأرمن واللاتين ، وسكان شمال افريقيه وغيرهم وكان لكل أسرة منهم من جنسها ... على التفاهم مع أبناء جنسه وارشادهم وهذا النظام هو الذي ورثته الجامعات في العصور الوسطى حيث نشر في رحابها نظام الأمم ... نظام الأروقة في الجامعة الأزهرية

وتعتبر ... الآباء المصريين من أكبر المظاهر التي جذبت بها القرائح المصرية على العالم المتمدين

ا ـ في الشرق :

فمن فلسطين جاء القديس « هيلاري » الكبير (هيلاريون) فدرس الفلسفة في مدرسة الاسكندرية ثم تتلمذ للقديس أنطونيوس ... الى فلسطين ... ... السلط المصري ... المصريين ... في ... ومنها ... رهبنة الى ... الأردن

وفي أواخر القرن الرابع جاء بلاديوس
و زار مصر عمره الأولى من سنة ٣٨٨ الى سنة ٣٩٩ حيث عاش مع هنا ... بدراسة الحياة النسكية ثم عاد الى ... ثم الى أورشليم ورسم أسقفا لهيلينوبوليس سنة ٤٠٠ م

ولما رجع من زيارته الثانية لمصر كتب حوالي سنة ٤٢٠ م تاريخا عما رآه وسمعه من رهبان الأسقيط اشتهر باسم « بستان الرهبان » وكان هذا الكتاب سببا لانتشار الرهبنة في جهات كثيرة من العالم

ومن الذين أسسوا أديرة بالموصل وطور عبدين ونصيبين رهبان مصريون يبلغ عددهم حوالي السبعين بخروج من مصر مع راهب سرياني اسمه مار أوجين (القديس أوجين) كان قد عاش في الأديرة القبطية بالصعيد

و انتشرت المسيحية في بلاد كثيرة من الشرق على أيدي المبشرين المصريين فدخلها مصر معلمين من مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ثم زالت الكنيسة المتحدة المتأثرة بها على أيدي الرهبان المصريين ، فكانوا هم الذين كونوا تنظيم الكنائس والأديرة ونشروا فيها المسيحية

فقد انتشرت المسيحية في نصيب والحصن ماس العربية ستاموس) ويذكر يوسابيوس المؤرخ اسم ناسيبوس ... أساقفتها في أيام ديونيسيوس الاسكندري ونتيجة

في حرانا من ذلك ومن وجود ... من الارساليات منها أن الكنيسة هناك كانت في حالة منظمة في منتصف القرن الثالث

ويذكر أوسابيوس القيصري بنتينوس في الهند ويظهر أن العلاقة بين الكنيسة المصرية و الهند قد استمرت طويلا اذ يذكر كتب تاريخ البطاركة مجيء كاهن هندي الى مصر في أيام البطريرك سمعان الأول في أواخر القرن السابع يطلب منه سيامة أسقف للهند

أما عن بلاد العرب فان هرناك يستند الى أوسابيوس في تأكيد زيارة أوريجانس للبلاد العربية ورئاسته لمجمع في بصرى

أما عن الحبشة فقد دخلت اليها المسيحية على يد فرومنتيوس في منتصف القرن الرابع الميلادي وهو مصري كان يتاجر في صور وجوب البحار شمالا وجنوبا والاسم فرومنتيوس لفظ قبطي معناه رجل الله (افرومي — انت — نبوتي)

وقد اعتنق المسيحية أولا ملك الحبشة وتبعه في ذلك رجال البلاط ثم أخذت المسيحية تنتشر بين أفراد الشعب وكان دخول المسيحية الحبشة على هذه الصورة مخالفا لعهدها في البلاد الأخرى حيث كانت تتجه عرضها الى الشعب أولا ثم تصل الى البلاط فالملك

ولما عاد فرومنتيوس الى مصر طلب من البابا أثناسيوس بطريرك الاسكندرية أن

يرسل بعض رهبانه المصريين في أثيوبيا ، وبعد أن تساوى السريان مع مجمع الأساقفة الأقباط في ... وسمحوا ... نسبة ... إلى أكسوم عاصمة الحبشة في ذلك الوقت

وربما كان لقرارات مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ التي رفضها القائلون بالطبيعة الواحدة أثر في هجرة كثير من الرهبان إلى مصر حيث وجدوا في أديرتها المزدهرة ملجأ لهم ، ومنهم من أخذ في الانتقال إلى النوبة ومنها إلى الحبشة ، فدفعهم غيرتهم على نشر الدين المسيحي بحسب مذهبهم ، بين أقوام لم تعرف الحق الديني اليهم ، ولقد عد بعض خروجهم من مذهب النسطوري الذي لم يكن له أتباع في مصر أو الحبشة ، إلى ترجمة بعض الكتب في معارضة النسطورية مثل كتاب كيرلس ... للطوارىء

وكان بين الرهبان الذين وفدوا إلى الحبشة واستقروا في أماكن متعددة من مقاطعة التيجري تسعة عرفوا « بالقديسين التسعة » هم رسل نشر المسيحية في الحبشة الذين أسسوا الأديرة ونشروا المعرفة

وقد أخذت الأديرة في الحبشة تزدهر في القرنين السادس والسابع ، وأخذ رهبانها ينصرفون إلى دراسة الرهبنة وتعاليمها معتمدين في ذلك على ما ترجموه من الكتب القبطية أو اليونانية السائدة عند رهبان الأقباط في مصر

ومنذ القرن الرابع والكنيسة المصرية ... ترسل مطرانا منها كرئيس للكنيسة الأثيوبية ، وكان له فيها مكانة ممتازة

في النوبة

ذكر المؤرخ يوحنا الأفسسي أنه في القرن السادس كان البطريرك القبطي ثيودوسيوس منفيا في القسطنطينية ، وفي هذه الأثناء أرسل يوليانوس إلى النوبة لتبشيرها بالمسيحية وذلك بمساعدة الامبراطورة ثيودورة التي كانت تؤمن بمذهب الكنيسة المصرية على عكس زوجها الامبراطور جستنيانوس الذي كان شديد الاضطهاد لهذا المذهب ، فوصل يوليانوس إلى النوبة حوالي ٥٤٣ م ونشرها بالمسيحية فرحب به مليك والمقدم لمدحهم وعلمهم الكثير من ... وحذرهم من أخطاء مذهب حزب الامبراطور ... وحينما بعث الامبراطور بعد ذلك لم يقبل ملك النوبة رسالته ورفض بعثه في النوبة ، فذهب فاشلة

وتوالت بعد ذلك البعثات التبشيرية القادمة من الكنيسة القبطية ، وكان أشهر مبشري الأقباط لونجينوس الذي جاهر بمبادئه ، وسار في رحلة طويلة مع الجبال المحاذية للبحر الأحمر حتى وصل إلى مملكة علوة عند ملتقى النهرين العطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض وعاصمتها سوبا قرب الخرطوم الحالية ، فبشرها بالمسيحية على مذهب الكنيسة القبطية ، وقد ...

الامبراطور أن يحملهم الى مدينة بالقسوة على شعوبه

وقد قامت الكنيسة المصرية بإرسال بعثة تبشيرية الى النوبة وعلوة ، وكانت في مملكة أخرى كان يحكمها أسقف ما كرة ، تحدث في القرن السابع مع النوبة وصارت مملكة واحدة عاصمتها دنقلة القديمة

وانتشرت المسيحية في النوبة تابعة لكنيسة مصر حتى نهاية حكم المماليك

ب ـ في الغرب

وانتشر أثر الآباء المصريين بفضل الكتاب الذي وضعه أثناسيوس الرسولي بطريرك الاسكندرية في القرن الرابع عن سيرة الأنبا أنطونيوس . وكانت نسخة من هذه السيرة سببا في تحويل القديس أوغسطينوس (أوسع آباء الغرب الرابع وأوائل الخامس) أسقف مدينة هيبو بشمال أفريقيا ، وهو يعد من أكبر فلاسفة الكنيسة الغربية . ومن ناحية أخرى حمل أثناسيوس التعاليم الباخومية الى أوروبا الغربية في رحلتيه

وجاء القديس باسيليوس الكبير (القرن الرابع) — وهو يوناني — الى مصر وعاش فترة من الزمن في أديرة باخوميوس بالصعيد ودرس نظامها ، ثم نشره بلغته في الأديرة التي أسسها بعض الرهبان في بلاد اليونان

في سنة ٤٠٤ م قام القديس جيروم (هيرونيموس اللاتيني) بترجمة قوانين باخوميوس الى اللاتينية فصارت الرهبانيات الايطالية الى تعاليمها دستورا لهم

وبعد ذلك بقليل قام القديس كاسيانوس (الراهب الفرنسي) بجمع أقوال الآباء المصريين وسيرهم والقوانين التي وضعوها وجاء بها ليطبق هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين أنشأهما في جنوب فرنسا (بالقرب من مرسيليا) . ثم ان نظام الديرية البندكتية (نسبة الى القديس بندكت المبارك) مقتبس من نظام وقوانين باخوميوس وعن طريق البندكتية انتشرت النظم الباخومية في أوروبا الكاثوليكية واتسعت

كما أثرت تعاليم باخوميوس في حركة الاصلاح الكلوني ، تلك الحركة الكبرى التي كان لها الأثر الدائم في توجيه المدنية في العصور الوسطى . كما نلمح بصماتها في الرهبانية Templars — Templiers في القرنين الحادي عشر والثاني عشر . ونلمحها في عهد لاحق في جماعات الفرنسيسكان (نسبة للقديس فرنسيس الأسيزي) والدومينيكان . وليس من العبث القول بأن تلك الجماعات من أولها الى آخرها يمكن اقتفاء أثرها ومنابعها في وحي باخوميوس المصري . وبالتالي فان النهضة الأدبية الفكرية الأولى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، تلك النهضة التي عرفت باسم المدرسية ونشأة الجامعات في العصور الوسطى ما هي الا أثر من آثار تلك المبادئ الديرية التي نجد تكوينها في الأصل في عبقرية باخوميوس

وقد وصل الرهبان والمبشرون الأقباط الى سواحل فرنسا الجنوبية ، والى منطقة جنيف بسويسرا « هرنا » حيث عمل الأسقف الثيبوس وعمرو في مماه في مبشراً على نشر المسيحية وتأسيس كنيسة باقية هناك . وفي سويسرا في مدينة زيورخ اشتهر شهداء أقباط شمس الدين بقرر المدينة كما اشتهر في سويسرا القديس موريس (موريتس) وأخته فيرينا ، وهي التي رجعت أجسام شهداء سويسرا الى الصحراء لتدفنهن ، وما زالت صور هناك حاملة ملحقة .

وفي الثاني استشهد سنة ٢٩٨ م حوالي ثلاثة آلاف من أبناء مصر الصعيد من فرقة طيبة ، ولا تزال قبورهم معروفة في مدينة « تريير » Trier

وقد عثر رحالة فرنسي أسس ... الأقباط على الجبال الشمالية بالقرب من قرية ملاتاب دير أسلفو عليه اسم دير القديس مكاريوس ومن الأقباط هناك يستقر بمنطقة ... على قبرص ورودس ، كما ذكر « برمستر » في بحث نشره بمجلة جمعية الآثار القبطية

وذكر بتلر في مقدمة كتابه « عن الكنائس القبطية القديمة » أن المبشرين الأقباط وصلوا الى الجزر البريطانية وأنه يوجد الى يومنا هذا بمدينة أولستر بايرلندة قبور سبعة من الرهبان المصريين لا تزال تذكر أسماؤهم في صلاة بكنيسة تلك الجهة

فهــــرس

أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الإسكندرية

من عصر ديوقلديانوس إلى دخول العرب

الأباطرة	الحكام	بطاركة الإسكندرية
الأباطرة الرومان :		
ديوقلديانوس (دقلديانوس) ٢٨٠ – ٣٠٤	[illegible] سنة ٢٨٤ [illegible] سنة ٢٨٦ [illegible] أكتوبر سنة ٢٨٧ [illegible] سبتمبر سنة ٢٨٩ [illegible] ([illegible]) في سنة ٢٩٨ [illegible] سبتمبر سنة ٢٩٩ [illegible] ١٨ [illegible] سنة ٣٠٢ [illegible] مارس ٣٠٦	ثيوناس ([illegible]) ٢٨٢ – ٣٠٠ بطرس الأول (خاتم الشهداء) ٣٠٠ – ٣١١
جاليريوس [illegible] ٣٠٥ [illegible] [illegible] مكسيميانوس [illegible] ليكينيوس (ليسينيوس) ٣١٢ – ٣٢٣	[illegible] أغسطس سنة [illegible]	[illegible] ([illegible]) [illegible] ألكسندروس الأول [illegible] – ٣٢٨
أباطرة العصر البيزنطي : أسرة قسطنطين قسطنطين الأول ٣١٢ – ٣٣٧	[illegible] ٨ [illegible] سنة ٣٢٨ [illegible] أبريل سنة ٣٢٩ [illegible] سنة ٣٣٢ [illegible] أبريل سنة ٣٣٣ [illegible] أبريل سنة ٣٣٤ [illegible] أبريل سنة ٣٣٤ [illegible] أبريل سنة ٣٣٤ و [illegible] سنة ٣٣٧ [illegible] سنة ٣٣٢ [illegible] سنة ٣٣٥ [illegible] سنة ٣٣٨ [illegible] سنة [illegible] [illegible] أبريل سنة [illegible] [illegible] سنة ٣٤٣ [illegible] أبريل ٣٤١	أثناسيوس الأول (الرسولي) ٣٢٦ – ٣٧٣
قسطنطيوس الثاني ٣٣٧ – [illegible]		

الأباطرة	الحكام	[illegible]
	[illegible]	
بروبوس ([illegible]) [illegible]	[illegible]	
[illegible] ([illegible]) [illegible]		
[illegible] [illegible]	[illegible]	
أسرة [illegible] ([illegible])	[illegible]	[illegible]
[illegible] الأوغسطس ([illegible]) [illegible]	[illegible]	[illegible]
	[illegible]	[illegible]

[illegible]	[illegible]	البطاركة	
		القبط	الملكيون
[illegible]	[illegible]		
[illegible]	[illegible]	[illegible]	
[illegible]	[illegible]		
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]		
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]			
[illegible]	[illegible]		
		[illegible]	
	[illegible]		[illegible]
		[illegible]	
[illegible]	[illegible]	[illegible]	
		[illegible]	
[illegible]			
[illegible]	[illegible]	[illegible]	
		[illegible]	[illegible]

الأباطرة	الحكام	بطاركة الإسكندرية: أقباط	ملكانيون
	[illegible] سنة ٥٣٥ [illegible] سنة ٥٣٨ [illegible]	ثيودوسيوس الأول [illegible]	[illegible] ٥٣٩ [illegible]
	[illegible] سنة [illegible] [illegible]		ابوليناريوس [illegible]
يوستينوس الثاني ٥٦٥ = ٥٧٨	[illegible] سنة [illegible]	بطرس الرابع ٥٦٧ = ٥٧٦	يوحنا الثالث ٥٧٠ = [illegible]
طيباريوس الثاني قسطنطين ٥٧٨ = ٥٨٢		دميانوس ٥٧٨ = ٦٠٥	
موريقيوس (موريس) ٥٨٢ = ٦٠٢	يوحنا بولس يوحنا (المرة الثانية) قسطنطينوس ميناس سنة		يولوجيوس ٥٨٠ = ٦٠٨
فوقاس (فوقا) ٦٠٢ = ٦١٠	بطرس [illegible] سنة ٦٠٢ = ٦٠٣	انسطاسيوس [illegible]	
	يوحنا سنة ٦٠٩		[illegible] [illegible]
اسرة هرقل			
هرقل الأكبر ٦١٠ = ٦٤١	نيقيتاس سنة ٦١٠	اندرونيقوس [illegible] ٦١٩ = ٦٢٦	يوحنا الرحيم ٦١٠ = ٦٢٠
	أوريوس سنة ٦٢٠ [illegible] سنة [illegible]	بنيامين الأول ٦٢٣ = ٦٦٢	جورجيوس ٦٢١ = ٦٣٠
	ثيودوروس سنة ٦٤١		كيروس سنة ٦٣١
قسطنطين الثالث ٦٤١ هرقليوناس ٦٤١			

التشيع فى

العصر الاسلامى

تاريخ مصـــــر

من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون

بقلم الدكتور حسين مؤنس

الفتح العســكرى لمصر

تدور قصة الفتح العربى لمصر فى معرفتنا عند مؤرخى الإسلام — من ابن عبد الحكم إلى ابن إياس — وكأنها نزهة عسكرية لم يصادف الجيش العربى خلالها من الصعوبات إلا شيئا قليلا جدا لا يقاس بما تعرض له جيوش الإسلام فى فتح الشام وفلسطين ، فضلا عن العراق والمغرب . لأن الرواة الذين استمد عنهم المؤرخون جميعا يسقطون الأخبار ويوجزونها على نحو أصبح من العسير معه تتبع الخطوات التى تم بها هذا الفتح العظيم الذى يعتبر من أهم الانتصارات العسكرية والسياسية التى ظفر بها العرب إبان عصر الفتوح الإسلامية .

وقد عودنا أن نرد ما نجده من أخبار هذا الفتح إلى أصحاب المدونات التى وصلت إلينا ، وهى كتب جليلة القدر كتبها شيوخ من أهل الثقة منهم الواقدى وعبد الرحمن ابن عبد الحكم والبلاذرى والكندى والطبرى ، فنسبح فى الأخبار التى نجدها نسبة إليهم ، ونصدق رواتها ، ونعدهم حجة ، بداية تحدث الأخبار على ذكر إسناده ، على ذكر من أخذوا عنهم الأخبار من الرجال . ولو درسنا مجموعة هؤلاء الرجال المذكورين فى هذه الكتب ، لتبين أن الأخبار كلها ، أو الجانب الأكبر منها ، قد صدرت عن مدرسة من القصاص أو المهتمين بالتاريخ نشأت فى مصر وعنيت بقصة الفتح ، و ... قصة الفتح التى نجدها بين أيدينا متفرقة فى ... المعتمد من كتب تاريخ مصر الذى يبدأ بابن عبد الحكم وينتهى حتى ابن إياس .

وقد آن الأوان لأن نضع هذه المدرسة كلها موضع البحث ، حتى نتبين القيمة الحقيقية لما نجد من الأخبار . ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه الدراسة ، وإنما يكفى أن نذكر أن ما نجد من الأخبار لا يخرج فى مصادره عن عدد قليل من الرجال معظمهم من تلاميذ الليث بن سعد (٩٤ — ١٧٥ / ٧١٢ — ٧٩١) ، والظاهر من سنه ... نستطيع القول بأنهم مسئولون عن أكثر

عامة مما لدينا من معلومات عن فتح مصر وأخبارها حتى منتصف القرن الهجري الثالث على الأقل ، وهم عبد الله بن عبد الحكم (والد عبد الرحمن) (١٥٥ — ٢١٤ ، ٧٧١ — ٨٢٩) وعبد الله بن وهب (توفي ١٩٧ / ٨١٢) وعبد الملك بن مسلمة وعثمان بن صالح (١٤١ — ٢١٩ ، ٧٦١ — ٨٣٤) ويحيى بن بكير (١٥٤ — ٢٣١ ، ٧٧٠ — ٨٤٥) وسعيد بن عفير (١٤٦ — ٢٢٦ ، ٧٦٣ — ٨٤٠)

وأهمهم جميعا عثمان بن صالح ، فان كتاب « فتوح مصر والمغرب والأندلس » يدور على روايته تقريبا ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم يروى عنه فقرة بعد فقرة ، فاذا استطرد وروى عن غيره عاد اليه بقوله « ثم رجع الى حديث عثمان بن صالح وغيره » والنسخ التي وصلتنا من « فتوح مصر والمغرب والأندلس » كلها برواية على بن قديد تلميذ ابن عبد الحكم ، وابن قديد هذا هو أستاذ أبي عمر محمد بن يوسف الكندي ، وعنه أخذ هذا الأخير الحديث والأخبار ، أي أن عبد الحكم والكندي يلتقيان عند هذا الرجل ، فهو تلميذ الأول وراويته وأستاذ الثاني وشيخه . وهذا يفسر لنا التشابه الشديد بين مادتي كتابيهما فيما يتصل بمصر ، وينتهي بنا الى القول بأننا في الواقع أمام رواية واحدة تعود أصولها عند الأولين ، ثم تختلف التفاصيل بعض الشيء هنا وهناك

ولا بأس والحالة هذه من الاجتهاد في المقارنة ومقابلة الروايات بعضها على بعض ، مع المعلومات المرتبة وهي التي تهمنا هنا ، وحقيقة عند الأولين بل إن جل أخبار الفتح التي نجدها عند البلاذري منسوبة الى محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وهذا أخذها عن أستاذه ، وهذا بدوره زار مصر وأخذ عن المدرسة المصرية التي ذكرناها ، وأخبار المدينة الشبيهة بأخبارها . وكذلك أخبار الطبري ترجع أحيانا الى محمد بن سعد وأحيانا أخرى الى يونس بن عبد الأعلى (توفي ٢٦٤ / ٨٧٧) وهو من شيوخ المدرسة المصرية ، وهو جد أبي سعيد بن يونس المؤرخ المصري المعروف .

والخلاصة أن ما لدينا من أخبار مصر في شتى المراجع يعود في الأصل الى أصل واحد هو مدرسة المؤرخين المصريين ، بل نشأ في مكان واحد هو الفسطاط ، وفي فترة محددة هي النصف الأول من القرن الثالث الهجري . ومن رجال هذه المدرسة من هو ضعيف مشكوك في أخباره كعبد الله بن لهيعة (توفي ١٧٤ ، ٧٩٠) الذي سخر منه معاصروه وسموه أبا خريطة ، ولا يشفع لأخباره أنه ينسب بعضها الى أبي الأسود النضر بن عبد الجبار (توفي ٢١٩ / ٨٣٤) ، وفيهم الصحيح الثبت كالليث بن سعد ، وكلهم من المصريين مولدا وموطنا ، حتى غير المصريين

منهم كالواقدي أتوا في مصر بأحداث الأخبار عن شيوخها (١) .

فإذا كان هذا هو أسلوب مؤرخينا في أخبار الفتح ، فإننا لا ننتظر أن نكون في ما بين أيدينا من هذه الأخبار حقائق يعين على كشف حقيقة أو حل معضلة ، فكلهم يرددون شيئا واحدا تقريبا ، ويروون الأخبار على نسق واحد ويتفقون فيما يوردون من أسماء الأعلام ، ومعظمها مبهم لم يجد الباحثون له تفسيرا ، كالمقوقس و « الأعيرج » و « أبا ميامين » و « أبا مريم الجاثليق » و « أبي مريام الأسقف » و « الأرطبون » ومن إليهم .

مشكلات تتصل بالأعلام : المقوقس (٢)

وقد أنفق المؤرخون جهدا عظيما في البحث عن حقائق هؤلاء الأعلام دون أن يسهو إلى ما سمحت به النصوص ، ويذهبون مذاهب شتى فيما كتبه مؤرخو الأقباط مثل ساويرس أسقف الأشمونين المعروف بابن المقفع وسعيد بن بطريق المعروف بأوتيخا وأبي صالح الأرمني وجرجس المكين ، فإذا بمعظم أخبارهم منقولة عن الأصول العربية نفسها . لم يستعملوا المعرفة من مؤرخي بيزنطيين أنفسهم مثل سيبيوس مؤرخ هرقل وثيوفانيس صاحب المدونة المعروفة بالتاريخ Chronographia فلم يجدوا لديهم إلا إشارات لا تغني ، فعادوا إلى الخطوط الرئيسية الأولى التي وضعها أصحاب الروايات الإسلامية الأولى ، ووقف الأمر عند ذلك . ولا بد من تحقيق شخصية المقوقس مثلا قبل المضي في هذا البحث ، فهو في رأينا مفتاح موضوع فتح العرب مصر ، إذا عرفنا من هو وما هو دوره بعثت قصة الفتح تحت ضوء جديد .

وقد حاول ألفريد بتلر في كتابه المعروف عن الفتح العربي لمصر أن يحل بعض هذه

---

(١) بالإضافة إلى مراجع العربية المذكورة في المتن ينظر عن هذه المدرسة المصرية

مقدمة روفن جست RHUVON GUEST لطبعته لكتاب القضاة وكتاب الولاة للكندي ليدن ١٩١٢ صفحات ٢٢ ـ ٣١ .

ومقدمة تشارلز توري C.C. TORREY لطبعته لفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم ، نيوهيفن ١٩٢٢

R. Dozy, Recherches 3e éd. I p. 6 sqq.

ومادة الواقدي في دائرة المعارف الإسلامية بقلم هوروفتز ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم بقلم توري والكندي بقلم بروكلمان في نفس الدائرة ، ومقال الدكتور محمود علي مكي

Egipto y los orígenes de la historiografía arábigo-española.

في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد مجلد ٥ سنة ١٩٥٨

وانظر أيضا

الدكتور محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ، عصر الولاة ١٩٤٥ ، ص ٦٨ وما يليها

Albert Gateau, Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne par Ibn Abd al-Hakam, 2e éd. Alger, 1948, p. 3 sqq.

(٢) انظر : ألفريد بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد ص ٤٥١ وما يليها ، ومناقشة الأستاذ محمود عكوش في كتابه : مصر في عهد الإسلام ، القاهرة ١٩٤٥ ، ومادة المقوقس بقلم أدولف جروهمان في دائرة المعارف الإسلامية

هكذا ... لم يخرج الا منتصبة وحدها ... ولكنها الآن موضع ... ويعنى بذلك ان المقوقس هو « جريج » . ولم يستند في ذلك القول الا الى ان يجمع أكثر من تفسير وجدها عند مؤرخين من مجمع ... الأسكيموني وفي نص « حياة ... شنودة » الذي ... أميلينو وقصة « أنا سوريل القلموني » . وكل هذه النصوص — فيما عدا قصة صموئيل القلموني — تذكر قيرس دون أن تنسبه الى المقوقس أو تذكر اسمه . كان لفظ المقوقس هذا خاصا بمؤرخي العرب وحدهم لم يعرفه الأقباط ولا البيزنطيون . وحيث أننا لا نجد ما يقابله من الاسماء عند هؤلاء ، فانه يصعب على الظن أنه لقب أطلقه العرب على شخص معين ، وليس هذا بغريب ، فقد أطلقوا على رأس حامية حصن بابليون لقب « الأعيرج » ، وسموا القائد الرومي في افريقية « جرجير » مع أن اسمه الحقيقي « جريجوريوس » ، ولو أن المقوقس هذا كان هو قيرس بالذات لذكرت ذلك المراجع العربية ، أو وجدنا منها على الأقل ...

فاذا نحن مضينا في البحث وجدنا ... أن المقوقس توصف بأنه عظيم القبط ، وهو أنه كان عامل مصر من قبل ... لما وصفه بذلك ... به كان ... في مصر أمره ... الاجلاد معرفة في توجيه ... تذكر مراجع العربية منهم ...

بينه المقريزي « ... » والواقدى ... الى « ... » بأنه كان من أحوال مقوقس وكان على ... وقاتل ... مع ... من أولاده ... أمه ... هو ... آخر ... الى ... والاسود ... أهل ... وقدم بهم ... للمسلمين ، وسار بهم ... تنيس ، وقاتل حتى قتل ، وقبره باق الى الآن في تنيس ، وهو معدود في أوليائها وصالحيها وذكر المؤرخون كذلك أن للمقوقس ... يسمى ... وبنتا تسمى ... ، والتي يسمى ... أرمانوسة ، بل ذكروا ... أنه كان لها شأن في ضواحي الاسكندرية ، هذا بالاضافة الى بنته أرمانوسة ذات الخبر المشهور .

وقد يكون في ذلك كله زيادات أسطورية القصاص ، ولكن لا نعرف في القول اذا ذهب الى ما ذهب اليه أن المقوقس كان قبطيا من أهل مصر ، وأن ابنه كان مسيحيا منتظر الأسرار . فكيف يقال مع ذلك انه هو « قيرس » الأسقف الفارسي الذي بعثه الامبراطور هرقل سنة ٦٣١ الى مصر لكي يعمل على القضاء على معارضة أصحاب المذهب الرسمي للدولة ... ذهب ... في ... عن ... الاسم الذي ... في المراجع

العربية ، وأقرب الآراء الى القبول ما ذهب اليه بتلر من أن العرب لم يعرفوا من لفظ « كوكيوس » القبطي ومعناه الكاهن ، اللفظ اليوناني البيزنطي طلقوا على هذا الوصف بعد أن نسبته سياسة الدولة ومعهدها وميله الى التفاهم مع العرب . وعنهم أخذ هؤلاء وحرفوه الى الصورة التي وصلت الينا

أما اسمه الحقيقي كما يرد في النصوص العربية فهو « جريج » ، وهو تصحيف جرجيوس أو جرجس ، وهو ابن مينا ، ومتى أو ابن قرقب أو قرقب وما الى ذلك من الصور التي ترد في النصوص العربية أما عن وظيفته فيقول البلاذري انه « صاحب مصر » ويقول المقريزي في « الخطط » انه كان « أمير على مصر » ، ويردد هذا القول ابن دقماق في « الانتصار » ، ويذهب ابن عبد الحكم وجرجس المكين الى أنه كان « عاملا على مصر » ويقول ابن حجر انه كان « أمير القبط بمصر » وأوتيخا انه « عامل على الخراج بمصر » وليس في هذه الاشارات كلها ما يدل على أنه كان بطريق مصر أو رئيس كنيستها ، أو الاسقف المعين من القسطنطينية

ثم ان مراجع العربية تذهب الى أن المقوقس هذا هو نفس المقوقس الذي أرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته مع حاطب بن أبي بلتعة في السنة السادسة للهجرة أو قبل فتح العرب لمصر بأكثر عمرو عاما . وقد نفى كثير من المؤرخين أن يكون الرجلان شخصا واحدا لأن مصر كانت في سنة ٦ هـ – ٦٢٧ خاضعة للفرس ، وان بعض مؤرخيهم الى تخاذل الرومانيين جميعه . غير أن اشارة عابرة لمؤرخ متأخر هو المنوفي صاحب « كتاب لطائف أخبار الاول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول » (القاهرة ١٣٠٠ هـ) ربما تفسر لنا هذه الناحية ، فهي تقول ان صاحب الأمر في مصر أيام الرسول (صلعم) وأبي بكر وعمر حتى فتح مصر كان المقوقس . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول ان المقوقس هذا كان كبير أقباط مصر ، وربما كان يتولى بعض شؤون حكومته بعد دخلها الفرس واختفى رجال الحكومة البيزنطية وبقي هو الأمر تحت اشراف الفرس ، وفي أثنائهم أتى مصر رسول النبي (صلعم) فلم يجد من يتحدث اليه الا كبير القبط هذا ، فأحسن استقباله ورد ردا لطيفا وبعث بهديته المعروفة الى النبي

فلما استعاد هرقل مصر ورجع اليها الروم وجدوا هذا الرجل قابضا على أزمة الأمور المالية والادارية فتركوه على هذه الناحية ، لأنه لم يكن يهمهم من مصر الا ذلك لا العقيدة وكان الرجل بها خبيرا ، واكتفوا بارسال قواد عسكريين الى بابليون والاسكندرية ثم أرسلوا الأسقف قيرس لمعالجة المشكلات المذهبية بين الأقباط والبيزنطيين . فأصبح يشير الى مصريين بعد

مع المصريين وعلى رأسهم المقوقس ، وأصبح هذا الأخير مستعدا للتفاهم مع أي قوة تمكن من تخليص الأقباط من اضطهاد البيزنطيين عندما أقبل العرب وتعاظمت انتصاراتهم على جنودهم وتوالت عليهم الهزائم نهض المقوقس لإيجاد المخرج ، وتكلم مع العرب باسم الأقباط دون البيزنطيين ، وكانت هناك فرق قبطية في الجيش البيزنطي المدافع عن مصر ، فانكسرت بأمره وانضم إليه الرهبان ومن إليهم من أهل البلاد ، وعرف الرجل كيف يحصل من العرب على عهد يؤمن القبط على عقيدتهم وأموالهم ، فكانت نتيجة ذلك دخول مصر في طاعة العرب

وقد وقفنا طويلا أمام مشكلة المقوقس لأن حلها يفسر قصة الفتح كلها ويعفي من الكلام الكثير في مشاكل الفتح التي اقتضت من ألفريد بتلر جهدا عظيما ، ليحلها ، ولم يفلح مع ذلك ، لأن نقطة البداية ، وهي القول بأن المقوقس هو قيرس لم تكن سليمة ، فلم تكن النتائج سليمة تبعا لذلك أما نحن فنرى أن المقوقس كان رئيس القبط ، وأنه كان يتجه وجهة أخرى غير وجهة الروم فيجعل قصة الفتح مفهومة ، ويفسر السبب فيما قلناه من أنها كانت أشبه بنزهة عسكرية

وبناء على ذلك نستطيع القول بأنه كان في مصر قبيل الفتح الإسلامي قوتان متعارضتان متعاديتان : القبط في ناحية والبيزنطيون في ناحية أخرى ، ويمثل القبط المقوقس وفرق من جنود القبط كانت مشتركة في الجيش البيزنطي وعدد كبير من الرهبان ورجال الكنيسة ثم عامة أهل البلاد ، وكلهم على مذهب المونوفيزيت القريب من توحيد الاسلام ، ومن ناحية أخرى نجد البيزنطيين تمثلهم حامياتهم من الجند في المعاقل والحصون والمسالح وخاصة في الاسكندرية ، وعلى رأس كل حامية قائد محلي ، ويمثل السلطان البيزنطي كله قيرس الذي أقامه هرقل بطركا على مصر وأطلق يده في شؤونها

وهذا المذهب الذي نذهب إليه يحل اشكالا آخر أوقع المؤرخين المحدثين فيه قولهم ان قيرس هو المقوقس ، لأنهم يقولون ان قيرس هذا أتى إلى مصر ، وهو غريب عنها ولا عهد له فيها ، ينفذ سياسة هرقل ، فبدأ يضطهد الأقباط بالعنف ، فما لبث أن انقلب عليهم وأخذ يضطهدهم ، ثم يحل على عصبيته البيزنطية ، فلا يكاد العرب يطرقون أبواب مصر حتى نجده ينقلب على البيزنطيين ويسعى في اخراج مصر من أيديهم ، ويتزعم الأقباط الذين كان يضطهدهم الى ذلك الحين ، وهذه كلها تقلبات لا يستقيم بعضها مع بعض ، ورواية الأحداث على هذا النحو تجعل قصة الفتح غير مستقيمة ولا متماسكة الحلقات ، وهذا هو الذي نخرج به أيضا من كتاب ألفريد بتلر على طوله وعرضه

فاذا بدأنا من هذه النقطة وجدنا تقصي قصة الفتح تعترضه من أول الأمر مشاكل من النوع الذي يعترض أي باحث في تاريخ العربية ، وهي مشاكل لا تختص بعصر موضوع ، ولكن لا بد من التعرض لها ، أهمها ما يتصل بالمعاهدة التي عقدها عمر بن الخطاب الادب لعمرو بن العاص في السير

(١) عن فتح العرب لمصر ، انظر:
ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والاندلس ، طبعة توري ، نيوهيفن ١٩٢٢ وطبعة هنري ماسيه : في فتح مصر نقلا (المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩١٤) ، وطبعة ألبير جاتو ALBERT GATEAU بعنوان فتوح افريقية والاندلس ، الطبعة الثانية ، الجزائر ١٩٤٢
الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، طبعة روفن جست ، مطبعة جيب التذكارية بيروت ١٩٠٨
البلاذري : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٩
الطبري : تاريخ الامم والملوك ، طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة ، جـ ٣
حنا النقيوسي : مدونة حنا أسقف نقيوس
Chronique de Jean, évêque de Nikiou. Texte éthiopien publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres bibliothèques, tome 24, Paris, 1883)
ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٩١٣ ، جـ ٢ و ٣
ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة جـ ١ ، ١ ، ١ من مجموعة Patrologia Orientalis باريس ١٩٠٧ و ١٩١٠ و ١٩١٥
ابن سعد : كاتب الواقدي ، الطبقات الكبرى ، طبعة ليدن ٨ كراسات ، ليدن ١٩٠٥ ـ ١٩٢١ ، والطبعة بيروت (كاملة) سنة ١٩٥٧
سعيد بن بطريق المعروف باوتيخا ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جزءان ، بيروت ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩
المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ في مجلدين
البلوي : سيرة احمد بن طولون ، عن عصر من الأعراب ، القاهرة ٣٥٦
ـ : الدولة الأموية بالمغرب المشرق ، طبعة ريدة والنبهاني ، القاهرة ١٩٤٠
ـ : العالم العربي ، الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨
اليعقوبي : تاريخ ، طبعة هوتسما ، ليدن ١٨٨٣ جزءان
أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب جـ ١ و ٢ سنة ١٩٢٩ ـ ١٩٣
جرجس بن العميد (المعروف بالمكين) تاريخ المسلمين ، ليدن ١٦٢٥
Alfred J. Butler The Arab conquest of Egypt. Oxford, 1902
وقد رجعنا الى ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد بعنوان « فتح العرب لمصر » القاهرة ١٩٣٣
— The treaty of Misr. Oxford, 1913
Leone Caetani Annali dell'Islam. T. IV V Milano, 1911-1912.
E. Amélineau : Etudes sur le christianisme en Egypte. Paris, 1887
Lane-Poole A history of Egypt in the Middle Ages. Londres, 1925
Gaston Wiet L'Egypte arabe. Vol. IV de l'Histoire de la Nation Egyptienne. Paris, 1937
— L'Egypte Musulmane. Vol. I du Précis de l'histoire d'Egypte. Le Caire
سيدة اسماعيل الكاشف : مصر في فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٧
محمود عكوش : مصر في عهد الاسلام ، القاهرة ١٩٤٩

الى مصر ... موافقته على كره منه وبصيغة
الأمر لعمرو بن العاص ... فاذا بلغه قبل حدود
مصر ارتد عنها ، ولا سار في طريقه ، وهي
قصة لا تتفق مع طبيعة عمر بن الخطاب
أو مسلكه في سياسة أمور الدولة . ويبدو أن
عمر استشار في فتح مصر وهو بالمدينة لكان
من الممكن أن نصدق هذه الأخبار والرد الذي
يطيل فيه مرجع في هذه المناسبة ، فقد حدث
مثل ذلك عندما أراد العرب فتح المغرب على
أيام عثمان ، ولكن عمر بن الخطاب فوتح في
فتح مصر وهو مجتمع مع قواده ورجاله في
الجابية جنوبي دمشق سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م

وقابل عمر [illegible] رجاله في ذلك المؤتمر
— الأول من نوعه في تاريخ الاسلام —
تنظيم ما فتح من البلاد والخطط التي يجري
عليها المسلمون فيما يلي ذلك من خطوات
التوسع . وقد أحاط عمر اذ ذاك بالموقف
تماما ، ووضع الخطوط الرئيسية لما سيعقب
فتح فلسطين من الفتوح ، فالقول بأن عمر
خاطب عمرا في الأمر فيما بينه وبينه وأحسه
[illegible] لفتح مصر ويهون عليه أمرها ،
أو أن عمرا حاصر قيسارية ثم خلف ابنه عليها
وسار الى مصر من تلقاء نفسه ، فغضب عمر
لذلك وكتب اليه يعنفه ويأمره بالرجوع الى
موضعه اذ وافاه كتابه دون مصر ، أو أن
عمرا أمر رسالة بالمسير [illegible] التقهم
بات أقرب الى القصص [illegible]

[1] [illegible] من مجموعها [illegible]

[illegible] المؤرخ ، وهو أن عمر بن الخطاب كان
[illegible] استقر على فتح مصر [illegible]
[illegible] الى عمرو بن العاص [illegible]
على الفتح جهد [illegible] العظيم . ولكن
[illegible] أن نذكر أن عمرو بن العاص لم
يكن اذ ذاك قد فرض مكانته كقائد من أعظم
قواد الاسلام ، ولم يكن [illegible] رأى
عمر — يكن قواد الدولة الذين تولوا فتوح
الشام والعراق ، وكان عمر بن الخطاب
لا يستريح اليه ، [illegible] عمر لم يكن اذن في
الفتح الى [illegible] شخصية الفاتح ،
ويبدو من مجموع الروايات أن عمر وافق
[illegible] ، وربما كان يفكر في اختيار
[illegible] موضوع
الكتاب الذي قال عمرو انه سيرسله اليه
أو الذي [illegible] اليه فعلا

على أي الأحوال أسرع عمرو نحو مصر ،
وينبغي أن نذكر هنا [illegible] لا [illegible] به
المؤرخون مع عظيم أهميته ، وهو أن مناطق
[illegible] من جنوبي فلسطين في
أطرافه الدلتا كانت تعمرها قبائل عربية كثيرة
[illegible] من بطون [illegible] وخاصة [illegible]
منهم [illegible] نواحي العريش كانت [illegible]
[illegible] عرى من نعم وجدال ،
وكانت في شبه جزيرة سيناء [illegible]
للدلتا وصحراء مصر الغربية مواطن لقبائل
عربية كثيرة . وينبغي أن نذكر [illegible]
[illegible] لم يكن اذ ذاك [illegible] على الصورة

التي هي عليها اليــــــوم ، وإنما كانت مناطق صحراوية ومناطق مزروعة ، وكانت عيون الماء فيها كثيرة ، تحيط كل عين منها بقعة مزروعة صغيرة أو نخلات ، ونستطيع على ضوء ما ذكره أخيــــار العصر البيزنطي من أن صحراوات مصر الغربية والشرقية كانت عامرة بالأديرة والرهبان ، وكان الكثير من هؤلاء الرهبان نساكا متوحدين يجدون في البيداء مقصورات عمرهم كله في عزلة دائمة ولا شك أن هذه الصحاري لو كانت مجدبة كما هي اليوم ، وهذا يفسر لنا معالم القبائل العربية الكثيرة في سيناء وصحراوي مصر الشرقية والغربية ، ويفسر لنا أيضاً كيف استطاع الجيش العربي ، دون أن يتزود بشيء كبير أن يعبر سيناء دون جهد ، وأن يعبر بعد ذلك الصحراء من الإسكندرية إلى برقة ؛ ومن برقة إلى ما يعرف الآن بتونس ، ولو رجعنا إلى كتب الجغرافيين كأبي عبيد البكري من مطلع القرن الخامس الهجري في مصر والمغرب (تونس اليوم) لوجدنا الطريق حافلا بالآبار والعيون والواحات .

ولم يكن للبيزنطيين سلطان على هذه النواحي بطبيعة الحال ، أي أن الجيش العربي سار من رفح حتى بلبيس على الأقل وسط بلاد يسكنها ويسيطر عليها العرب ، ولم يكن للبيزنطيين فيها إلا حاميات قليلة ، منها في العريش ، وهي مدينة ... الاسم القديم لها هو Laris ، وكان ... تسمى رينوكورورا Rhinocorura أو Rhinokolora ، فاستولى عليها المسلمون دون جهد في عيد الأضحى ١٠ ذي الحجة ١٨ هـ (١٢ ديسمبر ٦٣٩ م) ثم تقدم عمرو بن العاص حتى وصل إلى موضع أقصى حصون مصر الشرقية شرقاً عند مدينة الفرما (Pelusium) وهناك وقع أول التحام بين المسلمين والروم في مصر ، واستمر القتال نحو شهر أو شهرين حتى اقتحمه المسلمون (حوالي ١٢ محرم ١٩ هـ - ١٣ يناير ٦٤٠ م) وأصبح الطريق أمامهم إلى قلب الدلتا مفتوحاً ، فلم يضيع عمرو وقته واتجه بمن معه نحو بلبيس .

ولم يكن الجيش الذي مع عمرو بالكبير ، فقد كان عدده ، حسب أقوال الرواة ، يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة ، ولكننا نرجح أن أعداداً كبيرة من عرب جنوبي فلسطين وسيناء وشرقي الدلتا انضمت إلى ذلك الجيش ، لأننا نلاحظ أن عمرو بعد سقوط الفرما واتجاه العرب نحو الدلتا كان قد ترك حاميات في بلاد ، ومن المستبعد أن يكون ذلك نتيجة لخروج آلاف قليلة من العرب إلى أرض مصر ، فلقد كانت غارات القبائل العربية على أطراف مصر الشرقية أمراً عاديا ، ولو كان جيش عمرو بهذه القلة لما كان تدخوله مصر الصدى البعيد ، ونحن نلاحظ أن العرب بعد أن عاشوا مدة في مصر وأقاموا معسكرهم حصن بابليون كانت معهم قوة عظيمة لا تقل عن عشرة آلاف أو ... ، فلابد أن

آلافا أخرى من العرب بعد الجيش الفاتح وانضم الى صفوفه ، وانسحب بنيامين عسكر ذلك بعده القبائل التي انتحت لأنفسها خططا في الفسطاط بعد تخطيطها سنة ٢١ هجرية . هل عدد هذه القبائل يزيد على اثنين وثلاثين قبيلة ، عبر أصحاب الرواية الذين سجلوا ذكرهم ، وكان عددهم كبيرا . فاذا فرضنا أن الذين دخلوا مع عمرو كانوا ٣٥٠٠ ، ثم انضم اليهم المدد الذي جاء مع عبد الله بن الزبير لكان المجموع تسعة آلاف ، أي بمعدل أقل من ٣٠٠ رجل من كل قبيلة ، وهذا العدد لا تكون به خطة أو قسم من مدينة ، فلابد أن العدد كان أكثر من ذلك . وقد اقتصرنا في هذا الحساب على من نزل الفسطاط ، ومن المعروف أن عربا آخرين كثيرين نزلوا الاسكندرية والجيزة ونواحي شتى من الدلتا

على هذه الاخبار نستطيع أن نفهم سبب قلة أهمية هذه القوة العربية من رد فعل بعيد المدى في البلاد . وقد ظهر رد الفعل هذا بصورة جلية في موقف الأقباط ، اذ أدرك رؤساؤهم أن الأمر أكثر من غارة بدوية ، وأن الزحف العربي الذي قضى على أمر الروم في القدس وصل الى مصر ، فخرج الأسقف بنيامين بطريرك الأقباط الأكبر — الذي عزله هرقل واضطهده سنوات فظل مختفيا نحو عشر سنوات قبل الفتح العربي — وكتب الى القبط يقول « انه لا تكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمر القبط بتلقي عمرو ، فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما صاروا يومئذ لعمرو أعوانا » . وسواء أكتب بنيامين الى جماعة القبط أم لم يكتب ، فقد حدد الأقباط موقفهم بعد سقوط الفرما ونفسهم أن الصراع الحاسم على مصير بلدهم قد بدأ فصاروا مع العرب على الروم ، وكان هذا هو العامل الحاسم في تيسير أمر فتح مصر على العرب . ولم ينضم الأقباط الى العرب علانية بعد سقوط الفرما ، بل بعد سقوط حصن بابليون وفتح الفيوم كما يقول يوحنا النقيوسي ، أما موقفهم قبل ذلك فكان موقف المحايد الذي يتمنى نصر العرب وزوال أمر الروم

وقد وجد عمرو أنه لا يستطيع ترك قوة كبيرة في الفرما لتحفظها ، وكان موقعها هاما من الناحية العسكرية ، فهي مفتاح الطريق من فلسطين الى مصر ، وخاف أن يعود الروم فيتحصنوا فيها ، فهدم أسوارها وحصونها حتى لا يتحصنوا بها ، ثم اتجه جنوبا بشرق فاستولى على بلدة تسمى البواسر ، ومكانها الآن قرية الجعافرة بمركز فاقوس بمديرية الشرقية ، ثم وصل الى بلبيس « ولا يدافع الا بالأمر الخفيف » كما يقول ابن عبد الحكم . وفي بلبيس التحم المسلمون مع حامية رومية قاتلته حوالي شهر ، حتى انتصر عليهم واستولى على البلد . وتذهب القصص الى أن عمرا وجد أرمانوسة بنت

المقوقس في نفسي . وأصل القصة ان فتح مصر ... الى الواقدي ، وهي في خطوطها الرئيسية ممكنة الوقوع . وتعتقد العرب في نفسي ... للمقوقس ، فأكبرها عمرو ... ابنة المقوقس ... العاص ... أنها كانت قد خطبت الى قسطنطين بن هرقل ، فبعث بها أبوها وقد جهزها بأموالها وجواريها وغلمانها لتسير اليه ، حتى يبني بها بمدينة قيسارية ... الى آخر القصة التي ... مؤلفو ... لم جرجي زيدان قصتين مرتبتين . وقد تناول القصة بطر ... بحجة أن المقوقس كان أسقفا فلا يمكن أن تكون له بنت ، وهي حجة واهية ، فلم يكن للمقوقس كما رأينا أسقفا ، ولو فرض وكان فلم يكن في الدين المسيحية اذ ذاك ما يحرم الزواج على رجال الدين ، لأن تحريم الزواج عليهم من النظم التي ابتدعها الرهبان . ومثل ذلك يقال عن نفي بعض المستشرقين لإهداء المقوقس جاريتين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد قالوا بذلك على أساس أن المسيحيين ، فضلا عن رجال الدين ، لا يجوز لهم أن يتخذوا الجواري أو يتزوجوا بأكثر من واحدة . وهذه كلها دعاوى لا تقوم على أساس ، فان المسيحية الأولى لم تحرم تعدد الزوجات ولا اتخاذ الجواري ... جاء ذلك في ... متأخر . وقد ... يقصد . وربما كان في قصة أرمانوسة في

خطوبتها المسيحية تأكيد لما ذهب اليه من أن القبط مالوا الى العرب بعد استيلائهم على الفرما ، فأحب عمرو أن يحسن رعيتهم باكرام ابنته

بابليون ومصر

واتجه عمرو بعد ذلك نحو مركز القوة الحربية البيزنطية في البلاد ، وكان هذا المركز مساحة عظيمة تمتد من موقع ... بين شمس الحالية الى الحصن المعروف باسم قصر الشمع ، وكانت هذه المساحة تضم عددا من القرى الصغيرة والحصون والأديرة والكنائس عرفت كلها باسم « مصر » . ولفظ مصر آرامي قديم ومعناه الحد أو الحدود ؛ أما اسم بلاد مصر عند أهلها الى ذلك العهد فكان « كيمي » أو « شيمي » أو « خيمي » ومعناه التربة الحمراء ؛ والعرب هم الذين وسعوا مفهوم لفظ « مصر » وأطلقوه على البلاد كلها . ونقول ان هذا الموضع كان يضم قرى وكنائس وحصونا وبساتين ، وتحتضنه قرى بقايا مدن أو عواصم قديمة الملك على طول تاريخ مصر القديم في هذا الموضع ، وتضمها كلها الآن مدينة القاهرة الحالية ؛ فيها هذا موقع منف القديمة ، وهو تابع الآن لمديرية الجيزة ، ويصبح من نواحي ... مدن والعواصم في هذا الموضع على اختلاف العصور ، لأنه موقع مثالي يحكم مصر والاشراف على الوجهين القبلي والبحري .

وقد بدأ الانشاء فيه على عهد الأسرة

البابلية عندما نشأ الفرس عنه مصر و تحدوها
عاصمة لهم . ولم يمض الوقت حتى أنشأ الفرس عنه موضعاً آخر على الضفة الشرقية وهو حصن بابليون الذي عرفه العرب الى حين دخولهم مصر ولا زالت بقاياه الى اليوم . والى جنوب مصر القديمة ، في مواجهة جزيرة الروضة ، قام حصن بابليون ، ويرجح أنه من إنشاء المصريين القدماء ، وأن اسمه الأصلي بي — حابي — ن — أون Pi—Hapi—n—on ويذهب شامبليون الى أن هذا الاسم كان يطلق أولاً على جزيرة الروضة ، وأن صورته الصحيحة بر — حابي — ن — اون Per—Hapi—n—on ومعناه جزيرة أون النيلية وسواء أكانت هذه هي الصورة الصحيحة للاسم ، أم الصورة الأولى ، فانه يحرف الى بابليون . وقد أنكر ذلك كله بتلر ، وذهب الى أن الحصن من إنشاء البابليين عندما دخلوا مصر ، وهو منسوب اليهم . أما العرب تعرب تفسير الاسم بأنه باب — ليون لغير معروف . وقد خلط المؤرخون والرحالة الأوربيون في العصور الوسطى بين بابليون وبابل Babylonia ، فأطلقوا اسم بابليون على القاهرة ، بل على مصر كلها ، فكانوا يسمون سلطان بابليون ، ويريدون سلطان مصر . أما المصريون فكانوا يطلقون على الحصن تسمية عربية من قولهم قصر الشمع ، والأصح أنه محرف للفظ Kasira Chema في عصر ... وقد عرفه بعض مؤرخي

المؤرخ ... ابن الفقيه يروي المصري ... الى أن هذا القصر كان توقد عليه الشمع في ... كل شهر ... حين تسير الشمس ... من برج الى آخر ... عليه الى برج غيره ».

ويمضي عمرو الى أول قرية من قرى منطقة مصر ، وهي قرية أم دنين ، وهذه قد ورد عند يوحنا النقيوسي باسم تندونياس Tendunyas ، ومكانها اليوم المنطقة التي يقوم بها جامع المقس — ويعرف اليوم بمسجد أولاد عنان — وتصل حدودها الى شارع الدكة والدرب الابراهيمي ، وكانت بها حامية صغيرة ، لقيها العرب عليها دون صعوبة ومكروه ، وكان النيل يصل اذ ذاك الى حدود القرية ، وبهذا أصبح في أيديهم موقع حصين على النيل ، تحصنه مياهه وشكله المرتفع ، والجهة نحو حصن بابليون ، وكان مركز جيشي مرتضى لكي يصل عدده عشيه من المدد . وبدأ عمرو بمهاجمته ، ثم تبين أنه لن يستطيع الاستيلاء عليه بمن معه من الجند القليل ، فبعث يطلب المدد من عمر بن الخطاب ، واكتفى بالتحصن في أم دنين وبالالتحام مع البيزنطيين في مناوشات يسيرة .

ويبدو أن عمراً ومن معه لم يشعروا ... اذ ذاك ، ... الأرواح في منطقة ... ، ولهذا ... بعث بنفر من عنده في النور ... عبر النيل الى الضفة الغربية حيث ... السفن نحو ... على النهر

موضع حصين ، ولم يكن لعمرو من عدة من وراء ذلك إلا الحصول على مدد من الأمويين.

وقد اختلط أمر هذه المدة على بعض من المؤرخين مثل حنا النقيوسي ، الذي زعم أن عمرا أرسل في ذلك الوقت حملة لفتح الفيوم ، وأنه في ذلك بعث بعضها إلى ... عمرو حاول فتح الفيوم فارتدت عنه ، وهو قول ضعيف ، لأنه لم يكن قد استولى على حصن بابليون ولم يقض على قوة الروم بعد ، والحقيقة ما قلناه ويؤيده قول السيوطي أن عمراً بعد فتح مصر أرسل جرائد الخيل إلى القرى التي حولها ، وبقيت الفيوم سنة لا يعلم المسلمون شيئا عنها ، وسيرى مصداق ذلك فيما يلي من الكلام.

ورأى عمرو ألا يطيل مكانه في أم دنين حتى يصل المدد ، فتقدم بمن معه نحو حصن بابليون وبدأ في حصاره ، وكان الروم قد حفروا خندقا حول الحصن واستعدوا استعدادا طيبا ، وأسرع المقوقس إلى بابليون ليكون على مقربة من الحوادث ، وبدأ الحصار في جمادى الأولى ١٩ هـ (مايو ٦٤٠ م) ولقي المسلمون عناء شديدا ، فقد حسب الروم قلة عددهم حتى قال البلاذري إن عمرا كان يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم ، فلما انتهى إلى الخندق نادوه أن قد رأينا ما صنعت ، وإنما معك من أصحابك كذا وكذا ، فلم يخطئوا برجل واحد ، وأقام عمرو مقيما على حصاره شهورا لا يظفر المسلمون ، حتى ضــــاق ذرعهم وصاح فيه رجل من أهل اليمن : « إنا لم نخلق من حجارة أو حديد » فقال عمرو « اسكت ، فإنما أنت كلب » ، فرد الرجل « فأنت أمير الكلاب » وعالج عمرو موقفه بحكمته ، فلم يلتفت إلى حديث الرجل ، ونادى نفرا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شهدوا معه الوقائع يستعين بهم على استنهاض همم المحاربين.

وعجل عمر بن الخطاب بإرسال المدد إلى عمرو بن العاص ، ويبدو أنه كان لا يزال يشك في قدرة عمرو على إتمام الفتح فأناط الزبير بن العوام في تولية أمر الفتح ، وقد روى المؤرخ البلاذري ، وقال إن عمر قال للزبير : « يا أبا عبد الله ، هل لك في ولاية مصر ؟ » فقال : « لا حاجة لي فيها ، ولكن أخرج مجاهدا وللمسلمين معاونا ، فإن وجدت عمرا قد فتحها لم أعرض لعمله ، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به ، وإن وجدته في جهاد كنت معه » فسار على ذلك ».

موقعة عين شمس (بابليون) والاستيلاء على الحصن

وبين المؤرخين خلاف على عدد جنود المدد الذي أرسله عمر ، فذهب بعضهم إلى أنه كان أربعة آلاف ، وقال آخرون بل إن عمر أمده باثني عشر ألفا ، ومنهم من ذهب إلى أنه كان مددا مكونا من أربعة آلاف على رأسهم أربعة هم الزبير بن العوام والمقداد بن

عمرو « الأسود » وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد ، أو خارجة بن حذافة العدوي . وقد وصل هذا المدد في ٩ جمادى الآخرة ٦ يونيو ٦٤٠ م وبعد وصوله مباشرة نشبت معركة حصن بابليون في دورها الحاسم .

ولما رأى عمرو بن العاص [illegible] فاصلة بالحصن بين الروم والأقباط فصلا تاما ، فاتصل برجلين من زعماء الأقباط هما أبو مريم جاثليق مصر أي رئيس رجال الدين من الأقباط — وكان معاديا للمقوقس — والأسقف أبو مريام ، ويبدو أنه كان معدودا بين رجال الدين ؛ لأنه حضر في « أهل البيعات » أي الكنائس ، وكلمهما كلاما رقيقا ذكر فيه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأقباط ، وعرض عليهما الإسلام وقال « فمن أجابنا إليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا إليه عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة » وكان لكلامه أثر بعيد في نفسيهما ، فردا عليه ردا جميلا ، ووعداه بأن المقوقس سيستمع إليه . وعندما علم رجال الحامية البيزنطية بذلك أنكروه وأصروا على القتال ، وتزعم ذلك الأرمينيون ، وهو قائد بيزنطي اسمه الأصلي أرطبون Aretion كان معسكرا في حرب العرب في الشام ، فلما انهزم الروم انتقل إلى مصر وأسرف في دفاع العرب عنها .

وكان عمرو قد أعطى مهلة للقبط مدتها خمسة أيام لينظروا في أمرهم ، فلما انتهت فاجأه الروم بالهجوم ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى ردهم إلى الحصن . ورأى عمرو أنه ما دام الروم وراء الأسوار فإن أمر تحصنهم سيطول ، وأنه لابد من إخراجهم من حصنهم ومقاتلتهم في معركة في الفضاء ، ودعاه إلى ذلك أن ثابت نفرا من الروم يخرجون من الحصن ويمضون فيحتمون في المزارع والبساتين الواقعة بين الحصن والمعسكر الرئيسي العربي في أم دنين ، فقرر أن يهاجم من يخرجون منهم هجوما مدبرا مرتبا يضطر آخرين منهم إلى الخروج . فأرسل تحت جنح الليل كتيبتين إحداهما إلى طريق أم دنين والثانية نحو الغرب حيث اختبأت في كهف من ثنايا جبل المقطم . وخرج الروم على عادتهم في الصباح الباكر ، وتقدموا نحو الفسطاط في اتجاه ما يعرف الآن بالعباسية ، فعند توسطهم الطريق وسيرهم بين البساتين والأديرة تقدم إليهم عمرو بكتلة من جيشه والتحم معهم ، فتجمعوا لقتاله ، فلما حمي الوطيس خرجت كتيبة الجبل من مكمنها وهاجمت مؤخرتهم ، فحسبوا أنهم محصورون بين جيشين ، وأسرعوا هاربين في اتجاه أم دنين ، فخرج إليهم الكمين الثاني ، ووقعوا بين جند المسلمين من كل ناحية ، واستحر القتال ووقع فيهم القتل ، وانهزموا وأسرعت فلولهم لتحتمي بالحصن [illegible] ، والتجأ [illegible] المسلمين [illegible] مصر كلها .

وتعرف الموقعة موقعة عين شمس ، وقد ترجمها بتلر خطأ باسم موقعة هليوبوليس .

وهي في الواقع لم تكن في المطرية (عين شمس) ، بل في موضع هليوبوليس الحالية وتقع على مقربة من حصن بابليون ، وهي أولى بأن تسمى معركة بابليون ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ، ويمكن الأغلب أنها كانت في ١٠ رجب ١٩ هـ — ١٥ يوليو ٦٤٠ م ، وقد اشتهر موضع انهزام الروم في الروايات العربية المتأخرة بمسجد يسمى بمسجد الفتح بناه بدر الجمالي الوزير الفاطمي بالقرافة الكبرى ، واستشهد فيها نحو أربعمائة من المسلمين دفنوا بمقبرة وحدهم عرفت بمقبرة الشهداء بموضع يعرف بمجرى الحصى قرب رباط الأمير مسعود .

ويذهب بطلر الى أنه لم ينج من جيش الروم الذين حاضروا معركة الا ثلاثمائة ، لاذوا بالحصن وأغلقوا الأبواب وقد أسرى الذعر فيمن في الحصن ، فخرج جماعة منهم فارين بالقصير وركبوا النهر الى قرية نقيوس ، ويعلق عليها بقوله « على أنه بقيت من الروم فئة لا بأس بها ، اجتمع اليها من كان في الحصن في أثناء القتال ، فصارت منهم جميعا حامية قوية تستطيع الدفاع عنه ولكن النصر الذي أحرزه العرب في هذه ، جعل مدينة مصر في قبضة أيديهم بغير قتال (كذا) وكان من قبل يحميها الجيش الذي في الحصن ، وأصبحوا يملكون ناصية ساحل النهر من ناحية الحصن من أعلاه ومن أسفله ، وتقدم عسكرهم حتى من حصن بابليون في الأصح أم دنين كما يرويه في شمال الحصن وعرفه بين الناس بالكنائس وحيث المكان هو الذي صار يعرف بالفسطاط فيما بعد . وقد صار حصن العرب بعد ذلك النصر كالمحصار بابليون لا تنوبه عائق من التحصين عليه بعد أن قضى على جيش الروم ، فلم يبق منه الا الفلول التي لاذت بالحصن أو هامت على وجهها في بلاد مصر السفلى » .

بدأ عمرو بعد ذلك مباشرة في الاستعداد لاقتحام الحصن ، ففرق رجاله كتائب تواجه الحصن من نواحيه كلها ، ونصب عليه منجنيقات ويبدو أنها لم تكن محكمة الصنع والوضع ، لأنها لم تقم بشيء ذي بال . وكان في الحصن حامية قوية من الروم ذكر منهم حنا النقيوسي قائدين هما تيودور وأوطليانوس ، وذكر العرب قائدا ثالثا يسمونه الأعرج أو الأعيرج ويسمونه « المندفور » وهو تعريب للفظ mandour وهي مرتبة من المراتب العسكرية في الجيش البيزنطي ، ويعتقد أنه كان حاكم الحصن وإن كان بطلر — متأثرا بمذهبه المعروف في حل هذه المشاكل — يذهب الى أن المراد به جورج حاكم اقليم مصر ، وقد ذكره حنا النقيوسي . وكان في الحصن أيضا جماعة من قادة الأقباط وكبارهم ، وعلى رأس هؤلاء المقوقس ، وهو حريص أشد الحرص حتى على كل مشاركة للمصريين في الأعمال العسكرية

لعاصمة مصر ، وهو غرض لا معنى له ، اذ انه مر التاريخ ، فرقا كثيرة من الحصن بين حكم في مصر كانت من الأهمية بمكان تحرك الى الحصن بعد سقوط الفرما واتصلوا الى المسلمين علاقة مصر سقوط حصن بابليون ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم لم يكونوا موجودين في الحصن في ذلك الحين . وكانت في الحصن ذخيرة كبيرة من الزاد والسلاح من كل نوع ، وقد لجأ اليه جمع عظيم من جند الجيش من أهل منطقة مصر والاديرة المجاورة للاحتماء بأسواره ويقال ان المقوقس كان بداخله اذ ذاك ، وهو قول لا نستطيع نفيه أو تأكيده . وعلى أى الأحوال فانه لما اشتد حصار العرب للحصن وقتالهم لمن فيه ، تسلل المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب الحصن الجنوبي وعبروا الى جزيرة الروضة وقطعوا الجسر الذي يصلها بالحصن حتى لا يصل اليهم أحد . وبعد قليل خاف الأعيرج وتسلل من معه ، فعبروا الى جزيرة الروضة لاحقين بالمقوقس ومن معه .

وبهذا هان أمر الحصن ، وأصبح الاستيلاء عليه مسألة وقت ، وانتقل مركز الثقل الى جزيرة الروضة ، ورأى المقوقس أن الظرف لا يحتمل طول الانتظار عند الأعيرج العرب ، وأرسل الى عمرو يطلب المفاوضة ، فأرسل اليه عشرة رجال فيهم عبادة بن الصامت ، وهو الذي تولى الكلام ، وقد أوردت الرواية نص المحادثة الذي جرى بين عبادة والمقوقس ، وهو حديث طويل عبر فيه عبادة عن روح العرب المجاهدين أحسن تعبير . والذي يعنينا هو معرفة شروطهم المعروفة : الاسلام أو الجزية أو القتال . وقد مال المقوقس الى الجزية ، ورفض هذا الحل كثير ممن معه من الروم وقالوا : « القتال أهون علينا » ، وكانت هذه المفاوضة في آخر شعبان ١٩ هـ / أغسطس ٦٤٠ م .

معاهدة بابليون

وفي أثناء المفاوضات تمكن العرب من الاستيلاء على الحصن ، وقد تولى كبر ذلك الزبير بن العوام في خبر طويل . ويبدو أن المسلمين لم يقتحموا الحصن كما تذهب اليه الروايات ، لأن المحصورين فيه لم ينزلوا الا على شروط ، وقد أسرفت الرواية في الحديث عن تلك الشروط حتى جعلوا حديثها أقرب الى الخيال ، ولكن الذي نعرفه ان المقبوض ولاول لهم مصير الحصن متساوي عشرين ألف دينار ومقادير من الأزواد والملابس . وقد زخرف الخبر بعد ذلك على أيدى الرواة ، فصاغوه منسوبا الى عبد الله ابن عمرو بن العاص وجعلوه في صيغة ملتبسة فيها شيء على الا في وطء على الرءوس ، وكل هذه بالذات خاصة فيما بعد ، قصد منها الفقهاء لكي يجعلوها للحكام أساسا في تقدير جباية مصر ونصيب من الجمعية

التي معه في شيء . ويسمى القرب الحصين وخرج من عنده ، وأصبح من ذلك الحين حصنه سلامة

وقد وجد المقوقس في سقوط الحصن ما يقوي وجهة نظره ، فأخذ يحقق من منعه على ضرورة التسليم والإذعان للجزية ، حتى جيئو رأيه وتصالح العربان . ولم يكن المقوقس ممثلا للإمبراطور بيزنطي ، ولهذا فقد نص في معاهدته تصبح على أن الأمر خاص بأهل مصر أو الأقباط ، وقد أورد ابن عبد الحكم وغيره نص المعاهدة ، وسنورده فيما يلي لأهميته مقسما إلى فقرات بحسب موضوع كل فقرة ، حتى نستطيع الرجوع إليها فيما يلي من بحث

١ — بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم

٢ — لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص

٣ — ولا يساكنهم النوب (أي أهل النوبة)

٤ — وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف (خمسين مليونا والأغلب أن المراد درهم ، وسنورد مناقشة ذلك)

٥ — وعليهم ما جنى لصوتهم (أي لصوصهم)

٦ — فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنه من الجزاء بقدرهم (أي حصص) وذمتنا ممن أبى بريئة

٧ — ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم

٨ — ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا

٩ — عليهم ما عليهم أثلاثا ، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم

١٠ — على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين

١١ — وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأس وكذا وكذا فرسا على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة

١٢ — شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر .

ونصوص هذا العهد واضحة لا تحتاج إلى مزيد من التبيان . وهي في ذاتها تؤيد ما قلناه من أن المقوقس كان من أقباط مصر ، وأنه كان يتكلم باسم مواطنيه ، ولو أنه كان مجرد عامل هرقل لما عقد الصلح عن أهل مصر دون سواهم من الروم . إلا من قبل من هؤلاء الأجانب الصلح في ذلك تصبح ويهمنا أيضا ملاحظة أنه صالح عن نفسه من

أهل مصر لأن نواحي أخرى كانت لم تصالح بعد ، فهو غير مكلف بأداء الضريبة عنها ، وإذا ثارت ناحية على العرب فقطعت أموالها فحقيقة مقدار الضريبة بمقدار ما يخص هـذه الناحية (فقرة ٩) ، لأن أهل مصر غير مكلفين بإخضاع نواحيهم للعرب ، وعلى عكس ذلك كانوا مسئولين عن الأمن في نواحيهم ، وبعد تحميهم من جميع خصومهم (الفقرة ٥) وواضح من الفقرة الحادية عشرة أن نفر من أهل النوبة سيجاورن لهذا الصلح ، فرضت عليهم ضريبة من الماشية والعبيد

وقد ذهب بتلر الى أن هـذا الصلح خاص بأهل مدينة مصر وحدها ولم يكن صلحا عاما عن أهل مصر ، ويستند في ذلك على حجج أهمها قلة قدر الجزية التي تقررت (٥٠ مليون درهم ، وهي ٥ر٣ مليون دينار) وعلاقة بين معاهدة الصلح هذه وشروط تسليم حصن بابليون . وعاب عنه أن مبلغ الجزية الذي تقرر في الصلح كان تقدير مبدئيا ، وسيعاد التقدير بعد تمام فتح مصر كلها على ما سنراه

استكمال فتح الوجه البحري والصعيد والفيوم :

وبقي للروم بعد ذلك معقل آخير هو الاسكندرية ، وكان لابد من فتحها حتى يتم خلاص البلاد من الروم ، ولكن عمرا رأى أن يستكمل افتتاح ما يستطيع الوصول اليه من نواحي مصر قبل أن يخرج الى الاسكندرية ، فبعث بسرايا سريعة الى نواحي الوجه البحري والمنوفي ، فبعث خـــلاب الى عين شمس وتنيس ودمياط وتونه (قرب اليوم ومكانها جزيرة ببحيرة المنزلة تسمى كوم بن سلام ، شرقي مطرية المنزلة) ودميرة (حاليا قرية بمركز طلخا ، مديرية الغربية) وشطا (من ضواحي دمياط على ٥ كيلو مترات منها) ودقهلة وبنا (اليوم بنا أبو صير مركز سمنود مديرية الغربية) وبوصير (اليوم أبو صير بنا ، مركز سمنود ، غربية) والبشرودات (اقليم كان يقع الى الشمال حول بحيرة البرلس) ثم الى الفيوم والأشمونين وإخميم وغيرها من بلاد الصعيد مصر « فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج » كما يقول البلاذري . وكان من هذه النواحي يدخلون على شروط الصلح الذي عقده المقوقس ، فراحت مصادر العربية ، مما جعل عمر يقرر النظر في أمرها جميعا بعد فتح الاسكندرية

ويبدو أن فتح الفيوم كان أشبه بالمغامرة ، لأن المسلمين لم يصلوا أول الأمر الا الى قرية متطرفة الى الشمال من قراها تسمى اللاهون (اللاهون اليوم وتقع جنوبها عند حوض الهون أو الهوى بناحية قلمشاه الفيوم) ، ثم الاستيلاء على ناحية الفيوم فلم يتم الا بعد ذلك بعدة شهور ، وتذهب الروايات الى أن أمرها ظل مجهولا للعرب حتى دلهم رجل عليها وعلى الطريق اليها . وقد

كتب في فتحها كتاب قصصي خاص يسمى «فتوح البهنسا»، وذهب بوجه خصوصي الى أن العرب عندما دخلوا البهنسا قتلوا كل من وجدوه فيها من رجال ونساء وأطفال، وكذلك فعلوا عند دخولهم طنوس، وكلا الأمرين مستبعد، إذ لماذا يخص العرب هذين البلدين بهذه المعاملة دون بقية بلاد القطر؟ ولا يخرج الأمر هنا عن كونه إحدى الخرافات الكثيرة التي ملأ بها صاحبه كتابه.

فتح الإسكندرية

ولم يضع عمرو وقتا، بل اتجه لفتح الإسكندرية رأسا، وللمرة الأولى نرى القبط الى جانب العرب صراحة، وذلك نتيجة طبيعية لمعاهدة الصلح، يقول ابن عبد الحكم عن عثمان بن صالح «وخرج معه جماعة من رؤساء القبط، وقد أصلحوا لهم الطريق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم، وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت، وقدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم، فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح». ولم يلق المسلمون في طريقهم أحدا من الروم الا عند ترنوط (حاليا الطرانة مركز كوم حمادة، محافظة البحيرة)، وكانت بها فرقة صغيرة للروم عند ذهابهم الى الإسكندرية، وقد لقي المسلمون بعد ذلك حامية رومية صغيرة فهزمت أمامهم.

ثم نزل عمرو نقيوس، وكانت بها حامية رومية بقيادة قائد يسمى دومنتيانوس بعده سفن كثيرة في النيل، فلما رأى العرب ترك سفنه ومعداته وهو فار بأمعه صغير من جنده الى الإسكندرية، فأرسل عمرو في أثره سرية عليها شريك بن سمي المرادي، فأدركهم عند كوم شريك (مركز كوم حمادة، بحيرة) وكانوا أكثر من المسلمين عددا فأحاطوا بهم، فأرسل شريك يستنجد بعمرو، فأنجده، وتراجع الروم حتى سلطيس (اليوم سنطيس على بعد كيلو مترات جنوبي دمنهور) فالتقى جندهما وهزم الروم، وتقهقروا حتى وقفوا عند الكريون (قرب محطة القرشي، مركز كفر الدوار بحيرة) وكانت مفتاح الطريق الى الإسكندرية، وكان فيها حصن يحمي شاطئ الترعة الذاهبة الى الإسكندرية، وكان القائد تيودور قد تحصن بها وبعث يطلب النجدات، فأتته من مواضع مثل سخيس (مكانها الآن قرية أم حكيم، مركز شبراخيت، بحيرة) وسنطا (مركز كفر الشيخ، رشيد). واستمر القتال بضعة عشر يوما، ثم انهزم الروم وتعقبهم المسلمون حتى بلغوا خط الحصون الذي يحمي الإسكندرية فوقفوا أمامه.

وكان المسلمون «ما بين حلوة الى قصر فارس الى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط، يمدونهم بما احتاجوا اليه من الأطعمة والعلوفة، فأقاموا شهرين». وقد

الروم في الإسكندرية استعدادا عظيما ، وعبر هرقل للأمر حتى قيل إنه استعد بنفسه للخروج إليها بنفسه لولا أن حال الموت دونه وذلك . وقد طال وقوف عمرو أمام الإسكندرية ، وكان معه رجلا وافر النشاط لا يطمئن إلى السكون ، فشغل بعض جنده في غزو ما أصحبت يعض نواحي من شمال غرب الدلتا وإقليم البحيرة ، ثم عاد فشدد الهجوم على الإسكندرية حتى طلب المدافعون عنها التسليم مقابل الجزية ورد من سبي أن يكون العرب قد سبوهم من أهلها . ولم يستطع عمرو إجابتهم إلى ما طلبوه إلا بإذن من الخليفة عمر ، لأن حكم البلد الذي يشترون عليه بعد هذا القتال الصعب هو حكم العنوة ، في حين أن المدافعين عن الإسكندرية طلبوا معاملة الصلح ، فكتب عمرو إلى عمر بالأمر ، فوافق على إجابة الطلب ، ودخل العرب الإسكندرية بعد نحو ثلاثة أشهر من القتال والحصار .

وقد روى ابن عبد الحكم خبر الفتح عن رجل ممن حضروه هو زياد بن جزء الزبيدي . ولم يكن أحد يتصور أن مدينة كالإسكندرية تسقط بهذه السهولة في ذلك الوقت القصير ، ولكن هكذا تم ضعف الروم واضطراب أمرهم ، وهكذا بلغت قوة العرب وعلو نجمهم . وقد أسرع عمرو بعد دخول الإسكندرية فأمن أهلها كما من جملة ما طلبوه من هو منها من الروم . وأحصى الذين لم يكن الحصار قد مدت ، فعادوا إلى الإسكندرية ودخلوها ناقضين العهد فقاتلهم المسلمون قتالا عنيفا حتى استولوا على البلد مرة ثانية . ورأى عمرو أن ذلك يبيح له اعتبار البلد قد فتح عنوة لا بعد عهد ولا عقد ، فبعث إلى عمر يستأذنه في أن يجعلهم وأهلها غنيمة للمسلمين ، فأبى عمر وأمره بأن يجري عليهم الشرط الأول . وأسرع قيرس إلى القسطنطينية ليحصل على تفويض شروط الصلح ، وعاد بالموافقة والشرط المحافظة على الكنائس وعدم التدخل في الشؤون الدينية للأهالي والسماح لليهود بالإقامة في الإسكندرية ، وأن يبقى العرب أحد عشر شهرا خارج المدينة حتى يتم جلاء الروم عنها . وقد قبل عمرو ذلك كله وتم الصلح أوائل ذي القعدة ٢٠ هـ / أوائل نوفمبر ٦٤١ م ، وأبحر الروم من الإسكندرية في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ . وكان قيرس قد مات خلال مهلة الأحد عشر شهرا ، في ٢١ مارس ٦٤٢ .

وبذلك تم فتح مصر كلها في نحو سنتين وأربعة أشهر ، فقد وصل عمرو بن العاص العريش في ١٠ ذي حجة ١٨ هـ / ١٢ ديسمبر ٦٣٩ ، وبارح الإسكندرية آخر جندي بيزنطي في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ . وضم العرب إلى إمبراطوريتهم الناشئة هذا القطر المصري الذي كان أغنى وأهم ما ملكته دولة البيزنطيين ، ووضع العرب قدمهم ثابتة في

أفريقية فكتب لهم عهداً بعد أن سيطروا على الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، ومن لا يستطيع مع الفتح حتى استولوا على البحر كله بالأندلس ، وسيطروا على الحوض الغربي لذلك البحر وكمهد السبيل بتحويله الى بحيرة عربية . وامتدت حدود المشرق حتى وصلت الى المحيط الأطلسي وإلى جبال البرت المعروفة بالبرانس ، واقتحمت أقسام المسلمين تطرق الى قلب القارة الافريقية ، فلم يكن فتح من فتوح الاسلام أعظم أهمية ولا أبعد أثراً في تاريخه من فتح مصر . ولا يتسع المجال هنا لعرض النتائج البعيدة المدى بعد الفتح ، فمن الخير من أن نبين ولو في إيجاز ، ونسرد بعض النتائج فيما يلي من فقرات .

مصر جزء من الدولة الإسلامية(١)

تصور المؤرخون أن يصوروا أن مصر أصبحت بعد تمام الفتح ولاية من ولايات

(١) اصول : ال جانب فتوح مصر والمغرب والأندلس ، لابن عبد الحكم ، و ، كتاب الولاة والقضاة ، للكندي ، و ، خطط ، المقريزي طبعة القاهرة ١٣٢٤ جـ ١ و ٢ . والطبري و ابن الأثير وبقية المراجع التي ذكرناها في الفقرة السابقة الخاصة .

المقريزي : اتعاظ الحنفا . طبعة الدكتور جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٤٨ .

السلوك لمعرفة دول الملوك . طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة . الجزء الأول القسم ١ و ٢ و ٢ .

— تاريخ الحاكم . قطعة نشرها مستقلة في جوتنجن سنة ١٩٠٥ .

ابو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . جـ ٢ القاهرة ، ١٩٢٩ - ١٩٣٠ .

ابن حجر العسقلاني : الاصابة في تمييز الصحابة ، ٨ جزء . القاهرة ١٣٢٣ - ١٣٢٥ (مواد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح ومعاوية ابن أبي سفيان ومعاوية بن حديج) .

ابن دقماق : كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار . جـ ٤ و ٥ . بولاق ١٣٠٩ .

قدامة بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة . جـ ٦ من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٨٩ .

القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا . القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ في ١٤ جزءا .

يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج . ليدن ١٨٩٥ - ١٨٩٦ .

أبو يوسف القاضي : كتاب الخراج . بولاق ١٣٠٢ .

يحيى الانطاكي : كتاب التاريخ ، طبعة لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٩ .

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ليدن ١٩٠٨ .

ابن سعيد المغربي : الجزء الخاص بمصر ، طبعة الدكاترة زكي حسن وشوقي ضيف وسيدة اسماعيل الكاشف . القاهرة ١٩٥٣ .

ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . جزء واحد نشر في دار الكتب سنة ١٩٢٤ .

ابن الجيعان : التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية . القاهرة ١٨٩٨ .

الاسحاقي : لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول . القاهرة ١٣٢٨ .

السيوطي : حسن المحاضرة . القاهرة ١٣٢١ .

مجمـــوعات أو أوراق بردية و... نشرها
Galtier في مطبوعات معهد الفرنسي بالقـــاهرة
سنة ١٩٠٩ مجلد ٣٢

Max van Berchem : *Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum*, tome I, le Caire 1894-1903.

وقد نشر المجلد الثاني جاستون فييت في مجلدين

Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, vol. L. I, le Caire, 1930-1930.

Adolf Grohmann : *Corpus papyrorum Raineri*, Series arabica, Wien, 1923-1924.

Grohmann, *Arabic papyri in the Egyptian Library*, 4 volumes, le Caire, 1934-1939.

وقد ترجم العربي الأول من كتابي الدكتور حسن إبراهيم حسن، القاهرة ١٩٣٥ و ١٩٤٤ ونشر أيضاً أربع محاضرات للأستاذ جروهمان مترجمة إلى العربية بقلم توفيق إسكاروس القاهرة ١٩٣٢

Carl Heinrich Becker : *Historische Studien über das Londoner Aphroditowerk* (Der Islam, Band II, 1911).

Karabacek : *Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung*.

H. I. Bell : Translations of the Greek Aphrodito papyri in the British Museum (Der Islam, Bände II, III, IV, XVII, 1911-1912-1913-1928).

W. E. Crum : *Coptic Ostraca*, London, 1902.

Gaston Wiet et autres : *Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe*, 1931-1939.

أبحاث ودراسات

الدكتور سيدة إسماعيل الكاشف : مصر في فجر الإسلام، القاهرة ١٩٤٧ وهو أهم بحث في الموضوع

أحمد أمين : فجر الإسلام، القاهرة ١٩٢٨
وضحى الإسلام، ج ١، القاهرة ١٩٣٦

الدكتور محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية، عصر الولاة، الفاطمية إلى سقوط العباسيين، بغداد

محمود عكوش : مصر في عهد الإسلام القاهرة ١٩٤٠

الدكتور عبد الرحمن فهمي : صنج السكة، القاهرة ١٩٥٨

Carl Heinrich Becker : *Beiträge zur Geschichte Ägyptens unter dem Islam*, Heft I, Strassburg, 1902.

— *Arabische Papyri des Aphroditofundes*, Zeitschrift für Assyr...

— *Islamstudien*, I Bände, Leipzig, 1924.

Max van Berchem : *La propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premiers califes*, Genève, 1886.

Une page nouvelle de l'histoire de l'Égypte, Journal Asiatique, 9e série, tome IX, Paris, Janvier, Février, 1897.

Butcher, Mrs. E. L. : *The Story of the Church of Egypt*, London, 1897.

Franz Pascha : *Kairo*, Leipzig, 1903.

Reitemeyer : *Beschreibung Ägyptens im Mittelalter aus den geographischen Werken der Araber*, Leipzig, 1903.

Becker : *Papyri Schott Reinhardt*, Heidelberg, 1906.

Casanova : *Essai de reconstitution topographique de la ville d'Al-Fostat ou Misr*, dans Mémoires de l'Institut Fr. d'Arch. Orientale, vol. XXXV, Le Caire, 1913-1919.

Wüstenfeld : *Die Statthalter von Ägypten zur Zeit der Chalifen*, Goettingen, 1875-1877.

الدولة الإسلامية. وهذا القول يخالف الواقع بعض الشيء، وأقل ما نفهم منه أنه كانت هناك دولة كبيرة مركزية كالدولة الرومانية مثلاً، تعتمد على شعب معين حاكم كالشعب الروماني. والحقيقة فيما يتصل بدولة الإسلام تخالف ذلك، فلم تكن هناك ـ من الجهة النظرية الإسلامية ـ دولة رئيسية تقوم على شعب مختار حاكم، تخضع له ولايات تعيش فيها شعوب مقهورة مغلوبة على أمرها. وإنما الحقيقة فيما يتصل بالدولة الإسلامية أنها كانت دولة عامة يقوم بشئونها المسلمون عامة لا يفرق بينهم في الحقوق والواجبات جنس أو مكان، فكل مواطن مسلم في هذه الدولة يعد من أصحابها وله الحق في ولاية وظائفها العامة وقيادة جيوشها والاشتراك في وضع التشريع الخاص بها.

ومن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تولى المسلمون من غير العرب وظائف عامة، وابتداء من عصر الراشدين اشتركوا في التشريع والتفقيه، وخلال العصر الأموي قادوا الجيوش وتولوا الولايات، وخلال العصر العباسي تلاشت مسألة الأجناس تلاشياً تاماً، وأصبحت الدولة بالفعل دولة عامة للمسلمين عامة. كذلك انتقل مركز الدولة من جزيرة العرب إلى الشام ثم إلى العراق [illegible] ومع ذلك لم يكن أحد ذلك الانتقال [illegible] إلى شيء عادي لا يتعارض مع طبيعة دولة الإسلام. أي أن دولة الإسلام ليست دولة جنس ولا قطر بعينهما. فدخول مصر أو غيرها من النواحي في طاعة الإسلام لم يكن معناه أنها أصبحت ولاية خاضعة يحكمها جنس غالب أو بلد له سيادة كما كان الحال مع الامبراطوريات المعروفة في التاريخ، وإنما كان معناه أنها أصبحت جزءاً من هذه الدولة العامة، بل أصبحت قاعدة لامتدادات جديدة لدولة الإسلام.

ومن مصر فتح المغرب كله، وأصبح المغرب بدوره جزءاً من الدولة العامة، وقام أهله بقسم كبير جديد إلى الدولة العامة التي أصبحوا مواطنين فيها ومن جملة أصحابها، ففتحوا الأندلس، أو قاموا بأعظم جانب من هذا الفتح. ومثل هذا حدث في المشرق: فتح العرب العراق، ثم اشترك أهل العراق مع العرب في إدخال إيران في دولة الإسلام، ثم اشترك العرب والعراقيون والإيرانيون في فتح ما وراء النهر وأخذوا يدخلون الأتراك وبلادهم في دولة الإسلام، ثم قام الأتراك بتوسيع نطاق الدولة فيما يليهم شرقاً حتى وصلوا بها إلى الهند. وتوالت هذه الأجناس كلها على قيادة أمور الدولة الإسلامية العامة كلها، وهي جنس من أجناسها يمسك بالأمر من بعده جنس آخر، حتى صارت أمورها العامة آخر الأمر إلى الأتراك العثمانيين. وإلى هذه الصفة الخاصة لدولة الإسلام يرجع تفوقها وخصيصتها التي ميزتها على غيرها من دول العالم

القديم والوسيط ، وربما شابهها في بعض الوجوه الدولة البريطانية ، التي يرجع بعض مؤرخيها إلى أنها كانت في الواقع دولة عسكرية سوقي أمورها ذكاءً ، والأمر من أهمية وتتألف جيوشها من الشوقيين والهنود والمصري والأرمن وأهل سلقاب بن الأتراك على سواء .

غير أنه في دولة مترامية متسعة واسعة كالدولة الإسلامية تتسع في أرجائها شعوب شتى لم يخل الأمر من شعب قوي وشعب ضعيف ، أو شعب يكون قويا حينا وضعيفا حينا ، ومن ثم فقد عبثت في داخلها شعوب على شعوب وخضعت بلاد لبلاد ، دون أن يكون معنى ذلك أن الشعب الغالب أصبح صاحب الدولة وأن الشعب المغلوب قد أصبح رعية محكومة مستغلة ، كما كان أمر مصر مع الرومان مثلا ، فقد كان من المفروض والمقرر de jure et de facto أنها ولاية تابعة لروما أو القسطنطينية . وإذا كان المصريون مثلا قد غلبوا على أمرهم في بعض عصور التاريخ الإسلامي واعتبرت بلادهم ولاية خاضعة لغيرهم ، فمعنى ذلك أنهم لم يستطيعوا المحافظة على حقوقهم ، وعندما ستقوى أمرهم بعد ذلك عبروا غيرهم واستقلوا ببلادهم بل ضموا إليهم غيرهم والحجاز الذي كان المفروض أن يظل سيد الدولة كان لأهل بلاده حظ في الرياسة والقيادة على طول تاريخ الإسلام وعرضه

فالمشكلة لم تكن الأمر في عهد الدولة الإسلامية الواسعة من سيادة شعب أو غلبة أو عصبية سياسية ، وإنما يرجع إلى ذلك من مساوئ التي لا تخلو منها دولة من الدول ، وقد دبت دائما في صفوف الحكم في ذاته وفي تعقد المشاكل وتعددها والى عجز الحكام عن إيجاد الحلول الصالحة وذلك أمر لا علاقة له بدولة الإسلام في ذاتها ، بل هو مشكلة السياسة العالمية قاسى منها بعض شعوب الإسلام كما قاسى منها غيرها .

هذه مقدمة لابد منها قبل النظر في شئون مصر بعد دخولها دولة الإسلام ، فهي لم تصبح ولاية عربية أو ولاية إسلامية ، بل جزءا من دولة الإسلام يجري عليها وعلى أهلها ما يجري على الوطن الإسلامي الكبير كله جميعا ، ويكفي أن نقرر أن بلاد العرب وهم الجنس الذي تنتسب إليه الدولة كلها ، كانت أسوأ حالا من مصر أو غيرها من أجزاء الدولة الإسلامية خلال العصر الأموي وما تلاه ، لا لأن أهلها كانوا شعبا مغلوبا أو مستضعفا ، بل لأن طبيعة الإقليم الصحراوي لم تساعد أهله على الصمود في رحلة الصراع الطويل الذي لم يهدأ تياره قط طوال تاريخ الإسلام . ولم يشعر شعب مصر بعد دخوله في دولة الإسلام بأنه شعب مغلوب ، لم تحل موقعة من العرب موقف المغلوب من الغالب على العصر من الأول بين العرب العصر الإسلامي مثلا نحو خمسين .

لقب « les vainqueurs et les vaincus » ولكننا إذا نظرنا الى الأمر من [illegible] ... كانوا [illegible] موقعهم الى جانب العرب أثناء الفتح [illegible] في حسنه العالين [illegible] [illegible] مجالس [illegible] [illegible] بالمناصب [illegible] من [illegible] الروم [illegible] وتعصبهم [illegible] علينا ، ووجدنا أنفسنا بذلك في راحة ، وليس هذا كلام رجل يشعر أن قومه قد غلبوا على أمرهم

على أي الأحوال أصبح المصريون — سواء من أسلم منهم ومن لم يسلم — جزءاً من أهل الوطن الاسلامي الكبير ، يجري عليهم ما يجري على غيرهم من أحكامه وظروفه وتقلب الأحوال به ، فرضيت حياتهم واطمأنوا في خلافة عمر بن الخطاب والنصف الأول من خلافة عثمان بن عفان ، شأنهم في ذلك شأن بقية أهل دولة الاسلام . فلما نشبت أزمة عثمان وتحركت الفتن اشترك أهل مصر فيها وقاموا بدور معروف ، وشاركوا أيضاً في النزاع بين علي ومعاوية ، وكان لهم شأن في النزاع بين الأمويين والزبيريين ، [illegible] بالصراع النهائي بين الأمويين والعباسيين ، [illegible] ولم تنج مصر خلال هذه الفترة [illegible] من [illegible] دولة الاسلام كلها [illegible] [illegible] مستقلاً من الفتح الى نهاية الدولة الأموية على الأقل

ونحن نلاحظ هنا أمراً كان له أبعد الأثر في تحديد الدور الذي قامت به مصر في تاريخ العصر الذي نتحدث عنه وما تلاه من عصور ، وهو أن مصر بطبيعتها بلد [illegible] يقوم عمرانه على مورد ثابت هو النيل ، وأن [illegible] [illegible] فيها من موارد البحر الأحمر ، وهو الى جانب ذلك [illegible] يميل الى الحياة المستقرة الرتيبة ، وقد نظم هذا الشعب أموره على نحو ثابت منذ الزمن القديم ، ومن ثم لم تكن هناك في العصور الوسطى مشاكل مستعصية أو طارئة كالتي تتعرض لها بلاد ذات طبيعة [illegible] أو التي يعتمد أهلها على مطر غير منتظم أو على تجارات رابحة عادية في البر والبحر ، وما الى ذلك من وجوه النشاط المرتبط بالظروف الطبيعية أو العامة . وكل ما تحتاج اليه مصر من حاكمها في سياسة أمورها الداخلية هو أن يكون قادراً على أن يقر الأمن في ربوع البلاد عادلاً في أحكامه وفيما يجبى من أموالها ، ولهذا كان الناس يعبرون عن الحكم في العصر التركي « بالضبط والربط » أي ضبط الأمن وربط الأموال . أما ما عدا ذلك من الأمور كاستغلال [illegible] فمن شؤون سكان مصر أنفسهم [illegible] [illegible] على مر العصور . وكل ما تعرضت له مصر خلال [illegible] من الأزمات [illegible] كان [illegible] عجز الحكام أو [illegible] أو تدخلهم في [illegible] الناس [illegible]

ولهذا لم يستطع حكام مصر من العرب أن يضعوا لها نظاما جديدا من الأكفاء بإزاء النظام التقليدي ولم يكن الرومان أو البيزنطيون من قبلهم قد أفلحوا في حكم مصر ، لأنهم جعلوها موردا للاستغلال والأقوات بسلطات وموظفين مكلفين بجمع المال ، ثم أضافوا الى ذلك التدخل في شئون العقيدة . وقد أدرك العرب ذلك كله من أول الأمر ، فأقروا على البلاد بالاتفاق مع أهلها قدرا معينا من الجباية واختصروا الجهاز الاداري الى أبسط حد ممكن ، وتركوا الناس أحرارا في عقائدهم ، فكان من الطبيعي أن يسود الرخاء والاستقرار .

الفترتان الأموية والعباسية

ويمكن أن نفرق عند دراستنا لأحوال مصر — منذ الفتح العربي الى قيام دولة أحمد بن طولون عام ٢٥٤ / ٨٦٨ — بين فترتين تختلف احداهما عن الأخرى اختلافا بينا في الروح والاتجاه . الأولى تمتد من الفتح الى نهاية العصر الأموي (من شوال ٢١ هـ سبتمبر ٦٤٢ الى ربيع الأول ١٣٢ هـ أغسطس ٧٤٩) ، والثانية من بدء العصر العباسي الى استبداد أحمد بن طولون بشئون مصر في الشهور الأخيرة من سنة ٨٦٨/٢٥٤ . فالفترة الأولى تعتبر بصورة عامة فترة استقرار ونظام وهدوء ، يعترف فيها معظم العمال وغالب عنهم بالعدل من ولاتهم للعدل والتقدير بحسن السمعة ، ولا يشكو المصريون شكوى عامة من تعسف العمال أو سياسات الحكام . والفترة الثانية فترة قلقة سياسية وفوضى ادارية تقصر فيها مدد الحكام ويتعاقبون فيها على البلاد واحدا في اثر واحد ، ويفقد الكثيرون من كبار العمال الهيبة وثقة الناس ، ويسلكون مسالك الخيانة ويشكو المصريون الظلم وتكثر ثوراتهم وتتعرض أمور البلاد كلها للفساد . ومرجع الاختلاف بين الفترتين انما هو صدى للتطور العام الذي شمل الدولة الاسلامية كلها خلال عهدي العصرين .

الادارة :

ونبدأ بالفترة الأولى . فنصف الجهاز الاداري الذي أنشأه العرب بمصر على رأسه وال يعتبر حاكما عاما وممثلا للخليفة ويدخل في اختصاصه كل شيء بصورة مبدئية . فهو الحاكم الاداري الأعلى وأمير الصلاة والقائد العسكري والمسئول عن شئون المال وما الى ذلك الا القضاء ، فقد اعتبرته الدولة الاسلامية من أول الأمر وظيفة رفيعة القدر يقتضي صلاحها أن يكون سلطان صاحبها مستمدا من الرئيس الأعلى للدولة مباشرة . وكان الوالي يسمى أيضا العامل أو الأمير أو أمير الصلاة أو أمير الجند ، وتسميه الوثائق البردية اليونانية سيمبولوس وتستعمل البرديات العربية لفظ صاحب . ويعاون الوالي موظفون يختارهم بنفسه من عنده ، وتظهر هذه الصورة واضحة في الناحية

كافة ، فكثيراً ما كان الخلفاء يعينون بأنفسهم بها عاملاً خاصاً مسئولاً أمامهم مباشرة يسمى عامل الخراج .

وقد كانت شؤون المال أهم جانب من أعمال الوالي ولذلك التصرف كان يلقى معارضة شديدة من الولاة ، فقد ترك عمرو بن العاص ولاية مصر عام ٢٥/٦٤٥ عندما قرر عثمان أن يولي عبد الله بن سعد على الخراج من جانبه ، وفي خلافة معاوية شكا أخوه عتبة بن أبي سفيان عامل مصر من تولية وردان عاملاً على الخراج من جانبه ، فضم إليه الخراج . وكان الولاة على حق في هذا الاعتراض ، لأن الخراج كان عصب الولاية في واقع الأمر ، وإن تولاه رجل قادر استطاع أن يتحدى الوالي ، كما حدث عندما ولي هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب عاملاً على الخراج ، فقد استبد بأعماله حتى عزل خمسة منهم خلال ولايته الطويلة على خراج مصر (١٠٥ - ٧٢٣/١١٦ - ٧٣٤) ومع ذلك فلم يمنع الخلفاء من إفراد الخراج بوالٍ خاص حتى أقام خلفاء بني أمية سبعة منهم في فترات مختلفة . وعندما ولي هشام ابن عبد الملك على مصر الوليد بن رفاعة لم يدخر الوليد وسعاً في التخلص من عامل الخراج عبيد الله بن الحبحاب ، ولكن من الواضح تمسكه بضرورة إبعاده من خراج مصر فاستبقاه على مصر .

وكان العامل هو أمير الجند ، فكانت بيده الجيوش وتأمين البلاد من البر والبحر من أهم اختصاصاته ، ونستطيع أن نقرر أن عمال مصر حتى نهاية العصر الأموي كانوا على الجملة من ذوي خبرة ، ويجري تعيينهم بحسب مقدار خبراتهم بشؤون الجند والحرب وتدريبهم في ذلك .

وكان العامل مسئولاً عن الأمن داخل البلاد ، وجرت العادة بأن يعين الوالي من قبله موظفاً مسئولاً عن الأمن يسمى صاحب الشرطة ، ويكون في الغالب النائب عنه إذا غاب ويليه في الأهمية في السلم الإداري ، وفي أحيان كثيرة كان صاحب الشرطة يخلف الوالي في منصبه إذا عزل أو مات أو تنحى عن عمله ، وربما أقام الخليفة صاحب الشرطة من قبله . ووظيفة الشرطة بصفة عامة من وظائف الإدارة التي لا نعرف عن أمورها شيئاً مفصلاً ، وفيما يتصل بمصر لدينا إشارات كثيرة عن الشرطة ، ونستطيع أن نستنتج منها اختصاصاته ، ولكننا لا نعرف المدى الذي كان يمتد إليه سلطان صاحبها ، هل كان يشمل بلاد مصر كلها أو الفسطاط فقط . وقد ذهب بعضهم إلى أنه كان يشمل القطر كله ، وأنه كان لصاحب الشرطة ممثلون في النواحي ، ولكننا لا نجد بين أيدينا ما يؤيد ذلك ، وكل ما لدينا في المصادر أن هناك ما يسمى شرطة عليا أو الشرطة العليا وشرطة أسفل أو الشرطة السفلى ، والمراد هنا قسمان إداريان ينقسم إليهما الفسطاط .

على أي حال فان دائب لا تمحص على شرطة مصر فقط ، بل على شرطة غيرها من بلاد الإسلام . ففي العصر في كان الشرطة صاحبة ... كانت هنالك شرطة خاصة بالبصرة ، ولكنها تابعة لوالي البصرة . وفي قرطبة كانت هناك شرطة عليا وشرطة سفلى خاصتين بالمدينة ، وكانت هنالك شرطات في كبار المدن ، ولكنها كانت تابعة لولاتها . أي أن نظام الشرطة في العالم الإسلامي كان نظاما خاصا بالعواصم ، ولم يكن جهازا إداريا منظما مثل جهاز البوليس والأمن العام عندنا اليوم ، بل هو لم يكن — حتى في حدوده المحدودة — نظاما للأمن في أول الأمر ، بل كان يطلق في العصور الأولى على فرقة مختارة من الجند تقوم بحراسة الخليفة أو الوالي ، ثم اتسع سلطان صاحبها إلى الأمن في العاصمة ، واللفظ معرب عن اللاتينية Secutrai أما الأمن في الكور فكان من شأن عمال الكور .

وكذلك يقال عن البريد ، وقد نشأ وظيفة من أيام معاوية بن أبي سفيان على الأغلب ، وقد أنشأه ليعرف أخبار النواحي ، أي أنه كان نظاما مهمته تيسير المكاتبات بين مركز الدولة والنواحي ، وأهم أدواته السرعة التي تميز بها البرد والخيل التي تحملها ومعنى هذا أنه يدل على أن صاحب البريد في مصر مثلا كان يقوم على نقل ... إلى دمشق أو بغداد ... التي بينهم ذلك بحيث نفسه ، وقد أمر عبد الملك بن مروان مثلا بتقسيم الأعمال ... أي تهيئة الطرق ... وإقامة البرد على أبعاد متساوية حيث تجد البرد الراحة أو الاستعداد بحيث ... ولكن صاحب البريد كان موظفا رئيسيا ، لأنه كان مكلفا بإيصال المكاتبات من مركز الخلافة إلى عواصم الولايات .

هذه هي الوظائف الرئيسية التي احتفظ بها العرب لأنفسهم أول الأمر ، أما بقية شؤون التنظيم الإداري فقد ترك لأهل البلاد . وقد قسمت مصر بصفة عامة إلى قسمين كبيرين : الصعيد وأسفل الأرض ، ويقابلان الوجه القبلي والوجه البحري ، وفي حالات قليلة كان الأمير يولي على كل منهما عاملا تابعا له . ويغلب على الظن أنه كان يدير شؤون كل من القسمين رجل من أهل البلاد — ومعظمها شؤون مالية — وكانت البلاد مقسمة في عهد البيزنطيين إلى باجركيات فاحتفظ العرب بهذا التقسيم ، وأطلقوا على الباجركية لفظ كورة وهو معرب من اليوناني .

وقد اجتهد ياقوت في مقدمة « معجم البلدان » في تحديد معنى الكورة ، ولكنه لا يزال في حاجة إلى بيان ، فهو لا يماثل « المديرية » في تقسيمنا الحالي ، بل ربما كان الكورة تقابل « المركز » ... كلا منها من ... أن ... الكور ... مصر ... في ...

من القضاعي ان كور الصعيد كانت ٢٨ وقد ذهب بعضهم الى انها الا ٢٢ أو ٢٣ ، وكور أسفل الارض ٣٥ أو ٣٣ أو ٣٨ والمجموع على أي حال لا يصل الى ٨٠ . ونفهم انه بما أن الكورة كانت تسمى احيانا باليونانية « صاحب كورة » من أهل مصر

وكانت الكور مقسمة الى قرى ذهب بعضهم الى أن عددها ٢٠٠٠ ، وقال آخرون ان الوليد بن رفاعة أحصاها احصاء بالغ الدقة فبلغت ١٠٠٠٠ قرية ، « فلم يحص في أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من رجال الذين تفرض عليهم الجزية ، فكون جملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل » وهذه كلها تقديرات جزافية لا نستطيع التعويل عليها ، وأبعد ما يحتمل أن احصاء الوليد بن رفاعة هذا — الذي نقله المقريزي — اتفق في جملته مع جملة تقدير سكان مصر الذين تجب عليهم الجزية بخمسة ملايين ، فكان معنى أن تكون حصيلة الجزية وحدها ١٠ ملايين من الدنانير مع أن جباية مصر كلها في العصر الأموي لم تزد على أربعة ملايين وكل ما نستطيع قوله هو أن البلاد قسمت الى كور ، كل كورة تضم عددا من القرى وعلى رأس كل كورة صاحب كورة مسئول عن شئون كورته أمام العامل مباشرة ويساعد صاحب الكورة موظف مختص بشئون المال يسمى بجستال ، وهو معرب من اليونانية ومعناه الكاتب أو المحاسب

أما الصغير فصاحبه جنسطوس وهو مختص بشئون القرية وزمامها ، وهو معرب من اليونانية أيضا وله معنى الكاتب أو بالاحرى الجراموس في القديم

ويبدو أن عدد الكور وحدودها لم تتغير خلال القرن الهجري الأول عما كانت عليه خلال القرن السادس الميلادي ، فعندنا قائمة بابجرشيات مصر منها هيروقليس خلال النصف الأول من ذلك القرن ، وهي تضم اثنين وستين من عواصم الابجرشيات ، نجد منها ٤٧ في قوائم الكور التي كانت موجودة في مصر خلال العصر الأموي غير أن هذا التقسيم لم يظل على حاله ، والاتجاه الأمر في التقليل من عدد الكور بضم بعضها الى بعض ، نتيجة للاضطراب والفساد اللذين دبا في شئون البلاد عامة خلال العصر العباسي

وهذا التقسيم الاداري يختلف عن التقسيم الجغرافي للبلاد ، وقد خلط بعض الكتاب بين الاقسام الجغرافية والاقسام الادارية ، مثال ذلك أن تقسيم مصر جغرافيا الى أسفل الأرض والصعيد لم يكن له وجود في التقسيم الاداري ، وكذلك تسمية أسفل الأرض بالريف ، وتقسيمه الى بطن الريف وهو الجزء الداخلي المحصور بين فرعي دمياط ورشيد ، والحوف الغربي وهو ما يلي فرع رشيد غربا ، والحوف الشرقي وهو ما يلي

فرع دساتير مرقا ... وبما كان لهذه الأقسام الجغرافية ... في التقسيمات الادارية ... التي عرفتها مصر خلال العصر الفاطمي وما تلاه ، أما العصر الذي ندرسه فلم يكن فيه ... ولم تكن الفسطاط أو الاسكندرية محدودتين في الكور ، بل كانتا مدينتين ، تعتبر كل منهما وحدة ادارية قائمة بذاتها

<u>شئون المال :</u>

فاذا انتقلنا الى الناحية المالية وجدنا أنفسنا أمام مشكلة جديرة بأن نطيل الوقوف عندها ، لأن تفاصيلها تلقي ضوءا هاما على النظم المالية التي سار عليها المسلمون في ادارة شئونهم خلال عصرهم الأول . ولقد تعود الباحثون عندنا أن يقنعوا بما تورده المراجع العربية من بيانات عامة عن هذه الناحية ويجتهدوا في استخلاص احكام منها ، فاذا ذهبنا ندرس هذه البيانات لاحظنا بين بعضها وبعض من الاختلاف والتناقض ما يجعل الاطمئنان اليه مدعاة للزلل وسوء التقدير

ذلك أن هذه البيانات كلها لم تعتمد على نظر في الواقع أو على نقل من وثائق رسمية أو سجلات ، وانما هي محاولات من مؤرخين كلهم متأخر عن العصر الذي ندرسه تأخرا يحول بينهم وبين معرفة ما جرى عليه الأمر في الواقع . صحيح أن أقدم مؤلفين لدينا من مصنفي هذه الأصول ، وهم ابن عبد الحكم والبلاذري والطبري ، يسوقون مجموعة من معلومات في رواية تعبر بعضها في مراتب متعاصرين ، ولكن هؤلاء الرواة جميعا فقهاء ومحدثون أو من يجري مجراهم ، وأولئك جميعا كانوا يرون أن مهمتهم « تفسير الواقع » ، أي صياغته في صورة قانونية فقهية ، والتوفيق بينه وبين القواعد الشرعية الاسلامية . فلم يتحدثوا عن جبايته ... اجتهدوا في تقسيمها الى جزية وخراج وزكاة ، واعتبروا ما سوى ذلك من الضرائب محرما ومكروها ، ولذا فرغوا من أخبار فتح بلد من البلاد وتعرضوا بالكلام لما فتح منه صلحا وما فتح عنوة وهكذا . وقد أشرنا فيما سبق الى أنهم لم يوفقوا في ذلك مهمتهم هذا ، فجاءت بياناتهم متناقضة متضاربة ، ولم يعثر الباحثون على مجموعات من الوثائق البردية الخاصة بشئون مصر الادارية والمالية خلال القرنين الهجريين الأولين ، فاتضح منها أن الواقع يختلف تماما ، في جملته وتفصيله ، عما ذهب اليه أولئك المؤرخون

وقد رأيت في عهد الصلح الذي أوردناه برواية الطبري (صفحة ...) أن الاتفاق قد تم على أن يؤدي أهل مصر جزية سنوية قدرها ٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دون تحديد ما اذا كان المراد دراهم أو دنانير . وقد غلب على الظن أن المراد دراهم ، وقلنا ان ذلك يخص اتفاقا عقد ثم أعاد عمرو النظر فيه بعد تمام فتح البلاد . ثم ذكر ابن عبد الحكم والبلاذري مفصلات في الروح

وتحصلنا في الغناصس ، وأما الأولى فمصدر التي ... خلفوس قد حاك على نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص أن يفرض الجزية دينارين على كل واحد منهم ، وجعلها في هذه رواية في غير الا مجاوزة بين مؤلفة تنصي الفترة الرابعة من عهد النبيخ . وأما الثانية فتقول : إن الصلح تم على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط خاصة ديناران على كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، من بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفاني ، ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شيء . وعلى أن للمسلمين النزول بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك ، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم في شيء منها ، وأحصى عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليه الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة ، فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في السنة . وهذه رواية ظاهرة الضعف فهي تذكر أن إحصاء دقيقا لأهل مصر قد تم ، وأن جزية الرؤوس وحدها تبلغ ١٢ مليون دينار غير خراج الأرض ، ثم هي تخص بالضريبة ... المصريين حتى ... اله

وتصاعده وهو فرض غريب ... في ... مسلمة في الإسلام . وأغلب الظن أن الفقهاء هم الذين وضعوا ... هذه النظم ... في التوفيق بين الواقع والأحكام الشرعية وكانوا يتصورون ، أو يحاولون أن يصوروا للناس ، أن الأمر جرى منذ بدايته على القواعد التي استخرجوها هم أنفسهم من الأصول بعد الفتوح بزمن طويل .

وقد بدأ يتضح ضعف هذه الآراء منذ أواخر القرن الماضي ، حين اكتشفت مجموعات الوثائق البردية الخاصة بمصر البيزنطية والقرنين الهجريين الأولين . ولما درس ماكس فان برشم ما استطاع دراسته من هذه الوثائق واستطاع — مستندا عليها — أن يقرر أنه قد فرضت على الناس ضريبتان رئيسيتان : الأولى ضريبة مالية نقدية تسمى الجزية (باليونانية ديموسيا) تؤدى نقدا بالدينار ، وضريبة نوعية أخف من الأولى تسمى الضريبة (باليونانية ...) تؤدى بأرادب القمح . هاتان الضريبتان من مصادر الإيراد في ميزانية الدولة يقابلان وجهين مستمرين من وجوه الإنفاق ، فالجزية تعطي عطاء الجند ، والضريبة تعطي ما كان يؤدى إلى الجند من رزق . ولكن الجزية والضريبة كانتا مفروضتين على الجماعة كلها ... كانت ضريبتين ... ... الأمم ... لم ... بعد

ذلك نتيجة لما أصاب حصيلة الضرائب العامة من اضطراب بسبب دخول الناس في الإسلام واتساع الممتلكات العقارية بين حائزها المسلمين — أن ظهر « الخراج » وتحدد في صورة ضريبة واقعة على الأرض أيا كان مالكها ».

ثم توفر كارل هاينريش بيكر على دراسة الموضوع معتمدا على مجموعة الوثائق البردية المعروفة بمجموعة الأرشيدوق راينر Sammlung des Papyrus Erzherzog Rainer ودين هذه المجموعة لدى وضعه كاراباتشيك « Fuehrer durch die Ausstellung » وعرض نتيجة دراسته في أبحاث مختلفة أهمها كراسته الأولى من كراستيه المعروفتين في تاريخ مصر Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam وفي مقاله عن مصر في دائرة المعارف الإسلامية ، وخلاصة رأيه أن الحكومة كانت تطالب صاحب الكورة بنوعين من الضرائب « الديموزيا » و ضريبة الاستثنائية وكان توزيع المستحق من هاتين الضريبتين على الأقسام الفرعية للكورة يتم في الإدارة المركزية بناء على قوائم تعد في الناحية نفسها وترسل إليها مقدما ، ويبعث إلى هؤلاء الأشخاص ببلاغ رسمي يسمى « الانتاجيون » عن حربى صاحب الكورة وكانت الديموزيا الجزية وهي الضريبة العادية تشمل

١ — الجزية نفسها وتسمى « خروسيقا ديموزيا » وهي ضريبة نقدية صرفة

٢ — ضريبة الطعام « سيطا ديموزيا » وهي ضريبة عينية تؤدى قمحا أو شعيرا

وكانت الإدارة المركزية تحدد مبلغ هاتين الضريبتين وكانت تقرران جملة ، وتقوم الإدارة المحلية بتقسيم مجموعهما مخصصة على الأفراد كل بحسب طاقته

أما الجزية نفسها (خروسيقا ديموزيا) فكانت تتألف من مجموعة من الجبايات هي

أ) الضريبة العقارية (ديموزيا جيس)

(ب) ضريبة الرءوس (انداريوسموس دياجرافوس)

(جـ) ضريبة الإدارية المحلية (داپانى)

ولم تكن الضريبة العقارية خاصة بملاك الأراضي فقط بل كانت تشمل أيضا أصحاب الحرف الذين لا يملكون عقارا ما . ولم تكن ضريبة الرءوس في أول الأمر ضريبة عامة ، ولا نعرف على وجه التحديد على أي أساس كانت تجبى . كذلك كان من الممكن أداء ضريبة الطعام « سيرى » نفسها ، ليدفع الأشخاص جميعها « الثمن » (اريثموسيس) بحسب مصطلح هذه الأيام . وكان جزء من الأموال يعني بحسب تغطية نفقات الإدارة المحلية ، وهذا الجزء يقابل الضريبة الإدارية

المحلية ودفاتر الدواوين المالية في الأمراء الحكومية في الفسطاط أو الاسكندرية .

وكانت الضريبة الاستثنائية ضيافة وكسوة أو ضريبة عينية معينة العدد ، ولكن نوعها كان يختلف بحسب الاقليم والظروف ، كأن يطلب من الكورة مثلا ، تقديم الخشب ومن الأخرى تقديم السفن وكذلك الأدوات والعمال والبحارة ودفع أجورهم ، وربما اضطر رجال الكورة الى شراء بعض هذه الأصناف المطلوبة واحتساب ثمنها من جملة الأموال المقررة . وكانت هذه الضريبة الاستثنائية ترسل مباشرة الى المعسكرات ومراكز تجمع الجند . وكانت الدولة لا تقبل من الكورة مقابل هذه الأصناف نقدا الا فيما يتصل بمؤونة الخيل ، ولكن كان من الممكن للأفراد أن يدفعوا مستحقاتهم نقدا ثم يقوم رجال الكورة بتدبير المطلوب .

وهذا التفصيل الذي أوردناه مستخرجا من واقع الوثائق البردية يدل على أن ما ورد عند ابن عبد الحكم ومن تلاه لم يكن الا تصويرا نظريا فقهيا لما كان يجري في الواقع . ومع ذلك فان ما نقله المقريزي نقلا عن نصوص البردية ، نقلا عنه وعن الليث بن سعد ذلك ما نقله عن يزيد بن أبي حبيب ان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر أقر قبطها على جباية الروم ، فكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وان قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرافو كل قرية وماروتها ورؤساء أهلها ، فيتناظرون في العمارة والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ، ثم يجتمع رجال كل قرية بقسمهم ، فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة ، فيبتدئون ويخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا نظروا الى ما في كل قرية من الصناع والأجراء ، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيهم جالية قسموا عليهم بقدر احتمالها ، وقلما كانت تكون الا للرجل الشاب أو المتزوج ، ثم ينظرون ما بقي من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم ، فان عجز أحد منهم وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوي الاحتمال ، وان كان منهم من يريد الزيادة أعطي ما عجز عنه أهل الضعف ، فان تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم ، وكانت قسمتهم على قراريط الدينار أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك .

وقال المقريزي : وبعث هشام بن عبيد الله بن الحبحاب وهو صاحب خراج مصر

عمرو بن العاص رضي الله عنه ، فقال له أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصير لها ، فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك ، إنما أنتم خزانة لنا ، إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم » ؛ مما يفهم منه بوضوح أن مقادير الجباية لم تكن محددة ولا ثابتة ، وأن يقسم الأمير المطلوب منه عاما فعاما على الكور ، وعلى رجال الكورة أن يديروه على النحو الآنف الذكر

كذلك روى المقريزي عن يحيى بن سعيد « أن الجزية جزيتان : جزية على رءوس الرجال ، وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية ، فمن هلك من أهل القرية التي عليهم جزية مسماة على القرية ليست على رءوس الرجال ، فإنا نرى أن من هلك من أهل القرية ممن لا ولد له ولا وارث أن أرضه ترجع إلى قريته في جملة ما عليهم من الجزية ، ومن هلك ممن جزيته على رءوس الرجال ولم يدع وارثا فإن أرضه للمسلمين » . وهذا ينطبق تماما على ما دلت عليه أوراق البردي ، فالجزية التي على الرءوس هي الضريبة النقدية العامة (مريوسيما ديموسيا) والجزية التي تكون جملة على أهل القرية هي ضريبة الطعام (ميبسيما ديموسيا) وكانت الضريبة الإضافية لكل من الضريبتين تحدد [illegible] [illegible] الأصل [illegible] [illegible]

وقد تعرضت المشكلة التي واجهت الحكام بعد أن تقادم عهد الإسلام بالبلاد مشكلة الجزية المفروضة على من أسلم ، فإن الديموسيا العامة كانت تتضمن — كما رأينا — الضريبة العقارية وجزية الرءوس والضريبة الإدارية جميعه ، أي أن ضريبة الرءوس كانت داخلة في جملة الديموسيا ، ولم تكن تجبى على الأساس الذي نجده مفصلا في كتب النظم الإسلامية ، وإنما كانت تقدر جملة على أساس ما كان يجبيه البيزنطيون منها ؛ ثم يقسمها أهل القرية على أنفسهم بحسب الحالة . فلما بدأ الناس يسلمون طالبوا بإلغاء هذه الضريبة من الديموسيا ، إذ لا جزية رءوس على مسلم ، ورفض العمال ، لأنهم لم يعتبروها كجزية رءوس بل كجزء من ضريبة عامة تلتزم القرى بأدائها جملة أيضا . وقد طال الأخذ والرد بين الحكام والخلفاء بسبب هذه المشكلة الشرعية ، وانتهى الأمر برفع هذا الجزء من الديموسيا عمن أسلم ، ويؤيد ذلك ما يقوله المقريزي من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم . وقد فسر المقريزي ذلك بأن عمر بن عبد العزيز كان يرى أن مصر فتحت عنوة ، وليس الأمر كذلك ، ولكن الحقيقة هي أن هذا الجزء من الديموسيا كان مقررا جملة على أهل القرية ، وعليهم أداؤه جملة بصرف النظر عما يصيب الأفراد من موت

ويؤكد ذلك قوله بعد ذلك « وإن تجربة نصف هي على القرى ، فمن هرب من أهل القرى أثناء تلك الجزية فإنه [illegible] عنهم [illegible] من هرب منهم لا تصبح عنهم من الجزية شيء ».

تلك هي الخطوط العريضة للنظام الذي سار عليه العرب في معالجة شئون مصر المالية ، وهو كما رأينا نفس النظام الذي كان جاريا أيام البيزنطيين والرومان مع فرق جوهري هو أن دافع الضرائب في تلك العصور السابقة على الإسلام كان يدفع في الواقع أكثر بكثير من المقرر عليه ، وربما دفع الضعف ، إذ أن عمال الدولة كانوا يحرصون على أن يستخلصوا لأنفسهم مبالغ جسيمة ، وكان عبء ذلك يقع على الناس ، فلما جاء الإسلام انقطع ذلك وأصبح الناس يدفعون المقرر عليهم قانونا فحسب ، وسيعرض النظام الذي وضعه المسلمون لذلك [illegible] [illegible] . وقد وجد السبيل إلى الفساد من أول الأمر ، لأن الدولة لم تتصل بدافع الضرائب رأسا ، بل كان اتصالها على طائفة من كبار المزارعين أو متقبلي الخراج في كل ناحية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يؤدون أموال أهل نواحيهم إلى عمال الكور . وكان اضطراب الأحوال في العصر البيزنطي قد أدى إلى نمو هذه الطبقة وجعلها أشبه بأوصياء Patroni [illegible] [illegible] . وكان المصطلح [illegible] الأعمال Patrocinium

وقد كانت مصر قد غدت مقسمة إقطاعا قطعا خلف رقعة الأرض ملكا للسادة [illegible] وهؤلاء الأوصياء [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ويقبضون المال ، وشيئا فشيئا أصبحوا أشبه بالملتزمين .

وقد وصف لنا المقريزي طريقة تقبيل الأرض فقال « إن متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأرض ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي إليه مبلغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد تتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك ، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها إلى ناحيته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن يندبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج في إبانه على أقساط ، ويحتسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضريبة مقدرة في ديوان الخراج ، ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات المتقبلين والضمناء بقايا لا تأخر من [illegible] الخراج

سواهم . وكانت الولاية تستند في طلب المال مرة وتتسامح به مرة . ولم يكن هذا هو النظام جميع في أيام العباسيين ولكنه مقصور غالبا على نظام سلمي شبيه به . وربما استطعنا أن نقول إنه في هذه العصور الأولى كان ولاة الأقاليم الكبار يتمتعون بالعمل لتكوين مجمع المال .

أما جملة المتحصل من هذه الضرائب بشتى صنوفها على السنين المختلفة ، فإن التقديرات التي يوردها المؤرخون تتراوح ، فيما يتصل بالسنوات الأولى ، بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليونا من الدنانير (والدينار نصف جنيه تقريبا) ويدخل في ذلك ما يدفع نقدا وما يؤدى عينا . ولم يكن هذا المال كله يرسل الى مركز الخلافة ، بل كان معظمه ينفق في البلاد . يستنزف عمال الخراج ثم المتقبلون كثيرا منه في مقابل ما يقومون به من أعمال التحصيل والإصلاح والصيانة ، ويرسلون الباقي الى الأمير ، فيؤدي هذا منه أعطيات الجند وأرزاقهم ورواتب الموظفين والعمال ، والباقي هو الذي يرسل الى مركز الدولة . ولكي نقدر النسبة بين هذا وذاك نذكر أن جباية مصر بلغت في عهد معاوية بن أبي سفيان أربعة ملايين دينار أرسل اليه منها ٦٠٠ ألف دينار وهو ذلك مبلغ ضئيل . أما متوسط ما كان يرسل الى مركز الدولة بعد ذلك من القرن الهجري الثاني فكان نحو ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ دينار ، وقد يرتفع الى ٣٠٠ ألف أو ٤٠٠ ألف بحسب العلاقات الخاصة مع الأمراء .

فقد كان العرب يعتبرونها دخلا مهما يحصلون عليه ، وأهم ما يجبون منها من الأموال ما لا يحصى ولا يقدر ، فقد كانوا يسمعون ، بحسب ما يقول المقريزي ، أن فرعون كان يستخرج من مال مصر ، بعد استنزافه شتى أنواع النفقات ، ستة وعشرين مليونا من الدنانير ، وبهذا فقد توجه عمر بن الخطاب بلفت ما بعث به عمرو بن العاص من الجباية وشك في أمره ، وجرت بينهما مكاتبات ذات معنى عظيم ، لأن خطابات عمر تدل من ناحية على الصورة التي لمصر ، وردود عمرو تدل على الواقع الذي كان يواجهه هذا الأمير الذكي القادر . وقد جبى عبد الله بن أبي سرح مليونين زيادة على ما جباه عمرو ففرح الخليفة عثمان بن عفان بذلك وحدث عمرو في الأمر ، فرد عمرو بما يدل على خبرة وبعد نظر ، وكان محقا في ذلك ، لأن المسألة ليست مسألة ضخامة مبلغ الجباية ، وإنما المهم هو المحافظة على مورد المال سليما حتى لا ينضب .

والظاهر من هذا أن النظام المالي الذي جرى عليه العرب في مصر أبقى أركان الأرض بيد أصحابها من المصريين ، ولم يحرموهم منها ، وقد ناقش الفقهاء في هذا الموضوع وذهب بعضهم الى أن مصر فتحت صلحا وقال بعضهم الآخر إنها فتحت عنوة ، ولكنها

مناقشات فقهية نظرية صرفة ، لأن الواقع الذي نصير إليه حتماً هو أن أرض مصر أجريت مجرى الصلح ، وأن ملكيتها العقارية ظلت بيد الأهالي ، وقد نص على ذلك صراحة في معاهدة بابليون ، وأكده ما تلا ذلك من معاهدات وما جرت عليه المعاملات . وبهذا اختلف الوضع القانوني لأرض مصر عن أرض العراق مثلاً ، فقد كانت الأخيرة ملكاً للدولة وليس للأهالي عليها إلا حق الارتفاق ، أما في مصر فقد ملك الناس الأرض ملكاً كاملاً ، إذ وردت الأوراق البردية التي ترجع إلى عهد الولاة على أنه كان يحق للمصريين التصرف في الأراضي التي يملكونها بالبيع والشراء والتوريث والهبة . وقد ترتب على ذلك نتائج ذات أهمية كبرى فيما يختص بحقوق الدولة الإسلامية على أرض مصر ، فبينما جرى الخلفاء على منح الاقطاعات والضياع في العراق من أول الأمر ، لا نجد هذه المنح في مصر إلا في حدود ضيقة ، وانحصر أمرها في تلك الأراضي التي كانت متروكة للدولة البيزنطية ورجالها ، فآلت إلى الدولة الإسلامية ، ومن هذه الأراضي الأخيرة كانت الدولة تمنح من تريد من زمن عمر بن الخطاب . فقد تمنح ولا تقرر فيه تقسيم ؛ لأن المراجع تحققه وتستعمل اللفظ الأخير ، مع ما بين اللفظين من خلاف في المعنى القانوني والسياسي . أما الاقطاعات التي ظهرت بمصر بعد ذلك فلها ظروف أخرى اقتضاها تطور عام في أحوال الدولة الإسلامية عامة ، ومن الخطأ القول بأنها مستمرة منذ الفتح بصفة مستمرة .

وقد حصل كثيرون من العرب الذين نزلوا مصر على أراض بهذه الطريقة ، أي أنها كانت منحاً من أراضي صوافي الدولة بعد الفتح ، وحصلوا عليها أيضاً من أراضي بور — التي كانت تسمى أرض الموات — يستصلحونها ، وكانوا يعفون من ضريبتها لمدة ما بحسب ما تقضي به الشريعة في أحكام الأرض الموات ، ثم يؤدون عنها العشر بعد ذلك . وكان المالك العربي أياً كان وضعه يؤدي ضريبة العشر عما بيده ، وكان العرب يسمونها زكاة ترفعاً عن دفع الخراج ، ولكنها كانت في الواقع ضريبة عقارية تجري مجرى الخراج . وقد طالب المصريون الذين دخلوا الإسلام أن يعاملوا بالمثل فتسقط عنهم الجزية (بالرؤوس) وضريبة الخراج ، وتكتفي الدولة منهم بضريبة عقارية هي العشر وتسمى الزكاة ، ومعنى ذلك ضياع الدولة معظم إيراداتها ، فرفضت الدولة ، بل ألزمت العرب أنفسهم بدفع الخراج كاملاً عما يشترونه من أرض الخراج ، فلا تتحول أرض خراجية إلى أرض عشرية . ولهذا فقد ظل إيراد الدولة في مصر موفوراً حتى أن إيرادها من أرض العرب ظل محفوظاً بعد لأن الدولة هي مالكة رقبة الأرض ، كانت

عمع بـ ى الصـ ح الأقطاعات ـمحسـو الأ ص من خراجه ى عشرته ، مسح بعض القرى مع الأتـيين وملاحظ ـطمين في الحر و كانو تتناصون من الرسع خراج وقد ـ العشر ، فيكسون ، يحصر الدولة سنه كامب ا من مصر كلها تحو ـ ـ مليينا ي حراجية

و بوثائق البردية تؤيد كل . دكـرناه خاصه بمصر ، فلدينا خطابات صـادرة من عمدن مثل قرة بن شريك أحدها مؤرخ سنة ٧٠٩/٩٦ يطلب فيه الى أهل شبر شبيرو من كوره أشقوه أن يؤدو المتأخر عليهم من الجزية نقدا ومن ضريبة الطعام قمحا ولى خطاب آخـر من نفس الوالي ى صاحب أشقوه أيضا يطرى فيه له اذ تعدر عـلى الناس دفع ضريبة الطعام قمحا فلا بأس بأدائها نقدا ، ولكنه يطلب اليه أن يجتهد في إرسالها قمحا بل يظهر بوضوح من وثائق أخرى أن ضريبة الطعام لم تكن تؤدى دائما قمحـا أو شعيرا ، بل كان من الممكن استبدالها بحسب حاجة الدولة بأشـيـاء أخرى من محصولات الناحية كالعسل والخل و الزيت والنسيج والجبوه

ويفهم من رواية البلاذري عن يزيد بن حبيب أن قيمة ضريبة الطعام كانت تساوى الجزية ، فالى ا الى أهل الحضـرة بمصر صـ يحو لى خلافة عمر يبيعه الصبح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل و الحل

بحث على ذلك ير ـ فأ را كل حر بعد دنانير ، فرض بدلا واحـوه ، ومن الواضح ـ الدنانير الأ بعه المذكورة منها اثنان الجزية واثنان ضريبة الطعام غير أن هذا القدر الذي يحدده يزيد بن حبيب لم يكن ثابتا كما يفهم من النصوص العربية ، لأن أصحاب هذه النصوص كانوا يفهمونها على أنها كانت ضريبة الرؤوس ، مع أنها كانت في الواقع الديموزيا التى أشرنا اليها ، وكانت ضريبة عامة تشمل الضريبة العقـارية (ديمـوسيا جيس) وضريبـة الرؤوس (ديمـوسيا دياجرافون) ، والضريبـة الادارية (...) ، وكانت حصيلتها الكلية تقدر على ... ثم تقسم على الأفراد منها فكان يقررها رؤساء القـرية بحسب ثروات الأفراد ، فهـناك من يدفع دينـارا أو دينـار ونصفا أو دينار وثلثا أو ثلثي دينار وهكذا وقد ذهب المقريزي الى أن الدولة لم تحصـل الزكاة الا في عهـد صلاح الدين ، ولكن أوراق البردي أثبتت أنها ترجع الى ما قبل ذلك بكثير ، فلدينا إيصال مؤرخ عـام ١٤٨ ـ ٧٦٥ عن زكاة بعض الأشخاص وهذا هو المعقول

ولا شك فى أن مبالغ الجبايه كانت تتناقص مع الزمن بسبب دخول الناس في الاسـلام واضطرار الدولة الى مصادرتهم ومصادرة الكبار ، و ـ ـ تطرق الفساد الى نظم الجبائية من ناحية أخرى عـلى أن

الأخــرى . فلاحظ فرقا واضــحا بين موقف الدولة من مصر أيام الأمويين ، وموقفها منها أيام العبــاسيين ، ففي العصر الأول كانت مصر ولاية تضاف أحيانا الى ولاية العراق ، وكان هدف الحكام التخلص من الأعداء والتمرد ومنع الاضطرابات وما الى ذلك ، اما في العصر العباسي فقد كان الاهتمام موجها نحو الجباية وحدها ، وهذا لا ينطبق على مصر وحدها بل على بقية نواحي الدولة الاسلامية الأخرى .

ويلاحظ بصفة عامة أن الفتنة العامة سارت سيرا طيبا حتى نهاية العصر الأموي ، والسبب في ذلك يرجع الى أن معظم الأمويين كانوا بصفة عامة على جانب طيب من الأصالة والكفاية الادارية ومعرفة بما لا بد منه لمصالح الدولة وبلادها . ثم ان خلفاء بني أمية كانوا على معرفة قوية بهم حسن الشؤون المالية وتدبير ما يحسن اليهم منه ، وكانوا أمنا في الاقتصاد في نفقاتهم ، وكانت ادارتهم بسيطة لا تشكو كثرة الموظفين وثقل رواتبهم كما سيشير اليه العصر أيام العباسيين . ولا يسمح المقام هنا بالكلام على ولاة الأمويين في مصر ، فان الكثيرين منهم يستحقون من المؤرخ وقفات طويلة . ويكفي أن نذكر أن عددهم نحو ٢٨ واليا حكموا نحو ١١٣ سنة ، أي بمتوسط أربع سنوات لكل منهم ، وقد طالت مدة بعضهم حتى أربت على عشرين سنة ، ولم تقصر مدة ولاة الا في مدة هشام بن عبد الملك ، فانه كان عظيم الاهتمام بشؤون المال . وبهذا فقد كانت مدة الحصر على عامل الخراج وخاصة عبيد الله بن الحبحاب ، فقد تصرف هذا الأخير في الأمور حتى عزل منهم أربعة ولاة ، ولم تطل مدة العاشر وهو الوليد بن رفاعة الا بعد أن انطوى تحت جناح ابن الحبحاب .

وكان الكثيرون من هؤلاء الولاة من أمراء البيت الأموي ، وأهمهم عبد العزيز بن مروان الذي تركه أخوه عبد الملك بن مروان على مصر من ٦٥ الى ٨٦ هـ (٦٨٥ — ٧٠٥) ، وكان من خيرة الولاة وأحسنهم ، أما أعظم أولئك الولاة جميعا فهو عمرو بن العاص دون شك ، فقد فتحها وولاها أول مرة من ٢٠ الى ٢٤ (٦٤١ — ٦٤٩) ، ثم عاد اليها وولاها مرة أخرى من ٣٨ الى ٤٣ (٦٥٨ — ٦٦٣) ، وهــو من مؤسسي مصر الاسلامية ومن ممهدي قواعد الحكم فيها . وكان عمرو رجلا ذكيا واليا فاهما لشؤون الادارة والمال ، وكان له فهم عميق بطبائع النــاس وقدرة على كسبهم الى جانبه . وقد توطدت العلاقات بينه وبين المصريين وطابت معاشرته لهم حتى أصبح وكأنه مصري يناضل عن حقوق المصريين . ومواقفه من عمر بن الخطاب في ذلك معروفة ، وهو من غير شك من رجال مصر الاسلامية وأبعدهم أثرا في تاريخها . وكان لمصر أيضا أثر بعيد في حياته

فتح مصر هو الذي سيمده به الى نصف الأمر من خلال الدولة الإسلامية بحيث أصبح بعد قليل من رجالها المعدودين وقد نفي عنه بمصر فلم يعد له من نصيبه غير [illegible] إلا العودة إليها ولى [illegible] في معاوية فقام بدوره [illegible] وهو في الفتنة التي أعقبت مقتل عثمان. ولو تركنا عثمان بن عفان والياً على مصر ، أو من ولاه ثانياً على بن أبي طالب ، لاتجهت الحوادث في دولة الإسلام وجهة أخرى. وقد عرف مؤرخو مصر عمر عمرو للأماموة بماله من التقدير والاعجاب وتصدوا للدفاع عنه ، وبهم يرجع الفضل فيما يحتمله عمرو من المكانة في كتب التاريخ والصحابة.

ومهم لدينا أنه وضع من بعده تقليد العناية بشئون البلاد ومرافقها والرعاية لأهلها ، وعلى آثار عمرو سار من جاء بعده من ولاة الأمويين. فلما جاء العباسيون تغير الأمر جملة ، ولمهد الطريق لاستبداد الولاة بشئون مصر ، وهو ما سيحدث على يد أحمد ابن طولون ومحمد بن طغج الاخشيد من بعده.

وقد انحسرت بوادر هذا التغيير من أيام أبي جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ / ٧٥٣ — ٧٧٥م) فقد بدأ يظهر بوضوح تركز اهتمام الخلافة في شئون المال. ولم يكن هذا التغير قاصراً على مصر بل شمل الدولة الإسلامية كلها ، لأن الدولة العباسية اتجهت منذ قيامها الى

أضعاف ما كانت تحتاج إليه الدولة الأموية والسبب الأول في ذلك هو التغيير الأساسي العسكري الذي كانت الدولة تقوم عليه ، فبينما كان عماد الدولة الأموية قائماً على جند الشام من العرب من قيسية وكلبية ، أصبح العماد بدولة العباسية على الخراسانيين. وكان الجندي المصري أيام الأمويين يكتفي بما تنفقه عليه أجناد الشام (أي كبر القسم العسكري) ، فقد كان خراجها القطائع عسكراً لهم ، وما فضل من ذلك من ايراد الولايات كان يعطى لنفقات الخلفاء وتجهيز الفاتحة ، ويبقى بعد ذلك منه جملة صالحة ينفق شيء منها في منشآت وبنايات ويدخر الباقي. وكانت جيوش الدولة في الولايات تنال أرزاقها وأعطياتها من الايراد المحلي ، ولم يكن للدولة الأموية في الحقيقة جيش دائم ، فقد أسر بين جندهم في الشام وسرحوا معظم القوى العسكرية تتسع في كل وجه.

فلما جاء العباسيون احتاجوا الى جيش ضخم يحميهم ، فاستنفد نفقات هذا الجيش معظم ايرادهم ، لأنه كان جيشاً مرتزقاً طامعاً يحتاج الى المال الكثير ، ثم ان الادارة العباسية اتجهت منذ أيام المهدي الى الإسراف والأبهة وتعقدت الادارة وزادت [illegible] إن التغيير فيها كل مستويات الادارة [illegible] به لتغذيته ، فبدأ العجز المالي يظهر من أيام المهدي ، وحصل له الرشيد [illegible]

واصبحت وسيلة لعلاجه . ثم خرج الأمر عن السيطرة جملة من تمام تصفيتهم . وأصبحت الدولة العباسية في الواقع دولة مفلسة مادت بجهود الخلفاء ووزرائها في سد هذا الافلاس بوسائل غير طبيعية . وبدءاً من أيام المتوكل أصبحت المشكلة المالية مرضاً عضالاً لا سبيل الى علاجه ، ومن صخرة العجز المالي تحطمت خلافة بني العباس شيئاً فشيئاً قبل أن تتحطم ادارة وسياسة .

وفيما يتصل بمصر بدأ هذا التحول الخطير من أيام أبي جعفر المنصور ، فقد فكر في أن يضمن خراج مصر ، أي يبحث عن رجل يضمن خراجها بمبلغ معين ، فعرض على واليه عليها محمد بن الأشعث أن يضمن له خراج مصر ، فرفض محمد بن الأشعث خشية العجز ، فأقام الخليفة على الخراج رجلا خاصا هو نوفل بن الفرات . وأصبحت مطالبة الخلفاء بالأموال تشتد ، وكثر عمال الخراج الى جانب الولاة ، ونجد ثمة الحاحا في هؤلاء فأصبحوا يعزلون ويولون ، فتولى مصر للمنصور ثمانية ، وللمهدي تسعة ، وللرشيد ثلاثة وعشرون ، وللمأمون سبعة عشر وهكذا . وبدأ الناس يشكون من ثقل الجبايات بل يثورون بسببها ، واحتاج الولاة الى القيام بحملات عسكرية على الثائرين لجمع ضرائبها . وفي القرن الثالث الهجري نجد الادارة تستخدم القوة والضرب في استخراج الأموال . وأصبح الولاة في الحقيقة مشتاقا للخراج . وكانت الخلافة تطلق أيديهم فيعملون ما يريدون حتى يحصلوا ما تطمع فيه من مال وتخدع الولاة من أجل ذلك بسبل تذكرها البردي تكشف تعرض الناس بالعنف والرهبة ، ونجد الطريق للاستبداد رجل كأحمد بن طولون يستولي على مصر على أساس ضمان مبلغ معين للخلافة .

الاسلام والتعريب

فاذا تركنا هذه الناحية المالية جانبا ، وهي حجر الزاوية في البناء الاداري لمصر في عهد الولاة ، وجدنا أمور المصريين تجري في مجراها العادي بعد الفتح مباشرة ، وكأنما لم تتغير الأحوال ولم يذهب رجال ويجيء رجال ، وتمضي البلاد خلال السنين العشرين الأولى من الفتح في هدوء يستوقف النظر ، وربما كان ذلك نتيجة لما عاناه المصريون من متاعب وقلاقل خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، فقد تخلص أكثر من عقلاء البيزنطيين مالوا الى الدعة والسكون كأنهم يستجمون . ثم ان العرب خلال هذه السنوات الأولى كانوا في شغل بفتوحهم وانتصاراتهم ، فقد كانت الدنيا قد تفتحت أمامهم من كل وجه ، فمضت جيوشهم لتفتح شرقا وغربا ، وأقبلت خلف الجيوش جماعات من مهاجرة العرب تستقر في البلاد المفتوحة .

ففي خلال الخمسين السنة الأولى من تاريخ الاسلام ، نجد عشرات الألوف من العرب المهاجرين في العراق وفارس ومصر

والمغرب والأندلس . كانت الآن وضعه
وفي حاجة ماسة لأولئك العرب المهاجرين
وكان جانب كبير من ناس هذه النواحي
من شيعة الأحباب ، وكان في حاجة الى نظام
عادل مستقر ... الناس والى أيد عاملة
فأما الاستقرار فقد أتى به الفتح الاسلامي
وأما الأيدي العاملة فجماعات العرب المهاجرة
التي أشرنا إليها . وهنا نجد عرب اليمن
يقومون بالجانب الأكبر من ذلك العمل ، وإذا
كان عرب الشمال — وفي مقدمتهم قريش —
قد حملوا عبء الفتوح و شغلوا بالسياسة
والادارة ، فان عرب اليمن عرفوا كيف يجنون
الثمرات ، فقد كانوا شعبا ميالا الى الاستقرار
له عهد بعيد بالزراعة وما يتصل بها من أعمال
الحضارة .

فمنذ فتح العراق مباشرة نجد طوائف تجيء
زاحفة شرقا وتستقر في نواحيه ، وتسرع اليه
جماعات أزد اليمن ، فيكثر عددها حتى غلب
على أرض السواد ، ثم رحلت فروع منها
عبر هضبة ... إيران ثم ... الى
خراسان ، وشيئا فشيئا أصبحت هذه النواحي
وكأنها مستعمرة يمنية عمدت رجالها جموع
أزد اليمن ، وكانوا أكثر القبائل عددا
في ... فكادوا ... من
... وبدأ التنافس بين ... ، ثم
... صراع دموي ... بأصحاب جانب
العرب في فارس وخراسان ...
... هذا ... من دولة الاسلام

في ... خلافة هشام بن عبد الملك حتى
... تعريبه محل الارامية ...
هذه الاخيرة تعود الى مكانها في نهاية العصر
الاموي ، ثم ... سيادة العرب و ...
العربية ... العباسيين ...
الخراسانيين على العرب . وبدأت الفارسية
تغلب على ... العرب الباقين هناك حتى
نسي الكثير منهم ... وأخذ يتكلم الفارسية

وكان من الممكن أن يحدث مثل هذا في
مصر لولا أن الظروف ... هناك .
ولم ... في مصر ... من
منافسة ... المجال للعرب لهذه
الأخيرة ، فسارت في طريقها ... بعوامل
وهيبة العروبة والعرب أمام السكان ،
وتمكنت من نشر العربية والاسلام ، كما
حدث في المغرب والأندلس .

كان معظم رجال ... العربي للفاتح
من عرب اليمن ... ذلك من أسماء
القبائل التي ... والقادة ...
... ، ... فاذا استثنينا ... من
... ، وكان عددهم قليلا . وجدنا أنفسنا
أمام ... يمنية تستوقف النظر ... ،
تجيب ، لخم ، جذام ، بنو ... ، غافق ،
حضرموت ، يحصب ، ... ، ... ،
بنو وائل ، مذحج ، ... خولان ،
... ، وغير هؤلاء كثير . ولا شك أن
... هؤلاء ... من عرب ...
... وشرقي ... مصر

الشرقية . عمر أنسب جنده إلى قبيلة من قبائل جند مصر تبعها ، إلا تدرج بعض جماعة عامة كانت نسبة جنده من القبائل ، حيث أهل الراية . وكانت هنالك بعض جماعات يمنية قليلة ، وكثر من العرب الذين كانوا يسكنون بلاد الدولة البيزنطية ويسمون الحمراء ، وكثر قليل من أبناء الفرس اليمن الذين استعربوا وكانوا يسمون الفارسيين .

وعلى طول العصر الأموي كان تيار الهجرة العربية نحو مصر مستمرا ، ويبدو أن غالبية المهاجرين كانوا كذلك من يمن . وقد بلغ من أمر اليمنية أن من ولي مصر من القيسيين كانوا يحرصون على أن يتقووا باستقدام قبائل قيسية إلى مصر ، حدث ذلك في أيام عبد العزيز بن مروان والوليد بن رفاعة وولاية عبيد الله بن الحبحاب [illegible] بخراج ، فكثرت جماعات القيسية بمصر ، ولكنها لم تسكن الفسطاط ، وإنما شرقي الدلتا حوالي بلبيس أولا ثم انتشرت شمالا وجنوبا حتى عمرت ما عرف بالحوف الشرقي ، ونزلت كذلك في غربي الدلتا ، فيما يعرف الآن باسم البحيرة تعرف بالحوف الغربي أي أن كتلة كل جذم من جذمي العرب الكبيرين نزلت في ناحية غير ما نزلته الأخرى ، وربما كان هذا هو السبب في أنه لم يقع بمصر مثل ذلك الصراع الدموي بين قحطان وعدنان الذي قضى على سلطان العرب في فارس وخراسان ، وكاد يقضي عليه في الأندلس .

وقد حرص عمر بن الخطاب على حبس العرب عن [illegible] الاستيطان [illegible] الانصراف إلى حرفة أخرى من مطالب الجهاد ، ولكنه لم يحرم ذلك على العرب عامة لأن التحريم على الجند ضروري وطبيعي ، أما على عامة العرب غير المحصورين أو مسكن . ومن الطبيعي أن نذكر أن العرب لم يكونوا جميعا جندا مقاتلين ، فكيف يحرم عمر العمل على عربي عادي هاجر بنفسه وأهله إلى بلد كمصر يريد أن يعيش ؟ من الطبيعي أن تكون قد وجدت في مصر وغيرها جماعات عربية مدنية ، وهذه هي التي اشتغلت بالزرع والضرع وشئون المعاش دون أن يكون في ذلك مخالفة لأمر عمر ، وهذه الجماعات يصعب إحصاؤها ، وهي التي نشأت من أول الأمر بين الأهلين في كل ناحية واختلطت بهم ، وهي صاحبة الفضل الأكبر في تعريب ألسنة الناس وتحويلهم إلى الإسلام ، لأن الجندي العربي ظل منعزلا بنفسه في معسكراته ، وأسيرها الفسطاط ، وبذلك لم تتح له الفرصة للاتصال بالناس ، ومن هنا كان دوره في التعريب وإدخال الناس في الإسلام قليلا .

وسواء بحث في العراق أو في مصر أو الأندلس ، فإننا نجد الغالبية العظمى من هؤلاء الذين نشأوا بين الناس كانوا من عرب اليمن أول الأمر ، ثم لم تلبث الأعداد على مر الأيام في مصر [illegible] العربية ، والصراع

يهاجرون الأمر منهم … الأحد … ميدان
السياسة ، ويتجهون إلى مطالب العيش
والأعمال يعملون في … وكلما
… في تلك العصور …
… إلى طلب العيش في الأمصار والإقامة
في الأرياف . وبهذا فقد كانت السياسة تخص
في ميدان الحياة العامة بفريق من العرب بعد
فريق ، وهذه الجماعات المتهدمة هي التي
حققت للإسلام والعربية نصرهما الحقيقي في
بلاد مثل مصر والمغرب والأندلس ، ومن
أفرادها تكونت معظم الجماعات التي اشتغلت
بالعلم وتدرجت في مراكز الدولة والأمصار

وبهذا نرى خطأ أن يقال إن العرب بدأوا
يتحولون عن سياسة التزمت عن الاختلاط
بالأهالي من أيام هشام بن عبد الملك مثلا ،
لأن الأمر هنا لا يتعلق بسياسة بل بعملية
طبيعية بدأت منذ البداية . وجدير بنا أن
نلاحظ أن أولئك الذين اشتغلوا بالعلم وطلب
المعاش والزراعة لم يتخلوا عن عروبتهم
أو اعتزازهم بها ، بل حافظوا … محتفظين
بشعورهم العربي ، وتزاوجوا منهم وأورثوا
أولادهم أرومتهم العربية ، فأولاد العرب
عرب ، ومن ثم فإن أعداد العرب في النواحي
… في … ، … بهم …
ومادته تحكم الدين والأصل واللغة . وهم
… كانت … إلى …
الأسباب … ودعوة الإسلام واتخاذ
… من اصطناع أسباب عربية

من هنا كان من العسير تتبع حركة
الإسلام والتعريب لا في مصر وحدها بل
في نواحي الدولة الإسلامية الأخرى ، فهي
عملية … بدأت منذ البداية …
… ، … وهناك
… أعاقت عملها أو عطلتها …
ولكنها مضت في طريقها . ففي فارس مثلا
نجد الإسلام ينتشر بخطوات أوسع من
انتشار اللغة العربية ، وفي الأندلس …
الاستعراب بأسرع مما سار الإسلام ، وفي
مصر سار الأمران جنبا إلى جنب لأسباب
تتصل بحالة المسيحية واللغات التي كان الناس
يتكلمون بها في مصر عندما دخلها العرب

فأما فيما يتصل بالمسيحية ، فقد كان
اختلاف المذاهب النصرانية قد بلغ مبلغا عرض
أصول العقيدة النصرانية للإبهام والغموض في
نظر الناس ، ولم تكن العقيدة المسيحية
إذ ذاك محددة المعالم أو مستقرة القواعد ،
وكانت المجامع الدينية تسعى نحو التحديد
وتعمل على التقرير ، ولكن شئون المجامع
شابتها أهواء الأشخاص وعصبيات النواحي ،
وأفسد أمرها تدخل الأباطرة لأغراض
سياسية حينا وشخصية حينا . وكانت مصر
من بين البلاد … ، … في
… مصطلحات العقيدة … تحبيذها
… المباركة …
على الاستقلال … إلى نهاية
وهو … واحدة …

وقد كسب أي المصريين نصراً كثيراً في الشيء وآسيا نصري بل في القسطنطينية نفسها ، واستطاع بطاركة عظام من أمثال ديوسقورس وكيرلس الإسكندري أن يكسبوا انتصارات كبرى في المجامع الدينية ، واستغلت القومية المصرية أثناء هذا الصراع حتى أصبحت المونوفيزية — وهي العقيدة باليعقوبية الواحدة — مظهراً من مظاهر القومية المصرية

وقد تنبهت الدولة البيزنطية إلى هذه الناحية ، وبذلت أقصى جهدها حتى تصرف عن رأي المصريين في مجمع خلقيدونية ، الذي سمي في كتب التاريخ القبطي بمجمع الخصوم ومن تاريخ ذلك المجمع انفصل المصريون انفصالاً روحياً تاماً عن كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما أيضاً ، وأخذت الدولة البيزنطية تستعمل مع المصريين كل وسائل الاضطهاد لصرفهم عن عقيدتهم دون جدوى فلما جاء الفرس مصر نظر المصريون إليهم أول الأمر بسبب ما ارتكبوه من أعمال عنف والقسوة ، ولكنهم أحسوا لأول مرة بتخفيف الاضطهاد وتكسبهم عن تلك الدولة البيزنطية التي لم يعرفوا في أيامها إلا المتاعب والاضطهاد فلما خرج الفرس وعاد البيزنطيون عادت معهم الاضطهادات والمتاعب وعملت الدولة ذلك الأسقف قيرس أسقف فارس يعمل على مقاومة المصريين وتهديم كنائسهم

وقد كان نتيجة هذا الصراع الطويل ما نتجت من تعلق الأفكار بهذه المذاهب الكنسية التي تفرضها الدولة عنوة ، ونشوء الشعب بين الشعب مختلفة وجهاد طوال الدولة في فرض هذه الآراء ، كانت نتيجة ذلك كله أن ضعف أمر المسيحية في مصر ضعفاً شديداً ، وتسبب ارتكاز الناس ، بحيث لا يمكن القول بأنه عندما فتح العرب مصر كانت هناك وحدة دينية أو مذهبية على الأقل ، حتى ذهب بعض مؤرخي النصرانية إلى أن المسيحية لم تتغلغل في أعماق النفس المصرية ، وقال جيبون : « إن المسيحية لم تغير شيئاً من روح الجنس المصري ، ولم تصل إلى التأثير في الحياة الخاصة للأفراد ، ولم تتحول الأرواح تحولاً صادقاً إلى المسيحية » وقال جاستون فييت : « إن الشيء الذي لم يكن له أثر في مصر عندما دخلها العرب هو العقيدة والروح الديني » لا نصرانية الأقباط المصريين على منازعات عقيدية مع البيزنطيين ، ولم تحدث عندهم منذ زمن مبكر معارضة لقوم على كبرياء ، بل ربما استطعت أن نقول إننا نلمح عندهم شعوراً قومياً سلبياً وقد ظهر هذا الروح القومي المصري بأجلى مظاهره بعد مجمع خلقيدونية وكان هذا من الوضوح بحيث يمكن لنا أن نتساءل عما إذا كان مذهب الاتحاد المونوفيزية في حقيقته معارضة للسلطان السياسي أكثر منه عقيدة دينية

وهذه الأقوال كلها لا تصدق على عهد سيطرة مسيحية مضطهدة ، وهي تنطبق أكثر على حال مصر بين خلال القرن السادس أو أوائل السابع الميلاديين . فالواقع أن العقيدة المسيحية نفسها كانت الى ذلك الحين في دور التكوين ، وكان الأساقفة والرهبان ورجال الكنائس يحاولون تحديد أصولها ؛ أما الرجل العادي فكان في حيرة من أمره ، لم يستقر بعد على شيء واضح فيما يتصل بأصول دينه ؛ وكانت آثار الوثنية باقية ما تزال تختلط بمظاهر مسيحية عند معظم القوم . وقد أثبت في دراستي لفتح العرب للأندلس أن نواحي كثيرة من شبه الجزيرة الايبيرية كانت لا تزال على وثنية ، وينطبق هذا على مصر ، فمن المغالاة أن نقول ان أهل القطر جميعا كانوا في أوائل القرن السابع مسيحيين ، أو أن المسيحيين منهم كانوا عارفين بأصول العقيدة وشرائعها ، بل كانت مراكز المسيحية المعروفة في مصر ، مثل الاسكندرية وبابليون وتنيس ، في خلاف بعضها مع بعض .

وكان الرأي السائد عند عامة الأقباط قريب جدا من الاسلام ورأيه في المسيح عليه السلام ؛ ولم يكن من العسير لهذا أن يمضي الكثيرون منهم الى الاسلام دون جهد كبير ، خاصة وأن الاسلام دين سهل لا تعقيد فيه ، اقتنع الناس أنه لا يحتاج الى شرح وتفصيل طويلين كما هو بالنسبة للمسيحية في مصر والشام ، ومن المهم في ذلك الحين كان مفتوحا مزيجا من مختلف المذاهب المتصارعة ومن كل العقائد الوحدة والتثليث ، حتى ان بعض المسيحيين لم يروا في الاسلام اذ ذاك الا مذهبا جديدا من مذاهب المسيحية والانتقال مما كانوا عليه الى الاسلام لم يكن في نظر الكثيرين منهم خروجا من دين الى دين ، فاذا أضفنا الى ذلك ما أصاب كنائس الأقباط من هدم ورجال دينهم من اضطهاد وتشريد على أيدي البيزنطيين ، بحيث باتت الكثير من النواحي بلا كنائس ولا قساوسة ، تصورنا سهولة تقبلهم لهذا الدين الجديد .

ثم ان الدخول في الاسلام ينقل المصري أو المغربي أو الاسباني الى مرتبة الحكام وأصحاب الدولة ، ويرفع عن كواهلهم مطالب ومغارم كثيرة ، ويعفيهم بالجزية من المعاملة الخاصة التي كان بعض العمال يخصون بها الذميين . وقد أشار المقريزي اشارة غير مقصودة الى العلاقة بين انتشار العرب في الأرياف وانتشار الاسلام فيها ، قال : « ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول قيسا بالحوف الشرقي ، فلما كانت المائة الثانية من سني الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » .

وقد يبدو غريبا أن نقول ان مراكز مجتمع بعينها مثل ... في الفسطاط والاسكندرية والجيزة مثلا ، لم تكن بها أغلبية كبرى في

انتشار الاسلام في البلاد . ونحن نعتقد هو الواقع ، لأن هذه المراكز ظلت مراكز عربية صرفة مدة غير قصيرة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يمنعوا الاتصال الذي يؤدي الى التفاهم وتبادل الأثر والتأثير . فقد كان الفسطاط مثلا معسكراً لا يزوره أهل البلاد ، ويعيش فيه العرب في أحياء كل حي منها خاص بقبيل من العرب ، وهذه الأحياء هي التي تسمى الخطط ، وفي الاسكندرية عاش الجند العربي في مساكن خاصة به عرفت باسم الأخائذ ، وكذلك عاش العرب في « الجيزة » الذي احتفروه الى حصن ، وسموه حفظا نسبة خطط الفسطاط ، وقد ظلت هذه المعسكرات مغلقة على من فيها زمنا طويلا ، فلم تكن بذات أثر في انتشار الاسلام ، انما كانت ذات أثر في انتشار العربية وثقافتها ، فقد كانت مراكز عربية صرفة ، ونشأت في الفسطاط بصفة خاصة مدارس علمية ودينية كان لها أبعد الأثر في تعريب ألسن الناس ، وفي جعل مصر مركزاً من مراكز الثقافة العربية الرئيسية

وانتشرت العربية جنبا الى جنب مع انتشار الاسلام ، وقد ساعد على الانتشار أن المصريين في ذلك العهد لم تكن لهم لغة واحدة يتفاهمون بها في كل مكان ، فالقبطية كانت اللغة الغالبة قد دخلت في طور سكون كانت كلمات أوربا مثلا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ... لهجات لاصقة مختلفة تعرف ملابسة العصور باختصار bas latin ، لا نحو لها ولا صرف ، أغارت عليها لغات البرابرة في كل ناحية ، واختلفت عليها ... لهجات في النواحي ، ثم أخذت اللهجات تتقارب حتى تشابه اللغة المحلية ، سواء أكانت فرنسية أو سبانية أو جرمانية . ولم تكن لهذه اللغة القبطية صورة ثابتة بمعنى الشيء الا في بعض الكنائس وبعض كتبها بمعنى ... ثم لها ، حتى في هذه الدوائر الضيقة ، تأثرت تأثراً عظيما باللغة الاغريقية ، بل فضل بعض كتاب مصر أن يكتبوا بالاغريقية

وكانت الوثائق الرسمية تكتب بالاغريقية أي أن البلاد لم تكن لها لغة ثابتة لا في الكتابة ولا في الكلام

ثم جاءت اللغة العربية لغة كاملة غنية قادرة على التعبير عن كل شيء ، ولها كتابة ثابتة معروفة ، ثم هي لغة الاسلام والقرآن والحكام ، فلا غرابة في أنها غلبت غيرها دون مشقة وأصبحت لغة على ألسنة أهل الوادي وهذا الكلام لا ينطبق على مصر فقط بل على المغرب والأندلس أيضا . وليس معنى ذلك أن اللغة العربية حلت محل اللغات المتداولة في مصر دفعة واحدة ، وانما نحن نبسط الأسباب التي مهدت للعربية طريقها ، أما الانتشار فقد تم بصفة تدريجية بطيئة جدا على مر السنين ، واذا نحن قرأنا كتاب ... « القضاة والولاة » للكندي استطعنا أن نتتبع بعض خطوات

هذه الأسماء، وذلك من خلال عشرات الحكايات التي يرويها المقريزي في أخبار القضاة، ونجد بعضهم من كلام حافظ أن اللغة العربية لم تصبح لغة أهل مصر جميعًا حتى القرن السادس الهجري، فعلى سبيل المثال نسمع من أن الناس في مصر لا يفهمون ما يقوله العرب لا يفهمه العجم، من ابن سريجي صاحب «هز القحوف» يعرف أن الفلاحين في بعض النواحي كانوا يتكلمون في أيامه بلهجات خاصة بهم.

وجدير بنا أن نشير إلى أمرين كان لهما عظيم الأثر في انتشار الإسلام واللغة العربية في مصر: الأول قرار عبد الملك بن مروان سنة ٨٧ هـ / ٧٠٦ م بتعريب الدواوين، فقد كانت نتيجة ذلك أن اضطر كثير من الأقباط ممن كانوا يشغلون الوظائف إلى الدخول في الإسلام وتعلم العربية حتى يحتفظوا بوظائفهم. نعم إن قرار عبد الملك لم يطبق بحذافيره، وظل كثير من الأقباط يتولون الوظائف عامة، ولكن معرفة العربية كانت شرطًا لازمًا لاحتفاظهم بهذه الوظائف. والأمر الثاني هو قرار المعتصم بإسقاط العرب من الدواوين وقطع أعطياتهم بالنسبة لولاية مصر بن عبد الله سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ - ٨٣٤ م، فقد أصبح العرب بعد ذلك مثلهم مثل الأقباط، وراحوا يبحثون عن المعايش، واشتغلوا بالزراعة وتركوا حياة البداوة.

ويبدو أن اندماج العرب في الحياة العامة بمصر كان له أثره في انتشار العربية، لأن هذه الطوائف لم تكن لها صلة بالعرب، فلما كثر اختلاط العرب بأهل مصر عاشوا معهم، لا سيما أنهم لا يستنكفون من الاختلاط بهم، وقد زاد عددهم على خمسمائة ألف، فكان لهم أثر في حياتهم وفي كل شيء. وقد نستنتج من شواهد القبور أن العرب احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالي قرنين من الزمان، فكانوا يحرصون على أن يكتبوا على شاهد القبر — إلى جانب اسم الميت — القبيلة التي ينتسب إليها، ولكن ذلك تلاشى خلال القرن الثالث الهجري، وأصبح الناس ينسبون إلى أقاليمهم.

وعلى أي الأحوال نستطيع القول بأن اللغة القبطية فقدت أهميتها تمامًا خلال القرن الرابع الهجري، فإننا نجد كتاب الأقباط — مثل سعيد بن البطريق وساويرس الأشمونيني — يكتبون بالعربية، وكانت كتاباتهم موجهة إلى الأقباط، فلو كانت القبطية أجرى على ألسنتهم لكتبوا بها، لكنهم كتبوا بالعربية، وذلك دليل على أن اللغة العربية كانت قد أصبحت لغة الناس جميعًا، ونحن ذلك أكثر انطباعًا على لغة الكتابة، ولا يعني أن الكثيرين من أهل النواحي ظلوا يحافظون بالقبطية، ولكنها كانت في طريقها إلى الزوال، حتى لم يبق منها

في مطالع العصر الحديث إلا طابعا قبطيا في دوائر ضيقة.

ونلاحظ إلى جانب ذلك أن هذه العملية تمت في مصر دون عنف أو ضغط ، بل تمت كنتيجة سياسة خاصة للدولة الإسلامية ، فإن الدولة لم تكن لها سياسة معينة في نشر الإسلام أو اللغة . وكان ذلك من حسن الحظ ، فانتشار الإسلام بين المصريين كان طائعا عن اقتناع ، وتعلم العربية بين أهلها من تلقاء نفسه بدافع من مصلحته . بل إن المتتبع لأخبار مصر ، خلال القرن الأول الذي تلا الفتح ، يلاحظ أن سياسة الحكام دافعة إلى إحياء المسيحية المصرية ، فقد فتح العرب مصر بعد الدولة البيزنطية لتنتفي سيطرة البيزنطيين الخلقدونيين ، وأقبلوا يراعون ما وهي من أمور عقيدتهم وكنائسهم ، وتركهم العرب يمارسون شعائرهم الدينية كيف شاءوا ، ينتخبون البطرك الذي يريدون ويعيدون بناء الكنائس المتهدمة ، بل يبنون كنائس جديدة ، ويزيدون الأسماء الإفريقية من تراجم وتواريخهم بيجعلون محلها أسماء عربية .

ومعظم الكنائس القبطية الكبرى الباقية إلى الآن ابتنيت أيام الأمويين ، مثل كنيسة أبي مقار وكنيسة القديس مرقص بالإسكندرية ومار جرجس ، والكنيسة المعلقة ، وما يأتي بعد ، من كان كبار الفقهاء من أمثال الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة يرضون عن ذلك ويعتبرونه ... من عمارة البلاد . ولم يطبق على أقباط مصر القيود الخاصة بالملبس والركوب وغير ذلك ، والكنائس التي تنسب نقض من العهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلا في عصور متأخرة ، ولا تكاد نجد ... متشددين في هذه الناحية إلا بعد أن مضى الصدر الأول. أما أمر الأقباط الذي ما كانوا عليه فعاش من أراد الاحتفاظ بدينه في مصر في سلام حتى نهاية العصر الفاطمي بل بعده ، وإن كان قد ضايقهم بعد ذلك حيث فقد أصحاب المسلمين مثله ، وكان الرخاء يعم الجميع تحت حكامهم إلى نهاية القرن السادس الهجري ، مسلمين وغير مسلمين .

ثم إنه لا ينبغي أن نقف طويلا عند ما يحصيه بعض المستشرقين من ثورات الأقباط على حكام المسلمين . ولو أننا أحصينا ثورات المسلمين أنفسهم على حكامهم لوجدناها أكثر وأبعد مدى ، وخاصة وأن هذه الثورات لم تلفت ولم تأخذ هيئة جديرة بملاحظة إلا في عصر بني العباس . وأسباب هذه الثورات كلها مادية ، وهي جميعا من المتاعب المالية التي ارتبكت الدولة العباسية فيها . ويكفي أن نذكر أن أكبر هذه الثورات كانت في سنة ٢١٦/ ٨٣١ أيام المأمون . وهي الثورة التي أجبرت المأمون على الذهاب إلى مصر لإخماد أمرها ... نحو هذه الثورة التي عمت الوجه البحري كله ثورة أقباط ، بل شارك فيها العرب أيضا ، بل إن الحقيقة

الذي دفع به كان عاماً على الجميع ، وهي سخطة مدبرة شاملة تعصف بعسف الولاة أجرة تحصيله للأموال أمور القسم العربي من دولة بني العباس . وقد رحل المعتصم قائده الأفشين لإخماد ثورة العرب المصريين في الفتنة ، ولم يستعص عليه إلا أهل البشرود ، وهي ناحية شمال الدلتا جنوبي بحيرة البرلس ، وكان أهلها ذوي عنف وشدة ، يعتصمون بمستنقعات نواحيهم فلا يصل إليهم أحد . وكانوا في حالة ثورة دائمة على الحكم العربي ، وقد حاول المأمون الاستعانة عليهم بأمر من بطاركتهم دون جدوى ، فوجه كل قوته نحوهم حتى أخضعهم في أواخر سنة ٢١٦ (أواخر سنة ٨٣١) ، وكانت هذه آخر ثوراتهم ولثورات الأقباط أيضاً . وفي أثناء زيارة المأمون هذه لمصر حدثت قصة القرية مارية القبطية بقرية طاء النمل ، التي استضافت المأمون وأصحابه وقدمت له هدية عشرة أكياس من الذهب ، وتلك رواية المقريزي في خططه . ومهما استبعدنا من مبالغاتها ، فهي تدل على رخاء هذه الناحية من نواحي شرق الدلتا في تلك الأيام . وبين هذه الثورة وقيام دولة أحمد بن طولون سنوات قليلة لا تزيد على ثمان وثلاثين .

الأحوال العامة – الزراعة والصناعة والتجارة

هكذا تغيرت الأحوال في مصر بعد الفتح الإسلامي على قرنين ، فتغيرت شئونها وأمر أهلها وتغيرت أحوالها خلال العصر الأموي ، ثم بدأ نصيبها مما أصاب غيرها من نواحي الدولة الإسلامية من الاضطراب والضيق في نصف قرنه من العصر العباسي . ولكن الأحوال على الجملة سارت سيراً حسناً معقولاً أقبل المصريون على عملهم الأبدي في الأرض معتمدين على عدالة الحكم الإسلامي ، ولا حاجة بنا إلى تعداد محاصيلها ، فهي هي التي عرفها في كل أعصرها القديمة والوسطى ولكننا نكتفي بالإشارة إلى الكتان ، فقد كان — بعد القمح — أهم محاصيل مصر الاقتصادية ، وكان المصريون ينسجونه في نواح شتى اشتهرت بالنسيج . وكانت المنسوجات الكتانية المصرية مشهورة في العالم الإسلامي كله ، ولما كان القطن والحرير قليلين فقد كان نسيج الكتان هو الغالب ، وكان المصريون ينسجون منه نوعاً عادياً رخيصاً لعامة الناس وأنواعاً أخرى رقيقة غالية يباع الدرهم من بعضها بدرهم فضة ، وقد اشتهرت بهذه الأنواع الرقيقة الإسكندرية وتنيس ، وكان صانعوها يخرجون ثياباً غاية في الرقة يسمى الواحد منها البدنة ، لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة وتبلغ قيمة هذه الثوب ألف دينار . وكان أهل دمياط ينسجون نوعاً يسمى القصب حيث أنه كان نوعاً من الدكنة . واشتهرت بالنسيج أيضاً شطا ودميرة وتونة ، وكلها

بورد تنيس ودمياط ، وكان الصوف والقطن يستحال بالبهنسا والفيوم والأشمونين وجميع الصعيد ، وبوصير قوريدس من بلاد مصر التي اشتهرت جميعها خاصة بالحرير .

ويبدو أن الحكومة كانت تحتكر أنواعا من النسيج ، وقد ورثت الإدارة الإسلامية في مصر ذلك عن الإدارة البيزنطية التي كانت تحتكر الحرير . وكان النساجون المصريون يخرجون ما يصنعونه ملونا وساذجا (وهذا أصل لفظ « ساذة ») وقد يطرزونه بخيوط الذهب والفضة ، وقد يزينونه بالكتابات . وكان النسيج الذي يخرج من المناسج التي تحتكرها الدولة يسمى بالطراز ، غير أن لهذا اللفظ مدلولات كثيرة ، أهمها المنسوجات الخاصة بالدولة ورجالها ، ثم أصبح معناه مصنع النسيج ، فكان يقال « طراز العامة » أي مصنع عام ، و « طراز الخاصة » أي مصنع ملك الدولة . وعلى الجملة فقد كانت مصر أعظم مركز للنسيج في العالم الإسلامي ، ومن مناسج مصر لبس الخلفاء والأمراء ، ومن مصر كان التجار يحملون النسيج في كل وجه وكانت كسوة الكعبة تصنع في مصر منذ أيام عمر بن الخطاب ، ولا زال الأمر على ذلك إلى الآن عاما بعد عام .

ويلي النسيج في الأهمية من صناعات مصر صناعة السفن ، فقد ذهب الأصحاب على أن مصر كانت دار الأعظم في كل نهضة في حوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط .

وقد بدأت عناية المسلمين بالسفن والأساطيل بعد فراغهم من أمر تحصين سواحل البحر الأبيض التي تحت سلطانهم ، وإقامة المحارس على سواحل وتسكينها بالمقاتلة ، وإقامة « المناظر » وهي أبراج لتمام مراقبة الشواطىء وتنظيم « المواقيد » وهي مواضع توقد فيها النار للإشارة ، ففي مصر مثلا كانت الشارات المواقيد تنتقل من موقد موقد حتى تصل الأخبار من الساحل إلى الفسطاط في زمن قليل . ثم بدأ المسلمون بعد ذلك بالعناية بأساطيلهم ، وظهرت هذه العناية بوجه خاص في مصر ، فحفر العرب خليج أمير المؤمنين ، وهو قناة تخرج من النيل شمالي الفسطاط وتصل إلى خليج السويس عند القلزم والغرض منها نقل السلع التي تحمل القمح وما إليه من الفسطاط إلى القلزم ومنها إلى الحجاز ، فأنشأوا لذلك دار صناعة عند جزيرة الروضة بمصر ، وبها سميت بجزيرة الصناعة ، وقد أظهر المصريون براعة فائقة في بناء السفن ، حتى أصبحوا مهرة . ثم ظهر بعد ذلك خطر آخر فأنشأوا سفنا كبار لخوض المعركة البحرية .

وكان اهتمام المسلمين بصناعة السفن جزءا من اهتمامهم العام بحريتهم في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وصاحب الفضل في ذلك بحركة معاوية بن أبي سفيان ، فقد اهتم اهتماما كبيرا على التقدم بإنشاء السفن في موانىء الشام اهتمامه أيام الدولة لتبسطه على

اسم البوزنطيين قسطنطين أن يقضي على نلك القوة البحرية الاسلامية في مهدها فتصدى له المسلمون وهزموا الأسطول البيزنطي هزيمة منكرة تعرف في كتب التواريخ بموقعة ذات الصواري سنة ٣٤ / ٦٥٥ التي نقلت سيادة الحوض الشرقي للبحر الابيض الى أيدي المسلمين . وكانت نواة الأسطول الاسلامي الذي كسب هذا النصر شامية ، ولكن القوة البحرية التي من مصر ابينما سار معاوية يسلك الشام الى قيصرية بآسية الصغرى ، خرجت عمارة بحرية مصرية من مصر على رأسها عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان يقودها نواتية من المصريين ، بل كان من بينها سفن ليس فيها الا أقباط . وكانت هذه الموقعة حافزا للمسلمين على الاهتمام بشئون الأساطيل ، ويبدو أن دار الصناعة في جزيرة الروضة فتحت أعين المسلمين على أهمية هذه الدور ، فقد قال البلاذري « انه لما كانت سنة ٤٩ هاجم الروم سواحل الشام ، وكانت دور الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبي سفيان بانشاء دار للصناعة في عكا » . وظلت مصر طوال العصر الذي نتحدث عنه في هذا الفصل مركزا من أهم مراكز بناء السفن ، وظل عمالها مشهودا لهم بالتفوق في انشاء السفن البحرية حتى كان يستعان بهم في كل ناحية من نواحي المملكة الاسلامية .

وقد أظهرت أوراق البردي التي كشفت في كوم أشقاو ، والتي ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك ، أن صناعة السفن كانت مزدهرة في مصر ، في جزيرة الروضة وفي القلزم والاسكندرية . ويفهم من تلك الأوراق أن عمال الوالي قرة بن شريك كانوا يطلبون من صاحب كورة أشقاو أن يرسل اليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل في دور الصناعة والمساهمة في اعداد الأسطول المصري العربي . كما تدل تلك الأوراق على أن الوالي كان ينفق مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون في الأسطول المصري ، كما كان يفرض على الكورة قدرا من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن وتنظيمها . كذلك كان يفرض عليها تموين الملاحين الذين يعملون في الأسطول ، كما كان والي مصر يرسل بعض الملاحين للعمل في أسطول المغرب أو أسطول المشرق والمساهمة في المشروعات البحرية العامة للدولة الاسلامية .

وقد استمر ذلك طوال العصر العباسي وعصري الفاطميين والأيوبيين ، ولم تنصرف مصر عن الاهتمام بشئون البحر الا في أيام المماليك كما يقول المقريزي . ويدلنا وثيقة بردية يرجع تاريخها الى سنة ٢٤١ / ٨٥٥ ... فكرة عن عظم اهتمام ولاة مصر بصد البيزنطيين عن سواحل مصر ، ومفادها ... كان ... بمصر ... في الاسطول ... لحماية سواحل الاسلام ... وكانت مصر ... الخشب اللازم ...

السمق من الشام ، ورحمه من آسيا الصغرى وبعض بلاد أوربا .

وكان البردي خلال عصر الولاة من أهم منتجات مصر ذات القيمة الاقتصادية ، حيث كانت أوراق البـــــردي تستعمل للكتابة في مستندات الدولة والقصور ، وشهرة المصريين بصنع الورق منه معروفة . قالت الدكتورة سيدة الكاشف : « ويذكر ابن الفقيه في أواخر القرن الثالث الهجري أن لأهل مصر القراطيس التي لا يشركهم فيها أحد ، ويذكر اليعقوبي أن القراطيس كانت تصنع في بورة ، وهي على ساحل البحر من عمل دمياط ، وفي مدينة تحيس وهي على ساحل البحر قريب فرع رشيد ، وبطا بها وسيمة . وطالما كان الناس يستعملون البردي للكتابة كانوا يعتمدون على مصر . أما في القرن الرابع الهجري فيحدثنا الثعالبي أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون إلا بسمرقند والصين . ويذكر كرابتسك أن صناعة ورق البردي للكتابة تنتهي في مصر بالإجمال حوالي القرن الرابع الهجري ، والواقع أن ورق بردي المؤرخ الذي وصل إلينا ينتهي في عام ٣٢٣/٩٣٤ على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ ٣٠٠ ٩١٢ . وهكذا نرى أن مصر كانت طوال عصر الولاة تكاد تحتكر صناعة الورق . وكان صناع الورق ، كمعظم من الصناع في مصر ، من المصريين . وكانت أغلبيتهم ، أو كلهم ، في أول عهد الفتح من الأقباط . وإلى أواخر القرن الهجري الأول أوائل الثامن الميلادي كانت صيغة الطابع الذي يطبع على الورق « باسم الأب والابن والروح القدس » ، ومع أن هذه الصيغة استبدلت فيما بعد بما يتفق والدين الإسلامي ، إلا أن الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة » .

وإلى جانب هذه الصناعات الرئيسية اشتهرت مصر بصناعات تقليدية أخرى كالنجارة والحفر على الخشب والعاج والزجاج وصناعة المعادن ، وكل هذه صناعات متوارثة من العصور القديمة . هذا ، أضف إليها ما كانت مصر تصدره من الحبوب وتستورده من الأخشاب ليتبين لنا أن تجارة مصر في ذلك العصر كانت نافقة ، وأن القلزم ودمياط والإسكندرية ورشيد كانت زاهرة نشيطة . مع تضاؤل أمر الإسكندرية وتحولها إلى قرية لا أهمية لها بعد الفتح الإسلامي كما يقول بعض المستشرقين ، فقد زارها بعد الفتح الإسلامي بنحو ثلاثين سنة ، أي سنة ٥٠ — ٤٦ هـ ٦٧٠ أركولف أحد حجاج بيت المقدس ووصفها بأنها ملتقى التجارة العالمية . ويذكر آدم متز أن الإسكندرية وبغداد كانتا تصدران في القرن الرابع الهجري الأسمدة المسمية ، ولا ... في مصانع النجالة

وكانت العملة المتداولة في مصر هي الدينار الذهبي، وكسوره، والدراهم الفضية، وربما استعملت كسور نحاسية وهي الفلوس والأنصاف البرونزية. ولكن الأساس هو الدينار الذهبي بوزنه البيزنطي. وقد ظل وزن الدينار البيزنطي كان معترفا به حتى أيام الأسرة المقدونية. وكان ثبات وزنه أساس الثقة فيه وضمان سلامة الميزان الاقتصادي للدولة البيزنطية، حتى إن احتفاظ دولة بوزنه يعتبر من العلامات الخاصة الدالة على استقرار أمر هذه الدولة. ومن البيزنطيين أخذ المسلمون الدينار بوزنه ورسمه أول الأمر، ثم بدأوا يسكون دينارا إسلاميا من عهد عبد الملك بن مروان. ولكن الدولة الإسلامية لم تحافظ على وزن دينارها، فاضطربت قيمته وقلت الثقة فيه، وأصبحت الدنانير سلعة كبيرة تقدر بوزن ما فيها من الذهب، وظل الناس يفضلون الدينار البيزنطي الثابت الوزن، وظلت العملتان مستعملتين جنبا إلى جنب مع اختلاف في قيمتهما.

وقد احتفظت مصر بالدينار كأساس لمعاملاتها، في حين أن العراق مثلا أصبح يتعامل بالدراهم الفضية لقلة الذهب ولوفرة الفضة. وكان وزن الدينار المصري ثابتا في الغالب، وذلك لأن الأمراء وحكام مصر [illegible] [illegible] الجملة حرصوا على نسب أو [illegible] العملة على [illegible] [illegible] [illegible] مطبوعة بأسمائهم.

وبعد هذه الثورات والأعاصير التي أشرنا إليها، لا نذكر من تاريخ مصر الإسلامية من الحوادث التي وقعت فيها إلا ما يتصل بمن نزلها من عرب سواء أكان ذلك خاصا بمن أقاموا في مراكز العرب كالفسطاط والجيزة والإسكندرية أو من نزل منهم في نواح من مصر السفلى كالحوفين الشرقي والغربي، بحيث يمكن القول بأن تاريخ مصر الذي نقرأه عند ابن عبد الحكم والكندي مثلا إنما هو تاريخ الجاليات العربية في مصر. فقد عاش العرب في الفسطاط خاصة منفصلين عن بيئة الأهلين، إلا فيما يتصل بما تقضي به ضرورات الحياة، وتتميز الفسطاط من بين ما أنشأ المسلمون من مدن في ذلك العصر الأول بأنها كانت مركزا عربيا خالصا كأنه لم يغادر عربها جزيرتهم. فبينما نجد الكوفة والبصرة تغصان بأهل العراق الأصلاء، والقيروان مدينة غالبية سكانها ممن أسلم من البربر، وقرطبة مدينة إسبانية حلت فيها الجالية الإسلامية، نجد الفسطاط تبدو من أول الأمر مدينة عربية خالصة لا يسكنها غير العرب ويسودها جو عربي خالص.

وهي على خلاف البصرة والكوفة ظهرت مدينة كاملة واضحة التخطيط منذ تأسيسها، في حين [illegible] هاتين [illegible] الأمر بالقصب، ثم [illegible] القصب [illegible] [illegible] فيما بعد، ولا [illegible] هذه إلا على [illegible] أن

الفسطاط التي نشأت على أساس موضع كان مسكونا قبلا ، أعاد العرب تخطيطه وتنظيمه يعاونه أهل البلاد . فلم يكن العرب بانين ، وليس لدينا ما يدل على أنهم بنوا مدينتهم هذه بأيديهم . ومن الغريب أن نرجح من أن اسمها مشتق من فسطاط عمرو بن العاص فرض لا يمكن رفضه بتاتا ، وإن كان من المحتمل أن يكون الاسم مشتقا من لفظ «فوساطون» اليوناني بمعنى المعسكر أو الخندق . وقد سبق أن أشرنا إلى أن المنطقة الواقعة بين قصر الشمع (حصن بابليون) إلى ما يعرف الآن بعين شمس كانت عامرة بالقرى والمزارع والأديرة ، فاختار العرب أن تكون مدينتهم بينها .

ولقد كانت عادة المسلمين في ذلك العهد إذا أرادوا أن ينشئوا مدينة ، أن يبدأوا ببناء مسجد جامع تقوم من حوله المباني بعد ذلك . هكذا حدث مع الكوفة والقيروان مثلا ؛ أما في حالة الفسطاط فقد بدأ العرب بتخطيط المدينة ، أي بتحديد المكان الذي ستقوم فيه وتقسيمه خططا ؛ بل أقام عمرو بن العاص رجلا من أصحابه مشرفا على هذه العملية وهو معاوية بن حديج الكندي ، الذي سيكون له دور عظيم في نصرة معاوية بن أبي سفيان ثم في فتح المغرب بعد ذلك . ونستبعد أن يكون هذا الأسلوب الغريب في الإنشاء من عند عمرو نفسه ، بل نعتقد أنه استرشد فيه برأي من كان حوله من كبار القبط ، وكان الود بينه وبينهم متبادلا ، فكان يستشيرهم في الكثير من شئون البلاد والمال . أضف إلى هذا أن هذه المساحة بالذات كانت من أملاك الدولة ، فاستصفاها عمرو ، لم يصبه منها شيء لمزروعة بالتخطيط ، ويرجح أن الخطط لم تكن متساوية ، وأن كلا منها لم يكن حيزا واسعا ؛ بل قسمت الأرض بحسب الظروف والحاجة ، فالرواة يذكرون لنا مثلا خطة عبد الرحمن بن ملجم ، أعطيت له بأمر عمر بن الخطاب ليتخذ فيها منزلا يعلم الناس فيه القرآن ، وابن ملجم هذا هو الخارجي المشهور الذي اغتال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه .

ومن الدلائل على أن أهل البلاد كانوا يشتركون في الإنشاء ، أن عمرو بن العاص بنى حماما فاستصغره القبط وقالوا : يصلح للفأر ، أي أن القياس لم يعجبهم . أما حمامات مصر فكانت ديماسات كبارا (جمع ديماس وهو البناء الكبير ، من Domus اللاتيني ؛ ثم أطلق على ما يعرف اليوم بالسرداب ؛ ومنه يقال : فول مدمس ، أي منضج في الداموس أو الديماس) ؛ ثم كانت حمامات الفسطاط بعد ذلك كبارا نتيجة لملاحظة أولئك المصريين . ثم اختط عمرو مسجده ، وهو أقدم مساجد مصر ، وإن كان قد هدم وهدم وبني من جديد بعد ذلك مرارا ، ولا زال قائما إلى اليوم ويعرف اليوم بالمسجد العتيق . ثم اختط عمرو داره شرقي المسجد وبني

أصبحت القرى الست متجاورة ، وكانت تدور حول الأمر من صفة واحدة ، ولا تزيد عرض البيت عن ثلاثة أو أربعة ، ولم يتخذ صاحب كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » مبالغات فيما عرض المسعودي عليه من ستة إلى الأبنية ، ولم يكن بحاجة إلى تكلف ذلك كله ، فإن الأمر بطبيعته لم يكن يخرج عن هذه البساطة

وقد استطاع رولى جست أن يضع رسما للفسطاط الأولى اعتمادا على أطلالها وبقية أسس بيوتها التي تم كشفها ، وأتم عمله الأثري المصري علي بهجت . وقد ذهب إلى أن البند كان يمتد من القرية الواقعة جنوبي القاهرة والتي كانت تعرف بدار ... التي لم تعد أسمها في دار السلام ، وتتصل حتى بركة الحبش وقد جفت الآن ، وكانت تقع قرب المرتفع الذي كان يعرف قديما بجبل يشكر ويعرف موضعه الآن باسم أرض طولون ، وعليه يقع جامع أحمد بن طولون . وكان لكل خطة منسوبة إلى قبيلة ديوان أو سجل بالمقيدين في الجند الرسمي من أهلها ، وفي دار الإمارة كان يوجد السجل العام أو الديوان وهو إدارة حسابية تسجل فيها أسماء العرب المشتركين في الجند وأسمائهم ومن لهم الحق في الاشتراك في تجديده والحصول على العطاء والرزق . وكان لأهل الراية ديوان خاص في خططهم ، وكانت هناك خطة تعرف بالذين لا ينتسبون إلى قبيلة بعينها ، وكانت تسمى خطة اللفيف . وكان الوافدون من العرب ينزلون في خطط قبائلهم ، فلما ضاقت الخطط نشأت خطط جديدة عرفت بخطة أهل الظاهر

وكانت مهمة الجند من الأمر سيطرة قبيلة منازل على حدود خططها ، وتترك ما يدور فيه فضاء . وقد ضاق هذا الفضاء شيئا فشيئا بإنشاء مبان جديدة فيه وتحول إلى جوار من شأنه تحقيق الدروب والأزقة وبهذا لم تكن في الفسطاط القديمة شوارع رئيسية أو مسجلات تأخذ من عرف بطريق.

قال ابن رولاق : « وفرق عمرو بين الروم والفرس ، وجعلهم في مرافق البلد ، فأسكن الروم الحمراوات ، وأسكن الفرس بني وائل وراشدة وبساتين بني وائل ، ولهم إلى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين ، وأسكن القبط القصر ، وأسكن العرب الخطط » ، أي أنه جعل من تضم إلى جيشه من عرب المصريين الذين كانوا يعرفون بالحمراء في طرف البلد الجنوبي على شاطئ النيل في الغرب ، لأن الموضع الذي نزلوه عرف بالحمراء الدنيا فيما بين حصن بابليون والنيل ، ثم نشأ الناس عمروا من المنازل على شاطئ النيل حتى ... بني الشمال ، وقد نشأ عن ذلك ما عرف بالحمراء الوسطى ثم الحمراء القصوى . أما القصر الذي أسكنه الأقباط ، فالمراد به ما بقي من قصر الشمع إلى الحصن ، أي أنه أقرهم خارج بلد

وسمها قسيا حمعي اسم بابليون وبقي اسم الفسطاط وكان اسم مصر يطلق على الفسطاط أيضاً ، وأطلق عليه بعد ذلك على القاهرة . ومن المعروف أن معنى كلمة فسطاط الخيمة اسم فسطاطون ، وهذا هو الذي جعل المستشرق دوزي الى القول بأن لفظ الفسطاط مشتق من فساطون اليوناني ويقوي هذا رأي أن بعض النصوص العربية تقول فسطاط ، ويسميه أن اللفظ لم يعد أول الأمر بمعنى الخيمة وإنما بمعنى بيوت أو ربية ، وهو السور يتخذ من ثياب ذي شوك

ولابد أن نضيف أن العرب لم يعمروا اسم مصر لهذا الموضع وإن كانت تسميته قبل دخولهم القبائل العربية الضاربة في شمالي الحجاز تسمى الحدود أو الحد ، ورب سمعوا أيضاً بمعسكر الذي يقوم على الحدود . ويرجح أن أصله عربي ، وقد أخذ العرب مراكز العسكرية فسموها أمصاراً ، فذكر مصر الكوفة ومصر البصرة . ويرجح أنه كان يطلق أيضاً على موضع حصن بابليون ، ثم قالوا مصر الفسطاط ، ثم أطلق الاسم على بلاد مصر كلها . أما الاغريق فكانوا يقولون Aegyptos وقد أخذ هذا الاسم طريقه الى اللغات الأوروبية أما اسم مصر القديم فهو كمي أو كيمي أي كمي هذه الحمى بنائب

ومع كل الفسطاط عاصمة مصر حتى ما كانت مركزاً للعرب ، على أنشأه العصر الأموي بعد عبد العزيز بن مروان نقل دار الامارة الى حلوان . وتم نقل العمار خلال العصر العباسي في الفسطاط واتجه الى موضع بالحمراء القصوى عرف بعد الأمراء . وقد نشأت حول دار الامارة مدينة صغيرة عرفت باسم مدينة العسكر ، أقيم فيها مسجد جامع جديد عرف باسم جامع العسكر أو جامع ساحل الغلة . وقد أفادت الفسطاط من ذلك لأن مباني السيدتين الصلب ، فعادت بني الفسطاط أحسنها كعاصمة ، وأنشئت لها شرطة خاصة عرفت باسم الشرطة العليا . وقد اتسعت الفسطاط وازدحمت بالناس شيئاً فشيئاً ، ولكنها لم تسور . وفي سنة ٦٤/ ٦٨٢ حصر عامل ابن الزبير على مصر حفير حول الفسطاط ليحميها من جنود الخليفة مروان بن الحكم . وقد أنشئت فيها امتيازات بحكومة الوحدة بعد الأخرى ، فعمر الجامع نفسه ، وأنشئت مساجد صغيرة في الجهة عرفت بالمصليات ، ثم أنشئت أهراء كبيرة للقمح ذكرت في النصوص الأدبية ، ثم أنشئ بيت المال على مقربة من الجامع ، وكان يقوم على أساطين أي أعمدة ، وكان يتصل بالجامع ، وبابه الرئيسي داخل المسجد ، ولهذا كان المسجد يحمي من المتسللين . وقد أصبحت الفسطاط مكونة كبيرة خلال العصر الذي ندرسه ، أقساها مروان بن محمد آخرها سنة ١٣٢/ ٧٥٠

الفسطاط دار إمارة العباسيين ، وحكى ذلك ساويرس بن المقفع . وقد ... مدينة العسكر مقام الأمراء حتى قدم أحمد بن طولون مصر وأقام دولته معتمدا على عنصر الأتراك ، وأنشأ القطائع . وسنتحدث عن ذلك فيما بعد .

وقد ذكرنا أن نفرا من العرب نزلوا موضع الجيزة واختطوا مدينة الجيزة وجعلوها خططا ، وكان معظم من نزلها من العرب من قبيلتي همدان ويافع . وقد بنى عمرو بن العاص في المدينة حصنا فيما بين سنتي ٢١ و ٢٢ / ٦٤١ — ٦٤٢ ، ثم بني فيها مسجد جامع عرف باسم مسجد همدان وينسب إلى مراحل بن عامر بن بكيل ، وقد عرف أيضا بمسجد الأعلام لاتساعه وكان ملاصقا للحصن . وقد تلاشى الحصن والجامع فلا نجد لهما ذكرا عند ابن دقماق .

أما الإسكندرية فلم يشغل العرب الأولون فيها شيئا ، والمعروف أن مساكن كانت لبعض الروم وقد تركوها عند خروجهم من مصر ، فكانت تسمى الأخائذ . وكان المسلمون يسكنون هذه البيوت في رباطهم ، فإذا انقلبوا سكنها الروم وعليهم مرمتها ، ثم استقروا بها بصورة نهائية .

أهم أحداث مصر من الفتح العربي إلى قيام دولة أحمد بن طولون

هذه هي المراكز التي تجمع فيها العرب من أول الأمر ، وقد عاشوا فيها كما قلت حياتهم العربية الخالصة محتفظين بصلات دائمة ومباشرة بأبناء عمومتهم في جزيرة العرب ، ولهذا فقد كان تأثرهم عظيما بكل ما يجري في شبه الجزيرة من الأحداث ، مثلهم في ذلك مثل عرب الكوفة والبصرة ومن اليمن . ولهذا كان تاريخ هذه الجماعات يعتبر جزءا من تاريخ الخلافة عامة لا من تاريخ مصر فحسب .

وبينما ظل أهل مصر بعيدين عن الفتن الكبرى التي هزت كيان الدولة الإسلامية خلال القرنين الهجريين الأول والثاني اشترك عرب مصر في هذه المشاكل كلها وقاموا بدور حاسم في الكثير منها . فقد ألقى عرب مصر بأنفسهم في معمعان الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان .

وليس هنا موضع تفصيل ذلك ، وإنما يهمنا أن نلاحظ أن عبد الله بن سبأ الذي يقال إن أصله من يهود اليمن وجد أذنا صاغية من اليمنيين في مصر ، فكان الذي دفع عرب مصر إلى الاندفاع في هذه الفتنة هو استنكار جماعة اليمنية كما أبلغهم إياه بعض الدعاة من أن فريقا من قريش مستبد بالأمر مضيع لشئون المسلمين . أما من انضم إلى حركة من القرشيين فكانوا ينكرون استبداد بني أمية بالأمر دون غيرهم من القرشيين زمن الخليفة عثمان ، وقد رأى الفريقان في تولية عثمان أمور مصر أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد ... وقد قاد الرجل حملة عظيمة ... الخليفة ، فقام بحملة كبرى على

المغرب ، وانتصر على الروم في سبيطلة سنة ٢٧ / ٦٤٧ انتصاراً لا يقل عن انتصار عمرو على الروم عند بابليون ، ثم غزا النوبة وعقد مع أهلها معاهدة مشهورة سنة ٣١ / ٦٥٢ ، ثم كسب انتصار ذات الصواري سنة ٣٤/ ٦٥٤ ، ولكن ذلك كله لم يشفع له ، واصر عرب مصر على المكره وكراهيتهم له

وربما كان من أسباب هذه الكراهة اجتهاده في جمع المال والارتفاع بالخراج حتى جمع منه فوق ما جمع عمرو بن العاص

وبينما كان عبد الله بن سعد مشتغلا بهذه الفتوح كان ابن سبأ ومن انضم اليه يكيدون له ، فلما عاد من غزوة ذات الصواري سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ ليتبين حقيقة الأمر ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ومضى الى المدينة ليلقى الخليفة ، فلم يكد يخرج من مصر حتى ثار عربها على عقبة وطردوه وتزعمهم محمد بن أبي حذيفة ، وربما كان غرضهم الأول التخلص من والي عثمان عليهم ولكنهم وجدوا من عثمان اصراراً على واليه ، فازدادوا سخطاً وتلتقي عندئذ غضبتهم مع غيرهم من عرب الأمصار الأخرى يشاركونهم الرأي في ولاة عثمان ، فبعثوا الى المدينة جماعة منهم يقال ان عددهم كان ٦٠٠ رجل ، وفي المدينة التقى هؤلاء بغيرهم من الثوار وتطور الأمر حتى انتهى بمقتل عثمان بن عفان في ذي الحجة سنة ٣٥ / مايو ٦٥٥

وقد تمكن المناصرون لعثمان على أنفسهم أثناء ذلك كله ، وعرفوا بالعثمانية ، وعلى رأسهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبي أرطاة ، وعرفوا كيف يحافظون على وحدتهم ومراكزهم أثناء ذلك الوقت العصيب . والتف حولهم نفر من عرب مصر ، ولم يتركوا خصومهم رغم ما بذله محمد بن أبي حذيفة والي علي على مصر من المجهود ، ثم أقبل اليهم معاوية ابن أبي سفيان بنفسه والتقى بهم في سلمنت من كورة عين شمس سنة ٣٦ / ٦٥٦ واحتال على محمد بن أبي حذيفة حتى تخلص منه ، فولى علي على مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، فدخلها سنة ٣٧ / ٦٥٧ ولكن معاوية وعمراً عرفا كيف يوقعان بينه وبين علي فعزله ، وولى مصر الاشتر بن مالك بن الحارث النخعي فدبر معاوية اغتياله ، وولى علي محمد بن أبي بكر فلم يستطع الثبات لأنه كان رجلا طائشاً قليل التدبير ، ثم لم يلبث عمرو بن العاص أن انتصر عليه واستعاد مصر لمعاوية سنة ٣٨ / ٦٥٨ ، أي قبل مقتل علي بسنتين

ويبدو أن هذا الانكار لاستئثار بني أمية بالأمر دون غيرهم هو الذي دفع بغالبية عرب مصر الى تأييد عبد الله بن الزبير عندما طلب الخلافة لنفسه عام ٦١ / ٦٨٠ ، ولم يكن مقتصراً ذلك على عرب مصر بل شمل عرب الحجاز واليمن والعراق وكثير من عرب الشام . ومن الواضح ان عامة العرب لم يكونوا قد سلموا

مع بني أمية في الخلافة ، وإن كانوا قد خضعوا للقوة وخدموا هذه القوة ، وأصبحت عصبة عرب الشرق ، القيسية كانوا بعيدين عن مركز الخلافة مستعربين بجانب كبير من الحرفة ، ويبدو ذلك بصورة واضحة في حالة عرب مصر ، فقد كان لهم وضع خاص يختلف عن وضع عرب العراق مثلا . فقد كان هؤلاء الأخيرون يعيشون من أرض تملكها الدولة وليس لهم إلا فلولها . أما عرب مصر فكانت رقاب أرضهم بأيديهم أو بأيدي المصريين ، ولم يكونوا يخشون أن تنزعهم الدولة من الأرض أو تحاربهم بالأسلحة التي حارب الحجاج عرب العراق بها .

ومهما كان الأمر فقد كان عرب مصر مستعدين لتأييد أي منافس لبني أمية في الخلافة ، سواء أكان المنافس ابن الزبير أو غيره ، وخاصة عندما اقتنص الخلافة مروان بن الحكم سنة ٦٤/٦٨٤ فقد بدا بوضوح أن المسألة مسألة مهارة وخداع وغصب بالقوة ، وتمكن فخر عن الخلافة خارج بصرف النظر عن حق أو رأي الأمة . وقد بدأ مروان بن الحكم أمره بمأساة مرج راهط حيث ألب القيسيون بالكلبيين هزيمة فاضحة ردد صداها في نواحي الدولة كلها ، ولم ينس اليمنيون مصيبة مرج راهط أبدا ، ولم [illegible] في صدورهم ولم تغادرهم [illegible] [illegible] دولة أمرها [illegible] إلا [illegible] ، [illegible] [illegible] أن [illegible] بني مروان وخروج الأمر عن أيديهم بدأ يوم مرج راهط .

وقد اهتم مروان بأمر مصر اهتماما عظيما ، وأسرع بنفسه يستخلصها من والي عبد الله بن الزبير فيها وهو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري . وقد أبلى ابن جحدم بلاء عظيما في دفاع مروان بن الحكم وجيشه ، ولفر عرب الفسطاط حوله ، وكانت غالبيتهم يمنية ، ولكنهم تعرضوا لنفس السبب الذي هزم اليمنية في صراعها مع القيسية في كل ناحية من نواحي الدولة ، وهو أنهم كانوا أكثر استقرارا كما كانوا منصرفين إليه في الولايات من زرع وضرع وشئون معاش ، في حين أن القيسية كانوا قليلي الاهتمام بهذه الناحية ، [illegible] همهم الحقيقي في السياسة وطلب السلطان ، فكانوا أصبر من اليمنيين على الكفاح السياسي والعسكري ، وربما كسب اليمنيون انتصارات أولى ، ولكنهم لم يكونوا يصبرون في الصراع الطويل ، ولهذا عقدت الانتصارات النهائية دائما بلواء القيسية . وقد دخل مروان بن الحكم الفسطاط سنة ٦٥/٦٨٥ وبايعه عرب مصر إلا نفر قليل تخلص منهم مروان بوسائل شتى . وقد انصرفت يمنية مصر بعد ذلك عن السياسة وانصرفوا إلى شئون معاش ، فهدأت أحوالها في هذه العصر الأموي .

على أن اليمنيين سرعان ما [illegible] [illegible] الوضع [illegible] أمر بني مروان إلى [illegible] ، [illegible]

ضعف أمر القيسية بعد ذلك العهد الطويل الذي تمتعوا فيه بتأييد بني مروان منذ أيام مروان بن الحكم . ولما كان اليمنيون قد عجزوا عن مواجهة الخلافة لم ... حمية وحدة ، فإن جماعاتهم في كل ناحية من نواحي الدولة أصبحت مأوى لمن معها من القيسيين ، وتظهر تلك الصورة واضحة جدا عندما ولي الأمر مروان بن محمد ، فقد اعتمد على القيسيين اعتمادا كاملا أخرج صدور اليمنيين في كل ناحية . وبينما ينصب مصر عند واليها حفص بن الوليد الحضرمي ، وكان يمنيا ، يستعفي من ولاية مصر حسب سياسة التعصب مروان بن محمد حليفة ، فولى مروان عليها حسان بن عتاهية وعلى خراجها قيس بن أبي عطاء وهما مضريان حسان ، فاغتضب اليمنيون فقاوموهما حتى اضطروهما الى الخروج من مصر ، وتمردوا على أن تعيين حفص بن الوليد مرة ثانية .

وكانت دعوة العباسيين قد قوي أمرها وترامت أخبار تجمع قواهم في شرق الدولة الإسلامية . وربما وصل الى مصر نفر من دعاتهم ، فتشجع اليمنيون وصارحوا مروان بن محمد بالعداء . وقد اجتهد في اصطناعهم فولى مصر حنظلة بن صفوان الكلبي ، وكان يمنيا من مخلصي بني مروان ، وكان قد خاض معارك طويلة في المغرب ثم بوغت في بيته منها ، فرفض المصريون الاعتراف به وأخرجوه من الفسطاط . وظل حفص بن الوليد واليا على مصر حتى أوائل سنة ١٢٨ (٧٤٥) ، وقد رفع مروان وقادته تمرد مصر عن سلطانه ، فأنفذ لاخضاع عرجها رجلا من جنده جاءه هو حوثرة بن سهيل الباهلي ومعه سبعة آلاف من جند حمص والجزيرة وقنسرين ، فخافت عرب مصر ، وتنحى حفص بن الوليد عن الأمر وطلب أنصاره الأمان ، فأمنهم ، ثم غدر بهم وقتل زعماءهم بما فيهم حفص بن الوليد سنة ١٢٨ (٧٤٥) .

ولم تمض سنوات حتى كانت هزيمة مروان بن محمد أمام قوات العباسيين على نهر الزاب (جمادى الآخرة ١٣٢ — يناير ٧٥٠) ، وشعر بنو مروان وولاتهم أن أمرهم قد انتهى . وهنا نجد فكرة التحصن بمصر تدور بفكر مروان بن محمد ، وحدثه بعض أصحابه بالعبارة التي لا تزال تتردد في أحاديث مؤرخي مصر الإسلامية « هي أكثر بلاد الأرض مالا وخيلا ورجالا » ، وهي « كليشيه » لا يزال يتردد على ألسنة رجال الدولة ، دون أن يحاول أحد منهم الاستفادة منه ، حتى جاء أحمد بن طولون .

وبينما كان مروان بن محمد يفكر في مهرب يلجأ اليه كان واليه على مصر عبد الملك ابن مروان يستعد لمحاربة طلائع من العباسيين ، وقد ارتكب في ذلك السبيل حماقات ما كان أغناه عنها ... ، ... الناس ... على ما قدر عليه من نحاس وحديد ليستخدم

ذلك كله في شهور الدفاع. فهرب المؤمن عليه [illegible] بني مروان عن قوص ، حتى إذا بدأ مروان بن محمد يسير إلى مصر هاربا من بني العباس خشيهم [illegible] من الجند لشدة من تحيزوتهم ، ثم أخذ مروان يعذب ضيعته ، وعند ذلك هرب مصر جميعا [illegible] من الاسكندرية إلى أسوان ، مع العباسيين عليه ثم انضم إليهم أهل البشمور (ويسمون أيضا أهل بشرود) واعتصموا بمستنقعاتهم ، ولقي مروان في مصر مصير القهر يحاول أن يجمع أمره دون جدوى.

فلما علم بأن قائدي العباسيين صالح بن علي وأبا عون في الطريق إلى مصر أمر بإحراق الفسطاط ، ثم أحرق جميع المراكب الراسية في دار الصناعة بالروضة ، ثم مضى جنده يخربون ما استطاعوا تخريبه من أراضي الوجه البحري ، كأنما على أن سياسة « الأرض المحترقة La terre brulée » قد انتقلت من مصيره المحتوم. ولم تكن لذلك نتيجة إلا تنفير أهل البلاد جميعا — عربا ومسلمين وأقباطا — حتى فقد فيه له رأيه تدبيري أن يقبض على البطرك الأب ميخائيل لأنه لم يؤد إليه مالا معلوما ، وانتهى الأمر بالقبض عليه وقتله في بوصير [illegible] في ٢٧ ذي الحجة ١٣٢/٧ يونيو ٧٥٠ . وبهذا لقي آخر خلفاء بني مروان مصرعه على ثرى مصر ، واستطاع ساويرس بن المقفع مؤرخ الأقباط أن يحكي هذه المناسبة في تاريخه

وتذكر مكافأة العباسيين للأقباط لمعونتهم على [illegible] بني مروان ، فقد أعفوا [illegible] الخراج وأطلقوا سراح الأقباط المعتقلين ، وسلموا [illegible] الكنيسة المصرية وأملاكها ، وأعطوا أهل البشمور [illegible] من الخراج ، ومنحوهم مالا على سبيل المكافأة.

هكذا دخلت مصر في طاعة العباسيين ، وتولى أمرها صالح بن علي عم أبي عبد الله السفاح أول خلفاء بني العباس. ولم يخطر ببال أهل مصر الذين استبشروا في المعاونة على القضاء على بني مروان أن هلاك آخر مرو [illegible] إنما هو إيذان بنهاية ازدهارهم في مصر ، فقد كانت للعباسيين وجهة أخرى في الحكم غير وجهة الأمويين. قامت دولتهم على غير العرب واختاروا عاصمتها على حدود أرض الفرس في بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وابتعدوا بذلك عن الجناح الغربي للدولة الإسلامية ابتعادا تاما. وبدأت وحدات هذا الجناح تنفصل عن كيان الدولة الإسلامية الواحدة بعد الأخرى. بدأ الأمر في الأندلس بقيام دولة عبد الرحمن الداخل ، ثم انفصلت افريقية عندما استقل بأمرها بنو الأغلب على أيام الرشيد ، وظلت مصر بين طاعة وعصيان وحرب وفوضى حتى [illegible] أمورها أحمد بن طولون.

ولقد كثر الخارجون على العباسيين في مصر كثرة تسترعي النظر ، ففي خلافة المهدي والثناء ولاية إبراهيم بن صالح بن علي (١٦٥

١٦٧ — ٧٨١ — ٧٨٣ كاد يستقل بحكم مصر داعية أموي هو دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، وكانت كفة مصر قد شالت ، وآل الأمر بسببه إلى ما أسلفت من اضطراب أيام عز بني أمية ، ووقف الخليفة وجهه نحو المشاكل في نواحي مصر حتى عمت الفوضى ، وزاد الأمر سوءا أن ولاة بني العباس لم يكونوا على قدرة أو كفاية ولم يبق أحد منهم بمصر من الخبرة أو حسن الإدارة . وكانت الدولة لا تكاد تولي واحدا منهم حتى تعزله ، لا بسبب العجز في ذاته ، بل لأن سياسة العباسيين العامة نفسها قامت على تغيير الولاة خوفا من استبدادهم بالأمر .

ثم إن الولايات بالنسبة لبني العباس كانت قد أصبحت مجرد مصدر للإيراد ، فمن عرض على الخليفة أن يأتيه بخراج أكثر ولاه الأمر ، وهي سياسة ساسانية قديمة أدخلها وزراء بني العباس ، ولكن كانت هذه السياسة من أسباب زوال بني ساسان فقد كانت من أسباب اضمحلال ملك العباسيين . ومن غريب الأمر أن خلفاء بني العباس كانوا مولعين بالنظر في تاريخ الفرس . فلو أن الإنسان اعتبر بالتاريخ لاعتبر به العباسيون ، ولكن التاريخ الذي قد عبره أو أعطى درسا ، وكل من وعى أمرا يحسب أنه ليس عاقل تريع عسطى ... و ... حتى ناجحا

وتأمل في حوادث تاريخ مصر خلال العصر العباسي نجد أن ... البلاد الى ميدان فسيح للكر والفر بين حزب بني أمية وخصومهم حينا وبين بعض قبائل العرب وبعضها حينا آخر . وقد بدأ الأمر بفتنة دحية بن مصعب بن الأصبغ المرواني الذي ذكرناه ، وقد طال أمره (من ١٦٥ — ١٦٩ / ٧٨١ — ٧٨٥) ولم يتمكن ولاة بني العباس من الخلاص منه إلا بعد عناء شديد . وكانت ثورات عرب مصر مع العلويين كثيرة كذلك ، وأول فتنة علوية سمع بها كانت في خلافة المنصور ، فادعى أحد العلويين في مصر وهو علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . لقد دعا لأبيه محمد المعروف بالنفس الزكية وانتهى أمره بانتهاء أمر أبيه في وقعة باخمرى بين الكوفة وواسط في أول ذي الحجة ١٤٥ / ٧٦٣ ويبدو أن مصر بدت لدعاة العلويين وكأنها تربة خصبة لدعواتهم فكثروا فيها وأصدروا يسببون المتاعب للولاة ، حتى ضاق العباسيون بأمرهم ، فأمر الخليفة المنتصر واليه على مصر بألا يتقبل علوي ضيعة ولا يركب فرسا ولا يخرج من الفسطاط ، ثم أخرج كل من عثر عليه بمصر من العلويين الى بغداد في رمضان ٢٤٨ / ٨٦٢ أيام خلافة المستعين .

ولا ينبغي أن نعرض هنا لتاريخ هؤلاء العلويين ثم الحركة التي ... محمد ، وهي كراهة عرب مصر ... محمد ... الذي ... عليهم العباسيون ... كانوا

علانا على الناس سيادة الولاة عليهم ، ومن لم تعلم تكن الناس يستمعون لدعوة علوى إلا يسرعون الى تأييده ، وفي بعض الأحيان لم يكونوا بحاجة الى انتظار علوى يقودهم في الثورة ، كما نرى في ثورة جابر بن الوليد المدلجي بالاسكندرية في ربيع الآخر سنة ٢٥٢ / نوفمبر ٨٦٦ أيام المعتز ، فقد اشتد أمره حتى بسط سلطانه على الكثير من بلاد الوجه البحري وجبى خراجها ، وقد اضطر الخليفة الى ارسال جيش كبير الى مصر ليقضي على جابر هذا ، فأتى الجيش بقيادة مزاحم بن خاقان وقضى على الثائر وتولى مزاحم أمر مصر في ربيع الأول ٨٦٧/٢٥٣

وعندما ثارت الفتنة بين الأمين والمأمون أحس أهل النواحي أن هيبة الدولة قد زالت ، فقد اتهم كل منهما الآخر بكل رذيلة ، ولم يكن النزاع بينهما في أول مره نزاعا بين الفرس والعرب كما ذهب كثير من المؤرخين ، لأن كلا المعسكرين كان يضم عربا وفرسا ، ولكن الأمين عندما بدا له ضياع أمره فكر في الاستعانة بعرب الشام ، وأخذ دعاته يصورون دعوة الأمين على أنها دعوة العرب ودعوة المأمون على أنها قضاء مبرم على العرب . وقد تردد في كتب التاريخ صدى هذا الدور الأخير الذي اتخذه ذلك النزاع للحزبين من الرسمية في مصر ، فتزعم جانب من عرب مصر الدعوة للأمين السري بن الحكم بن يوسف وظل مدعوا للأمين حتى بعد هزيمته . ولكن الوالي للأمين على مصر عباد بن محمد بن حيان استطاع أن يقضي على خصمه وأخذ البيعة من الفسطاط للأمين في جمادى الآخرة ١٩٦ / مارس ٨١٢

وقد وقعت في البلاد فتنة عنيفة بسبب ذلك ، اذ خلع السري بن الحكم وأنصاره على الأمين ، واستطاعوا أن يكسبوا عرب الحوف الى جانبهم ، وبعث الأمين الى ربيعة ابن قيس رئيس القيسيين بالحوف يوليه أمر مصر ، فنهض ربيعة بن قيس بهم وأقبل يحاصر الفسطاط . ورأى عباد بن محمد بن حيان عامل المأمون أن يكسب الى جانبه نفرا من عرب مصر يتقي بهم ولاة أنصار الأمين ، فاختار للأمر عربيا ينسبه الى السلطان هو عبد العزيز بن الوزير الجروي ، فانهزم الجروي في ذي القعدة ١٩٧ / سبتمبر ٨١٣ ومضى بفلول قوته من لخم وجذام الى فاقوس ، وهناك ألقى القدر في نفسه فكرة الدعوة لنفسه . ولم لا ؟ ألم يصبح الأمر فوضى لا ضابط له ؟ وبالفعل ، دعا عبد العزيز بن الوزير الجروي لنفسه واليا على مصر وبعث قواته بجباية الخراج من الوجه البحري ، وتصدى له السري بن الحكم ومن معه ، وأصبح النزاع في الحقيقة بين عربيين من عرب مصر ، على أحدهما السري بن الحكم وعلى الثاني عبد العزيز الجروي . وقد ظل النزاع بين الجانبين ، حتى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ حين أجمع جند

الفسطاط على السري . ولكن الجروي
تمكن من صد السري من تمكينه من الفرما
وحتى جرجها ، بل استقل بالاسكندرية
وما حولها بعض زعماء العرب . وهكذا أصبحت
البلاد أيدي سبا وعمت بوجه الفوضى

وليس أدل على ذلك من استيلاء الربضيين الأندلسيين على الاسكندرية واستبدادهم بأمرها في ذلك الحين . وأصل أولئك الأندلسيين أقرب إلى الأسطورة ، فقد كانوا في جملة من ثار على الحكم الربضي الأندلسي وكانوا ينتسبون إليه . فلما أخمد فتنتهم واستقر له الأمر أخرج أهل ربض قرطبة الجنوبي سنة ١٩٨ (٨١٣—٨١٤) من الأندلس عقابا لهم على قيامهم بهذه الفتنة ، فذهب بعضهم إلى العدوة الافريقية واستقر بفاس واتخذ لنفسه فيها حيا خاصا يعرف بعدوة الأندلسيين ، وأما الباقون فقد ساروا بحرا ونزلوا على مقربة من الاسكندرية عام ١٩٩ (٨١٤—٨١٥) يقودهم رئيسهم أبو حفص عمر بن عيسى بن شعيب [illegible] البلوطي . ولم يؤذن لهم بدخول البلد لأن الولاة كانوا لا يسمحون بمساكنة الأندلسيين بصحبته ، وكان عدد هؤلاء الأندلسيين الربضيين نحو ١٥٠٠٠ رجل عدا نسائهم وأطفالهم ، وقد ظلوا خارج المدينة حتى وقع خلاف بين عامة عمر بن هلال وعند [illegible] الجروي [illegible] السلطان على البلد إذ ذاك [illegible] إلى عمر بن هلال فاستعان بالأندلسيين وأدخلهم البلد ، ومكن الأندلسيين أيضا من ذلك وثاروا بالأندلسيين وأخرجوهم بعد أن قتلوا منهم وطردوا عمر بن هلال أيضا .

وقد استطاع هذا الأخير أن يعود إلى ولاية الاسكندرية إلى حدود ولقيه بين السري بن الحكم وعبد العزيز الجروي ، فلما استقر بها طلب إليه الأندلسيون أن يدخلهم مرة أخرى ، فخاف أن يقع به ما وقع في المرة الأولى ، فما كان منهم إلا أن انتصروا بالبلد بمعاونة طائفة عرفت بالصوفية ، كانوا يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويعارضون الولاة ، وعاونهم كذلك نفر من بني لخم كانوا في الاسكندرية ، ودارت بينهم وبين عمر بن هلال حرب قتل فيها سنة ٢٠٠ (٨١٥) واستقر الأمر للأندلسيين واللخميين في الاسكندرية ، ثم اختلفوا فيما بينهم ، ووقعت حرب فانتصر الأندلسيون واستعمروا سادة البلد ، وولوا عليهم عبد الرحمن الصوفي رئيس جماعة الصوفيين الذين ذكرناهم ، ثم عزلوه وولوا رجلا منهم يعرف بالكناني ، وهكذا انفصلت الاسكندرية عن بقية البلاد وحكمها أولئك الأندلسيون وأراد الجروي أن يستخلص البلد ، فسار بها في جيش عدته خمسون ألفا ، ولكنه لم يتمكن من دخولها عنوة ، لأن منافسه السري [illegible] على مصر في غيبته فعاد الجروي مسرعا

وقد سيطر الربيع بن السري والجروي ثم بين ابنيهما بذلك ... لم ينته الا عندما قدم الى مصر عبد الله بن طاهر قائد المأمون ، فانضم اليه علي بن الجروي ومن معه ، ثم حمل عبد الله بن السري في طاعته سنة ٢١١ / ٨٢٦ على أمان وعهد . وبعد ذلك سار عبد الله بن طاهر في صفر ٢١٢ / ٨٢٧ الى الاسكندرية وصالح الأندلسيين على أن يسيروا من الاسكندرية الى أي موضع يريدون ، فخرجوا في البحر الى جزيرة كريت فانتزعوها من أيدي البيزنطيين يتزعمهم زعيمهم أبو حفص عمر بن عيسى البلوطي .

وعلى هذا النحو من الاضطراب والفوضى توالى ولاة بني العباس على مصر ، لا يكاد أحدهم يستقر حتى يعزل . وكان أمر الولاية كذلك قد هان ، لأن الخلفاء أو من يدبرون لهم الدولة ، حرصوا على أن يقصروا الخراج عن الولاية ، ويعهدوا به الى رجل يصطنع في [illegible] فيقبض لهم خراج مصر بالنقص ما استطاع ، وقد اشتهر من أولئك رجل يسمى أحمد بن مدبر ، وكان صاحب خراج مصر في تلك الأيام ؛ ثري خراج مصر وأثقل الناس بالضريبات حتى لم يبق شيئا دون ضريبة ، وكان بهذا محل ثقة الخلفاء ورجالهم . وفي أيامه دخل أحمد بن طولون مصر واستقر في الفسطاط في ٢٣ رمضان ٢٥٤ / ١٥ سبتمبر ٨٦٨ وكيلا لعمرة عامل مصر للخليفة المعتز .

دولة بني طولون[١]

أحمد بن طولون :

ولد أحمد بن طولون في ٢٣ رمضان ٢٢٠ / ٢٠ سبتمبر ٨٣٥ في بغداد أو سر من رأى ، وكان أبوه طولون تركيا من موالي نوح بن أسد الساماني عامل بخارى وخراسان ، أهداه الى المأمون في جملة مماليكه ، فرقاه المأمون حتى صار في عداد أمراء جنده . ويقال ان أحمد ليس ابنه بل تبناه لما توسمه فيه من

---

(١) **أصول :**

الى جانب المراجع العامة التي أوردنا ذكرها خلال هذا البحث انظر :

أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ، نشره Vollers في برلين ١٨٩٥ .

— كتاب المكافأة ، القاهرة ١٣٣٢ / ١٩١٤ .

البلوي : عبد الله بن محمد بن عمر : مخطوط المدني ، سيرة أحمد بن طولون ، نشرها محمد كرد علي ، دمشق ١٣٥٨ .

كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الادفوي : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، القاهرة ١٣٣٢ .

المحسن بن القاسم التنوخي : الفرج بعد الشدة ، القاهرة ١٣٥٧ .

— جامع التواريخ [illegible] بالقاهرة [illegible] ٩٢ [illegible] طبع دمشق ٩٣

الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب

مجالس النحاة، وقد أنكر ذلك أحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية صاحب كتاب سيرة أحمد بن طولون. قال أبو المحاسن « ونشأ أحمد بن طولون على مذهب جميل، وحفظ القرآن وأتقنه، وكان من أطيب الناس صوتا به مع كثرة الدرس وطلب العلم وتفقه

حلقة الأساتذة الشيخ والإبياري وشلبي القاهرة ١٩٣٨

إبراهيم بن محمد المصري المعروف بابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأمصار، نشر الجزءين ٤ و ٥ المستشرق Vollers القاهرة ١٣٠٩

أمين الدين أبو المحاسن علي بن منجب الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، طبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٢٤

محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة ١٩٢٧

جمال الدين علي بن ظافر الأزدي المصري: كتاب الدول المنقطعة، صورة شمسية بدار الكتب المصرية نقلا عن مخطوط بالمتحف البريطاني. وهناك مخطوطة أخرى في جوته نقل عنها المستشرق كتابه الذي سبقت الإشارة إليه عن حكام مصر أيام الخلفاء.

بدر الدين محمود العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية، جـ ١٦.

ابن كثير: البداية والنهاية، ١٤ جزءا القاهرة ١٩٣٢، الجزء الخامس.

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، طبعة دار الكتب، جـ ٣

المقريزي: [illegible] بعدها

ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١

ابن خلدون: طبعة بولاق جـ ٤ ص ٢٩٧ وما بعدها

على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة. ونشأ وترعرع أحمد فزوج بابنة عمه خاتون، فولدت له العباس سنة ٢٤٣، ولما مات أبوه طولون فوض إليه الخليفة المتوكل ما كان لأبيه. ثم تنقلت به الأحوال إلى أن ولي إمرة الثغور وإمرة دمشق ثم ديار مصر »

ولقد قال كارل هينريش بيكر إن أحمد بن طولون يعتبر نموذجا ممتازا من الأتراك، وهي ملاحظة لم يحالفها فيها التوفيق؛ لأن ابن طولون كان يختلف عن زملائه الأتراك في كل شيء. فقد كان سياسيا أريبا واسع الصدر حسن التدبير بعيدا عن التهور عارفا بقدر المال. وكان إلى ذلك مثقفا ذا اطلاع واسع، وهذه كلها خلال لا نعرفها إلا في القليل جدا من معاصريه الأتراك. بل كان هو ينكر عن

أبحاث ودراسات:

أحسن كتاب في موضوع الطولونيين Les Tulunides للدكتور زكي محمد حسن بالفرنسية، باريس ١٩٣٣.

مادة « الطولونيين » بقلم كارل هينريش بيكر، ومادة أحمد بن طولون بقلمه أيضا في دائرة المعارف الإسلامية.

آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٤

A. Müller: *Der Islam im Morgen- und Abendland*, I, 537 sqq.

Lane Poole: *A History of Egypt in the Middle Ages*, pp. 49 sqq.

Corbet: *The life and works of Ahmad ibn Tulun* (J.R.A.S. 1891) pp. 52 sqq.

Carl Heinrich Becker: *Beiträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam*, p. 148-149

الأتراك [...] وزير أحمد بن محمد بن خاقان ، وكان حصيف عند ابن طولون له قال يوما « يا أخي ، إلى متى نقيم على هذا الإثم مع هؤلاء الموالي – يعني الأتراك – لا نطأ موطئا إلا كتب علينا بخطأ وإثم ، والصواب أن تسأل الوزير أن يكتب أرزاقنا إلى الثغر فكتب له ، وخرجنا إلى طرسوس ، فلما رأى ما عليه الناس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سر بذلك » .

وكان لخروج أحمد بن طولون إلى طرسوس وإقامته فيها أثر بعيد في تكوينه وتاريخه ، فقد كانت إذ ذاك ثغرا عامرا بالمجاهدين والفرسان وأهل العلم ، يقضون أيامهم في محاربة من يليهم من الروم والتعبد والقراءة ، فأتقن الفروسية وحصل جانبا كبيرا من الثقافة . وقد تمتع بذلك طيلة أيامه ، وكانت ذكرى أيام شبيبته في ذلك الثغر عزيزة عليه ، وسنراه فيما بعد يبذل جهدا ومالا عظيمين في سبيل الحصول عليه

وأهم ما أفاده ابن طولون من إقامته بالثغر ابتعاده عن مجتمع الأتراك في بغداد وسر من رأى ، فقد كان العصر الذي يعيشون فيه قاتما حافلا بالمآسي والمؤامرات ، تختلط فيه شؤون الدولة برؤساء شؤون الخدم والجواري اختلاطا جعل الحياة فيه أشبه بمقامرة ، إذا سلم فيها لاعب من القصف لم يسلم خلفه [...] وقد كاد أحمد بن طولون نفسه أن يفقد حياته نتيجة [...] من [...] أبيه ، وكان

أن بعض الأتراك قد هموا بحرمة الدولة والخلافة إلى درجة اضطروا معه [...] الخلفاء [...] ، فمضى ابن طولون [...] الذكر بعيدا عن ذلك الوسط كله ، وعاد من طرسوس فارسا متكامل الأدوات ودخل في خدمة الخليفة المستعين فأعجب به وقربه وأهداه جارية تسمى مياس أنجب منها ابنه خمارويه سنة ٢٥٠ هـ ٨٦٤ م

وعندما عزل الأتراك المستعين ، طلب منهم أن يكون الموكل بشأنه أحمد بن طولون . ثم طلب الأتراك من ابن طولون أن يقتل المستعين فأبى حفظا للجميل ، فبعثوا تركيا آخر فقتله ، وقام أحمد بن طولون بدفنه بما ينبغي له من حرمة . ثم عاد إلى سر من رأى وظل بها إلى أن حصل صهره بايكباك — وكان من كبار أجناد الأتراك — على ولاية مصر فبعث أحمد بن طولون إلى مصر وكيلا له . وكانت الولاية إذ ذاك لا تخرج عن ضمان الخراج ، أي أن بايكباك ضمن خراج مصر للخلافة بمبلغ معين ، وأرسل صهره وكيلا عنه يدير بلده ويحصل المال بمعاونة عامل الخراج ، وأقام هو في بغداد يتكئ على مقربة من [...] السعايات والمؤامرات مخافة أن يدبر أحد عزله عن الولاية أو غيبته

دخل أحمد بن طولون الفسطاط في ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤ كما قلنا ، ولم يلبث صهره أن توفي [...] الولاية ، [...] من أولي الأمر الذي بيده الحكم لا يستغني له [...]

انتهت حرب الزنج على يديه ، وكانت الدولة معرضة على أن تظل الخراج في يد عامل خاص . وكان عامل الخراج أحمد بن المدبر ، فعمل ابن طولون لابن المدبر حتى عزله وصار اليه الخراج . ثم عهد اليه الخليفة في أن يخرج لمحاربة أحمد التركي في الشام ، فاستأذن في أن يجمع جيشاً لهذه المهمة فأذن له ، فأسرع بتكوين فرقة قوية من العبيد كانت نواة جيشه الذي أصبح بعد قليل أكبر قوة عسكرية في بلاد الخلافة العباسية . وكانت نواة هذا الجيش من الأتراك ، غير أنه لم يلبث بعد استقراره في مصر أن ضم اليه فرقاً من السودان والروم بعد قليل الى ما يقارب المائة ألف جندي ، وهكذا اكتسب له أدوات السلطان وسار في مرحلة قدماً

وبهذه القوة العسكرية استطاع أحمد بن طولون أن يقضي على كل منافسيه في مصر ، وعمد بعد ذلك الى كل منصب مشروع أو غير مشروع ، ووضع على الناس الجواسيس وأخذ بالظنة حتى اشتهر أمره بالعسف والظلم والبطش . وقد حكى ابن الداية فيما رواه من سيرة أحمد بن طولون كثيراً من مساوئه ، وحاول البلوي الصفح والدفاع عنه . ولكن يبدو أن ابن طولون كان قاسياً مسرفاً في الدماء ، ويبدو ذلك واضحاً في كلام من دافعوا عنه ، ويبدو أيضاً أن قسوته كانت في أول أمره ، ثم صلحت سيرته بعد أن استقر له الأمر ومال الى الحلم والعدل تكفيراً عما سلف من أعماله

وقد حرص ابن طولون لأول حكمه على سلطانه بعد استقراره في مصر بضع سنوات ، فإن الأمير الموفق كان قد عقد على أخيه الخليفة المعتمد وحصل منه على تفويض بحكم الولايات الشرقية من أملاك الخلافة ، على أن تكون الغربية — ومنها مصر — تحت حكم الأمير المفوض بن المعتمد . ولكن الموفق شغل بما تتطلبه حرب ثورة الزنج من مال وطلب أن تضم اليه مصر ، فطمع في مالها ، وحصل على موافقة الخليفة على ذلك . وكتب الموفق الى أحمد بن طولون يطلب الأموال ، فرفض ابن طولون ، وأراد أن يظهر الموفق حربه ، فانتهز فرصة موت عامل الشام سنة ٢٦٤ (٨٧٧ – ٨٧٨) وسار بجيشه واحتل الشام ودخلت الرملة ودمشق وحمص وحماه وحلب في طاعته ، ثم استولى على أنطاكية بعد حصار قصير . وفيه فزع الموفق بذلك ، وبينما كان ابن طولون في الشام خرج عليه ابنه العباس في مصر ، وكان نفر من القواد قد أغروه به ، فعاد أحمد بن طولون الى مصر مسرعاً ، وأخمد الفتنة وقتل المشتركين فيها واكتفى بسجن ابنه العباس . ثم عاد الى الشام سنة ٢٦٦ (٨٧٩ — ٨٨٠) ، ومن ذلك الحين يبدو ابن طولون حاكماً على دولة واسعة تشمل مصر الى النوبة ، ومنه غرباً الى برقة ، وتشمل الشام أيضاً

هكذا أصبحت مصر والشام تحت سلطان واحد ، وقد كان هذا أمراً لم يعرف عن مصر منذ عهد الفراعنة الأقدمين في عصر

الشام ومصر تحت ادارة واحدة ولم يكن ذلك وليد الصدفة وانما هي ظاهرة تاريخية لا تزال تظهر على طول تاريخ هذين القطرين اذ قامت في مصر حكومة محلية قوية لم تلبث ان ضمت الشام اليها ، أو لم يلبث الشام أن ينضم اليها . حدث هذا في تاريخ مصر القديم بدءا من أيام الأسرة السابعة عشرة ، ثم ظهر عندما قام في مصر ملك البطالمة (وان لم يوفقوا الى الاحتفاظ بالشام ، وكان ذلك من أقوى أسباب ضعف دولتهم) ثم ظهر في أيام بني طولون ثم الاخشيد والفاطميين والأيوبيين والمماليك ، ثم ظهر في أيام محمد علي ولجده على أيامنا هذه ، كأن وحدة هذين البلدين ضرورة منطقية تستلزمها سلامتهما وسلامة الشرق العربي كله

وفي خلال العصور الاسلامية نلاحظ أن تضامنهما لم يأخذ صورة سيطرة أحدهما على الأخر ، بل أخذ صورة القوة المتحدة ، فسواء نظرنا في تاريخ العصر الطولوني أو الاخشيدي أو الأيوبي أو المملوكي ، نجد أن أمراء مصر وسلاطينها يهتمون بالشام قدر ما يهتمون بمصر ، ويولونه من العناية قدر ما يولون مصر ، بل أكثر من ذلك فقد حارب أولئك جميعا في سبيل الشام أكثر مما حاربوا في سبيل مصر . وكانت حال دولتهم شاميين ومصريين على حد سواء ، وحدة ترعى سلامة الجناح الشرقي لعالم الاسلام باتحاد مصر والشام ، فاذا اتحدا تحطمت عنه المطامع ، واذا انفصلا تعرض كلاهما وجيرانهما للسقوط والضياع . وقد عرف الطامعون في الشرق العربي هذه الحقيقة في العصر الحديث ، فعندما أرادت انجلترا أن تمهد لنفسها طريق الاستيلاء على ما تستطيع الاستيلاء عليه من بلاد الشرق العربي بدأت بالقضاء على قوة محمد علي في الشام فسهل عليها الأمر بعد ذلك . وما يجري تحت أنظارنا من أحداث أيامنا خير مصداق لذلك . والكلام هنا ينطبق على الشام بمعناه التاريخي الكامل ، لأن التقسيم الحالي لبلاد الشام شيء جديد فرضته مصالح الطامعين في الشرق العربي خلال النصف الأول من هذا القرن ، وهو احدى النتائج للحكم العثماني في البلاد العربية .

وخاف الموفق أحمد بن طولون بعد أن اتسع سلطانه الى ذلك الحد ، وبدأ يدبر عليه . وكان ابن طولون واعيا لأمره منتبها لكل ما يصدر من خصمه ، وكان الى جانب ذلك حريصا على ألا يعلن العصيان على الخلافة ، بل ظل يظهر من مظاهر الطاعة للخليفة المعتمد ، ولم يقطع ارسال الأموال الى بغداد ، بل ظل يرسل الى الخلافة ما بها من مال ، حتى ذكر أبو المحاسن أنه حمل الى الخليفة المعتمد في ٤ سنين مبلغ ٢٫٢٠٠٫٠٠٠ دينار أي مبلغ ٥٥٠٫٠٠٠ دينار في العام أي نحو ثمن خراج مصر كله وكان الخراج على أيامه ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ دينار ، ومع أن المعتمد بن

طولون بعد أن ضم الشام الى سلطانه حين عبثه الحرب مع الروم ، و ... عن الموفق هذا الباب الذي استكشفه ، الا أن ذلك كله لم يغن عنه شيئا في نظر الموفق ، و ... حقدا يكيد له حتى استمال لؤلؤ قائد أحمد بن طولون على الشام ، فانقلب على سيده وانضم للموفق

والحرج أمر بن طولون واضطر الى منازلة الموفق علانية ، فأعلن نفسه حاميا للخليفة المعتمد المغلوب على أمره ... أخيه ، واستخرج من الفقهاء فتوى بإبطال دعوى الموفق في السلطان ، وقد شذ عن ذلك القاضي بكار بن قتيبة ، وكان من أكبر فقهاء العصر وصاحبا لابن طولون ، فلم يرع ابن طولون حرمته وصحبته ، وكان ذلك من أخطاء ابن طولون التي أخذت عليه ، وندم عليه هو نفسه بعد فوات الوقت ، وأراد استصلاح القاضي وهو على شفا القبر ، فرفض القاضي وقال قالته المشهورة « شيخ فان وعليل مدنف والملتقى قريب والقاضي الله عز وجل » وكان ... تعتبر ... وقع شديد على ابن طولون ، حتى ... له ... عليه ... ، ثم أمر بنقله من السجن الى دار اكتريت له ، ولم يلبث الشيخ أن مات ، وهو آخر القضاة الذين ترجم لهم الكندي في كتابه عن قضاة مصر

وكان الخليفة المعتمد ضجرا من أخيه الموفق ومن تسلطه عليه من سلطان ، وكان يطمعه جلا عجبا قليل الكتاب ولو أراد وحده لقضي على صاحب الزنج أو القواد الأتراك ، ولكنه كان دائم الانحدار لاستبداد أخيه الموفق من دونه بالأمر . وكان ابن طولون يعرف هذا ، وكان له في دار الخلافة عيون وأرصاد ينقلون له كل شيء ، فأوعز الى المعتمد أن يغادر بلاد أخيه ويلجأ الى مصر ووقع هو أيضا الفكرة — لأن حال المعتمد مع ابن طولون لم تكن لتكون أحسن من حاله مع الموفق — فقد راقت له الفكرة ، لأن ضجره بأخيه بلغ به الى حد جعله مستعدا لقبول أي مخرج . فانتهز فرصة غياب أخيه وقواده وخرج في نفر من أصحابه متجها نحو الموصل ، ليمضي من هناك الى حلب وهي من أعمال ابن طولون ، ويبدو أن الخبر نمى الى اسحاق بن كنداجيق عامل الموصل ، فقبض على المعتمد وأصحابه ، ووبخ الخليفة على ما فعل ، ثم رده الى سر من رأى . ويقص من تفاصيل هذا الخبر قول اسحق بن كنداجيق لأصحاب المعتمد « لكم قاربتم عمل ابن طولون ، والأمر أمره وتصيرون من جنده وتحت يده ، أفترضون بذلك وقد علمتم أنه كواحد منكم ؟ » مما يدل على أن حدود سلطة أحمد ابن طولون كانت والخليفة يتخطى قواد الخلافة للطريق اليها ، وعلى أن سلطانه كان بالفعل جبارا في مملكته بحيث يخشى ... الخليفة الناقمة ، ويدل ... على أن ... الموفق كانوا ينظرون الى ابن طولون على أنه ند لهم ، لا يزيد عنهم في شيء

وأصبح العداء بعد ذلك بين أحمد بن طولون والموفق سافراً ، فطلب الموفق الى أخيه المعتمد أن يصدر أمر عزل ابن طولون عن مصر ، ويعهد بالأمر على عمله ويقطع ابن طولون الأموال التي كان يرسلها الى دار الخلافة ، بل حاول سنة ٢٦٧هـ / ٨٨٠م أن يستولي على مكة ، فبعث جنداً وستمائة نفر من الفرسان والرجالة فرق فيهم مالاً ، ووثق ابن طولون أمر الامر ، وهرب هارون بن محمد عامل الخلافة على مكة ، خوفاً على نفسه ، لولا أنه أمداد نكبت به من القضاء على محاولة ابن طولون . وقد رد الموفق على ذلك بتوليه اسحاق بن كنداجيق عامل الموصل أعمال ابن طولون ، ولم يجسر عامل الموصل هذا على عبور حدود ابن طولون ، ورد ابن طولون باسقاط اسم الموفق من الخطبة والطراز ، ولكنه ظل يخطب للمعتمد .

وقد ظل هذا العداء بين الرجلين حتى سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٤م عندما تبين لهما أن الخلاف بينهما لا يؤدي الى خير ، فبدأت مفاوضات الصلح بينهما فلما قاربت على التمام أدركت الموت ابن طولون بعد عودته من طرسوس في ذي القعدة ٢٧٠هـ / مايو ٨٨٤م عقب اسهال شديد . وكان ابن طولون عمره كله نهماً الى الأكل مسرفاً فيه ، حتى في علته الأخيرة كان يأكل من غير أن يعمل بكلام أطبائه ، فلما زاد الأمر عليه عنفهم وأسقط في أيديهم .

وكان آخر جهود ابن طولون محاولته لاستعادة ثغر طرسوس ، وكان هذا الثغر من أهم بلاد مملكته ، لأنه كان بمثابة مفتاح تلك البلاد بعد أن تم معاودة الحرب مع الروم . وقد استطاع أحمد بن طولون في آخر أيامه أن يولي به أحد جنده من الحصار وقبض على عامل ابن طولون ، فأسرع ابن طولون الى هذا الثغر الذي يقع جنوبي آسيا الصغرى ، ونزل أذنة ، وكتب الى خادمه يستميله دون جدوى ، بل لجأ الخادم الى كسر جسور نهر كان يمر بأسفله فاندفع الماء وأغرق عسكر ابن طولون . ولازم ابن طولون هذا الثغر وألح في حصاره ، وأقبل الشتاء واشتد البرد وتساقط الثلج وعطلت الحركة ، ابن طولون وتضحياته في سبيل هذا الثغر العزيز عليه ، وضج العسكر ، فاضطر الى الرحيل عنه مختنقاً ، وكتب في ذلك نوائب بالسد يقول : لم يمنعني الا خوفاً أن تحترق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو ، وعاد الى انطاكية ، وهناك مرض ومات .

وقد اختلفت الآراء في ابن طولون ، فبعض الرواة يصورونه رجلاً قاسياً غليظاً لا يتورع عن شيء في سبيل درك مآربه ، وبعضهم يصورونه رجلاً تقياً كريماً لا يكاد يقدم على شيء فيه مساس بالحرمة أو الخلق الكريم ، بل يغالي بعضهم فيصفه بأنه كالأولياء ... لا يعصي الله عز وجل والرسول صلى الله عليه وسلم في شؤونه ويهديه الى الطريق السليم . والحقيقة في

هذا الموضوع أن شأن ابن طولون كشأن غيره من الطامحين وعمال الدولة ومؤسسي الممالك في تاريخ الاسلام يستحلون كل شيء في سبيل الوصول الى السلطان والمحافظة عليه ، ولا تعرف قلوبهم الرحمة اذا اتصل الأمر بسلطانهم ، فلا يحجمون عن شيء يتصورون أنه يثبت ملكهم . أما فيما عدا أمور سلطانهم فهم كرماء ذوو حلم وسعة صدر وعفو وعطف على الفقراء والمساكين ، ومهما يبلغ حظ الانسان من العلم والورع عندهم ما دام الأمر بعيدا عن تهديد السلطان أو منافسته في الحكم وما الى ذلك .

وهم يبررون مسلكهم بأن كل شيء جائز في سبيل القضاء على الفتنة ، ويكفرون عن تصرفهم ببناء المساجد والمدارس وأعمال الخير والاحسان . هكذا كان شأن معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وأبي عبد الله السفاح والمنصور والرشيد وابن طولون والاخشيد والمنصور بن أبي عامر وسلاطين المماليك ومن اليهم . ومن ثم فقد اختلف الحكم عليهم ، فمن نظر الى حسناتهم ومآثرهم ومنشآتهم وعطاياهم وبرهم بأهل العلم والفضل والمساكين لم ير غير الناحية المشرقة من خلقهم ، ومن نظر الى كفاحهم السياسي رأى الناحية القاتمة . ولا بد من اعتبار الوجهين معا في عصرنا ، واذا كنا لا نمدح سلوكهم فلا معنى لتشديد الحكم عليهم ، فقد عاشوا في زمن كانت الوسيلة الوحيدة فيه للسلامة هي أن يتخلص الحاكم من منافسيه ، وكانت قاعدتهم القاعدة التي تم تطبيقها هي قول ... : أرسل أعداءك الى المقصلة قبل أن يرسلوك .

ومن هنا كان رجال أحمد بن طولون على خوف دائم منه ، خشية أن تمس بهم وشاية في حقهم ، فيكون سيفه أسرع الى رقابهم من دفاعهم عن أنفسهم الى أذنيه . وقد عبر عن ذلك طبيبه سعيد بن توفيل النصراني ، فقد عجز عن علاجه عندما اشتد عليه الاسهال الذي قضى عليه ، فقيل له : لست بحاذق ؟ فقال : والله ما خدمتي له الا خدمة الفأر للسنور ، وان قتلي لأهون علي من صحبته ! ولقد بلغ به الضعف أثناء مرضه الأخير الى درجة أن تعذر عليه الانتقال الى مصر برا ، فحمل في البحر ، فلم يكد يصل حتى هدد أطباءه بالقتل اذا لم يعالجوه ، فعاجلته المنون قبل أن ينفذ وعيده .

ولا شك أن تفوق ابن طولون يرجع أولا وقبل كل شيء الى سياسته الادارية والمالية ، فقد أدرك الرجل من أول الأمر أن مصر بلد غني كثير الخير ، وأنه اذا أحسنت ادارته أعطى من المال أكثر مما يعطيه غيره من النواحي ، واذا أحسن تدبير الخاص أمكن الوصول به الى الكثير . ولهذا فقد وجه همه من أول الأمر الى تنظيم شؤونها . وكان من تقدمه ومن سبقه من ولاة العباسيين قد عمدوا الآن الى مجرد أخذه

جمع المال ، فرضوا من الضرائب والمغارم والمكوس ما أثقل كاهل الأهلين ، وأفضوا إلى جانب ذلك بالمصادرة لمن في البلاد وعرف بالثروة . فهبطت الأحوال الاقتصادية هبوطا شديدا وهبطت الضريبة عند ٨٠٠٫٠٠٠ دينار ، رغم الجبايات الاستثنائية والمغارم

فلما جاء أحمد بن طولون حرص على إصلاح الحال ، ولم تكن له وسيلة إلى ذلك إلا بتوطيد الإدارة وإحكام الرقابة على الموظفين ، وخفض المبالغ التي كانت ترسل إلى بغداد ورشى إلى مراكز الخلافة . وقد سبق أحمد بن طولون إلى ما لم يتنبه إليه أحد ممن ولي البلاد قبله من الأمراء ، وهو أن أهل مصر أقدر على تدبير شؤونهم المالية من الأجانب ، فاستكثر من الموظفين المصريين حتى أصبحت الإدارة المالية كلها في أيديهم . وقد نكر الترك وغيرهم ذلك ورووا عن مساوئ هؤلاء ، فوضعوا كثيرا من الأخبار البعيدة عن التصديق ، كهذا الخبر الذي يرويه أبو المحاسن عن ابن دشومة (؟) سمسار المال ونصيحته لأحمد بن طولون بالاستمرار في الجبايات الظالمة (تسمى مظالم) وكيف أن ابن طولون رفض ذلك ، ثم عوضه الله عن ذلك بكنز عظيم عثر عليه ... ولكن ذلك كله لم يكن إلا رد فعل لما عمله ابن طولون من وضع الأمور المالية في يد المصريين وما أدى إليه ذلك من الخير ، فقد ترتفع الإيرادات من ٨٠٠٫٠٠٠ إلى ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ ... وجدها ابن طولون حسنة في سنة

أما الكنز الذي عثر عليه ابن طولون وبنى من ذهبه جامعه فلم يكن بغريب ، فقد كان الناس على عهود تاريخ مصر الإسلامية يحلمون بالعثور على شيء من كنوز الفراعنة كما يحلم الناس اليوم بالعثور على البترول ، وكانت هذه الكنوز تسمى المطالب ، وقد بلغ من اهتمام الناس بها أن ابن خلدون عقد لها في مقدمته فصلا . وقد استفاد ابن طولون من حنكة أحمد بن محمد الواسطي متولي شئون المال ، فقد كان رجلا قديرا ... حاول بعض المؤرخين أن يجعله من واسط ، ولكننا نرجح أنه مصري من الواسطي . واستعان ابن طولون أيضا بأبي بكر المادرائي ، وكان نائبا قديرا ، وأصله من مادرايا ، ولكن المقريزي يحكي عنه حكايات تدل على سوء استعماله للسلطان ومحاباته لنفر من أصحابه في مقابل حصص معينة له (وكذلك كان بقية المادرائيين ، وسنتحدث عنهم فيما بعد)

ونلاحظ أن لتصرفات ابن طولون المالية شيئا من الشبه بتصرفات محمد علي ، فقد احتكر بعض المصنوعات كالتيل ، وتاجر في المحاصيل (ويقول المؤرخون إنه عدل عن ذلك لأنه وجده مخطئا ... ولكن الثابت أنه عاد إلى المتاجرة في المحاصيل في أواخر أيامه) . وكانت نتيجة هذه الإدارة

الثابتة الحاسمة أن أكثر الجند في جيش ابن طولون ، فأقبل على شراء العبيد ، وأكثر منهم حتى صار في حوزته ما يبلغ ۱۰۰ر۰۰۰ جندي ، والراجح أن معظم الجيش كانوا من السودان ، فقد ذكر المؤرخون أن ٤٠ر٠٠٠ من جنده كانوا من السودان و ٢٤ر٠٠٠ من الأتراك ، أما الباقي فمن أصناف شتى من المرتزقة ، بينهم نفر من الروم والنصارى .

ومن عمائر أحمد بن طولون مبانيه الكثيرة ، وأهمها جامعه الذي بقي إلى اليوم ، وهو من معالم تاريخ العمارة الإسلامية ، فقد بني على صورة جامع سامرا وجعلت مئذنته ذات السلم الخارجي الحلزوني . وقد شرح ابن طولون لمهندسيه كيفية بنائها في خبر طريف ساقه أبو المحاسن . وقد عمّر ما حول الجامع عمارة عظيمة حتى أجرت مسطبة مما يجاوره الكشف لعرض بضائعهم باثني عشر درهماً في اليوم ، مع أن مساحتها لم تزد على ذراع في ذراع . وأنشأ ابن طولون أيضاً بيمارستاناً ، وأنفق في بنائه ٦٠ر٠٠٠ دينار غير نفقته اليومية ، وهذا البيمارستان يعتبر أول مستشفى عام في تاريخ مصر الإسلامية ، وكان مقسماً أقساماً بحسب الأمراض ، وفيه الأطباء والكحالون والمجربون ، وكانت الأدوية والأغذية تصرف للمرضى . وأنشأ أيضاً قصره الكبير على طراز قصور خلفاء بغداد ، وجعل أمامه ميداناً فسيحاً لعرض العسكر ، ميدانه وأقام فيه مظلات ، وكلفه ذلك ١٥٠ر٠٠٠ دينار .

وكانت نفقاته في أبواب الخير كثيرة ، فكان يوزع الأطعمة والصدقات على الناس وفق نظام معين وضعه . ووقع أن شب مرة حريق في دمشق ، فأنفق في تعويض خسائر الناس ۷۰ر٠٠٠ دينار . ومع ذلك فيحدثنا بعض الرواة أن الله تعالى لم يغفر له كل ذنوبه ، فقد روى محمد بن علي الماذرائي أن قارئ القرآن على ضريح ابن طولون انقطع عن القراءة مدة ؛ فلما سأله عن السبب قال « رأيته في النوم وهو يقول : أحب ألا تقرأ عندي ، فما تمر آية إلا قرعت بها وقيل لي أما سمعت هذه ! » .

وقد سكن أحمد بن طولون أول ولايته « العسكر » على عادة أمراء مصر من قبله ، فلما كثر جنده بنى لهم ضاحية للفسطاط سميت « القطائع » ، وكان موضعها من قبة الهواء (موضع قلعة القاهرة الحالية) إلى جامع ابن طولون ، وعرضها من الرميلة إلى حي زين العابدين . ولم تكن مدينة ، وإنما هي ضاحية . قال أبو المحاسن : « وكانت مساحة القطائع ميلاً في ميل . وقبة الهواء كانت في السطح الذي عليه قلعة الجبل ، وتحت قبة الهواء كان قصر ابن طولون ، وموضع هذا القصر الميدان السلطاني الآن الذي تحت قلعة الجبل بالرميلة . وكان موضع سوق الخيل والحمير والبغال والجمال بستاناً ، ويجاورها ميدان الذي يعرف اليوم بالقبيبات ، فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذي أنشأه أحمد بن طولون المعروف به ، ويجعلوا

الجامع وداء الإمارة في جهته القبلية ، وبها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة بمحجة يمضي الأمير إلى الجامع ... المحراب . هناك دار الحرم . والقطائع عدة قطع تسكن فيها عبيد الأمير أحمد بن طولون وعساكره وغلمانه . وقد قسمت القطائع إلى أقسام تشبه خطط الفسطاط ، قال القضاعي : « وكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم ، ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم ، وبنى القواد مواضع متفرقة . وعمرت القطائع عمارة حسنة ، وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وعمرت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع » .

وقد خلف ابن طولون في خزائنه من الذهب النقد ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، ومن المماليك ٧,٠٠٠ مملوك ، ومن الغلمان ٢٤,٠٠٠ غلام ، ومن الخيل الميدانية ٧,٠٠٠ رأس ، ومن البغال والحمير ٦,٠٠٠ رأس ، وذكروا أنه كان يتصدق في كل عام ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، فيبقى في ذلك الحيلة للمحتاج ، ولقد أراد عند الأمير أن يستقصي كل عام بعدد نفقاته ... [illegible] ملا ... [illegible] مصره حتى ... [illegible] ... بن طولون في ... [illegible] سنة ٢٧٠ ... [illegible] أعظم الحكام

وهو أكبر أبنائه ، وهو الذي ثار به فقبض عليه وحبسه ، وخمارويه الذي خلفه على الولاية وعدنان ... [illegible] وربيعة وأبو العساكر .

وقد ذهب نفر من المؤرخين المحدثين إلى أن استبداد أحمد بن طولون بمصر يعد حركة قومية مصرية ، وأنه بذلك بدأ عصر الاستقلال لمصر في ظلال الإسلام . وذلك إسراف في تأويل التاريخ مع الحقيقة ، فإن ابن طولون أولاً لم يستقل عن الخلافة بل ظل تابعاً لها ، وهو لم يقطع الخطبة لبني العباس بمصر ، واستمر يرسل المال إلى بغداد معظم أيامه فلم تقع القطيعة إلا عندما وقع الخلاف الصريح بينه وبين الموفق ، ومن ناحية أخرى كان المصريون بعيدين عنه وعن حركته ... [illegible] عليهم في إدارته أكثر ، ولكنه لم يتمصر ولا شعر أنه يعمل لحساب مصر أو يمثل قومية مصرية . وكل ما هنالك أنه كان رجلاً ذكياً قادراً أحسن الاستفادة من ظروفه واستخدم ... [illegible] مصر في إدراك ما تصبو إليه نفسه من الانفراد بالسلطان في ناحية ما . وكان من الممكن أن تنحصر دعوته لو خلفه أبناء قادرون على مواصلة سياسته ، فإن مصر خلال ... [illegible] ، وقد بدأ جيل أول خطوة من خطوات ... [illegible] مصر ... [illegible] ... [illegible] كان ... [illegible] مصر ... [illegible] فأخذوا بالتبذير والإخلال ... [illegible] سيرة الأسلاف

خمارويه وأبو العساكر جيش وهارون بن خمارويه

وخلفه ابنه خمارويه ، وهو ثاني أولاده وقد كان ابن طولون أوصى له بالإمارة ، وبويع بعد وفاة أبيه في ذي القعدة ٢٧٠ مايو ٨٨٤ ، ولقد طمع العباسيون في ذلك وهو في صباه فعجلوا بقتاله . وكانت مفاوضات الصلح بين ابن طولون والموفق دائرة عند موت الأول ، وكان الجانبان قد اتفقا على أن تظل مصر والشام له ، فلم يكد الموفق يسمع الخبر حتى عاوده على الموقف ، وكان أحدهم قد ولي على الشام قبل ذلك — وهو ابن كنداجيق كما ذكرنا — فانضم إليه أبو الساج عامل شمالي العراق وزحفا إلى الشام ومصر ولم يلبثا أن يهزما حلفاء ابن طولون ، وانضم إليهما عامل دمشق لابن طولون وترك لابن كنداجيق في أنطاكية وحلب وحمص . ووجب خمارويه بجنده لملاقاة خصومه ، فعسكروا عند شيزر ، وحل الشتاء فتراجع الجانبان .

وفي أثناء الشتاء انتهز ابن كنداجيق وأحمد بن الموفق الفرصة وقررا مهاجمة معسكر المصريين على غرة . وقد فوجئ المصريون بذلك الهجوم ، فانهزموا حتى الرملة . ثم وقع القتال بين أحمد بن الموفق وقواته ، في نحو ٧٠٠٠ من جنده وفي هذه الأثناء وصل خمارويه من مصر ومعه ٧٠,٠٠٠ من جند مصر الطولونيين وغيرهم .

الهجوم على معسكر المصريين . وفي صباح ٢٧ أبريل ٨٨٥ وقع القتال بين الجانبين عند نهر أبي فطرس المعروف بالطواحين شمالي يافا . ولم يكن خمارويه قد حضر قبل ذلك قتالا خارج عن القتال وهرب مسرعا إلى مصر ومعه معظم جيشه ، وانقض جند أحمد بن الموفق على معسكر المصريين ينهبون ويأسرون . وفي هذه اللحظة تقدمت فرقة من الجند المصري يقودها قائد يسمى سعد الأيسر انقضت على جند أحمد بن الموفق ، فحسب هذا أن خمارويه عاد من مصر بالجند ، ففر هاربا وحمل بقية جيشه ، فانقض عليهم المصريون وهزموهم هزيمة كبرى عادوا بعدها ، ولم يشرع المصريون بالحلق خلفهم .

وقد استخف سعد الأيسر بخمارويه وبدأ يفكر في الانفراد بالشام ، ولكن خمارويه تغلب عليه وقتله . واستمر الخلاف بين خمارويه والموفق طائفة زمنا ، ثم عقد الجانبان صلحا تترك فيه مصر والشام لخمارويه لقاء مبلغ سنوي معين . وتحسنت الأحوال بين الجانبين حتى مات الخليفة المعتمد وخلفه أحمد بن الموفق باسم المعتضد في رجب ٢٧٩ ، أكتوبر ٨٩٢ ، فتأكد الصلح بين مصر والخلافة وعرض خمارويه أن يزوج ابنته قطر الندى لابن الخليفة المعتضد ، ولكن هذا الأخير فضل أن يتزوجها هو ، وصداقها مليون درهم ودخل بها عام ٢٨١ ، ٨٩٥ ، وقد بالغ خمارويه في تجهيز ابنته حتى قيل إن المعتضد أراد

ويروى عنها أن مهر أسماء في جهازها ... ووالدها

بوجسه من نطقه وخمارويه بعد عيسيد

تزوج ... الولاد المصنفة من العرب في وجه

ثلاثين سنة ، وحمل إليه الصلاة والخراج

و القضاء بمصر وجميع الأعمال ، على أن يحمل

خمارويه إلى المعتضد في العام ٢٠٠٫٠٠٠ دينار

عما مضى و ٣٠٠٫٠٠٠ دينار عن المستقبل ؛

واستقرت الأحوال لخمارويه بعد ذلك

ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الفرصة التي أتيحت له ، فمضى يتلف المال على نحو جعله مثلا في أمراء معاصريه ، وبلغت نفقته على جنده قرابة مليون دينار ، وبالغ في منشآته حتى جاوز بعضها المعقول ، فأنشأ حديقة لم يسمع بمثلها ، اجتمع فيها حديقة نباتات وطيور وحيوان في آن واحد ، ويقال إنه أنشأ لنفسه بركة من الزئبق يوضع له فيها فراش ينام وهو يتهدهد ، إذ كان النوم كثيرا ما يمتنع عليه . وقد أنفق خمارويه في هذه المناحي ما كان أبوه قد ادخره وما كان يأتيه من خراج ، واستكثر من الجواري والعبيد حتى شاع أمره ، وكثرت نفقته على طعامه حتى كان الباقي في مطبخه من أصناف المأكول يزيد عن حاجة الخدم فيبيعونه ، واشتهر بيع الخدم لذلك ، فكان الناس يأتونهم لذلك من البعد ، ويشترون منهم ما يتمكنون به من الأنواع الغريبة من المآكل . وكان هذا دواما في كل وقت ، حتى أن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى

دار الحرم ، فيجد ما يشتريه فيحصل به تحفة مما لا يقدر على مثله ، كانت نفقة المطبخ في الشهر ٢٣٫٠٠٠ دينار . وقد مات قتيلا على أيدي خدمه وجواريه في دمشق في ٢٧ ذي الحجة ٢٨٢ يناير ٨٩٦ .

وخلفه ابنه أبو العساكر جيش ، وكان شابا صغيرا لا يحسن من الأمر شيئا ، التف حوله طائفة من أنذال الحشم وملهين فأفسدوا أمره ووشوا به قتل عمه أبي العشائر بن طولون فقتله ، فثار الجند به وعزلوه وولوا خلفه . وكان الجيش الذي كونه جده قد أصبح القوة الفعلية في البلاد ، ولم يكن من الممكن أن يملأ مثل هذا الحدث أمين قواده ، فتخلى عنه رجال مثل خاقان المفلحي ومحمد بن إسحاق بن كنداجيق ووصيف بن سوارتكين وبندقة بن جمجور (أو جمجور) وأخيه محمد بن المهجور ... وأصحاب ... وما أتيت بهذه الأسماء بين القوسين كيف كان قواد الجيش ـ وبالتالي جنودهم ـ من غير المصريين ، وإنه لمن الغريب أن نلاحظ كيف حرص أولئك الحكام على الاعتماد على جند أجنبي ، وأمامهم أهل البلاد يمكن تجنيده منهم ، لا في مصر وحدها بل في بقية بلاد الدولة الإسلامية . صحيح أن العباسيين اعتمدوا كثير على جند مصريين ، واستعملوا ذلك ، ولكن هذه هي القاعدة التي جرت عليها حكام مسلمين حتى في العصور الوسطى . اعتبار أهل البلاد عامة مستأمنة

تتحكم بواسطة جيشه الخصي بدر ... وكان حد من أكثر أسباب ... هذا العدد الخصي وكان كتب الدولة ومعهم في هؤلاء الحسد أبو جعفر بن أبي ... يتخذ خطأ أيامي فحلمه القواد في أمره ولاموه أنه قصر في تأديبه وسياسته، وانتهى الأمر بقتله وعين دارة فوقع في أيدي جماعة من ... ما يسيلا للوبيخ وعبوديتهم، حتى أن بعضهم من كثرة ما حصل له ترك الحشمة وسكن الربض، وصار من ... وعارة.

ثم خلفه أخوه هارون بن خمارويه ولم يكن بأحسن حالا منه، فلم يكن يرجى لدولة صلاح على يديه، فهذه الدولة لم تقم على أساس من سياسة أو هدف أو سنة من أهل البلاد، ولم يكفها صرح وحسن ... وملكاته، عاد لقضي أسرة ... الدولة تولى هارون في ١٠ جمادى الآخرة ٢٨٣ سبتمبر ٨٩٦ وكان جند الدولة قد فسد أمره وتفرقت وحدته، إذ كان هذا الجيش يقوم على فرق من البربر وأخرى من السود وجماعات شتى هم أخلاط من مرتزقين أهمهم الروم، وكان أمر هؤلاء الأخيرين قد عملا بعض ثلاثة من قوادهم هم بدر وفائق وصافي، وكانوا من خيرة القواد عقلا وقدرة، فحقد عليهم الآخرون وخاصة السود. وكان ربيعة بن أحمد بن طولون وهو عم هارون قد ... ولاية هذه العلاقة وجددت ... الأمر ... ومن ... عند هارون كان على

السود فقصف قواد الروم وجهدت ... منهم في أن تحول ... لطائفة من الحشم ... على عطائهم ... عنهم كلا على ... وقد ... هارون تفصل ... السود من ... على ... وجساله وفي حدر ... وسالمه

وتولى أمر هارون أبو جعفر بن أبي ... ومضى يحاول إصلاح أمر أصبح من العسير إصلاحه. وفي هذه المناسبة أظهر قواد الروم سماحة ... النظر، فدفعوا للصلح واحدا بعد واحد وأخذوا بعض ... البر ... ببصاقة ... ابن طولون وسيلا لشراء الناس وأكثر من تفريق المال والطعام على المساكين، ومع هذا وصاف ... ذلك، ... من الأخلاص قلب الطولونيين ما ... يظهره ... رغم ... هارون في الإسراف ... وقد انتهت أبو جعفر بن أبي ... الروم ... في البلاد. وفي ذلك الحين ... حركة القرامطة ... الشام ... جند الطولونيين وتمكنوا من ... في وجهها، فاستعد ذلك ... كثير ... كان قد بقي ... من قوة.

وكان أمر هارون قد ساء ... جند الروم ... ورجال الخلافة بذلك ... في ... سلطانهم على مصر، وولى الخليفة المكتفي ووزيره القاسم بن عبيد الله الكاتب القائد محمد بن سليمان الحنفي للقضاء ... وكان محمد بن

سليمان هذا من خدم ابن طولون ، اذ استخدمه لؤلؤ الطولوني كاتبا له . فلما انحرف لؤلؤ عن بني طولون وانضم الى جانب الخلافة انحرف معه محمد بن سليمان ، وما زال أمره يرقى حتى أصبح في جملة القواد ، ثم ندبه المكتفي للقضاء على آخر الطولونيين .

وبينما كان جند العباسيين يستولون على أملاك الطولونيين في الشام ، وثب شيبان بن أحمد بن طولون على ابن أخيه هارون وذبحه بيده في ١١ صفر ٢٩٢ (نوفمبر ٩٠٤) وتولى الأمر مكانه . وكان شيبان هذا أهوج جبانا جدا شديد البذخ في عنفوان شبابه ، متهورا يسرع في أموره ، وذلك بعد أن تم أمره لما رأى جند الطولونية قد أيسوا من الأمر ، فانضموا جماعة بعد جماعة الى جند الخليفة المكتفي . ووصل محمد بن سليمان الى العباسة (بمديرية الشرقية) وقد تخلى الناس عن الطولونيين وأسرع جند الأسطول المصري فأجرى جسر مصر الشرقي وبعض الغربي حتى لجزيرة الفسطاط من الصعيد وأقبل محمد بن سليمان بمن معه ووقف دون الفسطاط ، وخرج شيبان بمن بقي معه من الجند السود وحاول الدفاع . ثم كتب اليه محمد بن سليمان يؤمنه و [illegible] جميعا ، فاستأمن وسار اليه بأخوته [illegible] وأمضى الى الفسطاط وهم لا يعلمون بتخليه عنهم . فلما علموا بالأمر تفرق أمرهم ونهب عليهم الناس حتى صاروا يذبحون جماعة جماعة بين يدي القائد العباسي . ثم حرق القطائع ونهب الفسطاط نهبا ذريعا وأصاب الناس أذى شديد ، وانتهت دولة بني طولون . ولم يحكم شيبان غير ستة أيام . وقد جنح محمد بن سليمان الى ازالة آثار الطولونيين جملة حتى لم يبق منها شيء ، واستصفى أموالهم ونهبها وحمل الى بغداد جزءا وسرق الباقي ، وقد حاسبه الخليفة على ذلك أعسر الحساب . ولم يطل مقام محمد بن سليمان بمصر ، اذ استبدله الخليفة المكتفي بعيسى النوشري ، وعادت مصر ولاية عباسية كما كانت .

نظرة عامة في دولة بني طولون

حكم بنو طولون مصر ثمانية وثلاثين عاما ، وان من يتصفح سيرتهم في تاريخ مصر يحسب أنهم حكموا أضعاف هذه المدة ، وهم كما رأينا لم يدخلوا على مصر جديدا ولم يتقدموا بأمرها خطوة ، بل كانوا كسحابة صيف ، أما صيتهم البعيد هذا فيرجع الفضل فيه الى المصريين ومؤرخيهم . ولكن يبدو أن ما يعنيه أبو المحاسن من أن الدولة الطولونية كانت من غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام ، لم يكن صادقا ، فقد أصيبت البلاد في أيامهم ونهبت أموالها ، وعلاماته في أيام أحمد بن طولون وخمارويه . أما ما أنفق بطرف منه من الشرع من المحسنين فكان أمره مقصورا على المحاربين يصارعون ويستقتلون في [illegible]

والناس في واد آخر ، الا اذا دار القتال في العاصمة فلا يصيب الناس أذى .

وقد تنفس بعض الصعداء مع آل طولون وتكشف عنهم حب ولاة العباسيين ، وبدأ يسمو في البلد وعي بالشخصية مصرية ، ولكنه كان وعيا ضعيفا خافتا يحتاج الى سنوات طوال ليمضي ويأخذ صورة واضحة . ولو تنبه آل طولون لذلك لكان لدولتهم شأن آخر ، ولكنهم ساروا في أعقاب غيرهم من الاعتماد على العسكر الأجنبي ، فحيل بينهم وبين القطائع غير ما عرفوه ، وظلوا أجانب مرعزين لتعصف بهم رياح السياسة والعسكرية ، وتلاشى أمرهم مع أمس الدابر . ومع ذلك فقد أسبغ المصريون عليهم وقالوا في رثائهم شعرا كثيرا ، بل تزاحم الشعراء على أحمد بن طولون حتى قال القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في كتاب « حسن السيرة في اتخاذ الحصن في الجزيرة » : « رأيت كتابا في اثنتي عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذي كان لأحمد بن طولون ، فاذا كان اسم الشعراء في اثنتي عشرة كراسة ، فكم يكون شعرهم ؟! » .

ولقد كان أحمد بن طولون أجنبيا عن مصر ، ولكنه يعد بدون شك من رجال التاريخ المصري . فقد كان في أيام لا تعرف غير القومية الاسلامية ، فأحمد بن طولون مصري في مصر وشامي في الشام وعراقي في العراق ، وهو أينما كان موضعه وأصله منسوب الى البلد الذي كرس معظم جهوده لنهوض أمره ، وتكوين دولة مصرية اسلامية . وفي الاطار العام للتاريخ الاسلامي يعد ابن طولون من أفذاذ صناع التاريخ ومن أبطال التاريخ المصري بعد ذلك . واذا قارناه بغيره ممن استقلوا بنواحي الدولة الاسلامية في ذلك العصر رأيناه يمتاز عنهم بفكرة واضحة عن الدولة وما ينبغي لها . وقد كان مثقفا بأديب ومنظما دائب ممتاز . وكان ذلك من حسن حظ مصر ، بل ربما كان ذلك أثر مصر فيه . واذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى في بناء مصر الاسلامية ، فان ابن طولون صاحب الخطوة الثانية .

وهو صاحب أول تجربة لانشاء كيان مصري خاص داخل الكيان الاسلامي العام ، وفضله من هذه الناحية عظيم ، فهو النموذج الذي جرى على مثاله محمد بن طغج الاخشيد ثم الفاطميون ثم الأيوبيون . فاذا كانت التجربة قد انتهت الى الفشل على يد خلفه بانيه وأصبحت محور تاريخ مصر الاسلامية . ومن ذلك الحين سيجتهد كل من واتته الفرصة في اقامة نشأة دولة في مصر والاستبداد عليها ، مما جعل تاريخ مصر الاسلامية خطا متصلا مستقلا عن سيار العام لتاريخ الشرق الاسلامي . وقد هيأ الله مصر فجعل أحمد بن طولون للاتجاه في الوجهة التي سلكها تاريخ مصر العام . فعند ... بها ثم ضم اليها رقعة واسعة بعد ذلك

إلى الشام، وتحمل من دونه ثقله وحده وجنده ويستعمل دونه كل ما يحتاج إليه، والتجربة الطولونية من هذه الناحية عظيمة الأهمية في تاريخ مصر بعد أن دلت على أن مصر قاعدة القوة الإسلامية، فإذا تمت فيها الشام أصبحت عمود الفقري لدولة الإسلام، وحينما سيصبح ذلك حقيقة واقعة، وتحمل مصر عبء الإسلام والخلافة والثقافة العربية.

وفيما يتصل بمجرى التاريخ المصري العام دلت هذه التجربة القصيرة المدى على أن مصر لا زالت تحتفظ بعناصر القوة في كيانها على الرغم من الكوارث التي توالت عليها منذ دخول الفرس أرضها سنة ٥٢٥ قبل الميلاد، وقضائهم على مظاهر حضارتها الفرعونية، وما تلا ذلك من محاولات مختلفة على العصور بعيدة [illegible] المصرية من عبث الفرس في مصر وتخريبهم لها، وغلبة الإغريق وثقافتهم خلال العصر البطلمي، ثم ما نزل بمصر من عسف الرومان وعسف البيزنطيين واضطهادهم، ثم الفتح العربي وكل ما أتى به من مقومات حضارية وقيم معنوية روحية جديدة، وقد صاحب ذلك كله من الانتقال من الوثنية الفرعونية إلى المسيحية فالإسلام، ومن تغير اللغة من لهجات مصر القديمة إلى هذه اللغة القبطية وصراعها مع اليونانية، وذهاب هذه وتلك وجريان ألسنة أهل مصر باللغة العربية [illegible] على كل ذلك ظل المصريون [illegible] وما هو إلا أن [illegible] مصر بالهدوء بضع عشرات من السنين حتى عادت إليها عافيتها وبدأت مسيرتها [illegible] وظهر [illegible] طولون ورجاله وحاشيته، وكان في ذلك [illegible] مرهم. ولكن سرعان ما شعرت بشعور [illegible] كما يحس المريض بالانتعاش يسري في كيانه دون أن يصدق أنه في طريق العافية بعد [illegible] قبل أن ترك هذه التجربة الطولونية [illegible] الذي جعل رجال الدولة العباسية يعرفون هذه القدرة على يد الطولونيين.

[illegible] نظرنا إلى الدولة العباسية في مجموعها [illegible] لاحظنا [illegible] طولون، رغم كل شيء، كانوا أبر الناس بها وأعطفهم بها، فهم لم يخرجوا على الطاعة ولم يمنعوا مالًا، حتى السنوات التي انفصل فيها بنو طولون بمال مصر عن الخلافة [illegible] خمارويه فكان يدفع ٢٠٠٫٠٠٠ من الدنانير سنويًا و ٣٠٠٫٠٠٠ عن كل عام جديد. وفي [illegible] سنوات [illegible] التي [illegible] الأرجح بمصالح دولة العباسيين وجب عليهم ربح [illegible] ولم يكن للخلافة من مصادر حقيقية إلا ما يرد من مصر من دنانير الذهب [illegible] الطولونيين [illegible] الخلفاء ووسعوا عليهم [illegible] وحموا عن الدولة [illegible] الحرب مع البيزنطيين [illegible] [illegible] الكافي، [illegible] بني طولون [illegible] إلى [illegible]

مقيمين في العاصمة ، أهم أسر و حرب ، ثم عادوا إلى بلاد مصر ، حرفوا وتهوا ، كأنهم يبحثون عن مجادة ؟

الحق أن ثلث بحث على تخطيط السوري الخطفي العام كتاب الدولة العباسية ، فقد كانوا مرتبطين ببغداد و تعاه سعيهم بغداد ودمشق كما سجيب معي الفسطاط ، وإن كان الخلفاء سهم قصر ما قاسى بنو طولون كانت بلاد الخلافة العباسية كلها قريبة أو بعيدة عنهم ، وإذا كانت الأسباب التاريخية أقرب إلى حمدان فرحمته لم يكن مصر من هؤلاء الرجال مجال ، وإنه لم يكن بعدها بين أهل ودية حتى عن تعرب على هذه الدولة ورجالها و سجل ... هم ، وفصل ما كان من للقلم منه الأبدان ، فلم يكن رجال الدولة ضعيف منه . وكانت بوضاهم قد قضت على كل معموره محموله أو ... و النظام

من الطولونيين إلى الإخشيديين

عادت مصر مرة أخرى إلى مصير الدولة العباسية تحاول بالعواصف ، ولم يكن من المأمون أن تستقر عاجلا أو يهدأ أمورها والدولة ورجالها على ما وصفنا . فما هو إن استقر محمد بن سليمان الكاتب مصر بعد حتى عزله الخليفة المكتفي بعيسى بن محمد النوشري . وكان من عمله هو أن محمد بن سليمان ، فدأب استخفافه عنها في جمادى الآخرة ٢٩٢ مايو ٩٠٥ ، وبدأ يرتب أمور الحكم ... الحسين بن حمدان إلى مصر وقت أبي على الخراج ، وأبي أصحابه ... ومن تحت يده كثيرة ، بوشر ... الإسكندرية ... دمياط والأحسو ... بوحده ... نصفه ... وكانت هذه من أهم النواحي ، ونحن ... نلاحظ أن رجاله كانت معدودة حراسة في مصر في ذلك الحين ، ثم جمع النوشري بقايا رجال الدولة الطولونية وأخرجهم من البلاد حتى لا يبقى ... من يحيي جند الطولونية فقد سار مع محمد بن سليمان حتى بلغ دمشق ثم تفرق أمرهم ، فمنهم من ذهب إلى العراق ومنهم من عاد إلى مصر .

وكان من بين هؤلاء العائدين شاب من العجم يسمى محمد بن علي الخليجي ويلقب أيضا بالخلنجي و بخليج ، كان قبل ذلك في قيادة صالح الرومي ، فلما وصل إلى مصر ورأى ما حل ببني طولون وما فعله جند عباسيين بمصر أعد نفسه وقرر القيام على الدولة ، واجتمع إليه نفر من الجند وبايعوه ، فأسرع من معه نحو الرملة في شعبان ٢٩٢ يونيو ٩٠٥ وقضى على العامية العباسية بها وملك البلد وخطب فيه لنفسه ولإبراهيم بن خمارويه بن طولون ولنفسه . ثم كر إلى مصر ، وحاول عيسى النوشري أن يتصدى له فانهزم أمامه ، ثم فر إلى الجيزة وأحرق الجسرين المؤديين من الفسطاط إلى الجزيرة ، دخل الخليجي الفسطاط ، ثم فر النوشري إلى الإسكندرية ... الخليجي وجه من ... سنة ... جنوده ... قائم ... هذا الأمر

وقد اضطرب أمر الخلافة بعد تلك الهزيمة ، فأخذ يطالب الناس بالأموال فتؤدى بحسب آرائهم . وقد حمل الدفتر رجال الدولة أن الحسين بن أحمد الماذرائى أحد الدواوين — أى دفاتر الأموال — وهو بها خبير لا يوقفه على معرفة أصول الأموال ، فلما الخليجى الى اكراه الناس على أداء ما يطلب ، وأجرى أعماله على الظلم والجور وصادر أعيان البلد فلقى الناس منه شدائد ، الا أنه كان اذا أخذ من أحد شيئا أعطاه خطه ، ويعد أن يرد له ما أخذ منه أيام الخراج » . ولم يستقم الأمر لهذا الرجل ، فقد اضطربت الأحوال وتكاثر عليه رجال الدولة وتوالت قواتها ، فقبض عليه ورد الى دوته بعد أن حكم مصر سبعة أشهر وأيام .

وهكذا الحادث يكشف عن ضعف حال الدولة وقلة عدد القائمين بأمرها من الرجال ، فقد استطاع هذا الشاب المغامر أن يتحدى دولة الدولة ورجالها ، ويسيطر على مصر ويهزم جيوشها ، والحرج عامل العباسيين حتى أصبح يفر أمامه من الفسطاط الى الصعيد الى الاسكندرية . ولولا أنه هو نفسه لم يكن كفئا للمطلب الذى أراد لما استطاعت الدولة أن تتغلب عليه . ويكفى أن نذكر أن سنة ٢٩٢/٩٠٤—٩٠٥ شهدت أربعة ولاة مصر ، هم عيسى بن أحمد بن طولون ومحمد بن سليمان الكاتب وعيسى النوشرى ومحمد الخليجى .

الإخشيديون[1]

وقد كشفت التجربة الطولونية أعين رجال الدولة على ما يمكن أن تقدمه مصر للمتولى أمورها من امكانيات . وقد كانت الدولة العباسية اذ ذاك فى حالة تفكك وتصدع كاملين ، وكل من قدر على ناحية استبد بها فأما فى شرق الدولة ، أى فيما يلى العراق شرقا ، فقد أصبحت البلاد نهبا موزعا بين الاقطاعيين الكبار والمحاربين . فأما الطائفة الأولى فكانت نفر من الأغنياء حازوا مالا مكن لهم من اصطناع جند مرتزق ، وبهذا الجند المرتزق حازوا ما استطاعوا حيازته من الأرضين ولاتعترف الدولة عليه بمال معلوم وأما المحاربون فكانوا أجناسا من الترك والديلم والفرس والخراسانية ومن اليهم ذوى مهارات ومقدرات تصلح للحرب والقتال ، وظهر منهم أفراد يمكن أن نشبههم بالكوندوتييرى Condottieri الايطاليين فى القرن الخامس

[1] جميع المراجع التى أشرنا اليها فى الحديث عن الطولونيين تحدثت عن الاخشيديين وبالاضافة الى ذلك نذكر أهم دراسة فى تاريخهم للسيدة الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف : مصر فى عصر الاخشيديين القاهرة ١٩٥ والمراجع المستوفاة المذكورة فى ذلك الكتاب وعنوان « الاخشيديون » بدائرة معارف الاسلامية بقلم كرستيانسن ... وانظر

C.J. Tornberg : Mémoires sur les monnaies des Ikhchidites (dans Nova Acta Regiae Societatis Scientiarum Upsaliensis) 3e série, vol. II

عسكر ، وهم مستعدون جنود ، يقدمون سيوفهم الى من يريد لقاء أجور معينة ، وقد يقودون هم هؤلاء الجنود ويؤجرون أنفسهم ومن معهم لمن يريد .

وقد نبع من الطائفتين — ملاك الأراضي والمحاربين — أفراد تمكنوا من أن ينشئوا دولاً ، بل منهم من دخلوا في خدمة الدولة العباسية وأصبحوا أصحاب الأمر فيها ، كالبويهيين والسلاجقة من بعدهم . غير أن هضاب إيران وتركستان وما يليها حتى حدود الصين كانت بلاد فقيرة قليلة الخير ، لا تعين دولة على الصمود زمناً طويلاً ، وغاية ما كان يرجوه أصحاب الدول فيها أن يفرضوا أنفسهم على دولة الخلافة . وفي بلاد العجم المضطرب الحافل بالانقلابات والدسائس ضاع أمر معظم أصحاب هذه الدول ، فكأنها في تتابعها كانت موجات بحر يلي بعضها بعضاً ويلاشي بعضها بعضاً .

وقد رأى هؤلاء الناس جميعاً أن الجانب الغربي من الدولة العباسية يقدم للطامع فيه فرصاً أحسن ، فهناك مصر القاعدة العسكرية الاقتصادية الكبرى ، من تمكن منها استطاع أن يحصل على مال وفير متصل ، وبهذا المال الوفير يستطيع أن يحقق مطامع أهل الدولة ويقيم لنفسه ملكاً يدوم بدوامه ويرثه أولاده وأعقابه . وهذه هي فكرة التجربة الطولونية في نظر رجال الدولة العباسية ، فمنذ بدأ أمر بني طولون يصعد سرحت أنظار رجال الدولة الى مصر وأصبح الأذكياء منهم حريصين على أن يثبتوا أقدامهم فيها محاولين اعادة التجربة الطولونية لحساب أنفسهم . وأكبر من حاول هذا الأمر القائد تكين الخزري ، ثم محمد بن طغج الاخشيد . فأما تكين فقد ولي مصر فيما بين سنتي ٢٩٨/٩١٠—٩١١ و ٣٢٣/٩٣٤—٩٣٥ أربع مرات حكمها في مجموعها قرابة ستة عشر عاما . فاذا ذكرنا أن عمر دولة بني طولون كلها لم يزد عن ٣٨ سنة و الاخشيدية عن ٣١ ، تصورنا طول المدة التي سيطر فيها تكين هذا على مصائر مصر وجانب كبير من الشام أيضا .

غير أن جميع من تسموا في مصر من أولئك القواد لم يرزقوا شيئا مما رزقه أحمد بن طولون من المواهب والكفايات ، حتى محمد بن طغج الاخشيد نفسه ، لم يكن يمتاز عن تكين بشيء ، فلم يكن على لباقة أو اتساع ذهن أو طموح بعيد ، بل كان بخيلا أميل الى الجبن وسوء التصرف . ولولا أن أمور مصر المالية كانت في أيامه الى أسرة المادرائيين لما استطاع أن يقيم لنفسه في مصر كيانا ، ولولا قيام كافور الاخشيدي بشؤون بنيه بعد وفاته لتلاشى أمر بني الاخشيد عقب وفاته . واذا قارنا بين محمد بن طغج وكافور رجحت كفة هذا الأخير ، فقد كان أعقل وأقدر وأعرف بشؤون السياسة ، وهو عماد صمود الدولة ومحور سياسة مصر خلال العشرين السنة التي انقضت بين موت محمد بن طغج وزوال أمر بني الاخشيد على أيدي الفاطميين .

ومن هنا فانه يبدو لنا أنه من المناسب بحث دولة الاخشيديين في مصر بعد الدولة الطولونية والاخشيدية في تاريخ مصر لعلاقة ... ... وصعوبة ... أو مشكلو سياسة تحكمهم في صدارة دون تاريخ المصري ، ومن الانصاف ألا نهمل دولة الاخشيدية ... دولة الاخشيدية و ... وكافور .

وقد ظهر أمر محمد بن طغج أثناء خلافة الراضي بالله ، حين يقال انه هو الذي منحه لقب الاخشيد عام ٣٢٧/٩٣٩ على أصح الآراء . والذين يروون هذا الخبر يقولون ان محمد بن طغج هو الذي طلب من الراضي أن يختصه بهذا اللقب ، ويقال ان الاخشيد كان لقب ملوك فرغانة ، كما أن أصبهبذ لقب ملوك طبرستان ، والافشين لقب ملوك اشروسنة ، وما الى ذلك . ويقال أيضا ان معناه ملك الملوك ، وهذا تفسير لا يمكن القطع بصحته ، مثله في ذلك مثل قولهم ان معنى ... عبد الرحمن . ومهما يكن من الأحوال فقد اتصل نسب محمد بن طغج بن جف بالعباسيين من أيام المعتصم ، فقد كان جف من رجاله المقربين اليه ، وقد أقطعه المعتصم اقطاعا ... وظل جف في البلاد حتى توفي في الليلة التي قتل فيها المتوكل من سنة ٢٤٧/٨٦١ .

وخلفه ابنه طغج بن جف وكان من كبار الجند وأصحاب الولايات ، وقد دخل في خدمة الطولونيين ... ولي ... الشام وخلص في خدمتهم ... الذي ... على ... ... في ... ، مع أن ... كان قد ... ...

وظل طغج ... على دمشق وطبرية ... من العساكر ... ولى ... هارون بن خمارويه ... على الشام مستبدا بالأمر فيه ، لم يمكن ... الدولة الطولونية من استرجاعه واستمالته ... ودخل في طاعتهم واقروه على الشام . وعندما قتل شيبان هارون لم يشترك طغج ... ، وانضم الى محمد بن سليمان الكاتب ، وشارك معه في القضاء على دولة الطولونيين . لم ... طغج الى بلاط العباسيين ولاية ... كان ... الدولة ... من الأذى ، ... مع ابنيه محمد وعبيد الله ... الوزير العباس بن الحسن . وقد مات طغج في سجن ... سنة ٢٩٤/٩٠٦—٩٠٧ وهرب محمد وعبيد الله وكان محمد أكبر أبناء طغج ويكنى بأبي بكر أما اخوته الآخرون فهم أبو الحسين محمد وأبو مظفر الحسن وأبو نصر الحسين وأبو القاسم علي ، وسيكون لمعظمهم دور في أمور مصر أيام دولة أخيهم وأبنائه .

وتنقلت الأحوال بمحمد بن طغج حتى ... سنة ... ٣٢١/٩٣٣ كان في خدمة تكين والي مصر ... اشترك في ... فاطمية على مصر . ... تكين حتى ... ابنه الوند ... تكين على مصر ... محمد بن طغج ... دمشق ...

سنة في حياته وبعد الفرغانية . فلما عاد تكين الى ولاية مصر ولاه الاسكندرية ، وهناك انيحت له الفرصة لصد الفاطميين عن مصر مرة أخرى وفي أثناء ذلك ساءت علاقته بأبي بكر محمد بن علي الماذرائي والحسين بن أحمد الماذرائي المعروف بأبي زنبور . ويعرف عنهما حب كثير من مؤرخي مصر بأنه الكاتب به فيما بعد . ثم ولاه تكين أمر الحوفين الشرقي والغربي ، وفي أثناء ولايته على الاسكندرية ثم الحوفين بدأ يظهر شرهه الى المال ، فاقبل على مصادرة السياسيين والاستيلاء على التركات . وقد أنكر ذلك منه تكين وبدأت العلاقات تسوء بينهما .

وأحس محمد بن طغج بذلك ، فسعى حتى ظفر به بعض مدبريه ولاية الرملة بالشام ثم هرب من تكين الى الرملة . ثم حصل على ولاية دمشق سنة ٣١٩ / ٩٣١ ومكن لنفسه فيها . وهناك أخذ يكون لنفسه قوة عسكرية يعتمد عليها في مشروع السلطان الذي كان يدبر له ذلك ، ثم استخدم بحزمه عبيد الله والحسن والحسين ، وأخذ يستعد لانتهاز أول فرصة سنحت . ولا شك أن عينيه كانتا تستبين على مصر ، فأخذ يجمع المال بالمصادرات وغصب التركات ، وكلما اجتمع له مال اصطنع به جنداً يقربونه من غايته .

واستطاع وهو في الشام أن يصدر من صنيعته القاهر أمر تعيينه . الى ولاية في الشام ، ولكن أحمد بن كيغلغ استطاع أن

يعزل محمد بن طغج ويحل محله ، ودخل مصر والياً للمرة الثانية في شوال سنة ٣٢١ / ٩٣٣ ، الى أن محمد بن طغج تولى مصر للمرة الأولى نحو ٣٢ يوماً دون أن يتسلمها . ثم تمادى في حتى حصل على ولايتها مرة ثانية من الخليفة الراضي ودخلها والياً في رمضان سنة ٣٢٣ / سبتمبر ٩٣٥ وظل يحكمها من ذلك الحين الى وفاته سنة ٣٣٤ / ٩٤٦ .

ولم تكن الظروف التي تولى فيها محمد بن طغج الاخشيد مصر مواتية فقد كان صبح رجال الدولة فيها عظيماً . أما من جهة الغرب فقد اشتد طمع الفاطميين ، ولم يمض بين عام دون أن يوجهوا الى مصر حملة . وقد عاش الاخشيد وخلفاؤه بين حجري الرحى هذين طوال مدة حكمهم مصر ، وانتهى أمرهم عندما غلبهم المعز الفاطمي على البلاد ، وفصل مصر عن الخلافة العباسية جملة .

ولم يكد محمد بن طغج الاخشيد يتولى أمور مصر حتى نهض محمد بن رائق . وكان عندئذ من فحول الرجال وحماة ذلك الزمان ، ولم يزل أمره يسمو حتى اضطر الخليفة الراضي الى تقليده جميع أمور الدولة ، وبطل حينئذ أمر الوزارة والدواوين وبقي اسم الوزارة ٣٢٥ هـ . كما يقول أبو المحاسن في أن ولايته كانت مهدد بسوء بخلعه امير الأمراء . فلما بعد ، فقد فزع الاخشيد من التهاب محمد بن رائق اليه وسار بجيشه . والتقى الجانبان عند

الإخشيد على مقربة من طبرية في فلسطين وعقد الصلح بينهما، ولكنه أحس عجزه بعد، وأنه لن يستطيع الصمود لابن رائق، فصالحه على أن يحمل إليه كل عام ١٤٠٫٠٠٠ دينار على أن يكون له الرملة ويترك باقي الشام لابن رائق، وكان ذلك في محرم ٣٢٨/ أكتوبر ٩٤٠. ثم توفي الخليفة الراضي في ربيع الآخر من السنة وخلفه أخوه المتقي، وقتل ابن رائق في العام التالي، فسار الإخشيد ودخل دمشق وضم الشام إلى ولايته، وأقره المتقي على ذلك. وقد عرف محمد بن طغج كيف يكسب ثقة المتقي، بل دعاه إلى ترك بغداد والمجيء إلى مصر، مقتديا في ذلك ما فعله ابن طولون مع المعتمد، ولكن المتقي لم يقبل هذا الرأي.

وفي ذلك الحين كان أمر بني حمدان في حلب قد اشتد، وبدأ الصراع بينهم وبين الإخشيد، وهو صراع كتب النصر فيه للإخشيد، فظلت ولايته على مصر والشام خلال بقية أيام المتقي ثم المستكفي ثم المطيع وفي خلافة هذا الأخير توفي الإخشيد في دمشق في ذي الحجة ٣٣٤/ أغسطس ٩٤٥ وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور أو أونوجور، أي أن الإخشيد ظل واليا على مصر ١١ سنة و ٣ أشهر ونصف كان في معظمها واليا على الشام أيضا، وكانت سنه عندما توفي ٦٦ سنة ودفن بالقدس.

وقد استطاع محمد بن طغج الإخشيد أن يحتفظ بملكه خلال هذه السنوات معتمدا على القوة العسكرية التي استطاع أن يكونها، ثم إنه كان إلى ذلك كيّسا مداورا يستطيع أن يراوغ ويداور وينحني للعواصف، وما كان أكثرها في ذلك الوقت، وقد رأينا موقفه من ابن رائق. وكان الزمان عصيبا لا يثبت في مذاهبه إلا من كان له مثل هذه الخلال، فقد كانت غارات القرامطة لا تتوقف على الشام والحجاز وليس هنا موضع تفصيل أفاعيلهم، ويكفي منهم أن نشير إلى أن الله رحم المسلمين بموت أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي في سنة ٣٣٢/٩٤٣ بعد أن فتك بالشام والحجاز والحجاج الآمنين، وسرق رجاله الحجر الأسود من الكعبة عشرين سنة، ولم يردوه إلا بعد [illegible]. والأتراك مستبدون بدولة بني العباس ينهزمون أمامه مرة بعد أخرى، وكلما انهزموا لم يجدوا أمامهم إلا الخلفاء المساكين يصادرونهم ويسملون أعينهم ويطردونهم. ولم يكن أولئك الخلفاء على شيء من المهابة واحترام النفس، وقد مر بنا أحدهم وهو القاهر، وكان قد خلع وسملت عيناه — أنه لما بلغه خبر قبض توزون التركي على المتقي وسمله عينيه قال: «صرنا اثنين، ونحتاج إلى ثالث» يعرض بالمستكفي الذي بويع بعده. ولم يكن الوزراء خيرا من الخلفاء، ويكفي أن نذكر [illegible] الوزير [illegible] بن شيرزاد [illegible] كان قد أمن بعضا فاتكا، وخلع عليه، وشرط عليه

أن نصيبه كل شهر خمسة عشر ألف دينار ، وكان يكبس بيوت الناس بالمشاعل والشمع ويأخذ الأموال ».

وكان محمد بن طغج يحاول التشبه بأحمد بن طولون ، ويمكن شبهان بين الرجلين من كل ناحية . وقد أخذ جملة بن طولون وإلمضا بشيء من خصال محمد بن طغج ، ويقى أن نضيف أن جشعه إلى المال واستهانته بما في أيدي الناس وقلة تعففه جعلته موضع الرواية والانكار والتندر . بل كان يطمع في القليل ، حتى لقد طمع في فرو كان يلبسه أحد رجاله ، فجعل يعرض له به لعل الرجل يهديه إياه ولكنه لم يفعل ، فلما أيس منه عرض بعض غلمانه فسلبوا الرجل الفرو وهو خارج من عند الاخشيد لم أنكروه . ثم أراد الاخشيد أن يستهزئ فلبس الفرو ، فلما دخل عليه الرجل مرة أخرى ورآه عليه ضحك الاخشيد وقال : « كيف رأيت ؟ ما أصفق وجهك ! ولكنك ابن أبيك . وكم عرضت لك وأنت لا تستحي فلم تفعل ، حتى أخذناه فلا شكر ولا منة ! »

ويريد خفف من ذلك أن الرجل كان شديد التقى ، ولكن لقد لم يكن يظهر إلا بعد قيامه بالأذى . ولم يكن حال الاخشيد من هذه الناحية مختلف عن حال غيره من رجال الدولة والسياسة في ذلك الزمان ، فقد كانوا يظهرون الأسف والندم على ما يفعلون بعد فوات الوقت ، وكانت ضراعتهم إلى الله خوفاً من العذاب لا عاطفة دينية كريمة . وكان الاخشيد من هذه الناحية حريصاً على ألا تفوته فرصة لطلب الغفران ، حتى لقد تكاسل مرة عن حضور ختم القرآن في جامع عمرو ، وكان حريصاً على ذلك أثناء شهر رمضان ، فبعثته إحدى جواريه إلى القعود عن أن تعتق عنه عشر رقاب فقال : « وأعشر رقاب ؟ ويحك ! لعله يكون في هذه الليلة رجل صالح له عند الله منزلة فيقول في دعائه اللهم اغفر لجماعتنا ، فعسى أن أدخل بهم » ، ثم ركب إلى الجامع العتيق فحضر الصلاة والختم . وقد حاول أن يتشبه بأحمد بن طولون في مظاهره ، فلم يوفق . وظل الناس لا يوفرونه توقير الملوك حتى أصبح يعيب ذلك ويصر عليه ؛ وقد قرب نفر من بقايا الطولونيين فأصبحوا من ندمائه ، وربما جلس للعلماء والشعراء .

وجدير بنا قبل الانتقال من خلفاء الاخشيد أن نقف وقفة عند المادرائيين ، فهم كما قلنا يقاسمونه فضل ما أدرك من توفيق . وقد سبق أن ذكرنا أن أفراد هذه الأسرة كانوا في مصر أيام الطولونيين . وهم في الغالب أسرة فارسية الأصل أتى أولهم إلى مصر أيام أحمد بن طولون وأصبح من حواشيه ، ثم تكاثروا بعد ذلك حتى كثروا في البلاد . وأهم رجالهم ثلاثة : أحمد بن ابراهيم أو محمد بن أحمد بن ابراهيم المادرائي الأطروش ، والحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي زنبور ، وعلى بن أحمد المادرائي ابن أخ هذا الأخير أبو بكر محمد وأبو الطيب على

فقام أحمد بن إبراهيم المادرائي على خراج
مصر سنة ٢٦٦ / ٨٧٩ مشاركة مع ابن ... المدائني، وبقي في هذا المنصب وخلفه في هذا المنصب كان أحمد بن طولون قد عين أحمد بن إبراهيم المادرائي على خراج مصر. وبعد قليل عهد ابن طولون الى الحسين بن أحمد المعروف بأبي زنبور في عمل من أعمال الخراج في الشام. ثم ظهر من بين أفراد البيت علي ابن أحمد المادرائي وعلا أمره أيام خمارويه حتى قال المقريزي إنه « كان يتولى النظر في جميع أمور مصر لأبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ووزيره ». وفي سنة ٢٧٢ / ٨٨٥ استخدم علي هذا ابنه أبا بكر محمد بن علي وأبا الطيب أحمد بن علي، واستخلف أبا بكر على الخراج وأبا علي الرسائل، وهكذا أصبحت الأمور المالية والادارية كلها في مصر بأيدي أفراد هذا البيت.

ولقد قتل علي بن أحمد المادرائي مع أبي العساكر جيش، فنهض ابنه أبو بكر مكانه وتولى أمور هارون بن خمارويه. وعندما دخل محمد بن سليمان مصر انضم اليه أبو بكر محمد المادرائي، ورافقه الى بغداد، ثم عاد الى مصر وتولى خراجها الى سنة ٣٠٥ / ٩٦٦ أيام تكين، فصار صاحب السلطان المطلق في البلاد وصار ذا ثروة واسعة. ثم أبعد عن ... عن مصر وطولب في بغداد بأموال جمة. وظلا بعد ذلك على خراج مصر ١٤ سنة. ثم عاد أبو بكر الى خراج مصر سنة ٣٢١ / ٩٣٣ وأصبح صاحب السلطة الفعلي في البلاد، وبدا أنه كان يعتمد على قوة عسكرية خاصة به تحميه من خصومه وترد عنه أيدي الطامعين في ثروته. ويقص أبو بكر الحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي زنبور بأقل كفاية ولا مهارة من ابن أخيه أبي بكر، فقد صار اليه الأمر بعد ذلك. وعندما توفي سنة ٣١٧ / ٩٢٩ كانت شؤون مصر والشام المالية والادارية في أيدي أهل بيته. وكانوا جميعاً ينهبون أموال الدولة ويزورون في الأوراق، وكان رجال الدولة يعلمون ذلك ويستحلون مصادرتهم، وكانت المصادرة جزءاً من النظم المالية عندهم، يصادرون المال كما يرى لهم منه ويبقى لهم بعد ذلك الثروة الطائلة مخبأ في سراديب وأماكن لا يعلم بأمرها أحد.

وكان العمل الرئيسي للمادرائيين أنهم كانوا يضمنون الخراج بحسابه أو بصاحب الأمر في مصر، فيدفعون مبلغاً معيناً ثم يستخرجون من الناس ما يستطيعون. وقد اشتهر أمرهم بذلك، حتى ان أصحاب الأمر كانوا يكرهونهم ويحسدونهم ولكنهم لا يستغنون عنهم، نظراً لمعرفتهم بوجوه الإيراد والانفاق، ولم يكن هناك من يجرؤ على محاسبة الخراج بالمبالغ التي كانوا يضمنونها.

وفي سنة ٣٢٧ / ٩٣٨ — ٩٣٩ دعا الفتى محمد بن طغج الاخشيد أبا بكر المادرائي

وعوض منه أبو ... غال ، وحصل على نسبة
الحسين بن أبي منصر واصبح أبو بكر أمينه
بن الإخشيد فكان من سعيد لا يرد أمره
الإخشيد بتدبير بمصر وانقسام وزاملة
وبنى الدراعة وزرع المطبخ ، وكان
الإخشيد لا يصدر إلا عن رأيه ولا يخفيه من
حضور مجلسه ويخرج للناس إذا تصرف كم
قبلت يده ووقف بين يديه ... — والدراعة
هي شارة الوزير ، فكان أبو بكر المادرائي
قد أصبح بالفعل وزيرا وإن لم يسم بذلك
وقد غضب عليه الإخشيد سنة ٣٣١ هـ ٩٤٢ -
٩٤٣ وعزله وحبسه في بيته مكرما وأجرى
عليه رزقا يبعث به في سجنه

ولقيت نعاب أبي بكر حتى إذا توفي
الإخشيد وولي أبو القاسم أونوجور ظهر
أبو بكر فيه شخصية في بلده ... فأعاده إلى
ما كان عليه ومن غريب ما حدث بعد ذلك
أن غالبا يسمى غلبون خرج بالصعيد وغلب
جيش أونوجور وتولى الأمر فقدمه أبو بكر
وضمن له الخراج ، ثم عاد الأمر إلى
أونوجور فحبسه وصادره ونفيه ، فلما صار
الأمر إلى كافور أخرجه من سجنه وأعاده إلى
ما كان عليه أي أن هذا الرجل استطاع أن
يظفر بشيء ... كل شيء ، وقد ذهب
دوره وقاست دون والمادرائيون على حالهم من
السلطان والغنى والجاه وقد توفي أبو بكر
... في الثمانية والثمانين من عمره أيام
كافور سنة ٣٤٥ هـ ٩٥٦ م وكان قد بعد عن
الأعمال في أواخر أيامه

ونعود إلى خلفاء الإخشيد فبعد وفاة
محمد بن طغج خلفه ابنه أبو القاسم
أونوجور ، وكان سنه أربع عشرة سنة فتولى
تدبير الأمر أبو المسك كافور الإخشيدي
المربي وبسط يده على الأمور كلها ومن
ذلك الحين ... الفاطميين مصر ...
كافور هذا على مصاير مصر وجزء من الشام
في بعض الأحيان وهو عبد أسود يصفه
المؤرخون بقبح الشكل وكبر البطن والقدمين
وثقل البدن ، وقالوا إنه كان مثقوب الشفة
السفلى ويبدو في هذه الصفات أن المؤرخين
أرادوا بها أن يجعلوا كافور مثلا لقدرة الله
على إعطاء الملك من يشاء ويرجح أنه ولد
بين عامي ٢٩٢ و ٣٠٨ هـ (٩٠٥ و ٩٢٠ م) بالنوبة أو
بالحبشة ، ويسمى في بعض الأحيان باللابي
نسبة إلى ناحية اللاب من بلاد النوبة ويقال
إن الإخشيد اشتراه بثمانية عشر دينارا
ومهما يكن من أمر فقد أخلص كافور
للإخشيد إخلاصا عظيما أدى إلى عتقه ورفع
قدره ، وعهد إليه في تربية ابنيه أونوجور
وعلي

وكان الرجل ذكيا ملما بالكثير من شؤون
الدولة ، ورأى خلفاء الإخشيد صغارا لا يرجى
منهم خير ، ورجال الدولة لا يشاورونهم
ولا يخلصون ... الأمر وأخذ يستميل
نفسه بكسب الصداقات والأعوان فصارت
مقاليد الأمور إلى أونوجور ... فأصبح هو
صاحب الرأي الأعلى ، ودام له ذلك على أيام
أخيه علي وقد حاول كلاهما أن يتخلص

سنة دون حدود ، وظل كافور صاحب الأمر المطلق في البلاد مستعينا بأبي بكر المادرائي وغيره من رجال الدولة . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن كافورا تخلص من أبي القاسم أونوجور ثم من أخيه علي بالسم ، وذلك غير صحيح وإن كنا لا نستطيع القطع به . وبعد أن توفي علي لم يجد هناك الا ابنه أحمد ، وكان صبيا في التاسعة من عمره ، فآثر كافور جملة ودعا لنفسه على المنابر وأصبح أمير مصر ولكنه اكتفى بلقب الأستاذ ، فكان يقال له الأستاذ أبو المسك كافور . وقد جهد كافور في المحافظة على كيان الدولة ورد عنها الفاطميين أكثر من مرة وحماها من عدوان رجال الدولة العباسية ؛ ونرى أنه ضاع أمر بني الاخشيد عقب وفاة محمد بن طغج مباشرة ، أي أنه ظل يحكم مصر فعلا من سنة ٣٣٤/٩٤٥ الى سنة ٣٥٧/ ٩٦٧ ، ولذا سقطت مصر في أيدي الفاطميين بعد وفاته بعام واحد .

وكان رجال الدولة يخشون بأس كافور ؛ أما جمهور الناس فكانوا يحبونه . وقد جمع من الصفات ما أهله لذلك ، فأما مع رجال الدولة فكان حاسما حازما بل قاسيا ، ولم يمنعه ذلك من القدرة على المرونة والمطاولة ، وأما مع الجمهور فكان يظهر التقى والتواضع وحب آل البيت . قال الذهبي : « وكان كافور يدني الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ له في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وله ندماء ، وكان عظيم الحرمة ، وله حجاب تمنع عن الأمراء ، وله جوار مغنيات ، وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف ، زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد ، وكان كريما كثير الخلع والهبات خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل داهية ، كان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وكان يذعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له الأمر . وكان لا يقطع عن إرسال الأموال والهبات إلى الحجاز . وكان يتظاهر أمام الناس بكل ما يحببه إلى قلوبهم . ذكروا أن خطيبا عرض به في إحدى مواعظه وذكره في معرض التدليل على هوان أمر الدنيا على الله ، فسمع كافور بذلك فأرسل إليه خلعة ومائة دينار ، فصار الواعظ يقول بعد ذلك : ما أنجب من ولد حام الا ثلاثة : لقمان وبلال المؤذن وكافور » .

ويكفي للتدليل على ما بلغه كافور من المكانة ما وقع له مع المتنبي ، وقصد هذا الشاعر الكبير اياه ومدحه والتقرب اليه ؛ حتى لقد كان المتنبي على احتقاره لكافور يسايره ويركب في موكبه . ولم ينتفع المتنبي من كافور شيئا ، فاتجه الى رجل من حاشيته هو أبو شجاع فاتك الرومي المعروف بالمجنون ، فمدحه ، وحصل منه على ألف دينار وهدايا أخرى . ثم خاف كافورا فهرب من مصر ، وعندما صار على حدودها أطلق لسانه فيه

وبعد أن توفي كافور جمع جمال الدولة وزيره أحمد بن علي بن محمد بن طغج الاخشيد في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ ٩٦٧ وخطب للحسن بن عبيد الله بن طغج وابن عم أبيه خليفة، وتولى أموره أبو الفضل جعفر بن الفرات. وكان أحمد في الحادية عشرة من عمره لا يستطيع أمراً، وقد أساء جعفر بن الفرات التصرف وصادر بعض الناس وفي جملتهم يعقوب بن كلس وكان من سروات الناس، ففر الى المعز لدين الله وأخذ يحرضه على دخول مصر، وقد بلغ ابن كلس بعد ذلك مركزاً عظيماً أيام الفاطميين.

وكان الفاطميون لمصر بالمرصاد منذ أيام الاخشيد، وقد أشرنا في كلامنا عن الاخشيد الى بعض محاولاتهم لفتحها. والواقع أن الفاطميين منذ أن قامت دولتهم في القيروان لم يعرفوا راحة ولا استقراراً، فقد ناصبهم أهل البلاد العداء وكرهوهم وحاربوهم، حتى شاق درعهم. وكانت البلاد فقيرة لا تعينهم على احتمال ما كانوا ينفقونه من مال عليهم، ثم انهم عجزوا عن السيطرة على المغربين الأوسط والأقصى، وبدا لهم بوضوح أن أمرهم الى زوال اذا هم ظلوا في هذا الركن الذي شاءت المقادير أن تقوم دولتهم فيه، فاتجهت أنظارهم الى ضم بلاد أخرى الى افريقية، وبعثوا العيون والجواسيس في كل ناحية يتحسسون أحوال بلاد مثل الأندلس ومصر، غير أنهم بعد أن مات الاخشيد اتجه اهتمامهم نحو مصر وطمعوا فيها بسبب ما كانت عليه أحوالها من الاضطراب، وقوي طمعهم عندما صار الأمر الى كافور، ولكنه عرف كيف يرد أطماعهم عن بلاده. وكان الفاطميون قد دعوا الاخشيد الى الدخول في طاعتهم، فعجل برفضهم، حتى وثق علاقته مع العباسيين واطمأن من ناحية رجالهم، فوقف من الفاطميين موقفاً حاسماً. فلما مات الاخشيد عادوا يتفاوضون مع كافور، فأخذ يراوغهم هو الآخر. لم يرفض طلبهم ولم يجبه، وظل يجتهد في المحافظة على مركزه بين العباسيين من جهة والفاطميين من جهة أخرى.

وقد بدا للمعز الفاطمي بوضوح أن فرصته لدخول مصر قادمة يوم يموت كافور، وبدأ بالفعل يستعد للأمر، فبدأ في حفر الآبار على الطريق من افريقية الى مصر من سنة ٣٥٥/٩٦٥، وعندما وصلت الأخبار بموت كافور سنة ٣٥٧/٩٦٧ عجل باعداد الحملة وزاده همة في ذلك ما تسامع به من سوء سياسة الوزير جعفر بن الفرات. ويبدو أن دعاة الفاطميين في مصر كانوا كثيرين، لأننا نقرأ في أخبار هذه الشهور الحاسمة ما يدل على أن الجو في مصر كان مهيأً لاستقبال الفاتحين الجدد. وعندما اقتربت عساكر الفاطميين من مصر اجتمع جعفر بن الفرات بكبار رجال الدولة، وقرروا مفاوضة القائد جوهر على شروط التسليم، ثم خرجوا نحوه وحصلوا منه على أمان لأنفسهم وأهل

السنة . ومما أورده المقريزي نص عهد الأمان في
هذا العهد ... وهو لا يخرج عن نص عادي
للناس على أرواحهم وأموالهم ، ولكنه حافل
بما ... عن الفاطميين من محبة للإسلام
والمسلمين على غيرهم وإشفاق على ... ما
يطالبهم . وفي شعبان ٣٥٨ هـ ٩٦٨ م دخل جوهر
الصقلي مصر بجيوش الفاطميين بعد مفاوضات
يسيرة ، وبدأ في تاريخ مصر عهد جديد .

ولم يكن للإخشيديين أثناء حكمهم في
مصر عناية حقيقية إلا بشؤون المال ، وقد
وقفنا في ذلك بتفصيل أمام أرقامهم ، وعلمنا
يجبون مال مصر كل سنة خمسة ملايين من
الدنانير على قول و ٣٫٢٧٠٠٠٠ على قول
آخر . والراجح أن الرقم الأخير أقرب إلى
الصحة . وقد اشتد الإخشيديون في ذلك
حتى رهقوا الناس بالمصادرة والعقوبات ، حتى
كان بعضهم يستخرجون من الناس ضرائب على
أراضي البور . وقد ذكر المقدسي أن الضرائب
والمكوس كانت ثقيلة ، وخصوصا في تنيس
ودمياط وعلى ساحل النيل . وقد ذكرنا أن
الإخشيد كان لا يتورع عن مصادرة الأموال ،
وأن كافورا قد كف يده عن ذلك ، ثم عادت
المصادرات بعد وفاته ، وأسرف جعفر بن
الفرات في ذلك . ويبدو أن رجال الدولة قد
أهملوا شؤون المرافق ، فقد توالت على البلاد
المجاعات ، وفي السنة التي دخل فيها الفاطميون
مصر كانت الحالة قد بلغت منتهى الحرج
بلاء عم ساقه الحرمان ... قد ... عم
... لأجل دخوله .

تلك هي تجربة الإخشيدية ... أراد
صاحبها من ورائها ... تجربة بني طولون
قبل ... الأسرة ...
وكانت ... على ... دون أن ...
وإن كان ولابد من ... لها دور في تاريخ
مصر الطويل فهو أنها أتاحت للشعب المصري
عهدا من السنوات عاشها بعيدا عن العواصف
التي هزت بقية أجزاء الدولة العباسية في ذلك
العهد . فلقد شغلت الجزيرة العربية والشام
والعراق بغارات القرامطة ، وهددت الدولة
البيزنطية حدود ممتلكات الإسلام من الشمال
واجتاحتها في مواضع ، وبقيت مصر هادئة
تجري الحياة فيها على مألوف عهدها في تلك
العصور من النشاط والتكاسل . ولا شك أن
محمد بن طغج كان حريصا على الدفاع عن
مصر والابتعاد بها عن منطقة الثائرة ، وضحى
في سبيل ذلك بمعظم الشام ، فلم يحتفظ منه
إلا بالرملة ، وهي مفتاح مصر من ناحية
الشام .

وربما استطعنا أن نقول إنه لولا الإخشيد
وكافور لتقدم استيلاء الفاطميين على مصر
بضع سنوات . فقد وثبت الدولة الفاطمية في
إفريقية بعد زوال دولة آل طولون بأربع
سنوات ، وقبل أن ... في نفسها عبيد الله
المهدي في سنة ٢٩٦ هـ ٩٠٨ م فتحت عيناه على
مصر ، وحاولت جحافل الفاطميين ... حدودها
مرة بعد ... الذهب ... ولأمر ما ... العباسي
ما أمكنهم ... فما جاء الإخشيد ...

بالدفاع وأخذ به عبيد الله وتمكن من مد كل معاداة الفاطميين ، وأضاف إلى ذلك سياسة مرنة جعلته يصانع الفاطميين حتى ويتحدى لهم حيناً ، حتى ساعد في بعض سنواته أميل إلى الدخول في طاعة الفاطميين والخروج من دولة بني العباس ، ولكن قوى الفاطميين لم تبلغ آنذاك المبلغ الذي يخيفه أو يدعوه إلى طاعتهم ، ففضل البقاء على طاعة العباسيين ، فهم مهما كان أمرهم أضعف من الفاطميين ، وهم مشغولون عنه بما حزبهم من المتاعب ، فكانوا يقنعون منه بما يرسل ، ولم يكن الفاطميون يرضون منه بأضعاف ذلك

ثم جاء كافور فمضى على سياسة مولاه ، وأخذ يراوغ الفاطميين ويداهنهم ، حتى إذا انتهت أيامه كان على عرش الفاطميين تميم أبو معد أعظم رجال دولتهم ، وفي خدمته قائد مظفر ماهر هو جوهر ، جاس خلال المغرب كله يغزو ويحارب ، حتى تجمعت له تجربة عسكرية جعلته من أكبر قواد زمانه ، وقد يئس المعز وقائده من مصير دولتهم في المغرب وتعلقت آمالهما بدخول مصر ، ووجها نحوها كل مواهبهما ، فضربا إليها دون كبير جهد

ولابد أن نضيف إلى الأخشيد جانباً من الفضل في مدافعة البيزنطيين عن بلاد الإسلام ، فقد كانت الدولة البيزنطية قد نهضت إذ ذاك نهضة كبيرة على يد نقفور فوقاس ثم يوحنا الشمشقيق من بعده وأغارا على بلاد الإسلام وخربا شمال الشام فسقطت أنطاكية ودخلت حلب الجزيرة وهدد الخطر دمشق ، وتصدى لمدافعتهم الحمدانيون أصحاب الموصل وحلب والأخشيديون ومتطوعة المسلمين الذين يكاثرون في الثغور الإسلامية بحكم الحمية الدينية ، وخاصة ثغر طرسوس ، وعلى الرغم من أن دولتي الأخشيديين والحمدانيين لم تستطيعا رد عادية البيزنطيين عن بلاد الإسلام بصورة حاسمة ، إلا أنهما تمكنتا من قتال ما أمكن قتاله ، وأرسل الأخشيديون قواتهم لحماية الثغور وأخرجوا الأموال لافتداء أسرى المسلمين ، وقد هابهم البيزنطيون وكاتبوهم رأساً متخطين رجال الدولة العباسية . وكانت سياسة الأخشيد وكافور مع البيزنطيين سياسة ملاينة ومهادنة في الغالب ، ولم يكونا يستطيعان أكثر من ذلك على أي حال

أولهما أن لا نعرف على وجه التحديد متى بدأت نشوء الإسماعيلية ومتى بدأ بها، فقد بدأت سرية وقد كتب المؤرخون السنيون عن أصولها ومذاهبها ما لا يخلو من كثير من الاضطراب، والتحامل في أكثره على الشيعة بصفة مغرضة.

وثانيهما أن الإسماعيلية لجأوا في أول الأمر إلى التقية فقد كان العهد عهد سر، وتعرضت الشيعة لمواصل الاضطهاد مجتمعة من سجن وتقتيل وتشريد، ولهذا لم تؤرخ الإسماعيلية تحركاتهم بأنفسهم، لأن السر أصل من أصول مذهبهم، ومن صحف الدعوة عندهم كتب تستر، وكانت نتيجة أن كل ما نعرفه عن عقيدة السر وهو العهد الذي بدأ بوفاة جعفر الصادق وينتهي بقيام الدولة الفاطمية يسوده التناقض والاضطراب، ولا يمكن الركون إليه أو الوثوق به.

الحزب الشيعي — نشأته وتطوره

المشهور المتواتر أن محمداً عليه السلام توفي ولم يوص لأحد بالخلافة من بعده، وترك الأمر شورى بين المسلمين، وعن طريق هذه الشورى اختير الخلفاء الأربعة الراشدون، وإن اختلفت أساليب الشورى عند اختيار كل واحد منهم.

وكان علي بن أبي طالب يطمع في أن يلي هذا المنصب منذ اللحظة الأولى التي تلت موت الرسول عليه السلام، ولكن المنصب فاته في الحالات الثلاث الأولى، ولما أدركه في الحالة الرابعة أدركه في ظروف عصيبة قاسية، فقد بويع عليّ بالخلافة في أعقاب الفتنة الكبرى التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان.

وحدث الانقسام الأول الذي هز الوحدة الإسلامية وجر الويلات الكثيرة على المسلمين والعالم الإسلامي منذ تلك اللحظة في اليوم الذي ولي معاوية زعامة المعارضة، وكانت حجته الكبرى أنه إنما قام يطالب بثأر عثمان، وبالانتقام من قتلته ومن حماة هؤلاء القتلة، غير أننا نرى أن هذه حجة ظاهرية تخفي وراءها شعوراً يثير شعور التعصب على عليّ، لأن الصراع الحقيقي فهو صراع سياسي تمتد جذوره إلى الماضي البعيد، في عصر ما قبل الإسلام، عندما كان التنافس على أشده بين بني أمية وبني هاشم في سبيل السيادة، فلما ظهر محمد برسالته كان بنو أمية من أشد الناس عداوة له، وكان أبو سفيان — زعيم بني أمية — حامل لواء معارضته ومقاومته.

ولما نصر الله عبده محمداً، وانتقلت السيادة إلى بني هاشم بفضل ما حباهم الله به، وقد أصبحت الغلبة حقيقة برسالته وحضوره بعد أن كونت دولته الجديدة التي

وحدث المؤمنين وسيد المسلمين من الهم ، حتى جعلها يسكونو أمة واحدة من دون الناس

ألم يبن أمية أن يسال بنو هاشم شرف الشرف كله ويكنهم حصموا على مضض ، وخاصة بعد دخولهم في الاسلام ، حتى إن يحور هذا النزاع لم تنسه بل ظلت كامنة في النفوس الى أن ولي عثمان — وهو من كبار بني أمية — الخلافة فاستيقظت عوامل الخلاف من جديد ، والتف رجال هذه الأسرة حوله يوجهون سياسته باللون الذي يريدون ، فلما ثارت الفتنة وقتل عثمان ، وولي علي الخلافة خشوا أن تستقر السيادة ثانية في بيت بني هاشم ، فحمل لواء المعارضة معاوية — كبير بني أمية في ذلك الوقت — وقاد معركة الغضب في عنف وإصرار شديدين مستغلا كل ما أوتي من مكر ودهاء .

فلم يكن الصراع بين علي ومعاوية الا صراعا للأخذ بثأر عثمان أو للانتقام من قتلته ، وانما كان حلقة جديدة في سلسلة النزاع القديم في سبيل السيادة بين بيتين كبيرين من قريش هما بنو أمية وبنو هاشم ، ولقد كان تقي الدين أحمد بن علي المقريزي — زعيم مؤرخي مصر الاسلامية — أول من فطن الى هذه الحقيقة ، وأول من عالجها معالجة علمية في كتابه الصغير القيم « النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم » .

من هذا الصراع ظهر الحزب الشيعي وهو الحزب الذي يضم من ينصرون عليا أو ينتسبون له ، وقد انضم الى هذا الحزب كل الناقمين والمتذمرين من العرب ، ومعهم ومن الموالي بوجه خاص ، ووجد رجال هذا الحزب لأنفسهم مبدأ جامعا ، فجعلوا هذا المبدأ عقيدة تأثروا فيها الى حد بعيد بنظريات الحكم عند الفرس التي كانت تؤمن بحق الملك المقدس وحجر الزاوية في هذا المبدأ عقيدتهم في الامامة ، وتبرير هذه العقيدة عندهم حديث نبوي ، فقالوا ان الرسول عليه السلام مر عند أوبته من حجة الوداع بغدير خم — وهو مكان بين مكة والمدينة — وعند هذا الغدير آخى بينه وبين ابن عمه علي وقال « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

وقالوا استنتاجا من هذا أن هذا الحديث يتضمن مبايعة ضمنية من محمد لعلي ، وان عليا وصي الرسول ، أوصى له بالامامة من بعده بشروط خاصة ينفرد بها ، وعلوم لدنية تلقاها عنه ، وان الامامة يجب أن تنتقل من علي الى أولاده الواحد بعد الآخر لأن هذه الشروط والعلوم تنتقل في نسل علي بطريق الوراثة من الابن الى الابن .

وبعد وفاة أتباع هذا الحزب فيما بعد الى جانب أولاد علي يعرضونهم على مبادلة حقهم في الخلافة ، فرشحوا أولا الحسن بن علي لنيل أمر المسلمين بعد مقتل أبيه ، ولكن الحسن كان رجلا محبا للسلم ، فرأى أن أهل الشام ومصر والحجاز واليمن قد بايعوا معاوية

وبعد ثلاث سنوات من وصوله الى بلاد المغرب أي في سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) بدأ جهوده الحربية فخضعت له مدن كثيرة، وساعده على هذا النجاح ما كان قد أصاب الدولة الأغلبية صاحبة الحكم في تونس حينذاك من ضعف وانحلال.

وعند ذلك أرسل أبو عبد الله الى عبيد الله المهدي — الامام الاسماعيلي صاحب الدعوة — وكان يقيم في مدينة سلمية بالشام، ينبئه بانتصاره في بلاد المغرب، فأسرع بتلبية الدعوة، وخرج من الشام ومعه أموال وفيرة، وعلم الخليفة العباسي بخروجه فأرسل الى عماله في مصر وافريقية يوصيهم بالقبض عليه، ولكن عبيد الله استطاع بالتستر تارة، وببذل المال تارة أخرى أن يفر من مراقبة الولاة، وانتهت به الرحلة الى مدينة سجلماسة في المغرب الأقصى حيث قبض عليه واليها وسجنه بها.

وفي سنة ٢٩٦ هـ تم لأبي عبد الله النصر النهائي على الدويلات القائمة في شمال افريقيا: دولة بني مدرار في سجلماسة، ودولة بني رستم في تاهرت، ودولة الأغالبة في افريقية (تونس)، وأطلق سراح عبيد الله، فقاد الجيش بنفسه، وسار حتى دخل مدينة رقادة في سنة ٢٩٧ هـ، ونزل بقصر من قصورها، وفي يوم الجمعة خطب باسمه على منابر رقادة والقيروان بعد أن قضى نهائيا على ملك الأغالبة ولقب بأمير المؤمنين عبيد الله المهدي.

وهكذا نجحت الشيعة الاسماعيلية في الوصول الى عرش الخلافة بعد جهاد طويل مرير: كان بعضه في الستر الى عهد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، وبعضه في السر ويمتد من محمد بن اسماعيل الى نجاح الدعوة وظهور عبيد الله، ويعرف هذا العهد الثاني بعهد الكتمان، فقد كتمت فيه أسماء الأئمة خوفا وكان يقوم بالدعوة السرية ويشرف على توجيهها الأئمة المستودعون من نسل عبد الله بن ميمون القداح، ومن هنا ثار الجدال حول صحة النسب الفاطمي فقد أصبح كتمان أسماء الأئمة المستترين من محمد بن اسماعيل الى عبيد الله المهدي جزءا من المذهب، ولم يكن الخلفاء الفاطميون يسمحون باعلان هذه الأسماء حتى بعد نجاح الدعوة وتوليهم الخلافة، ومن هذه الثغرة دخل أعداء الدولة الفاطمية من العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس للطعن في نسب الأئمة الفاطميين يريدون بذلك أن يقوضوا الدعائم التي قامت عليها الدولة.

والى هذه النقطة — بدء تاريخ حكم عبيد الله المهدي بعد المحنة الأولى — يرجع بعض المؤرخين سبب النزاع الذي قام بين عبيد الله وقائده أبي عبد الله، والذي انتهى بقتل هذا الأخير بعد قيام الدولة بنحو عام.

الخلفاء الفاطميون

١ — فى المغرب

١ — ٤ ربيع الآخر ٢٩٧ (٩٠٩)	المهدي أبو محمد عبيد الله	ت ١٤ ربيع الأول	٣٢٢
٢ — ١٤ ربيع الأول ٣٢٢ (٩٣٤)	القائم بأمر الله أبو القاسم محمد	ت ١٣ شوال	٣٣٤
٣ — ١٣ شوال ٣٣٤ (٩٤٥)	المنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل	ت ٢٩ شوال	٣٤١
٤ — أول ذي القعدة ٣٤١ (٩٥٢)	المعز لدين الله أبو تميم معد	ت ٣ ربيع الآخر	٣٦٥

٢ — فى مصر

(أول شعبان ٣٥٨ فتحت مصر ، أول رمضان ٣٦٢ دخل المعز القاهرة)

٥ — ٥ ربيع الآخر ٣٦٥ (٩٧٥)	العزيز بالله أبو منصور نزار	ت ٢٨ رمضان	٣٨٦
٦ — ٢٩ رمضان ٣٨٦ (٩٩٦)	الحاكم بأمر الله أبو علي منصور	قتل فى ٢٧ شوال	٤١١
٧ — ١٠ ذو الحجة ٤١١ (١٠٢٠)	الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي	ت ١٥ شعبان	٤٢٧
٨ — ١٥ شعبان ٤٢٧ (١٠٣٥)	المستنصر بالله أبو تميم معد	ت ١٨ ذو الحجة	٤٨٧
٩ — ذو الحجة ٤٨٧ (١٠٩٤)	المستعلي بالله أبو القاسم أحمد	ت ١٤ صفر	٤٩٥
١٠ — ١٤ صفر ٤٩٥ (١١٠١)	الآمر بأحكام الله أبو علي منصور	قتل ٣ ذو القعدة	٥٢٤
١١ — ١٥ المحرم ٥٢٥ (١١٣٠)	الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد	ت ٥ جمادى الآخرة	٥٤٤
١٢ — ٥ جمادى الآخرة ٥٤٤ (١١٤٩)	الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل	قتل ٣٠ المحرم	٥٤٩
١٣ — أول صفر ٥٤٩ (١١٥٤)	الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى	ت ١٧ رجب	٥٥٥
١٤ — رجب ٥٥٥ (١١٦٠)	العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله	خلع ٣ المحرم ، ومات ١٠ المحرم	٥٦٧

الأيوبيون

كان الغرض الأساسي الذي سعى الفاطميون دائماً لتحقيقه هو تكوين خلافة جديدة تقضي على الخلافة العباسية وتحل في ملك العالم الإسلامي ، ولقد رأينا كيف نجح الفاطميون في تحقيق الشطر الأول من غرضهم فأقاموا دولتهم في المغرب ولكنهم لم يستطيعوا بعد تحقيق الشطر الثاني والأهم وهو القضاء على الدولة العباسية ، ومصر هي أول جزء من أملاك العباسيين يجاور الدولة الفاطمية من ناحية الشرق

وقد كانت مصر حلم الفاطميين منذ الخليفة الأولى ، ولهذا لم تكد الأمور تستقر نوعاً ما للمهدي — الخليفة الأول — حتى أعد العدة للاتجاه شرقاً وغزو مصر ، فأرسل في سنة ٣٠ جيشاً لتحقيق هذا الغرض ثم أرسل في سنة ٣٠٧ حملة أخرى ، ولكنهما منيا بالفشل ، وقد جدد هذه المحاولة القائم فأرسل في سنة ٣٢٦ حملة ثالثة — ولكنها لم تكن أسعد حظاً من سابقتيها ، ولم يكتب النجاح إلا للغزوة الرابعة التي تمت في عهد المعز لدين الله

وقد ساعد على نجاح هذه الغزوة الرابعة أمور كثيرة أهمها ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر ، وضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلي فيها

أما الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تتسلل إلى كيانها في العصر العباسي الثاني ، فاستبد الأتراك بشئون الحكم الفعلية حتى صار الخلفاء كالدمى في أيديهم يحركونهم كيفما شاءوا ، وينطبق عليهم عند ذلك قول الشاعر

خليفة في قفص

بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له

كما تقول الببغا

وأدى هذا الضعف إلى تجرؤ كل طموح أو محب للشغب أو راغب في السلطة على الثورة ، فقامت ثورة الزنج في إقليم البصرة والجزء الجنوبي الغربي من فارس ، وظلت مشتعلة خمس عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، ثم تلتها ثورة القرامطة الذين تقدموا حتى ملكوا بادية الشام وجنوبه وهددوا حدود مصر الشرقية ، وعاثوا في الجزيرة العربية فساداً ، واستولوا على الحجر الأسود حيث ظل معهم مدة اثنين وعشرين عاماً ، ولم يردوه إلا بعد أن دفع لهم الخليفة العباسي مبلغاً كبيراً من المال ، وصاحب هذه الثورات انفصال الأطراف وقيام دول مستقلة فيها

ففي الشرق قامت الدولة الصفارية والسامانية والطاهرية ، وفي الغرب قامت الدولتان الطولونية والإخشيدية

وفي قلب الدولة نفسها ، في العراق قامت دولة ملكت زمام الحكم في أيديها ،

ففي الشمال قامت الدولة الحمدانية في نواحي الموصل وحلب ، وطالما حاولوا الاستيلاء على بغداد نفسها . وفي بغداد نفسها قامت الدولة البويهية في سنة ٣٣٤ هـ ، واستبدت بأمور الخلافة جميعها ، وأصبحت الدويلات الكثيرة الأخرى والعصر في فوضى مختلفة وحروبهم وقتالهم ، وصار ذلك قوة يجري فيهم « إن الدولة والملك قد انتقلا من آل العباس إلى آل بويه والذي بقي في أيدي الدولة العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي ، لا ملكي دنيوي » (١) .

وفي مصر انتهت الأمور بعد موت محمد بن طغج الإخشيد في سنة ٣٣٤ إلى ضعف إذ لم يخلفه أحد من بنيه له مقدرته وشجاعته ، حقيقة لقد استبد كافور بالحكم دون ولدي الإخشيد ، فاستطاع أن يخمد الثورات التي نشبت وأن ينتصر على الحمدانيين ، ولكن هذه الدولة كانت أشبه شيء بصحوة الموت ، فقد ساءت أحوال البلاد الاقتصادية منذ سنة ٣٥٢ هـ لقصر النيل في فيضانه ، وحدث بمصر غلاء شديد نتجت عنه مجاعة طالت نحو تسع سنوات ، قاسى المصريون في خلالها الشدائد ، وحدث في سنة ٣٥٣ هـ مثلا أن « عظم الغلاء ، لتعطل الأعمال بكثرة الفتن ، ونهبت الضياع والغلات ، وماج الناس في مصر بسبب السعر ، فاجتمع الجم الغفير منهم بالفسطاط في يوم جمعة ، وازدحموا عند المحراب ، فمات رجل وامرأة في الزحام ، ولم تصل الجمعة يومئذ » .

« وفي سنة ست وخمسين بلغ النيل ... شرق الذي عمر ... ثم عم من ذلك في مدة الإسلامية ، وكان على أمور مصر حينئذ الأستاذ كافور الإخشيدي ، فعظم الأمر من شدة الغلاء » .

« وفي سنة ٣٥٧ هـ مات كافور ، فاضطرب لوفاته ، وكثر الاضطراب ، واشتدت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير ، وانتهبت أسواق البلد ، وأحرقت مواضع عديدة ، فاشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار ، واختلف العسكر ، فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبيد الله بن طغج — وهو يومئذ بالرملة — وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمي ، وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر ، وتواترت الأخبار بمجيء عساكر المعز من المغرب ، إلى أن دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ودخل القائد جوهر بعساكر الإمام المعز لدين الله » (٢) .

هذه صورة واضحة للحالة في مصر قبيل الفتح الفاطمي ، ... صفحة ... الذي ... من غير ... مؤرخي مصر الإسلامية ، ونستطيع أن نقول أن ... بوضعه ... ناطقة ...

(١) البيروني : الآثار الباقية ص ١٣٢

(٢) المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر زيادة والشيال ص ٢ — ٣

بالبستان الكافوري ، ودير للنصارى يعرف بدير العظام وبئر تعرف ببئر العظام(١) وقد بقي مكانه بعد تأسيس القاهرة أحد قصور الفاطميين الكبيرة وسمي قصر الشوك(١)

وقيل في سبب تسمية مدينة القاهرة أن جوهر لما أراد تأسيس العاصمة الجديدة أحضر المنجمين ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس ، فحفروا بدائرة السور قوائم من خشب ، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل علقوا فيه أجراسا ، وقالوا للعمال إذا تحركت الأجراس فألقوا ما بأيديكم من طين وحجارة ، وبينا العمال منتظرون إذ وقف غراب على أحد تلك الحبال ، فتحركت الأجراس جميعها وبدأ العمال في البناء ، فصاح المنجمون لا ، لا ، القاهر في الطالع ، فسميت مدينة بالقاهرة — والقاهر هو المريخ

ولكننا لا نميل الى تصديق هذا الرأي ، فهو أقرب الى القصص الخيالية ، ويؤيدنا في شكنا المقريزي نفسه راوي هذه القصة ، فانه يقول في موضع آخر ان جوهر « لما سار من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ٣٥٨ بعساكره ، وقصد الى مناخه الذي رسمه له مولاه الامام المعز لدين الله أبو تميم معد ، واستقر به الذي اختط القصر وأصبح المصريون جاءوا ليهنئوه فوجدوه قد حفر الأساس في الليل ، وأدار السور اللبن ، وسماها المنصورية ، الى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب الى مصر ، ونزل بها فسماها القاهرة »

وهذا هو ما نرى السبب الصحيح لتسمية القاهرة ، فان جوهر عندما وضع الأساس للمدينة الجديدة سماها « المنصورية » ، ولعله كان يريد أن ينسب الى عاصمة المعز الجديدة ذكرى والده الخليفة المنصور ، فسمى العاصمة الجديدة باسمه ، واختار لها موقعا خارج العاصمة القديمة الفسطاط بنحو ميل من الجهة ، كما كانت المنصورية خارج القيروان ، ويتمشى بذلك من أبواب المدينة الجديدة باسمي زويلة والفتوح ، وهما اسمان لبابين بمدينة المنصورية في المغرب . فلما أتى المعز الى مصر سماها « القاهرة » تفاؤلا ، يريد بذلك أنه سيقهر الدولة القديمة التي قام الفاطميون لمناهضتها والقضاء عليها ، وهي الخلافة العباسية ، فالمعز نفسه هو صاحب هذه التسمية ، وقد اختارها ، وهو بعد في المغرب ، فقد روي أنه قال عند وداعه لجوهر أمام جمع من شيوخ كتامة « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ، ولتدخلن الى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن في خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة ، تقهر الدنيا »(٢)

ومما ينفي قصة الغراب والحبال تعيب

(١) المقريزي : الخطط ج٢ ص ٢٠٤

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، نشر الشيال ص ٦٢

على أن المسعودي (1) يروي قصة شبيهة جداً بهذه القصة وينسبها إلى الإسكندر عند بنائه الإسكندرية، ولعل المقريزي نقلها من مرجع متأخر شبه عليه الأمر عند الكلام عن قاهرة مصر، فالتبست عليه من قبل من إسكندرية الإسكندر.

وأول ما بني في القاهرة القصر الكبير ليكون مسكناً للخليفة وأتباعه، ومقراً لدواوين الحكم، ووضع جوهر أساس هذا القصر ليلة أن حل بها.

وفي يوم السبت ست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠ م) اختطت القاهرة فعزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش في مكان خاص بها، وسميت خططها بالحارات؛ ومنها حارة زويلة، ونزلت بها قبيلة زويلة، وحارة كتامة، ونزلت بها قبيلة كتامة، وحارة البرقية، ونزل بها قوم من برقة، وهكذا.

ويقال في سبب اختيار جوهر لهذا المكان كي يبني مدينته فيه أنه رغب في أن تصبح حصناً فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر يقاتلهم من دونها؛ فأدار السور اللبن على مناخه الذي نزل فيه بعساكره، وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً، وأعده معقلاً يتحصن به وتنزله عساكره؛ واحتفر الخندق من جهته الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة ومنعهم من المدينة » (1)

وكانت القاهرة عند إنشائها صغيرة المساحة، ويعتقد علي بك في كتابه تحديد أن كل جانب من جوانبها كان يبلغ حوالي ألفاً ومائتي متر، وأن مساحتها كانت ٣٤٠ فداناً (الفدان ٤٢٠٠ متر)، وكان القصر يشغل خمس هذه المساحة، أي نحو سبعين فداناً، وكان بستان كافور يشغل عشر المساحة أي ٣٠ فداناً، وكان ميدان خاص لعرض الجند يشغل ٣٥ فداناً أخرى؛ أما الباقي وقدره مائتا فدان فقد خصص لنزول فرق الجند المختلفة.

وكان السور الأول الذي بناه جوهر من اللبن، وقد أدرك المقريزي قطعة منه كانت باقية حتى سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م)، وأعجب ببنائه، وذكر أن اللبنة الواحدة منه كانت قدر ذراع في ثلثي ذراع، كما ذكر أن عرض جدار السور عدة أذرع، وأنه يسع أن يمر به فارسان.

وكان للسور عدة أبواب في جهات مختلفة؛ فكان في جهته القبلية بابان متلاصقان يقال لهما « بابا زويلة »، وفي جهته البحرية بابان متباعدان، هما باب الفتوح، وباب النصر، وفي جهته الشرقية ثلاثة، هي باب البرقية، والباب الجديد

---

(1) المسعودي: مروج الذهب ج
ص ٥ ٢

(1) المقريزي: الخطط ج ٢
ص ٧٦ — ٦٨

وفى جهته الغربية بابان هما باب [illegible] المحروق وباب [illegible] ، ثم أضيفت أبواب أخرى بعد نمو المدينة وتجديد السور .

ولم يكن هذا السور هو الوحيد الذى بنى حول القاهرة ، وإنما بنى بعده سوران آخران أحدهما بناه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر فى سنة ٤٨٠هـ ١٠٨٧ م ، ليحيط بزيادات أضيفت الى القاهرة فى الجهتين البحرية والقبلية ، وكان هذا السور من اللبن وأبوابه من الحجارة ، ولا زال بابان من أبواب هذا السور ، وهما باب النصر وباب الفتوح موجودين حتى اليوم وعليهما نقوش تحمل اسم منشئهما (بدر الجمالى) والتاريخ السالف .

وبنى السور الثانى صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بدأ عمارته سنة ٥٦٦ هـ وهو وزير للخليفة الفاطمى العاضد ، وفى سنة ٥٦٩ هـ عهد غلامه بهاء الدين قراقوش للإشراف على العمارة ، وقد بنى هذا السور كله من الحجر ، وكان يضم داخله مدينتى القاهرة ومصر — أى الفسطاط — ولا تزال أجزاء منه باقية حتى اليوم جنوب أطلال الفسطاط ، وكان محيط هذا السور ٢٩٣٠٢ ذراع ، وكان يبدأ فى القسم الذى عند قلعة المقس (ميدان باب الحديد الحالى حيث كان يجرى النيل وقتذاك) ويمتد مع القاهرة على النيل ، ويدور حول القاهرة والفسطاط جميعا [illegible] عند ساحل مصر (الفسطاط) .

وكان خارج السور خندق لحمايته وحماية المدينة ، وبذلك كانت هذه المدينة تتمتع بالتحصين بسبب وجود السور . أما الحد الغربى فكان خليج أمير المؤمنين ، كما كان جبل المقطم هو الحد الشرقى .

وكانت القاهرة فى العصر الفاطمى ضاحية ملوكية ، يسكنها الخليفة وحرمه وجنده وخواصه ، وكانت — كما وصفها المقريزى (١) « حصن قتال يتحصن به ويلتجأ اليه » ، فلما قدم الى مصر أمير الجيوش بدر الجمالى أثناء الشدة العظمى التى كانت فى عهد المستنصر وجد أن القاهرة مدينة خاوية غير عامرة ، فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن ، وكل من وصلت قدرته الى عمارة بأن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها ، وعمروا به المنازل فى القاهرة وسكنوها .

ولما انتهت الدولة الفاطمية وولى حكم مصر السلطان صلاح الدين ، نقلها عما كانت عليه من الصيانة ، وجعلها مبتذلة لسكنى العامة والجمهور ، وحط من مقدار قصور الخلافة ، وأسكن فى بعضها ، وتهدم البعض ، وأزيلت معالمه ، وتغيرت معاهده ، فصارت خططا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة ، ونزل السلطان (صلاح الدين) منها فى دار الوزارة الكبرى ... الخ .

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٨٤

ثم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمي بعام ، وفي يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠ م) بدأ جوهر بناء الجامع الأزهر إلى الجنوب الشرقي من القصر الكبير ، وتم بناؤه بعد عامين ، فافتتح للصلاة أول مرة في شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م)

وظل جوهر يحكم مصر ، ويمهد الفتوح في الأقاليم المجاورة لمصر أربع سنوات ، ولما تم له إخضاع مصر والشام والحجاز ، وبعد أن أكمل تأسيس القاهرة وبناء القصر والمسجد الجامع أرسل للمعز يستدعيه إلى مصر ، فخرج المعز من المنصورية يوم الاثنين لثمان بقين من شوال سنة ٣٦١ هـ ؛ وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ وصل القاهرة ، ولما دخل القصر خر ساجداً لله تعالى ثم صلى ركعتين

الجامع الأزهر

كانت القاهرة — كما أسلفنا — رابعة العواصم المصرية في العصر الإسلامي ، وكانت سياسة الدولة الإسلامية تقضي بأن تنشأ في كل عاصمة جديدة مسجد جامع ، وترجع هذه السياسة إلى عهد عمر بن الخطاب ، فقد كتب إلى ولاته على الأقاليم المفتوحة — ومنهم عمرو بن العاص — أن يتخذ كل منهم في عاصمته مسجداً لجماعته ، والتزاماً بهذه السياسة بنى عمرو مسجده في الفسطاط ، فلما أنشئ العسكر في أول العصر العباسي بني فيها مسجد جامع ، ولما أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع بنى فيها مسجده الجامع كذلك

فهذه المساجد الجامعة كانت رمزاً لظفر المسلمين ، وكانت مركزاً للدعوة الدينية وفيها كانت تقام صلاة الجماعة ، وكان يؤم الناس في الصلاة في العصر الأول ولاة مصر ، فقد كان الغرض الأساسي من الفتوح الإسلامية نشر الدين الجديد ، وبذلك كانت ولاية الصلاة ذات أهمية كبرى ، فكان الوالي على مصر يجمع بين الولاية على صلاتها وخراجها ، أو يكتفي بولايته على صلاتها ويعين إلى جانبه والٍ آخر على خراجها

وكانت المساجد أيضاً مقراً لدواوين الحكم ، ومجلساً للقضاء ، ومعهداً لنشر العلم ، ومنبراً لإذاعة الأوامر الحكومية

بني الجامع الأزهر إذن وفي مصر مسجدان جامعان : جامع عمرو وجامع أحمد ابن طولون ، لأن جامع العسكر كان قد هدم وزالت معالمه ؛ وقصد الفاطميون ببناء هذا الجامع أن يكون مصلى للخليفة وجنوده ، وأن يكون مسجداً جامعاً للعاصمة الجديدة ، وأن يكون مركزاً لنشر الدعوة الشيعية ، وأن يكون رمزاً لانتصار الدولة الجديدة على الدولة العباسية

بدىء في إنشاء الجامع الأزهر في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠ م) وتم بناؤه في عامين وثلاثة أشهر، وافتتح للصلاة أول مرة في يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م).

وسمي الجامع عند إنشائه جامع القاهرة — أي باسم العاصمة الجديدة — ، وظلت هذه التسمية غالبة عليه طوال العصر الفاطمي، ولم يتسم بالجامع الأزهر إلا في تاريخ متأخر، ودليلنا على ذلك أن معظم مؤرخي العصر الفاطمي — وفي مقدمتهم المسبحي وابن الطوير — يذكرون هذا المسجد دائما باسم جامع القاهرة، وقلما يشيرون إليه باسم الجامع الأزهر.

ويرى البعض أن هذا المسجد سمي بالجامع الأزهر بعد إنشاء القصور الفاطمية في عهد العزيز بالله، فقد كانت هذه القصور تسمى بالقصور الزاهرة، ومن ثم أطلق على الجامع اسم الجامع الأزهر، ولكن يرجح أن هذه التسمية مشتقة من لفظ الزهراء، لقب السيدة فاطمة الزهراء، ابنة الرسول وزوج علي بن أبي طالب، وإليها تنتسب الدولة الفاطمية، وباسمها تسمى.

وظل الجامع الأزهر موضع عناية الخلفاء الفاطميين جميعا ورعايتهم فكان كل خليفة منهم تولى الحكم يعمل على تجديده والزيادة فيه وتوسعته حتى ذهبت الدولة، وبدأت في مصر دولة صلاح الدين، وهي دولة سنية قامت للقضاء على المذهب الشيعي، فأهمل الجامع الأزهر، لأنه كان المركز الرئيسي لنشر الدعوة الشيعية، وأبطل الخطبة في الجامع الأزهر قاضي القضاة في عهد صلاح الدين، وهو صدر الدين عبد الملك ابن درباس، فقد كان شافعي المذهب، والمذهب الشافعي يمنع إقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد.

أبطل هذا القاضي الخطبة من الجامع الأزهر، وأقرها بالجامع الحاكمي، وظل الأزهر معطلا من إقامة الجمعة فيه نحو مائة عام حتى ولي عرش مصر الظاهر بيبرس، فأعيدت الخطبة إلى الجامع، وعادت إليه أهميته، وعني به كثيرا في عصر المماليك والعصور اللاحقة إلى الوقت الحاضر.

كان للأزهر عند إنشائه صفته الدينية الرسمية — شأنه في ذلك شأن المساجد الجامعة الأخرى — ولكن لم يلبث أن اتخذ صفة أخرى هامة هي الصفة العلمية التعليمية، وذلك منذ فكر الفاطميون في نشر مذهبهم الجديد بوساطة دروس تلقى في حلقاته؛ وقد كانت المساجد الجامعة التي بنيت قبله — وخاصة جامع عمرو — مراكز نشر العلم، وفي حلقاتها كانت تلقى الدروس في الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب وسائر العلوم المختلفة، غير أن مسجدي عمرو وابن طولون كانا قد نجد بعد في العصر الإسلامي الأول تآليف علمية خاصة،

فكان من الأولى اذن أن يكون المسجد الجامع الجديد هو مركز الدعوة للمذهب الجديد.

قال المقريزي « وفي صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة جلس علي بن النعمان القاضي بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر ، وأملى مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت . وكان جمعا عظيما ، وأثبت أسماء الحاضرين » ، فكانت هذه أول حلقة عقدت للتدريس في الجامع الأزهر ، ثم تتابعت حلقات بني النعمان بعد ذلك لتدريس المذهب الشيعي.

وفي رمضان سنة ٣٦٩ (٩٨٠ م) جلس يعقوب بن كلس — وزير الخليفة العزيز بالله — وقرأ على الناس كتابا ألفه في الفقه الشيعي على مذهب الاسماعيلية ، وكان يجلس بعد ذلك لقراءته في الأزهر ، ويحضر دروسه الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة.

ويعتبر الوزير ابن كلس أول من فكر في جعل الجامع الأزهر معهدا للدراسة المنظمة المستقرة ، ففي سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨م) استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء (أي الطلاب المدرسين والقراء) في أوقات منتظمة مستمرة على أن تعقد حلقاتهم في الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر . وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيها ، ورتب لهم العزيز نفقة . لاقتراح ابن كلس . أرزاقا وجرايات شهرية ، وبنى لهم دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر ، « وخلع عليهم يوم عيد الفطر ، وحملهم على بغلات » « وكان لهم نصيب من مال الوزير صلة في كل سنة ».

ومنذ هذا التاريخ اتخذ الأزهر صفته التعليمية الخاصة ، فعين له طلبة متفرغون للدراسة ، ووفرت الدولة لهؤلاء الطلاب كل ما يعينهم على الدراسة والتحصيل حتى لا تشغلهم مطالب الحياة أو السعي وراء الرزق ، فرتبت لهم الأرزاق والجرايات ، وبنت لهم المساكن ، وقدمت لهم الكسوة في كل عيد ، ويسرت لهم سبل الركوب والانتقال.

وظلت هذه الصفة التعليمية الجامعية مميزة لجامع الأزهر طوال العصر الفاطمي فزاد عدد طلابه وأساتذته ، وكثرت أروقته وحلقات التعليم فيه ونمت الدراسة وازدهرت حتى بدأ يجتذب اليه الطلاب والعلماء من خارج مصر ، وتعطلت هذه الصفة التعليمية وقتا ما في العصر الأيوبي ، ولكنها لم تلبث أن عادت اليه مرة أخرى أقوى وأعظم مما كانت عليه ، وذلك منذ عهد الظاهر بيبرس ، وبرزت هذه الصفة بروزا واضحا في عصر المماليك وما تلاه من عصور ، وساعده على ذلك أن غزوات المغول في المشرق قضت على

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٤ ص ٤٩
والقلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٧

معظم مدارس مصر ، وكان معاهد العلم والمساجد الاسلامية المزدهرة تجتذب الجميع . أم من أنحاء حوالى هذا العصر الى الضعف والانحلال ، وتوافد العلماء من الشرق ومن الغرب الى مصر يجدون فيها الملجأ والملاذ ، فأصبحت القاهرة في العصر المملوكي مركز العالم الاسلامي وأصبح الأزهر قبلة طلاب العلم من مختلف جهات هذا العالم الاسلامي

وقد مرت بالأزهر عصور ازدهار وعصور اضمحلال ، ولكنه قاوم الأعاصير التي قابلته ، وحافظ على المكانة المرموقة التي يتمتع بها في قلب كل مسلم في جميع أنحاء الأرض ، فانه يعتبر حتى اليوم أكبر معهد بمدارسنا الاسلامية

العصر الفاطمي الأول

عصر القوة والازدهار

حكمت الدولة الفاطمية مصر مدة تنيف على القرنين (٣٥٨ — ٥٦٧ = ٩٦٩ — ١١٧١ م) غير أننا نستطيع أن نقسم هذه المدة قسمين على وجه التقريب . كانت الخلافة الفاطمية تتسم في كل منهما بسمات وصفات خاصة ، ففي القسم الأول ومداه قرابة قرن من الزمن وينتهي في النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر تقريبا (حوالى سنة ٤٥٧ هـ) بذلت الخلافة الفاطمية جهدها لتنظيم شئون مصر الداخلية ، فنشرت الأمن في ربوعها ، ووضعت النظم الادارية الدقيقة ، وعنيت بالجيش والأسطول ، ونشطت الزراعة ، ونهضت بالتجارة الداخلية والخارجية ، وشجعت الآداب والعلوم والفنون .

وفي هذه الفترة أيضا امتاز خلفاء الفاطميين بقوة الشخصية فكانت السلطة كلها في أيديهم ، ولهم على الشعب وعلى رجال الدولة النفوذ الأول ، وللوزراء المكانة الثانية

وفيه امتد النفوذ الفاطمي الخارجي حتى وصل أوجه وأقصاه ، فخضعت لهم اليمن والحجاز ومصر والمغرب وصقلية والشام ، وخطب لهم في الموصل وبغداد وقتا ما

وخير ما يؤيد هذه الصفات التي اتسمت بها الخلافة الفاطمية في الشطر الأول من حكمها أن نستعرض جهود الخلفاء الذين تولوا الحكم في هذه الفترة

كان أول الخلفاء الفاطميين في مصر هو المعز لدين الله ، وقد حكمها ثلاث سنوات (٣٦٢ — ٣٦٥ هـ) تركز جهوده في خلالها لتنظيم مركز حكمه الجديد ، فهي أول ما عني بشئون مصر المالية ، لأن مصر كانت وشيكة الخروج من المجاعة الخطيرة التي أصابتها قبيل الفتح الفاطمي وبإثره ، فمنع الشر الشداد بزيادة النيل . كما كانت المائدة ... ولم تكن لذلك الا انه والى قائده جوهر ، حتى اذا تم النصاب ووصل

في أقصاه أعلى ذلك النماء ، وكان في الأخشيدية موظفاً لكنه ، ثم عهد بإدارة شؤون مصر المالية جميعها إلى اثنين من أقدر رجال ذلك العصر وهما يعقوب بن كلس وعسلوج ابن الحسن ، فقاما بما عهد به إليهما خير قيام حتى زادت إيرادات الدولة في وقت وجيز زيادة كبيرة ملحوظة .

وتأكيداً لاستقلال مصر الاقتصادي عن الدولة العباسية أمر المعز فضربت سكة مصرية جديدة باسمه ، وفضل الدينار المعزي في المعاملات الحكومية على الدينار العباسي ، فقلت قيمة هذا الأخير وطرد من السوق شيئاً فشيئاً

وفي عهده اشتد خطر القرامطة وهددوا مصر براً وبحراً ، ووصل أسطولهم إلى مدينة تنيس ، فقاتلهم المعز ، وأخذت عدة من سفنهم ، وأسر عدد كبير من جنودهم

وأدرك المعز ما قد تتعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر ، فعني بالأسطول عناية كبيرة ، وبنى دار صناعة جديدة لصناعة السفن في المقس — ميناء القاهرة — وأنشئ بهذه الدار في عهده الفاطمي ستمائة سفينة حربية لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً (١)

وولي الخلافة بعد المعز ابنه العزيز بالله ، وكان رجلاً سمحاً كريماً شجاعاً ، ولئن كان عصر المعز قد امتاز بالتنظيم الداخلي للدولة الجديدة ، فإن عصر العزيز قد امتاز بالتوسع الخارجي ، وامتدت الدولة المصرية في عهده من المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج الفارسي شرقاً ، ومن أقصى الشام شمالاً إلى بلاد النوبة واليمن جنوباً ، وفتحت له حمص وحماة وشيزر ، وخطب له المقلد العقيلي — صاحب الموصل — بالموصل وأعمالها في المحرم سنة ٣٨٢ ، وضرب اسمه على السكة والبنود ، وخطب له باليمن ، وخاف بأسه امبراطور الدولة البيزنطية فخطب وده ، وأرسل إليه رسلاً يحملون الهدايا ، ويطلبون الصلح والهدنة ، فأجابهم العزيز واشترط شروطاً شديدة التزموا بها كلها ، منها أنهم يحلفون أنه لا يبقى في مملكتهم أسير إلا أطلقوه ، وأن يخطب للعزيز في جامع القسطنطينية كل جمعة ، وأن يحمل إليه من أمتعة الروم كل ما اقترحه عليهم ، ثم رد إليهم بعقد الهدنة سبع سنين (١)

وهكذا بلغت مصر الذروة في عهد العزيز فأصبحت امبراطورية واسعة تضم — كما أسلفنا — المغرب ومصر واليمن والجزيرة العربية والشام وجزيرة صقلية ، وبهذا فاقت الخلافة العباسية قوة ونفوذاً واتساع ملك وأصبحت الدولة الإسلامية الكبرى في الشرق ، وبدأت تهدد ما بقي في أيدي

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣١٧ عن المسبحي

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥١ – ٥٢

العباسيين من ملك ، وفي الوقت نفسه كان العزيز يوجه بصره نحو الخلافة الثالثة ، وهي الخلافة الأموية القائمة في الأندلس يريد أن يزيلها من الوجود ليصبح في العالم الإسلامي خلافة واحدة هي الخلافة الفاطمية ، فقد أرسل العزيز إلى خليفة الأندلس يهجوه ويتهدده ، غير أن الأندلس كانت في ذلك الوقت في عنفوان قوتها ، فأرسل صاحبها رداً على خطاب العزيز — جملته المشهورة التي يعرض فيها بنسب الفاطميين والتي تقول فيها « أما بعد ، فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك »

وقد رأى العزيز أن الجيش القوي هو السياج الطبيعي لحماية هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف ، فصرف همه بعناية بالجيش ، وهو أول من استعان من الفاطميين بالعنصرين التركي والسوداني فأصبح في جيش مصر فرق من هذين العنصرين بعد أن كان اعتماد الفاطميين على المغاربة الذين ساعدوهم في فتح مصر وإقامة ملكهم بها ، وقد كانت هذه العناصر مصدر قوة في أول الأمر لما امتاز به الترك والسودان من الشجاعة والإقدام ، غير أنها لم تلبث أن أصبحت سبباً من أهم أسباب ضعف الدولة واضمحلالها عندما نشب بينها [illegible] أسباب المنافسة والتعصب بينها

ولم تكن عناية العزيز بالأسطول أقل من عنايته بالجيش ، حتى لقد أصبحت مصر في عهده أكبر دولة إسلامية في الشرق الأوسط

وقد عرف العزيز بالتسامح مع أهل الذمة فقد تمتعوا في عهده بالحرية التامة في أداء شعائر دينهم وترميم كنائسهم ، وبناء كنائس جديدة ، ولا غرو فقد كانت زوجته — أم ولده الحاكم — مسيحية روسية ، وقد عين العزيز أخويها بطريركين ملكانيين في الإسكندرية وأورشليم ، وكان من وزرائه يعقوب بن كلس اليهودي ، وعيسى بن نسطورس المسيحي .

وفي عهد العزيز نمت ثروة البلاد وزادت ثروتها فعاش الناس في رفاهية وعاش الخليفة حياة كلها بذخ وترف ، وبنى لنفسه قصراً جديداً — عرف بالقصر الغربي — مقابل القصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهر للمعز ، وكان يفصل بين القصرين ميدان متسع يستخدم لعرض الجند ، كما بدأ بناء جامعه الكبير الذي أتمه ابنه الحاكم فيما بعد ، وعرف باسم الجامع الحاكمي

وكان من حسن حظ مصر أن طالت مدة حكم العزيز ، فقد حكمها واحداً وعشرين عاماً ، وتوفي سنة ٣٨٦ هـ ، فخلفه ابنه الحاكم بأمر الله ، وهو بعد طفل لا يجاوز الحادية عشرة من عمره

والحاكم شخصية عجيبة هي في الحقيقة مجموعة متناقضات مما يدل على أنه كان مختل العقل غير متزن التفكير . فقد امتاز عهده بالقسوة والعنف وكثرة سفك الدماء

وأوضح ما يميز الحاكم الشاذ ازدواج الشخصية، فهو حينا ذكي متكلم وحينا آخر معتوه حاقد، وهو تارة سمح متسامح محب للعلم والعلماء وهو تارة أخرى جبان متردد متخوف من المنجمين قاس بهم؛ وكان الغالب عليه السوداء، غير أنه ربما يفعل شيئا لم يفعل به أحد قبله؛ وأقام يلبس الصوف سبع سنين وامتنع من دخول الحمام؛ وأقام سنين يجلس في الشمع ليلا ونهارا، ثم عنّ له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة؛ وكتب على المساجد والجوامع سب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، ثم محا ما كتب في سنة سبع وتسعين؛ وأمر بقتل الكلاب، ثم نهى عنه؛ ونهى عن الاشتغال بالنجوم وكان ينظر فيها؛ ومنع من صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها؛ ومنع من بيع العنب، وقطع الكروم، وأراق خمسة آلاف جرة عسل في البحر خوفا من أن يعمل نبيذا، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا، وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها، وهدم الكنائس في بلاده — ومن بينها كنيسة القيامة — ثم أمر بإعادة بنائها [1] وهكذا.

وقد تقمص الحاكم عدد من زواره،

وانتهى به الأمر إلى أن ادعى الألوهية، وتكونت طائفة جديدة تنادي بألوهيته هي طائفة الدروز نسبة إلى الدرزي أحد دعاتها.

ومع هذا الشذوذ العجيب في تصرفاته كان الحاكم شخصية قوية جبارة، يهابه ويخشى بأسه الجميع، وكان للخلافة الفاطمية في عهده الشأن الكبير والمقام العظيم، ولم يكن لأحد من وزرائه ورجال جيشه ودولته نفوذ إلى جانب نفوذه.

ومع هذا، فقد كان لشخصية الحاكم المضطربة وسياسته الخرقاء أثر جسيم خطير في الدولة ومستقبلها، ففي عهده بدرت بوادر كثيرة مهدت لضعف الدولة وانحلالها.

بدأت هذه البوادر بجرأة الخلافتين السنيتين المعاصرتين على مهاجمة الدولة الفاطمية ومحاولة القضاء عليها، وقد حالت شخصية المعز والعزيز من قبل دون هذا الاجتراء، وهذا الهجوم.

أما الخلافة العباسية فلم يكن لديها من القوة المادية ما يمكنها من تدبير هجوم إيجابي، ولهذا فقد اتخذ هجومها شكلا سلبيا، فجمع الخليفة القادر عددا من علماء بغداد وقضاتها وكتبوا محضرا مشهورا فيه في النسب الفاطمي وأعلنوا فيه أن الحاكم وسلفه أدعياء خوارج، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، وإنهم فيه كذبة، فيما ادعوه، ملحدون معطلون، وللإسلام

---

(١) محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله ص ١٧٦ - ١٧٨ نقلا عن سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان.

حاسدون ، ومذهب الشيعة ، محبوسة محصدون ».

كتب هذا المحضر في سنة ٤٠٢ هـ ووقع عليه جمهور من العلماء والفقهاء وأرسلت منه نسخ الى مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، فكان له صدى قوي

وأما الخلافة الأموية في الأندلس فقد اتخذ هجومها شكلا آخر أكثر ايجابية وخطرا ، فقد خرج في الصحراء الغربية خارج اسمه أبو ركوة — وادعى أنه ينتسب الى بني أمية ، وجمع هذا الرجل جيشا كبيرا ، وهاجم حدود مصر الغربية وانضم اليه بنو قرة — من عرب البحيرة — وكانوا ناقمين على الحاكم لكثرة ما أوقع بهم وصادر من أموالهم ، واشتد خطر أبو ركوة فأرسل اليه الحاكم جيشا لمقاتلته ، فهزم الجيش ، فأرسل اليه جيشا آخر فكتب له النصر وتتبع أبا ركوة في الصعيد ، وانتهى الأمر بالقبض عليه في بلاد النوبة وارساله الى القاهرة وقتله

لقد اكتفت الخلافة العباسية بأضعف الايمان ، فأصدرت هذا المحضر وأرسلته الى أطراف العالم الاسلامي ، واكتفت بثورة أبي ركوة التي كانت تؤيدها الخلافة الأموية بالأندلس بالفعل ، ولكن هاتين الحركتين أثرتا دون شك في الدولة الفاطمية ، فأصبح ما كان يهمس من خبيئة عقيدته ، وبدأ الكل يحركون عليهم ، وتطور الأمر الى أن قام صراع في الداخل بين العناصر المختلفة المكونة للجيش الفاطمي من مغاربة وأتراك وسودان ، واشتد الصراع بين كل عنصر والآخر ، ولم يهدأ بعضه الا بعد أن قضى على كثير من قواد الجيش

ومن الأمور التي ساعدت على زعزعة كيان الدولة الفاطمية ما أقدم عليه الحاكم نفسه من محاولة تغيير أصل هام من أصول المذهب الاسماعيلي ، وذلك أن نظام الوراثة عند الشيعة الاسماعيلية يقضي أن تكون الامامة في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم ، وأن تنتقل دائما من الأب ، لأنهم كانوا يعتقدون أن للامامة صفات وعلوما خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تماما ، ولقد التزم الفاطميون منذ اقامة دولتهم هذا النظام ، فكان كل خليفة ابنا للخليفة السابق ، ولكن الحاكم حاول مخالفة هذا المبدأ فأوصى بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن الياس وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه الى جانب اسم الخليفة على السكة ، وأن ينقش على البنود والطرز ، كما أمر أن ينوب ابن عمه وينوب عنه في الخطبة والصلاة والنحر والنظر في المظالم ، وأن يسايره في المواكب

وكادت هذه المحاولة أن تؤدي الى انشقاق خطير بين الشيعة الاسماعيلية لأن في تنفيذها هدم لركن قوي من أركان المذهب ، ولولا أن الحاكم قتل ، وقبضت ست الملك أخت الحاكم على افساد محاولته ، فدست الى عبد الرحيم من قبض عليه وقتله وأجلست الظاهر بن الحاكم على عرش الخلافة

يتضح من هذا كله أن حسنات نوادر الأربع ينحصر في بيان ما للطعن في النسب الفاطمي، ونسبة أبي ركوة، والنزع من عناصر الغش الفاسي، ومحاولة الحاكم الخروج من أصول المذهب الاسماعيلي، كان لها أثر قوي في تركيب الدولة الفاطمية فبدأت عوامل الضعف تعمل في بنيانها.

وولي الظاهر في سنة ٤١١ عرش الخلافة بعد أبيه، وكان عند ذلك صبيا مراهقا في السادسة عشرة من عمره تحت وصاية عمته ست الملك، فترك أمور الحكم بين يديها وبين أيدي رجال الدولة من وزراء وقادة وقضاة، وأبرز ما يميز عهده أنه أباح كل ما كان قد حرمه أبوه، بل إنه قد غالى فأقبل هو نفسه على شرب الخمر، ورخص للناس شربها فأقبلوا على حياة اللهو.

ومما يحمد له أنه عمل على تحسين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن كانت قد نحت من السوء ميلا كبيرا في عهد أبيه، فعقد المعاهدة مع صاحب الروم في سنة ٤١٨ هـ بشروط كان أهمها أن يقيم جامع القسطنطينية وأن يعين فيه مؤذن ويخطب فيه للظاهر، وأن يعيد الظاهر بناء كنيسة القمامة بمدينة القدس.

وفي سنة ٤٢٧ ولي الخلافة المستنصر بن الظاهر، وعمره ٧ سنوات، وقد طالت مدة خلافته حتى بلغت ستين عاما، وهي أطول مدة حكمها خليفة مسلم، وقد بلغت الخلافة الفاطمية في القسم الأول من حكمه أوجها في عظمة داخلية وخارجية، وزار مصر في هذا النصف الأول الرحالة الفارسي ناصر خسرو ووصفها ووصف نظمها ومدنها وعمائرها وزروعها ومتاجرها ووصف المعجب بما رأى وشاهد.

وبدأت مصر في هذا النصف الأول ترنو بأبصارها ثانية نحو العراق وبغداد مقر الخلافة العباسية المتهاوية، وأحس الخليفة العباسي بوادر الخطر فأصدر في سنة ٤٤٤ محضرا ثانيا شبيها بالمحضر الأول الذي صدر في عهد الحاكم للطعن في نسب الخلفاء الفاطميين، ووقع عليه كبار العلماء والقضاة في بغداد وأرسلت منه نسخ إلى مختلف أطراف العالم الاسلامي.

ولكن رد المستنصر كان قويا وإيجابيا، ففي سنة ٤٤٨ خرج على الخليفة العباسي أحد قواده وهو أبو الحارث البساسيري، وانحاز للخليفة المستنصر فأرسل إليه الأموال والسلاح، وتقدم البساسيري في سنة ٤٥٠ فدخل بغداد وأخرج منها الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وأرسل البساسيري ثياب هذا الخليفة وعمامته إلى القاهرة، وخطب للمستنصر على منابر بغداد نحو عشرة شهور، وحدث مثل ذلك في مدن العراق الأخرى غير بغداد، فخطب للمستنصر في هذه السنة على منابر البصرة وواسط وأعمالهما

وهكذا تمتعت الخلافة الفاطمية بمصر في النصف الأول من حكم المستنصر أوج عظمتها واتسعت سيادتها فامتدت من المحيط الأطلسي الى العراق ، ولكن عوامل الضعف الكامنة لم تلبث أن بدأت تنخر في كيان الدولة في النصف الثاني من حكم هذا الخليفة ، فقد سقط ملك السلجوقي بغداد ، وقتل البساسيري ، وأعيد الخليفة العباسي الى مركزه ، فانقطعت الخطبة للمستنصر وعادت للقائم .

وقبل هذا بقليل نشب نزاع بين اليازوري — وزير المستنصر — والمعز بن باديس عامل الفاطميين على المغرب ، وآل الأمر الى أن قطع ابن باديس الخطبة للفاطميين بالمغرب وأقامها للعباسيين

وفي سنة ٤٥٧ هـ أصيبت مصر بالمجاعة المعروفة التي ظلت سبع سنوات (٤٥٧ — ٤٦٤) فكانت الطامة الكبرى ، وتدهورت أحوال مصر الاقتصادية تدهورا خطيرا ، والمقريزي يسمي هذه المجاعة « بالشدة العظمى » ، ويرجع أسبابها الى « ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان ، وقصور النيل ، وعدم من يزرع ما شمله الري »

وكان من نتائجها .... في .... ان ارتفع السعر .... وتزايد الغلاء ، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي من الزراعة ، وشمل الخوف ، وخيفت السبل برا وبحرا ، وتعذر السير الى الأماكن بالخفارة الكثيرة وركوب الغرر ، واستولى الجوع لعدم القوت حتى أبيع رغيف خبز في النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة عشر دينارا ، وأبيع الأردب من القمح بثمانين دينارا ، وأكلت الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير ، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا .... ثم آل الأمر الى أن باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره ، وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه ، وذهب وقاره ، وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن « الجوع الجوع » تردن المسير الى العراق ، فتسقطن عند المصلى وتمتن جوعا .... الخ .... الخ »[(١)]

وكان من شدة الغلاء الذي صاحب هذه المجاعة أن عجزت مصر عن كانت ترسله الى الحجاز من غلال ومؤن ، فانقطعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة ، وخطب للخليفة العباسي في سنة ٤٦٢ هـ وان كانت قد عادت للمستنصر في سنة ٤٦٩

وهكذا توالى انفصال أجزاء الدولة ، فانفصل شمال افريقية كله وخطب للعباسيين ،

(١) المقريزي : اغاثة الامة .... نشر زيادة والشيال ص ٢٤ — ٢٥

ثم قطعت الخطبة من بغداد والعراق بعد أن خطب للفاطميين عشرة أشهر، ثم قطعت الخطبة لهم في الحجاز مدة سبع سنوات، وأخيرا في سنة ٤٦٢ دخل النورمان صقلية واستولوا عليها فخرجت بذلك عن حكم الفاطميين بعد أن ظلت جزءا من أملاكهم منذ قامت دولتهم في سنة ٢٩٧ هـ

وفي سنة ٤٦٦ هـ تفاقم الحال، واضطربت أمور مصر اضطرابا شديدا واختلت أحوالها، وعجز المستنصر عن أن يصنع شيئا لعلاجها، فاستدعى واليه على عكا بدر الجمالي، فلبى الدعوة وتولى بعد مجيئه أمور مصر كلها، وتلاشت — منذ ذلك الحين سلطة الخليفة، وبدأ عهد سيطرة الوزراء.

وقد جرى المؤرخون الإسلاميون على تقسيم الوزارة إلى نوعين: وزارة تنفيذ، وفيها تكون السلطة كل السلطة بيد الخليفة وإنما يقوم الوزير بتنفيذ أوامره؛ ووزارة تفويض وفيها يكون الخليفة محجوبا على أمره، والأمور كلها مفوضة للوزير.

وبتطبيق هذا التقسيم النظري نستطيع أن نقول إن وزراء العصر الفاطمي الأول كانوا جميعا وزراء تنفيذ، أما وزراء العصر الفاطمي الثاني فكانوا جميعا وزراء تفويض، وكان أولهم أمير الجيوش بدر الجمالي

وقد أنشئ لبدر سجل خاص بتفويض أمور الحكم إليه، جاء فيه

« وقد قلدك أمير المؤمنين جميع مواضع تدبيره، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد، ومصلحا للفساد، ومدمرا لأهل العناد »

وأصبحت الأمور كلها مردودة إليه، والاتصال بين الخليفة وبينه اتصالا مباشرا، وجعل له تعيين قاضي القضاة وداعي الدعاة — وكان تعيينهما من اختصاص الخليفة دون غيره —، ولهذا لقب بكافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين

وقد كان وزراء العصر الأول جميعا من أرباب القلم، أي من رجال الفكر والأدب، أما بدر فقد كان من أرباب السيف — أي من رجال الجيش — ولهذا لقب أيضا بالسيد الأجل أمير الجيوش، وهو اللقب الذي توارثه من بعده وزراء التفويض في العصر الفاطمي الثاني، فقد كانوا جميعا من أرباب السيوف

ولم يحدث أن ولي الوزارة ابن بعد أبيه في العصر الأول، وإنما حدث هذا في العصر الثاني، فولي الوزارة بعد بدر الجمالي ابنه شاهنشاه، فوزر للمستنصر ثم للمستعلي ثم للآمر، ولقد زيد في ألقابه « الأفضل » وبه شهر حتى أصبح يعرف بالأفضل شاهنشاه، وقد أضيف هذا اللقب أيضا لوزراء من بعده

ومنذ عهد الخليفة الحافظ لقب الوزير

لقب « الشيخ » ، وأول من لقب به رضوان ابن ولخشي وزير الحافظ لدين الله ، فقيل له « سيد الأجل الملك الأفضل » ، ولقب به كذلك من أتى بعده من الوزراء ، فلقب الصالح طلائع بن رزيك « بالملك الناصر » ، ولقب ابنه رزيك بن طلائع « بالملك العادل » ، ولقب شاور « بالملك المنصور » ، ولقب صلاح الدين — وهو آخر وزراء الدولة من أرباب السيوف — « بالملك الناصر »

وخير ما تدل عليه هذه الألقاب أن الوزير في العصر الفاطمي الثاني أصبح هو كل شيء في الدولة ، فقد أصبح « السيد الأجل » ، ثم « أمير الجيوش » ثم « الأفضل » ثم « الملك » ، يقول المقريزي « وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر الى آخر الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، واليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية . . » (٦)

وبهذا عرف العصر الفاطمي الثاني عند المؤرخين بعصر الوزراء العظام ، وتأييدا لسلطانهم بنيت لهم دار خاصة في القاهرة بالقرب من القصر الخليفي يباشر فيه الوزير شؤون الحكم ، وعرفت باسم « دار الوزارة الكبرى »

وكان لتولي بدر الجمالي الوزارة نتائج أخرى كثيرة أهمها اضافة عنصر جديد الى العناصر المكونة للجيش الفاطمي ، فقد كان هذا الجيش في أول مرة مكونا من المغاربة — وخاصة قبيلة كتامة — الذين أتوا مع جوهر لغزو مصر ، ثم استعان العزيز بالله بالأتراك واستخدم عددا كبيرا منهم في جيشه ، ومنذ عهد الحاكم بدأ دخول السودان في الجيش الفاطمي ، فلما ولي المستنصر استكثرت أمه من السودان — فقد كانت منهم — حتى يقال انهم بلغوا نحوا من خمسين ألف أسود واستكثر هو من الأتراك ، فتجدد النزاع بين العنصرين ، وقامت بينهما — كما يقول المقريزي — « حروب آلت الى خراب مصر وزوال بهجتها »

ثم قدم بدر الجمالي من عكا ، وقتل رجال الدولة وأقام له جندا وعسكرا من الأرمن — فقد كان هو أرمنيا — ، وصار معظم الجيش منذ ذلك الوقت من الأرمن

وهكذا تعددت العناصر المكونة للجيش الفاطمي ، فأصبح يتكون من المغاربة والعرب والأتراك والسودان والأرمن وغيرهم من الأجناس وبدأت أسباب النزاع بين كل عنصر وعنصر ، وكثيرا ما أدى هذا النزاع الى خراب البلاد ونهب أموال الأهلين ، وكانت أسوأ نتائجه ضعف الجيش الفاطمي وبالتالي ضعف الدولة نفسها

ولم تكن هذه وحدها هي الأسباب التي

---

(٦) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٥ ٢

دب الى ضعف الدولة و انحلالها ثم زوالها ، وقد كانت هناك بجانب ذلك كلما تقدم الزمن عوامل جديدة ، منها أن معظم خلفاء العصر الثاني تولوا الخلافة وهم بعد أطفال صغار مما زاد في شوكة الوزراء واستقلالهم بأمور الحكم ، فقد ولي الظاهر الأمر وعمره خمس سنوات ، وولي الفائز في نفس العصر وتوفي في الحادية عشرة من عمره ، وولي العاضد كذلك وعمره أحد عشر عاما

ولقد ولي هؤلاء الخلفاء في هذه السن المبكرة لأن نظام الوراثة عند الشيعة الاسماعيلية كان يقضي — كما ذكرنا — أن تكون الامامة — أي الخلافة — في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم ، وأن تنتقل دائما من الأب الى الابن (١) ، فهم في هذا يختلفون عن أندادهم الخلفاء السنيين من الأمويين والعباسيين ، الذين كانوا يبيحون أن تنتقل الخلافة أحيانا الى الأخ أو الى ابن العم أو الى أكبر أفراد الأسرة سنا ، لأنهم كانوا يشترطون فيمن يتولى الخلافة شروطا أخرى كثيرة من أهمها أن يكون بالغا عاقلا سليم الحواس ، وقد كان لنظام الوراثة عند الفاطميين فوائد كثيرة أهمها أنه كان عاملا من عوامل الاستقرار ، وأنه جنب الأسرة والدولة — الى حد كبير — عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم في سبيل العرش

(١) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢

غير أن هذا النظام كانت له الى جانب هذه الفوائد مضار وعيوب ، منها أنه كان يوجب تولية هؤلاء الخلفاء الأطفال لا لشيء الا لأن كلا منهم كان ابن الخليفة السابق وقد نص على توليته ، مما أتاح الفرصة لاستبداد الوزراء بشئون الحكم ، وقيام أسباب التنافس والنزاع بين رجال الدولة المتطلعين الى منصب الوزارة

وكان من الشروط الهامة لصحة الامامة عند الشيعة الاسماعيلية الرسمية أو « النص » ، أي أن ينص الامام السابق على الامام اللاحق من أولاده ، فهم يعتبرون النص بمثابة أمر بالتعيين صادر عن الامام السابق ، وبذلك هو عندهم شرط هام من شروط صحة الامامة ، ويشترط في النص عندهم أن يصدر عن الامام وقت نقلته ، أي عند موته ، بمعنى أنه اذا صدر عن الامام أكثر من نص لأكثر من ولد من أولاده فانه لا يؤخذ الا بالنص الأخير الذي صدر عنه وقت نقلته وانتقاله الى الدار الآخرة ، لأنه في رأيهم يجب كل النصوص الأخرى السابقة

ولقد التزم الفاطميون منذ اقامة دولتهم هذا النظام الوراثي بجميع شروطه فيما عدا ثلاث حالات

— في المسألة الأولى حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يخرج به ، فعهد بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن الياس ، وقد أشرنا الى هذه المحاولة وأثرها فيما سلف ،

وان ابنه لم يكتب له النجاح ، فقد قتل الحاكم قبله بحوالي ثلاث سنوات ، وسجن أخاه « عبد الله » حتى أقام « الظاهر » بن الحاكم على عرش الخلافة

— والحالتان الثانية والثالثة خولف فيهما هذا المبدأ فعلا ، وولي الخلافة ابن عم لا الابن ، فبعد وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله ولي الخلافة ابن عمه الحافظ لدين الله وبعد وفاة الخليفة الفائز ولي الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله ، وهو آخر خلفاء الدولة

وفي كل مرة خولف فيها نظام الوراثة — كما نص عليه المذهب — حدث انقسام مذهبي سياسي ، وهذه الانقسامات المذهبية السياسية — وقد حدثت كلها في العصر الفاطمي الثاني — عرضت الدولة لهزات عنيفة، وكانت من أهم العوامل التي أدت الى اضعاف الدولة وانحلالها

فبعد وفاة المستنصر حدث خلاف في تحديد النص ، فقال نزار — الابن الأكبر بأن النص والوصية له ، وقال الوزير القائم بالحكم الأفضل شاهنشاه بأن النص والوصية للابن الأصغر أبي القاسم أحمد — الذي ولي الخلافة باسم المستعلي — ؛ وانتهى النزاع بهزيمة نزار وتولية المستعلي ، وانقسم الاسماعيلية منذ ذلك الحين الى فرقتين

الاسماعيلية النزارية التي نجح دعاتها في اقامة ملك لهم في قلعة ألموت ثم في الشام وقد لعبوا دورا خطيرا في التاريخ الاسلامي في القرنين الخامس والسادس

— والاسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة الفاطمية في مصر

وقد ناصبت النزارية المستعلية العداء ، ولم ينس الخلفاء الفاطميون — منذ عهد المستعلي — العداء الشديد للنزارية ، بحيث نستطيع أن نقول ان تاريخ الحركة الاسماعيلية بوجه عام ، وتاريخ الدولة الفاطمية في مصر بوجه خاص كان من الممكن أن يتخذ شكلا آخر غير الذي عرفناه لو ان الاسماعيلية النزارية (الحشيشية) اتفقوا مع الفاطميين في مصر بدلا من تحينهم كل فرصة ممكنة للتنكيل بهم والاضرار بهم

والحقيقة أن ابعاد نزار وتولية المستعلي يعتبر انقلابا سياسيا (Coup d'état) واضح المعالم ، قام به الوزير الأفضل شاهنشاه محافظة على السلطان القوي الذي كان يتمتع به منفردا منذ أواخر عهد المستنصر ، فقد كان نزار — عند موت أبيه المستنصر — رجلا مكتمل الرجولة ، ولم تكن العلاقات بينه وبين الأفضل — أثناء حياة المستنصر — علاقات طيبة ؛ بل لقد كانت على العكس علاقات مشوبة بالكره المتبادل

والانقسام المذهبي الثاني حدث بعد وفاة الخليفة الآمر ، فقد حدث أن أصول

للطيب ، وولي الخلافة الحافظ بن عم الآمر ، في حين أنه كان قد ولد للآمر قبيل وفاته ابن اسمه « الطيب » وأعلن له بعهد بولاية العهد ، وبهذا انقسمت الاسماعيلية مرة ثانية الى

- اسماعيلية حافظية
- اسماعيلية طيبية

وبعد سقوط الدولة الفاطمية عند مقتل الخليفة الآمر بأزمة عنيفة كادت تودي بها ولضخم حدة نتائجها ، وذلك أن بعض جنود سبتي النزارية تسللوا الى القاهرة وتربصوا للآمر وقتلوه في ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠م) ، وتذكر المراجع المطبوعة المتداولة — ومعظمها مراجع سنية — أن الآمر لم يكن عند مقتله قد أعقب ، وانما ترك من بعده احدى زوجاته حاملا ، فعين الحافظ ابن عم الآمير حاكما مؤقتا ، حتى أن يكون ولي للعهد وكفيلا للطفل الذي يولد ان أنثى ذكرا ، ولكن الزوجة أنجبت بنتا فاستمر الحافظ خليفة

كان هذا هو الرأي الذي تعرضه المراجع السنية المتداولة الى عهد قريب ، ولا تذكر رأيا غيره ، ثم بدأت تظهر في عالم المطبوعات مراجع تاريخية سنية تشير الى رأي آخر ، وأول هذه المراجع «تاريخ مصر لابن ميسر» ، وقد أورد المؤلف فيه نصا يشير الى أن الآمر كان قد ولد له قبل موته بشهور ولد سماه أبو القاسم الطيب ، واحتفل بمولده احتفالا عظيما وأعلنه ولي العهد ، وأرسلت السجلات بولاية الطيب ولاية العهد الى اليمن ، وأعقب هناك ، وبهذا يظل اسماعيلية اليمن — في معظمهم — بعد ذلك سنة ، ثم تكون ثم حالة أخرى في الهند تتبع نفس المذهب والفرقة

ولكن بعض المؤرخين لا يزالون مع هذا — وحتى اليوم — يشككون في هذه القصة وفي وجود الطيب ، لأنه منذ مات الآمر لم يظهر الى الوجود ، بل أعقب القصة الجديدة قصة وجود زوجة من زوجات الآمر حاملا ، وقصة كفالة الحافظ للمولود المنتظر

ثم ظهرت بعد ذلك بعض المؤلفات السنية والطيبية تحمل نصوصا جديدة عن الطيب ، وكلها تثبت وجوده وأنه ولد في ربيع الأول سنة ٥٢٤ ، وأنه أعلن بعد مولده وليا للعهد ، وزينت القاهرة ومصر زينة حافلة بهذه المناسبة ، وورد في كتاب « البستان الجامع » الذي نشره الأستاذ كلود كاهن نص يفيد أن الحافظ نفى هذا الطفل — بعد مقتل أبيه — أحد أتباعه « وأخذه عنده ، ولم يظهر له خبر الى الآن بموت أو غيره »[1]

وهذه النصوص تفيد أيضا أن الطيبية — أتباع الطيب — انتشروا بعد ذلك في اليمن والشام دون مصر

أصبحى الطيب اذن من انصاف — يقصد مقتل والده . . وابعد السلطة الفعلية الى

---

[1] المسألة مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٧٩ — ٨٥

انه من رجال الحصن عند هزار الملوك وبن عشي ، وحينئذ اتفق القائدان عند محمد بن عم الآمر ... في السلطة من الناحية الشكلية فقط ويكون كفيلا للمولود حتى يولد ان أتى ذكر

واختار عبد المجيد (الحافظ) هزار الملوك ليكون وزيرا له ، ولكن هذا الوضع الجديد لم يستمر غير نصف يوم ، فقد دفعت العصبية بعض الى تحريض قائد آخر له مكانته على الثورة وهذا القائد الآخر هو أبو علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه — الملقب بكتيفات — وقد ثار هذا القائد فعلا ، وثار معه بعض الجيش عقب الاحتفال بتولية هزار الملوك الوزارة ، وانتهت الثورة بالقبض على هزار الملوك وقتله

« واستقرت الوزارة لأبي علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، وكان يلقب بكتيفات ، في يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة » [1]

« واستدعى (الحافظ) الخلع لأبي علي ، فأفيضت عليه يوم الأربعاء خامس عشره ، وركب الى دار الوزارة ، والجماعة مشاة في ركابه ، فكانت وزارة هزار الملوك نصف يوم نحو نصف »

وكان أول عمل باشره أبو علي أحمد بعد توليه الوزارة أنه « أحاط بالحافظ وسجنه في خزانة فيما بين الأبواب وباب الصبح واستولى أبو علي ... على جميع ما في القصر من الأموال والذخائر »

هذا انقلاب جديد واضح المعالم كاد يضع حدا نهائيا للدولة الفاطمية الاسماعيلية ، فأبو علي قائد من قواد الجيش له مكانة خاصة في الدولة ، فهو ابن وزير وحفيد وزير ، وأبوه وجده كانت لهما السلطة الفعلية الكاملة والمكانة الأولى في الدولة أيام وزارتهما ، وقد ثار أبو علي ثورة عسكرية انتهت بقتل الوزير القائم ، والقبض على الخليفة وسجنه ، ثم توليه هو السلطة كلها دون منازع أو مشارك.

ويضاف الى هذا كله أمر هام بالغ الأهمية ، وهو أن أبا علي لم يكن اسماعيلي المذهب ، بل كان اماميا ، ولهذا بدأ باتخاذ اجراءات كثيرة تهدف كلها للقضاء على المذهب الاسماعيلي والخلافة ، والاعتراف بالمذهب الامامي ، ومعنى هذا انتهاء الدولة الفاطمية الاسماعيلية ، وقيام دولة علوية امامية ، يقول المقريزي « وكان (أبو علي) اماميا متشددا فالتف عليه الامامية ولقبوا به حتى أظهر مذهب الامامية » [1]

ومن هذه الاجراءات التي اتخذها أبو علي لاظهار مذهب الامامية أنه — رتب في الحكم أربعة قضاة ، قاضيان للشافعية ، وقاضيا للمالكية ، وقاضيا للاسماعيلية ،

---

(١) المقريزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٣٣ ب

(١) المقريزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٣٤ أ

وخاصا للامامة — وصار كل قاض يحكم بمذهبه ، ويورث بمذهبه ، وعلق المقريزي على هذا بقوله « ولم يسمع بمثل هذا في الملة الاسلامية قبل ذلك » (١)

— واسقط اسم اسماعيل بن جعفر الصادق — الذي تنسب اليه الاسماعيلية — واسم الحافظ من الخطبة

— والغى الاذان الاسماعيلي الفاطمي

— وجعل الخطبة على المنابر له وحده باعتباره « ناصر امام الحق في حالتي غيبته وحضوره ، والقائم بنصرته بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره »

— وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الامام المنتظر

حكم أبو علي أحمد اذن حكما مطلقا ، واتخذ هذه الاجراءات الكثيرة التي تهدف جميعها الى القضاء على الاسماعيلية ومذهبهم ، غير أنه ظل يشغله أمران : أمر الحافظ كبير أفراد الاسرة وولي العهد والكفيل السابق ، وأمر المولود الجديد الذي ولد للآمر

أما الحافظ ، فيبدو أنه لم يكن ذا خطر ، ولم يكن له أعوان يشدون أزره ، وقد سجنه أبو علي أحمد ، وشدد عليه الرقابة في سجنه ، وقد فكر أكثر من مرة في قتله ولكنه لم يفعل

وأما المولود فقد ظل أمره يشغل بال أبي علي أحمد ، وظل دائب البحث عنه ، وقد تضاربت الأقوال في شأن هذا المولود ، فبعض المراجع المشهورة المتداولة تشير الى أن المولود جاء بنتا ، وبهذا أمن أبو علي أحمد واطمأن ، وبعض المراجع التي لا تزال مخطوطة تشير الى أن المولود جاء ذكرا ، وأن أمه هربت على خاله خوفا عليه من الوزير أبي علي ومن الحافظ الى أن قبض عليه الحافظ فيما بعد وقتله

والرأي الثاني ذكره المقريزي في كتابه « اتعاظ الحنفا » نقلا عن الشريف محمد بن أسعد الجواني ، وهو الصحيح ، بدليل ما تذكره المراجع أيضا من أن أمر هذا المولود قد شغل بال أبي علي أحمد كثيرا أثناء السنة التي انفرد فيها بالحكم ، وأنه ظل طوال هذه السنة دائب البحث عنه ، فقد قال المقريزي في نفس المرجع « واشتد ضرره (أي ضرر أبي علي أحمد) على أهل القصر من الارجاف والابراق ، وأكثر من ازعاجهم ، والتفتيش على ولد الآمر ... » .

ولبث أبو علي أحمد يحكم مستقلا ما يزيد على السنة قليلا ولو طالت مدة حكمه لكان قد قضى على الدولة الفاطمية والمذهب الاسماعيلي نهائيا ، ولكن الاسماعيلية لم يرضوا عن حكمه ، وتكونت منهم معارضة قوية تولى [illegible] ، وظلوا يتربصون بأبي علي الفرص للقضاء عليه ، الى أن تمكنوا من قتله في المحرم سنة ٥٢٦ هـ

فقضي بذلك على أبي علي أحمد ، وقضي

(١) المقريزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٣٤

نفسه الحال على المحاولة التي جاء بها لحمل الدولة اسمه ، وعادت الدولة سيرتها كما كانت ، وعاد الحافظ بعد اطلاق سراحه الى منصب الخلافة

واعتبر هذا اليوم الذي قتل فيه ابو علي عيدا واعيد الحافظ الى الحكم يوم عيد قومي — لا للحافظ نفسه بمناسبة اطلاق سراحه واعادته للحكم — بل للدولة كلها ، وللمذهب الاسماعيلي واتباعه ، فقد كان المذهب على وشك أن يقضى عليه ، ولهذا اعتبر هذا اليوم عيدا للاسماعيلية ، وسمي « عيد النصر » ، وضم الى قائمة الاعياد الرسمية ، وظلت الدولة تحتفل به سنويا في عهد الحافظ ، وفي عهود من أتى بعده من الخلفاء الى أن دالت الدولة وزالت

ورغم تولي الحافظ الحكم فقد كانت المشكلة الشرعية المذهبية لا تزال قائمة ، فالمذهب الاسماعيلي — كما أسلفنا — لا يبيح ان يتولى الخلافة من ليس ابنا للخليفة السابق ، والحافظ ليس ابنا للآمر ، بل هو ابن عمه ، والطفل الذي ولد للآمر بعد مقتله والذي أعلنت أمه كان لا يزال موجودا ، ويبدو ان الحافظ كان يعلم بوجوده ، فلا يصح اذن أن يتولى الخلافة مع وجود الطفل ، ولهذا لم يجرؤ رجال الدولة وشيوخ المذهب على تسمية الحافظ خليفة ، بل نادوه — كما كان — وليا للعهد ، وكفيلا للطفل المنتظر ، يقول المقريزي « فاجتمع الناس ، واخذ له العهد على أنه ولي عهد كفيل لمن لم يذكر اسمه »[1]

ويؤكد هذه الحقيقة ما نعلمه من عملة ضربت في الاسكندرية في سنة ٥٢٦ هـ ، ومن المؤكد من الحوادث التاريخية أنها ضربت في المدة بين محرم وربيع الاول من هذه السنة ، تحمل اسم عبد المجيد ولقبه كولي للعهد ، ونص ما عليها « أبو الميمون عبد المجيد ، ولي عهد المسلمين »[2]

ويبدو أيضا أن الحافظ تخلص منذ تلك اللحظة بقدر جهده ، فبحث عن هذا الطفل ليتخلص منه نهائيا ، ولتخلص له الخلافة من كل شائبة ، ولم يطل بالحافظ الوقت ، فقد عثر على الطفل بعد نحو شهرين ، وحسم الأمر بقتله ، ورأى أن يعلن على الملأ توليه الخلافة ، قال المقريزي يقول في حوادث سنة ٥٢٦ هـ

« وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله ، وبويع له بيعة ثانية لعدم الحمل »[3].

واخيرا ولي الحافظ الخلافة ، وبتوليته حدث انقطاع في الفرع الفاطمي الاصيل ، فقد كان الخلفاء الفاطميون الذين حكموا قبله كلهم من نسل عبيد الله المهدي ، وكل خليفة

---

(١) المقريزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٦٣ .

(٢) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٣) المقريزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٣٥ [illegible] : تاريخ مصر ص ٧٥

منهم في تحقيقه المدني ، ونصب الحافظ نفسه بفرع جديد ، ولكن هذا التحول نحو الاستعانة نفسا جديدة ، فانصرفوا — كما أسلفنا — إلى مستعلية حافظية وهم أتباع الخلافة الفاطمية الجديدة في مصر ، ومستعلية طيبية وهم الذين تطلعوا إلى اليمن والهند .

وفي عهد الحافظ حدثت أزمة أخرى كانت معولا جديدا ساعد على تحطيم ما بقي للدولة الفاطمية من قوة ، فقد أراد الحافظ أن يتخلص من سلطة الوزراء واستبدادهم بشؤون الحكم ، كما أراد أن يمهد لاستقرار الحكم في أسرته ، فأصدر في سنة ٥٢٨ سجلا بتولية ابنه الأكبر سليمان ولاية العهد وأقامه مقام الوزير .

ولكن سليمان توفي بعد صدور هذا السجل بشهرين ، فأصدر الحافظ سجلا آخر بتولية ابنه الثاني حيدرة ولاية العهد ، فشق ذلك على أخيه حسن فقد كان أكبر أولاد الحافظ سنا بعد وفاة سليمان ، وقام حسن بثورة حربية خطيرة ، وانقسم الجيش الفاطمي نتيجة لهذه الفتنة على نفسه ، وكانت هذه الوقعة — كما يقول المقريزي — « أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها » .

وحاول الحافظ محاولات كثيرة لإخماد هذه الثورة واسترضاء ابنه حسن ، ولم يجد بدا من مداراة حسن ، فتلافى أمره عنده بأن صفح ، وكتب سجلا بولايته العهد ، وأرسله إليه ، فجرى على الناس ، فلم يزده ذلك إلا جرأة عليه ، وإفسادا له » .

ولم تخمد هذه الفتنة إلا بعد أن قتل حسن ، ولكنها كانت عاملا جديدا من عوامل إضعاف الدولة بعد انقسام الجيش على نفسه ومقتل عدد كبير من كبار قواده .

ولم تنقلب الصعوبات في هذا العصر الثاني في الداخل وحسب ، بل انبثقت فيه صعوبات أخرى في الخارج ، أحدثت الأثر في كيان الدولة وعملت على نقص أطرافها طرفا طرفا ، وقد أشرنا من قبل إلى انفصال شمال افريقيا كله ثم انقطاع الخطبة الفاطمية في الحجاز لفترة ما ، ثم انفصال جزيرة صقلية .

وقد استمرت حركة الانفصال في طريقها ففي عهد المستنصر بدأ عدوان السلاجقة يهددان أملاك الدولة في الشام ، فاستولى الأتراك السلاجقة على دمشق والأجزاء الداخلية من الشام وقطعوا الخطبة للمستنصر وخطبوا للخليفة العباسي ، وفي عهده أيضا ، في سنة ٤٩٠ تحركت الحملة الصليبية الأولى من القسطنطينية لاحتلال سواحل الشام فملكوا أنطاكية ، وفي سنة ٤٩٢ ملكوا بقية الساحل وبيت المقدس ، ولم يبق بأيدي الفاطميين غير مدينة عسقلان .

وفي عهد الآمر استولى الفرنج على عدد آخر من مدن الشام وخاصة طرابلس وبانياس وصور

وفي عهد الحافظ عظم الصليبيون الخطر في الشام وهددوا البلاد في مصر بعد أن توالت المصائب والنكبات على الدولة، وأصبح وزراء الدولة هم أصحاب السلطان الفعلي، بل إنهم أصبحوا هم الذين يختارون الخلفاء، ومن الشواهد القوية على عظم هذا النفوذ أن الصالح طلائع بن رزيك عهد إلى اختيار طفل صغير يلي الخلافة بعد موت الفائز، وهو الذي سمي فيما بعد باسم «العاضد لدين الله»، واجتمع الناس للاحتفال بتوليه وأحدثوا ضجة كبرى، فسأل طلائع عن مصدر هذه الضجة فقيل له أن الناس فرحون بالخليفة، فقال: «كأني بهؤلاء الجهلة يقولون: ما مات الأول حتى استخلف هذا، وما علموا أنني كنت من ساعة أستعرضهم استعراض الغنم»[1]

تهـــــدم الدولة

كان أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة — كما أسلفنا — هو استبداد الوزراء بشؤون الحكم، لهذا أصبح منصب الوزارة محط أنظار قواد الجيش وكبار رجال الدولة، فقامت بين بعضهم والبعض الآخر منافسات دامية في سبيل الوصول إلى هذا المنصب، وكان النزاع الذي قام بين شاور — وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين — وضرغام — صاحب الباب — هو آخر حلقة من حلقات هذه المنافسة، وقد انتهى الصراع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليه الوزارة، وفرار شاور إلى الشام.

وكانت الشام قد انسلخت من دولة الفاطميين واقتسمت ملكها قوتان[illegible] قوة نور الدين محمود بن زنكي في الداخل، وقوة الصليبيين في الساحل وفي فلسطين.

وقد لجأ شاور إلى القوة الإسلامية، إلى نور الدين، وسأله أن يرسل معه جيشاً إلى مصر يساعده في نضاله مع خصمه ضرغام، وفي إعادته إلى منصب الوزارة، وعرض أن يدفع له — مقابل هذه المساعدة — ثلث إيرادات مصر، وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة.

ورحب نور الدين بشاور واستضافه، وتردد أول الأمر في إجابته إلى مطلبه، ولكنه لم يلبث أن وافق، ففي هذه الموافقة تحقيق لخطته التي كان يهدف من ورائها إلى توحيد الجبهة الإسلامية توطئة لمقاومة الخطر الصليبي والقضاء عليه.

وأرسل نور الدين مع شاور جيشاً بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وصحب أسد الدين معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين، وقدم

---

[1] المقريزي: مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٦٥ ب. انظر الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٦٢ — ٦٣.

ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله الى مصر ، فأصابه الفزع اذ لم يكن الجيش الفاطمي في حالة تمكنه من مقاومة أو احراز النصر ، وأرسل ضرغام يستنجد بالقوة الصليبية في الشام ، فلم يفلح .

ووصل أسد الدين شيركوه الى مصر — وفي صحبته شاور — ، وانتصر على جيش ضرغام ، وتفرق عن ضرغام قواده وأعوانه ، ثم قبض عليه وقتل ، وأعيد شاور — نتيجة لهذا النصر — الى منصب الوزارة .

غير أن شاور كان من طبيعة الغدر والخيانة ، فلم يلبث أن حنث بوعده ، ورفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه ، بل طلب اليه الانسحاب بجيشه والعودة الى الشام ، وآلم شيركوه مسلك شاور ، وأبى أن يستمع له ، وعسكر بجيشه عند مدينة بلبيس ، وتحصن بأسوارها ، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل ، فلجأ الى عمورى Amalric ملك بيت المقدس الصليبي ، وأرسل يستنجد به ، ورحب عمورى بالدعوة وأسرع بالخروج بجيشه ، لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم في الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب .

اتجه عمورى بجيشه في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) نحو مصر ، وحاصر أسد الدين في بلبيس شهورا ثلاثة ، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه في مصر من خطر ، فبدأ يضغط على أملاك الصليبيين في الشام ، وهاجمهم بانياس ، مما جعل عمورى يفكر جديا في الانسحاب ، وانتهى الأمر بعقد صلح مع شيركوه بأن ينسحبا معا وفي وقت واحد من مصر .

خرجت القوات من مصر ولكن لتعود اليها ثانية وثالثة ، وكل منهما كانت تحاول في كل مرة من المرات الثلاث أن تستولى على مصر للقضاء على القوة الأخرى ، ولكن النصر كتب أخيرا وفي الحملة الثالثة لقوى نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه .

وقتل شاور لغدره وخيانته واستعانته بالصليبيين مرة بعد الأخرى ، ولم يجد العاضد من بين رجاله من يصلح للوزارة ، فاختار أسد الدين شيركوه وزيرا ، غير أن أسد الدين لم يعمر في الوزارة غير شهرين ثم مات ، فاختار العاضد ابن أخيه صلاح الدين وزيرا .

كان موقف صلاح الدين منذ ولي الوزارة موقفا غريبا ، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد الفاطمي الشيعي ، وهو في نفس الوقت قائد بجيش نور الدين صاحب الشام السني ، فهو موزع الولاء ، ومع هذا كان يتبع في سياسته ازاء الرجلين الحكمة والتؤدة .

غير أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية ، وقطع الخطبة للخليفة الفاطمي ، وجعل الخطبة للخليفة العباسي ، وكان نور الدين مدفوعا في هذا بسنيته ، وكرهه لشيعية ، ورغبته في

بحدة العاطفة العباسية الى خلفيه ، فقد كان دائم الالحاح عليه أن يقيم الخطبة في مصر ، ولكن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر ، وبعد آثار التمهل ، وأن سعد الطريق قبل أن يقدم على حركته الأخيرة فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه ، ويستعيدوا نفوذهم وسلطانهم المسلوب ، وكان صلاح الدين يخشى في هذا الشرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن يجمع هؤلاء في الثورة عليه ، يقول ابن واصل في كتابه «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » « كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وأنه لم يبق لهم منعة ، كتب الى صلاح الدين يأمره ان يقطع خطبة العاضد ويخطب للخليفة من بني العباس ، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك ، لميلهم الى العلوية ، فلم يصغ نور الدين الى قوله ، وأرسل اليه يلزمه ذلك الزاما لا فسحة فيه »[1]

وبدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره ، فأبعد هؤلاء القواد عن القاهرة واستولى على اقطاعاتهم ، ومنحها لقواده هو ، ممن يثق بولائهم واخلاصهم ، ثم ... الى نور الدين يستأذنه في أن يرسل اليه أباه نجم الدين أيوب وأهله ، فأرسلهم اليه ، وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد وناصح لابنه صلاح الدين ، فقد كان الرجل ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة

وبدأ صلاح الدين كذلك بتعميم حركة بناء المدارس في مصر ، وقد كانت الحركة من حركة انشاء المدارس منذ بداية السلاجقة وبعدهم فيها الأتابكة هي محاربة المذهب الشيعي ، والدعوة للمذهب السني وتدريسه ، وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية التي انشئت في الفسطاط لتدريس المذهب الشافعي ، ثم انشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكي ، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته ، فانتشرت مدارس أخرى كثيرة في مختلف المدن المصرية

وخطا صلاح الدين خطوة أخرى ، فعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضيا للقضاة ، فجعل القضاة في سائر الديار المصرية شافعية ، يقول ابن واصل معقبا على حركة انشاء المدارس ، وعلى حركة تحويل القضاء من المذهب الشيعي الاسماعيلي الى المذهب الشافعي « فاشتهر مذهب الشافعية وعدمت مذاهب الاسماعيلية بالكلية ، حتى ... ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به » ، ... أسرع من هذه الخطوات بدلالة على قوة هذه الخطوات التي كان يخطوها صلاح الدين في حرص وحذر

[1] ابن واصل : مفرج الكروب ، تحقيق الشيال ، ج ١

للتمهيد [illegible] الخليفة العباسي وهو الذي يقطع الخطبة للعاضد

وبعد أن تم له ذلك كله جمع أمراء جيشه يستشيرهم في أمر قطع الخطبة ، فترددوا كثيراً ، وأخيراً تقدم فقيه يدعى الأمير العالم وتطوع أن يكون هو منفذ هذه الفكرة ، وفي يوم الجمعة الأولى من المحرم سنة ٥٦٧ هـ خطب هذا الرجل ، ولم يدع للخليفة العاضد ، وإنما دعا للخليفة العباسي المستضيء بنور الله فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسي في مساجد الفسطاط والقاهرة جميعاً ، وبذلك نعى آخر خطيب في مساجد الدولة الفاطمية .

أما الخليفة العاضد فيقال إنه كان مريضاً فلما سمع بهذا النبأ اشتد به مرضه ، وتوفي في يوم عاشوراء ، أي في اليوم العاشر من المحرم من هذه السنة ، وهكذا انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان كانت مصر في خلالهما امبراطورية مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة

الدولة الأيوبيـــة

للدكتور محمد مصطفى زيادة

يعرف المؤرخ الحديث عن تاريخ الدولة الأيوبية في مصر من زاويتين متكاملتين ، وهما البيئة السياسية التي نشأت فيها هذه الدولة ، والأصل العائلي الذي نبتت منه ، وهذا التلازم يجعل العبارات الافتتاحية في قيام الأيوبيين بمصر مزيجا من هاتين الزاويتين . أما البيئة السياسية التي نشأت فيها هذه الدولة فهي الشرق الأوسط في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي . وأما أهم عناصر هذه البيئة وأوضحها أثرا في قيام الدولة الأيوبية فهي الخلافة الفاطمية التي سوف يحل الأيوبيون محلها في مصر ، ثم الخلافة العباسية التي عجزت لشدة ضعفها عن السلطنة السلجوقية المقيمة في بغداد عاصمة العباسيين ، ثم المشكلة الصليبية التي تأسست في بيت المقدس وما حولها ، ثم الدولة الزنكية التي أسسها عماد الدين زنكي ، وهي الدولة التي تستطيع أن تكون نقطة بداية تاريخية لظهور الأيوبيين .

والمؤرخ الحديث يحسن صنعا إذا هو اختار سنة من السنوات يوقت بها بداية لاستعراض أحوال هذه الدولة الزنكية ، ثم يتقدم من هذه السنة مختارة سنة بعد سنة رويدا رويدا حتى يصل تأسيس الدولة الأيوبية في مصر جملة تامة . ولتكن هذه السنة المختارة ١١٢٧ م ؛ لا لأهمية تاريخية خاصة أو عامة ، بل لصلاحية سببية معينة ، وهي أن عماد الدين زنكي أمير حلب بحكم وراثة إمارتها عن أبيه صار فيها أميرا كذلك على الموصل ، بحكم تعيينه عليها من قبل السلطان محمود السلجوقي والخليفة المسترشد العباسي ، وبذا أصبح بحكم موقعه الجغرافي أمير أقوى دولة إسلامية في غرب آسيا في زمنه . ثم جمعت الصدفة التاريخية بين زنكي والأخوين الكرديين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، والأول منهما أبو صلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الأيوبية في مصر ، وهذا هو الأصل العائلي لهذه الدولة .

ووقعت هذه الصدفة سنة ١١٣٢ م ، حين وصل زنكي إلى قرب قلعة تكريت منهزما يريد عبور نهر دجلة ، كيلا يقع بجيشه في يد أعدائه ، فساعده نجم الدين أيوب حاكم تلك القلعة على العبور ، ومن هذه المروءة نشأت صداقة بين زنكي وأيوب وشيركوه .

ثم حدث سنة ١١٣٨ م ما حمل أيوب وأخوه وأهلهم على الرحيل في شيء من السرعة بلا من تكريت ، ويقال إن ميلاد صلاح الدين يوسف تلك السنة لم يستطع أن يؤخر ذلك

الرهين ، فمما شيء فإن سبب خطير هو الذي دعا إلى انتقال الأخوين أيوب وشيركوه وأسرتيهما عن تكريت.

وذهب أيوب وشيركوه إلى زنكي بالموصل ، ودخلا في خدمته ، ولم يلبث أن شاركا في حروبه وسياسته ، وفي العمل على تكوين جبهة إسلامية قوية لإخراج الصليبيين من الشام. وفي سبيل ذلك لم يتحرج زنكي من الهجوم على مدينة دمشق سنة ١١٣٩ ، على أنه تمكن من هذا الهجوم باستيلاء قائديه أيوب وشيركوه على بعلبك التابعة للأتابكية الدمشقية ، وعين أيوب حاكما عليها. وبفضل هذين القائدين وغيرهما من رجال الدولة الزنكية استطاع زنكي أن يتقدم بمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة خطوات عسكرية واسعة ، أهمها استيلاؤه من الصليبيين على الرها سنة ١١٤٤ م. ثم توفي زنكي بعد ذلك بسنتين ، إذ اغتيل وهو على حصار حصن جعبر الواقع على نهر الفرات في الجنوب الشرقي من حلب.

ثم بعثت وفاة زنكي فرصة لبعض أمراء البلاد المفتوحة أن يستردوها من ولديه ، وهما نور الدين محمود الذي آل إليه القسم الغربي من مملكة زنكية وعاصمته حلب ، وسيف الدين غازي الذي آل إليه القسم الشرقي منها وعاصمته الموصل. ومن هذه البلاد بعلبك التي حاول الدمشقيون استرجاعها من حاكمها نجم الدين أيوب ، ولم يقو أيوب على دفعهم عنها بالقتال ، فقبل الصلح للواقع وسلم بعلبك سنة ١١٤٦ ودخل خدمة أمراء دمشق ، ثم لم يلبث أن أوغل في سياسة الأتابكية الدمشقية وحوادثها حتى أصبح القائد العام لجيوشها. أما شيركوه فاستمر بعد وفاة زنكي في خدمة ابنه نور الدين محمود بحلب ، ولم يلبث هو الآخر أن صار القائد العام في الدولة النورية. وفي سنة ١١٥٤ جهز نور الدين حملة للاستيلاء على دمشق ، تحقيقا لسياسة توحيد الجبهة الإسلامية التي ورثها عن أبيه ، وعين شيركوه لقيادة هذه الحملة. ومن ثم لم يجد شيركوه في معاونة أخيه أيوب لتسليم دمشق بالحسنى ، وانتهت مفاوضات أواخر تلك السنة بأن أصبحت الدولة النورية مسيطرة على محور عاصمته حلب إلى دمشق.

أما الأخوان أيوب وشيركوه فبلغا ذروة القوة والنفوذ بعد تسليم دمشق ، إذ عين أيوب حاكما على هذه المدينة من قبل نور الدين ، وميزه نور الدين عن سائر رجاله بإعطائه حق الجلوس في حضرته ، رعاية لسابق علاقته بأبيه زنكي ، وتعيين شيركوه نائب السلطنة بإقليم دمشق كله ، كما منح إقطاع كبير في حمص. وأما الشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب فليس لدينا من النصوص المعروفة ما يشرح تفاصيل حياته (إذا أردت موسعة محمد علي سويلم ص ٨ - ٨٤) ما عدا أنه عاش بالبلاط النوري بدمشق ،

وأنه نشأ في سنة عاشقة ، ولابد أنه قضى معظم أيامه في بعض غزوات عمه وشهدها . ويستخلص كذلك مما هو معروف من أحداث عصره أن السلطان نور الدين عين الشاب صلاح الدين ، وهو في الحادية والعشرين من عمره ؛ أي سنة ١١٦٠ م في وظيفة شحنة دمشق ، وهي وظيفة رئيس الشرطة والموكل بالأمن بها

هذه خلاصة عابرة لبعض أحوال الدولة الزنكية السورية التي نشأ فيها مؤسس الدولة الأيوبية في مصر ، ولا أقل هنا من عرض مشابه لبعض أحوال الدولة الصليبية بالشام والدولة الفاطمية بمصر ، وكلاهما ذو شأن في تأسيس الدولة الأيوبية . والمقصود بالصليبيين هنا مملكة بيت المقدس سنة ١١٥٣ م بالذات حين استولى ملكها بالدوين الثالث على ميناء عسقلان الواقعة على طريق بين الشام ومصر ، إذ ترتب على هذه الحركة الحربية قيام نور الدين بالاستيلاء على دمشق في السنة التالية كما ترتب عليها كذلك تطور السياستين السورية والصليبية إلى سباق جدي للاستيلاء على مصر من خلفاء الفاطميين

وكانت الخلافة الفاطمية في مصر وقتذاك في دور الاحتضار ، وخليفتها العاضد ألعوبة بيد وسط حزبية فاسدة ، ولا سيما بعد أن دعا شاور أحد رئيسي هذه الحزبية السلطان نور الدين لمؤازرته على خصمه ضرغام — وهو الزعيم الآخر — تلك عسكرية الأولى لمؤازرته ، وبعد جرى سباق النوري الصليبي من ثلاث حملات عسكرية صليبية ومناهضة نورية ، وأولها سنة ١١٦٤ ، وآخرها ١١٦٩ ، وسعى السلطان حين استطاع القائد شيركوه أن يخرج الصليبيين من مصر ، وأن يتخلص نهائياً من الزعيمين ضرغام وشاور ، وأن يصبح وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي . وبعد حظي شيركوه برضاء نور الدين ، ما عدا اعتلاءه الوزارة فإن نور الدين رأى في ذلك شيئاً من الضرر الخطير

وصحب شيركوه في حملاته الثلاث صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ، وشارك صلاح الدين في حروب هذه الحملات ومؤامراتها ، ودل على مهارة ملحوظة . فلما توفي شيركوه (مارس ١١٦٩) بعد ثلاثة أشهر فقط من توليه الوزارة الفاطمية ، اختار المحيطون بالخليفة العاضد بعده للوزارة لأنه منهم أن السلامة السياسية تقترح عليهم إحلال الشاب محل عمه ؛ لصغره وكذلك لحداثته وللاثون سنة ؛ باعتبار أنه أقل ضباط الجيش النوري خبرة بشئون الحرب والسياسة . غير أن صلاح الدين لم يلبث أن ألقى على رجال القصر الفاطمي درساً لم ينسوه ولم يستطيعوا نسيانه ؛ وهو أنهم يتربص له سبب تلك السنة مؤامرة بزعامة خصي نوبي اسمه مؤتمن الدولة جوهر ، والصليبيون بتلك مؤامرة لترتيب هجوم داخلي وخارجي على القوات النورية في وقت واحد . غير أن صلاح الدين علم بتفاصيل المؤامرة فقضى على عدد

وشركائه بالقاهرة وأمر بإعدامهم وأخمد حركة عصيانه بالحسن الفاطمي ، كما استطاع إجلاء أسطول صقلي بيزنطي مشترك عن دمياط وقد صلاح الدين بذلك كله على مصر خائفة في غير جبهة ، حتى فاجأه نور الدين بحركاته الحربية المتوازية ضد الصليبيين بالشام على عزمه على مساعدته ، ما دامت أهدافه تقوية مركز الدولة النورية بالقاهرة

وكان إجلاء الصليبيين عن سواحل دمياط تلك السنة نقطة تحول في تاريخ صلاح الدين ، وفي تاريخ الحملات الصليبية على مصر ذلك أن رجوع هذا الوزير العسكري من دمياط منتصراً أكسبه الخلافة الفاطمية والباقين من رجالها ، وكذلك القاهرة وأهلها بأنه يستطيع حماية الدولة من غارة المغيرين ، فضلا عن حماية مركزه من مؤامرات المتآمرين وبدأ بذلك ما عمل على بناء سلطته في قلوب الناس والعامة . وعمد صلاح الدين عندئذ الفرصة فأرسل إلى سيده نور الدين يطلب إرسال أبيه بالقدوم من أهله حتى وفد ذلك إلى مصر ، ليستعين بهم في وظائف الدولة ، فوصلوا إلى القاهرة في فبراير سنة ١١٧٠ ، وعلى رأسهم أبوه السيد الشاعر نجم الدين أيوب ، فجعله صلاح الدين على بيت المال ، كما جعل بهاء الدين قراقوش مسرور عمه سيركوه والي على القاهرة ، وأقطع إخوته وأعمامه وأولادهم الإقطاعات الفسيحة التي نموا إلى الصعيد بعد هدم ثورة عبيد بني الدولة

ويبدو من تطور الحوادث بعد ذلك أن نجم الدين جاء إلى مصر بتوجيه خاص من عند نور الدين وأن مهمته إلى جانب ابنه يوسف تضعف من حركة هذا التطور فأصبح وصوله إلى القاهرة مثلا تأسيس مدارس وكليات لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة وبدأ بدأت مناهضة فقه المذهب الشيعي ومراكزه الرسمية . ثم أخذ صلاح الدين في إزالة كثير من مظاهر المذهب الشيعي في الأذان ، كما أخذ في إضافة أسماء الخلفاء الراشدين في الخطبة ، فضلا عن الدعاء للسلطان نور الدين بعد الخليفة العاضد . ثم حدث أن مرض الخليفة العاضد فاتفق صلاح الدين مع أبيه أيوب على استغلال ذلك بقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة وإحلال اسم الخليفة العباسي محله في أحد جوامع القاهرة ، وتم ذلك في الجمعة الأولى من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١١٧١ م) وتقرر أن يعم ذلك أنحاء القاهرة في الجمعة الثانية ، لكن العاضد لم يمتد به أجله إلى هذا الميعاد ، إذ مات خلال الأسبوع الواقع بين هاتين الجمعتين ، وسقطت الدولة الفاطمية سقوطا صامتا بعد قيامها في مصر قرنين ونصف قرن من الزمان

وكان سقوط الخلافة الفاطمية في مصر أصداء كثيرة في الشرق الأدنى كله ، إذ نال الخليفة حسبى العباسي لنور الدين ... أخضعها من ... على الشام بعد في ذلك

دمشق ، ولأبيهم من الاستبداد بسلطانه في مصر ، على أن يكون نائبه فيها صلاح الدين (على شوكي ١٨ حيسون ١٩٥ بعد كرت ٣٣) أما صلاح الدين نفسه فأصبح الحاكم الأكبر في مصر ، غير أنه لم يشأ أن يظهر بمظهر المستبد بأملاك الفاطميين ، فظل مثلا في دار الوزارة ، ولم ينتقل إلى قصر الخلافة حتى لا يثير لنفسه شيئا من الظنون ، وفتح القصور الفاطمية ، لا ليستولي على ما فيها لنفسه ، بل ليوزع موجوداتها على أتباعه وأنصاره ، ويرسل لنور الدين منها هدية ضخمة . وأما أبناء البيت الفاطمي وأقاربهم فأودعهم صلاح الدين دورا مختلفة ، ومنع الاختلاط بينهم بتحديد إقامتهم

ثم عكف صلاح الدين على التمكين لنفسه نهائيا في مصر ، وضاعف من جهوده في مد سور القاهرة حتى غدا محيطا بالفسطاط والقطائع والعسكر ، وبدأ في تشييد القلعة على المرتفع الغربي من جبل المقطم ، لتكون مشرفة على جميع أجزاء هذا السور ، وأنفذ حملة إلى برقة ، وأتبعها بحملة ثانية إلى ... لتأمين الدولة التي أرسى القواعد في مصر وتقويتها عسكريا واقتصاديا ، ولم يشأ أن ينتظر قدوم نور الدين إلى فلسطين ، بل عمل ... في مصر ... لنفسه

وبدأ الشك يساور نور الدين بسبب هذه الحملات الداخلية والخارجية ، وشاع في الأوساط الصديقة والمعادية للأيوبيين في القاهرة ودمشق وحلب أن نور الدين يوشك أن يسير إلى مصر على رأس حملة كبيرة يؤكد بها سلطته على مصر وصلاح الدين للدولة النورية أو لهجوم على صلاح الدين ، وتسببت هذه الإشاعة بحيث جمع بالقاهرة أبناء البيت الأيوبي وأقاربهم وخواصهم ، وأوردها المؤرخ المقريزي مختصرا بما دار في ذلك المجلس ، وفيه دلالات على ما جاء في تكوين الجماعات الأيوبية من مختلف البيئات المعاصرة على تكوين دولة للبيت الأيوبي في مصر أو في غيرها من بلاد الشرق الأوسط . وهو على أية حال يشرح نظرية المقريزي في تكوين الدولة الأيوبية ، وبعد ... وفيها ابتداء الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين وعزم (نور الدين) على دخول مصر وخلع صلاح الدين ، فلما سمع ذلك صلاح الدين ، جمع أهله وخواصه واستشارهم ، فقال تقي الدين عمر بن أخيه : « إذا جاء (نور الدين) قاتلناه كلنا ، وصددناه عن البلاد » ووافقه جماعة من أهله على ذلك ، فسبهم نجم الدين أيوب ، وأنكر عليهم ، وكان ذا رأي ومكر وقال لابن ابنه تقي الدين : « اقعد » ، وسبه والتفت إلى ولده صلاح الدين ، وقال « أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين الحارمي خالك ، أتظن في هؤلاء من يحبك ويريد الخير لك أكثر منا ؟ قال : « لا » ، فقال : نحن ... والله لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ، ونقبل ...

الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فإذا كنا نحن هكذا ، فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى السلطان وحده لم يتجاسر على الثبات في سرجه ، وما يسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه . وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائباً عنه . فإن أراد عزلك فأي حاجة إلى المجيء ؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ، ويولي البلاد من يريد » وقال للجماعة كلهم : « قوموا عنا ، فنحن مماليك السلطان نور الدين وعبيده ، يفعل بنا ما يريد » . فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بهذا الخبر . ثم إن نجم الدين خلا بابنه صلاح الدين وقال له : « أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير ، وتطلعهم على ما في نفسك فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم أموره وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر ، وأسلموك إليه . وأما بعد هذا المجلس فإنهم سيكتبون إليه بقولي ، فاكتب أنت إليه في هذا المعنى ، وقل له أي حاجة إلى قصدي ؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي ، فإنه إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله عز وجل كل يوم هو في شأن » . ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه ، فانخدع نور الدين وعدل عن قصده ، و تدرجت الأيام كما قال نجم الدين .

غير أنه يبدو أن صلاح الدين لم يطمئن إلى هذا الموقف تماماً ، فعمد إلى تثبيت شتى مراكزه داخلياً وخارجياً ، على سبيل تعويض هذه التحسبات عن عسكره في الانسحاب عن مصر إلى غيرها من البلاد المجاورة . لذا أعد مشروعات لتكوين دولة أيوبية في القاهرة ، مثال ذلك تفكيره في غزو بلاد النوبة وإرساله حملة كبيرة إلى تلك البلاد بقيادة توران شاه وهو أكبر إخوته . وسار توران شاه إلى أسوان أواخر ١١٧٢ ، وزحف جنوباً حتى استولى على أبريم ، ثم عاد إلى مصر بعد أن وجد أن تلك البلاد لا تصلح للأغراض التي يبتغيها صلاح الدين . ومثال ذلك تقرير صلاح الدين إرسال حملة بقيادة أخيه توران شاه أيضاً لمحاولة فتح اليمن ، حيث تكللت هذه المحاولة بالنجاح أواخر سنة ١١٧٣ . وأما من الناحية الداخلية فإن صلاح الدين استطاع أن يهدم مؤامرة ثانية لإعادة الدولة الفاطمية ، إذ قضى على هذه المؤامرة وهي في مهدها ، إذ قبض على زعمائها ورئيسهم عمارة اليمني واستفتى الفقهاء فيهم فأفتوا بقتلهم ، فصلبهم جميعاً في أبريل سنة ١١٧٤ . وفي الشهر التالي توفي نور الدين و تدرجت الأيام ، كما قال نجم الدين أيوب الذي كانت وفاته في السنة السابقة لوفاة نور الدين .

على أن القدر لم يسمح بذلك حائلاً بينه وبين صلاح الدين ، وبذلك لم تمض تساؤلاته بمصر مباشرة ، بل عمد أولاً إلى معالجة الموقف

انقضى نحو شهر على وفاة نور الدين ، وقدم بعده الطفل إسماعيل في المملكة النورية الممتدة بين دمشق وحلب . ثم كان هناك سيف الدين غازي صاحب الموصل ، وهو ابن أخي نور الدين ، ولابد صلاح الدين أن يحسب له حسابه وهذا فضلا عن صاحب السلاجقة بالروم وأي أمير أمير أيوبي ، وهو قليج أرسلان الثاني . على أن صلاح الدين لم ير في هذا أو ذاك ندا له أو منافسا أو بديلا ، إذ لم يدب عنده أنه هو الوارث الكفء لمشروع نور الدين وسياسته في تكوين جبهة إسلامية متحدة لمجاهدة الصليبيين ، وأنه هو الذي يستطيع النهوض بذلك العبء المزدوج .

وبدأ صلاح الدين عمله في سبيل تكوين جبهة إسلامية متحدة بالشام ، حيث كان المتحكمون بالطفل إسماعيل بن نور الدين حزبين ، أحدهما دمشقي يريد أن تكون دمشق عاصمة المملكة النورية ، ولتكون إقامة الملك الطفل إسماعيل بها ، وثانيهما حلبي يريد أن تظل حلب عاصمة للمملكة النورية كما كانت منذ نشأتها . وتغلب الحلبيون بمساعدة الصليبيين ، واستنجد الدمشقيون بصلاح الدين ، فقدم إليهم بفرقة قليلة من الجند ، وأعلن أنه قد جاء لمناصرة الملك الطفل ، ودخل دمشق في نوفمبر سنة ١١٧٤ ، وذهب منها إلى حمص ثم حماة ثم حلب ، حيث كان الملك الطفل مقيما . غير أن مدينة حلب أغلقت أبوابها في وجه صلاح الدين ، فحاصرها حصارا

قصيرا ، ثم ارتد عنها فاتحا مؤقتا حولها الشام له من عدا حلب . وحينئذ تحرك سيف الدين غازي صاحب الموصل ، إذ لم يكن من الخطر منه أن يقف صامتا ، على حين صلاح الدين يعمل على أن يعمل لمصلحته تحت الصمت . وبعث سيف الدين غازي جيشه إلى حلب لمؤازرة الحلبيين فيما سوف يقومون به من حركات لمقاومة صلاح الدين ، وانضمت هذه الحملة إلى الجند الحلبي ، والتقت بجيش صلاح الدين قرب حماة عند بلدة اسمها قرون حماة في أبريل سنة ١١٧٥ . وأعقب صلاح الدين انتصاره هناك بانتصار آخر على القوات الحليفة المرصفة في أبريل من السنة التالية (١١٧٦) عند بلدة اسمها تل السلطان ، ودخل مدينة حلب وعقد مع الملك إسماعيل بن نور الدين صلحا تم فيه الاعتراف بشرعية سلطة صلاح الدين على جميع ما بيده من البلاد التي امتدت وقتذاك من مصر إلى قرب أطراف الفرات .

وبعد هذه السنة (أي ١١٧٦ م) غدا صلاح الدين ملكا مستقلا بمصر والشام إذ شهدت تلك معاهدة الصلح بينه وبين الملك إسماعيل بن نور الدين ، كما سبقتها به توقيعات وصلت إليه من عند الخليفة العباسي ، وهذه تضمنت فضلا عن ذلك العقود الذهبية والفضية والنحاسية باسم صلاح الدين بمصر والشام . وانصرف صلاح الدين منذ السنوات التالية حتى سنة ١١٨٢ إلى أعمال

داخلية ، ومنها بداية بناء القلعة وتكميل السور المحيط بالقاهرة والإسلامية من العواصم الإسلامية ، وتجديد بعض تحصينات دمياط والإسكندرية وتدعيم الأسطول بالمساكن سفن جديدة. ومن أعمال صلاح الدين في تلك السنوات كذلك تأسيس المدارس — أي كليات التخصص في علوم الدين على المذهب السني — لمقاومة الشيعة التي كونت بمصر على أيدي الفاطميين ، ومن هذه مدرسة الإمام الشافعي والناصرية والقمحية والسيفية بالقاهرة والفسطاط ، والحافظية والسلفية بالإسكندرية ، وبعض هذه المدارس يرجع أصله إلى ما قبل أيام صلاح الدين. على أن هذه السنوات التي صرف صلاح الدين معظمها في أعمال سلمية داخلية لم تخل من أعمال عسكرية وسياسية أهمها تلك اصطدامه بقوى مملكة بيت المقدس الصليبية بقيادة أرناط أمير الكرك و بهزيمته أمام تلك القوى عند الرملة سنة ١١٧٧ ، مما كان بمثابة درس نافع للمستقبل. ويبدو أن هذه الصدمة أجنحت صلاح الدين إلى فكرة مهادنة الصليبيين مؤقتا ، بدليل عقده سنة ١١٨٠ هدنة لمدة سنتين مع مملكة بيت المقدس ، وعقده هدنة مشابهة في أواخر تلك السنة مع قلج أرسلان ملك السلاجقة بالروم ، وأمراء الموصل والجزيرة وأربل وكيفا وماردين وكانت هذه الهدنة الثانية على سبيل ما وصل إليه صلاح الدين من مكانة بالشرق الأوسط ولما يمض على استقلاله بمصر والشام سوى بضع سنين.

ثم توفي سيف الدين غازي أمير الموصل في أواسط سنة ٨١ وتوفي بعده إسماعيل ابن نور الدين في ديسمبر من تلك السنة ، فاضطربت شروط الهدنة القائمة بين صلاح الدين والأمراء المسلمين حين تنبه بعض أولئك الأمراء إلى مفاوضة الصليبيين ليكونوا يدا واحدة على منع صلاح الدين من الاستيلاء على الموصل أو حلب. ووجد صلاح الدين من هذه المفاوضات سببا للزحف من القاهرة في مايو سنة ١١٨٢ بعد استعداد على جميع أنواع المقاومة ضده تمهيدا لإعلان الجهاد ضد الصليبيين. على أنه لم يشأ أن يكون البادئ بالعدوان ، احتراما للهدنة المعقودة ، فظل بدمشق حتى انتهى أجل هذه الهدنة في سبتمبر من تلك السنة ، ثم تحرك منها نحو الفرات ، فعبره عند مدينة بيرة وكانت تتابعت انتصارات صلاح الدين في الأراضي الفراتية إذ سقطت في يده الرها وسروج والرقة وقرقيسيا ونصيبين وتقدم صلاح الدين أخيرا نحو الموصل في نوفمبر من السنة نفسها ، لكنها استعصت عليه ففضل الاستيلاء على غيرها من المدن مثل سنجار وآمد ، وما زال يعمل في تلك الأطراف حتى سقطت في يده حلب في يونية من السنة التالية.

وأصبح صلاح الدين بعد تسليم حلب أقوى دولة مسلمة في الشرق الأوسط ، وأحس هو نفسه بأهمية هذا المركز ، بدليل قوله للمحيطين به وهو صاعد في القلعة الحلبية ما سرب فتح مدينة كسروري فتح

هـذه مدينة ، والآن قد صار أبي شامة أستاذه ، وعسى أن يمكن قد استسعر ولب ».

والواقع أن دولة صلاح الدين بعد سنين قليلة أضحت من حيث القوة والسعة والمنعة الحربية أعظم دولة في الشرق الأوسط كله ، كما أضحى شخصه موضع التبجيل العميق ، ومصداق ذلك قول ابن جبير في مذكراته بصدد صلاة الجمعة أن الحجاج حين سمعوا دعاء الخطيب لصلاح الدين قد رفعت أصوات بعضهم بالتأمين بعثتها القلوب الخاشعة والنيات الصادقة ، وتخال الألسنة تنطق عما يدين القلوب لما وهب الله لهذا السلطان العادل « صلاح الدين » من الثناء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس ». وليس عجيبا أن يشعر صلاح الدين بعد أن صارت له كل هذه التوفيقات أن واجبه أضحى يتركز في الجهاد ضد الصليبيين ، وإذا كان ثمة ما يمنعه من الإقدام بكلية نفسه على الجهاد حتى ذلك الوقت الموصل وبعض البلاد المجاورة خارجة عن دولته ، فإن صلاح الدين سار لاخضاع هذه البقايا سنة ١١٨٥ ، وفي تلك السنة التالية حتى دخل أمراء الموصل وشهرزور واربل وغيرها في طاعته ، ولم يبق أمامه من كردستان إلى السودان سوى مملكة الصليبيين وغيرها من الإمارات الصليبية الصغرى.

وكان صلاح الدين عقد هدنة مع الفرنج والصليبيين في الأوضاع الصليبية ، وذاق مرارة الهزيمة على أيديهم في موقعة الرملة سنة ١١٧٧ ، كما ذاق حلاوة النصر عليهم في موقعة مرج عيون سنة ١١٧٩ ، على أن صلاح الدين لم يلبث أن يجعل مشروع توحيد الجبهة الإسلامية مرهونا بما تأتي به الحوادث من حربه مع الصليبيين في ميدان ... الصليبيين وبعد قضى الأعراف إلى شئون توحيد الجبهة الإسلامية ، وجنح سنة ١١٨٠ إلى مهادنة مملكة بيت المقدس مؤقتا مدة سنتين ، غير أن عدوا صليبيا أفسد جو الهدنة ، وهو أرناط أمير حصن الكرك ، إذ صمم هذا الأمير في أوائل سنة ١١٨٣ إلى القيام بحملة بحرية من خليج العقبة للإغارة على شواطئ البحر الأحمر ، تمهيدا للزحف على المدينة أو مكة ، وأرسل العادل أخو صلاح الدين ، وهو وقتذاك والي مصر أسطولا مصريا لتعقب السفن الصليبية حتى اشتبكت معها في مياه الحوراء شمالي ينبع ، وألحقت بها وبجنودها هزيمة فادحة ، حدث كل ذلك وصلاح الدين مشغول بأعمال توحيد الجبهة الإسلامية مرهونا بما تأتي به الحوادث من الصليبيين مدة أربع سنوات تبدأ من ١١٨٥ ، والمرة الثانية كان أرناط أمير حصن الكرك سببا في إفساد جو الهدنة القائمة بين الطرفين ، وذلك أنه هاجم قافلة تجارية سمينة وهي تمر على مقربة من حصن الكرك سنة ١١٨٧ فاستولى على متاجرها ، وكانت أخت لصلاح الدين كانت على سفر مع تلك القافلة على ما قيل ، وقد أقسم صلاح الدين أن يقتل أرناط إذا وقع في يده يوما من الأيام ، وعلى أثر حادثة القافلة ... الهدنة ...

العدوان ، وأسرع في عقد الحشد من مصر والشام والبلاد العراقية . وخرج صلاح الدين من دمشق في مارس سنة ١١٨٧ م مستعداً للقتال ، فعسكر عند عشترى جنوبي نهر اليرموك ، حيث انضمت إليه حشود مختلف البلاد ، واستقر الرأي بين أرباب مشورته على السير نحو طبرية ، لتهيئة الزحف منها نحو صفورية حيث تجمعت عساكر مملكة بيت المقدس ، وهي قرية في منتصف الطريق بين طبرية وعكا . على أن الاصطدام وقع أخيراً بين الفريقين عند قرية حطين وهي في منتصف الطريق تقريباً بين طبرية وصفورية ، وذلك في يوم السبت ٤ يوليه سنة ١١٨٧ م ، وأسفر ذلك الاصطدام عن هزيمة صليبية فادحة ، ذهب فيها معظم جيش مملكة بيت المقدس ، فضلا عن جيوش الإمارات الصليبية التي اشتركت في المعركة ، كما وقع فيها ملك بيت المقدس وأرناط أمير الكرك ، وغيرهما أسرى في يد صلاح الدين .

وهكذا كانت هزيمة الصليبيين عند حطين بداية النهاية لمملكة بيت المقدس في فلسطين ويكفي برهاناً على ذلك تسجيل خطوات صلاح الدين بعد يوم هذه الواقعة ، ففي اليوم التالي عاد صلاح الدين إلى طبرية ، فسلمت إليه قلعتها من غير مقاومة ، وهي التي استعصت عليه بعد استيلائه على طبرية نفسها قبل حطين . ثم وجه صلاح الدين هجمات حاسمة نحو بلاد الساحل ، فتمتع بالاستيلاء عليها بعد عشرة أيام من معركة أورية مملكة بيت المقدس ، فضلا عن أنه يصل ما بين مصر والشام . وكان أقرب هذه البلاد من مواقع صلاح الدين وعملياته مدينة عكا ، فسلمت له في ١٠ يوليه ، وكانت شروط التسليم أن يرحل الصليبيون عن المدينة إذا شاءوا ، أو يقيموا حيث هم بشرط دفع الجزية المقررة ، فمن شاء الرحيل صادرت عليه أملاكه الثابتة ، ومن شاء البقاء حفظت أملاكه في يده . وأسرع إلى التسليم بعد هذه الشروط معظم مدن الساحل شمالي عكا وجنوبها ، فضلا عن كثير من المدن الداخلية بما في ذلك مدينة بيت المقدس نفسها التي كان تسليمها بعد حصار قصير ، وكل ذلك في مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر من وقعة حطين . والواقع أنه لم يأت سنة ١١٨٩ م حتى سقطت معظم المدن الصليبية في يد صلاح الدين ، ولم يبق في حيازة الصليبيين سوى إمارتي أنطاكية وطرابلس وبعض المدن الساحلية ، وأهمها صور التي نجحت في مقاومة الحصار بفضل مركيز ، بسبب ما اجتمع بها من جاليات المدن التي استولى عليها صلاح الدين ، ووصول حملة صليبية صغيرة إليها وقتذاك .

ومن صور انبعثت المقاومة ضد صلاح الدين ، فمنها سارت رسل إلى أوربا تستنهض ملوكها لتنظيم الحملة المعروفة باسم الحملة الصليبية الثالثة ، ومنها تحركت القوات الصليبية نحو عكا لمحاصرتها أملاً في استعادتها من صلاح الدين ، فحوصرت عكا منذ أغسطس ١١٨٩ م ، فحدثت حينئذ حرب

نصف دائرة حول عكا ومركزها خيمة أيوبية بجانب تل عياضية ، وعندئذ تقوت الحملة بجانبها صلاح الدين بجيشه عليها حصارها للحامية الأيوبية المركزية ، ثم لم تلبث الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة أن وصلت كذلك الى عكا بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وانضمت السفن والجنود الانجليزية والفرنسية الى القوات الصليبية المحاصرة ، وشددت على عكا الحصار من ناحيتي البر والبحر حتى سقطت في يدها بعد حصار طويل حتى أواسط ١١٩١ (يولية) أي مدة سنتين مريرتين تخللتهما حوادث بطولية حقيقية وقصصية ، وكثير منها يدور حول صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد .

ثم رحل فيليب أغسطس ملك فرنسا الى الشرق الى بلاده بعد سقوط عكا ، على حين بقي ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا سنة كاملة بالشام ، رحل من عكا قاصدا لاستعادة مملكة بيت المقدس . وفي هذه المدة استطاع ريتشارد أن ينتصر على صلاح الدين مرة واحدة في أرسوف ، وأن يستولي على يافا ، غير أنه أخفق في جميع محاولاته للزحف ضد بيت المقدس . ولم تغير أعماله الحربية كلها شيئا من مجرى الحوادث . لأن ما أحدثه صلاح الدين بالصليبيين كالطلب بمجهود لا تستطيع حملة واحدة أو شخصا واحدا أن يمحوه في بضعة أشهر ، ومن ثم نص على دب أن مثل ريتشارد عقد بعد مفاوضة في رسوف مثيرة الى فكرة المفاوضة والمصالحة ، ليصل الى تسوية مرضية تحفظ يمكن معه دولة صغيرة وراءه بالشرق الى جانب دولة صلاح الدين . وتمخضت هذه المفاوضات بعقد صلح الرملة (سبتمبر سنة ١١٩٢) الذي اتفق فيه الطرفان على أن تظل مدن الساحلية بين عكا ويافا بيد الصليبيين ، وأن يؤذن للحجاج المسيحيين بزيارة بيت المقدس على شرط دخولهم من عكا .

ويتضح من هذا الصلح أن صلاح الدين حقق في عهده أقصى ما تطلعت اليه أجيال المسلمين بالشرق الأوسط ، منذ بدء حروب الصليبيين بفلسطين ، وأحس صلاح الدين وهو في أوج مجده أن مهمته انتهت فعلا ، غير أن الحروب والجهود التي بذلها من أجل ذلك أنهكت صحته فأصابه المرض ، وتوفي بدمشق (مارس ١١٩٣) ، ولما يبلغ من العمر سوى خمس وخمسين سنة ، وقبره على مسافة يسيرة من قبر أستاذه نور الدين في دمشق ، ومن الجامع الأموي .

والباحث لا يستطيع الا أن يشعر بالفراغ الكبير الذي أحدثته وفاة صلاح الدين ، ومما يزيد في هذا الشعور أن الدولة الأيوبية المتحدة جرى عليها بعد صلاح الدين ما جرى على أمثالها في العصور الوسطى من تقسيم بين أفراد البيت الأيوبي ، اذ قسم صلاح الدين دولته في وصيته بين أولاده وأخوته وأولادهم . غير أنه لم يمض سبع سنوات على وفاة صلاح الدين حتى حوى أخوه

الأكبر وهو العادل هذه الوصية ، وملأ هو الفراغ الذي أحدثته وفاة صلاح الدين ، وحدث بعد أن أخضع لسلطانه جميع أبناء البيت الأيوبي ، ووحد معظم أملاكهم تحت يده . وأعلن العادل موقفه هذا سنة ١٢٠٠ ، حين حقق الخطوة النهائية في سبيل توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى ، بخلع حفيد صبي من أحفاد صلاح الدين بالقاهرة ، إذ قال في مجلس من أمراء الدولة « إنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي ، مع الشيخوخة والتقدم والملك ليس هو بالإرث ، وإنما هو لمن غلب . وأرى أن يمضي هذا الصبي إلى الكتاب وأقيم له من يؤدبه ويعلمه ، فإذا تأهل وبلغ أشده نظرت في أمره وقمت بمصالحه »

وامتد عهد العادل في الدولة الأيوبية ثماني عشرة سنة (١٢٠٠ — ١٢١٨) وظلت السلطنة بيد أولاده دون غيرهم من أبناء البيت الأيوبي ، وبينما كان تاريخ الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين ، ثم بعد العادل كذلك ، سلسلة من المنازعات الداخلية حتى نهاية الدولة الأيوبية المتحدة سنة ١٢٥٠ وتأثرت بهذه المنازعات ناحية سياسة الدولة الأيوبية نحو الصليبيين ، فلم يستطع سلاطينها القيام بجهود مشابهة لما قام به صلاح الدين ، بل قصروا في سياستهم المسالمة رغبة في تجنيب البلاد ويلات الحروب .

وفي هذه السنوات تحول النشاط الصليبي نحو مشروع الاستيلاء على مصر بالذات ، إذ اعتقدت الزعامات الصليبية في أوربا والشرق أنه لا فائدة من محاربة القوى الإسلامية بالشام ، ما دامت السلطنة الأيوبية قائمة بمصر . وشجعهم على ذلك المدن التجارية الإيطالية على تنفيذ هذا المشروع ، لأن الاستيلاء الصليبي على مصر سوف يمكن لهذه المدن من الحصول على امتيازات تجارية بها بالموانئ المصرية ، على غرار ما تم لها بالمدن الفلسطينية وسوف يفتح لها الطريق إلى البحر الأحمر ومراكز التجارة الشرقية .

ووافق هذا التحول في النشاط الصليبي دعوة البابا إنوسنت الثالث ١٢١٦ م لإعداد مشروع حملة صليبية هي المعروفة بالخامسة . وبدأ تنفيذ هذا المشروع سنة ١٢١٨ م بوصول أسطول صليبي كبير والبدء بالحصار على دمياط . وأسرع السلطان العادل بالقدوم من شمال الشام إلى مصر لمنع هذه الحملة الصليبية ، لكنه توفي في الطريق قريبا من دمشق ، وأعقب وفاته تقسيم الدولة الأيوبية مرة أخرى بين أفراد البيت الأيوبي ، وكانت مصر من نصيب ابنه محمد الملقب بالملك الكامل ، فوقع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية .

واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط ، ومع هذا أظهر السلطان الكامل روح التسامح التي سار عليها الأيوبيون عموما نحو الصليبيين منذ أوائل ما قام به العادل ، فعمد إلى مصالحة المملكة الصليبية الراغبة سحب جنودها في دمياط ، وعرض مفاوضة ومصالحة مع المحافظة على كرامة الطرفين . وخلاصة ما عرض السلطان الكامل أن

بخروج الصليبيين عن دمياط والسواحل المصرية جلاء تاماً ، ولا تعدم السلطان الكامل مقابل ذلك مدينة بيت المقدس ، ويطلق سراح الأسرى الذين أخذتهم منهم صلاح الدين ، أي سمكنه بيت المقدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وبلاد الشام كلها تقريبا ، ما عدا مدنهم عمروبي والحصون والأجزاء الحربية الصليبية ، وهب الكرك والشوبك لما لهما من أهمية استراتيجية . غير أن الصليبيين رفضوا هذا العرض السخي ، ولو كان الرأي لهم لما ترددوا في قبوله ، بعد أن وضح لهم أن السلطان الكامل ينزل لهم عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن المتعلقة بأصحاب المملكة الصليبية . أما الأسباب التي دعت إلى رفض عرض السلطان فهي أن مندوب البابوية في المعسكر الصليبي ونعني بلاجيوس رأى أن المفاوضة لا تكون إلا بعد هزيمة الأيوبيين ، وأن المفاوضة لا تكون إلا بعد دفع فدية يدفعها الصليبيون قبل أن يتحركوا من دمياط . ثم إن المدن الإيطالية التي اشتركت في هذه الحملة بجنودها وأموالها وأساطيلها عز عليها أن تكون هذه شروط الصلح متجاهلا من دمياط ... وهذا الثغر التجاري الهام الذي ... الجمهوريات الإيطالية أن ... منه إلى جوف البلاد المصرية .

وفي صيف سنة ١٢٢١ م . والسبيل على ... للاستيلاء على القصبات السفلى ... الصليبيون من ... جيشهم الضخم عند ...

... الأيوبي عند ... ، توقف ... مواجهة بالمنصورة في ... لاستعداد ... تقدم الأيوبيين في الوقت ... أنهم عن الطريق إلى القاهرة غير أن السلطان الكامل أمر بفتح كثير من السدود والجسور ، فغرقت مساحات شاسعة من الأراضي ، وتم ... الصليبيون أن وجدوا المياه تعوقهم عن التقدم إلى الأمام ، وتعزلهم عن قاعدتهم العسكرية بدمياط ، ما عدا طريقا ضيقا عند بلدة أشموم طناح ، هكذا انحصر الصليبيون ، وذهبت آمالهم في الزحف جنوبا نحو القاهرة ، ولم يبق لهم مخلص إلا أن يشقوا لأنفسهم طريقا شمالا نحو قاعدتهم في دمياط ، واغتنم فرصة انسحاب الصليبيين في حيرة الظلام ... وعسكر بينهم وبين مقصودهم وقطع طريقهم ... بعد ذلك — وليس قبله — رضي الصليبيون بالجلاء التام عن الأراضي المصرية في نوفمبر ... أو أواخر سنة ١٢٢١ .

على أن فكرة معالجة مشكلة الصليبية بالمفاوضة والمصالحة لقيت قبولا في نفس الإمبراطور فردريك الثاني ... ونفس السلطان الكامل ... انتهى الأمر إلى مرحلة الاتفاق على معاهدة ... الطرفين ... الإمبراطور ... وعرضت إلى السلطان على ... مرة من ...

سنة ١٢٢٩ ، ولم تكن هذه المعاهدة الفريدة في تاريخ العصور الوسطى . وبمقتضى هذه المعاهدة على أن يسلم السلطان الكامل مدينة بيت المقدس للامبراطور فردريك خاصة ، بعد الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرة وطريق يمتد من عكا الى بيت المقدس ، على أن تظل منطقة المسجد الأقصى فضلا عن بعض الجهات الصليبية بيد الأيوبيين . وتعهد الامبراطور فردريك الثاني مقابل ذلك بأن يعمل على منع أية حملة صليبية من أوربا ، وأن يوقف الامداد الاوربية عن الامارات الصليبية بانطاكية وطرابلس ، وأن يكون حليفا للسلطان الكامل . غير أن هذه المعاهدة الكاملية الفردريكية لقيت نقدا مريرا في الأوساط المسيحية الأوربية ، فضلا عن الأوساط الاسلامية في مصر والشام ، مع العلم بأنها ضمنت السلام بين المسلمين والصليبيين عشر سنين . ومن الدليل على ذلك أن حركة أو حملة صليبية كبرى لم تحدث رغم ما نشر من أخبار النزاع والتخاصم فيما بين أمراء البيت الأيوبي بمصر والشام ، ورغم وفاة السلطان الكامل سنة ١٢٣٨ ، واضطراب عرش الدولة الأيوبية بعده للملك العادل الثاني بن الكامل وهو الذي خلعه أخوه الملك الصالح بن الكامل سنة ١٢٤٠ .

في أن هدوء الأفق السياسي لم يستتب مدة كبيرة ، ولم تمكن معاهدة سلام عام ١٢٢٩ في الشرق الأوسط ، وذلك بسبب عيوب هامة بها تخصص وقتذاك في أطراف غرب آسيا حيث الدولة الخوارزمية ، ولم تلبث أن سقطت هذه الدولة على يد المغول الذين حطموا جيوشها فلولا وعناصر مشردة تحارب الى جانب الأمراء في خدمة أي غني في بلدانها ، كما صار الشرق الأوسط كله عرضة لما سوف تقوم به تلك الفلول من جرائم آجلا أو عاجلا عواقبه المتمثلة في حركتهم التوسعية المتزايدة . وأدخل الملك الصالح أيوب بن الكامل من هذه الفلول الخوارزمية فرقة عدتها عشرة آلاف فارس ، ووجهت هذه الفلول الى الشام ، فهاجمت ضواحي دمشق المعادية ، كما هاجمت مدينة بيت المقدس الصليبية واحتلتها باسم الملك الصالح سنة ١٢٤٤ ، وهكذا اختل التوازن السياسي اختلالا أقلق الدوائر الصليبية في أوربا والشرق الأوسط من جديد .

ومن باب الأمل في تصحيح التوازن السياسي لصالحها صليبيا هاجم فرنسا الى الشواطئ المصرية حملة صليبية فرنسية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وألفت هذه الحملة فرنسية كما فعلت الحملة الصليبية الخامسة خارج دمياط ، وكان رأي الملك لويس التاسع بذلك أن يبدأ بهذه البداية من تجارب الحملة السابقة على حين أنه وقع في معظم أخطائها الى جانب صحف الكامل مصمم على استعمال ... مشابهة في التصميم .

وكان الملك الصالح بن الكامل مريضا لكنه لم يستسلم للمرض بل عكف على تحصين

قواته في البر والبحر ، فحشد جيوشه أولا عند بلدة أشموم طناح جنوبي البحر الصغير ، وكان معظمها من المماليك الأتراك ، وجعل مركز قيادته في بلدة المنصورة التي شيدها منصورة بانتصار أبيه الكامل على الصليبيين في الحملة السابقة. وأكثر الملك الصالح في تموين دمياط بالأسلحة والأقوات استعدادا لما عساه يقع عليها من هجوم أو حصار يتطلب مقاومة طويلة ، وأنفذ القائد فخر الدين بن حمويه بجيش من الجيش ليعسكر على البر الغربي قبالة دمياط نفسها على البر الآخر. غير أن القائد فخر الدين كان مشغولا بفكرة احتمال وفاة الملك الصالح ، وضرورة وجوده هو قريبا من المعسكر الأيوبي ليشترك في المؤامرات والمناقشات التي تتلو أخبار الوفاة ، فانسحب بعسكره إلى أشموم طناح ، وباتت مدينة دمياط محرومة من الجيش المكلف بحراستها ، ولم تلبث أن رحل عنها أهلها جافلين. وبذا دخل الصليبيون دمياط دون حاجة إلى قتال أو حصار ، واستولوا على ما فيها غنيمة باردة.

ثم استقر الرأي الصليبي على الزحف جنوبا نحو المنصورة ، وخرجت الجيوش الصليبية من دمياط في نوفمبر ١٢٤٩. وبينما الصليبيون في أول زحفهم جنوبا توفي الملك الصالح ، فتراءى لقادة لويس التاسع أن القدر [illegible] كتب للصليبيين نصرا [illegible] [illegible] الأخبار عن [illegible] [illegible] الصالح [illegible] الحظ على صعوبة

الدولة ، ثم حضر توران شاه من الشرق إلى مصر ، فاضطر الصليبيون إلى [illegible] النهر الذي [illegible] [illegible] واضطر [illegible] ملك الفرنسيين أن يصل بالجيش الصليبي الرئيسي إلى جهة البرمون الواقعة على البحر الصغير ، وأصبح هذا البحر فاصلا بين المعسكر الأيوبي الممتد من أشموم طناح إلى قرية جديلة وسط المنصورة وبين المعسكر الصليبي المتركز في البرمون وتناوش الجيشان من هذين الموقعين مدة شهرين ونصف شهر — أي حتى أواخر يناير سنة ١٢٥٠. وكان الملك الفرنسي في هذه الأثناء مشغولا بإقامة جسر من الخشب في عرض البحر الصغير يعبر منه إلى المعسكر المصري الأيوبي ، غير أن هذا المشروع [illegible] التنفيذ ، وتوقف العمل فيه بعد أن جاء أحد الخونة إلى المعسكر الصليبي وأرشد الملك إلى مخاضة يعبر خيالته منها إلى مواقع الجيش الأيوبي. وعبرت الطلائع الصليبية ذات يوم قبل الفجر بقيادة أخي الملك ، وانقضت على [illegible] فجأة على المعسكر الأيوبي في جديلة ، واشتبك الفريقان اشتباكا عاما مات القائد فخر الدين قتيلا في أوائله وانهزمت الجنود الأيوبية إلى المعسكر الرئيسي بالمنصورة ، ووراءها الطلائع الصليبية ، وظن أخو الملك الفرنسي أن النصر الصليبي السريع أصبح مضمونا أو أدنى [illegible] غير أنه لم يلبث أن [illegible] في النصر السريع [illegible] كل الحيطة ، إذ دخل مدينة المنصورة [illegible] حامية من المقاومة ، ثم لم يكد [illegible]

من النصر الملكي حتى أحاطت بجيوشه حركة تطويقية محكمة . وقد تعقب الجيش الصليبي عند جديلة في قرية طلخا عند المنصورة ، حيث تم حصاد قتلى الصليبيين ما يقرب من ألف وخمسمائة في بضع ساعات ، وهو معظم عدد الطلائع الصليبية .

أما الملك الفرنسي فعبر البحر الصغير ، وتقدم استعدادا لما سوف يقوم به الجيش الأيوبي من حركات هجومية . وعندئذ حمي القتال بين الفريقين ، وتبادل الأيوبيون والصليبيون النصر والهزيمة ، وظل معسكر الصليبيين في مواجهة خارج المنصورة ، أملا في أن يدب النزاع في معسكر الأيوبيين بين السلطانة شجر الدر وولي العهد توران شاه عند وصوله إلى مصر . لكن النزاع لم يقع في المنصورة أو في الفترة التي تطلع إليها الملك الفرنسي ، إذ وصل الملك الجديد إلى المنصورة وتسلم زمام الموقف ودل على مهارة فائقة بما اتخذه من تدابير حربية مشروعة .

وكان أول هذه التدابير أن أمر توران شاه باحضار أسطول من سفن الخفيفة ، وحملها وهي مفككة على ظهور الجمال إلى مكان بعيد شمالي المنصورة ، حيث تم تركيبها وتعويمها في النيل واستخدامها ضد المراكب الصليبية الواردة بالمؤن من دمياط إلى المحصورين في معسكر الصليبيين . واستطاع هذا الأسطول أن يقوم بهذه المهمة ، وبالتالي أصبحت الجيوش الصليبية مهددة بالمجاعة . ثم لم تلبث المجاعة أن أعقبتها الأمراض الوبائية الفتاكة ، ولا سيما حمى التيفوئيد التي انتشرت في معسكر الصليبيين انتشارا مخيفا .

ولذا جمع الملك الفرنسي مجلس قادة جيشه ، وقرر معهم وجوب التقهقر إلى دمياط ، على أن يكون عودة المرضى والجرحى على المراكب الصليبية الراسية في النيل ، وأن يكون عودة الجيش عن طريق بيرموث وفارسكور . وبدأت هذه الحركة التقهقرية في البر والبحر أوائل أبريل سنة ١٢٥٠ ، وكانت هذه البداية مؤذنة لعساكر الأيوبية أن تخرج من المنصورة لمطاردة الصليبيين وعرقلة تقهقرهم ، ثم لم تلبث هذه العملية أن تطورت من مطاردة وعرقلة إلى حركة تطويقية غرضها الإحاطة بالجيوش الصليبية وإجبارها على التسليم وأزاحت الهزيمة المحتومة بالملك الفرنسي وهو يعاني آلام المرض بالحمى وفتكها ، ولا يكاد يستطيع الجلوس على ظهر فرسه ، ولذا رضي بالتسليم قبل فوات الأوان . وجاءت طائفة من الجند الأيوبي فحملت الملك الفرنسي أسيرا مكبلا في السلاسل إلى المنصورة حيث سجن مدة بدار قاضيها إبراهيم بن لقمان ، وهي دار لا تزال قائمة بشارع الحوار بالمنصورة الحالية . ثم اتفق الطرفان على أن يجلو الصليبيون عن دمياط جلاء تاما ، وأن تسحب السفن الصليبية عن الشواطئ المصرية في سرعة ، وأن يتعهد الملك بدفع فدية مالية كبيرة معينة دفعتها ، وأن يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن نفسه . وكان ذلك مقابل إطلاق سراح الملك وكبار الصليبيين ، فضلا

عن عامة الأسرى الذين تم الاتفاق كذلك على إطلاق سراحهم عند الوفاء بأكبر عدد من أسلحة العدة للملكة

ثم تأتي نهاية الدولة الأيوبية بعد حوادث نحو التي تخص ... فيها حدوث مصرع بعد السلطان الصالح وسيطرة زوجته شجر الدر ومهارة خلفه توران شاه. ذلك أن توران شاه أساء الظن بصنائع أبيه، وهم أصحاب الفضل في وقعة المنصورة، واعتقد أنهم يعملون مع شجر الدر على خلعه، فأخذ يضايق شجر الدر بمختلف الوسائل، ويطالبها بتسليم أموال أبيه والعمال عنه، ودبر مؤامرة للفتك بهم وبزعماء المماليك، غير أن هؤلاء سبقوه إلى ما دبره لهم، إذ قتلوه شر قتلة في فارسكور سنة ١٢٥٠. وهكذا كانت نهاية الدولة الأيوبية في مصر.

وبما يتبادر للذهن هنا أن تاريخ الدولة الأيوبية لا يعدو أن يكون تاريخ تكوين جبهة إسلامية متحدة، واستخدام صلاح الدين لما تؤدي به تلك الجبهة المتحدة من قوة عسكرية هدم بها مملكة بيت المقدس الصليبية تخريب وهد. وذلك صحيح في جملته وتفصيله ويدل عليه ما نحص معظم سلاطين الأيوبيين منذ أيام صلاح الدين إلى أيام توران شاه من تمسك في مبادئ الحرب والسلم ربما بينهما من دبلوماسية مأثورة أشهر لها السلطان العادل صاحب الفضل في معاهدة الهدنة التي أبعدت الحملة الصليبية ... عن مصر، والسلطان الكامل صاحب ... الكاملة الفريدة التي عطلت مشروعات الصليبيين لمدة عشر سنين وتعد من الوثائق المصرية من مستندات التاريخ الخاصة ما يساعد على تقدير أعداد القوات البرية والبحرية التي استعان بها صلاح الدين في حروبه الحربية ... وتقدر القوات البرية مثلاً بما لا يقل عن خمسة عشر ألف فارس من الأتراك والأكراد، وأولئك عدا جيوش الشام والجزيرة، وعربان الأقاليم المصرية والشامية. وشملت القوات البحرية على سفن حربية عدتها خمسون سفينة لحماية السواحل المصرية والشامية، وثلاثون لأعمال الهجوم البحري على مراسي الصليبيين. وتنوعت هذه السفن، فكان منها الشيني والغراب والطريدة والحراقة والعشاري والبطسة والحمالة، والمركوش والشلندي. وجرى الاصطلاح على تسمية رجال هذه السفن باسم رجال الأسطول، كما علم من عناية صلاح الدين بالشئون البحرية ما جعل لها ديوانًا خاصًا سماه ديوان الأسطول.

واقتضت نفقات هذه القوات البرية والبحرية، كما اقتضت حرب كثير من نفقات الدولة المصرية، على تنظيم اقطاعي أحدثه صلاح الدين بمصر، وبمقتضاه حل نظام الرواتب والأعطية، أسوة بالسلاجقة والتركمان، فأصبحت معظم الأراضي كلها اقطاعات للسلطان وأبناء البيت الأيوبي وأمراء الدولة الأيوبية وجنودها ... حسب عدد الأفراد ... وعلى الأقطاعات الادارية التي تخص

بين السلطان وأبناء البيت الأيوبي وكبار الأمراء والموظفين، وكل من هؤلاء يمنح عادة مع وحدة القسمة ادارة ... ثم لاقطاعات الحربية التي منحها السلطان صلاح الدين كانت لتقسيم الدولة الى وحدات حربية بانشاء عدد من الفرسان وتقديمهم للجيش العامل زمن الحرب، ولم تكن هذه الاقطاعات بنوعيها وراثية، بل كان حق الاقطاع في يد واحدة مدى الحياة، وكفى دليلا على ذلك أن الوظائف الكبرى كانت مربوطة الى اقطاعات معينة لا تتغير، فاذا انتقل صاحب وظيفة ما الى وظيفة أخرى انتقل بذلك الى اقطاع جديد، وهكذا

وبالاضافة الى التنظيم الاقطاعي وموارده التي استمدت الدولة منها جزءا كبيرا من نفقاتها، اعتمدت الدولة كذلك على عدة منابع مالية أخرى، وأهمها الخراج المتحصل من الأراضي المزروعة، وخراج المعادن مثل الزمرد والشب والنطرون، وأموال الزكاة التي أنشأ صلاح الدين من أجلها ديوانا خاصا، وأموال الخمس المفروض على متاجر الاجانب الواردة من اوربا الى دمياط والاسكندرية، وأموال المكوس المفروضة على البضائع التي يجلبها التجار الكارمية في البحر الاحمر الى عيذاب والقصير والطور والسويس

ونشطت التجارة في دولة مصر الأيوبية نشاطا [illegible] السفن التجارية الاوربية الراسية في ميناء الاسكندرية وحدها نجد في سنة ٥٨٨ هـ سبعا وثلاثين سفينة ولابد أن هذه الاعداد ازدادت كثيرا في فصلي الربيع والصيف حيث تصبح الملاحة بالبحر الوسطى في البحر الابيض المتوسط أقل عرضة للأخطار

وجذبت هذه الحركة واستطاعت من أوربا في ميناء الاسكندرية وسائر موانئ مصرية وشامية كميات كبيرة من الفراء والجوخ والقصدير والحديد والأخشاب والأسلحة، وذلك رغم تحريم المرسومات البابوية على التجار أن يتاجروا مع مصر في المواد الحربية التي يمكن استخدامها في أغراض حربية وأهمل التجار الأوربيون — ومعظمهم من البندقية وبيزا وجنوه — هذه المرسومات، لأنهم اشتروا بالمال مقابلهم هذه بضائع شرقية تجذب الأسواق الأوربية التي تطلبها بكميات تتزايد سنة بعد أخرى، وأهمها الفلفل والقرفة وجوز الطيب والقرنفل والسكر والكافور والعاج والبخور والشمع والصمغ واللؤلؤ والزمرد والشب والنطرون والاقمشة الرفيعة والمنسوجات الكتانية والحريرية المزركشة بالذهب والفضة والبسط والسكر والحلوى

واحتكرت مصر جزءا كبيرا من هذه السلع المعدنية والصناعية فأخرجت مناجمها الزمرد من قرب قوص، والشب من قرب أسوان والواحات والنطرون من وادي النطرون ومنخفض العسارة، كما أخرجت مراكزها الصناعية في تنيس ودمياط والاسكندرية وغيرها أنواع المنسوجات، فضلا عن المعامل التي تنتج كميات وفيرة من السكر بالوجه القبلي

على أن الظاهرة الكبرى التي استقامت لمصر في هذا الميدان التجاري هي كونها المستودع الدولي العام لتجارة متاجر الهند والشرق ، فبعد أن اكتسبت المصانع الأولى في موانئ المصرية الشمالية ، انتقلت موانيها الجنوبية على نهر النيل والبحر الأحمر بحركة تجارية هي من أكبر الحركات البشرية ، ويجعل الطريق النهري من القاهرة إلى قوص ومن البر إلى أسيوط والقوص وعيذاب ، أشبه بشيء بطريق الامبراطورية البريطانية إلى الهند في القرن التاسع عشر الميلادي . ووصف ابن جبير هذا الطريق الدولي العظيم ووصف حجاج ناء بشئون الحج والقوافل عن شئون المتاجر والأموال والمكوس ، إذ تنقل بين مراحل حتى عيذاب ، فوصف قوص مثلا بأنها كانت مدينة حفيلة الأسواق متسعة المرافق لكثرة الصادر والوارد إليها من التجار المصريين والمغاربة واليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة ، كما وصف عيذاب بأنها كانت من أحفل مراسي الدنيا في العصور الوسطى ، بسبب أن مراكب الهند كانت تهبط إليها وتقلع منها ، وصفه فضلا عن مراكب الحجاج إلى جدة ، وهي التي كانت تسمى الجلاب ، وواحدها جلبة وشهد ابن جبير من قوافل البضائع في هذا الطريق ما أعجزه عن الإحصاء ولا سيما قوافل الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب ، وحسبه أن أحمال الفلفل والقرفة في هذه القوافل توازي التراب في كثرتها كما ، فإنا نطالب هذه الأحمال في الطريق بسبب عناية الأمن الخاملة لها بحسب مطروحة لا حارس لها حتى يتفقدها صاحبها مصونة من الآفات والسرقات ، منوهها بأحوال الأمن والرخاء الاقتصادي في مصر زمن السلطان صلاح الدين غير أن هذه الصورة الوصفية الدالة على مركز مصر في تجارة الشرق زمن الأيوبيين لم تخل من نقد مرير لأعمال رجال الديوان (الجمارك) في مختلف الموانئ والمدن ، لأنهم لم يميزوا أحيانا بين الحاج والتاجر ، فيفحصون متاع هؤلاء وذاك بحثا عن المال ، ويفرضون الزكاة على ما يجدونه ، سواء حال عليها الحول أو لم يحل ، مع العلم بأن صلاح الدين أبطل المكوس على الحجاج ، وهي سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية يدفعها الحاج الواحد عن نفسه بعيذاب أو جدة ، برسم ميرة مكة والمدينة

وكان الغاء هذه المكوس لتقيل جزءا من مدنية سياسة ضخمة استهل صلاح الدين بها عهده من باب الدعاية الطيبة لدولته السنية وللتخفيف عن كواهل الناس ، وقد بلغت جملة المكوس التي ألغاها صلاح الدين مرة واحدة في مرسوم واحد خمسين مكسا ، قيمتها مائة ألف دينار سنويا ، أي مليون دينار في عشر سنوات ، ذلك فضلا عن كميات هائلة من الغلال التي سامح بها ، وأبطل تحصيلها من مستحقة عليهم . ومن هذه المكوس ما كان معروفا باسم مكس الغلة ، ومكس البضائع والقوافل ، ورسم الخشب الغلة ، ورسم

التقيلي ، ومصمرة الكتان ، ومرنعه العسل ، وغير ذلك من المكوس التي ألغاها صلاح الدين . ومعنى هذه السياسة الضريبية الحكيمة فهو أن المجتمع الأيوبي المصري تمتع بكثير من الرخاء الاقتصادي سواء من ناحية تخفيف الأعباء العامة من المكوس ، أو من ناحية الحركة التجارية النشيطة في البر والبحر ، ومن ناحية النهضة الصناعية التي تطلبتها حركة التجارة الداخلية والخارجية ، بالاضافة الى ما تطلبته الجيوش البرية والبحرية من أنواع الملابس والأسلحة والسفن والأطعمة

ويبدو أن هذا الرخاء الاقتصادي الشامل صبغة للمجتمع المصري الايوبي حتى عهد صلاح الدين بدليل المعاهدات التجارية التي عقدها خلفاؤه من سلطان العادل فصاعدا مع الجمهوريات الايطالية والامبراطورية ، وبدليل انعدام ثورات الفلاحين في العصر الأيوبي كله ، وهذا وذاك فضلا عن فيض ثابت هو استطاعة القوات المصرية الأيوبية أن تصمد على حملتين صليبيتين كبيرتين ، وهما الحملة المعروفة بالخامسة بقيادة جان برين ، والحملة المعروفة بالسادسة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا

وللدولة الأيوبية آثار روحية عميقة في الحضارة الاسلامية في مصر والشام ، نتيجة انتقال الحكم من الفاطميين الشيعة الى الأيوبيين السنيين ، وأول ذلك ما عمد اليه صلاح الدين وخلفاؤه من محاربة الدعوة الشيعية ومذاهبها ، وتأسيس المدارس السنية بالقاهرة والاسكندرية ودمشق وغيرها من المدن الكبرى . وأهم هذه المدارس التي رادفت الى حد ما الكلية الجامعية في العصر الحاضر ، المدرسة الناصرية الصلاحية التي بناها السلطان الناصر صلاح الدين بجوار مسجد الامام الشافعي لتدريس الفقه الشافعي خاصة . وهذه المدرسة زارها ابن جبير قبل أن يكتمل بناؤها الفسيح الأنيق ، ووصفها بأنها لم يعمر بالشرق الأوسط مثلها من حيث المساحة والبناء ، حتى انه ليخيل لمن يتطوف عليها بأنها بلد مستقل بذاته ، وبازائها الحمام والمساكن للطلاب ، الى غير ذلك من المرافق ولقي ابن جبير شيخ هذه المدرسة الناصرية الصلاحية ، وهو نجم الدين الخبوشاني ، ولم يلق من كبار رجال مصر غيره ، وليته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين ، أو أخيه العادل ، أو بهاء الدين قراقوش ، أو القاضي الفاضل ، وهم أصحاب الفضل الأول في اقامة الدولة الأيوبية

على أن هذه المدرسة الناصرية الصلاحية لم تكن أولى المدارس التي أنشأها صلاح الدين في مصر ، كما أن فقه الشافعية الذي أصبح مذهب رسمي للدولة الأيوبية ، وخصص هذه المدرسة لتدريسه ، لم يكن كذلك المذهب السني الوحيد الذي حظى بعناية . والواقع أن أول مدرسة أنشأها صلاح الدين بمصر هي مدرسة سميت كذلك بالمدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص ، ثم لم تلبث هذه المدرسة أن اشتهرت باسم مدرسة ابن زين التجار ، نسبة الى احد أعيان الشافعية

الذي بدأ التدريس بها ، وصارت تعرف بعد
ذلك باسم مدرسة الشريف نسبة الى الشريف
قاضي العسكر … من بعد كذلك
بجوار جامع عمرو بن العاص كذلك قامت
المدرسة القمحية التي … صلاح الدين
للفقهاء المالكية ، وعرفت باسمها هذا لأن
القمح الذي جمع من أوقافها بالفيوم كان
يوزع مباشرة على مدرسيها وطلبتها وأنشأ
صلاح الدين كذلك المدرسة السيوفية
لمذهب الحنفية ، واشتهرت هذه المدرسة
باسمها هذا من أجل أنها أطلت على سوق
السيوفيين بالقاهرة وقتذاك .

واصطبغت هذه الحركة الثقافية بالحماسة
المصرية في أثناء حكم الأيوبيين وأمراء الدولة
الأيوبية وكبار موظفيها وحسبك مثلا أن الملك
العادل محمد أخو صلاح الدين المدرسة
العادلية ، وأقام أخوه الآخر تقي الدين عمر
مدرسة معروفة بمنازل العز أو المدرسة
التقوية نسبة الى الأمير تقي الدين نفسه ، كما
أنشأ هذا الأمير مدرستين بالفيوم بعد أن
صارت بلاد الفيوم جزءا من اقطاعه . وأنشأ
القاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين
المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وهي
المدرسة التي احتوت على مكتبة بلغت كتبها
ما يقرب من مائة ألف مجلد في مختلف العلوم

ومن هذه المدارس كذلك المدرسة الأسدية
نسبة الى مؤسسها أركس أحد
أمراء السلطان صلاح الدين ، والمدرسة
العاشورية نسبة الى ست عاشوراء وجيهة

هذا الأمير ، ومدرسة ابن الأسواني نسبة
الى الشيخ عماد الدين عبد الله بن الأسواني

ولم تقتصر هذه المدارس الحديثة في
مصر وحدها زمن الأيوبيين ، كما تطور العلم
فيها بعض التطور فظهرت عدة من
المتخصصة تدرس علم الحديث ، ونموذجها
المعروف هو المدرسة الكاملية التي أنشأها
السلطان الكامل بن العادل ، وكانت الأولى
من نوعها في مصر ، ولم يسبقها في هذا
التخصص سوى المدرسة الحادية بدمشق
نسبة الى السلطان العادل نور الدين محمود
بن زنكي ومن ناحية أخرى من ذلك التطور أن
بعض المدارس أخذت بنظام تدريس الفقه
المذهبي ، بحيث صارت هذه المدارس شاملة
المذاهب الأربعة ونموذجها المعروف المدرسة
الصالحية التي أسسها السلطان الصالح أيوب
أواخر أيام الدولة الأيوبية

ولم تقتصر هذه النهضة الثقافية الأيوبية
على مصر ، بل تعدتها الى الشام ، بحيث بينت
الحادية الكبرى

وفي هذه المدارس جرى تدريس عدة
علوم مساعدة الى جانب الفقه والحديث
والتفسير والقراءات والمنطق والحساب
فاشتملت برامجها على الشعر والبلاغة
والهندسة وعلم الهيئة والموسيقى ، على
مستويات مختلفة بحسب الحاجة اليها

ويحدثنا في هذه الحقبة السابقة جميعا
الدولة الأيوبية جماعات من العصور الصوفية
من مختلف بلاد الشرق الأوسط ، وحمل
السلطان صلاح الدين من … معروفة

دعاة للمذهب السني ، وخصص لهم دورا تسمى الواحدة منها الخانقاه وهي كلمة فارسية معناها بيت العبادة . كما سمح كثيرا من الصوفية المحتجين على سياسي الرجعة وأن يكونوا هداة ووعاظا محبوبين من الناس . وأولى خانقاه بنيت في العصر هي الصلاحية وهي دار فاطمية كبيرة اسمها سعيد السعداء بجوار دار الوزارة ، وقد اختار صلاح الدين هذه الدار لتكون فيها ليتخذ المقر للصوفية ، وجعل لها رئيسا منهم ، ووقف عليها عدة جهات ، ورتب لسكانها طعاما يوميا ، كما بنى لها حماما خاصا . واتخذ رئيس الصوفية بسكان هذه الخانقاه شيخ الشيوخ ، وتولى هذه الوظيفة أولاد ابن حمويه الجويني مع ما كان لهم من الدولة الأيوبية كلها من الوزارة والإمارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش وتقدمة العساكر ، على قول المقريزي ، وأشهرهم فخر الدين يوسف الذي قتله الصليبيون في موقعة جديلة قرب المنصورة .

وأضحى لهذه الخانقاه الصلاحية صيت ديني ذائع ، وصار اسمها رمز الصوفية ، وغدا معتادا في كل يوم جمعة أن يأتي الناس من مختلف البلاد إلى القاهرة ليشاهدوا صوفيتها ، وهم متوجهون في موكبهم إلى صلاة الجمعة بجامع الحاكم الفاطمي ، دون غيره من الجوامع ، ويبدأ هذا الموكب بخروج شيخ الشيوخ من الخانقاه ، وبين يديه خدام الربعة الشريفة وهي محمولة على رأس أكبر خدامه ، والصوفية سائرون وراءهم في سكون وخشوع ، وعند وصول هذا الموكب إلى جامع الحاكم ، يدخل الصوفية مقصورة به ، وهذه المقصورة سميت بهذا نسبة إلى البسملة المكتوبة في صدرها بحروف ضخمة ، فيصلي شيخ الشيوخ ركعتين تحية المسجد ، ثم يجلس الصوفية ، وتوزع عليهم أجزاء الربعة للقراءة قبل الأذان والخطبة . ثم إذا قضيت الصلاة قام قارئ من قراء الخانقاه ، ورتل بعض آيات من القرآن ودعا للسلطان صلاح الدين وسائر المسلمين ، وكان ذلك الدعاء بمثابة الإشارة لاستعداد الموكب للعودة إلى الخانقاه ، حيث يكون الناس في انتظارهم للتبرك بهم .

وبالإضافة إلى هذه الخانقاه والمدارس التي غيرت ملامح المجتمع المصري وطقوسه زمن الأيوبيين اهتم صلاح الدين بالقلعة بالقاهرة وشرع في تسوير القاهرة ومصر بسور واحد من الحجارة ، والرجيح أن صلاح الدين بدأ في هذين المشروعين الكبيرين في وقت واحد ، وأراد من بناء القلعة أن يجعل لدولته وحكومته وجيشه مسكنا جديدا ، لا صلة له بالقاهرة الفاطمية وقصورها وذكرياتها ، كما أراد ببناء السور أن يجعل من القاهرة ومصر وحدة حربية واحدة ، بحيث لا يحتاج كل منهما إلى حربية خاصة من الجند . وتعتبر القلعة من الناحية المعمارية أعظم ما تركه صلاح الدين من منشآت ، ومن المعروف أنه توفي قبل أن يكمل بناءه ، وأن خلفاءه من السلطان العادل فصاعدا صاروا

بها اصطبلات سلطانية ، وقاعة كبيرة ، فضلا عن المعادن الثلاثة الابراج البرج الشرقي الكائنة بالجانب الشرقي ، كما أنها ضمت المرحين الكبيرين المواجهين في الركن السلطاني الغربي مع جبانة الكامل حيث الإيوان والقصور السلطانية وباب السر المؤدي إليها ، والاصطبلات وقاعة الصاحب الوزير ، وأبراج حمام الزاجل التي جعلت مركز البريد بين مصر وسائر بلاد الدولة الأيوبية من أسوان الى حلب ، وحمل به الكتب التي ضمت مكتبة القاضي الفاضل ، ونقل الكامل الى القلعة دواوين الادارة والحكم ، وتحول هو من دار الوزارة الفاطمية التي سكنها صلاح الدين وأخوه العادل بعده الى احدى القصور السلطانية الجديدة ، ثم بنى السلطان الصالح أيوب بن الكامل القاعة الصالحية التي أعدت خصيصا لتكون سكنا سلطانيا بعيدا عن سائر المباني العسكرية وهكذا صارت القلعة مقر الحكومة والبلاط والجيش في مصر ، حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي غير أن هذه المباني الأصلية لم يبق منها سوى أسمائها أو مواضعها ، وحلت محلها مبان جديدة في العصر المملوكي والعصور التالية .

أما أهمية بناء القلعة والسور فهي أولا في تركيز الجهاز الحكومي والاداري والجيش في القلعة جنوب القاهرة كنواة نمو جديدة من ناحيتها الجنوبية ، حتى تم الاتصال العمراني بينها وبين الفسطاط ، كما أن امتداد السور بعيدا الى النيل من ناحيتها الشمالية جعل من الممكن أن تنمو القاهرة كذلك في هذه الاتجاه . وبعد زوال الخلافة الفاطمية الأيوبية حركة بنائية واسعة ، ويصف الرحالة عبد اللطيف البغدادي الذي القاهرة أواخر عهد صلاح الدين ، ونقل لنا صورة عن عمرانها ، ما نجم عن هذه الحركة البنائية من دور مسكونة عالية البناء ، وحمامات عامة رحيبة وأسواق مسقوفة .

واتصل عبد اللطيف البغدادي في أثناء رحلته هذه بأعظم رجال الدولة الأيوبية أمثال الوزير القاضي الفاضل ، والكاتب المؤرخ عماد الدين الأصفهاني ، والاداري الشهير بهاء الدين قراقوش ، وكثير غيرهم ممن أسهموا في خلق حركة علمية أدبية كبيرة . وشجعت الدولة الأيوبية بدورها هذه الحركة العلمية تشجيعا واضحا منذ أيام صلاح الدين ، وبعد فمن حق هذه الدولة وسلاطينها أن يختم هذا التلخيص الحضاري لعالمها باستعراض لأسماء العلماء والأدباء ورجال السياسة الذين أنجبتهم هذه الدولة ، وهم بالاضافة الى المتقدمة أسماؤهم ، العالم الزاهد نجم الدين الخبوشاني شيخ المدرسة الناصرية ، والأسعد بن مماتي ناظر الدواوين ، وموسى بن ميمون الطبيب ، وشيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه شيخ خانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، وبهاء الدين بن شداد المؤرخ ونديمه شهاب الدين عبد الرحمن المعروف بأبي شامة ، والشاعر العظيم بهاء الدين زهير ، والقاضي جمال الدين بن واصل صاحب التاريخ الحافل بحوادث عهد الدولة الأيوبية وبداية عهد سلاطين المماليك

الدولة المملوكية الأولى

للدكتور محمد مصطفى زيادة

(١٢٥٠ — ١٣٨٢)

لم يكد النصر يتحقق على حملة لويس التاسع الصليبية سنة ١٢٥٠ حتى شهدت مصر قيام سلطنة المماليك ، وهي السلطنة التي ضمت في عز أيامها مساحات واسعة تكاد في معظمها الرئيسية الامبراطورية الايوبية التي سبقتها في الشرق الاوسط . ذلك أن السلطنة المملوكية شملت جميع الأقاليم الحديثة المعروفة باسم مصر وفلسطين وسوريا ولبنان ، فضلا عن أن سلاطين المماليك مدوا سيادتهم على بعض القلاع والمدن في أعالي الفرات وجهات الجزيرة العربية من آسيا الصغرى وشمال السودان وبرقة والحجاز.

وإذا نجحت السلطنة الجديدة في أن ترث البيت الايوبي في الحكم ، فان عوامل هذا النجاح لا ترجع الى النصر الذي أحرزه القادة المماليك على حملة لويس التاسع الصليبية فحسب ، بل الى عوامل هامة مكنت هؤلاء القادة من اقامة دولة استطاعت أن تكسر موجة الغزو المغولي في وقعة فاصلة ، وأن تواصل حركة الجهاد ضد الصليبيين في المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الصليبية في الشرق .

وبالاضافة الى هذه التوفيقات الكبرى أسهمت السلطنة المملوكية الجديدة بسهم كبير في تطور الحضارة الاسلامية وثقافتها ، نتيجة انتقال مركز الخلافة من بغداد الى القاهرة ، هذا فضلا عما أصابته من دور هام في التجارة الدولية منذ القرن الثالث عشر ميلادي حتى كشف طريق رأس الرجاء الصالح والهند وأمريكا في أواخر القرن الخامس عشر

والمماليك — كما يدل عليه اسمهم — أرقاء استقروا في حيازة وملكية غيرهم عن طريق بيع أو مبادلة أو الأسر في الحروب أو المهاداة ، أو كجزء من الضريبة المفروضة على بعض الحكام التابعين . ولكن اذا كان كل مملوك في أصله رقيقا فلم يكن كل رقيق من فئة المماليك . وذلك ان الرقيق في الاسلام من أسود أو أبيض ، وعلى أساس ألوانهم والبلاد المختلفة التي جلبوا منها . فالنوع الأول كان من الزنوج والسودان عامة ونجد مثلا لهم جماعات الزنج محركو ثورة العراق في القرن التاسع الميلادي .

وكذلك الأمر كان الاحبشي الذي

حكم مصر فيما بين سنتي ٩٦٦ ، ٩٦٨ م
أما النوع الثاني وهو الرقيق الأبيض فهؤلاء هم المماليك ، ومعظمهم في الأصل من الترك [illegible] من مختلف أقاليم آسيا الوسطى ، أوقات السلم والحرب [illegible] لقد استطاعوا أن [illegible] حتى [illegible] نوع الرقيق المجلوب من غرب آسيا وكثير من أقاليم أوربا ، مما فيها الجهات المحيطة بالبحر البلطي .

***

تدفق أولئك المماليك على المجتمع الاسلامي في أعداد كبيرة تتباين باختلاف البلاد التي يستجلبون منها ؛ وذلك منذ أيام الخلافة العباسية في بغداد عندما أصبح الجيش العباسي يحوي أعدادا متزايدة من الرقيق الأبيض . لم تكن أنواع المماليك نتيجة نشاط حركة التوسع الاسلامي عن طريق الفتح والغزو أو التجارة فكان منهم التركي واليوناني والصقلبي والكرجي والأرمني ، ولكنهم باتوا جميعا يسمون أتراكا « أتراك » ؛ من باب اطلاق الجزء الغالب على الكل ، ولا سيما بعد أن غدو أصحاب أثر واضح في توجيه السياسة الاسلامية في العصور الوسطى ، كما أصبحت [illegible] موضع دراسة المؤلفين . ومن أمثلة ذلك وصف ابن حسول المتوفى سنة ٤٥٠ هـ للمملوك التركي بأنه « لم يرض الا بأن [illegible] في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه . لا يبعث في حاجته الى ما يبعث اليه سواء من الخاصين في الري ، [illegible] كالمسى [illegible] ومناسبة [illegible] وقد [illegible] ذلك [illegible] سائر [illegible] التركي اذ خرج من وثاقه الا بزعامة جيش أو [illegible] أو الرئاسة على فرقة ، والأمر واضح على عصبية » .

وتدل شواهد تاريخية كثيرة في العصور المتقدمة والمتأخرة على مدى العناية بتربية هؤلاء المماليك وتدريبهم ليصبحوا عماد الجيوش التي اعتمدت عليها الدول الاقليمية المستقلة في العالم الاسلامي . ومن عهد سلطنة السلاجقة (١٠٣٧ — ١١٥٧ م) اذ [illegible] على هذا النوع من الجند ، ووصف وزيرها الشهير نظام الملك (ت ١٠٩٢) في مؤلفه « سياسة نامه » مختلف المراحل التي يمر بها المملوك منذ شرائه [illegible] حتى يصبح حرا ويصبح فارسا ، ومن لم يستطع أن يرتقي في سلك الوظائف العسكرية والسياسية . وفي أيام هذه السلطنة السلجوقية تم التحول من الاقتصاد النقدي الى الاقتصاد الاقطاعي العسكري ، بحيث صار أرباب الوظائف العسكرية والادارية — ومعظمهم من المماليك يملكون على أساس اقطاعي [illegible] حربي .

وتسير الدولة الأيوبية (١١٧٤ — ١٢٥٠) التي تفرعت بطريق غير مباشر عن الامبراطورية السلجوقية ، على هذه القاعدة من حيث الاعتماد على المماليك الى [illegible]

النصيب الأكبر في تكوين الجيش الأيوبي ، ومن حيث التنظيم في التمليك الإقطاعي لأولئك المماليك وغيرهم في مصر والشام وسائر أقاليمها في الشرق الأوسط . ومن الأدلة على ذلك أن صلاح الدين اتخذ لنفسه مجموعة مختارة من المماليك الذين اشتراهم صغارًا وتربوا تربية حربية خاصة في دور الحرب . وأخذ هذا النظام المملوكي الإقطاعي يسير على نطاق أوسع زمن خلفاء صلاح الدين في ممالكهم وإماراتهم ، وكانت كل جماعة من المماليك الأيوبيين تنتسب إلى مؤسسها أميرًا كان أو سلطانًا ، فالأسدية مثلا تنسب إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وسلفه في السيطرة على مصر ، والصلاحية تنسب إلى صلاح الدين نفسه ، وهكذا .

وأسهمت هذه الجماعات الصلاحية المملوكية بسهم كبير في حروب صلاح الدين بين زحمة صفين ويضحي ، ولذلك كثرة أسماء موتاهم وجرحاهم على مدى اعتماد هذا السلطان في حروبه وحملاته على هذه المماليك إلى جانب جنده الأحرار الذين كان معظمهم من الأكراد .

ولعل دليل آخر على ضخامة العنصر المملوكي في امبراطورية صلاح الدين ، وهو ما تحمله الآثار والمؤسسات العمرانية والأوقاف من أسماء أولئك المماليك بالقاهرة ودمشق وغيرهما من المدن الكبرى في العصر الأيوبي .

ثم ترتب على حروب الأمراء الأيوبيين بعد صلاح الدين ازدياد أعداد المماليك وتضخم نفوذهم ، ولا سيما زمن الصالح أيوب بن الكامل (١٢٤٠ - ١٢٤٩) وهو السلطان قبل الأخير من سلاطين البيت الأيوبي في مصر .

ذلك أن الملك الصالح لم يشعر بسكون نحو الجند من المماليك الأكراد .

كما أنه لم يثق كثيرًا في الكاملية وغيرهم من طوائف المماليك الذين كان لهم بمساعدته في الوصول إلى السلطنة . وبدأ أكثر من شراء المماليك الجدد ، واستوردهم من مختلف الأسواق ، وإن كان معظمهم من الأتراك المتحدثين بالتركية ، وبعد ذلك شيد الصالح أيوب بجزيرة الروضة قلعة لنفسه تطل على بحر النيل . وانتقى من هؤلاء المماليك صفوة لتكون حرسًا خاصًا له بتلك القلعة . وأطلق التنظيم المملوكي على هذه الفئة اسم المماليك البحرية الصالحية ، تمييزًا لهم عن سائر طوائف المماليك الصالحية السابقة واللاحقة ، كتمييز البحرية القاهرية وغيرها من طوائف المماليك المشابهة التي عرفها التاريخ قبل قيام الدولة الأيوبية وبعدها .

على أن تسمية هذه الفئة باسم البحرية يعني مجاورة بحر النيل ، إذ تطلق هذه التسمية بمعان مختلفة عن المماليك في مصر والشام ، بل في اليمن أيضًا ، من الأيوبيين وبدا نحو أن هذا اللفظ جرى على المماليك المجلوبين من البلاد الساحلية أو بلاد ما وراء البحار . وشرح ... هذا اللفظ ... نطاق هذا المعنى ... ، وهو المؤرخ المرسي

الذي عاش مدة بين مماليك البحرية في مصر ، ومما يؤيد هذا النص ... المؤرخين المعاصرين ... على ... لفظ البحرية على الجماعات الصغيرة الوافدة من ... البحار .

وتعتبر ... مماليك البحرية الصالحية صدمة للحملة الصليبية على المنصورة (فبراير سنة ١٢٥٠) والتي يرجع الفضل في ... النصر من أسباب الهزيمة في وقت كانت مصر بدون سلطان بعد أن توفي سلطانها الصالح أيوب في نوفمبر من العام السابق . على أن حسن حظ البلاد ... الدولة امرأة قديرة ، هي شجر الدر زوجة السلطان الصالح أيوب المتوفى ... وخليفته توران شاه من مقره بحصن كيفا بأعالي العراق . ولما وصل هذا الابن إلى مصر ، سلمته شجر الدر مقاليد الدولة ومسئوليات القتال ضد الصليبيين ، على أن مقتل توران شاه ١٢٥٠ م على أيدي زعماء مماليك البحرية الصالحية — وهو الحادث الذي أنهى الدولة الايوبية في مصر — أدى إلى فراغ كان لابد من الإسراع إلى ملئه ، قبل أن يفلت زمام الموقف من أيدي أولئك الزعماء . ذلك أنه كان هناك عدد كبير من أمراء البيت الأيوبي الذين تطلعوا منذ ... إلى الفوز بالسيطرة على مصر ... فضلا عن الخوف من مجيء حملة صليبية جديدة إلى مصر للانتقام مما حل بحملة الملك الفرنسي لويس التاسع . ... وقع الاختيار على شجر الدر ... الأمراء الأيوبيين الطامعين في ... مصر ... السلطان الصالح أيوب ... ورثها ... لإجلاء ... مصر الأيوبية ... الطامعين كذلك في الاستبداد بشئون السلطنة ... على ... والزعيم ...

ثم عرض بعد ذلك منصب أتابكية العسكر — وهو من أهم مناصب الدولة — على أحد الأمراء الذين ظلوا مغمورين حتى ذلك الوقت وهو أيبك التركماني ، فقبله . وهكذا تم ... دولة المماليك (سبتمبر سنة ١٢٥٠) التي لم تكن في الواقع سوى استمرار للدولة الأيوبية في سياستها الداخلية والخارجية ، لأن المماليك أنفسهم صنائع سادتهم السابقين ، ... في شئون الحكومة والإدارة محدودة في دائرة النظام الإقطاعي الذي قام في مصر والشام في العصر الأيوبي .

وكان أول ... شجر الدر هو ... الحملة الصليبية الفرنسية بإقرار شروط الهدنة التي تم الاتفاق عليها بين توران شاه ولويس التاسع ... الملك لويس في ... نصف ... الحملة الصليبية من الشواطئ المصرية إلى عكا بعد قيام الدولة الجديدة ببضعة أيام على الرغم من المعارضة الشديدة التي لقيها في مصر ... الملك الفرنسي .

ثم أخذت شجر الدر تسرف في ... العطايا ... والإقطاعات على جميع

هناك مماليك البحرية الذين [illegible] توصيلها إلى منصب السلطنة على حين [illegible] في القاهرة معسكره [illegible] امرأة في السلطنة على أن حركة خطيرة في هذا الصدد بدأت في دمشق حيث [illegible] الجند الأكراد [illegible] على الولاء لسلطنة المماليك الجديدة ، وأعلنوا الثورة واستعان هؤلاء الثوار بالملك الناصر يوسف الأيوبي أمير حلب ، وحفيد [illegible] — وهو سمي صلاح الدين — ضد مغتصبي الحكم في القاهرة . وقد زحف الناصر يوسف على دمشق التي فتحت له أبوابها ، فقبض على جميع من كان فيها من المماليك . ثم أن الخليفة العباسي في بغداد لم يرض عن تولية امرأة في حكم الدولة الأيوبية ولا سيما أنها كانت في وقت ما من جواريه ، وهذا فضلا عن وجود بعض آراء دينية تنكر تولية امرأة في حكم أية دولة إسلامية .

لذلك استقر الرأي أخيرا في القاهرة على أن تتزوج شجر الدر من أتابك العسكر [illegible] على أن تترك له العرش . وتم الاحتفال بزواج شجر الدر من أيبك واعتلى أيبك عرش السلطنة المملوكية في شهر يوليه سنة ١٢٥٠ وعلى هذا [illegible] في [illegible] على أنه [illegible] لا [illegible] وحدها [illegible] ولكنهم [illegible] بأنه مؤدب [illegible] للتخلص منه فيما بعد [illegible] ثم [illegible] أيام على تولية أيبك في السلطنة حتى استقر الرأي بينه وبين بعض المماليك [illegible] الأقطاي على إشراك أحد أمراء بني أيوب في السلطنة [illegible] هذه الفكرة [illegible] لإحساس [illegible] معارضة مريرة من جانب الأيوبيين ، فموضوع الأهمية هو أنه وقع الاختيار على طفل من بني أيوب اسمه موسى لم يتجاوز العاشرة من عمره ، فيكون شريكا لأيبك في الحكم .

لكن هذه الحيلة لم تنطل على أصحاب الحق الشرعي من أمراء البيت الأيوبي الذين أخذوا يزحفون فعلا نحو مصر ، بزعامة الناصر يوسف أمير حلب ودمشق ، ثم إن [illegible] من المماليك في القاهرة نفسها حاولت [illegible] أمير آخر من بني أيوب — وهو الأمير المغيث عمر أمير الكرك — ليكون سلطانا على مصر [illegible] سبتمبر سنة ١٢٥٠ . أما أيبك الذي [illegible] البعض أنه شخص سهل يمكن التخلص منه دون صعوبة فالثابت أنه أكثر مهارة مما يرى [illegible] الناس ، إذ أعلن أن مصر تابعة للخلافة العباسية في بغداد ، وأنه سوى سلطنة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] إلى الخليفة [illegible] القائم بين الأيوبيين [illegible] على مصر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في عكة [illegible] بعض الأ[illegible]

الفرنسيين الذين لم يزالوا بمصر . ومع ذلك لم يلبث أيبك أن رأى مجالا لأعداء يوسف الناصر أو غيره من الصالحيين فأمر بهدم مدينة دمياط القديمة وتحصيناتها في أكتوبر سنة ١٢٥٠ ، تمهيدا لبنائها من جديد في موضعها الداخلي الحالي ، بعيدة عن ساحل البحر . وفي هذه الأثناء كانت الاستعدادات في مصر لإرسال حملة تمنع الأيوبيين من الزحف من الشام الى مصر ، ودارت معركة بين الجانبين قرب الصالحية (فبراير سنة ١٢٥١) أى داخل البلاد المصرية ، وحلت الهزيمة بالغزاة في هذه المعركة ، ووقع كثير من أمراء الأيوبيين أسرى في أيدى المماليك وإن استطاع زعيمهم الناصر يوسف الفرار على أن أيبك لم يقنع تماما بهذه النتيجة ، فأرسل أقطاى لهدم معاقل المقاومة الباقية بفلسطين ، حتى لا يتمكن الأيوبيون بعد ذلك من الزحف على مصر أو [illegible] في سهولة .

وحوالى ذلك الوقت بدا الخطر المغولى واضحا في غرب آسيا ، يهدد الخلافة العباسية نفسها في بغداد . ورأى الخليفة أنه من الأمور الحيوية أن يتناسى أمراء الدول الإسلامية ما بينهم من خلافات لمواجهة الخطر المغولى ، وعقدت معاهدة (أبريل سنة ١٢٥٣) بين أيبك والناصر يوسف بحيث تكون لأيبك مصر وجزء من فلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك بيت المقدس فضلا عن الأجزاء الساحلية حتى نابلس ، على حين ظل الناصر يوسف وغيره من أمراء البيت الأيوبى على إماراتهم بسائر فلسطين والشام . وهكذا اجتازت الدولة المملوكية الفتية الأولى التى اعترضت طريق تأسيسها في القاهرة ، ولو الى حين على الأقل .

على أن اعتماد أيبك على المماليك البحرية الصالحية في محاربة الأيوبيين زاد من سطوتهم بحيث صار من الصعب قيادتهم أو خضوعهم لأى شخص عدا زعيمهم أقطاى . ومع هذا ظل أيبك حريصا حذرا في تصرفاته نحوهم ، طالما كان الخطر الأيوبى قائما ، حتى إذا انعقدت معاهدة الصلح بينه وبين الناصر يوسف ، أخذ أيبك يتحرك في سرعة ، فأبعد الطفل موسى الأيوبى عن منصب المشاركة في الحكم ، وعين مملوكه قطز في منصب نائب السلطنة ، ولم يبق لديه من المنغصات سوى المماليك البحرية . غير أن قيام ثورة العربان ، ومناداة زعمائها بأن المماليك — وقد مسهم الرق — لا يصح أن يحكموا قوما من الأحرار ، جعل أيبك في حاجة إلى قوة المماليك البحرية الصالحية مرة أخرى فعهد الى أقطاى بإخضاع هذه الحركة الخطيرة التى ضمت أعدادا ضخمة من البدو ، ونجح أقطاى في مهمته في وقعة حربية قرب بلبيس (يونيه سنة ١٢٥٣) .

لكنه إذا كان النجاح في إخضاع هذه الثورة أدى الى إزالة عقبة أخرى خطيرة

على حساب قيام سلطنة مملوكية في مصر على
حد سواء اذ من خطر أقطاي وجماعته
البحرية الصالحية

وبعد ذلك وصلت غطرسة أقطاي
حد جعله يمس السلطان ، فالشعائر التي
هي من حق السلطان وحده ، ونقل زوجته
من دارها بالقاهرة الى مصر بالقلعة في
موكب حافل ، ثم تزوج أقطاي من احدى
اميرات البيت الأيوبي في حماة بالشام ، وطلب
من أيبك أن يسمح له ولعروسه بالاقامة في
القلعة ، على أساس أنه أصبح زوجا لسيدة
أيوبية . وعند ذلك أحس أيبك أنه امام أمر
واحد لا ثاني له ، وهو التخلص من أقطاي
قبل فوات الأوان ، واستدعاه الى القلعة
ببعض مهام الدولة ودبر مؤامرة سريعة لقتله ،
وعندما ألقى برأس أقطاي الى أتباعه منتظرين
أسفل أسوار القلعة ، أصاب الذعر طائفة
المماليك البحرية الصالحية ، فهرب كثير منهم
الى مختلف البلاد الخارجية كما قبض أيبك
على الذين بقى منهم في القاهرة . وهكذا يبدو
أن أيبك أقام سلطنته ولكنه في الوقت نفسه
الآن على قمة مشكلة كبرى بهروب كثير من
مماليك البحرية الى بلاد خصومه من
الأيوبيين بالشام حيث عملوا لاجئين سياسيين
يحرضون الناصر يوسف وغيره من أمراء
البيت الأيوبي على مهاجمة مصر ، فضلا عن
اغاراتهم المستمرة على فلسطين والأطراف
المصرية . لذلك فقد أحس معظم الناس

السنوات الواقعة بين ٦٥٤ — ١٢٥٧ م . وقد
حركات المماليك البحرية في الشام ، ونجأ الى
أسلوبه القديم باعلان تبعيته للخلافة
وأرسل بعثة الى بغداد يطلب العلم والخلافة
للامة ، ثم انه جدد الهدنة مع الصليبيين
وحالف الأمير الأرمني الأصل بدر الدين
لؤلؤ أمير الموصل ، سعى أن يتزوج ابنته
ويتخلص بذلك من سيطرة شجر الدر
وتفرغها من أجل المماليك البحرية المشردين
غير أن هذه الخطوة الزوجية أثارت شجر
الدر التي لم تتوقع أن يصل تنكر الجميل
بالسلطان أيبك الى هذا الحد ، وهو الذي
أصبح سلطانا بفضل مساعدتها . وأحست
شجر الدر بأن كبرياءها جرحت بعد أن
هجرها أيبك ليقيم في منزل صيفي قرب جهة
باب اللوق الحالية . ودبرت مؤامرة لاغتياله
مع أنها دعته الى اجتماع للتوفيق والصلح ،
ولقي مصرعه في هذا الاجتماع على صورة
وحشية في حمام القصر السلطاني بالقلعة
(أبريل سنة ١٢٥٧) . وأذاعت شجر الدر أن
أيبك مات ميتة طبيعية فجأة ، غير أن الحقيقة
انكشفت ، فتعرضت هي الأخرى للقتل على
صورة وحشية كذلك ، بعد ثلاثة أيام من
مقتل أيبك .

وقد تتبعنا تاريخ أيبك في شيء من
التفصيل ذلك لأن سنوات حكمه تعتبر
جديرة بالتقدير لدولة الجديدة على البقاء
غير أنه لم يبق للصبي علي بن أيبك أي حق

في . أنه استطاع بعد موت في ظل النظام العسكري المملوكي ، ما عدا ... عنه من ناحية كبار الأمراء في حرمانه وصية سلطان ... حتى ... وقت حتى تمكن الاقتصادي ... سلطنة ... وتلك الأمراء ... وحينئذ يتخلصون من السلطان الصبي في غير جلبة أو اضطراب . وتكررت هذه التمثيلية مرة بعد مرة عقب نهاية حكم كل سلطان مملوكي ، فأقام رجاله مماليك ابن السلطان المتوفى مؤقتا ، ثم تخلصوا من هذا الابن بالنفي إلى بعض جهات مصر أو بالخارج .

وإن استطاع بعض أولئك الأبناء أن يصل إلى السلطنة مدة من الزمن ، فلم يكن ذلك راجعا إلى اعتقاد المماليك في مبدأ الوراثة بل إلى عجزهم أحيانا عن الاتفاق على من ينبغي أن تؤول إليه السلطنة من بينهم أما مبدأ الوراثة نفسه فلم يكن معمولا أو مقبولا في أوساطهم .

هكذا خلف الصبي علي أباه أيبك وتعين الأمير قطز — وهو أقدم مماليك أبيه — في منصب نائب السلطنة . وظل هذا الصبي سلطانا نحو مدة سنتين ، لم يبد في أثنائهما على شيء سوى مهارته في ركوب الحمير والطواف بها داخل أسوار القلعة في حين كان خطر يهدد بتعرضه ... السلطنة المملوكية في الدولة ، وفي خلال هاتين السنتين بالذات كان الخطر المغولي على ... في ... سقطت بغداد والخلافة العباسية على يد هولاكو وجنوده في فبراير سنة ١٢٥٨ ، وانتشرت موجة من الذعر في جميع البلاد الإسلامية المجاورة ، وخاصة بلاد الشام حتى أعلن الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق عزمه على مقاومة المغول في أول الأمر والتمس من أجل ذلك مساعدة المملوكية . واستغل نائب السلطنة قطز هيبته ... وشرع يعد العدة إلى التهديد المغولي سوف يلتهم مصر بعد الشام ، وأن الموقف يستدعي قيام رجل قوي في الحكم بدلا من صبي قليل الخبرة مشغول بلهوه . وقد خلع السلطان الصبي علي بن أيبك من السلطنة دون عناء وأعلن قطز سلطانا في ... أكتوبر سنة ١٢٥٩ .

ولم يمض شهر على هذا الانقلاب حتى أخذ هولاكو يزحف بعد حلب الأيوبية وسط مظاهر التدمير والسلب ، وشاركته في الاستيلاء عليها في فبراير سنة ١٢٦٠ فرقة عسكرية من ... هيثوم ملك أرمينية الصغرى ، وبوهيموند السادس أمير أنطاكية الصليبية ، وفي حين جاءت الأخبار إلى هولاكو بوفاة الخان المغولي الأعظم منكوخان ، فاضطر إلى الرحيل عن الشام إلى مقر المغول ... في حوض آسيا ليشترك في انتخاب الخان الجديد ، بعد أن أسند قيادة جيشه إلى كتبغا وهو أحد كبار ... المغول ... على المذهب النسطوري . ثم لم يلبث كتبغا أن ... جيوشه نحو دمشق ، وهي كذلك

يوسف ، فانهارت أمامه جوانب ملك الناصر يوسف الأيوبي ، واستسلمت له دمشق نفسها في مارس سنة ١٢٦٠ . وزحف بعد ذلك هولاكو بقواته نحو الجنوب ، وهدد أملاك السلطنة المملوكية في فلسطين ، فهب قطز لمواجهة هذا الزحف الداهم بجيش كبير واستطاعت طلائع هذا الجيش بقيادة الأمير بيبرس البندقداري أن تطرد الطلائع المغولية من غزة حيث وصل قطز بعد قليل ثم زحف فورا نحو الشمال .

أما كتبغا القائد المغولي فوعد الصليبيين في عكا أن يحالفهم ويساعدهم ضد السلطنة المملوكية ، مقابل قيامهم بعرقلة الزحف المملوكي وعدم السماح للسلطان قطز بالمرور شمالا . غير أن الصليبيين لم يأمنوا لوعود المغول واستطاع قطز أن يحصل على حياد عكا الصليبية في هذه الحرب ، وأن يمر بجيشه في غير صعوبة في منطقة الجليل . ولم يلبث المغول أن فوجئوا بوصول المماليك إلى قربهم ، وبفضل هذه المفاجأة تمكن السلطان قطز من إنزال هزيمة بالمغول في واقعة حاسمة عند عين جالوت قرب بيسان والناصرة ، في سبتمبر سنة ١٢٦٠ ، وهي أول هزيمة تحل بهم في تاريخهم الصاخب منذ أيام جنكيزخان ثم أعقب ذلك تقهقر المغول عامة فانسحبت القوات المغولية من دمشق وحلب ، على حين عكفت القوات المملوكية على مطاردتهم إلى ما وراء الفرات .

وبذا أسس قطز سيادة السلطنة المملوكية على جميع بلاد الشام وقضى على عهد الدويلات الأيوبية الصغيرة التي ظلت بعد صلاح الدين الأيوبي ، وذلك فضلا عن حمايته للسلطنة المملوكية من هجمة خارجية تمثل خطرا جسيما عظيما ، لأن عين جالوت لم تنقذ مصر وحدها من المغول وقتذاك ، بل أنقذت كذلك أوربا المسيحية التي تعرضت أطرافها الشرقية للخطر المغولي .

غير أن قطز لم يلبث أن جرت عليه الانتصارات هذه جزاء عكسيا ، إذ وقع فريسة مؤامرة لقتله وهو في طريق عودته إلى مصر في أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، على يد صديقه الأمير بيبرس البندقداري . وأسرع الأمير بيبرس إلى دخول القاهرة حيث نصب نفسه على السلطنة وسط مزيج من الدهشة والرهبة . ويقال إن بيبرس قام بارتكاب هذه الجريمة لا لرفض قطز تعيينه على حلب فحسب كما يتواتر في معظم المراجع ، بل تسوية كذلك لثأر قديم يرجع إلى مقتل الزعيم أقطاي زعيم المماليك البحرية ، وهي حوادث كان للأمير قطز دور هام فيها .

ومن الواضح أن وصول بيبرس إلى منصب السلطنة كان معناه عودة نفوذ المماليك البحرية . ولم يلبث السلطان الجديد أن برهن على ذلك كما دلل على براعة فائقة في شئون الإدارة وقيادة الجيوش خلال حكمه الذي استمر سبعة عشر عاما (١٢٦٠ - ١٢٧٧) ، والواقع

ان عمال بيبرس أكسبته لقب مؤسس دولة المماليك ، فهو أول سلطان عاد فعلا بتنظيم جهازها الإداري والحربي على أسس سليمة . غير أن اغتصاب بيبرس للسلطنة لم يرق في عين نائب دمشق وهو الذي أعاده قطز الى منصبه بعد طرد المغول ، ولذا رفض هذا النائب أن يعترف بذلك الاغتصاب ، وأعلن نفسه سلطانا في نوفمبر سنة ١٢٦٠ ، ودعا الأمراء الايوبيين والنواب وأصحاب النيابات القريبة الى الاعتراف به ، وأرسل بيبرس حملة ضد هذا الأمير الخارج ، فقضت على حركته في سرعة ، وجاءت به الى القاهرة مكبلا بالسلاسل في يناير سنة ١٢٦١ ، بعد أن أقامت مكانه في نيابة دمشق الأمير علاء الدين البندقداري ، وهو الذي كان في وقت ما سيد بيبرس ، أي أستاذه الذي اشتراه ورباه على حسب اصطلاح المماليك ، وفي تلك الاثناء قامت بالقاهرة حركة من نوع آخر يتزعمها رجل من الشيعة اسمه الكوراني ، واتخذت مظاهرات بدت كأنها مقدمة لثورة العبيد أيام أبيك فهدمها بيبرس هي الأخرى في سرعة كذلك ، اذ قبض على رجالها وزعيمهم الكوراني الشيعي ، وشنقهم جميعا على باب زويلة (بوابة متولي الحالية)

واشتهر بيبرس في جميع أعماله بسرعة التنفيذ ، كما اشتهر في سيرته بالحزم والشجاعة وبعد النظر فضلا عن المقدرة على القيام بعدة أعمال في وقت واحد ، وعرفت له هذه الدولة أثناء معاركه الكثيرة في مصر والشام ، ووضحت هذه المواهب في مقدمة الأعمال الأولى من حكمه ، حيث عمل جاهدا على ترتيب شئونه الداخلية ، ثم عالج مشكلة تطلبت منه جميع ما أوتيه من مهارة سياسية وشجاعة وحزم ، وهي مشكلة الفراغ الذي نجم عن سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وتفكير بعض ملوك الدول المجاورة في احياء هذه الخلافة في بلده . ومن أولئك الناصر يوسف الأيوبي حين كان أميرا على حلب ودمشق ، اذ حاول استمالة أحد العباسيين الفارين من وجه المغول الى الشام ليعلنه خليفة عنده ، ويستعين به في مقاومة الزحف المغولي بقيادة هولاكو ، غير أن سرعة الحوادث أفسدت عليه محاولته . وقام السلطان قطز بمثل هذه المحاولة بعد أن دخل دمشق ظافرا عقب عين جالوت ، اذ أعلن خلافة لاجيء عباسي آخر ، وأمده بعدد من الأسلحة ليعمل على استرداد بغداد ، وجعل بيبرس هذا الخليفة ، أي أنه لم يكن مبتكر هذه الفكرة ، ولكنه كان صاحب الفضل الفعلي في احياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ١٢٦٢ . وهكذا استطاع بيبرس أن يجعل مصر قاعدة الخلافة الاسلامية ومحط أنظار المسلمين ، وأضحت القاهرة مركز العالم الاسلامي ، وهي أقرب الى حوض البلاد الاسلامية من بغداد ، لذلك نجد كثيرا من علماء المسلمين يفدون الى مدينة الشيخ حيث وجدوا مناخا وافرا من الرعاية

والتشجيع وأحدثوا بمصر نهضة علمية في مختلف نواحيها ، على حين أمسى الخلفاء العباسيون في القاهرة أشباحاً مسلوبي السلطة .

وحق لبيبرس أن يفخر بهذه النتيجة التي جعلت السلطنة المملوكية صاحبة الفضل في إحياء الخلافة العباسية ، وأمنت السلاطين على مستقبلهم في الشرق الأوسط وسائر العالم الإسلامي باعتبارهم حماة الخلافة والمنتمين ببيعتها . غير أن مشكلة أخرى عاجلة تطلبت من السلطان حلاً عاجلاً ، وهي أن المغيث عمر الأيوبي — أمير الكرك — ظل متعلقاً بحقه الشرعي في السلطنة بمصر ، بخلاف غيره من أبناء البيت الأيوبي الذين ركنوا إلى الهدوء بالشام ورضوا بالعيش في سلام في ظل الحكم المملوكي . وعرف بيبرس أطماع المغيث عمر جيد المعرفة منذ تحوله إلى إمرة الكرك أيام تشريد أيبك للمماليك البحرية ، واشترك معه في الإغارة أكثر من مرة على الأطراف المصرية . ولقد أسرع بيبرس عقب عودته إلى مواجهة الكرك رغم وساطة الخليفة العباسي ، ولم يلبث أن ألقى القبض على المغيث وأرسله أسيراً إلى القاهرة ، حيث اتهم بالاتصال بالمغول والتآمر معهم ، وحكم بإعدامه في ابريل سنة ١٢٦٣ .

وعمل بيبرس في هذه السنوات الافتتاحية الثلاث من حكمه على تنظيم الجيش المملوكي وتجديد بناء الأسطول ، وعلى إعادة توزيع الإقطاعات على الأمراء والأجناد فضلاً عن عنايته بإنشاء الطرق وإصلاح الجسور وحفر القنوات في مختلف البلاد المصرية على مقاييس لم تشهدها مصر سوى أيام صلاح الدين . كذلك عني بيبرس بتقوية حصون الشام وشحنها بالعديد من الذخائر ، كما نظم المواصلات البريدية بين دمشق والقاهرة بحيث صار تنقل البريد بينهما مرتين في الأسبوع . أما الإسكندرية فعني بيبرس بإصلاح حصونها وسورها ، كما عني بسواحل النيل عند رشيد ودمياط بإقامة الأبراج والسلاسل لحراستها ، وكل ذلك خشية حملة صليبية مرتقبة . وفي هذه السنوات الافتتاحية كذلك بدأ بيبرس بناء الجامع والمدرسة المنسوبين إليه ، كما أنشأ مقبرة للفقراء .

ولدينا هذه الأعمال الداخلية المتنوعة على أن بيبرس كان يبني لنفسه وللسلطنة المملوكية في قلوب الناس ، وأنه كان يعد العدة الحربية للقيام بمشروعات عسكرية ضخمة . والواقع أنه أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثاني ، واستطاع أن يحرز نجاحاً لا يقل عن نجاح سلفه العظيم ، وذلك في أكثر من جهة واحدة . ذلك أنه تعين على السلطان بيبرس مجابهة الأعداء الخارجية للسلطنة من أعوان الدولة المغولية التي تأسست بعد هولاكو في فارس والعراق ، وبقايا الإمارات الصليبية مثل أنطاكية التي

دأب على محالفة تلك الدولة . وبذلك قضى على الاستعداد الخاصة به لحملة صليبية جديدة تأتي من أوربا . ويبدو أن بيبرس الذي سرى أنه معلومات عن نوايا الأوربيين وأحوالهم السياسية التي جعلت إرسال حملة صليبية كبرى الى الشرق أمر غير ممكن أو ميسور ، سبق قيامه بالأعمال الحربية المتقدمة لتأمين الحدود المصرية والشامية ، واهتمامه بعقد سلسلة من المعاهدات والعلاقات الودية مع حكام البلاد المجاورة ، ومنهم الأمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس — وهو الخصم اللدود لصليبيي الشرق ، وملك صقلية مانفرد بن الأمبراطور فردريك الثاني . ويبدو أن هذا الحلف بين بيبرس ومانفرد حمل الأمير سارا الأنجوي على الأخذ الى إرسال بعثة لتأكيد حسن علاقته بالسلطان بيبرس ، واستقبل بيبرس هذه البعثة ، وأكرم وفادتها بالقاهرة سنة ١٢٦٤ . وحالف السلطان بيبرس الملك بركة خان صاحب القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق وعاصمتهم سراي في وادي الفولجا ، وهو أحد أحفاد جنكيزخان . وكان بركة خان على دين الإسلام منذ سنوات ، غير أن العلاقة الدينية وحدها لم تكن هي التي أدت الى هذا الحلف ، بل كان اتجاه الدولة المغولية الفارسية نحو الأقاليم المجاورة لمملكة القبيلة الذهبية هي التي أدت الى تبادل الرسل والسفارات بين القاهرة وسراي ضد العدو المشترك .

ثم حالف بيبرس دولة سلاجقة الروم وأرمينيا الصغرى . فلم تقل هذه عن هذه المحالفات السابقة ، لأن الوضع الجغرافي لهذه الدولة السلجوقية جعلها مسرح خطر على الأطراف الشمالية الغربية من ناحية ، وأطراف مملكة أرمينيا الصغرى المسيحية من ناحية أخرى . على أن أعظم ما اهتم له السلطان بيبرس وقتذاك هو احتمال قيام الدولة المغولية الفارسية بهجوم مفاجيء على الأطراف الشمالية الشرقية عن طريق أعالي العراق ، وكذلك عن طريق الغزو ومعاونة بني آسيا الصغرى وقلاعها ، على حين أصبحت القلاع الشامية التي سبق هولاكو وجنوده لغزوها أثناء الزحف المغولي الأول .

لم يكن عجيب بعد هذه الاستعدادات والمحالفات والاحتياطات ، وبعض المحاولات التجريبية الناجحة التي قام بها بيبرس أوائل سنة ١٢٦٥ ضد الصليبيين والمغول أن يقوم هذا السلطان منذ أواسط هذه السنة بحملات حربية عنيفة في أكثر من جهة واحدة . وإذا تضمنت حركاته التالية في هذه الجهات بكثير من الغدر والمكر والقسوة ، فإن هذه الحركات كانت في ذاتها سلسلة من الضربات المتواصلة دالة على أن السلطان بيبرس امتاز بعزيمة لا تكل ، وعقلية ناشطة ، ومقدرة على الحصر النقل بين مصر والشام [illegible] دفة الحكم ، وقادة سياسيين ممتازين قلائل .

وبدأ بيبرس هذه الانتصارات المتواصلة بالاستيلاء على قيسارية وعتليت وحيفا

ولم يتوقف عن الصليبيين حتى أن سعى سنة ١٢٦٥ ، ثم عاد إلى مصر ليستأنف رحلة تفتيشية لمعرفة أحوال حصون الإسكندرية وتنظيم قواته بجيش جديد من المماليك . ثم رجع بيبرس الى الشام سنة ١٢٦٦ ، وأمر بمهاجمة مدن الصليبية على امتداد الساحل الشامي ، على حين استولى هو على صفد ، وعاد منها الى دمشق ليسير بنفسه على رأس حملة ضد مدينة سيس عاصمة أرمينية الصغرى ، وتمت هذه الحملة الأرمينية بتخريب سيس ، وكل ذلك في سنة واحدة وبعد زيارة قصيرة للقاهرة أوائل سنة ١٢٦٧، ذهب بيبرس إلى الشام حيث تفقد تحصينات مدنه الجديدة ، ثم عاد الى القاهرة مزهواً بنتائج حروبه . ثم رجع بيبرس إلى الشام أوائل العام التالي (سنة ١٢٦٨) فاستولى على يافا وشقيف أرنون ، وألقى الحصار أخيراً على مدينة انطاكية ، وهي وقتذاك عاصمة أهم الامارات الصليبية الباقية بالشام وحين الاستيلاء على هذه المدينة استطاع بيبرس نصر وأمن ، فقضى أيام سنة ١٢٦٩ مستقلاً في سلام بين مصر والشام وبلاد العرب وأدى فريضة الحج في نجيب عليه ، وأكد السيادة المملوكية على مكة والمدينة والحرمين الشريفين وعاد إلى القاهرة بعد أن عين والياً في مكة للاشراف على الكسوة التي أهداها السلطان للكعبة مطرزة باسمه محروفة من الذهب

وفي سنة ١٢٧٠ جرى السلطان بيبرس مفاوضات مع طائفة الاسماعيلية الحشيشية بالشام ، وتم الاتفاق على [illegible] صلح مدته [illegible] الطائفة [illegible] حرية [illegible] السلام بين الطرفين . وفي هذه السنة نفسها قام ملك لويس التاسع بحملته الصليبية على تونس ، فرأى بيبرس أن يظل بالقاهرة ليرقب أخبار هذه الحملة عن كثب ، وأعلن استعداده لمساعدة تونس ضد الغزاة الصليبيين . غير أن موت الملك لويس التاسع في تونس بدد جميع مخاوف بيبرس فسار الى الشام سنة ١٢٧١ حيث استولى على صافيتا وحصن الأكراد وعكا ، واعقب ذلك بحركات خاطفة استولى فيها على بعض قلاع الاسماعيلية ضماناً لهم على تفضل ما بينه وبينهم من اتفاق وحرية وسلام . ثم رجع بيبرس الى القاهرة أواخر تلك السنة ، لكنه عاد مرة أخرى الى الشام سنة ١٢٧٢ ، حيث تفقد حاميات المدن التي استولى عليها من الصليبيين في حملاته السابقة

وفي هذه السنة نفسها (١٢٧٢ م) أرسل بيبرس أسطولاً عدته [illegible] عشرة سفينة للاغارة على قبرص ، [illegible] عاصفة غرقته بشواطئ ولم تستطع سفينة من سفنه أن تصل الى الشواطئ القبرصية . وفي العام التالي أي سنة ١٢٧٣ غادر بيبرس دمشق الى سيرة على الفرات [illegible] تلك [illegible] [illegible] كبرى بعد أن عبر النهر [illegible] على [illegible] وفي طريق عودته الى دمشق [illegible] بيبرس على [illegible]

قلاع الاسماعيلية ، على حين كانت قوات منكوتمر تعيث في برقة وأرمينية الصغرى ، فضلا عن الدولة التي عقدت معاهدة مع الدولة المملوكية في حل مشاكلها الداخلية ، ولا سيما وراثة عرش مملكة النوبة

وتعرضت الامارات الصليبية وقتذاك الى مستقبل يقتضي هدنة عامة عقدها بيبرس مع كل من هذه الامارات سنة ١٢٧٤ ؛ وربما كانت هذه الهدنة هي التي شجعته على الزحف بنفسه على أرمينية الصغرى سنة ١٢٧٥ ؛ حيث استولى على سيس وأياس ، كما شجعته على الزحف بقوة حربية مرة أخرى الى الشمال سنة ١٢٧٦ ، حيث أحرز انتصارا كبيرا على قوات المغول والسلاجقة بالروم ؛ ودخل العاصمة السلجوقية قيصرية وجلس على عرش سلاطينها ، وأخيرا عاد بيبرس الى دمشق أوائل سنة ١٢٧٧ وتوفي بتلك المدينة وهو في أوج مجده بعد مرض قصير بسبب تناوله شرابا مسموما

ويقال ان بيبرس كتب في أواخر أيامه وصية الى السعيد بركة ، وهو أكبر أبنائه وولي عهده في السلطنة وبها نصحه في هذه الوصية بالحذر من كبار الأمراء مما نصه « متى بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك ، فاقطع رأسه عنه ، فاحترس منه في وقته ، ولا تمهله ، ولا تستشر أحدا في هذا ، وافعل ما أمرتك به والا ضاعت مصلحتك » على أن العطف على سلطنة بركة بعد ... الله من مدة

في أغسطس سنة ١٢٧٩ ، حتى خلعه قلاوون ، وأقام مكانه أخاه بدر الدين سلامش وهو طفل في السابعة من عمره ... سلامش ثم لم يلبث قلاوون أن خلع سلامش كذلك في نوفمبر سنة ١٢٧٩ ، وأقام نفسه سلطانا

وكان السلطان قلاوون — مثل بيبرس — من المماليك البحرية ، ورفيق زملائه من أيبك ؛ وعاد الى مصر صحبة بيبرس تلبية لنداء قطز في محنته لقتال المغول . ولما آلت السلطنة الى بيبرس خدمه قلاوون أحسن خدمة ، وظهرت كفايته في الحرب ضد المغول وأرمينيا الصغرى ، ولكنه بدا مغضوبا عليه أواخر أيام بيبرس لأسباب غير واضحة ؛ وواجه قلاوون معارضة قوية لسلطنته ؛ واصطبغت هذه المعارضة بلون من الولاء لأبناء بيبرس، وهي في الواقع لم تخرج عن أن بعض أمراء المماليك الذين أسهموا بقسط وافر في الانتصارات البيبرسية أحسوا أن لهم حقا مثل قلاوون في السلطنة

ومن هؤلاء سنقر الأشقر نائب دمشق الذي أعلن نفسه سلطانا بها ، ووجد تأييدا لحركته في الشام وفلسطين . واستطاع قلاوون أن يقضي على هذه الحركة في موقعة حربية جنوبي دمشق ، غير أن سنقر تمكن من الفرار ؛ وذهب الى ملك المغول أبغا بن هولاكو يطلب نجدته . وكان أبغا من أشد الدعاة لمشروع التحالف بين الصليبيين والمغول ضد المماليك ، ... الاستنجاد لمساعدته أنه حركة ثورية ضد السلطنة

المشروع لم يتحقق يوما من الأيام مع العلم بأن قلاوون نفسه كان يخشى تحقيقه في عهده ، فعمل جاهدا على عقد عدد من محالفات وصلات مع مختلف القوى الأوروبية والامبراطورية البيزنطية ومملكة قشتالة وصقلية ، وجمهورية جنوة ، وبعض من الامبراطور رودلف هابسبرج ، مقتفيا في ذلك أثر سياسة بيبرس.

وفي طريقه لصد الغزو المغولي ، أي قبل وقعة حمص ، جدد قلاوون الهدنة العامة التي عقدها بيبرس في أواخر أيامه مع المدن الصليبية. وكانت هذه الهدنة لمدة عشرة أعوام ، فأضاف إليها قلاوون شروطا مجحفة دالة على مدى ما صارت إليه الإمارات الصليبية الباقية من ضعف واضمحلال. ومع هذا لم يكن في نية قلاوون أن يحترم هذه الهدنة بعد فراغه من المغول ، إذ أراد — مثل بيبرس — أن يقوم كذلك ضد الصليبيين بدور حربي مشابه لما قام به صلاح الدين. ولما لم يكد قلاوون يعلم بخيبة مشروع أرغون في عقد حلف مغولي صليبي ضد سلطنة المماليك حتى أخذ هو يركز جهوده ضد المدن الصليبية.

وكان قلاوون عندئذ في الخامسة والسبعين من عمره ، ويبدو أنه اشتهى أن يختتم حياته بصفحة من الجهاد الذي اكتسب بيبرس شهرته في خدمة الدين. وحصل قلاوون غايته الأولى حصن الاسبتارية ، بالمرقب التابع للإمارة المسيحية لإمارة طرابلس ، فافتتحه ، ثم

المملوكية في مصر أو الشام. وقد تمخض عن حركة سنقر دعوته ملكية تشمل الشام في صيف سنة ١٢٨٠ ، وجمعت كثيرا من القوى المحيطة بحلب ، وخرج قلاوون بنفسه لمواجهة هذه الحروب ، على حين أرسل إلى سنقر يسترضيه بأن تكون له بعض المدن في شمال الشام يحكمها حكما مستقلا ، وأن تكون مرتبته من حيث الوظيفة والإقطاع تالية لرتبة السلطان. وبفضل هذه الترضية استطاع قلاوون أن يركز جهوده ضد المغول الذين دخلوا حلب مرة أخرى بقيادة منكوتمر — أخي أبغا ، وانضم إليهم عدد من أرمينيا الصغرى وجورجيا وغيرهما من البلاد التي خضعت للمغول. وأخيرا وقعت الواقعة بين الطرفين عند حمص (أكتوبر سنة ١٢٨٠) حيث هزم منكوتمر ، واضطر إلى الانسحاب من الشام.

وبعد ذلك بعام توفي أبغا وخلفه في الإيلخانية الفارسية أخوه تكدار الذي ترك المسيحية واعتنق الإسلام ، وبعث خطاباته الودية إلى قلاوون على مدى تمسكه بدينه الجديد وهي خطابات كرر فيها تكدار رغبته في العيش في ظلال السلام مع جميع البلاد الإسلامية المجاورة. غير أن الإيلخانية نفسها لم تشاركه في هذه الرغبة ، حتى إذا اغتال عرشها سنة ١٢٨٤ أرغون ، فقلبت سياسة تكدار رأسا على عقب ، وأخذ أرغون في إحياء مشروع إنشاء حلف صليبي — مغولي ضد السلطنة المملوكية. على أن هذا

اسبتارية في مرقب الداخلية حامية واضطر الاسبتارية الى التسليم والجلاء في مايو سنة ١٢٨٥. ثم حول قلاوون صوب مرقية وهي قلعة حصينة على ساحل البحر ، وصاحبها تابع اقطاعي للكونت بوهيمند سابع أمير طرابلس. وأنذر قلاوون الكونت بوهيمند بأنه اذا لم تجرد هذه القلعة من سلاحها وحاميتها ، فانه سوف يشن الحرب على امارة طرابلس نفسها. فأسرع بوهيمند الى اصدار التعليمات بتنفيذ ذلك سنة ١٢٨٦ ، في سبيل انقاذ الامارة الطرابلسية. وأسرعت كذلك مرجريت أميرة مدينة صور في شراء السلم من قلاوون بنزولها عن املاكها ، وعقد ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى اتفاقية مشابهة تعهد فيها بدفع جزية سنوية باهظة للسلطان.

وأحس قلاوون بأنه حقق مغانم كبيرة من الصليبيين في غير عناء ، فأغراه هذا للتوغل بجيشه القديم سنقر الأشقر ، واستطاع أن يخرجه من املاكه الواسعة في شمال الشام سنة ١٢٨٧ ، وأن يحمله على الفرار ليعيش في القاهرة بطالا ، أي بعيدا عن الحياة السياسية.

وفي السنة التالية (١٢٨٨) انصرفت جهود قلاوون في سورية ، اذ أرسل حملتين تأديبيتين لتنظيم العلاقة بينه وبين السلطنة المملوكية على قاعدة التبعية التي أنشأها بيبرس من قبل. وفي السنة نفسها توفي بوهيمند السابع أمير طرابلس دون أن يعقب وريثا ، فأعقب الخلافات الشديدة حول عرشه تمكنه قلاوون بالاستيلاء على مدينته ثم أتى بنفسه وحاصرها وضرب حصونها حتى تم له الاستيلاء عليها سنة ١٢٨٩. وبعد ذلك بعشر استولى قلاوون على قلعة البترون. حصون طرابلس بعد أن حرمها من الاخرى ثم عاد الى مصر حيث عقد العزم على مهاجمة عكا ، وهي البقية الباقية للصليبيين بالشام بعد أن ادعى أن التجار المسلمين يعاملون فيها معاملة سيئة ، مبررا بذلك من رغبته حربي ضدها. غير أنه مرض ومات قبل أن يحقق هذه الخطوة النهائية ضد الصليبيين وكانت وفاته في نوفمبر سنة ١٢٩٠ في معسكره خارج القاهرة ، وهو في السبعين من عمره.

واذا اقتفى قلاوون أثر بيبرس في سياسته ضد الصليبيين والمغول ، بحكم تقارب الأهداف والأحوال ، فانه اقتفى أثر بيبرس كذلك في اقامة المباني والعمائر في مدن مصر والشام ، ومن ذلك مسجده وضريحه المشهوران بالقاهرة. أما المستشفى العام أو البيمارستان الذي أنشأه قلاوون بالقاهرة ، فاكتسب سمعته شهرة خاصة ، مع العلم بأن هذا المستشفى لم يكن الأول من نوعه في قاهرة العصور الوسطى. واهتم قلاوون بتقوية الجيش المملوكي ورفع مستواه ، واضاف فرقة جديدة تبلغ ثلث عدده القديم ، وجعل اقامة هذه الفرقة الجديدة بأبراج القلعة ، ومن ثم سمي أفرادها باسم البرجية.

وعين قلاوون ابنه الأكبر علاء الدين ليكون خلفا له في السلطنة ، غير أن هذا الابن توفي في حياة أبيه ، فصار أخوه خليل هو الولي التالي. برغم ما اشتهر به من ميل الى العنف

والشر فضلاً عن الظن بأنه دس السم لأخيه خليل.

ولقد رفض قلاوون التوقيع على نص تعيين خليل بولاية العهد ، وظل قلاوون كارهاً له حتى وفاته ، وكان ينوي أن يسند ولاية العهد لابن صغير أنجبه في أخريات أيامه من زوجة مغولية شابة ، اسمه محمد . لكن وفاة قلاوون على غير انتظار لم تترك مجالاً للتردد وأقيم خليل في السلطنة وعلى أن اجتمع مجلس المشورة بإعلان سلطنته في نوفمبر سنة ١٢٩٠ ؛ وتقليده بولاية العهد ، فقال إن السلطان امتنع أن يعطيني ، وقد أعطاني الله !

على أن السلطان خليل الذي كان ينسب إليه من ميل إلى الغدر والعنف ، فعكف على الانتقام من رجال أبيه ، مبتدئاً منه بأهم السبب في تشويه سمعته واتهامه بدس السم لأخيه . وقد بدأ حكمه من هذه الناحية بداية سيئة مخيفة من أعمال المصادرة والتعذيب والسجن والقتل ، وكان الأمير طرنطاي خصيمه القديم أول من ناله كل هذا وذاك حتى مات في السجن . وتقاسمت حينئذ مع هذه نوبات من كرم الخلق وحسن السلوك إذ نزل مثلاً عن أملاك طرنطاي لابنه ، وأعفى أرض مصر والشام من المتأخر عليها من بعض الضرائب من عهد أبيه ؛ كما أنه أعاد ذكرى أبيه قلاوون حياة سلوكاً حافلاً

أما من الناحية السياسية الخارجية ، فقد كان خليل على سماحته مقداماً وافر الهمة كما هو واضح من تصرفاته في أكثر مواقفه . وكان أول ما عني به ، في سبيل تنفيذ مشروع أبيه ، الزحف على عكا فأضاف إلى الاستعدادات الكائنة مدداً من الجند وكثيراً من أدوات القتال ، حتى غادر الآلاف العسكر حول عكا في ربيع سنة ١٢٩١ في كثرة سابقة ضد أية مدينة من مدن الصليبيين بالشرق . على أن عكا كانت هي الأخرى محصنة تحصيناً قوياً ، وقد قاومت مقاومة مستمرة عشرة أيام متتابعة ، حتى قرر خليل مهاجمتها والاستيلاء عليها عنوة .

وهنا يضيق المجال عن وصف أعمال الشجاعة والبطولة التي بذلها المهاجمون والمدافعون سواء ، مع العلم برجحان كفة الجيوش المملوكية ، بعد أن مات الصليبيون وبقي بهم في الشام من المدن الكبرى سوى عكا . ثم كان الهجوم النهائي على عكا صباح يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٢٩١ ؛ فعانت المدينة مدة عشرة أيام بعد ذلك تصبح بيداً للهجوم والخدع ، والكر والفر حتى انتهى الأمر بهدم تحصيناتها وسقوط المدينة نفسها في أيدي جيوش السلطان خليل بن قلاوون . وهكذا سقطت عكا آخر معاقل الصليبيين بالشام ، وفي نشوة الانتصار البادية تم الاستيلاء على سائر المدن الساحلية التي كانت لا تزال في قبضة الصليبيين ، فهدمت حصونها ، تفادياً للحروب التي استجابت إلى عقب سقوطها ...

وحين رجع السلطان خليل من عكا إلى دمشق ، وفي موكبه عدد كبير من الأسرى

[illegible] على سداد التي [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

والعصور الزراعية ، فضلاً عما توافر من موارد الضخمة المستمدة من التجارة العابرة . وفضل ما أجراه الناصر في مدته من إصلاحات في مرافق الزراعة في كل من مصر والشام .

وإذا تولى السلطنة المملوكية بعد الناصر محمد ثمانية من أبنائه ، واثنان من أحفاده ثم اثنان من أبناء أحفاده على التعاقب ، فيتضح من هذا وحده أن شيئاً من مبدأ تولية الابن الأكبر للحكم قد دخل ما سبيل تفصيله من تعصب آل السلطان قلاوون مؤقتاً على الطريقة المملوكية المعهودة . وقد أشبهت هذه السلسلة الطويلة من أبناء السلطان الناصر محمد سلسلة الملوك الميروفنجيين المتأخرين الذين حكموا فرنسا أوائل العصور الوسطى . غير أن سلطة الواحد من أولئك السلاطين من أبناء الناصر وأحفاده لم تمتد إلا بمقدار ما سمح به زعيم أو آخر من زعماء المماليك ، وظل الأمر على ذلك تقريباً حتى استطاع برقوق ، زعيم المماليك البرجية ، أن يتخلص من آخر سلالة الناصر محمد في سنة ١٣٨٢ ، فأضحى بذلك أول سلاطين المماليك البرجية أو الجراكسة في مصر .

وفي خلال هذه الفترة التي استمر فيها حكم أولاد الناصر وأحفاده ، جدت بها الناحية المعقدة وأشدها قسوة ، وهي ثلاث حوادث متصلة في أهميتها ودلالتها في التاريخ المملوكي . وأول هذه الحوادث الوباء الكبير المعروف في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى باسم الوباء الأسود ، وهو الوباء الذي نزل بالفناء ونال أهل مصر وسائر سكان الشرق الأدنى بين سنة ١٣٤٨ وسنة ١٣٥٠ ، وامتد كذلك إلى أوروبا وأدى إلى خسائر فادحة في الأرواح والماشية والزراعة ، وترتب عليه نتائج اقتصادية واجتماعية في الشرق والغرب .

أما الحادث الثاني فهو أن أسطولاً مؤلفاً من سفن قبرس ورودس والبندقية وجنوه ، جاء يحمل جنوداً من عناصر مختلفة ، وهاجم الإسكندرية في خريف سنة ١٣٦٥ . وتولى قيادة هذا الأسطول بطرس الأول لوزجنان ملك قبرس ، وهو الذي أنشأ طائفة الفرسان الصليبيين المعروفة باسم طائفة السيف ، لاسترجاع بيت المقدس من المسلمين . واستولى هذا الأسطول على الإسكندرية واستباحها جنوده أسبوعاً ، فلم يسلم من شرهم وأذاهم مسلم أو يهودي أو مسيحي . ثم غادر الأسطول ميناء الإسكندرية ، بعد أن حمل معه ما يقرب من خمسة آلاف أسير من الرجال والنساء من اليهود والمسلمين والنصارى ، ويروي شاهد عيان من المسلمين أن سبعين سفينة من هذه السفن أبحرت من ميناء الإسكندرية محملة بأنواع المغانم ، فضلاً عن هذا العدد الكبير من الأسرى . وأعقب هذه الكارثة مفاوضات مع قبرس للصلح والاتفاق تتخللها حروب من حين إلى آخر من غارات قبرصية على سواحل الشام ومصر للضغط على السلطان وأتباعه حتى عقد الصلح بين قبرس والسلطنة المملوكية

سنة ١٣٧٥ بعد أن توسط سهمه كل من جمهوريتي جنوه والبندقية.

أما تجاهل الشمال فيرتبط بمملكة مسيحية في ... المصري بإقليم قيليقية بأطراف آسيا الصغرى مطلة على الشام، إذ دأبت هذه المملكة منذ تأسيسها على تقديم المساعدة للصليبيين في الشرق، فأصبحت بذلك هدفا للإغارات المملوكية المتكررة على منطقة هكذا في يد السلطان خليل ... مملكة أرمينية الصغرى هذه الهدف الثاني للحملات المملوكية، حتى استولى أمير حلب المملوكي على عاصمتها سيس، سنة ١٣٧٥، باسم السلطان شعبان، والقسم الأصغر المقصود أن ... هذه المملكة، بعد إعلان تبعيتهم للسلطنة المملوكية. أما ليون السادس آخر ملوكها فقد وقع أسيرا، وحمل إلى القلعة بالقاهرة حيث بقي في أسره إلى أن جرى افتداؤه سنة ١٣٨٢، وهذه السنة هي التي صار فيها برقوق أول سلطان في دولة المماليك الجراكسة أو الدولة المملوكية الثانية.

يبقى للقارئ هنا بعد هذا العرض العابر تصور عام للحكم المملوكي من حيث البناء السياسي ونظم الحكم والجهاز الإداري والاقتصادي، فضلا عن التركيب الاجتماعي والحركة الفكرية، والنشاط المعماري الذي تميز به عصر سلاطين المماليك. وأول ما يبدو واضحا من ملامح هذا العصر أن أقلية حربية مملوكية حاكمة مستندة إلى طبقة عسكرية من المماليك هي التي تسيطر على البلاد. ورمز سيطرتها السلطان هو نفسه مملوك من هذه الطبقة إلا إذا كان ابن سلطان. وأحاط نفسه هذه الأقلية المملوكية الحاكمة بالسلطان، وكانوا مثله أو عدد منهم مثله مماليك صغار في الحوش السلطاني خاص أو حيوش الأمراء، ثم تدرج عدد منهم في المراتب العسكرية تدرجا متناسبا مع طبقته. وكان مماليك جميعا — مثل السلطان — غرباء عن البلاد، ينتمون إلى بلاد وأصول عديدة، وإن كان معظمهم في القرن الثالث عشر من مغول القبجاق الذين تنتمي إليهم بيبرس وقلاوون، فإن أفرادا منهم جاءوا من إيطاليا وبلاد روسيا والصين. وتلقى أولئك المماليك تربية على أسس من الفروسية الإسلامية، وفق مراتب عسكرية ووظائف سياسية معينة، بحيث حدث فيما بينهم تقسيم للمناصب العسكرية والوظائف البلاطية وإقطاعاتها فضلا عن الوظائف الإدارية الكبرى وإقطاعاتها في مصر وسائر أقاليم الدولة المملوكية. وكانوا جميعا مسلمين بحكم اندماجهم في الزمرة المملوكية، وأطلق عليهم عموما اسم رجال السيف تمييزا لهم من رجال القلم، وهم أصحاب الوظائف الديوانية المدنية من أهالي البلاد مسلمين وغير مسلمين، وشغل عدد غير مسلمين في الوظائف الديوانية ولا سيما الوظائف المتعلقة بالأموال وحساباتها أغلب الأحيان.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

برغم أنهم من مصر التي عاشوا في كنف سلطانهم ، أو كان كونهم عبيداً بين عشية وضحاها ثم صاروا حكاماً عن طريق التربية والشعور ، أو كان حداثة عهدهم بالإسلام جعلتهم متحمسين لإقامة الشعائر الدينية ، من باب التقوى والزلفى إلى الله ، أو من باب السياسة واجتذاب القلوب . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن المماليك السلاطين كانوا أكثر عناية بتخليد أسمائهم في منشآت معمارية أعطت ملامح القاهرة ومعالمها وآثارها مسحة من الجمال والهندسة والذوق الفني بالإضافة إلى مسحتها التي امتازت بها منذ أيام الفاطميين والأيوبيين .

ومن هذه المنشآت المعمارية المملوكية عدد كبير من المساجد والمدارس والخوانق التي تزين السماء القاهرية بمآذنها الرائعة ، من مآذن سامقة وقباب فاخرة ، وقلما أحياء القاهرة القديمة بآثار لا يرى فيها الزائر سوى صفحة البيع . وأول هذه المنشآت مدرسة بناها السلطان المعز أيبك التركماني بمصر (مصر العتيقة الحالية) على شاطئ النيل قبالة مقياس جزيرة الروضة ، وأطلق عليها اسم المعزية نسبة إليه وهي فيما يرجع أول مباني الدولة المملوكية بالقاهرة ، وأعقب هذه الفاتحة المعمارية سلسلة من مباني متنوعة الدالة بكثرة عددها على ما تقوم به الدولة المملوكية حينها . واقتناع سلاطينها بأن لتلك المباني من نصيب في ذلك الاستقرار ، فضلا عن تأثيرها في مصائر السلاطين أنفسهم في الحياة الدنيا والآخرة . ومنها بنى السلطان الظاهر بيبرس مسجده العظيم المعروف باسمه ، والذي يعرف به أحد أحياء القاهرة الحديثة ، وهذا المسجد بالإضافة إلى مدرسته الظاهرية وهي كذلك بالقاهرة بشارع النحاسين .

أما السلطان المنصور قلاوون ، فهو صاحب المارستان المنصوري الذي وصفه أحد مديري الأداريين ، وهو النويري المؤرخ ، وصفاً تفصيليا في كتابه « نهاية الأرب في فنون الأدب » ولا يزال جزء من هذا البناء يستخدم مستشفى لأمراض العيون ، ويسمى مستشفى قلاوون ، ولهذا السلطان وعهده يرجع كذلك بناء المدرسة المنصورية ومدرسة زوجته أم ابنه الأكبر الصالح علي ، ومدرسة ابنه الثاني خليل ، وهذه وتلك فضلا عن القبة المنصورية ، ومكتب السبيل المخصص لتعليم الأيتام .

ثم يأتي بعد ذلك عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهو عصر الذروة المعمارية المملوكية ، بكل ما في ذلك الوصف من معنى ، إذ استمر الحكم الفعلي المباشر لهذا السلطان مدة اثنين وثلاثين سنة (١٣٠٩ — ١٣٤١) ، وخلت هذه السنوات الطويلة من أية حروب خارجية أو فتن داخلية كبرى ، فانصرف السلطان — وساؤه وأمراؤه معه — إلى أعمال معمارية مختلفة المقاصد والمنافع ، وأولها من حيث الأهمية عدد حافل من

الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والقباب ، إذ هي تبلغ نحو ... ، ومنها على سبيل المثال جامع السلطان الناصر محمد بالقلعة ، ومسجد الأمير الماس الحاجبي ، بالتبانة ، ومدرسة الأمير أقبغا عبد الواحد داخل الجامع الأزهر ، وخانقاه الأمير قوصون بالقرافة القبلية ، وقبة طشتمر حمص أخضر بالقرافة الشرقية ، وجامع ست حدق القهرمانة بحي الناصرية . ويضيق المجال هنا عن ذكر ما عدا ذلك من هذه المباني التي تملأ أوصافها صفحات من كتاب المقريزي الذي عنوانه « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » .

وبالإضافة إلى هذه المنشآت ذوات الصفات الدينية والتعليمية والتذكارية أنجب النشاط المعماري المملوكي مجموعة معمارية ثانية من القصور السلطانية والدور الأميرية التي بناها السلاطين لأنفسهم أو لأمرائهم ، أو بناها الأمراء أنفسهم تقليدا لسلاطينهم بالعمائر . وإذ أنجبت عصور السلاطين العسكريين وهم أيبك وقطز وبيبرس وقلاوون وخليل ، عددا قليلا نسبيا من هذا النوع الثاني من المنشآت المدنية ، نظرا لاهتمامهم بالمنشآت العسكرية ، فإن هذه القلة النسبية أعقبت نهضة في النشاط المعماري الذي امتاز به عصر السلطان الناصر محمد ، وبرهان ذلك أنه على حين اقتصر عصر السلطان بيبرس على بناء القصر المعروف بدار الحديد بالقلعة (المواعظ ج ٢ ص ٢١٣) وقصر عصر السلطان قلاوون على مبانيه التي تقدمت الإشارة إليها . كما اقتصر عصر السلطان خليل بالدار الأشرفية وقصر الزهومة (المواعظ ج ٢ — ٢١٣) امتلأ عصر السلطان الناصر محمد بعدد كبير من هذه المنشآت المدنية ، وأعظمها القصر الأبلق الذي بناه السلطان الناصر بنفسه ، وجعله مطلا على الميدان المخصص للعب الأمراء بالكرة والصوالجة (بولو) وعمر السلطان الناصر كذلك القصر المعروف باسم السبع قاعات بقلعة الجبل (المواعظ ج ٢ — ٢١٢) وجعله لجواريه وسراريه ، كما أنه عمر بالقلعة لكل أمير من الأمراء أزواج بناته الإحدى عشرة دارا خاصة . ثم إن السلطان الناصر عمر عدة قصور لبعض أولئك الأزواج من كبار الأمراء ، ومنها قصر طشتمر الدمشقي بحدرة البقر وقصر بكتمر الساقي على بركة الفيل ، وقصر بهادر الجوباني تجاه قلعة الكبش (المواعظ ج ٢ — ٥١٠) . ولم يكتف هؤلاء وأولئك من الأمراء بما أغدق عليهم السلطان الناصر محمد من منشآته ، بل أخذوا يتنافسون فيما بينهم لتشييد قصور إضافية لأنفسهم ، ومن قصور انتشرت على طول الخليج الناصري (الخليج المصري) من قرب ميدان باب اللوق الحالي إلى منطقة سراي القبة الواقعة على مسافة عشرة كيلو مترات شمالي القاهرة الحالية ومن هذه القصور دار الأمير بكتمر أمير آخور ، ودار أقبغا ، ودار طقزدمر

[illegible]

[illegible]

والهوامش والحواشي عن ظهر قلب وهؤلاء
وأولئك فضلا عن نصوصه ، وهم في [illegible]
[illegible]
[illegible] والارشاد

غير ان المجال لا يسمح [illegible]
الاجتماعية [illegible]

[illegible]

ميرس [illegible] في يومي الاثنين
والخميس من كل أسبوع فيستعرض شئون
[illegible] ، ويستمع الى الشكاوى
التي تصل اليه [illegible]
[illegible] التي [illegible] السلطان
— [illegible] أحد [illegible] الأعمال نواب السلطنة ،
وهي التي [illegible]

[illegible]

الدولة المملوكية الثانية

للدكتور محمد مصطفى زيادة

(١٣٨٢ – ١٥١٧ م)

عني المقريزي المؤرخ على حساسية قوية بالعصبية التاريخية الدينية ، حين وقف في كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » عند منتهى أيام السلطان حاجي بن شعبان ، وهو آخر سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، وقال عقب « انقضاء دولة الأتراك ومبدأ الدول » ، ثم بدأ في السطر التالي بداية عهد السلطان برقوق ، وهو أول سلاطين الدولة المملوكية الثانية . بعبارة أخرى وقف المقريزي وقفته هذه ليودع دولة ويستقبل أخرى في آن واحد ، لأنه يعلم تمام العلم أن الدولة المملوكية الثانية لن تكون في جملتها أو تفصيلها سوى امتداد للدولة المملوكية الأولى من حيث الخصائص العنصرية ، والتنظيمات الادارية ، والاتجاهات الاقتصادية والقواعد السياسية ، وهذا فضلا عن التقبل بين أهل مصر والشام وغيرهم من الولايات المملوكية من الرضى العام بالحكم المملوكي — أوله وتاليه — رغم أجنبيته وعصبيته لاستعلائه على أهل البلاد .

غير أنه لم يكن من المنتظر أن يمر حادث خلع السلطان حاجي وإقامة السلطان برقوق دون احتجاج من ناحية بعض الشخصيات المملوكية التي سئمت حكم السلطان المخلوع كما سخطت على السلطان الجديد وصعوده إلى دست السلطنة . ولهذا لم تلبث هذه الشخصيات المملوكية أن تآمرت لإقامة الخليفة المتوكل العباسي سلطانا في دولة من نوع جديد ، كما لم يلبث السلطان برقوق أن هدم هذه المؤامرة سنة ١٣٨٣ ، لكن مؤامرة ثانية تكونت سنة ١٣٨٩ ، وتزعمها أميران مملوكيان مناهضان للسلطان برقوق ، وهما منطاش أمير حلب ، ويلبغا أمير ملطية . واستطاعت هذه المؤامرة الثانية أن تقبض على السلطان برقوق وترسله منفيا إلى الكرك ، وأن تقيم الصبي حاجي في السلطنة مرة أخرى . ثم هرب برقوق من سجنه ، وجمع لنفسه جيشا استطاع به أن يستعيد مركزه ، وأن يدخل القاهرة سنة ١٣٩٠ محوطا بأنواع الاحتفال والترحيب ، بعد أن أمر بخلع الصبي حاجي ، مع السماح له بالاقامة بالقلعة وسط جواريه وحشمه .

وبينما تغلب برقوق على هذه الأخطار الداخلية ظهرت في الأفق الخارجي أخطار من

ناحية الجنوب نحو الهند التي أصبحت الهند المسلمة فيما بعد، وأزعج بها أرجاء آسيا الوسطى والهند والشرق الأوسط، أواخر القرن الرابع عشر الميلادي. ذلك أنه لم يكد تيمورلنك يعود من فتوحاته بعرقه بالهند حتى بدأ يتحسس بمعركة بجنوده ليبحث عن ميدان جديد للحرب والتدمير، فزحف على العراق واستولى على بغداد سنة ١٣٩٣، وعلى ماردين في السنة التالية، وهي مدينة تابعة لسلطنة المملوكية وقتذاك. ولم تكن السلطان برقوق تعوزه الشجاعة، فنهض لمقاومة هذا الخطر الجديد، واستطاع أن يقيم جبهة قوية متحدية بمساعدة تيمورلنك وتدابيره. وأول ما قام به برقوق في سبيل تكوين هذه الجبهة أنه اتصل بملوك البلاد المعرضة لخطر تيمورلنك، وهم قره يوسف التركماني، وبرهان الدين أمير سيواس، وبايزيد الأول السلطان العثماني، وطقتمش خان القبيلة الذهبية بحوض نهر الفلجا. ولوفر للسلطان برقوق من الصلابة والشجاعة ما جعله يرحب بمعاونة الغريب سلطان بغداد المعروف باسم أحمد الجلائري إلى القاهرة. وما أرسل تيمورلنك إلى برقوق سفارة لمفاوضته على قاعدة الاعتراف بسيادة التيمورية، أمر برقوق بقتل السفراء، فجرى بذلك على نهج ما فعله السلطان قطز عشية معركة عين جالوت. وأعقب ذلك أن حشد جيش مملوكي عند مدينة البيرة على نهر الفرات، وهي مدينة التي شهدت انتصارات مماليك على مغول من بيبرس وقلاوون. أما تيمورلنك فدفع وجهه كل نشاطه وقدرته إلى حروب في بلاد الكرج وأقصى الشمال ضد طقتمش الذي اعتبره أخطر أعدائه. وأما برقوق فإنه مات في يونيه سنة ١٣٩٩ قبل أن تتهيأ له الفرصة وشجاعته وبطولته في قتال المغول.

وتولى السلطنة بعد برقوق ابنه فرج، وهو أكبر أبنائه، وأمه يونانية، وكذلك كانت أم الأتابكة تغري بردي والد المؤرخ المعروف أبي المحاسن يوسف، مؤلف كتاب «النجوم الزاهرة». ولم يكن فرج عند سلطنته يجاوز الثالثة عشرة من عمره، فكان أن لعبت جانبه في جو حافل من المؤامرات الداخلية حتى اتخذه عند قيام سلطان صغير، ولم يلبث أن سار في الشام أواخر سنة ١٤٠٠ على رأس الجيش المملوكي الزاحف لوقف المد التيموري المباشر نحو الأراضي المملوكية. وكان لتيمورلنك تحول وقتذاك جنوبا في سرعة مفاجئة، فنهب حلب واقترب من دمشق، وجرت معركة عنيفة شمال دمشق، فارتد الجيش المملوكي على أعقابه، وبادر السلطان فرج بالانسحاب إلى القاهرة، وترك جيشه في كفة المقادير، فاستسلمت دمشق على شروط استطاع المؤرخ ابن خلدون من تيمورلنك، وتعرضت عاصمة الشام برغم ذلك لكل ما اشتهر به المغول من التخريب. ويبدو أن السلطان فرج لم يكن كفئا

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بلاد الشام أرجاء الدولة المملوكية مصر والشام مدة تقرب من سنة ونصف سنة ولم يكد يتم ذلك السلام لا خروج نائب صفد بالشام ونائب الملطية بالأخص او السنوية ، فأخمد السلطان هاتين الحركتين في سهولة. غير أن برسباي تتابع ما ورد في المحلي سنة ١٤٢٣ من خبر هروب منافسه الخطير جانبك الصوفي من سجنه بالاسكندرية ، فأمر بالقاء القبض على كل من له صلة بالأمير الهارب ، ولكنه لم يستطع الحصول على شيء من أخباره. وكأنما كان هروب جانبك الصوفي مؤذنا بقيام عدة مشاكل مختلفة في وجه برسباي في وقت واحد ، وهي خروج نائب دمشق عن الطاعة ، وغارة القراصنة الافرنج على سواحل مصر على البحر المتوسط ، وامتناع الأمير حسن بن عجلان شريف مكة عن الاعتراف بالولاء والخضوع للسلطنة المملوكية. وبدأ برسباي معالجة هذه المشاكل الثلاث بارسال حملة الى الشام صحبة نائب جديد لدمشق اسمه سودون ، حتى اذا جاءته الاخبار بانتصار سودون هذا على النائب الثائر وسجنه بقلعة دمشق ، وجه اهتمامه لمعالجة المشكلتين الأخريين. وكانت قاعدة القراصنة الافرنج وقتذاك جزيرة قبرص [illegible] ، فأغار برسباي على سواحلها مرتين [illegible] ، ثم عزم على الاستيلاء عليها نهائيا سنة ١٤٢٦ ففي تلك السنة أعد برسباي جيشا ضخما أسطولا كبيرا من مصر والشام الى الجزيرة القبرصية ، فاستولى على ليماسول ولارنكا ، وأوغل في الداخل حتى هزم جيشا قبرصيا بقيادة الملك جانوس لوزنيان ، ودخل عاصمته نيقوسيا. وعادت تلك الحملة منتصرة ومعها جانوس أسيرا بين الأسرى ، ثم لم يلبث السلطان أن أطلق سراحه مقابل فدية كبيرة ، على أن يصبح تابعا للسلطنة المملوكية في مملكة قبرص. أما حسن بن عجلان شريف مكة فجرى اخضاعه قبل نهاية هذه المشكلة القبرصية. وبذلك استردت مصر سيادتها على مكة وميناها جدة وقدم الشريف حسن الى القاهرة صحبة ركب الحاج المصري والجيش المملوكي العائد ، فأكد لبرسباي ولاءه واخلاصه للسلطنة ، وتعهد بأن يدفع جزية سنوية تأكيدا لتبعيته. غير أن الشريف بقي بالقاهرة رهينة حتى يتم تأدية القسط الاول من هذه الجزية.

وعقب قليل من مغادرة الجيش المملوكي سواحل بلاد العرب أن وصلت الى جدة قافلة من سفن تحمل متاجر الهند ، وذلك بعد أن أضحى ميناء جدة خاضعا للسيادة المملوكية ، بعد أن تعهد القائد المملوكي لقائد هذه السفن بتقديم كل ما تحتاجه سفنه من المساعدة. وكان ميناء عدن باليمن حتى وقتذاك ميناء التوجيه الذي ترد اليه التجارة الهندية ، غير ان سوء معاملة حكام هذا الميناء حمل قائد هذه السفن شمالا حتى جدة ، فأدت هذه الاتفاقية الى تحويل التجارة الشرقية كلها اليها تدريجيا ولم تلبث جدة أن أصبحت مركزا ومستودعا

بهذه التجارة الهائلة . واهتم السلطان برسباي صاحب السيادة على جدة بهذا المورد التجاري الجديد ، فأنشأ بالقاهرة ديوانا خاصا أطلق على متوليه اسم شاد جدة ، وصار هذا الشاد يجمع من هذه التجارة المصرية ضريبة تصل قيمتها العشر من قيمتها . ولم يكتف برسباي بهذا الدخل المالي الضخم بل عمد الى احتكار التجارة الشرقية كلها لنفسه ، فضلا عن صناعة السكر في مصر . وترتب على هذه الاجراءات ارتفاع جنوني في الأسعار بحيث لم يعد في استطاعة التجار الأوربيين احتمالها ، على الرغم من استعدادهم للشراء وأدى هذا الى قيام كل من البندقية وقطالونية وأرجونة بالشكوى والتهديد بمقابلة هذه الاجراءات بمثلها ، أي برفع أثمان هذه السلع الأوروبية الواردة الى مصر والشام ومعظم هذه أسلحة وحديد ومواد معدنية وصيرفة مما يلزم للجيش المملوكي والقصور المملوكية .

على أن برسباي لم يكتف باحتكار التجارة بل عمد أيضا الى التدخل في العملة والنقد بأن غيّر عيار الذهب والفضة بما يتفق مع مصلحته وغرضه ، ومنع تداول النقد الأجنبي كي يضربه حسبما يستحق . ثم أطلق تداوله بعد ذلك ، مما أدى الى الحاق الخسائر الكبيرة بالتجار الوطنيين والأجانب على السواء . واشتد سخط الأهالي أيضا على السلطان بسبب ما اتخذه من طرق مجحفة لجمع الأموال ، وبسبب رفع أسعار السكر مع احتكاره على حين اشتد الاحتكار واتسعت دائرته حتى شمل حتى الوقود والفحم والحبوب ، ولم تعد تسع الناس معاشا . ولقد انتشرت المجاعة في جهات كثيرة بمصر ، كما انتشر الوباء أكثر من مرة بالقاهرة ، وزاد الحالة سوءا ما حدث على أيدي عصابات مماليك الجلبان من أذى الناس في الطرقات والشوارع .

وترتب على تطبيق سياسة الاحتكار في الشام أن حل بالتجار والناس من الشدائد والمتاعب مثلما حدث بمصر ، غير أنه لم يتعرض السكان لما تعرض له أهل مصر من اعتداءات مماليك الجلبان لعدم وجودهم بأعداد بالشام . ثم شهدت الشام منذ سنة ١٤٢٩ عدة حملات حربية موجهة لمراقبة قبائل التركمان ، ومراقبة حركاتهم المختلفة على الأطراف المملوكية ، وهم قبيلة الشاة البيضاء ، وقبيلة الشاة السوداء ، وقبيلة الدلغادرية . وكان وراء هذه الحركات العدائية التركمانية شاه رخ بن تيمورلنك الذي ساءه رفض السلطان برسباي السماح له بالمشاركة في كسوة الكعبة ، ولهذا حالف قبيلة الشاة البيضاء ، وشجع زعيمها عثمان قرايلك على تحدي برسباي ، ومهاجمة العمق المملوكي الذي ضربه برسباي بنفسه حول آمد سنة ١٤٣٣ . أما عشيرة الدلغادرية التابعة مثلا للدولة المملوكية اسميا ، فخلاصة حركتهم العدائية أنهم آووا الأمير جانبك الصوفي الهارب من سجن الاسكندرية سنة

السنة الأولى من سلطنة برسباي ، وأنهم أعلنوا عصيانهم ، على أن النصر تحقق أخيرا للسلطان برسباي ، إذ لقي [illegible] ملك [illegible] مصرعه في حرب ضد قرا يوسف ، [illegible] السلطة [illegible] وصاحب [illegible] المصري قتيلا ، وصاحب البيئة التجارية [illegible] المدينة .

ولم يعش برسباي طويلا لينعم بهذه الانتصارات التي لم يكن جديرا بها البتة ، على قول المقريزي المؤرخ المعاصر ، ومات هذا السلطان على ما أسرف عليه ، في يونيه سنة ١٤٣٨ ، بعد أن جعل ابنه يوسف الذي يبلغ من العمر أربع عشرة سنة خلفا له في السلطنة ، وعين أحد حلفائه من الأمراء وصيا عليه ، واسمه جقمق . وكان برسباي ملكا مسرفا محبا للمال . ولم يكن ما انتشر في عهده من هدوء وسلام دليلا على شيء من الرخاء أو الطمأنينة بين الناس ، فإن فتح جزيرة قبرص لم ينتفع به إلا مماليكه ، وسياسته الاحتكارية لم تملأ جيوبا سوى جيوبهم الواسعة . أما أهل مصر والشام فتحملوا أنواع الإرهاق أثناء ذلك العهد الذي امتد إلى ستة عشر عاما لم تعدمهم المجاعات والغلاء حتى في سنوات وفرة المحاصيل .

ولم تدم حكومة ابن برسباي في السلطنة سوى ثلاثة وأربعين يوما عمل أثناءها جقمق على جمع مقاليد الأمور في يده . ثم ما لبث جقمق أن عزل يوسف وسجنه بقلعة الجبل ، وأقام نفسه مكانه في السلطنة في سبتمبر سنة ١٤٣٨ . وبينما تجهز جقمق للسير على رأس حملة إلى الشام لقمع عصيان كان قد ثار ضد سلطنته في دمشق وحلب ، فر الصبي يوسف من القلعة متخفيا في زي خادم من خدم المطابخ السلطانية ، ولحق به مؤيدوه في جوف الصعيد حيث قامت حركة معارضة أخرى ضد السلطان . على أن جقمق استطاع التغلب على هاتين الحركتين في سهولة ، إذ قبض على يوسف في أبريل سنة ١٤٣٩ وأرسله إلى الإسكندرية ليقضي أيامه بها حبيسا مكرما ، وفي الشهر التالي انهارت حركة دمشق وسار جقمق على نهج برسباي في الحد من القراصنة المسيحيين الذين نشطوا في البحر من جديد ، على الرغم من حرمانهم من مراسي جزيرة قبرص ، وذلك لأنهم جعلوا من جزيرة رودس التابعة لهيئة الفرسان الاسبتارية موئلا ، وأغاروا منها على السواحل المصرية والشامية وعاثوا فيها فسادا . ولذا أرسل جقمق في أغسطس سنة ١٤٤٠ حملة لمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس . ورغم أن المحاولة تجددت سنتي ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، فإن الجزيرة استطاعت مقاومة الاعتداءات المصرية الثلاث ، ورضي السلطان جقمق بالصلح على قاعدة منع القراصنة من اللجوء إلى سواحل رودس ، واحترام مصالح هيئة الفرسان الاسبتارية في كل من مصر والشام وسواحل آسيا الصغرى ، وساعد على عقد هذا الصلح

التاجر الفرنسي الشهير جاك كير على أن هذا التاجر الذي سيطر في زمنه على جزء كبير من التجارة بين فرنسا والدولة المملوكية لم يستطع أن يقنع السلطان جقمق بضرورة إلغاء السياسة الاحتكارية التي سار عليها برسباي.

وانتهج جقمق تجاه الدول الإسلامية المجاورة سياسة مبنية على التسامح والتفاهم فلم يكترث لآراء مراء مشورة بشأن شاه رخ بن تيمور لنك بل سمح له سنة ١٤٤٣ بإرسال كسوة الكعبة، فأنهى بذلك مشكلة النزاع القائم بين الدولتين المملوكية والتيمورية منذ أيام برسباي، وذلك دون أن يفقد شيئا من هيبته أو كرامته. وحرص جقمق على استمرار العلاقات الودية مع السلطان العثماني مراد الثاني، وأمراء آسيا الصغرى، وكان ذلك في سبيل السلام.

على أن جقمق لم يحرز من النجاح في السياسة الداخلية ما أحرزه في السياسة الخارجية بسبب ما عانته هيبة دولة سلاطين المماليك من حركات التمرد والاستياء من الأمراء ورجال الحكم والإدارة، مما يملأ صفحات عديدة من التواريخ المعاصرة. وازدادت اضطرابات أولئك المماليك بين الكبير والصغير حتى الصبية في أيام الحروب والأعياد دون أن يستطيع السلطان جقمق ردعهم، وكذلك لم يستطع جقمق أن يوقف ما تسرب من الفساد في الاحتكار ... ومع هذا اشتهرت حكومة جقمق بالاتجاه إلى وصف العصر بالعباس إلى ما اشتهرت به حكومة سابقه من الحسم، وتصف بعض مصنفات وخطابات مخصصة ناقدة من نصوص عصيه، على عدد مشهود في معظم المسائل الإسلامية ومسائلها، اذ ... في حكمه من ورد في القرآن الكريم من أحكام فقد ساوى طاعته في هذه الشرائع، ومنع شرب الخمر، وحرم استخدام الأدوات الموسيقية وكره ملابس المهرجة وألزم رجال العسكر والأمراء بارتداء الثياب القصيرة، والغى شواربهم الطويلة واشتهر جقمق بسخائه وكرمه مع العلماء، واعتقد أن الكتاب القيم لا يقدر بثمن مهما ارتفع هذا الثمن. ثم مات جقمق وهو يناهز الثمانين، في فبراير سنة ١٤٥٣، بعد مرض مزمن ظل يعانيه في صبر وشجاعة مدة سنة.

وتنازل جقمق عن السلطنة وهو على فراش الموت، وهو أمر لم يكن له سابقة عند المماليك، وترك أمر تعيين سلطان بعده للخليفة العباسي والقضاة وجماعة الأمراء، اذ استدعى هؤلاء وأولئك بحضرته، وخاطب الحاضرين بالالتزام بالأمر الكريم، ... ينظروا فيمن يستطيعون اعتقادا منه أنهم سوف لا يختلفون به. ومكذا جرى انتخاب عثمان بن جقمق ليخلف أباه في الحكم.

ولم يعمر عثمان بن جقمق الناشئة عمره من عمر حتى ... سلطانا ... أنه لم يكن طفلا صغير السن، غير أنه كان أصغر عهدا من صغار الأمراء الذين خلفوا ... في السلطنة

ويرجع سبب خلعه بعد سنة سابقة لعقد من إعلان سلطنته إلى عبثه الذي أدى به إلى استعداء جميع فئات المماليك عن سوء تحكمه بعد مساعيه أبيه وقد حاصرته هذه الفئات حملوا به بزعامة الأتابك ... في مارس سنة ١٤٦١ وجرى خلعه عن السلطنة للمحاصرين ، بموافقة الخليفة العباسي الذي اشترك في الاحتفال

ومع أن إينال تولى السلطنة وهو في الثالثة والسبعين من عمره ، وأنه بلغ من الأمية والجهل أنه كان عاجزا عن كتابة اسمه ، فإنه استطاع أن يظل في الحكم ثماني سنوات وتفسير هذا أن السلطان إينال التزم السياسة والمطاوعة والاستجابة لمطالب الفئات المملوكية التي وصل على أكتافها إلى السلطنة ، ولا سيما فئة المماليك الجلبان غير أن استمرار خضوع السلطان لمطالب المماليك التي تكلفه الجلبان على أيديهم جعل منهم فئة أخيرة مصدر فتنة وخطر على مركز إينال ، بدليل رميهم إياه مرة بالحجارة ، وهو في طريقه إليهم من القلعة فأفلت ... من مطالبهم سنة ١٤٥٦ ومما زاد الطين بلة أن هذه الفئة العارمة أدت باستمرار إلى الاستجابة لمطالب الجلبان ؛ ووصف المؤرخ أبو المحاسن بوصفه هذه الأحداث في ... الجلبان ، ... الأعمال التي تؤدي إلى فتنة ... »

والواقع أن سلطنة ... بسبب هذه الظروف ... خالية من كل ...

بالتكريم والاحترام ولم يحاول أن يشكو ... الحكم ، عصره معززين ... من ... من الموظفين ، ولم يجرؤ السلطان أن يرغمهم على ما يكرهونه ...

ومما يبدو عجيبا أن السلطان إينال استطاع إصلاح النقود الفضية سنة ١٤٥٨ ، إذ أمر بسحب النقود التي أصدرها السلاطين السابقون منخفضة العيار وأحل محلها عملة جديدة ، كما أمر بتوقيع العقوبة القصوى على المتعاملين ببعض النقود ، رغم رغبة الذين كثرت أعدادهم منذ أيام التلاعب بالنقد زمن برسباي

وأصاب السلطان إينال كذلك نجاحا في السياسة الخارجية فاتسمت علاقاته بالسلطان العثماني محمد الثاني بالود الخالص ، وذهبت من القاهرة سفارة خاصة لتقديم التهنئة للسلطان بفتح القسطنطينية ورضيت السياسة الإينالية بدخول إمارة قرمان بآسيا الصغرى في ممتلكات العثمانيين ، وهي إمارة معروفة بولائها القديم لسلاطين المماليك ، وترتب على ذلك أن أغار أمير قرمان على الأطراف المملوكية بشمال الشام ، واستولى على عدة بلاد من إقليم قيليقية (أي أرمينية الصغرى سابقا) ، غير أنه لم يلبث أن تركها من تلقاء نفسه أن ... إينال ... سنة ١٤٥٨ ثم تدخل في النزاع حول وراثة العرش في مملكة قبرص التابعة للسلطنة المملوكية منذ أيام برسباي إذ قدم إلى القاهرة

جيمس لوزجنان رئيس أساقفة نيقوسيا ، وطالب
بحقه في العرش كما طالب بحقها كذلك ابنة
الملك شارلوت لوزجنان . وعاد جيمس الى
قبرص بصحبة حملة مملوكية لنجدته ،
واستطاع بمساعدة هذه الحملة أن يحتل
العاصمة بقرب . غير أن الصراع بين جيمس
وشارلوت استمر بضع سنوات ولم تظهر
نتائجه في حياة اينال الذي كانت وفاته في
فبراير ١٤٦١ ، وترك اينال أسرة اشتملت على
أربعة أفراد ، بنتان وولدان من زوجة وحيدة ،
وهو أمر نادر الحدوث في التاريخ المملوكي
غير أن مثار كثيرا لابد أن يدل على حياة
السلطان الشخصية

وتنازل السلطان اينال ، قبيل وفاته بيوم
واحد ، عن العرش لابنه الأكبر أحمد الذي
تولى وظائف مسئولة مختلفة في حياة أبيه ،
واشتهر بحبه للاصلاح ، وبلغ الثلاثين من
عمره حين آلت اليه السلطنة ، وقد كان
لأحمد بن اينال من الخبرة الادارية والحماسة
والنضوج السياسي ما يبشر بعهد جديد . غير
أن العصبية المملوكية التي رفضت السلطان
الجديد لرغبته في طريقة اينال اجتمعت على
تدبير مؤامرة لاقصائه عن العرش واقامة
الأتابك خشقدم أو غيره مكانه . واعتصمت
القلعة بعصره المتآمرين في يونيه سنة ١٤٦١ ،
ولم يحاول السلطان أن أعلن التسليم ، وتم
عزله وخروجه من القلعة مصحوبا الى
الاسكندرية وجرت المناداة بخشقدم سلطانا

وبحث خشقدم عن سائر ملاجئ
المماليك المشاغبين من تحركهم بأن يمضي
الى أقصى الحدود . وإليه يرجع تجربة مريرة
في تكرار الحبس ، وهي أنه يتخلص بالقبض
والنفي والتشريد والمصادرة من أمراء
المماليك الذين أقاموه في السلطنة ، والى
القتال المملوكية بعضها على بعض ، أملا منه
في السيطرة بعد ذلك على مماليكه الجلبان ،
واستخدام شغبهم في الاستيلاء على أموال
الأغنياء من التجار ، فضلا عما استولى عليه
من أموال الأمراء المصادرين . وهكذا تحلى
خشقدم الجو لمماليكه الجلبان ، فأصبحوا
يباشرون فسادا كما يشاءون ، ويقتلون
الأبرياء ، وقد جرى على دأب السلطان
خشقدم على جمع الثروة ببيعه فبيع الوظائف
الحكومية ... ، وهدم موازين العدالة
بمساومة المتقاضين أمامه في دار العدل
وأسوأ من ذلك كله ما يحكى به عن السلطان
من زيارة كبار الأغنياء ومضيه في بيوتهم ،
ومطالبة الواحد منهم بتقديم الهدايا اللائقة
بالسلطنة

أما من ناحية السياسة الخارجية فيعتبر
عهد خشقدم بداية النزاع بين السلطنة
المملوكية والسلطنة العثمانية ، وهو النزاع
الذي أدى أخيرا الى زوال دولة سلاطين
المماليك بمصر والشام ، واستيلاء العثمانيين
على هذين القطرين أوائل القرن السادس
عشر . وقد بدأ النزاع في سنة ١٤٦٣ بسبب

جرى من خلاف حول الوراثة في امارة قرمان حيث أيد السلطان العثماني محمد الثاني بير محمود المعادي للسلطنة المملوكية ، وأمده بقوة عسكرية مكنته من انتزاع عدة بلاد تابعة من الإمارات المملوكية ، غير أن هذا النزاع لم يؤد الى حرب بين الدولتين زمن السلطان خشقدم .

وجرى خشقدم في غير هذا على سياسة سلفه اينال بعرض أكثر من مجرد مساعدة بحرية لملكة جيمس القبرصي ضد أخته شارلوت ، وكان هذا الغرض هو التخلص من بقايا الفئات المملوكية التي عدت ناقمة على السلطان بمصر والشام ، وتجنب تكرار هذه المساعدة الحربية دون الحاجة اليها . وفي أواخر حكم خشقدم ، أحدثت قبائل البدو شيئا من الرعب والاضطراب لا في الوجه القبلي بمصر ، بل في الشام وشمال بلاد العرب ، حيث تعرضت قوافل الحجاج لسطوهم ونهبهم . وبينما تجرى الاستعدادات لارسال الحملات اللازمة لقمع هذه الحركات البدوية حل المرض بالسلطان خشقدم ، ومع أن حملة سارت فعلا الى شمال بلاد العرب فان حملة أخرى الى الصعيد رفضت السير ، اذ فضل قائدها البقاء في القاهرة يترقب ما تأتي به الأيام بعد موت السلطان . وفي أكتوبر سنة ١٤٦٧ مات خشقدم ، وترك ولدين أكبرهم هو المعروف باسم منصور .

وفي الشهور الأخيرة كانت عاصمة القاهرة مسرحا لمؤامرات وصراعات بين الفئات المملوكية حول السلطنة في هذه المرحلة الصحيحة بالذات ، والتفصيل في ذلك أن السلطان خشقدم لم يجر على القاعدة التي درج عليها سلاطين المماليك ، فلم يرشح ابنه منصور ليخلفه ، ولم يوعز الى أحد بترشيحه ، ولم يحفل زعماء المماليك بدورهم بما عسى يكون للرجل الراحل من رغبات باطنة حول هذا الموضوع ، بل عقدوا اجتماعا قبيل وفاة خشقدم بساعات قليلة ، واتفقوا على اقامة أحدهم وهو الأتابك يلباى في السلطنة ، وهو المشهور بالمجنون ، وجرى اعلانه سلطانا في نفس اليوم بعد الانتهاء من تشييع جنازة خشقدم ودفنه . وبعد شهرين فقط غير أولئك الزعماء رأيهم بشأن يلباى فعزلوه ، لأنهم أرادوا اقامة زعيم آخر منهم مقامه ، وهو تمربغا اليوناني الأصل في ديسمبر سنة ١٤٦٧ . ولم يعمر تمربغا في السلطنة أكثر من أيام سلفه سوى أيام معدودات ، ورأى المعاصرون أن سوف تتكرر الحال على هذا المنوال ، ما دامت الفئات المملوكية على ما هي فيه من منافسات وفتن ، وما دامت زعامتها لا تحتوي الا على أمثال يلباى وتمربغا . غير أن الحوادث لم تلبث أن أنجبت رجلا من نوع آخر ، وهو الأتابك قايتباى الذي أقامته الفئات المملوكية سلطانا في يناير سنة ١٤٦٨ ، ظنا منها أنها سوف تتخلص منه سريعا كما تخلصت من سلفيه . لكن قايتباى ظل سلطانا ما يقرب من تسع وعشرين سنة . ويرجع هذ

لتعيين الى شخصه ؛ كما يرجع الى جسامة المشاكل الخارجية التي واجهته منذ أوائل سلطنته وهي مشاكل صرفت الفئات المملوكية عن سياستها القديمة التي لم تنقطع منذ سنين ، وأدت بها أخيراً الى التكتل وراء السلطان في سبيل الدفاع عن مصالح الدولة المملوكية .

وبهذا لم يكن عهد قايتباي أطول عهود دولة السلاطين الجراكسة فحسب ، بل أكثرها توفيقاً ونجاحاً . وأول هذه المشاكل الخارجية حركة الزعيم التركماني شاه سوار رئيس امارة الدلغادرية بآسيا الصغرى ، اذ تمكن هذا الأمير من الاغارة على أطراف السلطنة المملوكية ؛ معتمداً في ذلك على معونة الدولة العثمانية ، فما زالت الحملات المملوكية حتى هزمته وحملته أسيراً الى القاهرة حيث أعدم أواخر سنة ١٤٧٣ .

ولم يكن قايتباي أقل استبسالا في جهوده ضد أوزون حسن (حسن الطويل) زعيم الشاة البيضاء الذي حلا له أن يتظاهر بالولاء والاخلاص لسلطان قايتباي أثناء حركة شاه سوار وأرخى له قايتباي الحبل على الغارب حتى انتهى من هذه الحركة وصاحبها . ذلك أن أوزون حسن كان يطالب بمشاركة السلطنة المملوكية في كسوة الكعبة كما طالب به قبلا شاه رخ بن تيمورلنك من السلطان برسباي وبذا عمل قايتباي على هدم هذه المطالبة بارسال حملة مملوكية الى أملاك أوزون في الأقاليم الفراتية التابعة للشاة البيضاء حتى وفاة أوزون حسن سنة ١٤٧٨ .

على أن مشكلة الخارجية الكبرى من قايتباي جاءت من ناحية الدولة العثمانية التي جدت منذ نشأتها بسطوة على الطامعين بعمل على الاستيلاء على ما تعتبره خارجا عن طاعتها بآسيا الصغرى . وهنا اعتبرنا [illegible] وتبادر [illegible] السلاطين المماليك وعليها تعتمد الدولة المملوكية في مسوغ الأمن والدفاع على أطرافها الشمالية . ورأى قايتباي معالجة هذه المشكلة بمعاهدة واتفق السلطانان العثمانية والمملوكية فيها على عدم التدخل في شئون حاكمي الامارتين ، وبحسب هذا الاتفاق ظلت العلاقات في وئام ظاهر بين السلطنتين حتى وفاة السلطان العثماني محمد الثاني سنة ١٤٨١ . ثم حدث أن أساء قايتباي الى السلطان العثماني الجديد بايزيد الثاني باستقبال أخيه ومنافسه الأمير جم بالقاهرة سنة ١٤٨٢ ، بل ان قايتباي قدم لهذا الأمير عدة أنواع من المساعدة للقيام بثورة فاشلة ضد بايزيد الثاني في آسيا الصغرى . ولهذا السبب فضلا عما قام به عمال قايتباي من اعتراض سفارة هندية الى البلاط العثماني ؛ أعلن بايزيد الحرب على مصر في سنة ١٤٨٦ فاستولى جيش عثماني على أدنة وطرسوس وسائر مدن قيليقية ، على حين انهزم جيش [illegible] وكلها مدن تابعة للسلاطين المماليك وعند ذلك نشبت حرب دامية [illegible] الجيوش المملوكية على العثمانية أكثر من مرة ، واضطر [illegible] لعقد صلح سنة ١٤٩١ لاعادة

الأوضاع السياسية التي ما كانت عليه قبل الحرب ، غير أن هذا الصلح لم يكن سوى هدنة من سحاب الهدوء قبل العاصفة

واستطاع قايتباي برغم انصرافه إلى كل هذه المشكلات والحروب أن يسهم أيضاً وبقوة في الدبلوماسية الهادئة في مطالبه بجزيرة قبرص بعد أن صار عرشها إلى الملكة كاترينا كورنارو والتي ترجع إلى أصل بندقي ، وبعد أن غدت البندقية كلمة نافذة في شئون ذلك العرش ، ذلك أن الملكة كاترينا لم تواظب على دفع ما هو مقرر عليها من جزية سنوية منذ ١٤٧٨م ، فما زال قايتباي يضغط على جمهورية البندقية ، ويهدد تجارتها بمختلف التضييقات التجارية بالإسكندرية ، حتى قامت البندقية بدورها بالضغط على كاترينا لإرسال الجزية المقررة في نظام. على أن دبلوماسية قايتباي لم تنجح في كل الأحوال ، إذ حاول مساعدة أبي عبد الله ملك غرناطة ، بأن هدد فرديناند ملك أسبانيا المسيحية بتدمير بيت المقدس واستئصال شأفة مسيحيي مصر والشام إذا لم ينته من هذه الحرب بصلح عاجل. غير أن الملك فرديناند أبى أن يعبأ بهذا التهديد وظل يحارب مملكة غرناطة حتى استولى عليها تماماً ، وكل ذلك دون أن يفكر قايتباي في تنفيذ أية ناحية من نواحي تهديداته

أما سياسة الداخلية زمن قايتباي ، فأول مميزاتها أن السلطان اتبع طرقاً ووسائل مخالفة لما سار عليه سائر السلاطين الجراكسة قبله وبعده . ومثال ذلك حسن معاملته لجميع من خلع من السلاطين وأبنائهم ، إذ حرص على دعوتهم إلى مشاركته في لعب الكرة بالقاهرة ، وسمح لهم بمغادرة مواضع النفي ، بل إنه أجاز لهم النزول إلى القاهرة إذا أحبوا ، ولم تساوره الشكوك فيهم ، ولم يخش كيدهم. وأكثر قايتباي من مغادرة القلعة لا للنزهة والصيد خارج القاهرة فحسب ولا للحج زلفى ، بل لمعرفة أحوال المدن والحصون ، فزار حبرون وبيت المقدس والإسكندرية ودمياط ودمشق وحلب ، وبلغ شاطئ الفرات ، وهو طرف السلطنة المملوكية. وخلف قايتباي أيضاً عدة آثار دالة على عظمته ، من طرق وجسور ومساجد ومدارس ومستحكمات ، ومن هذه القلعة المعروفة باسمه بالإسكندرية حتى العصر الحاضر

على أن قايتباي لم يبلغ ما بلغه من النجاح في سياسته الخارجية والداخلية إلا بفضل شخصيته الناضجة ، فإلى جانب ما اشتهر به من الكياسة والشجاعة ، كان قايتباي كذلك سلطاناً حازماً مسيطراً بقوة الخلق على مماليكه الجلبان تمام السيطرة وبفضل مساعدتهم الخاصة له استطاع أن ينجح في ضبط الأحزاب المملوكية الأخرى ، وبذا انتشر في السلطنة المملوكية من مظاهر الأمن ما لم يكن معروفاً من قبل. غير أنه كان أيضاً مشهوراً بكثرة مطالبه المالية الإضافية التي فرضها قايتباي على مختلف طبقات الناس بمصر والشام ، للصرف على حملاته الحربية وعمائره

الشعب ، فلم تكتف مثلا بما فرضه على الأملاك العقارية من ضريبة مبلغها إيجار سبعة شهور ، بل فرض مكسا باهظا في أواخر أيامه على ما يجري بيعه من القمح . واستند قايتباي كذلك إلى استخلاص الأموال من اليهود والنصارى ، ولم يسلم كبار موظفي الدولة من مطالبه ، كما لم يسلم منها أعيان الأقاليم الذين أكرمهم السلطان بزيارته الرسمية ، كي يحصل منهم على هدايا ثمينة لم يقدموها إليه عن طيب خاطر .

ثم اشتعل بمصر وباء سنة ١٤٩٢ ، واجتاح القاهرة والأقاليم حتى أفنى ما يقرب من مائتي ألف من أهل البلاد ، منهم ثلثا المماليك من مختلف الفئات ، وذهبت ضحيته ابنة السلطان وأمها في يوم واحد . وما كاد ينقضي على الوباء سنتان حتى أصاب القحط عامة البلاد المصرية ، وتفشت الأمراض في الماشية . ثم أعقب ذلك موجة من الشغب بين الطوائف المملوكية ، ومع أن السلطان بلغ وقتذاك الخامسة والثمانين من عمره ، فإنه نهض لإخماد الفتنة دون مساعدة أحد ، سنة ١٤٩٥ ، غير أن الشيخوخة أثقلته ، والمرض تغلب عليه ، وكانت وفاته في يونيه سنة ١٤٩٦ .

وشهدت القاهرة في السنوات الخمس التي أعقبت وفاة قايتباي عهودا خمسة من السلاطين اتسمت بالفوضى الداخلية والاضطراب ، وأولها عهد محمد الابن الوحيد للسلطان قايتباي من خوند أصلباي ، وكذلك عهد خاله قانصوه الأشرفي ، ولم يستقر الحال إلا سنة ١٥٠١ ، حين أقيم في السلطنة أمير شبيه بالسلطان قايتباي من حيث السن والخبرة بشئون الحكم والمهارة في معاملة طوائف المماليك واسمه قانصوه الغوري .

وعلى الرغم من أن السلطان الجديد تجاوز الستين من عمره ، وأنه تولى السلطنة بفضل اتفاق جماعة من الأمراء على توليته ، فإنه لم يلبث أن أظهر لأولئك الأمراء أنه لن يكون صنيعة أحد منهم . ولم يختلف السلطان قانصوه الغوري عن سائر سلاطين المماليك حيث واجه عند توليته من اجتماع طوائف المماليك حول القلعة وإلحاحهم في طلب ما جرت به العادة من نفقة التولية ، غير أنه استطاع مواجهة المطالبة رغم الضائقة المالية التي كابدتها أجهزة السلطنة المملوكية منذ أواخر أيام قايتباي ، ووعد بتدبير أموال النفقة المطلوبة في أقرب فرصة . ولذا فرض السلطان الغوري من الضرائب الفجائية ما لم تشهد دولة الجراكسة له مثيلا ، إذ أمر بجباية إيجار العقارات عشرة شهور دفعة واحدة ، ولم يقتصر في ذلك على الدور والحوانيت فحسب ، بل تعداه إلى الحمامات والسواقي والطواحين والسفن ، وفرض المكس . وتحتم على الأوقاف الخيرية أيضا أن تدفع ما مقداره ريع سنة كاملة ، وحدث فضلا عن تخفيض سعر النقود لمصلحة الخزانة السلطانية . وترتب

على هذه الإجراءات أن يوفر للسلطان الغوري من المال ما استطاع به أن يدفع أموال الحملة لقتال البرتغاليين بجيش وعدة سفن، كما أنه اشترى عددا كبيرا من الجلب. ألف منهم طوائف جديدة تنتسب إليه، وهي طائفة الغورية. على أن المعروف أن الغوري أنفق جانبا كبيرا من هذا المال كذلك في تقوية حصون الإسكندرية ورشيد وحلب، وفي إصلاح طريق الحجاج إلى مكة، وتشييد مسجده ومدرسته بالقاهرة.

وبدا ساد الهدوء مدن السلطنة المملوكية، برغم ما أمعن فيه من جمع الأموال ولم يقع من الحوادث ما يعكر صفو الأمن في السنوات الأولى من عهده، إذا خلا حركات البدو المعتادة في مصر والشام، وما تبعته من حملات تأديبية على نحو ما جرى زمن جميع السلاطين. غير أن ما حدث من وصول البرتغاليين إلى الهند وإقامة أول محطة تجارية أوربية على الساحل الغربي يهدد بأخطر أثر منذ أوائل عهد الغوري في التجارة الشرقية المتدفقة على مصر والشام عن طريق عدن وجدة، إذ ذهبت هذه التجارة الضخمة تدريجيا إلى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح، وذهبت معها حصيلة الضرائب الموردة الهائلة التي كانت تجنيها الدولة المصرية التي حصلت سلاطين المماليك من هذه التجارة، كما ذهبت أرباح التجار المصريين والشاميين إلى البرتغاليين. وأضاف سوءا إلى هذه الحال ما عمد إليه البرتغاليون من مهاجمة السفن المصرية في بحار الهند، ولما أحس الغوري بجسامة وضخامة ما كونه له من جهود لمقاومته من الفصح، بادر إلى استخدام القوات البحرية المملوكية لوضع الاعتداء البرتغالي قبل استفحاله، لكنه حاول الوصول إلى تسوية سلمية، وبعث رسولا إلى روما سنة ١٥٠٤ يشكو إلى البابا يوليوس الثاني تتضمن التهديد بتدمير الأماكن المقدسة في فلسطين إذا لم يمتنع ملك البرتغال عن أذى مصالح التجار المسلمين بالهند، وتهديد سفنهم التجارية. غير أن هذه السفارة لم تحقق شيئا، وترتب على ذلك أن أعد السلطان أسطولا كبيرا في البحر الأحمر لقتال البرتغاليين في البحار الهندية وهاجم هذا الأسطول المملوكي البرتغاليين في ميناء شول بالهند سنة ١٥٠٨، واستطاع بمساعدة قوات بحرية من سلطنة جوجيرات الإسلامية، أن تنزل الهزيمة بالبرتغاليين. غير أن البرتغاليين انتقموا لأنفسهم في السنة التالية في معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ ولم تقم للتجارة المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة.

ولم يمض على معركة ديو البحرية سوى سبع سنوات حتى زالت السلطنة المملوكية من الوجود على يد السلطان العثماني سليم الأول، وذلك أنه بعد صلح سنة ١٤٩١ بين السلطان قايتباي والسلطان بايزيد الثاني، ظلت العلاقات ودية بين المماليك والعثمانيين

ثم ما لبث هذه العلاقات أن تحولت تحولا خطيراً سنة ٩٢٠هـ بعد سلطنة سليم الأول العثماني الذي اشتهر بأطماعه التوسعية ونشاطه العسكري العنيف، وبحلمه بسيطرة العثمانيين على العالم الإسلامي، فما كاد يفرغ سليم من هزيمة الشاه إسماعيل أول ملوك الأسرة الصفوية الشيعية بإيران في معركة تشالديران سنة ١٥١٤م حتى وجه اهتمامه إلى الأطراف المملوكية بشمالية الشام المصري، فاستولى على إمارة ذي القادر وعاصمتها الأبلستين، رغم الصلح القائم بين المماليك والعثمانيين. ثم عزم سليم الأول على محاربة السلطنة المملوكية، فالتمس من الاتهامات التافهة التي وجهها إلى السلطان قانصوه ذريعة للحرب، والتقى بالجيش المملوكي في أغسطس سنة ١٥١٦م في مرج دابق شمالي حلب، حيث هزم السلطان قانصوه هزيمة ساحقة، ولقي حتفه في الميدان. وترجع هذه الهزيمة إلى تفوق عدد الجيش العثماني، وإلى المدفعية العثمانية التي لم يكن لدى الجيش المملوكي ما يعادلها، وعند ذلك فضلا عن خيانة قائد الجناح الأيسر للجيش المملوكي، وإسمه خاير بك، وهو الذي سماه الأتراك باسم خاين بك. فسلمت له حلب دون مقاومة، كما سلمت له دمشق كذلك بعد مقاومة قصيرة، ولقي العثمانيون أينما حلوا كل مظاهر الترحيب من سكان البلاد وتخلصهم من المماليك.

وسرعان ما ضجت القاهرة وأهلها بأخبار هزيمة السلطان قانصوه الغوري ومصرعه، فجرى تعيين سلطان جديد في أكتوبر سنة ٩٢٢هـ وهو الأمير طومانباي الذي عهد به قانصوه بتصريف أمور الحكم أثناء غيبته. وقبل طومانباي السلطنة كارهاً، بعد أن أقسم الأمراء له في مقبرة ولي من أولياء الله وهو الشيخ أبو السعود، بأنهم سوف يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل دفع العثمانيين عن البلاد.

أما العثمانيون فأسرعوا في زحفهم نحو مصر، وعلى الرغم مما بذله طومانباي من جهود لوقف الزحف السريع حلت الهزيمة بالجيش المملوكي أولاً في بيسان قرب غزة، ثم في الريدانية خارج القاهرة. ووقعت معركة الريدانية في يناير سنة ١٥١٧، وفي اليوم التالي لوقوعها تم الاعتراف بسليم الأول سلطانا على مصر والشام وخطب الجمعة باسمه من منابر القاهرة. واستمر طومانباي يناضل بضعة أشهر، غير أن الهزيمة حلت به مرة بعد مرة، ووقع أخيراً في قبضة العثمانيين وجرى إعدامه شنقاً في أبريل سنة ٩٢٣هـ على باب زويلة (بوابة المتولي الحالية)، وبإعدامه انتهى أمر السلطنة المملوكية.

ولابن إياس المؤرخ في وصفه الأيام الأخيرة من حياة طومانباي عبارات ملؤها الحزن على ما صارت إليه مصر من التحسر بعد ذهاب السلطنة المملوكية ومجيء

السياسيين على أنه لم يرد في ذلك التعبير سوى الاحتجاج بأنه لمقادير من لا يقدر ساس عليها سلطان ، ولم يدرك أو أنه لم يستطع أن يدرك أن عوامل داخلية وخارجية كثيرة كانت تنخر في الجسم السياسي للدولة المملوكية ، وأن معظم هذه العوامل ورد صراحة وتلميحا في تاريخه الكبير . وجاء في نص ابن اياس أن مصر صارت ولاية تابعة ، بعد أن كان سلطانها يفخر على قرنائه أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة ، ولأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاوي ملك مصر الذي افتخر به فرعون » .

وعاش ابن اياس بالقاهرة سنوات طويلة بعد حلول العثمانيين بالبلاد وشهد بعينه تحول مصر الى بداية عهد أجمعت المراجع على أنه من أحلك العصور في التاريخ المصري الطويل .

ولما اختفت السلطنة المملوكية في مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية على هذا النحو الكئيب ، وذلك بعد مرحلة زمنية بدايتها ١٣٨٢ م ونهايتها ١٥١٧ ، أي مدة مائة وخمس وثلاثين سنة فلا أقل من استعراض بعض العوامل العامة التي مكنت لهذه الدولة أن تمكث مدتها في شيء من الاطمئنان الداخلي ، والخارجي كذلك . أما من الناحية الخارجية فمن الواضح أن الأعمال المملوكية في فارس وديار بكر وأطراف العراق وآسيا الصغرى جعلت للحكم المملوكي هيبة عامة في البلاد المصرية والشامية ، على غرار ما كان للدولة المملوكية الأولى من هيبة عامة في نفوس الناس ، بفضل بوصفاتها في حساب علاقاته السياسية بالقاهرة ، وفي دفع الخطر عن المصريين والشوام من البلاد .

أما العوامل الداخلية التي مكنت لهذه الدولة استمرارها رغم قصور سلاطينها عن مستوى سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، فلا مشاحة أن أول هذه العوامل هو أن المماليك سيطروا على جميع الوظائف العسكرية والادارية كما سيطروا على وظائف البلاط السلطاني ، ثم إنهم حرصوا — ابتداء من السلطان الى المملوك المجلوب حديثا — أن يظلوا فئة أو بجماركية ممتازة منعزلة عن سائر أهل مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية ، ومن هذه الطبقة تألفت فئات الجهاز العسكري الوحيد في البلاد . وأدركت هذه الطبقة ضرورة التكتل والتماسك بين أجزائها ، وعرفت كيف تحصر ما وقع من منازعات داخلية في دوائرها المملوكية ، ولم تلتمس في هذه المنازعات مساعدة المصريين أو البدو بالأقاليم ، ولم تقبل أن يتدخل فيها جيرانها . ولم يخرج على هذه القاعدة سوى قلة من الأمراء المتمردين الذين التمسوا لأنفسهم مأوى خارج البلاد ، وتمسكوا للسلطان القائم في ٩١ هـ التلاطم على أطراف السلطنة ، على أن معظم البلاد المجاورة لم تسحب تحركات أولئك الأمراء

المتمردين ، بل ظل ملوكها الفقراء في سلام ووئام مع السلطان المملوكي .

ثم إن السلطنة المملوكية توفر لها جهاز إداري بالغ الدقة ، ساعدها على الاستقرار الداخلي ، برغم ما أحاط به أحيانا من مظاهر الاضطراب ، لأن عامة موظفي هذا الجهاز الإداري كانوا من المصريين والشاميين على اختلاف عقائدهم الدينية ، فلم يتأثروا بما جرى في دوائر السلطنة ، أو بين رجالها المماليك من أحقاد ومنافسات .

والواقع أن أهل مصر والشام لم يتدخلوا بحكامهم المماليك متاعب كثيرة ، إذ قنعوا بزراعة الأرض ودفعوا ما هو مفروض عليهم من ضرائب ثقيلة متعددة ، وصنعوا ما احتاج إليه السلطان والأمراء والجيش من معدات مدنية وعسكرية ، ورضوا بما أصاب عليهم أعمالهم في الزراعة والصناعة من أرزاق يرونها قليلة . وبهذا لم يكن أهل مصر والشام أداة راضية في أيدي السلاطين فحسب ، بل أداة طيعة كذلك ، وكان ما اشتهروا به من الوداعة والهدوء مما يسر للسلاطين المماليك بأن يقوموا بحروبهم خارج البلاد . أما البدو بالأقاليم الذين لم يخضعوا تماما للقانون من سلطان فلم يشتهروا بما اشتهر به المصريون والشاميون من الرضى التام والميل إلى السكون والهدوء ، بل كانوا خطرا على الحكم المملوكي منذ أيامه الأولى ، وكانت كرهتهم للمماليك سببا من أسباب انهيار الدولة المملوكية فيما بعد .

وتستطيع سلاطين الدولة المملوكية الثانية في مصر والشام من مشاريعهم العمرانية والتذكارية ، فضلا عن المعالم التجارية الدالة على ما بلغته تجارة مصر الخارجية في عهدهم من ضخامة وتنوع زمن هذه الدولة ، سواء مع أوروبا وإسبانيا والجمهوريات الإيطالية من ناحية ، أو مع الهند والصين عن طريق البحر الأحمر من ناحية أخرى . أما المباني الدينية والتذكارية فأهمها مدرسة السلطان برقوق ، وموضعها شارع المعز لدين الله الفاطمي ، وهي المدرسة التي ألقى فيها المؤرخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون دروسه في مذهب فقه المالكية . ولا شك أنه تعرض في هذه الدروس التي حضرت كثيرة إلى نظرياته الاجتماعية والاقتصادية التي اشتملت بها مقدمته المشهورة . وهي النظريات التي تأثر بها المقريزي في مؤلفاته . ومن هذه المباني كذلك ، خانقاه السلطان فرج بن برقوق ، وموضعها القرافة الشرقية الحالية بالقاهرة ، ثم مسجد المؤيد شيخ ، وهو المسجد الذي ظل حافلا بحلقات تدريسية أزهرية حتى العصر الحديث ، وموضع هذا المسجد بالسكرية بجوار باب زويلة (بوابة المتولي) ، وهناك كذلك المدرسة الأشرفية لبرسباي ، وهي التي وافق الانتهاء من بنائها مجيء الرحالة إلى القاهرة ، موضوع الكتاب الفرنسي ... الثاني ... إلى الإسكندرية في ركاب الحملة المملوكية ... من قبرص ... ثم السلطان ... خوند ...

حانوتو على باب تلك المدرسة، تذكار لنعمة عرض للسلطنة المملوكية. ولا [illegible] هذه مدرسة قائمة على رأس سويقة العصفوري بالقاهرة الجديدة. وللسلطان برسباي كذلك خانقاه ومدفن بالقرافة الشرقية، فضلاً عن مسجد لا يزال كذلك قائماً ببلدة الخانكة الحالية، شمالي القاهرة. وللسلطان اينال كذلك خانقاه ومدرسة ومدفن بالقرافة الشرقية. أما السلطان قايتباي وهو الذي ظل في دست السلطنة المملوكية لما يقرب وعشرين سنة ميلادية، فهو صاحب أكبر مجموعة من المنشآت المعمارية، ومنها مسجد ومدفن بالقرافة الشرقية، ومنها كذلك القلعة التي بناها هذا السلطان بالإسكندرية على أنقاض المنار القديم، وفي ذلك تنهض دلالة واضحة على خشية الدولة المملوكية من ازدياد القوة البحرية العثمانية، بعد أن أخذ السلاطين العثمانيون يمدون أبصارهم نحو جزيرة رودس وسواحل آسيا الصغرى. وللسلطان الغوري مدرسة وقبة بجوار الجامع الأزهر، ولا تزال القبة تستخدم لأغراض ثقافية، وهي إحدى القباب المملوكية التي شاءت المقادير أن يموت صاحبها بعيداً عنها، فلا يدفن فيها. ومما يتصل باسم السلطانين قايتباي والغوري أنه [illegible] عمارته، ووكالة قايتباي عند باب النصر، ووكالة الغوري في [illegible] بشارع [illegible]، ووكالات [illegible] من المعلومات الدالة

على مستويات التجارة والثقافة أواخر عصر سلاطين المماليك.

وتحدى عدد من أمراء الدولة المملوكية الثانية جهود سلاطينهم في البناء والعمارة، كما حدث أيام الدولة المملوكية الأولى، ولكن على مقياس أصغر من حيث المقياس والضخامة والكثرة العددية، فبنى جركس الخليلي الخان المعروف باسمه، وهو السوق الذي يعد أحد المباهج السياحية بالقاهرة في العصور الوسطى. وبنى القاضي يحيى مدرسته الكائنة بشارع الأزهر الحالي ومسجده الأول بشارع محكمة بولاق ومسجده الثاني بالحبانية. وترجع لعهد قايتباي عدة منشآت أميرية، أولها مدرسة الأمير تمراز الإسحاقي، ومدرسة أبي بكر مزهر، وقبة يشبك بن مهدي الدوادار، وهي القبة الفداوية بالعباسية.

وهناك كذلك مدرسة أزبك اليوسفي في طولون ومدرسة خضري بردي [illegible] بالعسيبي.

وفي هذه المباني السلطانية والأميرية ما يبرهن على أن سلاطين الدولة المملوكية الثانية وأمراءها لم يكونوا أقل اهتماماً بالمباني الدينية والتذكارية من سلاطين الدولة المملوكية الأولى وأمرائها، فواصلوا بعض المدارس [illegible]، وأنشأوا بعض الأضرحة الدينية والأخروية.

وعني سلاطين الدولة المملوكية الثانية

بالقلعة عتزاز مصحوبًا ، وهم الذين نشأوا بها . واشتهروا باسم البرجية نسبة إلى سكنهم بأبراجها . ولم تكن تدعهم من الحروب الخارجية ما تضطرهم إلى التمهل والتسلم بعيدًا عنها ، بل كان بينهم من الفن العاجية ما جعلهم متحمسين لها ، ولذا أقاموا منشآت أكثر مما أقام سلاطين الدولة المملوكية الأولى . على أنهم لم يحدثوا بها جديدًا ، نظرًا لاكتمال مبانيها وأسوارها وأبوابها وأبراجها وأحواشها ، فضلًا عن بيوتها السكنية والحكومية ، منذ أيام سلاطين الدولة المملوكية الأولى . ولذا اقتصر اهتمامهم بها على أعمال ترميمية وإضافات تكميلية وتجديدات محصنة ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أن السلطان برقوق عمّر بها صهريجًا وطاحونًا ، والغوري بنى جددًا جديدة لدار العدل ، وأن السلطان جقمق جدد باب المدرج ، وأن السلطان قايتباي جدد عمارة الأبواب الكبير ، وأنشأ مقعدًا ومبيتًا بالحوش السلطاني ، كما أن السلطان الغوري جدد عمارة المطبخ الكبير ، وأنشأ المقعد القبض بشير .

• • •

وإلى هنا تكون الدولة المملوكية الثانية صورة مكررة تقريبًا من الدولة المملوكية الأولى . بعد عصرها الذهبي في هذه الدولة عصره ... على سالفتها ... من حركة ... في كتابة التاريخ ، ... من خلدون ... إلى القاهرة ... ظاهرة

الاجتماعية والاقتصادية في حلقات دروسه ، وتأثيره في تلميذه أحمد المقريزي وغيره من معاصريه الذين تتلمذوا عليه . ووضح ذلك ... وضح في كتاب ... والمعاصرين فيما بين ... المقريزي مشكلة إسلامية كبرى إلى جذور تاريخية قديمة ، كما وضح في كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » حيث خصص المقريزي تأليفه عليه في أربعة أجزاء ضخمة لتاريخ مصر زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية حتى سنة وفاته ، وهو الكتاب الذي تقدمت الإشارة إليه في الفاتحة من هذا الفصل .

ويلاحظ أن المقريزي خصص كتبًا أخرى لعصور معينة من التاريخ المصري ، مثل « عقد جواهر الأسفاط في ذكر تاريخ الفسطاط » و« اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء الفاطميين » .

وتبدو هذه النزعة المصرية القومية الخالصة في مؤلفات أخرى للمقريزي مثل « المقفى الكبير » الذي أراد المقريزي أن يجعل منه معجمًا مصريًا عامًا من أقدم العصور إلى عصره ، ومثل « درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة » وهو معجم تراجم معاصريه . و ... هذه النزعة القومية في تلاميذ المقريزي والتابعين لهم ، فكتب يوسف بن تغري بردي تاريخه الضخم المسمى « النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة » وكتب عبد الرحمن السيوطي « حسن المحاضرة في

تاريخ مصر والقاهرة ، كما كتب محمد بن إياس « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، وهو كذلك في تاريخ مصري.

ويبدو تأثير ابن ظهيرة واضحا في نوع جديد من المؤلفات ، منها « إغاثة الأمة بكشف الغمة » للمقريزي ، « والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للسخاوي ، « والشماريخ في التاريخ » للسيوطي.

وفي هذه العناوين شواهد ناصعة ناطقة بالتطور في مفاهيم التاريخ ، ولكنها شواهد لم تلبث أن زالت بزوال ما لمصر من كيان سياسي ، بسبب أن أصبح العثماني الذي جعل البلاد المصرية ولاية تابعة لدولة لا تعرف ولا تعترف من اللغة العربية وآدابها سوى النزر اليسير الضروري لشرح الدين

الحياة الدينية في مصر الإسلامية

من ظهور الاسلام إلى مطلع العصر الحديث

للأستاذ أمين الخولي

حول منهج

الدين والتدين

> «هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينشئ السحاب الثقال ، ويسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ...»
>
> سورة الرعد آيتي ١٢ و ١٣

منذ وجد الانسان على ظهر هذا الكوكب الأرضي ، قبل أن يكتب تاريخه ومنذ أن كتبه ، كان يحتكم في حياته هذان الشعوران بالخوف والطمع ، إزاء موقفه أمام الظواهر الطبيعية ، أرضية وسماوية ، وجسامة الوضع نفسه ، وعجزه ، وجهله ، أمام ضخامتها ، وشمولها ، وغموضها ، وتكرارها ، وما إلى ذلك

ولذلك تدين الانسان في كل زمان ، وكل مكان نوعا ما من ألوان التدين ، تنوع ما بين أنواع تدين ... عرفت به ديانات وشيع مختلفة في أنحاء الأرض ، كما كانت له ديانات [illegible]

[illegible]

... تحدث من نشأة – وتطور – ومقارنات وقوانين تنظم الحياة الدينية ، وصلتها الاجتماعية بها ، ونحو ذلك

وهو منهج لا يد لأحد بالخروج عليه ، ولا قدرة على إنكاره ، وما أحاول في الحديث عن الحياة الدينية المصرية الا معنيا بما يقوله في هذا ، غير منكرين لما يرى من صلات مثلا بين ألوان التدين المختلفة ، في مصر ، وفي سواها من بلدان أخرى ، وما يجد من روابط بينها ، أو مشابه ، وما نعني به شيئا من هذا كله

[illegible]

التدائي أو متطور ، لا تمدها صنعة التدين الشعوري الا بمساعدة الخرافات ، او تحرمها سوء عقائد مستقيمة الأساس ، كريمة الهدف .

ومن أجل هذه الحقيقة المتعرجة هدف هذه الكلمة عن « التدين والتدين » نقول فيه لمثل هذا المتحرج أو المتنكر المتحفظ مقرر ب المنهج العلمي الاجتماعي ، في درس تاريخ الأديان ومقارناتها ينتهي الى هذا المنهج لا يسيء الى الأديان السماوية شيئه ، حين يقرنها في درسه الى الديانات الأخرى ، التي تعدها الديانات السماوية ضلالات ، وخرافات ، أو تحريفات لحقائق صحيحة

نعم لا يسيء ذلك الى الأديان السماوية في شيء ، ويبين هذا بيانا كافيا وقوف الاسلام بصاحبه ذلك الموقف الذي يقدم به تفسير يقر العلم فيما يصل به بين هذه الديانات التي يختلف نظر المعتقدين اليها ، وهو موقف يتجلى في أصلين اجتماعيين دينيين ، قد قررهما القرآن في صراحة ووضوح ، وبينهما التوفيق بين تناول العلم ، وتكريم المؤمن لعقيدته ، وبهما تفسر الجمع بين أديان هي تحريفات ، أو ضلالات في رأي المؤمنين مع غيرها من الأديان المنزلة ، فبهما يمكن للعلم أن يسلكها معا ، حيث يدرس ظاهرة التدين الانسانية

وهذان الأصلان الاسلاميان اللذان يهيئان هذا التوفيق هما :

أولا : وحدة الأديان ، التي قررها القرآن بوضوح وصراحة تكررت في مثل آية ١٣ من سورة الشورى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » الآية فهو يقرر أن الحقيقة التي شرعها فيما وصى به الرسل المتعددين واحدة ، والوحي الذي أوحاه اليهم جميعا متماثل ، ووحدة الرسالات قد دخل عليها مع الزمن من التغيير ما دخل ، وجرى حولها من التخالف والتناكر ما جرى ، كما يحدث القرآن عنه من ذلك فيما بين اليهود والنصارى وسواهم ، لكنه مع ذلك كله يقرر وحدة أصلها ، وأن ما أوحى الى رسله ، وأوصوا به واحد ، والصلة بينها قائمة في الأصل ، وتهم العوامل التي مرت عليها في تاريخها وتطورها ينبغي للباحث أن يصل اليها في ظل هذه الوحدة ، وأن يلتمس العوامل الفعالة في حياة هذا الأصل الموحد ، وما طرأ عليه من تغيرات ، دون أن يجد المتدين المؤمن غضاضة في الجمع بين ما جاءت اليه رسالة نوح وابراهيم ، وما في رسالة موسى وعيسى ومحمد بعضها مثلا

(١) في معنى هذه الآية المقررة لوحدة الديانة آية ١٦٣ من سورة النساء « انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق » الآية وآية ١٣٦ من سورة البقرة وآية ٨٤ من سورة آل عمران وغير هذه الآيات مما لا حاجة الى احصائه

وفي الأسلوب الذي عرضه الإسلام، واستجاب للمنهج العلمي بخطته هو أن كل أمة قد جاءها نذير، أي أنه قد أرسل إليها رسالة سماوية، كانت مناسبة لوقتها، ملائمة لحالها وهو ما يقرره قوياً بصيغة القصر في آية ٢٤ من سورة فاطر «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» وتظاهرها في حدها آية ٤ من سورة إبراهيم «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم».

وما دام الأمر كذلك فممكن أن يقال إن ما عند كل جماعة بشرية من دين قد جاءها على يد نذير، وله أصل سماوي، ثم حدث مع الزمن كما تقضي بذلك سنة التطور، فإن كانت فيه حقيقة أو حقائق قد جاءت بها رسالات سماوية أخرى فليس ذلك مما يقلل فيه لدين خرافي أو صنعه مع دين سماوي، يرفضه المؤمنون، بل هي من الحقائق التي اشتركت فيها الوحدة الدينية في الرسالات، ووصية السماء، وما حولها من داخل في رأي المؤمنين هو ما لحقها من تشويه أو تحريف أو تغيير.

وقد نلك مثلا يزيد الأمر وضوحا وهو الميزان الأخروي، ووزن الأعمال في دار الجزاء على النحو الذي يوضح به ويرسم في الوثنية المصرية، فهل هو من الوثنية المصنوعة، وقد نقل إلى الديانات الموحاة عرضه بعد ذلك؟ أو هو مما بقي من المقدس محرفه ليس بأديان ... ؟ ... الوزن والميزان في الوثنية المصرية يمكن أن يقال في ظل ما قرره القرآن من الوحدة الدينية، وإرسال النذر إلى جميع الأمم قاطبة ... حقيقة دينية موحاة جاء بها نذير، ثم ... من أمر هذه الرسالة ما يحيق، ويحجب بها التغييرات والتحولات الوثنية.

وإذا ما أمكن أن يقال هذا فلا بأس على الدارس المصطنع للمنهج العلمي في فهم ظاهرة التدين الإنساني أن يقرر الصلة بين التدين في مختلف ألوانه، ومتعدد صوره، وأن يقارن ويوازن بين الأديان المختلفة، وأن يخضعها للفر بين معرفة، ومسى موحدة، لأنها في حديث الوحي الأخير، من القرآن، ليست إلا حقيقة واحدة، ولا غرابة في أن يكون قد حلا في أمم — حيث كانت — نذير من السماء بها ... ولا حرج في الربط بين الأديان المختلفة، في أي زمن من الأزمان، ولا يصح أن يشق ذلك على مؤمن، أو يرى فيه بأساً، أو منالا من دينه الذي يدين به.

وهكذا يزيل الهدى القرآني كل صعوبة تعترض المنهج العلمي في درس الأديان على مستوى اليوم ... فيستطيع المتحدث فيها أن يقرن ما يجد من صلة بين الدين ... والتدين في الحياة المصرية، على اختلاف أزمنتها، وتنوع ديانتها، وأن يتبع أوجه التشابه بين هذه الصور المختلفة ... وأن يستخرج منها دلالات على الشخصية المصرية ... مثلاً، غير ... من أن يظن ظان ... منهج خطر على ... مؤمن برسالة سماوية، أو ...

منها في شيء . وعلى هذا المنهج تقدم في بحث ما قصد اليه من

التاريخ الحضاري

فنحن ... في أمثل ... نحن نتساءل ... يكتب التاريخ العام ، أو التاريخ السياسي على أنه ، على أنه أحداث معروفة ، وأسماء معدودة ، وسنين مرقومة ، فإنه لا مجال مطلقاً لأن تقبل — بأي شكل من — كتابة التاريخ الحضاري على مثل هذه الصورة

أما تاريخ الحضارة فحديث عن خصائص ومميزات جماعة من الناس ، وطوابع لها ، ومقومات ، يمكن في ضوئها تفسير اتجاه خطوات تلك الجماعة المؤرخة ، في طريق التقدم الانساني ، ومسير التمدن البشري وفهم أهدافها في نشاطها ذاك ، وكشف البواعث والدوافع التي صدرت عنها أحداثها ، في هذا المجال وتبين العوامل النفسية التي سيطرت عليها في أدوارها المختلفة وسادت أنفس أجيالها المتتابعة وتحديد الفكرة الثابتة التي دارت عليها حياتها ، وصنعت تاريخها ، وكانت محور فلسفتها الخاصة ، ومدار تقديرها لشئون الكون ، ومنهج ادراكها لمشكلات العالم ، وآفاق المستقبل

وعن طريق معرفة ذلك ننفذ الى حياة مجموعة انسانية موحدة بمكن فهم شخصيتها كبيرة ، وهي ذات شخصية متماسكة ، واضحة سمتها ، كما يكون الانسان الفرد ذو شخصية وهي مميزة عن سواها ، ثم هي مع ذلك مميزة منفردة ، كما يكون الانسان الفرد ... وتكون شخصيته

ومن هنا يكون البحث في هذا التاريخ الحضاري ، دراسة لهيئة الشخصية والاتجاهات بعناصرها ، بالتعمق والتتبع تارة وبالتحليل والتجربة تارة ، وما يتطلب ذلك من النظرة الشاملة ، العميقة ، الفاحصة المستوعبة للحياة المؤرخة في مختلف عصورها ، ومتشعب أحوالها ، ومتنوع مجالاتها ، منذ عرف عنها خبر ، أو كتب لها تاريخ ، وتقلبت بها الظروف ، بين بؤس ونعيم ، ونصر وغلبة ، أو هزيمة وضعف ، ورخاء وجدب ، وجهل وعلم ، وما الى ذلك

تكون هذه النظرة شاملة المستشفة في حياة الجماعة ، على أنها كل لا يتجزأ ووحدة لا تتجزأ ، مثلها مثل النهر المتواصل الجريان المتلاحق الأمواج لا تجد في تياره فجوة ، ولا ترى بين أمواجه فاصلاً ... وان اختلفت أوديته ومواقعه ... أو تنوعت منابعه

وليس من الصواب في شيء أن يحاول باحث يقظ أن يفصل حاضر جماعة بشرية يسير من ماضيها ، أو يفصل ما بين مستقبلها وحاضرها ، فذلك ما لا تسمح به الحياة ، ولا يجيزه تسلسل الوراثة ، ولا يمكن منه تأثير البيئة ، ولا تقبله النواميس الكونية والاجتماعية المطردة

وما دام الأمر كذلك فمن نستطيع الحديث عن شيء من أمر الحياة العقلية في مصر الاسلامية ، خلال وسيط التاريخ وحديثه

الا بعد أضواء من الشخصية المصرية القديمة في قديم تاريخها وأوله

وكذلك لن يكون حديثنا العصري عن هذه الفترة الا حافلا بمجموعة عامة لمصرها وتمثلها ، وتقريرها ، عوامل الشخصية المصرية التي صبغت تاريخ هذه الأمة ، منذ نبتت في هذا الوادي ، وما زالت الحياة في جنباته

ولئن آثرنا ذلك — ولا محالة — بأن نستحضر في الذهن ، ونحضر للقارئ معنا صورة واضحة الملامح للشخصية المصرية الدينية بخاصة — على الأقل — فانا سنحاول ذلك ، في أقصى ما يمكن من الايجاز والاجمال ، تاركين كل تفصيل أو استدلال لثقافة القارئ ، ونحن نعتقد أن التاريخ العصري لمصر ، فيما كتب من هذا الكتاب قبل الفترة الاسلامية التي نتحدث عنها ، لابد أن قد هيأ القارئ لما نحيل عليه ، ونجمل القول فيه ، من سمات هذه الشخصية ، وسلوك الأمة المصرية ، في أعصرها السابقة على العهد الاسلامي من حياتها

والى القارئ ما لا بد منه ، أساسيا ، من الفكرة القصيرة المركزة عن

ملامح الشخصية المصرية الدينية

ولمصر — على مر التاريخ — شخصيتها الواضحة السمات ، بارزة القسمات ، بينة الملامح ، راسخة العرق ، لابثة العمر ، محتفظة عهد بالتحضر ، قديمة الأثر في التمدن مؤسسة مدنية

وتلك الشخصية المصرية جامعة معالمها العلم ، فيما يبدو من شعوب الجنس ، والوراثة ، والبيئة ، ونعرفها الدرس حين نحسبانه ولا نحصر … من عصور تلك الشخصية حرفا من الكلام ، ونسمح من نثيب ، أو اندفاعا من عواطف قومية

وكما يصح خطة الحديث لا نتعرض لشيء من أصول ذلك ودلائله ، بل نكتفي بالاشارة الخاطفة ، بعبارة موجزة محوسنة لوجوه ، نوجز ما نعي من أمر هذه الشخصية الى أصول عامة ، وعوامل جامعة ، وهي —

« … ادرك الأول السبب الذي أدى بالجنس المصري ، بعد تكوينه البطيء ، في عزلة بين الدروب بحاجزي الصحراء والماء الى بلوغ الوحدة القوية ، التي استخرجها من أمة الغامض ، واحتفظ بها الى أيامنا هذه ثابتة بين أبنائه ظهورها على غرائب محاسنهم ، وتبوره الثلاثة من آلاف السنين »

* * *

ولتلك الشخصية المصرية جوانب مختلفة ، ولواحقها المتعددة ، من دينية ، وخلقية ، وعقلية ، وسواها ، ويعنينا هنا من ذلك الجانب الديني ، الذي نسعى الى الحديث عن نصفه عشر قرنا من تاريخه لنحاول … ما قدمنا الآن من اشارة خاطفة أن نصف ملامح تلك الشخصية الدينية ، لنضع في يد القارئ بذلك ما يفسر ظواهر الحياة الاسلامية في مصر ، ويردها الى مستقر … ثم وحدة … أثر شخصيتها على الزمن

ومن ابرز ملامح الشخصية المصرية الدينية

عمق الروح الدينية

ومنذ أول العهد عرف المصريون بصفة التدين ، ولا نعتبر في ذلك ، بل يكفي ما قاله أبو التاريخ هيرودوت من أن المصريين أشد الناس تدينا ، ولا نعرف شعبا بلغ من التقوى درجتهم فيها ، لأن صورهم بجملتها تمثل أناسا يصلون أمام الرب ، وكتبهم — على الجملة — أسفار عبادة ونسك

وسنرى سيطرة الشعور الديني ما يمكن أن نلمحه من أثر في حياة المصريين الدينية على اختلاف العصور ، ومع مختلف الأديان

ثم إن من أوضح ملامح الشخصية المصرية تدينها أيضا —

قوة الإيمان بالحياة الأخرى

فنحن لا نجد في أصول اليهودية مثلا عقيدة بتلك الحياة بعد أن المصريين قد احتقروا الحياة الدنيا محالفين كل جنس سواهم ، ولمعاصريهم — كما قيل — فلم يكن المصري يهتم بما يسر أو يحزن ، أو بمن يحب ويبغض ، ويبكي ويضحك ، على صفائه لثيره ، وإنما يصرف همه إلى مومياء تحنيطه والمصريون — وهم أقدر البنائين القدماء في العالم لم تكن قصور ملوكهم إلا حالات بالنسبة للقبور ، وذلك لأن المسكن يبنى عندهم ليؤوي إليه الإنسان في حياته ، والقبر معد خالد على الدهر ، وبعد القدم حد يحط هذا المعنى في فهم المصريين من جوهم من الأمم ، كاليونان

ومن الأثر القريب لهذا الإحساس القوي بالحياة الثانية سيادة عقيدة البعث ، وما اتصل بها من ألوان التحنيط ، وبعض مصريه في حال نشاط لم في تعجز من حله

فعقيدة البعث في بعض خصوصه هي محور النشاط العملي في وجودها ، وهي أوضح البواعث والدوافع في أعمالها ، وهي سر تاريخها ، وخلاصة فلسفتها في تفسير حياة الكون والإنسان

وقد وجدت في البيئة المادية حولها تعبيرا وتصويرا لهذا المعنى ، فالشمس تحكي ذلك كل يوم بشروقها الباكر فظهيرتها القائمة ، إلى أصيلها الكابي ، فغروبها الفاني في ظلام يعقبه بعث وميلاد لصبح ، إذا الصبح تنفس

والنيل تكتسح فيضانه الزاخر رمال الصحراء ، وجمود الجدب الميت ، فيحيي الأرض بعد موتها ، ثم إذا هو يهبط وينحسر في مجاريه فتتسرب الحياة من الأرض الترابية رويدا ، ويستوحش موت في بعث جديد فيضان معاود ، وكذلك عمر القلب المصري بأمل لا يغيب في الحياة الثانية تفضل ما يعيشه من ذلك بيعث تدافق وتضحية برضاه

وفي سبيل هذه العقيدة وبموجبها ذهب مصر ما ذهب ، وبذلت ما بذلت لأجلها من التماس عوامل الصفاء ، ومهنات لما يخالف عمر ساعات كالإطراد ، وأعمار مساحات واسحات ، ومعارفه ، ومباحث

يهيء لذلك كله ، ويمكن من صنوف الحصر ، تلقى الروح في يومها الموعود ، وتنشر في الوادي تلك المشاعل الممتدة في جوف الأرض ، وتلك المعابد الشامخة على سطحها .

وكانت مصر بذلك سمة دينية لها بينت الجهود الجبارة بحذافيرها وتأثيرها برمته الأصيل ، وإن اختلفت صورها . فمصر الفرعونية هي هي مصر الأديرة ، ثم هي هي مصر [illegible] الصوفية [illegible] بعمق روحها الدينية ، وتستلهم للحياة الأخرى — واستشرافها لروحي الأمل .

ومصر بهذه المعاني هي مصر التي [illegible] من معاني لديها في إخلاصها ، وتفانيها وتفانيه في العقيدة أسمى [illegible] تلك الجهود الجبارة التي كانت صورها صنوف [illegible] أسفار عبادة [illegible] أعداد للبعث [illegible] من الخلود [illegible] وسنرى حياتها الدينية الإسلامية [illegible] فيما يلي — امتداداً متصلاً بهذه المعاني الدينية بلا تخلف .

ثم من أبين ملامح الشخصية المصرية الدينية التي تؤازر عمق التدين ، وقوة اليقين الأخروي

<u>سعة الأفق الديني</u>

فقد أوتيت مصر سعة في نظرها الديني ، ونظرة إلى فسيح الآفاق وتبسطها في عالم [illegible] الديني [illegible] وكان من [illegible] أن [illegible] البحث المقارن في الأديان [illegible] ومساهمة بأبحاث مختلفة في مواطن عريقة [illegible] الديني ، فإذا مصر [illegible] كله واسعة

[illegible] في دين الشرعية [illegible] هو ظاهرة جماعية في حياة المصري الإسلامي

وحينما كان التدين وحده بخصيصة ترعى مصر من هذه الوجهة الكبيرة [illegible] الوثنيات القديمة في أقاصي الأرض وتصل بعقائد مختلفة الصور إلى [illegible] متعددة فوثنية مصر قد عرفت تعدد الآلهة ، ومختلف الأقانيم من ثلاثة إلى ما بعد التسعة [illegible] كما عرفت تلك الوثنية عقيدة الفداء والتخليص وولادة المخلص الإلهي ، وقيامه من بين الأموات [illegible] وكما عرفت أمومة العذراء وما يتصل بذلك [illegible] وكان لها من الطقوس الكثير ، فعرفت التعميد والرهبنة و [illegible] مما تكشف مقارنة الأديان عن قوة المشاركة المصرية فيه .

ثم إذا ما كان التدين توحيداً عرفت الديانة المصرية في هذا التوحيد ما تعرف من محاولات وتفسيرات [illegible] وهكذا ندرك من هذا الإجمال مدى ما في الشخصية المصرية الدينية من سعة الأفق ، وسعة النظر الديني [illegible] ونقدر أنها بذلك [illegible] إليه من ملخصات للتاريخ في حياة التدين البشري بعامة ، وفي حياة الأديان الكبرى المعروفة [illegible] بخاصة [illegible] نظرية [illegible] عقيدة [illegible] سمة مصر ، وفي [illegible] موضع الدرس [illegible]

[illegible] لا تنقص تعهد [illegible] بل

بعد ... اليهودية شعر منها ... الإسلام مصدراً لا ... جديدة من التوراة والإنجيل وتلك نتيجة ... المشاركة النظرية الاعتقادية من مصر في حياة الأديان الكبرى عنده

وأما مشاركة الجوانب العملية ومن أدب مصر في مختلف عصورها ، من حدمات جلّى لحياة هذه الأديان فقسمتها فيها واضحة ، وجهدها مصرى ؛ في لحظات دقيقة ، ومواقف حاسمة ، لعدل في مثلنا من أدلة كذلك من الحدثات الجلية ... الحضارات وصور التراث الإسلامي ، المقتبس ؛ كما صدقت التراث الإسلامي الوجداني الاعتقادي

وهذه المشاركة المصرية الإيجابية في حياة الأديان والحضارات ... لا نرغب هنا القول فيه تفصيل ولا تعقيب ، وحسب القارئ ما تذكره به هذه الإشارة من ثقافته التاريخية عن تلك المشاركة المصرية

* * *

ونرغب هنا أن نقول أن هذه الشخصية المصرية الدينية قد هيأت مصر المشاركة في الأديان الكبرى ؛ بمعرفتها ... وإقبالها وتمثلها في أناة وتعقله ... وتمكينها من الحياة في بيئتها الاعتقادية ، ثم الوقوف من جوهرها بعد التمثل الصحيح لها ، وقوف المستشهد العملي لأسس ...

ومثله ... هذه لأسرار العبادة ؛ مصورة القسمات الشخصية المصرية وملامح تجربتها ... لما يتصدى إليه من ...

التصوير ... مظاهر العامة المعروفة التي تحتويها هذه الشخصية ، فنستمع معي بأن مصر صاحبة هذه الشخصية الدينية قد حفظت على اختلاف الأديان ... في فهم جانب الشخصية الإسلامية ، ... التاريخ الحضاري من جانبه الديني ... وتلك مظاهر العامة هي أنها —

[أ] الأناة التدبر ... كما يقول التعبير العربي ، ... ، ... في سهولة ... في سهولة ... كلا ... بل هي متأنية فيما نقبل من عقيدة ؛ لا تجد أصلاً في أقدم تاريخها ، ونرى ذلك في الحديث القريب عن تلقيها الإسلام

ثم هي ... في أناة ظهر أثر هذه التأني في تدينها ، ورأينا بذلك أنها —

(ب) ... روح التدين الذي ... لا تقف ... التشعب و نظريات بل تستشف اللباب وتدرك الجوهر ، ونرى هذا في إسلامها ... ولم نجد لأبنائها جهداً كبيراً في ... الخلاف الديني وافتراق المقالات الاعتقادية ، بل نرى موقفها في هذه النحل والمقالات هو موقف غير منفعل ولا منصرف ... وهو ما ... أشبه به في الكلام على حياة الإسلام فيها

ثم ... في تدينها ... ثبت ...

ج ... في ... التدين الذي ... في ... و ... و ... ذلك ... في مختلف الأديان على شتى الصور

تأصلت عن الوثنية التي عاشت بها أجيالا بل لما تلقت المسيحية قدمت لها شهداءها مقاومة عن مسيحيتها ، حتى تلقت الإسلام في أناة — ولما حفظت مصر في سبيل حماية عقيدته ودولته ما يحدث في صراعها الدامي مع الحرب الصليبية والغزو التتري الهمجي ، وقد كاد يقضي عليها من الجانبين في عصر واحد .

وبمثل هذه الملاحظة العامة نشعر أننا قد مهدنا للقول الإجمالي في التاريخ الحضاري الديني لمصر الإسلامية ، وأقمنا من المقدمة ما يرد الحديث عن هذا العهد الإسلامي في معالم عامة ، تدل على تتابع أمواج من الحياة المصرية ، متلاحقة متواصلة يجيء السابق منها باللاحق ويربط الأول وسوح الثاني وتلتمس به الأسباب بتر منا موصولا ، مفهوما مشروحا كما ينبغي أن تكون الأمر في تاريخ الحضارة ، ويمكن أن يلقى أضواء جلية مركزة على الأحداث وتطورات الحياة ، ويحصل للقرون في شخصية مصر حضارية ثابتة الأسس ، أصيلة النسج ، لا تكرار ولا تحيز ولا تعصب ولا افتراءا مدعى

وعلى هذا الأساس ننظر إلى

مصر تلقى الإسلام

ومصر تلقى الإسلام ، وفيه أخبار صادر كثيرة ، بعضها يتحدث عنه التاريخ الديني الرواية ، وبعضها يتحدث عنه التاريخ المدني المقصد .

فأما ما يحدث عنه التاريخ الديني فأمور هامة مصرية للعرب المسلمين ، إذ أهداها صاحب مصر لأم المؤمنين — حتى دخل مصر وعمه ... وكان من أصهره وأمرها مع ملك مصر ما يحكى .

ثم هي صلة يحددها اهتداء المقوقس مارية القبطية التي وهبت للرسول محمد — صلى الله عليه وسلم — وولدت إبراهيم على ما هو معروف .

ويلحق بما يحدث عنه التاريخ الديني من صلات ما يحكي الرواية العربية من دخول العرب إلى مصر ، وقصة عمرو بن العاص ، ووقوع الكرة في كمه ، بملعب الإسكندرية ، وأن من كانت تقع في كمه تلك الكرة يملك مصر ، وبدا عجب المصريين من وقوعها في كم هذا الأعرابي ، ولكنه أخيرا ملك مصر !

ومهما يكن الرأي في هذه الروايات كلها فإن لها دلالة اجتماعية على صلة ما بين الإقليمين القائمين على شاطئي بحر واحد هو البحر الأحمر ، وبهذا الجوار ما يكون مثله من الصلات ، وصلات مادية ومعنوية لا مفر منها .

والتاريخ المدني المصدر يحدث عن هذه الاتصالات بأشياء معينة ، من رحلات مصرية ومحاولات لا نحصوها في شيء منها ، ولكن نشير إلى ما يذكره ذلك التاريخ من صلة دينية بين الوثنية المصرية ، والوثنية العربية حتى المعبودات الوثنية العربية ترجع في أصلها إلى معبودات مصرية ، حتى أمكن رد

أسماء الآلهة المعبودة التي ورد ذكرها في القرآن وهي اللات والعزى ومناة ... رد بعضها أيضاً إلى نظائر من آلهة مصر، فمنها شبيه بالاسم العربي، ومنها شبيه بوصفه مصر لتلك الآلهة وعمله، فاسمها ووسمها مصري.

واللات مثلاً، هي معبودة مصرية، اسمها المصري شبيه بالاسم العربي ويرمز بها في مصر إلى الحصاد، حين يذكر في العربية أن الاسم من لت السويق، المتخذ من الحنطة والشعير.

وقد نوه بهذا البحث الأثري المصري المرحوم أحمد كمال باشا. ولا يتسع المقام للخوض في شيء منه هنا، لكنا نحب الإشارة إلى تلك الصلة بين مصر والجزيرة العربية على أساس أقوى من مجرد الخبر الذي تعرضه الروايات العبية الشائعة، هو اتجاه إلى الناحية الدينية في البلدين بخاصة، وهي موضع عنايتنا هنا.

ولا نعرض كذلك لشيء من أخبار تلك الصلة بين البلدين في العهد القريب من الإسلام. ولكننا بالنظرة الجامعة نشعر في اطمئنان أن بين البلدين من المشاركة الناتجة عن الجوار ما يمتد إلى جذور عميقة في حياتهما، ويصل بهما من الروابط الدينية والاجتماعية ما يجعل البحر الفاصل ... يعتبرهما قطرين متجاورين على جانبي بحر واحد كما قلنا.

ولعله ليس من الصعب أن نجد الصلة بين قيام مركز الدين العام في الحجاز غرب الجزيرة العربية وبين معابده عند العرب قبل ... الحياة الدينية الخاصة القوية، بواسطة الاتصال. وهو مجال نكتفي منه هنا بالإشارة في ضوء الاتصال بين مصر وبين مهد الإسلام ومنشئه الأول، لنرى أن الإسلام لم يكن دعوة غريبة على مصر، ولا بعيدة عن جوها وبيئتها الدينية، على ما أشرنا إليه.

وقد كان لهذا الجوار أثره في أن وجهت الدعوة الإسلامية إلى مصر برسالة من محمد نفسه إلى المقوقس أو — قيرس — حاكمها السياسي ورئيسها الديني، في السنة السادسة من الهجرة. وكان الرد على هذه الرسالة من خير الردود على ما وجهه الإسلام من رسائل إلى الملوك والحكام حوله، إن لم يكن خيرها. وتتوسع المصادر العربية في وصف تقبل المقوقس للرسالة، وسؤاله حاملها في عناية خاصة، عن صفة رسول الإسلام — ص — وعلامات ظهور الدعوة الإسلامية، وانتظار ظهوره وظنه إلى حد القول بأنه سينزل بساحتهم هذه — مصر —

وإن لم يكن هذا كله قد كان كما وصفت الروايات الإسلامية فإن الهدايا المرسلة، والرد الحسن يكفي في وصف تقبل المقوقس لهذه الدعوة.. وسواء أكان هذا التقبل الحسن سياسة من الرجل، أم كان حسن فهم لسير الحياة الدينية فإنه يعطي ... على كل حال ... وصفاً في ملامح الشخصية

مصرية ، من سمة أفقها الديني ... كها الواسعة في حياة التدين الاسلامي

ولعل مما يؤيد هذا المعنى أيضا ما تسوقه المصادر العربية كذلك من أن المغيرة بن شعبة في رحلة له الى مصر ، قبل أن يسلم ، قد تحدث الى المقوقس بشأن صاحب الدعوة الاسلامية الحديثة في بلاد العرب ، كما تحدث الى أسقف قبطي ، بهذا الشأن ، ثم لم يجد المغيرة أحدا أشد اجتهادا منه ، فأخبره من آخر الأنبياء ، النبي الأمي العربي ... الخ

وهي روايات ، ان لم تصح كلها فان بعض دلالتها على ما كان في البيئة المصرية من علم بالشئون الدينية ، يؤيد ما وصفت به من أفق واسع في التدين

ثم لم تمض بضعة عشر عاما من هذه الدعوة السمحة حتى جاءت دعوة الاسلام موجهة ... فأقامت له دولة داعية في مصر ، بعد ما كان من وقائع الفتح التي لم تستغرق وقتا قصيرا .

ولا يبعد ان ... مصر القبطية التدين ، المعنية بالأديان قد كانت لها مشاركة في حياة الدين الاسلامي ، خارج مصر ، في عهده بالحجاز ، ثم في مصر نفسها ، على عصور مختلفة

على العهد ... بين صحابة الرسول ... واحد يعرف بالقبطي ، مثل

جبر بن عبد الله ... سنة ٦٣ هـ ... الذي يعرف في كتب الصحابة بالقبطي ، ويروى السيوطي أن القبط تفخر بأن منهم من صحب النبي عم

وفي بعض حديث القوم عن هذا الصحابي القبطي أنه كان ... المقوقس ... الى رسول الله — صلعم — فبقي هناك وأسلم وصحب ... وان كانوا يقولون مع هذا ان منهم من رأى بعض ولده بمصر ... على هذا ليس مجهولا ، أنه هاجر الى الحجاز ... ثم عاد هو أو ولده الى مصر ، وكانت لهم فيها أسرة

ومن الصحابة المعروفين بالقبطية أيضا صحابي قوي الصلة برسول الاسلام نفسه هو

أبو رافع القبطي مولى النبي — عم .

فانه هو الذي ... في رواية — وليس فيما رأيت من أخبارهم عنه ما يبين مصريته ، أو سبب انتقاله الى الحجاز الا أن واحدة هو رواية ... في تسمية الأولين ... يقولون كان اسمه ... لم يعتبر ... أسلم ، أو ابراهيم أو ... صيغة التصغير التي كان يلقب بها

وعلى كل حال فان هذا الذي تسميه كتب الصحابة بالقبطي رواية تحدث عن النبي ... وعن عبد الله بن مسعود ، كما روى عنه أولاده وأحفاده ، وغير قليل من الصحابة

وان هؤلاء وأمثالهم ممن ... بالاسلام في عهده ... عهده مشاركة من مصر

وشأنها في تلقي الدعوة الإسلامية التي وجهت مصر منذ عهد مبكر ...

ثم تصل مصر حبلها بالإسلام وتحمله نسبة إلى الثقافة الإسلامية الخاصة في مدارسة القرآن والحديث، ولم تصل بذلك من العلوم الدينية ثابتة وتحرره فإذا مصر تشترك في ذلك رجال غير مصريين، ولا يزالون يعترفون بالقبطية، عند الحديث عنهم بين المعدودين في حياة تلك الثقافة الدينية خاصة.

ففي قراءة القرآن ونقله، وتحرير نصه، ووصل السلسلة في تلاوته تشترك مصر من وجوه القراءة السبعة المعروفين ذوي الأسماء الشائعة إلى اليوم، هو القارئ

ورش — القبطي المصري مولداً ووفاة — ١١٠ هـ — ١٩٧ هـ، الثقة الحجة في القراءة، والذي يصفه أصحاب هذه المادة فيهم بأنه شيخ القراء المحققين، وإمام أهل الأداء المرتلين، وإليه انتهت رياسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه، أخذ عن نافع بن أبي نعيم ... وله اختيار — في القراءة — خالف فيه نافعاً. وكان جيد القراءة، حسن الصوت، لا يمله سامعه.

ثم في ميدان الفقه، ونجد مبكراً نجد بين الفقهاء الأوائل من أصحاب الشافعي الذين جالسوه وكتبوا عنه هو

أبو حفصة الأسوي القبطي ... سنة ٢٧١هـ. ... مصر في الغرب صحب الشافعي، وكتب الكثير من كتبه وروى عنه عشرة أجزاء من السنن والأحكام، وكان آخر من صحب الشافعي موتاً ... في الفقه مذهباً فكان ...

* * *

هذه وما إليها شواهد على مشاركة من مصر وبيئتها في تلقي الإسلام تليت مبكر الوقت، وتصح المصادر، ... الصور والتأثير في حياة الإسلام عقيدة، وعلماً ديناً

وهي شواهد تضيف لمصر مع ما نعرفه من أن الكتاب العرب في الموارد المختلفة يعرفون بالقبطية من في مصر، ولو كان رومياً مثلاً ومع ما نعرف من أن المسيحية قد اعتنقها في مصر أخلاط من عناصر شتى. ومع هذا وما بيد تلك الشواهد مشاركة لمصر وبيئتها وطابعها الديني، الذي عرف منذ قريب، لأن ذلك في التاريخ حضري صرف، ولا يتعبر بشيء من عرق أو جنس ... بوتقة تمزج العناصر المختلفة التي تستقر فيها وتطبعها بطابعها، على قدر قوته وأصالته

ونحن لا نعتمد إلا على مثل هذه الأصول فيما قررناه ونقرره من المبادئ الاجتماعية التي نرى فيها التفسير المتسق لشخصية مصرية، والحياة المصرية في العصور مختلفة، برغم اختلاف الأشكال وتصور الحد ... بتلك الصفة تحولها ... فيما عند ... من قوة الشخصية المصرية ... واضحة

ثابتة وهو ما نرجو أن يجد القارئ صحته في هذا القسم الذي نحن بسبيل تحديده وإطراد سيره.

وإنى لا أجد فيما بين أيدينا من شواهد سيادة الشخصية المصرية الإسلامية التي تجمع عليها قسوة الدين المصري ، وسعة الأفق الديني المصري — كما بينا — فإنه لا شيء مما يعد من معالم الثابتة لتلك الشخصية ، وأنها ستأتية فيما تقل من عمده ، لا تحدم أصلا في دينها — ص ٥٣٦ — فهل تختلف هذه المظاهر في تلقي مصر للاسلام ؟ سترى الجواب فيما كان عملا من

التحول .. في سريع

إذ إنك تقرأ في تاريخ المصري ، من حوادث سنة ٢٠ هـ أن صاحب الاسكندرية عرض على عمرو بن العاص ، بعد ما أصاب سبي كثيرا ، بيع بعضه بمدينة وسكة ، أن يعطيه الجزية على أن يرد عليه ما أصاب من سبي وأن عمرا استأذن عمر في ذلك ، فرأى عمر أن ما تفرق من سبي بأرض العرب ، ببيع مكة والمدينة واليمن لا قدرة على رده ، وأما من في أيدي المسلمين بمصر من السبي فيخيرون بين الاسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه وأن صاحب الاسكندرية قبل ذلك قال [illegible] ما في أيدينا من السبايا ،

وخيرنا النصارى ، فيختار بعض الرجال دين النصرانية من في يديه ثم يخيره بين الاسلام ، ومن يختار منه قال الاسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تفتح قرية ، ومن ثم نحوزه إلينا ، وإن اختار النصرانية نخرت النصارى ، ثم حازوه إليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا إليهم [illegible] فكان ذلك الدأب حتى فرغ منهم ، وقد أتي فيهم أتي به بأبي مريم عبد الله بن عبد الرحمن قال ولقد أدركته وهو عريف بني زبيد — قال فوقف فعرضنا عليه الاسلام والنصرانية ، وأبوه وأمه وإخوته في النصارى ، فاختار الاسلام فحزناه إلينا ، ووثب عليه أبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه ثم هو اليوم عريفنا

وأحسب أنا لو أردنا أن نلتمس هذا التجاذب الديني في مصر منذ عرفت الاسلام لما وجدنا أوضح صورة مما تصور هذه الرواية التي ساقها المصري ، فهي تصوير مادي ونفسي فيه هذا التجاذب في أرض مصر على اختلاف الأزمان ، ومع سلطان العقيدة الدينية أو دونه

وهذا التصوير في الوقت نفسه دلالة على ما تجده في شخصية مصر من عدم سرعة تحولها من دين إلى دين [illegible] وأنا لها في ذلك حل نعلمها [illegible] من شئت أن تقو

* * *

وتمر في المصري ، من خبر هذه السنة نفسها [illegible] ٢٠ هـ [illegible] ما على

وحضر رؤساء القبط عند عمرو ، ونظر عمرو أنهم ينظرون إلى العرب ، وأنهم يطمعون فيهم لما رأوا منهم ، فأراد أن يخيفهم ، ويخرج بهم ذلك من أنفسهم ، فأمر بجزور فذبحت ، فطبخت بالماء والملح ، وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا ، وأعلموا أصحابهم ، وجلس عمرو ، وأذن لأهل مصر ، وجيء باللحم والمرق ، فطافوا به على المسلمين ، فأكلوا أكلا عربيا ، انتشلوا ونهشوا ، وهم في العباء ، ولا سلاح ، فافترق أهل مصر ، وقد ازدادوا طمعا وجرأة ، وبعث في أمراء الجنود في الحضور بأصحابهم من الغد ، وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ، ففعلوا ، وأذن لأهل مصر فرأوا شيئا غير ما رأوا بالأمس ، وقام عليهم القوام بألوان مصر ، فأكلوا أكل أهل مصر ، ونحوا نحوهم ، فافترقوا وقد ارتابوا ، وقالوا : كدنا ، وبعث إليهم أن تسلحوا للعرض غدا ، وغدا على العرض ، وأذن لهم ، فعرضهم عليهم ، ثم قال : إني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء ، حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم ، فخشيت أن تهلكوا ، فأحببت أن أريكم حالهم ، وكيف كانت في أرضهم ، ثم حالهم في أرضكم ، ثم حالهم في الحرب ، فظفروا بكم ، وذلك عيشهم ، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني ، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني ، ويرجع إلى عيش اليوم الأول ، فتفرقوا وهم يقولون : لقد رمتكم العرب برجلهم ، وبلغ عمر فقال لجلسائه : والله إن حربه لينة ، ما لها سطوة ، ولا سورة كسورة الحروب من غيره ، إن عمرا لعض ، ثم أمره عليها وأقام بها .

وأحسب أن هذه القصة — مهما يكن أصلها — تمثل أبين التمثيل التنافس الاجتماعي بين العرب والمصريين ، وغوامضه وأهدافه ، حتى ما نجد أبلغ منها في عرض ذلك كله موجزا دالا ، وإن فيها من حسن التمثيل الصادق الإشارة ما يحيي نظرة المصريين للعرب تلك النظرة التي نلمس عمقها في صدور الشعوب الديني أو الاجتماعي — إن لم يكن في بعثه — إن شئت أن تقول .

وتحت كل ما سبق من موجهات مؤثرات مست الحياة في مصر ، وكانت ثورات في مصر خلال القرنين الأول والثاني الهجريين ، وصدرا من القرن الثالث ، تارة من المصريين منفردين ، وتارة مع عناصر عربية غاضبة ، حتى أوفد إليها المأمون بعض قواده ، فلم يكفه ذلك ، واقتضى الأمر مجيئه بنفسه ، من بغداد إلى مصر ، وحضر المأمون مصر للحرب والثورات ، والحرب أيضا .

وكل هذه التيارات وما إليها مضى به التمصير الاجتماعي في سبيل نجاحه ، على مر الزمن ، ثم هدأ النشوز الطبيعي ، وسعدت مصر في

أفانها ... الى الاسلام ، وقد أنبت الى جانبه ... من [illegible] و [illegible] ، وما لها من [illegible] في [illegible] وجاء أهلها في هدوء [illegible] من [illegible] ومتى [illegible] الثلاث وما لها من ميراث لاهوتي وفلسفي من مدرسة الاسكندرية ، وأديرة الوادي

* * *

استقر الاسلام في مصر ذات الشخصية البارزة ، الواضحة المعالم الدينية ، على ما بيناها — أول هذا الحديث — وعلى نحو يعيد التي ذكرناها في كيريات واضحة — ٥٣٤ ، ٥٣٥ — توجه حياة الاسلام في مصر توجيها بينا ، يسير حياة هذا الاسلام في مصر عن حياته في غيرها ، ويتحدى التفكير في الاسلام ، كما يتحدى نحن كذلك بعناصر هي حافلة ... الى أمهاتها في مجال لا يسمح المقام بأكثر منه ... فلنتحدث عن

توجيه مصر .. في الاسلام

ونتجه في ذلك أول ما نتجه الى التصوف الذي هو حركة [illegible] خاصة ، [illegible] ، في حياة التدين البشري ، على اختلاف ألوانه ، وتعدد صوره ، ولبست ديارة ... حركة [illegible] من دقة الحس الديني ، ورهافة الوجدان الاعتقادي ، لتمضي بالتدين الى أعمق من التكاليف العملية ، والعبادات المرسومة ، ولتمثل روح الايمان ، ودافعه الى التفاني في [illegible] ، و[illegible] الفعل [illegible] ، وجهه ، و[illegible] كل [illegible] ، و[illegible] في كل شيء عن [illegible] وهي [illegible] لا تتم

الا عن [illegible] ، و[illegible] [illegible] ، و[illegible] [illegible] الشهوة و[illegible] من ظلام المادة ... كما يعرف الصوفي دوره

وقد كان للمسلمين نصيبهم من هذا الاتجاه منذ ظهور الاسلام ، بما في كتابه وهدي نبيه ، من زهد مترفع عن الشهوات ، لا يمد عينيه الى زهرة الحياة الدنيا

ثم تقدم بعض المسلمين في ذلك بين الأخذ بصور من الرياضة الخاصة في العبادة والسلوك ، ثم الى امتداد ذلك بتفكير روحي ديني ، يأخذ بأسباب من الفلسفة وآراء قوية التمثل في تفسير الكون والحياة والصلة بالله ، وهو تفكير لا يعدم تأثرا بمذاهب بعينها من الفلسفة العامة ، والأديان القديمة ، من الفكر الشرقي أو الهندي ، قد توثقت الرابطة بينها وبين الفكر الاسلامي ، حتى غاضت في بيئات كانت موائل لها ومواطن

وما نحن لا نحب أن هذه الصورة العميقة من التصوف الانساني ، أو التصوف الاسلامي ، لا تثبت حيث تمثلها في تلك الآفاق السامية ، بل تنحدر مع الزمن حتى تصير الى صور من الشكليات التافهة ، والمظاهر السطحية الجامدة ، يوجهها جهل يشوب الدين وتستغل الدين جميعا ، [illegible] محرفة [illegible] ، [illegible] بها الدين والدنيا جميعا ، وهو ما لن [illegible] ، ولا نحب أن [illegible] الآن ، إذا لا [illegible] حتى نتحدث عن

عن التصوف ... وعن أثر الروح المصرية في تصوف الإسلام ، فلا ... الا التصوف في ... ، ويعلو به نحو الكمال كأن مصرة مذهب الأحد .

* * *

وقد كانت مصر بيئة دينية ، عريقة التدين ، واسعة الافق ، ... لم ... بيئة فكرية أيضا ، فقد شاركت في جهاد الانسانية العقلي ، وأعطت ما عندها من أفكار ذات ... فكرى ، وأخذت منها ، وجمعت الثقافات والحضارات — كما أشرنا — كانت مصر تكمل أوسك في عهد انتشار الاسلام بأبعاد الدين القديمة ، ذات تأثير واسع ، في بعث الثقافة الروحي الصوفي للمسلمين

وفي ... من العناصر الدينية والفلسفية جميعا ، ومشاركتها في ... هذا التصوف وتطوره . ونكتفي بهذا الاجمال لنكتب في ثقافة ... الباحث ، قريبا أو بعيدا ... وذلك لأن الزهد الاسلامي الذي ... القرآن ، ... به السنة قد اتصل في مصر — خاصة — بمؤثرات دينية ، من الاديان الشرقية المختلفة ، وصلت مصر عن طرق متعددة ، من الحروب والرحلات ، ووفادة الأمم المختلفة ، ... الأديان المتعددة في مصر نفسها ؛ من وثنية ويهودية ومسيحية

واتصل الزهد الاسلامي كذلك في مصر خاصة — ... من الأفلاطونية الحديثة ، والفلسفة الدينية ... والفلسفة الدينية المسيحية ، والمذهب الغنوصي ... وهو مذهب الغنوصي الدينى الذي ... أن ... مذهب ... ؛ لأنه ... معرفة ... ...

فكل ... من المذاهب الفكرية كانت الاسكندرية من أهم مراكزه ... في مصر ... الفلسفة ... ، ... الدين بالفلسفة ... واليها هاجرت الثقافة اليونانية بعد ... وبعد ... طويل ... بين مصر ... الثقافة والحضارة

ومؤرخ الفكر الاسلامي يعرف جيد أن ... قد عرفوا فلسفة ... من طريق الأفلاطونية الحديثة التي ... أوسع الانتشار ... ومصر ... كانت موطن تلك الفلسفة ، ... من التيارات الأخرى ... كما يعرف مؤرخ التصوف الاسلامي أن ... نفسها كانت وثنى ... والتصوف الاسلامي المتطور ، الذى ... آثار تلك الروافد الفكرية والاعتقادية واضحة ، ... الباحثون

... الاجمال من البيان ... الفارسية ... به من ذلك ما ... الى ادراك ... وجهة مصر على الاسلام في ... الذي هو ... ديني ... وراء ... من مظاهر ... الاسلام في بعض خطوطه الكبرى

جهدا مصريا ... أو نوبيا ... من احسبه كان تأثير ملامحه بارزا جميعها ، لأنها تنبع من ينبوع الحكمة القديمة حيث عرف لقدماء المصريين أنصب ... انه ما عليه على هذا الاحساس عام ما فيها من كتاب ... هم هو الحكيم الصوفي

ذو النون المصري — ت ٢٤٥ هـ —

تقول عنه المصادر الاسلامية : انه وحيد دهره علما وعبادة ، وحالا ، ومعرفة ، وأدبا وانه هو رأس هذه الفرقة — الصوفية — فالكل قد أخذ عنه ، وانتسب اليه ، وقد كان المشايخ قبله ، ولكنه أول من فسر الاشارات الصوفية ، وتكلم في هذا الطريق

ويعرف الباحثون المحدثون عن هذا المصري : هو أحد رجال الصوفية — على الاطلاق — وان يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف

ولو كان في المجال شيء من سعة بين من أقوال ذي النون المصري وأعماله ما يكشف التبيين الواضح للتأثير على التصوف الاسلامي من البيئة المصرية الخاصة ، بمذاهبها الفكرية من معرفة ، وبالمتداول فيها من معارف كيماوية ، وغيرها ، وبالنشاط التعبدي في صور مختلفة ... الخ ... ذلك كله يتحدث بنفسه ... وحسبنا ما عين برهانا على ما دلت عليه ملامح الشخصية المصرية من سمات الروحية ... في الاسلام ، بتوجيه تصوفه وعلاقته ،

على ان الصوفية تكون فيهم ما لهم من التوجه والأذواق والاحوال ، فانهم يصبحون من ثم أقطابا قائمة بذاتها ، يتجاوزون فيها النطاق موسعة ... حدود ... بعضهم وبعضهم ، ... قادت مصر نفسها في هذا ميدان الصوفي ، لمحبي النشاط

ابن الفارض — ت ٦٣٢ هـ — الذي يوضع في الطبقة الأولى ، من أصحاب الشعر الصوفي ، بما في كثير قصائده من جمال النظم ، ورقة الاسلوب واناقته ، وقوة الروح، ولمس النفس ، مما يقول الباحثون المحدثون عنه : انه من البعيد أن يكون عملا سببيا ، بل هو نتيجة لوحي أحوال الوجد الصوفي ، الذي يشبه ما يسمى في عرف علم النفس الحديث « الكتابة الآلية »

وكذلك قدمت البيئة المصرية المصمم الفني ، المعروف بالألباب ، يمتع التصوف ذي الحب الالهي المتدين ... ولا أمس من هذا في الروحية ... ولا أدل منه على ما أشرنا اليه من روحية مصر ... في الاسلام

• • •

والحديث عن التصوف جدير بأن يصحح القارئ في حديثي من التسامح الوديع بشعره بجوهر التدين وسماحته ، ويشرف به على الوحدة الدينية ، التي تسعف القرآن بنسبه ... ها في هوه وجلاء ... ص ٥٣٠

وفي هذه النحو يمثل الفن القبطي كذلك شخصية مصر ، وصفحة من صفحات حضارتها ، ومعبراً عن الأحداث ، ويمضي في التاريخ مخلفاً تراثه بوضوح ، وعلى هذا فهو في تاريخ الرهبنة المسيحية ، أو الرهبنة القبطية ، هي هي في تاريخ التصوف الاسلامي ، والتصوف العامي ، هي في كليهما حركة ، التي استغرقت فيها مصر قديماً الروحي لأساس التجرد الروحي ، والسبق النفسي والمشروع المبني ، واستشراف أسمى معاني التدين وأنبل أغراضه . ومن الرهبنة والتصوف مقدمة لشخصية مصر الاصيلة ، لا يمر على النظر الثاقب تجاهلها أو تناسيها ، وللفن في مثل هذه مكانه الخاص .

ويتعبر الفن بالرهبنة ، على الزمن وأحداثه ، كما يعبر بالتصوف كذلك ، فيكون فيهما من السر والعناد ما يكون ، ويلتقي معهما الحياة بما تلقي به ، وهو ما قد يشير إلى شيء منه في الكلمة عن الدين والمجتمع المصري .

وفي الحق أحسن من روحية مصر في الاسلام ما يهيىء لأسلوب عامة كذلك من

شخصية مصر .. في الاسلام

ففي هذه السنة التي قاد حياتها الاسلامي بالمعنى ... تاريخها هذه ... سعد ، والسعة ... في هذه السنة

تكون الحياة الدائمة منصبة وأقل مشاهداً ، وتكره سيادة ... وأمر وحد ذلك في عرب ... ووضوح ... يحص أحداث حتى ... يذكر تلك ... تا ... مرحلة ، فعالم الحياة في مصر ... تحدث ... بكان هذه المكوك ... قادمون ... الى الساعة التي ... فيها ... قبل ... كانت دائماً على مسرح هذه التاريخ ماثلة ظاهرة ... تختلف ... كما تختفي أمم قديمة دالت يد على ... بعد ، تحت دورها القصير أو الطويل ، فالبولانيون والفينيقيون والاشوريون الكلدانيون وسواهم قد قاموا بنصيبهم من المشاركة في الحياة ، ثم سلموا مقاليد غيرهم ، حجبتهم عن الأنظار ، وخفتت أصواتهم ، ومر لشأنهم فقد غدوا أقاليم مهملة ، أو مناطق مسخرة لا تعيش فيها دولة ، ولا يسير لها كيان على حين ترى مصر في قديم تاريخها ووسيطه ، وحديثه ، تقدم سدود المجال الحيوي الصالح لسعة على الثبات والنهوض في مصر ... ومصر ... وعاصمة مصر ... يوم كانت تعيش شمس الحضارة ... دولة وحضارة تنافس أمهات العواصم ، التي دارت حولها الدنيا ... لا ينزل حالها مع روما ، عن حالها مع بغداد ... ولا يقصر عن مركز هذه الأستانة ... الرشيدة ... وتحمي الخلفاء ... وتعز السلاطين ، وتحد الطامعين من الفرنسيين للاستقلال ... عن العاصمة الكبرى

ما يجيء بهم لدعوته القوية ، ومعالمه الصحيحة ، وتجري الأمة في ذلك على نسق متماثل ، فلا تكاد تكون موحدة في مسيرتها [illegible] من أبي بكر وعمر والخلافة في صدرها إلى القرن الخامس الميلادي كمحمد علي والخلافة الإسلامية في القرن التاسع عشر ، ترسم سياسته لأهدافها سياسة متماثلة [illegible] يجيء بهم مصر ، ويحضرون هو بمصر بمشاعر الخلافة الكبرى ، ويرابون معها ما تصطدم به مصر فأين وجد دائما ، وعلى مر الأيام ، وفي كل حين « مصر » في ميدان التاريخي ، وملعب العبقري لأمة مرموقة ، فعاله مؤازرة دائمة حيوية

وتلك الحيوية الزاخرة هي التي تحاول أن تلمح شمسها الدائمة في حياة الإسلام بمصر وتفسر — بين يدي ذلك — ما في صيغة التاريخ من معنى أي محاولته ، وخروج في كتب ، وتفوق في التعبير ، بل شبه تكرار بالصور ولكن واجدون مع هذه في الإسلام نشاطا حيويا ، يتسع لاستكشاف النشاط ، وتجديد النظر ، واستدامة النمو ، واستئناف الحياة بالمعنى الجديد ، والتصرف الحر ، الذي يحتفظ للأصول الجوهرية بصلاحيتها ، ويصونها من عوامل التخمد والجمود وهذا هو ما تسمه الله جدير أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » وقد في هذا معنى وهو معبر عن تلك المحاولة الحرة التي

تعاقب مفكريها في العالم الإسلامي ، وأعانت مصلحين على شق الطريق بالتيار الإسلامي الحديث مع الأجيال

في حياة هذه الأمة النجيبة تجد مصر — كدأبها — مشاركة بحيويتها حاضرة بإيمانها ، الذي يتجدد لديها بنفسه ، ويستمد لنفسه ، ومنها الجد في البحث ومن أجل البحث

فهذه المجددية كل قرن ليس إلا صورة من صور البحث الذي آمنت به مصر وعملت له ، فكان من عجائب الإسلامي أن قدمت جمهرة من الرجال الذين سعوا وأسهموا ، فكانوا مجددي قرون متعددة ، بين أوساط البضعة عشر قرنا ، الذي تمضي على رأس البضعة عشر قرنا من حياة الإسلام

ويبدأ العادون من القدماء ، و محدثي عمر بن عبد العزيز ، ربيب مصر ، وساكن حلوان ، ويمضون فيعدون غير واحد حتى يكون الكثرة — أو الأغلبية مطلقة [illegible] اليوم — ممن نشأتهم مصر ، أو نشر مصر ، من وجوه رجالها ، ثم يخلص المحدثون إلى أن يعدوا مجدد القرن الرابع عشر الهجري في الإسلام مصريا [illegible] مصريا [illegible] وهم [illegible] سيد [illegible] الله محمد [illegible] عن النهضة الدينية بمصر في العصر الحديث

ولا يجد مجال شيء من النقص لفكرة التجديد ، و مجددين مصريين ، فلهم مكانة

كذلك وجب هنا تلك المعالم العامة التي يجيء مؤرخ لحضارة أن يتحدث عن حضارة مصر في الإسلام .

ونمضي بعد ذلك إلى لمحة من خصائص تدين مصر بالإسلام ، وتمذهبها به عبر

إسلام مصر .. بلا نحل ولا مقالات اعتقادية

ويجب أن نرد هنا — كما تعدنا — إلى خصلة أصيلة في مصر ، وطبع لها مألوف ، يعد الذي عرفنا ، من ملامح شخصيتها الدينية فنجد أن مصر القوية التدين ، الواسعة الأفق الديني ، المستمسكة بجوهر الدين الذي تؤمن به وروحه — ص ٤٣٤ ، ٥٣٥ — نجد أن مصر الذي هذا شأنها — كما عرفنا — لم تمثل كثير شيء من الاعتقادي في الإسلام ، ولم تفسح صدرها كثيرا لأصحاب النحل وأرباب المقالات الإسلامية . وقبل أن نمضي في بيان هذه الظاهرة وتعليلها نقف أمام

سر تاريخي نفسه . وذلك ما يذكره بتلر صاحب «فتح العرب لمصر» عند حديثه عن مقاومة المصريين لما أراده « هرقل » من حملهم على مذهب الديني الذي قسروا بطاركته ، وأنهم قابلوا ذلك بكراهة شديدة لم تنسهم هذه الكراهية سبوته . وقد كان استقلالهم في أمور دينهم كبيرا يتعلق به نفوسهم فإنهم لم يعرفوا الاستقلال القومي قط ، ولعلهم لم يطلبوا يوما تحصيل ذلك الأمل ، وأن الاستقلال في أمر ديني

قد ناضلوا من أجله وجاهدوا في سبيله ، ثم نشروا عن ذلك في وقت من الأوقات منذ مجلس خلقدونية ، وكانوا هم يحصلون على ملوع ذلك مصريين لا يعطي حسبه فلو تهم ولا تحجبون عن بذل كل شيء في سبيله مهما يعظم ذلك هو سر حوادث تاريخهم جميعا »

هكذا يقص المؤرخ من في سر تاريخ هؤلاء المصريين — أو القبط إن شئت — هو أنهم لم يعرفوا الاستقلال القومي قط ، ولعلهم لم يطلبوا يوما مثل ذلك الأمل ، وإنما عرفوا الاستقلال الديني ، وناضلوا من أجله ولم يحجموا عن بذل أعظم شيء في سبيله .

وظنون للسيد المؤرخ لها شبه لقومك معروفة فسرتم بها تاريخ الشعب ضالا مطرقا معرضا مستمدا تزعمون به أنه لم يعرف هذا الاستقلال القومي منذ آخر عهد الفراعنة ولم تحكم نفسها منذ ذلك العهد ولم ولم ... ما أخرتم وجاوزكم فيه مدحج ما ، نعتهم حتى اليوم ، وبعد ذهاب ريحكم يرددونه

ولكن بعد ذلك لتذكرون خاصة ظاهرة جلية من خصائص هذه البيئة المصرية ، وتلك هي ملامحها بتكوينها المتميز المتحيز ، المتجدد ، بحوض مواصلة من الصحراء والماء ، لأن تكون بيئة موحودة المستقل وبحوله متفرقة والقومية الكثيفة وبعدد بخاصية الفطرية نفسية ، ومن تكسبه لأهلها

من خصائص مصر ... وهبة ... لقيام الدول
ذات الشخصية في تاريخ الأمم التي ...
... كما أشرنا آنفاً ...
... والشخصية وكانت ...
عجيبة ترأس في كل الامبراطوريات التي
وصلت حبلها بها، وظلت على مسرح التاريخ
لم تختف منه أبداً، بل لم تسقط عنها ظلالها
تظل الاضواء على ... وميزاتها

فحديث التاريخ الصريح أن مصر ...
استقلال بطبيعتها ... من أكثر
الناس شعوراً بهذا الاستقلال ...
... الذي وصفت ... روائع في
المقاومة، إلا نوعاً من قوة تلك الشخصية التي
لا تتجزأ ولا ينفصل منها جانب عن جانب

وحديث ... المصريين من الحاكمين بمصر
... أو ...
باسمهم، لأن تلك العهود لم تعرف القومية
الاقليمية، والوطنية ... بل كانت
... من غير هذا اللون،
... في الأمم الأخرى عصبيات دينية أو
سياسية، ... أمة ... حيث كانت ظروف
الحياة المادية ومواصلاتها تتيح لأمة واحدة أن
تحمل شعلة الحضارة حتى ...
... أمة أخرى ... يقف المؤرخ ...
... على شيء من ... تاريخ المقاومة
المصرية للمذهب الديني الوحيد، ...
... أمام ... الذي ... الى

... من ... هذه الظاهرة ... بعد
أن ... عن مصر الاسلامية ... ونتميز
في شواهد عليها

ففي ... الذي تقدم ... الخلاف
... من القسطنطينية بأمر ...
ومقاومة مصر مقاومة ... يروى
من أمر أحد رجال المسيحية فيها ...
بالقار مشتعل، وسبط نارها على جسمه،
حتى يسيل ... من جانبه الى الأرض،
ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه، ...
ثم وضع في كيس مملوء من الرمل، ...
في البحر، حتى صار على قيد سبع ...
من الشاطئ، ثم عرضوا عليه الحياة ...
... يرفضونه، وتكرر ذلك ثلاثاً، وهو
يرفض في كل مرة، فرموا به في البحر، فمات
غرقاً

ولك ... مبالغة، أو كثير
... أن ... لكن ... على
كل حال دلالته النفسية والاجتماعية ...
من ... أنفسهم ... يجدونه
من شعور ديني ... المؤمن مثل ...
المقاومة ... هذا الشعور في
... حين هذه المقاومة ...
... ثلاثاً في الذي
مات شهيداً ...
مسيحي

ثم مضى أكثر من مائتي عام ...

الأحداث في الميدان الديني بمصر دار الفتنة
شبيه بالبارحة عهد المأمون سنة [illegible]
في عرض مسألة اعتقادية هي قضية خلق
القرآن المعروفة التي عطلت وتحجرت بعد
عصره ويكتب المعتصم الواثق إلى الولاة
بالامتحان فيها، كما فعل المأمون، ويجيء
الأمر إلى والي مصر، فامتحن البويطي فقيه
الصعيد، أكبر أصحاب الشافعي، ت ٢٣١ هـ
- وامتحنه الوالي فلم يجب، وقرر
مخالفه، وكان الوالي حسن الرأي فيه فيقول
له: قل فيما بيني وبينك، فيرد عليه
البويطي: إنه يقتدي بي مائة ألف لا يدرون
المعنى. ثم يحمل البويطي من مصر إلى
بغداد، على بغل، في أربعين رطل حديد،
من غل في عنقه، وقيد في رجليه، وبين الغل
والقيد سلسلة، فيقول: لئن أدخلت عليه —
يعني الخليفة — لأصدقنه ولأموتن في
حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد
مات في هذا الشأن قوم في حديدهم. ويسجن
في هذا الحديد وقد عجز عن أداء الفرائض
من الطهارة والصلاة، إذ كان معلقة في
أعناق ساقيه، فيسير به يداه إلى عنقه
ويموت البويطي في سجن بغداد، في القيد
والغل، كما مات أخ له هو [illegible] في السجن
[illegible]

وقد شئت في أن أقف كثيرا عند مثل
هذه الاضطهادات، وما كان أوقع على أهل [illegible]
[illegible] المأمون [illegible] الذي [illegible]

هو الحسب السياسي. وإن مصر لا تتحرج في
الشرع للاعتقادي، ولا [illegible] أو
كتابه [illegible] وحسبي [illegible]
[illegible] في
التحدي، على نحو ما سمعنا في حادثتين من
دينيين مختلفين، في زمانين متعاقبين، يتركان
إن شيئة في هذا مثلا خاصا.

ومن نظرت النظرة العامة إلى موقف
مصر من مقالات الإسلاميين الكلامية على
اختلافها تخرجت بالنتيجة التي صدرنا القول
بها، وهي عدم الإيراد في إسلام مصر على
هذا العمل الاعتقادي، وعدم رواج النحل
الإسلامية في مصر، مهما كانت عناية منتحليها
بها في غير مصر، ومهما يحصل [illegible] فيها
والخصومة حولها ومهما ساعدت الظروف
المختلفة سياسية أو غيرها على رواج هذه
النحلة أو الفرقة أو المقالة، ومهما تظفر فعلا
بشيء من ذلك في مصر، بعد تأثير العوامل
المختلفة فإنها لا تلبث أن تفتر، ولا تترك من
الانطباع بها ما يسم مصر بسمة خاصة، في
المقالات الكلامية، أو يجعلها وطنا خاصا
لفرقة من الفرق، كما كانت إيران مثلا مركز
التشيع قديما وحديثا، أو كانت اليمن موطن
المذهب الزيدية، أو ما إلى ذلك. بل لا تلبث
مصر أن تلوذ بالمعنى [illegible]
[illegible] بالجوهر الخالص واللباب من
الدين، وكانت نحو [illegible] الفقه الديني دون

الاجتماع العام والتميز ... معروف لفيرقه دينية دون فرقة

ولعلنا واجدون حسب ... من قوى على الشعب مصر في الأمور الدينية ، والحسم المعنوية الفقهية ... تؤيد ... الصحيحة في الافق والرعاية الصحيحة في ادراك هذه الشئون الحيوية والتدبير لها ... الاستئثار الكثير الى الاطراف المدعى فيها

* * *

وفي عرض موجز عابر للنظر الى بعض الفرق الاسلامية في البيئة المصرية ، ومن كان من امرها ... نختار لذلك اولا

نحلة ذات صفة سياسية واضحة ، كانت لها نجاة بعيدة من اسباب التأثير القسرى بقدر كبير فحددت السياسة دعوتها ، وعملت القوى الحكومية على نشرها وحمايتها بمختلف وسائل الترغيب والترهيب ، وتلك هي

التشيع فقد جاء مصر أصله وجوهره المسمى ... – مهما تكن شخصيته – حتى ... لها فاستقر بها وجعل ... يعزى ... من توهين الاسلام ووحدة ... بمختلف الوسائل ومن ذلك حديثه عن وصاية علي ، واخذ ... الخلافة ... حتى فكان من مصر ... عثمان كما هو معروف ... الاتجاه الى التشيع ... تكن ... عمرو بن العاص لمعاوية ... مصر

جعل الأمر ... لمعاوية ... وطاهر ... عن

ثم ... الأموية ...

وفي عهد العباسيين كان يخرج بمصر علويون او كان يظاهرون الخارجين على ابناء عمهم العباسيين ، فتكون ... هي خروج العلويين من مصر الى العراق ... ويضطهدون فيخرج الأمر في مصر الا يقبل علوى ... ولا يركب فرسا ، ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها ، وأن ... من اتخاذ ... الا ... الواحد ... من كان بينه وبين علوى خصومة ... في العلوى ولا يطالب ... الخ

ثم جاء العصر الطولوني فثار الحديث عن ... أهل البيت ... الناس ... حتى يرجع ... فيقوى امر الشيعة بمصر شيئا ... لكن لا ... ذلك ولا يزداد

فلى منتصف القرن الرابع الهجري ... على الناس ... ذلك ... فيه ، حتى ... في العرش من ... معاوية ... وكان في مصر من يهتف على باب المسجد يوم الجمعة معاوية ... ، ... المؤمنين ، وكاتب الوحي ، ورديف رسول الله ... وكان ...

... الفاطميون ... مصر ...
... في مصر ... التي ...

مصر فيصبحون أشبه بذويهم المحدثين من بعد ، ويستقبل مصر عهدا من السياسة الشيعية يمد الدولة بدعوة شيعية خاصة بأرباب القواطع بمدى غيبتهم عن عمق الإحساس ، متخذا من الهاء والرجال ، مثل ما نجده اليوم ويرد بصفة الحديثة أو بأكثر منه ويحدث التاريخ عن رجال بدعوة وعظتهم وخطواتهم ، والسرى منهم والعلني الخ مما يستهلك وصفه كتب لهم ، وكتب عنهم

وهكذا يسود التشيع في مصر ، ويجرى العمل على الفقه الشيعي ، فمثلا لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ، ولا عم ، ولا جد ، ولا ابن أخ ، ولا ابن عم ... الخ في ذلك عداوة لفاطمة بنت الرسول — عم —

ويعد ذلك من الأعمال العادية في حياة الناس الخاصة فيصدر مرسوم حكومي بتحريم بيع شراب الفقاع ، وضرب من يبيعه لأن عليا كان يكرهه ، والى مثل هذا ترجع أوامر الحاكم بأمر الله فيما كان يصدر من الأوامر بتحريم الطعام أو الشراب

ويحدث أن كان سب على المنابر بكتب سب الصحابة على أبواب مساجد ، وفي داخلها ، وعلى الدكاكين من على المقابر وفي الصحراء ، ويهتمون ذلك بالاصطباغ والتعصب بالتشيع

وهكذا دولة الفاطميين بمصر كل هذا ولا نمضى كثيرا من الزمن حتى نسمع خلفائهم الذي كانت في مكان حائر الحقائق ،

وكانت تعرف مع أن الأعمال لا تحمل عظامهم على الحكم ... في ... وبدت نهضة عقلية إسلامية تبين أحدثها قوي الدولة وأتيح لها من أسباب التشجيع والاستمرار ما جعله لم يعد نقالة عربي من مقالات العرب الإسلامية ولكن مصر فيما رأينا لا تلبث مثل هذا ، ولا نجد شيئا في المدين

ويزيد الأمر بدلا أن نلمح في سرعة نوعا آخر من ألوان الركود الاقتصادي عن السياسي في أصوله وهو

الاعتزال فإنه مقالة كلامية ، فلسفية ، ليست سياسية في أساسها كالتشيع ، وإن نمت شيئا في السياسة بعد والاعتزال — كما نعرفه — قد هز أركان الحياة العقلية الإسلامية بدعوته الى احترام العقل ، وتمكينه من النظر ، كما هز أركان الحياة الإسلامية نفسها هزا عنيفا ، إذ جعل الخلفاء يتخذونه عقيدة يلزم الناس بها ، ويضطهدون أشد اضطهاد مخالفيها ، كما فعل المأمون وخلفاؤه بعده في مسألة خلق القرآن ، التي هي المحنة التي أثر بها ... ناس ... الكثير ، وكان منه في مصر ما سمعت قريبا من أمر البويطي الفقيه الصعيدي حتى سجن في الشيخ ربيع بعض دعمه على ألفم . »

ومن ... كان من شهد الاعتزال في مصر فسمعت أنه ثابت بمصر ، في حين أن حظه للاعتزال محدث عن حسن الفسر ، لأن

السياسة قد تضعف فيه . وقد جذبت الثقافة الى مصر من الخارج . وفضلا عن ذلك نشعر ان الاعلام الذين نبغوا في مصر فيه تفاني في فن الى ما كان له في بغداد وغيرها من صبغة وتأليف ومؤلفين ومجلات ومجادلات . وكذلك كانت مصر اسلامية
بلا خلاف اعتقادي هام — ولا فرق ولا
مقالات رائجة

* * *

والمذهب الاعتقادي في الاسلام لم يكن صدى من أصداء الصبغة السلفية ، وصريحا من صدى الصبغة المذهبية النظرية التي تلقاها العرب عن غيرهم ، وكانت في تقدير بعض المفكرين مشغلة للقوم عن الروح العملي الجاد ، وسواء أكان الرأي يحق لها كذلك ، أو لا ، فان صبغة علم الكلام الاسلامي بالفلسفة قوية واضحة . ومن هنا نشعر أن عزوف مصر عن الجدل الكلامي هو صلة — الى حد غير قريب — بنظرتها الى الفلسفة ، وقلة نشاطها في ذلك . ولبعض القائلين تعليلات في هذه الظاهرة تستحق مناقشة . ولكن يبدو من عملنا الأول هنا أن تاريخ مركز مصر الفلسفي ، في العصر الاسلامي ، نترك ذلك كله للناظرين في الحياة العقلية . من هذا التاريخ الحضاري ، شاعرين بأن نظرة مصر الفلسفية الى الفلسفة لم تكن نظرة الجفاء لها ، ولا التهجم . وكذلك

ـه من طابع حضارة المصرية العام . ومن الظروف الخاصة في مصر الاسلامية منذ عهد عهدها المخصوص .

ونسنة الفروق في خصائص إسلام مصر الى
ـصدد ش

مصر ووراء الخلاف الفقهي

ونعرف أن هذا الخلاف الفقهي في استخراج الأحكام الفقهية مما يقتضيه اختلاف عوالم البيئات ، التي عاش فيها المسلمون ، واختلاف عاداتهم ومعاملاتهم كما نقدر أن هذا الاختلاف رحمة — كما يقولون — ولكنا في الوقت نفسه لا ننسى أن التطلع الى وحدة تشريعية جامعة قد وجد منذ عصر مبكر ، حينما ظهرت آثار هذا الاختلاف التشريعي ، ولا نخص من هذا الى أكثر مما يذكر من سبب تأليف « مالك » مجموعته الحديثية الفقهية المعروفة باسم « الموطأ » وأن طلب تأليفه من الخليفة العباسي الذي طلبه . على اختلاف الرواية في تعيينه — انما كان تطلعا الى هذه الوحدة الشرعية ، وبرما بآثار هذا الخلاف ، كما يبدو ذلك صريحا في رسالة « ابن المقفع » المعروفة برسالة الصحابة . وفي الحوار بين الخليفة ومالك . ورغبة الخليفة في حمل الناس على الموطأ .

وهذا التطلع الى وحدة مركزة في التشريع الاسلامي قد بدت جوانب التشريع بعد ذلك حسن أثره ، اذ كان بين الفقهاء من سمحه

الخلاف وعلمه ما كان عند أبي حنيفة بعد القوم وبعدهم نصوصه من كل منهم على صاحبه ... لا يستطيع القارئ في هذه ... شيء من تفاصيلها ... الفقه والكلام أحيانا التكافؤ الفني بين الشافعية والحنفية ... وفرق كل ذلك كانت مستبين، حتى شعر أبناء مصرنا هذا بالحاجة الماسة إلى التقريب بين المذاهب، وكانت تهيم في ذلك التقريب محاولة تأخذ طريقها ... كما اشتغل بعض المصريين بجمع ما يسمى الفقه الموحد ... يرجعون رجوع المسلمين كلهم إليه

وكل أولئك كان بين الآثار الاجتماعية عن محبة المذاهب الفقهية، واعتبار العصور مصرها في العصور السابقة ضربا من دقة الإيمان وسلامة الفطرة، وقوة التدين

وبعد هذا البيان نستطيع أن نلخص عمل مصر في هذه الناحية الهامة وعرفنا موقفها من الخلاف الفقهي

* * *

وما عرفناه من السلوك المصري في الخلاف الكلامي يهيئ للرأي في شعور مصر نحو الخلاف الفقهي، منذ أول شيوع هذا الخلاف

لقد عرفت مصر المذهب المالكي، لتقدمه وصلته بدار الهجرة، ثم وفد عليها الشافعي في القرن الثاني الهجري، وكان أصحاب من فقه الرأي حظا ... على محمد بن الحسن الشيباني ... كتبه ... محمد والشافعي فكان له حظه من النظر والقياس الذي لم تعرف مثله مصر ... بعد ... مصر ... بهذه الوحدة من خطر الفرقة، فكان قاضي مصر ... يصيح بالشافعي ... هذه ... وأمرنا واحد، ورأينا واحد، فلم يعرف بيننا، والقضاء بيننا الفقر، فرق الله بين رؤوسنا وحسبك

ومهما يكن لقول هذا القاضي من أسباب شخصية أو غيرها فإنه يدل على رغبة البيئة في هذه الوحدة في الأمر والرأي ... وعلى أن الفرقة مما يعاب به قائله

ومع هذا الشيء من ذلك لم ينتشر المذهب الحنفي بمصر، لأنه فقه الرأي الواضح، وإن كان المقريزي يعلل ذلك بأن مذهب أبي حنيفة يبطل الأوقاف، فثقل أمره على أهل مصر واستنكروه ... وهو تعليل غير كاف وحده لأن صاحبي أبي حنيفة لا يبطلون الأحباس، والعمل فيه يجري على قولهما

وعلى كل حال فقد هيأت الشخصية المصرية التي عرفت خصائصها للكراهية ... في أي لون ما، ويزيد تلك الكراهية وضوحا عند هذه الشخصية ما تقدمه كتب التاريخ من شعور الشعوب بعد تلقي الاختلاف وتأمله بأن ... هذه المذاهب المختلفة نعمة ... جليل، وشعورهم ... فقهاء مصر ... في مطلع القرن السابع الهجري ... مائة ... الله تعالى ... الأئمة الأربعة في هذا

الزمان مجتهد عارفا بمذاهبهم أجمعين ، كتب نصه مذهب من الأ عامة عند هذه المذاهب المعتمدة كلها لا ... الزمان ... على أنه هذه الرتبة لا تعدو ... حاكين رأيهم على أنه هذه الرتبة لا تعدو شيخ تقي الدين السبكي ، ولا تعدى به سواه ، والسبكي هذا هو الذي انتهت اليه رياسة العلم بمصر ، وقالوا ... جاء بعد الغزالي مثله ، فقال الصفدي ... لهم يظلمونه بهذا ، وما هو عندي الا مثل سفيان الثوري وبعض العلماء رشحوه لهذا التوفيق لمصلح لأن نزعته نحوه معروفة

وإذا لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصريا فقد في هذا الشاهد فانا نجد هذا الميل المصري للتوفيق ، بل الفكرة التي يتجه اليها صوفي مصري بلدي السبكي المتوفى هو الشعر ... صوفي أيضا ، وهو أصيل في الفقه فوق كونه صوفيا من طراز الأول وقد حاول التوفيق بين المذاهب الاربعة ، كمحاولته التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال ، ويقول المحدثون الغربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظير وحسبت به تزكية من البيئة المصرية الى هذا التوفيق الفقهي ، الذي لا نسمع فيه بهذه العصور صوتا أجهر من هذا الصوت

* * *

وبذلك يبدو ... مصر ... الحروب ... الاخر ... في ... التي قادت ... المصرية ... في ... الذي ... للمحض

وفي فقهه الذي ... نفع عن الخلاف ... الفرقة ... في ... الموحد ... حال ... وكل أولئك ... مما نشأ من ملامح الشخصية المصرية ... في ... نسبة ... وبذلك الجوهر الصافي للدين

* * *

على أنا حين نلتمس الدلالات الاجتماعية العميقة لموقف مصر من المذاهب الفقهية ، ونظرتها الى الاختلاف و ... لا ... مع كل ذلك ان هناك ظروفا سياسية واجتماعية وغيرها تؤثر في انتشار المذاهب الفقهية وشيوعها ، فتستقر المذاهب في قليمة في مصر ، أو يسود مذهب منها لمثل هذه الاعتبارات ، أو تقدم البيئة المصرية نفسها أحيانا ووجوها من مذاهب مختلفة ... أن يكون في مصر ... لتلك المذاهب على اختلافها ... هذا كله ... لا يؤثر على ما اطمأننا اليه ، من التعرف الروح المصرية الاجتماعية الى تلك الآفاق العامة ، والعناية ... الترفع عن الخلاف ، والدعوة الى الوفاق ، في الأصلين الاعتقادي والعملي ، مما ... عن كلامها ... ولا تأثير ... على ذلك ، ولا ... هذا ... وبعض مؤرخي الفقه ... الى ... مصر ... في ... مذاهب الفقهية المختلفة ، مع كل هذا الذي ... ، ... الحضاري في ... الكلامية العامة ... والكل ...

والآن وقد بينا اتجاه مصر ، وآمالها في الحياة الاسلامية الاعتقادية ، وتجربتها الاسلامية العملية ومن بينها ما طابع مصير الوضع ، الآن سنعرض لموقف توجيهه مثل هذه الحياة الخاصة السمحة الى

الاسلام والمجتمع المصري

التسامح .

هذه العصور التي تتحدث عنها من القرون تاريخ المصري الى قرابة القرن الثاني عشر الهجري كانت عصوراً تسود فيها النزعة الدينية ، وتسيطر الروح الدينية في توجيه الحياة وتدبيرها . ومصر هذه بخاصة قد عرفنا لها هذا الروح الديني القوي ، وذلك التعمق الروحي في التدين مما لا غرابة في أن يكون الدين في تلك العصور مثيراً قوياً للشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية كلها .

• • •

وقد كان المجتمع المصري يتألف من مسلمين ، وذميين ، من أصحاب الديانات السماوية الأخرى ، كالنصرانية واليهودية ودون أن ننظر الى نظام الذمة النظري في الاسلام ، ومدى سماحته ، نستطيع أن نقرر في ثقة أن النظام الاسلامي للذمة لم يكن دائماً وفي كل حين هو النظام الواقعي الفعلي في المجتمع ، اذ لابد من وجود الفرق — رغم كل شيء — بين المثال الممكن والواقع المتحقق والتاريخ الحضاري . ... بصفة سير المجتمع نفسه ، وان لم يختفِ التنظيم المثالي معه في الواقع كله على حسن استعداد سكانه

وبملاحظة الواقع العملي نجد أعمالاً مختلفة بعضها لا يحقق المثال الاسلامي لحياة الذميين وبعضها يحاول أن يحقق المثل الصحيح الذي أراده الاسلام ، فحينا يسمع والي مسلم بهدم الكنائس الحادثة مثلاً وآناً يأتي وال آخر فيأتي ، بمشورة الفقهاء أو القضاة الخبيرين ، الذين يحتجون بأن بناء الكنائس من عمارة البلاد ، وأن الكنائس التي بمصر لم تبن الا في الاسلام زمن الصحابة والتابعين

واذا ما عرفنا أن حكومات هذه العهود لم تكن تفكر في شيء من اصلاح عقلي أو اجتماعي ، للشعوب المحكومة الا بقدر ما يسير الأمور ويستقر النظام ، وأن الأعمال الاصلاحية الاجتماعية كانت نشاطاً فردياً شخصياً من أشخاص الخيرين ، يتقربون به الى الله

لم انا ما قدرنا أن حكام هذه العصور أنفسهم لم يكن لهم من سعة الافق وبعد النظر ما يفهمون به معاني الديمقراطية السامية أو يقدرون روح التسامح الذي توحيه نظرة الاسلام الى توحدة الانسانية الاسلامية مثلاً وكان العامة العصر جاهلين يتركون التعصب ... الغريب ، ويرون المخالفين عدواً ... ... وصلا ... والحكام في حاجة ... ... عند ... على أهل الذمة أو ... لهم ، ... الحكام أنفسهم ... ... الآفاق

والى جانبهم علماء ، منهم من كانت معظمهم تلك السماحة برحبة [illegible] وبكل أولئك نعم ما جمع من رخاء أو أعباء يحميهم [illegible] قاسية ، وشرحات حلفية ، دفعت اليها مسحة الحياة اذ ذاك وروح العصر نفسه

وهكذا يتردد الأمر بين تسامح يولى الذميين من النصارى واليهود مراكز رئيسية في الوزارة والادارة [illegible] وبين يضطهدهم ويحرجهم في ذلك [illegible] فلا يستطيع المنصف أن يتخذ من التسامح الأول صورة لحياة هؤلاء الذميين في المجتمع المصرى بعهد من العهود ، أو في العهود جميعها [illegible] كما لا يستطيع أن يتخذ تلك الصورة لحياة الذميين في المجتمع المصرى من الاضطهاد الذى قد تدرسه قلوب قاسية شريرة ، وتقشعر الأبدان من فظاعته

ولعل الانصاف أن يقدر المؤرخ الحضرى للدرجة التى يقف فيها هؤلاء الساسة — حكاما وأفرادا — من سلم الرقى الانسانى ويدرك أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يرتفعوا عن آفاق عصرهم ، ويطفروا الى درجة [illegible] الدرجة التى أهلتهم [illegible] للصعود اليها

والحق الذى يجب أن تنتهى اليه اليوم هو عدم التنكر في ادعاء الانصاف [illegible] مع عدم التجنى في المؤاخذة بالاعتساف دون تقدير الظروف لحقبة [illegible] ولو [illegible] أن سياسة لا [illegible] — كما قالوا [illegible] وأن هؤلاء الحكام في

معاملتهم تتسم بتسامح أخضعهم بل في مصاهرة أعضاء الأسرة الحاكمة منهم بعضهم ببعض فقد كانوا يعيشون في [illegible] بعض به الواجب الاجتماعى عليهم من الحسن [illegible] الذى يجب أن يطبقوه بحضرهم ومستواه الانسانى [illegible] ولا يحصل ذلك للدين في نظامه التشريعى وروحه الاجتماعية ولا يقرر به شيئا في الأصل يوم ، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ولا يسأل عن أعمالها دين أو تعاليم [illegible] بل [illegible] مستوى الأمة بعهدها ، ودرجة [illegible] الانسانية في أيامها

وعلى كل حال فقد كان العنصر الاسلامى في المجتمع المصرى يقدر العنصر المسيحى بخاصة ، ويعرف عنه لزوم ما له من أثر في خدمة المصالح المصرية ، عن طريق الصلة الدينية بين مسيحيى مصر ومن حولهم من أصحاب مذهبهم ، كالذى كان في القرن الخامس من رسالة الخليفة المستنصر بطرك مصر الى بلاد الحبشة بهدية سنية [illegible] ، من أجل نقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك فأمر ملك الحبشة بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ، ففتح ، وزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع — على ما يروى —

الحكومة في مثل هذه البحوث تخلو الحكومة [illegible] الى [illegible] فأساس السلطة [illegible] الأمر الالهى بطاعة أولى الأمر مع الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ وأطيعوا الله

وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول »

وقد يكون من حكامها ولاة أو أمراء أو خلفاء أو سلاطين من هو جبار مستبد من دونه ، دون نظام معين ، أو رقيب محترم ، مع الأمر القرآني الصريح بالشورى « وشاورهم في الأمر » وأنها الشأن الثابت « وأمرهم شورى بينهم ».

وفي هذا الوضع كان العلماء المسلمون بصفة الفقهاء ومجتهديهم ، هم الذين يمثلون سلطة الشعب ، لأنهم كما هي [illegible] يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء ، وهم يعرفون أن أفضل الجهاد عند الله كلمة حق في مجلس حاكم ظالم ، وهم يعلمون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي صارت به هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، وأن تغيير المنكر مأمور به باليد ، أو اللسان ، وأضعف الإيمان أن يكون التغيير بالقلب

ولكن العلماء المسلمين هم موجودون دائما ، فهم كما رأينا — حتى في أعصرنا من يتأول الآية القرآنية « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » بترك الأمر وعدم التدخل ، بل منهم من كانوا أدوات ووسائل تتحقق رغبات الحكام والظالمين [illegible] و [illegible] الذي يحدث [illegible] علماء السوء

وفي مصر كانت [illegible] عرف [illegible] سلطة [illegible] هذه وجهاد [illegible] في مقاومة الظلم ، ومواجهة الطغيان [illegible] في القرن الثامن [illegible] الموصلي [illegible] في حدود [illegible] من بعده ابن تيمية [illegible] حديثهم كما رأينا الشيخ [illegible] وغيره في ذلك يقاومون هدم الكنائس ويرون تعميرها من عمارة البلاد ، وفي القرن الثامن الهجري نرى بين مؤلفات السبكي كتابا اسمه « كشف الدسائس في هدم الكنائس » وهو اسم دال على شيء قام بين [illegible] رغبة هوجاء في هدم الكنائس والاستيلاء على ما فيها كما كان يحدث في الظروف التي أشرنا إليها سابقا

من أننا في القرن السابع الهجري نسمع العز بن عبد السلام الفقيه الشافعي الجليل — ت ٦٦٠ هـ — يعلم في مصر والشام أن المخاطرة بالنفس مشروعة في إعزاز الدين ، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن من قال بأن التغرير بالنفوس لا يجوز فقد بعد عن الحق ، ونأى عن الصواب

وقد عرف هذا العالم الكريم بأنه سلطان العلماء ، وإمام عصره بلا مدافعة ، والقائم بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر في زمانه [illegible] في المحافل والمخاطرة ، وتحدي الطغيان [illegible] بحيث [illegible] وهي من الكثرة [illegible] لا نجد لها مكانا هنا [illegible] وحسبنا منها [illegible] موقفه من أمراء دولة المماليك

الأتراك في مصر ، إذ لم يثبت عنده أنهم
أحرار ، بل إن حكم الرق مستصحب عليهم
لبيت مال المسلمين . ومن ضمنهم نائب
السلطنة نفسه . فبلغهم ذلك واحتدم
الخطب فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال : نعقد لكم
مجلسا ، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين
ويحصل عتقكم بطريق شرعي . فرفعوا الأمر
إلى السلطان ، وسمع الشيخ أن السلطان أنكر
دخوله في الأمر ، وقال : إن هذا لا يتعلق به
فغضب الشيخ عز الدين ، وحمل حوائجه
على حمار ، وأركب عائلته على حمير ، ومشى
خلفهم خارجا من القاهرة ، قاصدا نحو
الشام ، فلحقه غالب المسلمين . لم تكد امرأة
ولا صبي ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلف ،
ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار . فلما بلغ
هذه الظاهرة الهائلة إلى السلطان ، وقيل له
متى راح ذهب ملكك ، ركب السلطان
بنفسه ، ولحقه ، واسترضاه ، وطيب قلبه
فرجع ، واتفقوا معه على أنه ينادى على
الأمراء . ثم أرادوا ملاطفته فلم يفد ذلك
معه وأصر على رأيه . وانزعج هؤلاء الأمراء
كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن
ملوك الأرض ؟ وقال نائب السلطنة : والله
لأضربنه بسيفي هذا . وركب بنفسه في
جماعته ، وجاء بيت الشيخ والسيف مسلول
في يده ، فطرق الباب . وخرج الشيخ الحال
... ولا يبالي ، وقال ... الذي
... أقل من

... في يده ... ثم خرج ، وكأنه قضاء
الله قد نزل على نائب السلطنة ، فحين وقع
بصره على النائب يبست يده وسقط السيف
منها وأرعدت مفاصله ، فبكى ، وسأل الشيخ
أن يدعو له ، وقال : يا سيدي خير ، أي شيء
تعمل ؟ قال : أنادي عليكم وأبيعكم . قال :
ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين .
قال : من يقبضه ؟ قال : أنا . فتم له
ما أراد ونادى على الأمراء ، واحدا واحدا ،
وغالى في ثمنهم ، وقبضه وصرفه في وجوه
الخير .

فمع كل إعجابنا بهذا الموقف وغيره مما
يروى عن حياة العز بن عبد السلام لا نقول
إلا أنه مثل من عشرات من مظاهر الإنسانية ،
وأحداث الاضطهاد في معاملة الشعب ، فنحن
لا نستطيع أخذ الصورة الصحيحة لموقف
علماء الدين من الحكومة من مثل هذه
المواقف بصورة وحدها ، كما لا نستطيع
أن نأخذ تلك الصورة عن مواقف الاستكانة
والتراجع أمام الحكام . فلا هناك سلطة
مقررة لمعارضة العلماء ووقوفهم في تنكر
ولا هناك ضعف دائم أمام السلطة الحاكمة
وإنما هو مجتمع في مرحلة سياسية قاصرة
لا حماية مقررة لحقوقه ، ولا اهتمام مستمر
بهذه الحقوق ... في نواحيه من التصدي
والاعتداء ... والجمود المتصل ... ثم سيطرة
الحكومة عليها ... ولم تشعر

العبد فهو دائب مسحور واضح يحقق غروره ولا تتعب بين هذين مدارك معه فتصمم على طلبه ويتقدم من تحقيقه كما اقتضى الشيخ العز بن عبد السلام أثمان الأمراء الأرقاء الحاكمين وصرفها في مصالح الرعية — وذلك كما قال تاكلو عنه العبد « مما لم يسمع بمثله ».

* * *

إلى هنا حديثنا عن الحياة الدينية في مصر المعاصرة الإسلامية بمصر خلال أحقابها التاريخية المتوسطة عصر الإسلام، من القرن السابع الهجري إلى مطلع التاريخ الحديث، موضحة بين يدي القارئ ... — الإطار العام، الذي يحدد ويبسط صور الحياة، وأحداث الزمن في هذه العصور، واضحة الدلالة، مفسرة الأسباب، مفهومة الأهداف في الحياة الدينية، وما يتصل بها من الحياة الاجتماعية بما تؤثر فيها بمصر عامة والإسلام خاصة.

وبهذا يبدو الإطار قد ميز لنا صورة مصر المسلمة، أو صورة إسلام مصر عن غيرها من البيئات الإسلامية الأخرى، أو عن الإسلام في تلك البيئات.

وفي كل حال فإنني أنتقل بهذا للحديث عن

الحياة الدينية بمصر في العصر الحديث

الحياة الفنية في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى الفتح التركي

الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

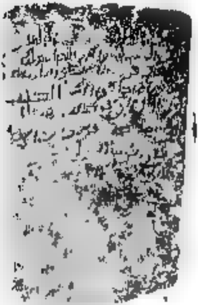

... من العصر العباسي ... شاهد قبر مؤرخ سنة ... هـ بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

لئن كان الروح الموجهة للحضارة الإسلامية — وهي الإسلام — قد برزت أول ما برزت في بلاد العرب ثم بدأت تؤتي ثمارها في البلاد التي أشرقت عليها والممتدة من المحيط الأطلسي إلى ما وراء الخليج الفارسي في بلاد الهند والصين ، إلا أن تراث هذه الحضارة قد ضاعت معظم معالمه — بفعل الحروب أو الإهمال أو بهما معا — في كثير من تلك البلاد إلا مصر فقد بقي فيها جانب كبير من هذا التراث نشاهده في مساجدها وكنائسها وفي مدارسها وقصورها وفي حوائطها وقلاعها وأسوارها وفيما تنطوي عليه جوانب متاحفها الإسلامية من تحف منقولة

وتكوّن هذه الآثار ، سواء ما كان منها ثابتا أو منقولا ، سلسلة متماسكة الحلقات

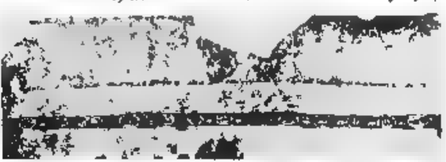

... من العصر الأموي — قطعة نسيج مؤرخة سنة ... هـ بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

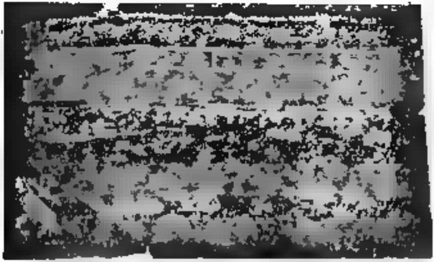

(صورة رقم ... من عصر العباسيين ، قطعة نسيج من مدينة ... عصر ... ١٦٨ هـ بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)

تنظم المصور تشكيلة للتحف الإسلامية في مصر آثار من عصر الراشدين [صورة رقم ١] ، وفيها آثار من عصر الأمويين [صورة رقم ٢] ، وفيها آثار من عصر العباسيين يوم كانوا أقوياء [صورة رقم ٣] ، وآثار من عصرهم يوم أصبحوا ضعفاء ، وفيها آثار يتجلى فيها تأثير المذهب الشيعي وأرباب دولته ، وفيها آثار تنطق باستعادة المذهب السني مكانته ونفوذه .

وهذه الميزة التي تتمتع بها مصر دون غيرها من بلاد العالم الإسلامي إنما ترجع إلى أمرين : الأول أنها كانت بنجوة من بعض الكوارث التي تعرض لها العالم الإسلامي لاسيما في جانبه الشرقي ، والثاني أن العصور الإسلامية تركت بالقاهرة ما لم تتركه في غيرها من البلاد الإسلامية مثلما تكشف عنه ، وتحافظ عليه ، وتقوى ما تداعى منه ، وتكمل ما ضاع من أجزائه ، وتسعى جاهدة لكي تجليه على الناس في الصورة الرائعة التي كان عليها يوم شيده أو صنعه المصريون في العصور الوسطى .

والصفحات القليلة المحدودة لي في هذا الكتاب لا تكفي لإبراز الصورة الكاملة لهذا الجانب الفني من حياة مصر الإسلامية ، ولكنني بذلت قصارى جهدي في أن أرسم لهذا الجانب صورة لا تعرض للتفصيل في كثير من أجزائها ولا يعوزها الوضوح ، ولعل في هذه الصورة الصغيرة ما يحفز القارئ إلى مشاهدة هذه الآثار ويستثيره إلى مطالعة المراجع المطولة التي تعنى بها فيزداد إيمانا بعظمة مصر في العصور الوسطى ، وفي رأيي أنه قد آن الأوان لكي تسترد مصر المكانة السامية التي احتلتها مصر من قبل في عصورها الذهبية

العمارة

(العصر ما قبل الطولوني)

ويعتبر المسجد [illegible] أول المساجد [illegible] التي شيدها العرب في مصر [illegible] الإشارة إلى هذا [illegible] وخرائبه التي كان المرحوم علي بهجت [illegible] الكشف عنها في سنة ١٩١٢ [illegible] شيئاً من [illegible] (صورة رقم ١) [illegible] [illegible] لم تطرأ بمرور الزمن حتى [illegible] ما وصلت إليه [illegible] في

شكل ١ (?)

[illegible] العصر [illegible] كان فيه الأحجار [illegible] [illegible] التي وصل [illegible] إلى أربع [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] جامع عمرو كما هو الآن وترى فيه بعض الأعمدة [illegible]

فيها الأشجار والأزهار من سائر الأنواع على حد وصف الرحالة الإيراني ناصر خسرو الذي زارها في القرن الخامس الهجري (١٠٤٧ م) وكان فيها أجمل الأحياء المصرية بمساكنها وشوارعها وبساتينها المدرجة ، وكان فيها الأسواق العامرة بالمتاجر ، ومصانع السكر والصابون ، ومسابك الزجاج والنحاس ، وأفران الخزف والفخار ، ولا تزال بعض أطلالها تؤيد إلى حد كبير ما ورد في بطون الكتب عنها .

والأثر الوحيد القائم بين خرائب هذه المدينة والذي لا يزال إلى اليوم يحمل الغرض الذي من أجله أنشئ هو جامع عمرو (صورة رقم ٥) الذي بدأ ساذجاً كما بدأت الفسطاط ، ثم أخذ ينمو ويتطور على مر السنين ، وكلما ازداد عدد المسلمين ، وكلما ارتقت حياتهم تنعكس ذلك فيه فاتسعت رقعته ، وارتفع سقفه ، وكثرت أبوابه ، وأخذ الشكل الذي هو عليه الآن صحن مكشوف ، يحيط به من جوانبه الأربع أروقة أربعة مسقوفة سقفها ضاعت معالمه ولكن بقايا الأعمدة تدل عليه ، وبعضها لا يزال محتفظاً بشكله .

ومهما اختلفت آراء علماء الآثار في مصدر هذا التصميم فالذي لا شك فيه أنه نابع من أعماق نفوس العرب ، متأثر بظروفهم ، وليس منقولاً عمن سبقهم من الأمم فإذا نحن تذكرنا حالة العرب قبل الإسلام وتذكرنا سماحة الإسلام وبعده عن التكلف لهذه يسهل علينا إدراك هذه الحقيقة ، فالمسجد الذي أسسه محمد ، صلوات الله عليه ، في المدينة والذي أصبح نموذجاً للمساجد من بعده لم يكن سوى قطعة أرض مربعة الشكل أحيطت بجدران أسست من الحجر وقوامها من اللبن وتجاه بيت المقدس — قبلة المسلمين الأولى — أقيمت سقيفة من الجريد المغطى بالطين محمولة على جذوع النخل ، ولما تحولت القبلة إلى الكعبة في مكة أقيمت سقيفة جديدة مثل السابقة وتركت الأولى حيث كان يستظل بها فقراء المسلمين وهكذا أصبح المسجد مشتملاً على سقيفتين إحداهما إلى الشمال والأخرى إلى الجنوب ، ولما زاد عدد

٦ – من خرائط توضح جامع عمرو كما كان في العصر العباسي الأول

ملمسي ، وسبب الحاجة الى عدد أكبر من
الظل ، وليس ما بين هاتين السمتين سلمسي
جاسي . فحاجة الشمس ولا نرى السماء ،
وهكذا وجد التصميم بناء المساجد

وطبيعي أن يتطور المسجد بتطور العرب
الذين تأثروا بما رأوا في البلاد التي فتحوها
من الأبنية القديمة فاستبدلت جذوع النخل
التي كانت تحمل السقف مسجد الرسول
(صورة رقم ٥) وإذا نحن تأملنا في
رؤوس الأعمدة التي تحمل سقف جامع عمرو ،
وجدنا أن تيجانها من طرز مختلفة ، ذلك أن
العرب استخدموا ما وصلت اليه أيديهم من

أعمدة معابد والكنائس القديمة ، فأخذوا
شأن الرومان من قبلهم اذ كانوا يحملون
من المعابد البيزنطية القديمة الى مساجدهم
ولم يثبت قط أن العرب قد هدموا معبداً
قديماً أو كنيسة لكي يحصلوا على أعمدة
كما يدعي بعض الناس . وينبغي أن نتذكر
أن الصور التي نراها اليوم في
مسجد عمرو انما هي من عمل السلطان مراد
بك أحد سلاطين المماليك في العصر التركي
ولا علاقة بينها وبين المسجد الأصلي الا في
القليل منه

● ● ●

٦ — مسجد ... من الخارج بعد أن جددته مصلحة الآثار

وسمي عصر الراشدين ثم عصر الأمويين وجاء عهد العباسيين الذين تحولوا إلى شمال الفسطاط وعلى مقربة منها عاصمة جديدة هي العسكر التي خلفت مكانها ولكنك تستطيع أن تتصور موضعها في منطقة [illegible]

[illegible] في المسعود والأثر الباقي من عهد العصر العباسي [illegible] أثر مصري إسلامي [illegible]

[illegible]

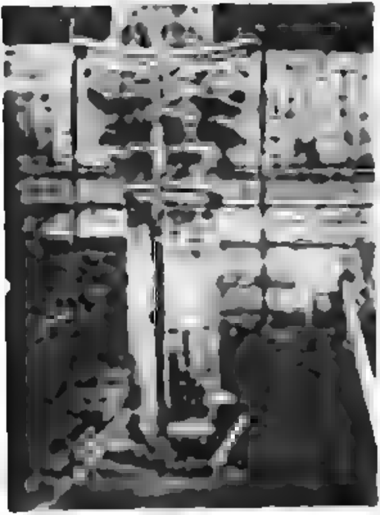

[illegible]

الكرك على انه سنة ٩٤٥ هـ (صورة رقم ٦)، وأهمية هذه الآثار أنها تدل على مدى عناية أجدادنا في العصور الوسطى بأمر المباني كما كان يعني به أجدادهم في العصور الحديثة وبعد الآثار التي جددتها مصلحة الآثار العربية كبيرة الذين يعنون بالناحية الأثرية فيه تقدم

مرور الكتابة الكوفية في مصر وهي أقدم مثال للعمود المنسوب بها (صورة رقم ٨)

(العصر الطولوني)

ربما لم يعرف مصر عصر جديد حقيقي إلا عصر أمرها أحمد بن طولون، مصر أصبحت فيه أمة جديدة بدين ساطع أعني بالاسلام.

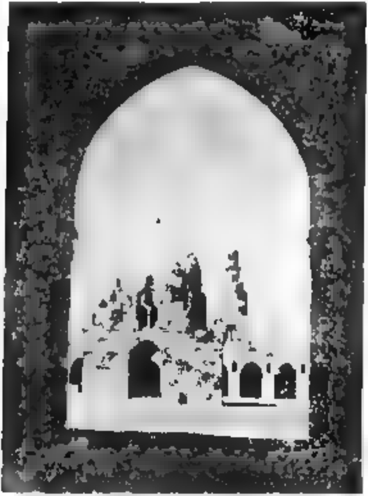

مسجد ابن طولون من الداخل بني في سنة ٢٦٥ هجرية

وسكنها معهم فيها ثم بنى بدلاً من الفسطاط والعسكر عاصمة تستكمل شخصيتها الجديدة بالاستقلال عن الخلافة العباسية في كانت عاصمتها في لا سر من رأى وجد حتى به حكمها بعاصمة الدولة هذه الرغبة فأنشأ عاصمة جديدة في الشمال من مدينة العسكر سماها القطائع وشيد فيها مسجده الرائع الذي لا يزال قائماً يحدد لنا مكان هذه العاصمة الجديدة على وجه التقريب ، ثم أقام إلى جواره قصره الذي أنفق في بنائه وتزيينه عمارته وكان آية في عظمته على حد وصف المؤرخين له ، ولم يبق من معالمه من موجود ويبحث في بطون الكتب

أما المسجد فيسير في تصميمه على النهج الذي شهدناه في مسجد عمرو ولكنه خطا نحو التطور خطوات تتجلى في خمسة عناصر هي النافورة والمئذنة والعقادات والزخرفة واللوحة التأسيسية

أما النافورة التي تتوسط الصحن فقد أحدثت في الأصل ليشرب منها الناس ولكنها في العصر [illegible] جديدة لتصبح ميضأة كما تدل على ذلك الآية القرآنية المنقوشة بداخل القبة التي تعلوها

وأما المئذنة فهي الوحيدة في مصر التي بنيت على هذا الشكل العجيب ، وهي متأثرة بمئذنة المسجد الجامع في مدينة لا سر من رأى في العراق ، كل منهما تشبه كثيرها في الأصل من معابد الفارسية المعروفة باسم الزيجورات

وأما العقادات التي تحمل السقوف فهي الأولى من نوعها في مصر الإسلامية وهي كذلك من خصائص عمارة العراق التي انتقلت إلى مصر في هذا العصر الذي سنعرفه الفن العباسي الذي شاع في العالم الإسلامي (انظر صورة رقم ١٩)

وأما الزخرفة فهي تطلع علينا بصورة صادقة للفن الإسلامي كما ازدهر في العراق ونحن إذا تأملنا في هذه الزخرفة قليلاً وجدنا أننا لا نستطيع أن ننسبها إلى الفنان المسلم فحسب ابتكاراً وحداثة لأن هذه الوحدات كانت موجودة بالفعل في الفنون السابقة على الإسلام ، إلا أننا لا يمكننا أيضاً أن نجحد مقدرة الفنان المسلم في طريقة توزيعها والتأليف بينها ، وصياغتها نسيجاً جديداً تبدو كأنها تخترع لأول مرة وما هي كذلك ، ولكنه صهرها في بوتقته ، وسلط عليها أشعة عبقريته ، فخرجت من بين يديه ثوباً جديداً لا يخفى علينا أصله ولكن لا نستطيع أن ننكر عليه شخصيته القوية

وأما اللوحة التأسيسية المثبتة على إحدى الدعامات ، فتدلنا على ما للكتابات التاريخية المنقوشة على الآثار من أهمية عظيمة ، فقد استطعنا بفضلها أن نقف على التاريخ الحقيقي لإنشاء هذا المسجد ٢٦٣ هـ ، بعد أن أعطانا المؤرخون له تواريخ مختلفة جاءت من غير شك نتيجة لأخطاء الناسخين ، أو عدم الدقة في نقل الأخبار

وأما الضريح الذي كشف عنه المرحوم حسن الهواري سنة ١٩٣٤ م بالقرب

من منتصف [illegible] مصنوعة من الاشكال [illegible] الصادرة المصرية القديمة في مصر (الصورة رقم ١٠) ، وهي في تخطيطها وزخرفتها [illegible] مدينة [illegible] من رأى [illegible] بالعراق [illegible] أساس [illegible] التخطيط ، وعلاقة الزخارف [illegible] هذه أقرب الى العصر الطولوني

(العصر الفاطمي)

[illegible] مصر [illegible] في العصر الطولوني ، فانه قد [illegible] كما كان في العصر الفاطمي [illegible] مركزاً لخلافة [illegible] الخلافة العباسية في العراق ، والخلافة الأموية في الأندلس ، [illegible]

خطت البلاد في سبيل [illegible] خطوات [illegible] ٢٢٠ [illegible] الشرقية تنعكس [illegible] ، وليرز شخصية الفن المصري الاسلامي الذي [illegible] فيه [illegible] المصريين في [illegible] على كل من [illegible]

ولما كانت [illegible] الاسلامية [illegible] الفسطاط و [illegible] الخامسة [illegible] ، فان [illegible] عليها [illegible] لا [illegible]

باب النصر والعمرة سنة ١٠٨٧ وباب الفتوح ، وقد وضع الخطيم في الكتابة المكتوبة على السور الذي بين هذين البابين وجدت أن تسميته هو باب النصر ، وباب الإقبال

وسورها الشرقي لا يزال يجري في موازاة خلال الدراسة ، وقد كشف مجهول عند المدينة وهم يعملون لتوسيع رقعة القاهرة الحديثة في باب البرقية بقسمه المسمور

وسورها الجنوبي لم يبق منه إلا باب زويلة أو بوابة المتولي كما يسميها العامة

وسورها الغربي كان يسير بموازاة شارع الخليج ، ولم يبق منه إلا القليل لدى لا يتأثر الذكر . ولكن لا تزال بقاياه تشير الى معالمه الفاطمية مذكرة بجهود الفاطميين في هذه الناحية

وتعد أبواب القاهرة وأسوارها من أروع العمائر الحربية في العصور الوسطى في العالم أجمع ، وقد كانت ، ولا تزال ، موضع الإعجاب والتقدير من كل من رآها أو يراها (الصورة رقم ٩٢)

وفي داخل أسوار هذه العاصمة الجديدة شيد الفاطميون قصرين عظيمين صاحب معالمهما وبقيت مواقعهما : القصر الكبير ويشغل اليوم مشهد الحسيني وخان الخليلي جزءاً من

باب النصر أحد الأبواب الشمالية بالقاهرة

موقعه ، والقصر الصغير ويشغل اليوم المسجد ومستشفى قلاوون جزءاً من موقعه

وفي القاهرة المعزية وفي ما حولها شيد الفاطميون المساجد والجوامع ولا زال بعضها قائماً حتى اليوم

ويعرض علينا سبيل الفداء أن نختار من بين الآثار الفاطمية الكثيرة ما كان محتفظاً [illegible] هذا العصر إلى [illegible] ، فالجامع (مصور رقم ١٣) على شهرته الفاطمية لا يستطيع أن [illegible] هذه [illegible] ، ولا [illegible] منه ، ودخل عليه من التجديد والتحوير ، بينما الأقمر أو جامع الحاكم بأمر الله ، على

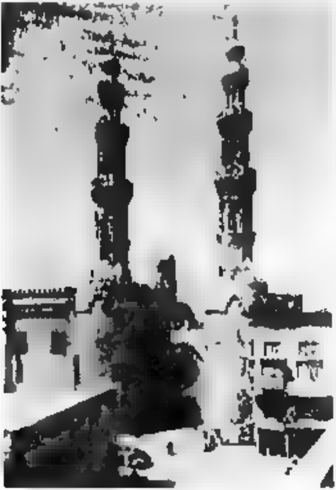

[illegible] — مئذنتا [illegible] أحد الأبواب [illegible] القاهرة

م — بجامع الأزهر من الداخل

سوء حالته ، يبرز لك هيكله بخصائص ، وبجامع الأقمر على صغر حجمه يجلو عيب جمال الفن الزخرفي في صوره واضحة قوية ، ومشهد الجيوشي يكفي لبيان العرض من مثل هذه الأبنية التي ظهرت لأول مرة في مصر في هذا العصر ، والحمام الفاطمي هو أقدم ما هو موجود من نوعه في هذه البلاد

جامع الحاكم محتفظ بالعناصر الرئيسية للمساجد الفاطمية وهي الواجهة المعجبة ، والمدخل البارز ، ومجاز القبة ، والقباب — البلاد

أما مواجهة منشئيه الخلفاء في مساجد مصر السابعة ، يقوم في ركنيها برجان عظيمان يكسبان المسجد مظهر القلاع ، يخرج من كل منهما مئذنة عالية تعد أقدم مآذن المؤرخة في مصر (صوره رقم ١٤) ، تزدان كل منهما بزخارف رائعة ، وبكتابة كوفية تتضمن اسم الحاكم بأمر الله ؛ وقد تصدع الجزء العلوي من هاتين المئذنتين أثر زلزال شديد أصاب البلاد في عصر المماليك ، وعينت تشيد حول الجزءين على الصورة التي نراها الآن

و — المحراب الرئيسي واقع في منتصف الواجهة ... عن ... نراه ... وقد

صورة جامع الحاكم من الخارج [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] بالخلافة [illegible]

[illegible] الخلافة العباسية في الشرق

والخلافة الأموية في الغرب

[illegible]

[illegible]

[illegible]

٥ — من زخارف جامع الحاكم بأمر الله

من جانبيه الأيمن والأيسر لتسير في اتجاه عمودي على جدار القبلة بينما تسير باقي عقود المسجد في اتجاه مواز لجدار القبلة . والغرض من هذا هو ابراز أهمية المحراب في المسجد باعتباره أهم بقعة فيه .

والقبة لم يبتدعها المصريون في العصور الوسطى ولكن فضلهم في تطورها عظيم ، فقد عرفها أجدادهم الفراعنة من قبل كما عرفها الاغريق والرومان ، ثم استعملها المسلمون ساذجة بسيطة محدودة الاستعمال وأخذوا يتطورون بها حتى لقد أصبحت من مميزات العمارة في الفن الاسلامي ، ولم تفقد القبة المصرية الاسلامية منذ العهد الذي نراه في القباب الثلاث الموجودة في هذا المسجد والتي نشاهدها في أقصى اليمين وأقصى اليسار من جدار القبلة كما نراها أيضا أمام المحراب — بل نراها قد تطورت تطورا بلغ أقصاه في عصر المماليك ، والزخارف التي نشاهدها في هذا المسجد في واجهته (لوحة رقم ٦٥) وفي مداخله وفي واجهته كلها

نعلم بأن الفن المصري قد تخلص من عادته الفن الطولوني الذي نراه مستعملا في الجامع الأزهر وقد بدأ يستعمل الآن العناصر الزخرفية التي كان يعرفها أجداده قبل الاسلام والتي نعتقد أنه غير المقصود . كما تدل أيضا زخارف بعض مداخله على بدء ظهور الروح الاندلسية في الزخرفة المصرية الاسلامية .

وللجامع الأقمر واجهة تعتبر قطعة من الفن الجميل (انظر صورة رقم ٦٦) ، تنطق بالتطور الفني لدى رجال الفن جميعا في القرن السادس الهجري (١٢ م) ، وتدل على أنهم يعملون بحرص على تقدم المستوى مع رجال الفن في البلدان الاسلامية ، ولن نفصل الفنون في العناصر الزخرفية المختلفة الموجودة في هذه الواجهة بما يمكن أن نقول إننا نشاهد فيها لأول مرة الزخارف المعروفة بالمقرنص Stalactite ، والتي أصبحت من أخص مميزات الفن الاسلامي ، كما نشاهد فيها الأحجبة التي

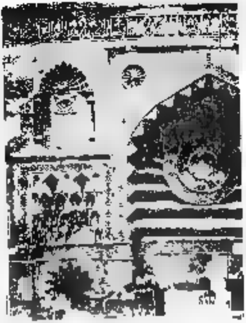

... جزء من زخرفة الجامع الأقمر ...

لفس البناء في قبتها وعقودها وهي ظاهرة معمارية ظهرت لأول مرة في مصر في عصر البطالمة في مقابر كوم أبو صير ثم اختفت لتظهر من جديد في هذه الواجهة. كما تشاهد أيضاً كثير من العناصر الزخرفية التي كانت مألوفة في العصر الفاطمي قد رسمت حسب طريقة منفعة تدل على نضوج ملكة الفن عند صانعيها. والواقع أننا نحس في زخارف هذه الجبانة و مساجد الدين ، الروح الفنية المصرية واضحة ... من حيث طرقه وأساليبه بعد أن تخلصت من الفن الأجنبي الذي فرض على البلاد في العصر الطولوني والكلام على مساجد القاهرة التي حررنا

منها تخرص ا صوره مم ١٧ عرض علينا ... عصر الفاطميين في تلك البدعة التي استحدثت في الإسلام ، وأقصد بها ... عملت مساجد مستمدين في التي البدع ، وهي بناء القباب و إنشاء مساجد فوق قبور البارزين والعظماء من رجال الدين والدين ، وأغلب الظن أن الدافع إلى هذه البدعة إنما هو الرغبة في تكريم هؤلاء الناس بعد وفاتهم كما كانوا مكرمين في حياتهم ، وقد ظهرت هذه البدعة أول ما ظهرت عندما اتجهت النية إلى تمييز بعض البقاع التي تحتل من نفوس المسلمين مكانة سامية لاتصالها بتاريخ النبي الكريم مثل صخرة بيت المقدس التي يقال إن النبي عرج منها إلى السماء ليلة أسرى به ، فشيدوا عليها قبة عظيمة هي حتى اليوم من أروع الآثار الإسلامية إن لم تكن أروعها جميعها ، وقد كان طبيعياً أن ينتقل من تكريم البقاع التي قدستها الذكريات إلى تكريم القبور التي تضم رفات من كانوا أعزاء عليهم ، وهكذا ظهر هذا النوع الجديد من الأبنية التي سماها الفاطميون بالمشاهد أي مكان الشهداء لأنهم كانوا يرون أن المتوفين وعظماءهم قد استشهدوا واستحقوا درجة الشهداء في سبيل نصرة مذاهبهم ، وهي تشبه الجيوشي قد سمي بالمشهد نسبة إلى الأفضل بن بدر الجمالي كما تدل على ذلك الكتابة التأسيسية التي تتوج مدخله ، ويستلفت النظر فيه ... في التسمية لأول مرة بالمصرية

٧ ـ مشهد الجيوشي من الخارج

وعهد الاستحداث يكشف لنا عن ميزة معمارية تجمل بمشهد الجيوشي في العصور الوسطى فضل السبق على دوليه الادريسي المعاصر له ، ومحراب هذا المشهد يعد آية من آيات الفن الاسلامي يتجلى فيه عبقرية الفنان في روعة صورها وابداع مقاطعها (صورة رقم ١٨)

وآخر ما نذكره من عصر الفاطمية « الحمام الفاطمي » الذي كشف عنه متحف الاسلامي بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م ، وهو يقع بالقرب من ضريح الطوسي الذي ... الاس ... وهو يعد أقدم حمام اسلامي في مصر

والحمامات عامة ليست من مبتدع العرب بل عرفها الفراعنة واليونان والرومان من قبلهم ، ولقد سار المسلمون في تخطيط حماماتهم على نهج الرومان الذي وجدوه بين أيديهم ، وتحدثوا عنها طويلا في كتب الأدب والتاريخ فذكروا صفاتها ومزاياها وآدابها ، ووصفوا ما ازدانت به جدرانها من صور جميلة ، وأوضحوا ما تبعثه الصور من أثر في نفوس مستحميها ، ولقد لعبت الحمامات دورا هاما في الحياة الاجتماعية في العصور الوسطى في مصر وغيرها من بلاد العالم الاسلامي ، والحمام الفاطمي كان ، في أغلب الظن ، حماما خاصا ملحقا بأحد القصور نظرا لصغر مساحته ، ولكنه على صغره يعطينا فكرة واضحة عن تصميم الحمامات ، وطريقة ايقاد النيران فيها ، وتوزيع المياه في أجزائها المختلفة ، ولا تزال البئر التي كان يرفع منها الماء موجودة حتى اليوم ، أما الصور التي كانت تزين قبته وجدرانه فقد نقلت الى متحف الاسلامي بالقاهرة (صورة رقم ١٩)

(العصر الأيوبي)

وانتقلت السلطة في مصر الى ... بعد العصر الفاطمي ، وتسلمها منهم ... الأيوبيون ، الذين أسسوا لأنفسهم ممالك

مقصورة من خشب الخرنكو كانت بالجامع الفاطمي ومحفوظة الآن في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة .

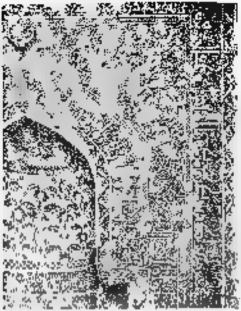

٨٠ - محراب مشهد الجيوشي .

صغيرة في بلاد الشام ، ومن جهة أخرى مسلمو الشرق (الأتراك السلاجقة) ، وكان [illegible] الوزارة في مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي [illegible] الخليفة الفاطمي العاضد [illegible] الخلافة الفاطمية وعودة الخلافة العباسية ، [illegible] ما كان من الدولة الأيوبية التي [illegible] على القبيلة في مصر ، [illegible] الصليبيين في الشام .

ولقد وجد صلاح الدين نفسه مهدداً [illegible] من [illegible] الفاطميين [illegible] في [illegible] ملكهم ، [illegible]

من الصليبيين الطامعين في مصر لتأمين ملكهم في الشام والاستفادة بخيراتها العميقة ، فأوحى إليه هذا الموقف أن يبحث عن مكان حصين يتخذه مقراً له ، ويدافع به عن عاصمة البلاد شر العدو المهاجم ، فوقع اختياره على مكان القلعة المشرفة على القاهرة اليوم (صورة رقم ٤٠) [illegible] الآن [illegible] وهو [illegible] بوابة القلعة [illegible] قلعة صلاح الدين [illegible] ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) [illegible] الكامل [illegible] الذي

ـ قلعة صلاح الدين من الخارج

لا يزال يردده بعامة شعبه حتى اليوم للدلالة على جمود الفكر والتعسف في الحكم (الصورة رقم ٢١).

واتسع العمران بين الفسطاط والعسكر والقطائع حتى أصبحت مدينة واحدة كانت تسمى مصر أحيانا وأحيانا الفسطاط. وأمر صلاح الدين بإحاطتها بأسوار تتصل بأسوار القاهرة الفاطمية. وفقدت القاهرة أهميتها بعد أن انتقل منها الحكام والحكم إلى القلعة التي ارتفع نجمها منذ ذلك العصر حتى أيام الخديو إسماعيل الذي بنى قصر عابدين.

ويعتبر القلعة متحفا [illegible] في مساجدها من عصور مختلفة، فهي [illegible] على تاريخ مصر منذ عصر الأيوبيين حتى عصر محمد علي. فالعصر الأيوبي يمثله أوضح ما يمثله الأبراج التي تشاهدها في الجانبين الشرقي والجنوبي، والعصر المملوكي يمثله أجمل ما يمثله مسجد الناصر محمد ذي المئذنتين الرائعتين اللتين تزدان قمة كل منهما بالوشي القاشاني الأخضر الجميل، والعصر التركي يتمثل في طرازه الجديد في بناء المساجد في جامع سليمان باشا، وهو في مصر، وهو أول مسجد يذكرنا بمساجد القسطنطينية التي تأثرت في تصميمها بكنيسة أيا صوفيا حيث [illegible] في وسط [illegible] في محراب قبة عظيمة تحيط بها أربعة أنصاف

٢- الكتابة الأثرية على أحد أبواب قلعة صلاح الدين

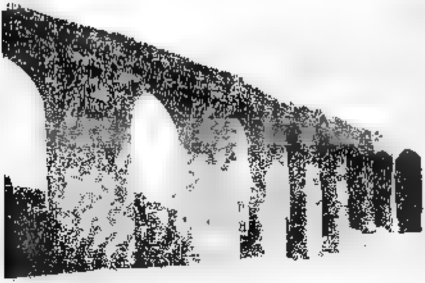

٣- قناطر المياه التي كانت تحمل الماء من الجبل إلى القلعة

فوق حافته تاج من الخوص والكتابات ، كما سجل أيضاً هذا العصر في باب القلعة المشرف على ميدان صلاح الدين المعروف بباب العزب والذي يحف به من جانبيه برجان عظيمان يظهران بأن البناء المصري كان لا يزال في هذا العصر يحتفظ ببراعته القديمة . وعصر محمد على يتمثل لنا في المدخل الرئيسي للقلعة الذي نستعمله الآن ، وفيما وراء هذا الباب من مصانع عسكرية والدواوين والمدارس ، وفي قصوره التي من أهمها قصر الجوهرة الذي [illegible] إليه [illegible] الأئمة والارشاد ... وضعت فيه من كان فيها في الصورة الجميلة التي كان عليها ، وفي مسجده العظيم الذي دفن به والذي يشرف بمئذنتيه الرشيقتين على القاهرة .

وطريقة يصل بها الماء إلى تلك القلعة العالية في العصور الوسطى جديرة أن نقف عندها قليلاً فهي تكشف لنا عن مدى تصرف أجدادنا في تلك العصور في الهندسة المدنية إذ كانت المياه ترفع من النيل بواسطة ست سواقي كل منها ترفع الماء الى حوض كبير يجري منه الماء في قناة محمولة على أعلى قناطر بنيت خصيصاً لهذا الغرض تمتد من جوار مجرى النيل وتنتهي الى القلعة (صورة رقم ٣٣) ، ولا تزال حتى اليوم — منذ تم التجميع — آثار هذه السواقي وكثير من قناطر هذه التي جددت في عهد الغوري أحد سلاطين المماليك ، وتحتفظ مصلحة الآثار من جهة

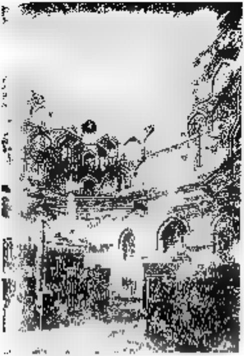

٣٢ — قبة الامام الشافعي من الداخل .

وبمدينة القاهرة من جهة أخرى لأخطار هذه القناطر وتخريب الطريق الذي يحف بها من الجانبين كما في الصورة التي كانت عليها عند انشائها . ولكن سكان القلعة يعيشون دائماً في مأمن من انقطاع مياه النيل عنهم بسبب من الأسباب ، لذلك حفرت في داخل القلعة بئر عميقة تستخدم مياهها عند الضرورة ، وهي لا تزال موجودة حتى اليوم وتعرف ببئر يوسف .

وتنفس في هذا العصر فوق قبر الامام الشافعي قبة عظيمة تعد من أحسن القباب وأجملها وعنيت بالنقوش من الداخل

والخارج وتتجلى في الزخارف محفورة في رقبة هيئة القبة من الخارج ... لا نجدها في مساجد ... (صورة رقم ٢٣)

وفي ... السيدة ... والمدرسة ... فوق قبر زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب الشاهد فيه الأول ... والعصر الفاطمي ... لتزين المحراب

(العصر المملوكي)

وضعفت الدولة الأيوبية ، واشتد النزاع والتحاسد بين أفراد أسرة بني أيوب ، واستكثر بعضهم من شراء المماليك ليكونوا عونا لهم ضد منافسيهم من أقاربهم ، ووصل هؤلاء المماليك زمام الجيش والقصر ووصلوا إلى درجة عظيمة من النفوذ ، ونجحوا أخيرا في الاستيلاء على الملك والتربع على عرش مصر أكثر من قرنين ونصف قرن كانت البلاد فيها من الناحية السياسية مسرحا للفوضى ولكنها بلغت من الناحية الفنية درجة سامية لم تبلغها من قبل في عصرها الإسلامي . وفي الحق لقد استطاع هؤلاء المماليك أن يكتبوا لأنفسهم في تاريخ الفن المصري صفحات تلمع من بين سطورها آيات النضوج الفني التي نقرأها فيما تركوه وراءهم من ثروة عظيمة من المساجد ، والقباب ، والخوانق ، والقصور ، والمدارس ، والمقابر ، والقلاع ، والأسبلة ، والمشكاوات ، ومن التحف المنقولة التي يعج بها متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، وفي الكتب المصرية ، وكثير من المتاحف في الشرق والغرب

٢ — مسجد الظاهر بيبرس من الخارج

المساجد :

وأقدم المساجد المملوكية هو مسجد الظاهر بيبرس (٦٦٥ هـ) الذي خلع اسمه على حي عظيم من أحياء القاهرة (حي الظاهر) (صورة رقم ٢٤) والذي يعد تاريخه مختصرا لتاريخ مصر منذ أمسك المماليك بزمام الحكم فيها حتى العصر الحديث ففي بنائه الضخم مظهر لعظمة مصر في عصر المماليك ، وفي إهماله وبيع أنقاضه مظهر للفوضى التي حلت في البلاد بعد الفتح التركي ، وفي جعل الفرنسيين منه قلعة في وسط القاهرة مظهر للغزو الفرنسي ، وفي تحويله على يد الإنجليز إلى مذبح يجهزون فيه ما يأكلونه من الحيوان حتى أصبح إلى اليوم عند العامة مذبح الإنجليز مظهر للاحتلال البريطاني ، وفي بدء العناية به ومحاولة إعادته إلى أصله عن طريق مصلحة الآثار مظهر لعهد الاستقلال ، فهو أول مسجد

صغار وجهه منقبة الظاهر التي تعد دوراً هاماً في العمارة الإسلامية حتى ذلك، تصبح علية عليها دهي ... ونجوه بأشرطة ثم عقود متوازنة لونها أحمر وأصفر على التوالي، ويلاحظ أنها هي أقدم أمثلة لاستعمال نوعين من الحجارة يختلف كل منهما عن الآخر في لونه. وصحن المسجد تشغله اليوم حديقة عامة، وقد ضاعت معظم معالمه من الداخل إلا بعض الزخارف الجصية وزوايا المحراب، الذي بقي منه جزء تتآكله العناصر.

القباب

وأجمل القباب قبة قلاوون (٦٨٣ هـ) التي تعتبر من أروع مفاخر الآثار الإسلامية في مصر (الصورة رقم ٣٥)، وهي تتكون من غرفة مربعة الشكل يتوسطها مثمن تستند عقوده على ستة أكتاف وأربعة أعمدة من الجرانيت الأحمر ثم يحيط بها والواضح أنها من صنع المصريين في عصر البطالمة، ومحرابها تحفة من الفن الجميل، وواجهتها من الداخل ومن الخارج مثال ناطق على مدى ما وصل إليه البناء المصري في عصر المماليك من التصميم الفني (الصورة رقم ٣٦). والواقع أن هذه القبة ترهف الوجدان بجمالها الرائع، وتهدي النفس بتصميمها المحكم، وتوسع أفق العقل بما فيها من كتابات خارجية. وإذا كانت التأثيرات الأندلسية قد عهدت على استحياء في العصر الفاطمي في بعض نوافذ جامع الحاكم، واستعملت فعلاً عن نفسها في العصر الأيوبي في زخارف قبة الإمام الشافعي، فهي في عصر المماليك تبدو قوية واضحة في زخارف الواجهة الداخلية لهذه القبة (الصورة رقم ٣٧) التي تذكرنا عند مشاهدتها بالزخارف الجصية لقصر الحمراء.

واجهة قبة السلطان قلاوون من الخارج

البيمارستانات

والبيمارستان [illegible] من أبهاء [illegible] الرحب ، [illegible] خاص ، وكان [illegible] التي [illegible] كما هو [illegible] أحدث المستشفيات اليوم ، وقد كان [illegible] أسسه من قبل الدولة [illegible] بجميع الأدوية والأطعمة

وبيمارستان قلاوون [illegible] قد اختفى اليوم [illegible] فلم يبق منه إلا الأرض التي تشغلها اليوم مستشفى [illegible] الرمد [illegible] اسم قلاوون ، والأطباء لا يستأهل الذكر ، وهو [illegible] الأول من نوعه في مصر بل سبقته [illegible] أخرى [illegible]

[illegible] بيمارستان قلاوون [illegible] الداخل

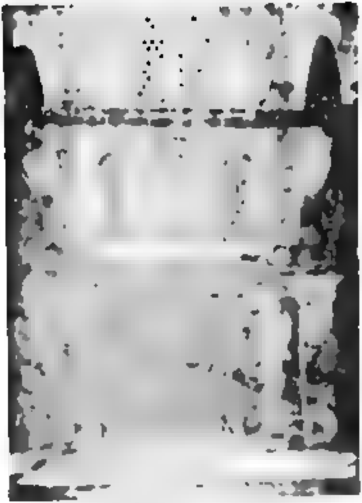

الوسطى عصور التعصب الديني والفصل بالذكور والإناث»
والعقلية الاجتماعية غير ثلاث العبارة التي الطرائق .
كان علاوة عنه تخرج من بيساه مسجدا

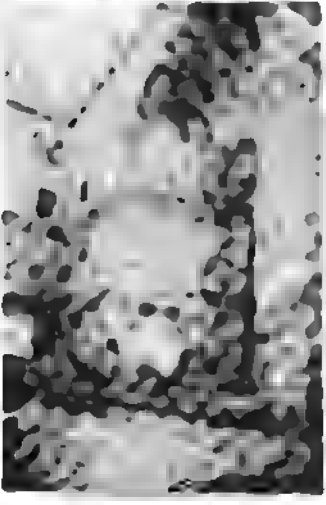

٨ – خانقاه بيبرس الثاني من الخارج

وقد ... فكر ... [illegible]

وخ ... في العصور ... بعض الناس إلى المرأة ... في ... الاجتماعية التي ... [illegible] ... على ... [illegible] هؤلاء مصريون ، وقد ... في مصر ... للغرب في عصر صلاح الدين ، وقبة الخانقاه الجاولية (٧٠٣ هـ) من أجمل ما شيد من هذا النوع ، وواجهتها المطلة على شارع ... تتضح في ... الذي ... ، والقبة التي ... هذا ... القبتان ... ، ... والمئذنة القائمة التي بجوارهما ... فيها ... الفني بصورة رائعة ، ... التعريب إلى ... ، ولكن ... التي ... من الحجر مزخرفة بزخارف جميلة لا مثيل لها في العمارة الإسلامية في مصر ... صورة رقم ٣٩

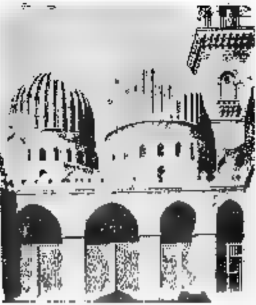

٣٩ - الخانقاه الجاولية من الداخل ... في ... الحجرية ...

القصور

وقصر الأمير بشتاك (٧٣٥ هـ) كان من أعظم مباني القاهرة يستطيع الإنسان أن يشرف من أعلاه على القاهرة والقلعة والجبل والنيل ... [illegible] ... في قاعة ... ذات ... وتاهو ... بعض الأجزاء التي ... على ... فكرة عن ... القصر ... في هذا العصر الذي ... القصور كما تعرف في جميع العصور المصرية الإسلامية قبل الفتح التركي ، ومن السبب في ذلك خشية الناس من الاعتداء على بيوت الله من عقاب الله تعالى الكثير من هذه البيوت حتى وصل إلينا ، أما بيوت الأفراد من الشعر فما أهون الاعتداء عليها ... الإنسان السلطة والقوة

المدارس

وقد كانت مجالس العلم تعقد في المساجد وظل ... الى ... دائرة معرفة ... حتى الناس ان ... من أسس ... بين الطلاب والأساتذة أحيانا في

(مدرسة السلطان حسن (من الخارج)

عند الهنود الواجب توفره في المساجد ، فرأوا أن يخصصوا المدرسة كلها في دورهم ، فعم مدارس [illegible] بالمكان [illegible] ولكن خاصة في المدارس التي عرفها المصريون لأول مرة في القرن السادس الهجري في أيام لم تنتشر بعد ذلك في العالم الإسلامي . ودخلت مصر مع صلاح الدين ، ثم أقبل الناس على إنشائها بعد ذلك [illegible]

وتعد مدرسة السلطان حسن (٧٥٧ هـ) (صورة رقم ٣٠) من أعظم الآثار الإسلامية

مدرسة السلطان حسن من الداخل

[illegible]

أن نذكر أنه كان في صحن الجامع [illegible]
لا حوض [illegible] [illegible] والمؤرخون ،
أحدهما يتصل بالمياه والآخر بالنيل ، وكان
لها [illegible] [illegible] أحدهما [illegible] [illegible]
والثاني [illegible] [illegible] ، والثالث [illegible]
[illegible]

[illegible]

وخان [illegible] الذي [illegible] [illegible]
نسبه من [illegible] الدين [illegible] [illegible] أحد
أمراء السلطان الذي كان [illegible] في النصف
الثاني من القرن الثامن الهجري ، وقد كان
البناء في الأصل أشبه ما يكون [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] أنه كان يتسع لدواب

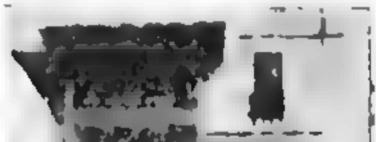

[illegible]

مسافرين . وقد كان أصلهم من التجار وجميع كذلك ما يحملونه من بضاعة . وفي صحنه فسقية كانت ترتفع فيها الدواب وهي وسيلة السقي في تلك الأيام — وفي غرفه التي تطل على الصحن كانت تحفظ بضائعه . وفي غرفه التي تطل على الطريق كان يعرض بعضهم من هذه البضائع للبيع . وبالدور وفي الطبقة العليا غرف يستخدمها أصحاب الثروة التجار وغيرهم من المسافرين . وقد هدم السلطان الغوري هذا الخان وأنشأ مكانه حواصل وحوانيت وجعل له ثلاثة أبواب لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم (الصورة رقم ٣٢)

الأسبلة

وسبيل السلطان قايتباي (٨٨١ هـ) بالصليبة يعد من أروع ما شيده هذا السلطان من عمائره الكثيرة ، ومن أحسن ما يطلق عليه هذا النوع من الأبنية ، وهو يتكون في أسفله من حوض ... حيث يشرب منه الناس ، وفي أعلاه « كتاب » لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والحساب ، وقد كان السبيل « والكتاب » جزءاً من المدرسة أو المسجد ثم استقلا بوجودهما كما هو الحال هنا وأقبل الناس على الإكثار منهما وحبسوا عليهما الأعيان التي تصرف غلتها على الأطفال ومعلميهم وعلى توفير ماء الشرب للناس في تلك ... نحو ... أمر به الله من ... الماء ... (الصورة رقم ٣٣)

الفنون الزخرفية

تعتبر الفنون الزخرفية ... من مصنوعات ... كان ... من ... وهي الركن الثاني من ركني الحياة الفنية في مصر الإسلامية

وإذا كانت العمائر الدينية التي درسناها طابع خاص يكاد يكون ... سبقه من عمائر دينية في مصر ، طابع يرجع من المدن الجديدة التي دخلت في هذه البلاد ويمشي من حيث التصميم والمظهر مع العمائر الدينية الإسلامية خارج مصر فالأمر ليس كذلك في المصنوعات ، وما نزدان به من زخارف ... المصانع المصرية سابقة على الإسلام واضحة وسيرها قويا في مصر ... على الطولونيين حتى ليصعب علينا في بعض الأحيان أن نفرق فيها بين ما صنع قبل الفتح العربي وما صنع بعده بقليل

ولكي ندرك مدى ما أحدثه أجدادنا في العصور الوسطى من تطور في صناعة المصنوعات وزخارفها نرى لزاما علينا أن نحصي كل مادة من المواد التي استخدمت في الصناعة بكلمة خاصة نبدأها بما كانت عليه قبل الفتح العربي ثم نتتبع ... تطورها حتى الفتح التركي

مواد البناء

تعتبر مواد ... بلا خلاف ... على الرغم من وجود المحاجر التي ... منها ... المصريون في عصور هم السابقة ... عمائرهم

فان العرب استعملوا قطع الحجر و ... عمل الفسيفساء ... استخدمهم الأوربي . وعندما جاء ابن طولون الى مصر حمل معه طريقة العراق في البناء وهي طريقة كذلك تعتمد على استخدام اللبن والطوب المحروق لعدم توفر الحجر عندهم فظلت مصر تسير على نهجه السابق ، وقد كان طبيعيا أن يغطى الطوب بالجص وأن تنقش الزخارف على هذا الجص .

وفي العصر الفاطمي — ذلك العصر الذي أحيا تقاليدنا القديمة كما ذكر من قبل — نجد البناء بالحجر يظهر من جديد ، ويعود الشاهد الى الحجر ، ونلمس في واجهة جامع الحاكم ومئذنتيه ، وفي واجهة جامع الأقمر ، وفي أبواب القاهرة وأسوارها ، أمثلة رائعة للمهارة الفائقة في البناء وفي النقش على الحجر .

وظل استعمال الحجر بارزا في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وتجلى في هذا العصر حذق أجدادنا في نقشه ، وفي طريقة استعماله في المآذن والقباب والشبابيك .

ولم يستخدم الحجر في البناء وحده بل اتخذت منه شواهد للقبور (الصورة رقم ١) وبالمتحف الاسلامي بالقاهرة عدد من هذه الشواهد التي تعطي الباحث فكرة واضحة عن تطور الخط الكوفي والنسخي ، كما تطلعه على أهم ... [illegible] ... التماثيل وهذه الأحجار وان كانت نادرة الا انها كافية لكي تثبت أن الفن الاسلامي قد عرف فن النحت وهو وان كان لم يصل فيه الى الدرجة التي وصلت اليها الفنون القديمة ... عصر الاسلام الا أن هذا لا يعد دليلا على تأخر ... له ... [illegible] ... لأن الكثير من البيئة التي نشأ فيها والظروف التي تحكمت في نشأته ، والقرآن الكريم لم يحرم فن النحت أو صناعة التماثيل ، وقد أدرك أسلافنا أن التحريم انما وجه فقط على التماثيل التي تعبد من دون الله ، وأما غيرها فلم يتحرجوا من استعمالها في تزيين قصورهم وقد وصلت الينا أمثلة عدة ، منها ما هو على هيئة الانسان ومنها ما هو على هيئة حيوان ، وفي القاعة الفاطمية بالمتحف بالقاهرة تمثالان من الحجر يمثلان أسدين ... على ... تتجلى فيهما العضلات ... بشكل واضح .

ولا ينبغي أن ننسى أن استعمال الحجر

٢ ، ٣ قطعة الحجر ... [illegible] ... قطع حجر ... بالمتحف الاسلامي بالقاهرة

لسبب بسيط هو عدم استعمال الطوب والجص في البناء بكثرة، والحجر الذي كثر استعماله منذ العصر الطولوني في استعمال الجص على تطور وتنوع، حتى وصل إلى حالة عجيبة في عصر المماليك الذي شهد أروع أمثلة الزخارف الجصية سواء في النوافذ أو على الجدران.

والرخام الذي استعمل على قلة قبل عصر المماليك قد كثر استعماله في هذا العصر ووصلت إلينا منه أنواع عظيمة منها ما نراه في الأبنية القائمة ومنها ما هو معروض بالمتحف الإسلامي بالقاهرة. ويكفي أن نشير إلى أرضية كثير من المساجد التي تكسوها ألواح الرخام المختلفة الألوان، وإلى النافورة الرائعة في المتحف سالف الذكر.

الأخشـــاب

ولقد كانت مصر طوال تاريخها فقيرة في الأنواع الجيدة من الأخشاب، فاستوردتها من لبنان (الأرز والصنوبر)، ومن السودان (الأبنوس) ومن الهند (الساج)، واستعملتها مع بعض الأنواع المحلية (الجميز والنبق) في صناعاتها المختلفة، وفي المتحف المصري وفي المتحف اليوناني الروماني، وفي المتحف القبطي أمثلة رائعة تدل على المهارة والحذق في صناعة النجارة.

وسار المصريون في العصر الإسلامي على النهج القديم في صناعة وفي زخرفة، فاستعملوا الحفر، والتخريم، والتطعيم كما

٤٢ - محراب السيدة رقية من الخشب وسجل فيه طريقة التطعيم والحفر بالمتحف الإسلامي بالقاهرة.

فعل أسلافهم ولكنهم في العصر الطولوني خرجوا على ما ألفوه من قبل، واستعملوا طرازاً زخرفياً جديداً حفروا منه أمثلة في موجودة على الخشب المائل [الصورة رقم ٤٢] ويعتبر المحاريب الخشبية التي كانت في مصر محفوظة والتي تعد من غير شك من أبدع الأمثلة القديمة في هذه الناحية.

على أننا نجد عندنا في المعابد القبطية بشكل واضح في العصر الفاطمي ، فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التي ألفها أجدادنا ، ونجد لها صوراً رائعة نشاهدها في حجاب كنيسة الست بربارة بالمتحف القبطي وفي المنبر الموجود في مسجد قوص ، وفي محراب السيدة رقية (صورة رقم ٣٥) ، وفي ألواح القصر الفاطمي المحفوظ في المتحف الاسلامي

وإذا كانت هذه التحف الخشبية تعكس لنا رقي الذوق الفني عند أجدادنا في العصور الوسطى فالتحفتان الأولى والأخيرة تساعدنا على تكوين فكرة عن الحياة الاجتماعية في تلك العصور بما عليها من صور تمثل مناظر الصيد ، ومجالس الطرب ، وأشكال الرقص، وطرق الاحتفال ، ومظاهر الزي

وتقدم فن الحفر على الخشب تقدماً ملحوظاً في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وقد عني النجارون في هذين العصرين أكثر ما عنوا بالزخارف الهندسية والتجميعات التي أتقنوها اتقاناً يسترع الاعجاب من كل من يراها ، ويكفي دليلاً على ذلك ما نراه في تابوت الامام الشافعي (بقبته) وتابوت الامام الحسيني (بالمتحف الاسلامي) ، والمنبر الموجود بمسجد ابن طولون .

على أن من الفنون في العصور الوسطى خشبيين عند تلك الطرق التي ورثناها عن أجدادنا في صناعة الأخشاب بل أضافت طرقاً جديدة لم تكن معروفة من قبل ، وذاعت بمصرنا الشرقي ذاعت وعرفت كطريقة التطعيم وطريقة التجميع وطريقة الخرط ، والطريقتان الأولى والثالثة نشاهدهما في التحف التي ذكرناها وفي غيرها من تحف كثيرة والطريقة الثالثة تتجلى فيما نعرفه « بالمشربيات » التي كانت تزين واجهات كثير من منازلنا وقصورنا في العصور الوسطى والتي كانت من غير شك متفقة مع جو بلادنا ، ومتلائمة مع نظامنا الاجتماعي حينئذ ، فهي تساعد على دخول الضوء اللطيف ، ومرور النسيم العليل ، فتوفر بذلك في البيت جواً مناسباً في بلد تشتهر بشمسه الساطعة ومناخه الحار ، وفي المتحف القبطي والمتحف الاسلامي أمثلة جميلة لهذه المشربيات .

التصوير

والاستعانة بالتصوير في تزيين الجدران أمر كان معروفاً عند أجدادنا المصريين ، وكان معروفاً أيضاً عند العرب في جاهليتهم فقد زينوا دعائم الكعبة — قبل الاسلام — بصور الأنبياء ، وكان من بينها صورة ابراهيم خليل الرحمن ، وصورة السيد المسيح وأمه على حد قول الأزرقي في كتابه أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار

ولما جاء الاسلام اقتصر المسلمون في استعمال التصوير على تزيين القصور والحمامات دون المساجد ، ولم يكن الدافع الى ذلك كراهية التصوير فحسب ولكن كان سمو الاسلام كدين يرتفع عن الماديات ، ويحصر الصلة بين العبد وربه صلة روحية

لوحة التجسيد من كل ما هو ساذج . وقد تكشف الحفائر الأثرية سواء في مصر أو في خارج مصر عن صفحات وصور ترجع الى القرن الثاني والثالث والرابع بعد الهجرة كانت تزدان بالصور الجميلة [illegible] بمتحف الاسلامي [illegible] على

الجدران [illegible] من الصدام [illegible] الذي [illegible] من [illegible] رقم ١٩) [illegible] ذكرناه [illegible] على [illegible] الاسلام [illegible] التصوير [illegible] على الرغم من [illegible] من أي [illegible] [illegible]

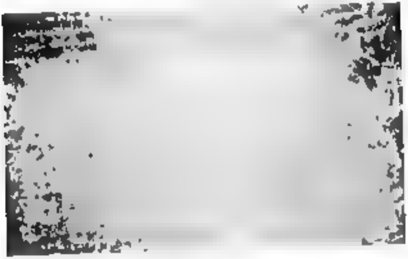

[illegible]

[illegible]

لقد حرم التصوير مع ما له من دور خطير في تنمية الثقافة والعقلية الاجتماعية

المنسوجات

ومنذ فجر التاريخ بل وقبل أن يشرق هذا الفجر عرفت مصر صناعة المنسوجات ، والأمثلة التي تنطق بمهارة أجدادنا في هذه الناحية في كل العصور تزخر بها المتاحف في مصر وفي الخارج والمكانة السامية التي وصلنا اليها في العصور القديمة لم تفقدها

السابقين ، وأشهر الرسامين وأعلى المواهب بعملهم حتى نستطيع أن نخرج من الأنسجة ما يليق بالخلفاء والأمراء والحكام ومن يلوذ بهم ، وقد كان الشعب من ورائهم يرسم خطا مستقلا لنفسه ، وينسج على هديها (الصورة رقم ٣٧) وليست «دار الكسوة» الموجودة حتى اليوم الا بقية من الدور الطراز القديمة ، وهي لا تختلف عنها الا في اكتفائها ، والتصارها على نسج كسوة الكعبة التي ترسلها كل عام الى مكة

٣٨ قطعة من طنفسة مصرية صنعت للبلاط العثماني بأيد مصرية

الناحية بمنتاها أيضا في العصور الوسطى ، (الصورة رقم ٣٦) وكان في تقاليدنا في تلك العصور من كسوة الكعبة ، وعادة نسج الخلع ما عاونت على شيوع هذه الحرفة بل وتجاوزها في كثير من الأحيان كما تشهد بذلك قطع النسيج الاسلامية المعروضة في المتحف والفضل في ذلك راجع الى الدور الذي لعبته « دور الطراز » أو بعبارة أوضح «مصانع الحكومة للنسيج التي انتشرت في طول البلاد وعرضها وكانت تستخدم أمهر

ولقد ساهم أجدادنا في العصور الوسطى في نشر الحرير في مشارق الأرض ومغاربها ، وقد ازدهرت تجارته في تلك العصور ، ولعبت الاسكندرية دورا هاما في هذه التجارة اذ كانت هي التي تحدد أسعاره في العالم المتحضر حينئذ

الطنافس

وهناك صفحة من عظمة مصر في الصناعة حولها النسيان ، وكشفت عنها البحوث الأثرية هي شهرة مصر في العصور الوسطى في صناعة

بالإسمه ذات العين أو الطاس كما يسمى أن يسمى. وقد كانت صناعة أكثر منافس لبلاد العجم في هذه الصناعة، وأحدثت بالقطاعات بحيث هذه الصناعة عندنا منذ العصر العباسي، واستمرت كذلك حتى العصر المملوكي الذي بلغت فيه ذروة نضوجها (الصورة رقم ٣٨) والأمثلة القيمة الموزعة بين متاحف أوربا لا سبيل إلى ليتما للمهد بعد التصوع، وإن عندنا بالقاهرة مثال منها يقل في أهميته وجماله عن تلك الأمثلة التي لميض في دار الغربة، وتؤدي لنا هناك رسالة عظيمة إذ هي في الواقع سفير صادق يكشف للغير عن مجدنا وحضارتنا في العصور الوسطى

المعـــادن

ولقد سرنا في صناعة المعادن في العصور الوسطى على النهج القديم الذي كان يسير عليه أجدادنا من قبل ولكننا أضفنا إلى طرق الزخرفة القديمة من حفر غائر أو بارز، أو تخريم، أو ترصيع بالمينا، طريقة جديدة هي طريقة التكفيت أي تطعيم الأواني بالذهب أو بالفضة أو بهما معاً — التي ابتكرها أجدادنا من المسلمين، وقد شاعت هذه الطريقة، ونقلها الأوربيون عن أجدادنا، ويمكن أن نشاهد في المتحف الإسلامي عندنا أمثلة مصرية إسلامية، وأمثلة قد صنعت في إيطاليا تقليداً لهذه التحف الإسلامية حتى

تقدير مدى الفرق بين عمل الأستاذ وعمل التلميذ

ويلاحظ أنه لم يصل إلينا من التحف

٣٩- تمثال صغير من البرونز وجد في خرائب الفسطاط - بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

تمثال من جرونز من العصر الفاطمي موجود الآن في مدينة بيزا بايطاليا

معدنية إلا القليل [illegible] صنعتهم
الأواني المعدنية كما تشهد بذلك [illegible] التي
[illegible] وفي المتحف الإسلامي
بالقاهرة بعض [illegible] من الكفت المصنوعة من
البرنز (الصورة رقم ٣٨، ٣٩) [illegible]
برنزي من هذا العصر موجود في مدينة ميرا
[illegible] وهو يمثل حيوانا له جسم [illegible]
[illegible] زخارف محفورة [illegible] كتابات
عربية (الصورة رقم ١١) وقد [illegible] الفني في
عصر المماليك كما يشهد المقريزي
بالأواني المعدنية، وفي المتحف مجموعة فيه
من هذا العصر تتمثل في [illegible] والشمعدانات
والأباريق والأواني، ونخص بالذكر منها
كرسي (مائدة صغيرة) من عصر السلطان
الناصر محمد بن قلاوون (الصورة رقم ٦)
ودواة من عصر [illegible] السلطان (الصورة
رقم ٧)، وكلاهما من أروع التحف [illegible]
في العالم

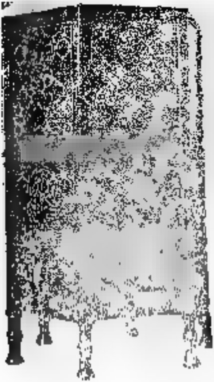

كرسي (مائدة صغيرة) من النحاس المكفت بالفضة من عصر المماليك – بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

[illegible] من النحاس المكفت بالفضة من العصر المملوكي

وإذا كانت التحف المعدنية التي وصلت الينا قليلة كما ذكرنا فان التحف المصنوعة من الفخار والخزف كثيرة لا تحصى ولا عجب في ذلك ، فالأواني من الطين مصيرها والنسبة لا يبقى مهما تقادم عهدها .

وصناعة الأواني من الفخار عريقة في القدم ، أتقنها أجدادنا الفراعنة فأخرجوا لنا أواني فخارية جميلة ، وابتكروا الخزف أي الفخار المطلي بطبقة زجاجية ، وحذقوا صناعته ، وعلموها غيرهم من الأمم .

والملاحظ أن صناعة الأواني الفخارية والخزفية في العصور السابقة على الاسلام لم تكن موضع رعاية الحكام والملوك لأن هؤلاء قد اتخذوا معظم أوانيهم من الذهب والفضة والبرنز ، وعندما ظهر المسلمون على مسرح التاريخ لم تشهد هذه الصناعة في أول الأمر تطوراً يذكر ، ويظهر أن الصناع الأمويين في الشام قد ساروا على نهج صناع الأواني الساسانية والبيزنطية ففضلوا استعمال الأواني المعدنية على غيرها ، أما في العصر العباسي فقد تغير الحال ، اذ كان من أثر تبادل الرحلات والتجارة بين البلاد الاسلامية وبلاد الصين أن وجدت الأواني الخزفية الصينية طريقها الى أسواقنا ، وأصبح لها مكانة ممتازة بين السلع المختلفة مما حمل على تقليدها وقد نجحنا في هذا التقليد نجاحاً باهراً تجلى في « خزف الفيوم » الذي نشاهد منه أمثلة جميلة في التحف الاسلامي ثم تقدم من مرحلة التقليد الى مرحلة الابداع وكان بعض الأحاديث النبوية التي كرهت الناس في استعمال الأواني المصنوعة من الذهب والفضة أثر واضح في هذا الابتداع فظهر نوع جديد من الخزف لم يعرفه الشرق القديم ولا الصين نفسها ، له بريق كبريق الذهب هو المعروف « بالخزف ذي البريق المعدني » الذي رأيناه لأول مرة في العصر الطولوني (ولا يستبعد أن تكون الفكرة قد أتت الينا من العراق مع أحمد بن طولون) ، والتوفيق في صنعه في العصر الفاطمي فوصلنا به الى درجة سامية يؤمن بها كل من يشاهد الأمثلة الفاطمية المعروضة من هذا الخزف في التحف الاسلامي (الصورة رقم ٤٣) .

وقد سار انتاجنا في شتى أنواع الخزف يتقدم عبر العصور ، وأبدعنا في عصر المماليك أنواعاً جديدة منها ما هو مبتكر (الصورة رقم ٤٤) ومنها ما هو تقليد لأنواع شتى من خزف الصين (الصورة رقم ٤٥) وخزف ايران .

وقد عرفنا الكثير من أسماء الخزافين الذين عاشوا في العصر الفاطمي أو العصر المملوكي ولكن معرفتنا بهم لا تتجاوز أسماءهم المنقوشة على الأواني التي صنعوها .

وفي خلال عصر المماليك ظهرت صناعة القراميد أو ألواح القاشاني ، التي تستعمل في تكسية الجدران ولا نزال نشاهدها ماثلة في بعض مساجد المملوكية (الصورة رقم ٤٦) .

وبه [illegible] نصير [illegible] مما يمكن أن
[illegible] بين حين وحين تكشف لنا
عن [illegible] الأحداث في العصور الوسطى
[illegible] الفني ، وحرصوا على أن
يطبعوا على كل ما أخرجته أيديهم طابعاً
عربياً يتميز [illegible] في العصور [illegible]

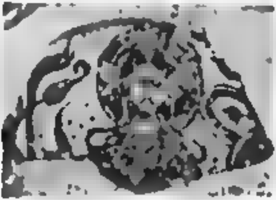

(مستخرج من الخزف ذي البريق المعدني به صورة [illegible] بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)

[illegible] الفني [illegible] على [illegible] آنية [illegible]
المصنوعة من [illegible] ، وآنية [illegible]

(آنية من الخزف [illegible] بلاد الشام في العصر المملوكي - بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)

(آنية من الخزف [illegible] من العصر المملوكي بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)

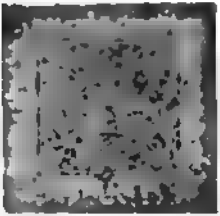

(بلاطة من القاشاني من العصر المملوكي بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)

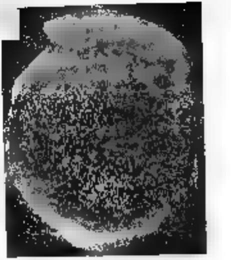

٤٧ ـ شباك قلة من الفخار بالمتحف الاسلامي بالقاهرة

من الطين ، هذه القطعة الرخيصة ليست سوى « قلة » من الفخار لفنى الفخراني في زخرفة شبابيكها (الصورة رقم ٤٧) فتنتزع الاعجاب من كل من يراها .

الزجاج

ولقد كانت صناعة الزجاج مزدهرة في مصر منذ عصر الفراعنة ، وكانت مدينة الاسكندرية في عصر البطالمة والرومان والبيزنطيين من أعظم مراكز صنعه في العالم ، وقد حافظت مصر في العصور الوسطى على هذه المكانة ، ولا عجب فقد أدرك أجدادنا منذ البدء الدور الذي يلعبه الزجاج في التحف ، فأثنوا على صنعه ، وأشادوا في كتب الأدب بما له من مزايا على غيره من المواد ، فقالوا انه لا يصدأ ، ولا يحترق ، ولا يمسه وسخ ، وإذا انسكب فالماء وحده ينظفه ، ومتى غسلت بالماء عادت جديدة ومن يشرب فيها فكأنما يشرب في اناء وماء وهواء وضياء

وفي العصر الطولوني أخذ القسطاط مكان الصدارة في صناعته ، وأمدتنا حفائره بكثير من القطع الزجاجية ومن القنينات الصغيرة ذات الأشكال المختلفة العجيبة ما يدل على أننا قد سرنا بهذه الصناعة الى الأمام خطوات واسعة (الصورة رقم ٤٨)

وفي العصر الفاطمي استمرت عجلة التطور تدور ، وقد أثبت ذلك الرحالة ناصري خسرو اذ قال انه كان يصنع بمصر زجاج شفاف عظيم النقاوة ، وقال أيضا ان التجار في مصر كانوا يستحون المشترين أوانى من الزجاج لكي يضعوا بها السلع التى اشتروها مما يدل على انتشار صناعة الزجاج وشيوعها ، وقد ابتكرنا في هذا العصر « الزجاج ذا البريق المعدنى » وأضفنا الى هذا الابتكار ابتكارا جديدا اهتدينا اليه في العصر الأيوبي هو « الزجاج المموه بالمينا » الذى وصلنا فيه الى ذروة الاتقان في العصر المملوكي (الصورة رقم ٤٩) ومصابيح الزجاجية أو « المشكاوات » كما تسمى عادة التى يزخر بها متحف الفن الاسلامي (الصورة رقم ٥٠) هي خير ما يعرض علينا جمال هذه الطريقة التى ابتدعناها لزخرفة الزجاج في العصور الوسطى ، والتي نقلها عنا الايطاليون وقلدونا فيها تقليدا نراه في معرض التحف المعروضة بقاعة الزجاج في المتحف الاسلامي

٤٨ - آنيـــة من
زجاج من العصر
الطولوني بالمتحف
الاسلامي بالقاهرة

٤٩ - دورق من
الزجاج المموه بالمينا
من العصر الايوبي
بالمتحف الاســلامي
بالقاهرة .

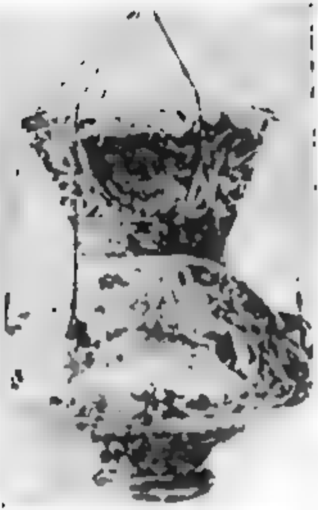

[illegible]

فن الكتاب

ونحن نود ما نعرض له هذا العرض السريع للجانب الفني من حياة مصر الإسلامية هو ما كان لأجدادنا في العصور الوسطى من فضل عظيم على فن الكتاب ، أي في إخراج الكتاب في الصورة التي ... الأدب ، وهو في منتصف القرن ... تتصل بالورق التي كان يكتب عليها ، والخط الذي كان يكتب به ، والصورة التي توضح موضوع الكتاب ، والتذهيب والتجليد

وقد كتب أجدادنا على الحجر والخشب وعلى الفخار والعظم وعلى الكتان والجلد ، وفي معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة أمثلة كثيرة لذلك ، على أن أهم ما استخدم للكتابة عليه هو البردي والرق والورق ، والبردي نبات كان ينبت بكثرة في مصر ، وقد لعب في العصور القديمة والعصور الوسطى الدور الذي يلعبه الورق في عصرنا الحاضر ، ولم يكن غير مألوف في كتابته ، والكتاب المصنوع منه كان يتكون في معظم الأحيان من صحائف يلصق بعضها إلى بعض بحيث يتكون من ذلك شريط طويل يستطيع الشكل يلف ليصبح في شكل الأسطوانة ، وقد كانت الصفحة الأولى في هذا الملف أكثر سمكا من الصفحات الأخرى لأنها كانت تغطي الملف وتكون له بمثابة غلاف

ولكن سرعان ما اتخذ الكتاب شكلا آخر غير شكل الملف هو الشكل الذي نراه عليه الآن وذلك في الفترة عندما استعمل الرق (وهو ما اتخذ من جلد الحيوان لا سيما الضأن والغزال) للكتابة عليه ، إذ كان جمع الرقوق المختلفة بعضها إلى بعض يحتاج إلى غلاف يمسكها ، ويحفظها من التلف ، فوضعت بين لوحين من الخشب وقد عني أجدادنا قبل الإسلام بزخرفة هذه الألواح الخشبية ، وتحليتها بالعاج والصدف والأحجار الكريمة، ثم خطوا بعد التطور خطوة جديدة حيث استعملوا عوضا عن الألواح الخشبية قطعا من البردي قد أحكم لصقها بعضها إلى بعض حتى تصبح كأنها الورق المقوى (الكرتون) ثم كسوها بالجلد ، وزخرفوا هذا الجلد وهذه الطريقة تكون نفس الطريقة التي تتبع اليوم في تجليد الكتب

واختراع الورق ، ثم استعماله بدلا من الرق ، لم يحدث تغييرا في صناعة التجليد التي ظلت تسير على نهجها القديم ، على أنها تستحق أن نسجل لأجدادنا في العصور الإسلامية فضل التقدم بهذا الأسلوب خطوة جديدة في هذه الناحية هي ابتكار ... اللسان ،

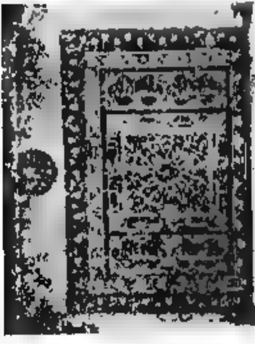

• الصفحة الأولى من مصحف السلطان شعبان ... سلطان المماليك — في معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة

الذي يحوي بحسب الأطراف الأمامية للصفحات . وإذا كنا قد فقدنا صناعة تجليد الكتب من البيزنطيين عند غلبتهم عليها (١) للإيطاليين في البندقية ومن هناك نقلها إلى الأوربيين .

وقد عني أجدادنا بالعناية بالمكتبات في كل عصور حياتهم عناية عظيمة ، ومكتبة الإسكندرية الشهيرة ، ومكتبات الأديرة والكنائس والمساجد خير شاهد على ذلك ، ولولا الفتن والاضطرابات الداخلية لوصلت لنا أمثلة كثيرة من كتبهم التي ساهم في عملها الخطاطون والمذهبون والمصورون والمجلدون ، ولكن القليل الذي وصل إلينا والذي نستطيع أن نراه بالمتحف القبطي وفي المجموعة الرائعة بدار الكتب المصرية يعوضنا بعض العوض .

والواقع أن « فن الكتاب » قد بلغ ذروة نضجه في عصر المماليك ، كما تشهد بذلك المصاحف الجميلة المعروضة في دار الكتب . (صورة رقم ٥١)

فهرس

سلسلة تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليونانى والرومانى والعصر الإسلامى

المجلد الثانى

القسم الأول

صفحة

العصر اليوناني والروماني والعصر الاسلامي للدكتور ابراهيم نصحي

مصر في عصر البطالمة ـ

الفصل الأول ـ دولة البطالمة ٤
الفتح المقدوني ٤
الاسكندر في مصر ٤
مولد بطلميوس ٥
قيام دولة البطالمة ٦
تفكك الامبراطورية المقدونية ٧
بناء امبراطورية البطالمة ٨
بداية النهاية ١١
زوال امبراطورية البطالمة ١٢
صحوة الموت ١٣

الفصل الثاني ـ ادارة الحكم ـ السلطة المركزية ـ الملك ـ الوزراء ١٦
المدن الاغريقية ١٧
الاسكندرية ١٨
نقراطيس ـ بطلمية ٢٢
السلطة المحلية ـ ثروات البطالمة ـ الجيش ٢٣
الاسطول ٢٦
الشرطة ٢٧

الفصل الثالث ـ سياسة البطالمة الدينية ـ البطالمة والمصريون ـ اتخاذ سياسة للرعاية ـ
احترام الديانة المصرية ٢٨
موقف البطالمة من الكهنة المصريين ٢٩
البطالمة والاغريق ـ عبادة البطالمة عبادة اغريقية أساسية ٣
احترام الديانة الاغريقية ٣
الاغريق والديانة المصرية ٣٤
البطالمة وعناصر السكان الاخرى ـ اليهود ـ الفرس ٣٥
عناصر أخرى ـ ديانة سرابيس ٣٦

الفصل الرابع ـ السياسة الاقتصادية ـ الزراعة ٣٩
الصناعة ٤١
التجارة ٤٢

صفحة

التعـــــــدين ٤٧

الفصل الخامس – النظام المالي – الإدارة المالية ٥٠

نظام الأراضي – أرض الملك ٥١

أرض المعابد – الأرض الممنوحة ٥٢

الإقطاعات العسكرية ٥٣

أرض الهبات – أرض الأملاك الخاصة ٥٤

نظام المستعمرات والقرى – صناعة البردي ٥٥

صناعة النسيج – المصاريف المالية ٥٦

نظام التجارة – التجارة الداخلية ٥٧

التجارة الخارجية ٥٨

ضرائب شتى ٦٠

نظام جباية الضرائب ٦١

الفصل السادس – القضاء – القانون المدني – الأحوال الشخصية ٦٢

الأحوال المدنية ٦٤

القانون الجنائي ٦٦

الهيئات القضائية – محاكم المصريين – محاكم الإغريق ٦٧

المحكمة المختلطة ٦٨

محاكم القضاء الخاص ٦٩

الفصل السابع – الحياة الاجتماعية – الإغريق – حالتهم في عهد البطالمة الأوائل ٧٠

علاقتهم بالمصريين ٧١

حالتهم في عهد البطالمة الأواخر ٧٢

علاقتهم بالمصريين ٧٣

سمات الإغريق ٧٤

حضارة إغريق مصر ٧٤

المصريون – طبقات وسمات مصرية مختلفة ٧٥

الحضارة المصرية ٧٨

الثقافة القومية ٧٩

الأسباب ٧٩

الثورات ٧٩

الأديان ٨٢

دار العلم ومكتبته ٨٢

صفحة

السحر ٨٣
الفلك ٨٤
التقويم ٨٥
الطب والجراحة ٨٥
علم الحيوان والنبات ٨٥
العلوم الرياضية ٨٦
الفنون والعمارة والمقابر ٨٧
المنازل والمعابد ٩٢
النحت ٩٤

مصر في عصر الرومان ـ للدكتور إبراهيم نصحي

الفصل الأول ـ مصر تصبح ولاية رومانية ١٠٨
الفتح الروماني ١٠٨
سياسة أباطرة الرومان في مصر ١[illegible]

الفصل الثاني ـ أداة الحكم ١٢٤
السلطة المركزية ١٢٤
السلطة المحلية في القرنين الأول والثاني ١٢٥
المدن الإغريقية ١٢٩
التعديلات التي أحدثت في القرن الثالث ١٣٠
الشرطـة ١٣٢
الجيش الروماني ١٣٣

الفصل الثالث ـ السياسة الدينية ١٣٥

الفصل الرابع ـ السياسة الاقتصادية ـ الزراعة ـ الصناعة ـ التجارة ١٤٠
النقـود ١٤[illegible]
المصارف ١٤٢
حالة البلاد الاقتصادية ١٤٣

الفصل الخامس ـ النظام المالي ـ الإدارة المالية [illegible]
تطور النظام المالي ١٥[illegible]
ضرائب الأراضي ١٥[illegible]
الحرف والصناعات ١٥٨
التجارة ـ التجارة الخارجية ١٦٢
التجارة الداخلية ١٦[illegible]

	صفحة
ضرائب شتى	١٦٥
نظام حكومة العرب	١٦٨
الفصل السادس – النظام القضائي	١٧٠
القضاء المدني	١٧١
الأحوال الشخصية	١٧١
الأحوال المدنية	١٧٢
القانون الجنائي	١٧٣
العقوبات الجنائية	١٧٣
الفصل السابع – الحياة الاجتماعية	١٧٥
عدد السكان وحالتهم	١٧٥
طبقات السكان	١٧٦
الأعراب وضعهم وشمائلهم	١٧٦
حضارة الأعراب	١٨٠
اليهود	١٨٢
المصريون وعاداتهم	١٨٤
حضارة المصريين	١٨٥
ثورات المصريين	١٨٦
الفصل الثامن – الآداب والعلوم والفنون	١٨٧
الآداب في دار العلم (الجامعة) بالقاهرة	١٨٧
الشعر	١٨٩
النثر	١٨٩
النجوم	١٩١
الطب والجراحة	١٩١
العلوم الرياضية	١٩٢
الفنون	١٩٣
فن المعمار	١٩٣
القصور	١٩٣
[illegible]	١٩٤
المنشآت العامة	١٩٤
المساجد	١٩٥
فن النحت	١٩٥

صفحة

من دقلديانوس الى دخـــول العرب - للدكتور مراد كامل

مقـــدمة ١٩٧

من دقلديانوس الى هرقل ١٩٧

دقلديانوس ١٩٧

من قسطنطين الى ثيودوسيوس ١٩٨

اسرة يوستنيانوس ١٩٩

الحالة التشريعية ١٩٩

الاصـــلاحات الداخلية ٢٠٠

الحالة الاقتصادية في عهد يوستنيانوس ٢٠١

خلفاء يوستنيانوس ٢٠١

هرقـــل ٢٠٢

النظام الادارى والمالى ونظام الجيش والحالة الاقتصادية في مصر في العصر البيزنطي ٢٠٣

النظام الادارى ٢٠٣

الجيش ٢٠٥

النظام المالى ٢٠٥

الحالة الاقتصادية ٢٠٦

الفصل الاول - الحياة السياسية ٢٠٩

الصراع مع الاباطرة الوثنيين ٢١٠

الصراع مع الاباطرة المناصرين للهراطقة ٢١٢

هرطقة اريوس ٢١٣

اثناسيوس وجهـــاده ٢١٤

فترة هـــدوء ٢١٧

الأنبا كيرلس وبداية عصر ٢١٧

الصراع مع الاباطرة المناصرين لبابا روما ٢١٨

بدء انقسام الكنيســـة ٢٢٠

ثورة عامة ٢٢١

عودة الاضطهادات ٢٢٣

الفصل الثاني - الحيـــاة الفكرية ٢٢٦

مراحل تطور اللغــة المصرية ٢٢٦

اللغة المصرية القديمـــة ٢٢٦

اللغة المصرية الحديـــثة ٢٢٧

اللغة المصرية المتوسطة ٢٢٦

	صفحة
الديموطيقية	٢٢٦
القبطية	٢٢٦
السهم	٢٢٧
الخط الهيروغليفي	٢٢٧
الخط الهيراطيقي	٢٢٨
الخط الديموطيقي	٢٢٨
الخط القبطي	٢٢٨
اللهجات القبطية	٢٢٨
لهجات مصر السفلى	٢٢٨
لهجات مصر العليا	٢٢٨
انحصار اللغة القبطية	٢٢٩
أثر اللغة القبطية خارج مصر	٢٢٩
اللغة القبطية وأثرها على العربية	٢٣٠
الفصل الثالث ـ الحياة الفكرية	٢٣٢
الابداع العقلي والفلسفة	٢٣٢
الحالة الفكرية وقت ظهور المسيحية	٢٣٢
الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية	٢٣٣
الفلسفة الغنوصية	٢٣٤
الغنوصية وتاريخها ومدارسها	٢٣٤
فالنتينوس	٢٣٥
الوثائق القبطية	٢٣٥
الغنوصيون الارثوذكس	٢٣٥
الافلاطونية الحديثة	٢٣٦
امونيوس سكاس	٢٣٦
مدارس الاسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافي	٢٣٧
الحاجة الى انشاء هذه المدرسة	٢٣٧
تاريخ المدرسة وشهرتها	٢٣٨
... هم من نابغيها	٢٣٩
كلمنضس الاسكندري	٢٤
اوريجانوس	٢٤
ديديموس الضرير	٢٤٢
باقي الأساتذة	٢٤٣

	صفحة
العلاقة بين القبطية والعربية والمسيحية	٢٤٣
الانتاج الفني والأدبي لمقاومة شعبية	٢٤٥
الانتاج المسيحي	٢٤٥
صناعة الورق	٢٤٧
تاريخ الكنيسة	٢٤٨
تاريخ بطاركة الإسكندرية	٢٤٨
المصادر التاريخية لسير البطاركة	٢٤٩
يوحنا النيقيوسي	٢٤٩
ساويرس بن المقفع	٢٤٩
الأنبا ميخائيل أسقف تنيس	٢٤٩
الأنبا يوساب أسقف فوه	٢٥٠
استكمال	٢٥
تاريخ المجامع	٢٥٠
مجامع محلية	٢٥٠
مجامع المدينة الإسكندرية	٢٥
يوحنا النيقيوسي	٢٥١
الانتاج الأدبي والفلسفة الشعبية	٢٥٢
ترجمة الكتاب المقدس	٢٥٢
أقوال الآباء	٢٥٢
سير القديسين	٢٥٢
القصص	٢٥٣
الإصلاح الاجتماعي	٢٥٣
أمراض الجسد	٢٥٣
الشعر	٢٥٣
الطب	٢٥٤
محنة الأدب	٢٥٤
أقوال الآباء الرهبان وسيرهم	٢٥٥
كتابات الآباء اللاهوتية	٢٥٥
أقوال الآباء في السياق	٢٥٦
ضياع المعالم والمخطوطات القبطية	٢٥٧
الفصل الرابع – الحياة العامة	٢٥٩
الفنون القبطية	٢٥٩
الصفات العامة للفن القبطي	٢٥٩

صفحة

في [illegible]	٢٥٩
في [illegible]	٢٦
في [illegible]	٢٦
[illegible]	٢٦
[illegible]	٢٦
في [illegible]	٢٦١
في يستخدم الاشكال الهندسية والزخرفية	٢٦
صور من الفنون القبطية	٢٦١
العمارة	٢٦١
التصوير	٢٦٣
النقش على الحجر والخشب	٢٦٤
المنسوجات	٢٦٤
الفنون الصغرى	٢٧٢
العاج والتجليد	٢٧٥
خاتمة	٢٧٥
الرواسب الفنية	٢٨٠
الموسيقى والألحان	٢٨
الفصل الخامس – الحياة الاجتماعية	٢٨٤
مركز المرأة في الحياة المصرية	٢٨٤
الأسرة	٢٨٨
العادات	٢٩٢
الأصوام	٢٩٥
الأعياد	٢٩٦
المسرات	٢٩٧
التقويم القبطي	٢٩٩
قيمة التقويم المصري	٣٠١
شهر توت	٣
شهر بابه	٣ ٢
شهر هاتور	٣ ٢
شهر كيهك	٣ ٣
شهر طوبة	٣ ٢
شهر امشير	٣٠٣

	صفحة
شهر برمهات	٣٠٢
شهر برموده	٣٠٢
شهر بشنس	٣٠٢
شهر بؤونه	٣٠٢
شهر أبيب	٣٠٢
شهر مسرى	٣٠٢
الدولة الرومانية والتقويم المصري	٣٠٣
تطور التقويم المصري إلى القبطي	٣٠٣
افتراض التقويم القبطي	٣٠٣
التقويم القبطي المصري	٣٠٤
العصور القبطية	٣٠٤
التقويم الأنبوبي	٣٠٥
الرهبنة بدؤها في مصر	٣٠٥
أطوار الرهبنة	٣٠٦
التوحد	٣٠٦
القديس أنطونيوس	٣٠٦
الرهبنة الاجتماعية	٣٠٧
القديس مكاريوس	٣٠٧
الرهبنة الديرية جماعة مشتركة	٣٠٨
الأب باخوميوس	٣٠٨
نظام الأب شنودة	٣٠٩
آثار الرهبنة	٣١٠
التربوية	٣١١
الاجتماعية	٣١١
انتشارها في بلاد العالم المسيحي	٣١٦
في الشرق	٣١٢
في السودان	٣١٦
في الغرب	٣٠٥
فهرس أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الإسكندرية من عصر بطليموس	
في عصر العرب	٣٠٧
الأباطرة الرومان	٣٠٧
أباطرة العصر البيزنطي	٣٦٧

صفحة

أسرة قسطنطين ... ٣١٧
أسرة تيودوسيوس ... ٣١٨
أسرة ليو ... ٣١٩
أسرة يوستنيانوس ... ٣١٩
أسرة هرقل ... ٣٢٠

القسم الثاني

العصر الإسلامي :

تاريخ مصر من الفتح العربي الى أن دخلها الفاطميون ـ بقلم الدكتور حسين مؤنس

الفتح العربي لمصر ... ٣٢٣
مشكلات تتصل بالاعلام ـ المقوقس ... ٣٢٥
سير الفتح ... ٣٢٩
بابليون ومصر ... ٣٣٢
موقعة عين شمس (بابليون) والاستيلاء على الحصن ... ٣٣٥
معاهدة بابليون ... ٣٣٨
استكمال فتح الوجه البحري والصعيد والفيوم ... ٣٤٠
فتح الاسكندرية ... ٣٤١
مصر جزء من الدولة الاسلامية ... ٣٤٣
العشرتان الأموية والعباسية ... ٣٤٨
الادارة ... ٣٤٨
شئون المال ... ٣٥٢
الاسلام والتعريب ... ٣٦٣
الأحوال العامة ... ٣٧٢
الزراعة والصناعة والتجارة ... ٣٧٢
الفسطاط والجيزة ومنازل العرب في الاسكندرية ... ٣٧٦
أهم أحداث مصر من الفتح العربي الى قيام دولة أحمد بن طولون ... ٣٨٠
دولة بني طولون ... ٣٨٨
أحمد بن طولون ... ٣٨٨
خمارويه وأبو العساكر وهارون بن خمارويه ... ٣٩٩
نظرة عامة على دولة بني طولون ... ٤٠٢
من الطولونيين الى الاخشيديين ... ٤٠٥
الاخشيديون ... ٤٠٦

صفحة

مصر في العصر الفاطمي ـ ملامح مصر في العصر الإسلامي الأول ـ للدكتور جمال الدين الشيال ٤١٨
من هم الفاطميون ٤١٩
الحزب الشيعي ٤٢١
نشأته وتطوره ٤٢٠
قيام الدولة الفاطمية في المغرب ٤٢٣
الخلفاء الفاطميون في المغرب ومصر ٤٢٥
الدولة الفاطمية في المغرب ٤٢٦
الفتح الفاطمي لمصر ٤٢٨
مصر في العصر الفاطمي ٤٣١
تأسيس القاهرة ٤٣٤
الجامع الأزهر ٤٣٥
العصر الفاطمي الأول عصر القوة والازدهار ٤٣٨
العصر الفاطمي الثاني عصر الضعف والانحلال ٤٤٤
انتهاء الدولة ٤٥٤
الدولة الأيوبية ـ للدكتور محمد مصطفى زيادة ٤٥٨
الدولة المملوكية الأولى ـ للدكتور محمد مصطفى زيادة ٤٨١
الدولة المملوكية الثانية ٥٠٨
الحياة الدينية في مصر الإسلامية (من ظهور الإسلام إلى مطلع العصر الحديث)
للأستاذ أمين الخولي
الدين والتدين ٥٢٩
التاريخ الحضاري ٥٣٢
ملامح الشخصية المصرية الدينية ٥٣٣
عمق الروح الدينية ٥٣٤
قوة الإيمان بالحياة الأخرى ٥٣٤
سماحة الأفق الديني ٥٣٥
مصر تتلقى الإسلام ٥٣٧
التحول غير سريع ٥٤١
روحية مصر في الإسلام ٥٤٣
حيوية مصر في الإسلام ٥٤٦
إسلام مصر بلا عنف ولا مغالاة اعتقادية ٥٤٨
مصر وراء الخلاف المذهبي ٥٥٣
الإسلام والمجتمع المصري ٥٥٦

الحياة الفنية فى مصر الإسلامية

من الفتح العربي الى الفتح التركي – للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق ... ٥٦١
العمارة (العصر ماقبل الطولوني) ... ٥٦٣
(العصر الطولوني) ... ٥٦٧
(العصر الفاطمي) ... ٥٦٩
(العصر الأيوبي) ... ٥٧٦
(العصر المملوكي) ... ٥٨١
المساجد ... ٥٨١
القباب ... ٥٨٢
المارستانات ... ٥٨٣
الخوانق ... ٥٨٥
القصور ... ٥٨٦
الخانات ... ٥٩٠
الأسبلة ... ٥٩١
الفنون الزخرفية ... ٥٩١
مواد البناء ... ٥٩١
الأخشاب ... ٥٩٣
التصوير ... ٥٩٤
المنسوجات ... ٥٩٦
الطنافس ... ٥٩٦
المعادن ... ٥٩٨
الخزف ... ٦٠٠
الزجاج ... ٦٠٣
فن الكتاب ... ٦٠٤

تاريخ الحضارة المصرية

المجلد الثاني

العصر اليوناني و الروماني
و العصر الإسلامي

تأليف

أمين الخولي * محمد مصطفى زيادة * إبراهيم نصحي * مراد كامل
حسين مؤنس * جمال الدين الشيال * محمد عبد العزيز مرزوق